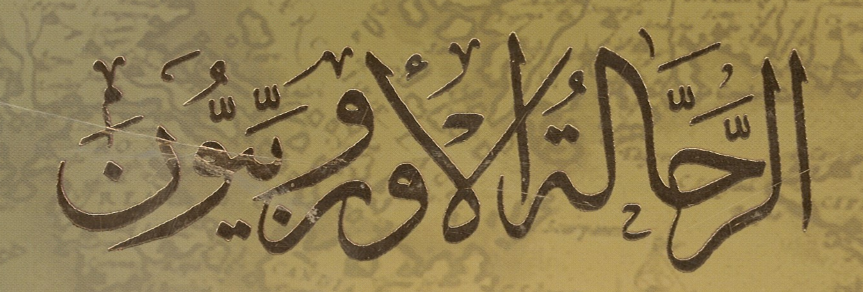


في شمال الجزيرة العربية
منطقة الجوف

١٨٤٥ - ١٩٢٢م

د. عوض البادي

نادي الجوف الأدبي الثقافي

الرحالة الأوروبيون

في شمال الجزيرة العربية
منطقة الجوف
١٨٤٥ - ١٩٢٢م

ⓒ نادي الجوف الأدبي الثقافي، ١٤٣٢هـ-٢٠١١/ م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

البادي، عوض

الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف (١٨٤٥-١٩٢٢م).

٥٦٠ ص؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٦-٦-٩٠٢١٧-٦٠٣-٩٧٨

١- رحالة أوروبيون ٢- منطقة الجوف، وصف ورحلات

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٤٢٨١

الطبعة الأولى

٢٠١١م - ١٤٣٢هـ



صندوق بريد ٢٥٠٥

سكاكا - الجوف - المملكة العربية السعودية

هاتف: ٦٢٥٧٠٤٢-٤-٩٦٦+ / فاكس: ٦٢٥٧٠٤٦-٤-٩٦٦+

http://www.adabialjouf.com

adabialjouf@gmail.com

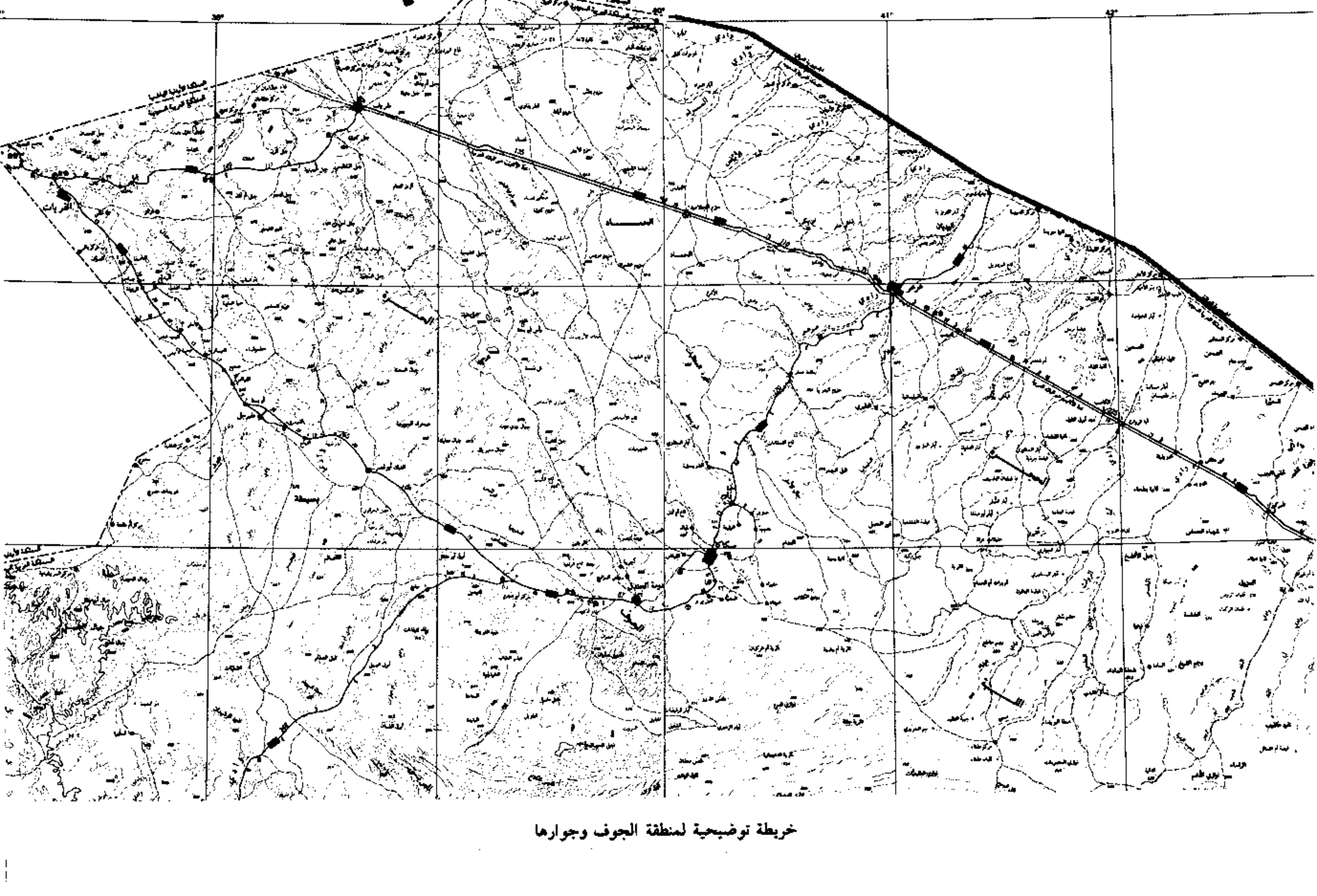
الرحالة الأوربيون

في شمال الجزيرة العربية
منطقة الجوف
١٨٤٥ - ١٩٢٢م

د. عوض البادي

نادي الجوف الأدبي الثقافي

المناطق الإدارية في المملكة العربية السعودية



خريطة توضيحية لمنطقة الجوف وجوارها

فهرس المحتويات



المقدمة

تكتسب كتابات الرحالة الأوروبيين في الجزيرة العربية أهمية خاصة بوصفها مصدرًا أوليًا من مصادر التأريخ لعدد من مناطق الجزيرة العربية في عصرها الحديث، ولا سيما المناطق الشمالية والوسطى منها، لافتقادها لمصادر محلية مكتوبة تؤرخ لأوضاعها وظروفها وتركيبتها السكانية وعلاقاتها بمحيطها، ولغلبة ثقافة البداءة الشفوية التي تتوارثها الأجيال، في أحيانٍ كثيرة، خارج سياقاتها الطبيعية زمنًا وموضوعًا.

ومنطقة الجوف في شمال الجزيرة العربية[١] وهي واحدة من مناطق المملكة العربية السعودية الإدارية الثلاث عشرة[٢]، منطقة تاريخية عريقة وموئلًا للاستقرار البشري منذ ما يزيد على ألفيتين من السنين. فالاستيطان البشري فيها يعود، كما هو معروف، إلى عصور سحيقة في القدم. وتدل على ذلك الشواهد الأثرية والنقوش القديمة المكتشفة حتى الآن، إلا أن السجل

(١) تقع منطقة الجوف في الجزء الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية، يحدها من الشمال والشرق منطقة الحدود الشمالية ومن الجنوب منطقة حائل ومنطقة تبوك ومن الشمال والغرب المملكة الأردنية الهاشمية بحدود دولية بطول خمس مئة كيل. وتقع بين خطي طول ٣٧°/ ٤٢° شرقًا ودائري عرض ٢٩°/ ٣٢° شمالًا. تقدر مساحة المنطقة بنحو ١٠٧,٧٩٤ كيلًا مربعًا، أي ما يعادل ٤,٩٪ من المساحة الإجمالية للمملكة، ويقدر عدد سكانها بما يقارب نصف مليون نسمة.

(٢) منطقة الرياض، ومنطقة مكة المكرمة، ومنطقة المدينة المنورة، ومنطقة القصيم، والمنطقة الشرقية، ومنطقة حائل، ومنطقة جازان، ومنطقة عسير، ومنطقة الباحة، ومنطقة تبوك، ومنطقة نجران، ومنطقة الجوف، ومنطقة الحدود الشمالية.

التاريخي للمنطقة يحتوي على فجوات عميقة تفصل بين عصور وأزمان مختلفة تجعل من المستحيل تكوين صورة متكاملة حول تاريخها. ولو أخذنا - على سبيل المثال - العهد الأشوري أو الفترة المبكرة من التاريخ الإسلامي لوجدنا معلومات مهمة عن المنطقة تسمح بتكوين صورة عنها في تلك الحقب. أما الفترات التي سبقت الأشوريين والفترة الممتدة من القرن السابع قبل الميلاد وحتى ظهور الدين الإسلامي؛ فإننا لا نجد معلومات تسمح بالجزم حول واقع المنطقة في تلك الفترة. وكذلك كانت الحال مع الفترة التي تلت ظهور الإسلام فبينما شهدت المنطقة أحداثًا مهمة في السنوات الأولى إلا إنها فجأة خرجت من التاريخ ولا توجد إلا إشارات قليلة بين حين وآخر غير كافية للبناء عليها لكتابة تاريخ ما يزيد على ألف عام، من القرن الأول وحتى القرن الثاني عشر الهجري.

وفي هذا السياق يمكن قول الشيء نفسه عن معظم مناطق الجزيرة العربية إذ إن انتقال الخلافة الإسلامية إلى دمشق أولًا وبغداد ثانيًا ثم توزع سلطة الخلافة على مراكز أخرى أفقد الجزيرة العربية أهميتها السياسية رغم استمرار أهميتها الدينية للإمبراطوريات الإسلامية كافة. أدت هذه العزلة السياسية إلى فقدان مناطق عدة من الجزيرة العربية ارتباطها الفعلي بالمراكز الحضارية، ولكنها بقيت اسميًا مرتبطة بها. ولم تكن منطقة الجوف استثناءً من هذا الوضع إذ فقدت أهميتها التاريخية السابقة رغم تبعيتها اسميًّا للمراكز الحضارية الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وإستانبول. ولكن كل الأدلة القليلة المتوافرة تؤكد بقاءها مركزًا من مراكز التجمع والاستيطان للقبائل العربية الرحل التي تجوب شمال الجزيرة العربية من جنوب دمشق شمالًا إلى حائل جنوبًا لموقعها المهم وسط هذه الصحراء الكبرى ولخصوبة أرضها ولوفرة مائها.

وهكذا ظلت المعلومات المتوافرة عن تاريخ قرون من تاريخ المنطقة نادرة جدًّا لا تسمح بكتابة حلقات هذا التاريخ حتى تغير الوضع في وسط الجزيرة العربية بدءًا من منتصف القرن الثامن عشر الميلادي/ الثاني عشر

الهجري إذ بدأت حركة الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقيام دولة مركزية اصطلح على تسميتها الدولة السعودية الأولى(١٧٤٤-١٨١٨). مع قيام هذه الدولة وامتداد نفوذها من قاعدتها نجد إلى شمال الجزيرة في أواخر القرن وتسجيل بعض المؤرخين لهذا الامتداد بدأت مرحلة جديدة يمكن الانطلاق من أحداثها للتأسيس لسجل تاريخي متصل الحلقات لمنطقة الجوف يغطي جزءًا من تاريخها الحديث والمعاصر. وحتى هذه الحقبة كان يمكن لها أن لا تختلف عن سابقاتها لولا ما وفرته كتابات الرحالة الأوروبيين من مادة أولية تغطي هذه الحقبة.

لقد توافد عدد كبير من الرحالة الأوروبيين على الجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي / الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الهجري، وكانت منطقة الجوف بوابة مجموعة منهم إلى وسط الجزيرة العربية إذ زارها عدد منهم خلال الفترة من ١٨٤٥ إلى ١٩٢٢. خص أحد عشر رحالة منهم هذه المنطقة بالكثير من المعلومات التي تصف جغرافيتها وتصف أحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتركيباتها السكانية، حاضرة وبادية إما في كتب نشروها أو محاضرات عامة ألقوها في المنتديات والجمعيات الجغرافية في أوروبا، أو في تقارير خاصة قدموها إلى دولهم أو الجهات المموِّلة لرحلاتهم.

يقدم هذا الكتاب الرحالة الأوروبيين الذين زاروا منطقة الجوف ونصوصهم حولها، حيث يعرّف بالرحالة وخلفيته وأهداف رحلته، ثم يورد النص المعرب الذي قدمه الرحالة وتحقيقه ما أمكن ذلك، دون تدخل في معنى النص أو مبناه إلا ما تطلبته عملية تحرير النص[١].

---

(١) سبق أن قدمت نصوص هؤلاء الرحالة في كتاب سابق كان قد جاء بعنوان: **الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف ووادي السرحان (١٨٤٥-١٩٢٢)** وصدر في طبعتين، الأولى سنة ١٩٩٨، والثانية سنة ٢٠٠٢، وقد قدمت كنصوص خام للفت النظر إليها ولأهميتها وليستفيد منها الباحثون كل في مجاله. وإذ لاقت هذه النصوص اهتمامًا من قبل المهتمين من المستويات كافة في المجتمع لأنها تتعلق بأوضاع تهم الجميع، فقد برزت الحاجة لإعادة نشر هذه النصوص مجددًا بعناية علمية أكثر من حيث التحقيق ووحدة المنهج والشمولية وكذلك التوسع في =

وهنا لابد من الإشارة إلى أن القارئ سيجد تفاوتًا واختلافًا بل وتناقضًا في بعض النصوص والآراء والانطباعات التي سجلها كل رحالة. وسيجد أيضًا ما لا يرضيه أو يتوافق وقناعاته الشخصية بل ربما وقف على ما يثير غضبه وحنقه، وما سيرى أنه يسيء إليه وإلى قيمه وإلى نظامه الاجتماعي وحتى معتقداته. ولذلك ينبغي أن أشير إلى التالي:

أولًا: إن ما يقدمه هؤلاء الرحالة من معلومات وآراء تعبر عنهم وترسم انطباعاتهم وتعبر عن ميولهم، لذلك لا ينبغي أن ينظر إليها على أنها حقائق لا تقبل الدحض والمناقشة، أو أخذ ما يورده بعض الرحالة استنادًا إلى مرجعياتهم الدينية والحضارية والثقافية، وإلى أهداف رحلاتهم، حول أوضاع معينة أو أشخاص أو جماعات في كتاباتهم، على أنه مرجعية موثوقة لتقييم تلك الأوضاع أو الأفراد أو الجماعات، أو تعميم للأحكام حولهم. فهم أحيانًا يعممون مقولات أو آراء لا تستند إلا إلى تجربة فردية واحدة، وهذا فيه جور على الحقيقة، ويقدمونها على أنها أحكام عامة. وحكمنا هذا أيضًا لا ينبغي تعميمه على كافة الرحالة. فمنهم العالم الذي يسعى لخدمة العلم، وامتازت كتابته بالموضوعية والإنصاف، ومنهم التاجر أو السائح المحايد الذي يصف ما يراه، خلال إقامته القصيرة، دون إصدار أحكام أو تعميمها. ومنهم الجاسوس الذي يقصر إسهامه على انطباعات لا تصمد أمام الحقائق، ومنهم المغامر المتعصب الذي لا يرى شيئًا إلا وأصدر حكمًا عامًّا عليه وربطه بديننا وثقافتنا وعقليتنا، ومنهم الدبلوماسي الذي قصر ملاحظاته على ما كانت عليه أهداف رحلته... إلخ.

ثانيًا: لا يعني تقديم هذه النصوص بالمنهج المتبع أنني أتفق مع ما جاء فيها، وأقبله كحقائق، بل أختلف مع كثير مما جاءوا به، وأعده جورًا على الحقيقة؛ لأن بعضهم يذكر حالات أو يصف أوضاعًا ويصدر أحكامًا تخلو من الموضوعية والإنصاف؛ لأنه ينظر إليها خارج سياقها الاجتماعي.

= المعلومات الخاصة بكل رحالة، وإضافة ما ذكره رحالة آخرون لم يزوروا المنطقة حولها وحول أحداثها. وهذا ما آمل أن يكون قد تم في هذا الكتاب.

ثالثًا: إن ما كتبه الرحالة وسبق نشره لم يكتب لنا بل كتب بلغاتهم ولشعوبهم لتتعرف على الشعوب الأخرى، وعليه نجدهم يركزون على ما يرونه غريبًا بالنسبة لهم، ويقيمونه من خلال مرجعياتهم الدينية والحضارية، ومن خلال ذهنيتهم التي تقوم على هذه المرجعيات.

رابعًا: ينبغي للقارئ أن لا يتخيل أن ما سيقرأه ويصدمه كشف لأسرار لا يجب البوح بها، فهي نصوص منشورة ومعروفة، ويعود أحدثها إلى ما لا يقل عن تسعين سنة. وبعضها لا يزال دور النشر الغربية يعيد طبعه ويقرأه الملايين، وبعضها قد يكون سبق نشره أو قدم باللغة العربية. لذلك لا ينبغي أخذ الأمور بحساسية شديدة، وكأن ما هو مذكور في بعض هذه النصوص غير معروف لآخرين، كما أن عدم نشره الآن لا يعني عدم نشره مستقبلًا.

خامسًا: ينبغي للقارئ أن يأخذ في الحسبان السياق التاريخي والمرحلة التاريخية التي تتحدث عنها أو تصفها النصوص، وأن ما كان لا ينسحب بالضرورة على أوضاعنا الحالية أو أن الأوضاع باقية على حالها، فبلادنا خطت خطوات بعيدة في ميادين العلم والوعي والتنمية، وكثير من الظواهر والمظاهر التي كانت سائدة وتعدُّ سلبية، قد لا تكون موجودة اليوم. وعليه؛ فإن نظرتنا يجب أن تكون أبعد، ونعترف بحقيقة أننا كنا في مناطق كثيرة من الجزيرة العربية نعاني الجهل والأمية وتداعياتهما، وأن نحمد الله على أن أوضاعنا قد تغيرت، وأن نعدّ ما لا يعجبنا فيما يذكره الآخر عنا دافعًا لنا لنتعرف على مواطن ضعفنا لنعمل إن كانت لا تزال موجودة على تلافيها وتعزيز الإيجابي منها، لا سيما وأن نقاط الضعف هذه موجودة في صورتنا عند الآخر التي تشكلت عبر السنين بناءً على معلومات هؤلاء الرحالة، والمستشرقين الذين اعتمدوا على كتاباتهم. لذلك لا ينبغي أن نغفل هذا البعد عند قراءتنا لهذه النصوص، فمعرفتك للأسس التي تشكلت فيها صورتك عند الآخر تساعدك في تعاملك معه.

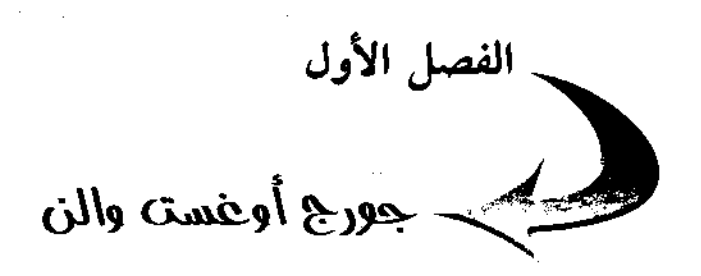
سادسًا: لا ينبغي، مهما تكن الشوائب في هذه الكتابات، أن نتعامل

معها بالعاطفة وعدم الموضوعية، فبدونها ستبقى صفحات كثيرة ومهمة من تاريخنا وتاريخ أوضاعنا مجهولة.

وأخيرًا؛ أترك للقارئ الكريم، أن يحكم بنفسه على ما قدمه هؤلاء الرحالة، وتقدير مدى أهميته التاريخية والعلمية والثقافية.

عوض البادي

الفصل الأول



جورج أوغست والن

يعدّ هذا الرحالة والمستشرق الفنلندي أول المكتشفين الأوروبيين الرواد الذين جابوا شمال الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي، وسجلوا ما رأوه وسمعوه وخبروه وقدموه في لغاتهم، وحفظوا بذلك ما نسيته الأجيال في مناطق عدة من شبه الجزيرة العربية عن تاريخهم القريب. وهو، علاوة على هذه المزية، يعدّ أكثرهم علمية وموضوعية حتى أن ديفيد جورج هوغارث، أحد مؤرخي تطور المعرفة الغربية عن الجزيرة العربية قال عنه: «مهما كانت دوافعه، فإن والن كان أحد أقدر الأوروبيين الذين وطئوا أرض الجزيرة، وكان مؤهلًا لمهمته. . . . ويعترف له المرء، وربما لأول مرة في تاريخ اكتشاف شبه الجزيرة العربية، بأنه مكتشف علمي من الطراز الحديث، فقد كان مُعدًّا بشكل كامل وعاقدًا العزم على ألَّا يترك شيئًا لأحد يمكن أن يأتي بعده»[١]. من هو يا ترى هذا الرحالة؟

ولد جورج أوغست والن (Yrjo Aukusti Wallin) في عام ١٨١١ في جزيرة أولاند (Åland Islands) الفنلندية[٢]، حيث كان يعمل والده في محكمتها. وفي عام ١٨١٧ انتقلت عائلته إلى مدينة توركو[٣]، العاصمة القديمة لبلاده، حيث

---

(١) David George Hogarth, **The Penetration of Arabia: Record of the Development of Western Knowledge Concerning the Arabian Peninsula** (New York: Frederick A. Stokes Co, 1904), p.161.

(٢) أرخبيل من الجزر في بحر البلطيق تابع لفنلندا.

(٣) تقع على الشاطئ الجنوبي الغربي لفنلندا؛ وهي مدينة رئيسة وأقدم المدن فيها. كانت عاصمة للبلاد =

بدأ تعليمه في مدرسة كنسية. وواصل دراسته في هذه المدينة حتى أنهى دراسته الثانوية، ثم انتقل إلى هلسنكي في عام ١٨٢٩ لتلقي تعليمه في جامعتها. ولمّا كانت الدراسة الجامعية في تلك المرحلة متنوعة المواد ولا تركز على تخصص محدد، فقد درس مواضيع متعددة، ولم يلفت نظر مدرسيه وزملائه بتفوقه الدراسي، ولكنه كان ناشطًا في الحياة الطلابية الجامعية حتى أنه كان أحد الطلاب الذين حرموا من الدراسة عام ١٨٣٤ لمشاركته في تجمع محظور. وقد عرف أيضًا بموهبته في تعلم اللغات الأجنبية محادثة وكتابة بسرعة، فبالإضافة إلى اللغتين السويدية والفنلندية اللغتين الرسميتين في بلاده كان يجيد، وهو في المرحلة الجامعية، اللغات: اللاتينية والفرنسية والروسية والإنجليزية والألمانية وبعضًا من العربية. وواصل دراسته وحصل على درجة الماجستير في الفلسفة عام ١٨٣٦. ثم بتأثير من أستاذ الأدب الشرقي في جامعة هلسنكي وصديقه البروفيسور جبرائيل جيتلين (Gabriel Geitlin)[١]، الذي كان يجيد اللغتين العربية والفارسية، واصل والن دراسة الدكتوراه متخصصًا في اللغات الشرقية، وحصل على الدرجة عام ١٨٣٩[٢]، وكان موضوع رسالته العلمية يتناول أوجه الاختلاف بين اللغة العربية الفصحى واللهجات العامية، وقد نشرت هذه الأطروحة في العام نفسه[٣]. وعيّن بعدها مباشرة محاضرًا للأدب الشرقي في جامعة هلسنكي.

ولمّا كانت مدينة سانت بطرسبورغ عاصمة الإمبراطورية الروسية حينها، أحد مراكز أوروبا الرائدة في الدراسات الشرقية، فقد كان الدارسون الفنلنديون

= حتى عام ١٨١٢ حينما حولت العاصمة إلى مدينة هلسنكي.

(١) جبرائيل جيتلين (١٨٠٤-١٨٧١) بدأ حياته الأكاديمية مدرسًا للغة الروسية في جامعة هلسنكي (١٨٢٦-١٨٣٤). ثم درس اللغات العربية والفارسية والتركية في معهد الدراسات الشرقية في سانت بطرسبورغ في روسيا. أصبح أستاذ كرسي اللغات الشرقية في جامعة هلسنكي من عام ١٨٣٥ إلى عام ١٨٤٩. له كتاب في قواعد اللغة الفارسية اللغة المفضلة عنده. تخلى عن وظيفته لمصلحة تلميذه والن الذي عين أستاذًا للدراسات الشرقية مكانه في عام ١٨٤٩. بعد ذلك عُيّن أستاذًا لتفسير اللاهوت في جامعة هلسنكي.

(٢) H. Holma, "Georg August Wallin 1811-1852", **Studia Orientalia** 17: 1, 1952, pp. 3-12.

(٣) "De praecipua inter hodiernam Arabum linguam et antiquam differentia"

يتجهون إليها للحصول على تعليم أفضل لا سيما وأن بلدهم أصبحت دوقية تابعة للقيصر الروسي منذ عام ١٨٠٩[١]. ولهذا رحل إلى هذه المدينة في عام ١٨٤٠، أولًا لبحث إمكانية التحاقه بالسلك الدبلوماسي الروسي، ثم للدراسة في معهد اللغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية الروسية. وحيث لم ينجح في هدفه الأول فقد نجح في الثاني، فانتقل من هلسنكي إلى سانت بطرسبورغ وبقي فيها مدة سنتين يدرس اللغات العربية والفارسية والتركية على يد أساتذة من أهل هذه اللغات، ويتابع محاضرات المستشرقين الكبار فيها. وكان لأستاذه في اللغة العربية هناك الشيخ الأزهري محمد عياد الطنطاوي[٢] أكبر الأثر في تشكيل شخصيته ومستقبله، وتطورت علاقتهما من علاقة طالب بأستاذه إلى علاقة صداقة شخصية دائمة، وكانت حواراتهما دافعًا لرغبته في الذهاب بنفسه إلى بلاد العرب للتعرف إليهم وإلى حضارتهم الإسلامية في مهدها[٣].

---

(١) كانت فنلندا تاريخيًّا جزءًا من مملكة السويد وتابعة لملكها، ولكن خلال الحرب الروسية السويدية (١٨٠٨-١٨٠٩) التي فقدت فيها السويد جزءها الشرقي الذي تشكله فنلندا، وتم احتلاله من قبل روسيا قبلت المناطق الفنلندية الخضوع للتاج الروسي فأعلنت دوقية مستقلة عام ١٨٠٩ضمن إمارات القيصر الروسي. بقيت فنلندا في هذا الوضع حتى استقلالها عام ١٩١٧.

(٢) محمد عياد بن سعد بن سليمان عياد الشافعي المرحومي الطنطاوي المولود سنة ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م في قرية نجريد من أعمال مركز طنطا. تلقى تعليمه الأولي في الكتاتيب في طنطا ثم في الأزهر وأصبح من مدرسيه. كان يدرس اللغة العربية للدبلوماسيين والمستشرقين الأوروبيين في القاهرة، وكان من الدبلوماسيين الذين تعلموا العربية على يديه اثنان من الدبلوماسيين الروس، وهما اللذان رشحاه لتدريس اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية الروسية في سانت بطرسبورغ. انتقل الطنطاوي في سنة ١٨٤٠ إلى سانت بطرسبورغ للعمل مدرسًا للغة العربية في المعهد، حيث تعرف على والن، واستمر في هذه الوظيفة حتى بداية سنة ١٨٤٧ إذ عين على وظيفة أستاذ كرسي اللغة العربية في جامعة سانت بطرسبورغ، وبقي في هذه الوظيفة حتى وفاته سنة ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م. من أهم أعماله العلمية كتاب: أحسن النخب في معرفة لسان العرب، وصدر في ليبزج سنة ١٨٤٠، ورحلته إلى روسيا الموسومة بتحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا. انظر: **رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية ١٨٤٠-١٨٥٠ المسماة بتحفة الأذكياء بأخبار بلاد الروسيا**، قدم لها وحررها د. محمد عيسى صالحية (عمان: دار البشير للنشر، ١٩٩٢).

(٣) kaj Ohmberg, "Suomalaiset Arabiankavijat" **in matka-arkku**, edited by Markku Loytonen (Helsinki: Suomalaisen Kirjalli suuden Seura,1989).

كاي أورنبري، **عاشق الصحراء: سيرة الرحالة الفنلندي جورج أوغست والن**، ترجمة مارية الهلالي، تقديم عوض البادي (الرياض، دار الفيصل، ٢٠٠٨)، ص ٢١. =

تقدم والن في خريف عام ١٨٤١ بطلب إلى جامعة هلسنكي للحصول على منحة دراسية لمدة خمس سنوات للقيام برحلة إلى مصر والجزيرة العربية، وأوضح أهمية مشروعه الذي سيرفع من شأن جامعته ويخدم العلم بشكل عام، كما أوضح القصور في دراسة لهجات العرب ومدى الحاجة لتلافي ذلك. وذكر في خطته للرحلة أنه سيذهب أولًا إلى مصر التي يجيد لهجتها ليتعلم فقه اللغة العربية على يد العلماء، وليتعود طريقة تلقي العلم في الشرق. وذكر أنه سيتجول في مصر، ومن ثم سيذهب إلى اليمن لاستكمال المعلومات حول اللغة الحميرية، ومنها سيسلك طريق القوافل إلى مكة المكرمة والاتجاه شرقًا لمتابعة مراحل انصهار اللغة الحميرية باللغة العربية. وإنه بعد هذه الجولة الطويلة سيكون قد أجاد اللغة العربية وتعلم العادات الإسلامية بالقدر الذي سيجعله يغامر في صحراء الجزيرة العربية دون خوف من انكشاف أمره بأنه أجنبي. وأضاف أنه بعد ذلك سيجمع معلومات عن لغة هذا البلد المجهول للأوروبيين وجغرافيته وتاريخه. واستطرد في خطته الطموحة، التي لم يتسن له تحقيقها، أنه سيذهب بعد مكة إلى الدرعية واليمامة والعارض للتعرف إلى الوهابيين وإلى تعاليمهم، ومنها سيذهب إلى القطيف ثم إلى البصرة، بعدها يعود إلى المدينة [المنورة]، ومنها يسلك طريق القوافل إلى فلسطين ومنها إلى إستانبول. وافقت الجامعة على تمويل رحلته، فعاد من مدينة سانت بطرسبورغ الروسية إلى هلسنكي في ربيع ١٨٤٢، يعدّ للرحلة ولكنه طلب من الجامعة تأجيل الرحلة لمدة عام ليدرس الطب ويتعلم بعض الأعمال الطبية والعلاجية ليسافر بوصفه طبيبًا. وكلفته الجامعة بمهام عليه القيام بها خلال رحلته وهي جمع مواد تشريحية، مثل الجماجم والهياكل العظمية الخاصة بالحيوانات، وأن يحصل للمكتبة على مخطوطات عربية وكتب مطبوعة بالقاهرة[١].

غادر والن يوم ٢٨ يوليو ١٨٤٣ هلسنكي ليبدأ رحلته الطويلة، وكان آخر

= كاي أورنبري، «الرحالة الفنلنديون إلى الشرق العربي»، ترجمة يسري يوسف، **الدارة**، السنة الخامسة والثلاثون، العدد الأول، محرم ١٤٣٠هـ، ص. ص. ١٤٧-٢٠٤.

(١) كاي أورنبري، عاشق الصحراء، ص ص ٢٢-٢٣.

مودعيه شيخه وأستاذه وصديقه الطنطاوي الذي قدم إلى هلسنكي خصيصًا لوداع تلميذه وصديقه قبل عشرة أيام من مغادرته[١]. توجه والن إلى هامبورغ، وباريس، ومرسيليا ثم إستانبول، ومنها إلى الإسكندرية التي وصلها يوم ١٥ ديسمبر ١٨٤٣. وبعد بقائه خمسة أسابيع في الإسكندرية بشخصيته الأوروبية المسيحية، غادر إلى القاهرة التي وصلها يوم ٢٩ يناير ١٨٤٤ بشخصية جديدة، مسلم من بخارى الخاضعة للقيصر الروسي، وباسم ولي. بدأ والن بشخصيته الجديدة الاندماج في المجتمع المصري، وأخذ يتلقى الدروس الدينية وحفظ أجزاء من القرآن الكريم ليكون مستعدًّا للظهور بصفة رجل دين، وقد نجح في ذلك للدرجة التي لا تدع مجالًا للشك بكونه مسلمًا وشرقيًّا. وهكذا بدأ في تحقيق خطته للترحال في مصر والجزيرة العربية. وكانت البداية رحلات في أنحاء مصر حتى وصل الصعيد. وبعد عودته من رحلته الصعيدية بدأ في التحضير لرحلته إلى الجزيرة العربية لكن ليس كما خطط عن طريق البحر الأحمر؛ لأنه عرف بأنهم في الجزيرة العربية يشّكون بكل من هو قادم من مصر بسبب أطماع محمد علي المستمرة في بلادهم. فاختار أن يبدأ رحلته من الشمال عبر الصحراء باسم عبدالولي؛ إذ رأى أن اسم ولي الذي كان قد اتخذه لم يكن مناسبًا له؛ على الرغم من محاولته إقناع الناس بأنه اسم شائع في بلاده المزعومة[٢].

غادر والن القاهرة متجهًا صوب نجد. وكانت محطته الأولى في شمال الجزيرة العربية منطقة الجوف، ومنها سافر إلى حائل. ولمَّا كانت الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، فقد أدرك والن أن ما معه من مال لا يكفيه ليكمل رحلته كما خطط لها، فغادر مع قافلة حج بغداد إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة، وأدى فريضة الحج، وعاد بعد ذلك إلى مصر ليخطط لرحلة جديدة إلى الصحراء التي أحبها.

استقر والن في القاهرة لبعض الوقت يتبادل الرسائل مع جامعته للحصول

---

(١) كاي أورنبري، عاشق الصحراء، ص ٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٥.

على بعض المال لإكمال مشروعه، والإعداد لرحلة أخرى إلى نجد واليمن. وخلال هذه المدة زار سيناء وفلسطين وسورية. في نهاية عام ١٨٤٧ انطلق في رحلته الثانية إلى الجزيرة العربية باسم عبدالمولى، فزار في هذه الرحلة بلدة المويلح على البحر الأحمر وتبوك وتيماء وحائل. وإذ لم يتمكن من زيارة الرياض والوصول إلى الخليج لوجود بعض الاضطرابات في المنطقة، وخوفًا من اكتشاف أمره؛ إذ كانت هناك بعض الشائعات أنه يعمل لحساب خديوي مصر، وأنه غير مسلم. لذلك غادر حائل متجهًا إلى العراق فإيران، وعانى صعوبات كثيرة في رحلته حتى تمكن من العودة إلى القاهرة، التي غادرها إلى لندن حيث وصلها في شهر أكتوبر ١٨٤٩.

قدّم والن في لندن بعض المحاضرات عن رحلاته، وساعد في رسم بعض الخرائط وتعديلها في الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، ثم قفل عائدًا إلى بلاده في عام ١٨٥٠. عيّن أستاذًا للأدب الشرقي في جامعة هلسنكي خلفًا لأستاذه جبرائيل جيتلين بعد أن قدم رسالة علمية تؤهله لشهادة دكتوراه العلوم التي ستؤهله ليصبح بروفيسورًا للغات الشرقية في الجامعة. كان موضوع رسالته العلمية ترجمة وتحقيق القصيدة الحائية للشاعر الصوفي ابن الفارض[١] وشرح عبدالغني النابلسي[٢] لها[٣]. وما أن بدأ الاستقرار في بلاده

---

(١) عمر بن علي بن مرشد بن علي الحموي (٥٧٦-٦٣٢هـ/ ١١٨١-١٢٣٥م) ولد وعاش في مصر، ولقبه شرف الدين ابن الفارض، وهو شاعر صوفي شهير يقول بوحدة الوجود. وقد كفره كثيرون بسبب ذلك إذ عدّوه ملحدًا. جمعت أشعاره في ديوان شعر بعنوان: ديوان ابن الفارض، ويضم قصائده في الحب الإلهي. وقد نشر هذا الكتاب بطبعات وتحقيقات وشروح مختلفة. انظر:
خير الدين الزركلي، **الأعلام**، الجزءالخامس، ط١٧(بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٧)، ص ص.٥٥-٥٦.

(٢) عبدالغني بن إسماعيل بن عبدالغني النابلسي (١٠٥٠-١١٤٣هـ / ١٦٤١ - ١٧٣١م) ولد ونشأ ومات في دمشق، وهو أستاذ ورجل دين وشاعر ومتصوف وأديب. له رسائل وكتب وتصنيفات وشروح كثيرة في شتى المعارف الدينية والصوفية. انظر:
خير الدين الزركلي، **الأعلام**، الجزء الرابع، ط١٧(بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٧)، ص. ص. ٣٢-٣٣.

(٣) Georg August Wallin, **Qasidat al-ha'ija min ash'ar al-faridija, Carmen elegiacum Ibnu-l-faridi cum commentario Abu-l-Ghanyi e duobus codicibus Londinensi et Petropolitani in lucem editum** (Helsinki, 1850).

حتى دعاه الشوق مجددًا لصحرائه التي كان يتمنى أن يموت فيها، وأخذ يعد لرحلته الكبرى إلى الجزيرة العربية. وأكد ذلك ما ذكره في إحدى رسائله إلى رئيس الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، حيث قال: «سيبقى الذهاب إلى الشرق ولا سيما صحراء شبه الجزيرة العربية هو الهدف الأكبر في حياتي، وسأحاول أن أنفذ خطتي للذهاب إلى هناك بأسرع ما يمكن... ويمكن أن أرجع إلى هناك كرحالة أوروبي لاستكشف أرض العرب المجهولة، وسوف أقدم نتائج أبحاثي إلى البلاد الغربية الطالبة للعلم...، أو ربما أذهب من أجل سعادتي الشخصية فسوف أبعد عن حياة أوروبا الضاغطة، وأتمتع بطبيعة الصحراء الغنية. وسوف أنعم بحياة البدو المليئة بالحرية والنشاط، وأستريح من حياة المظاهر في أوروبا. ويمكن لي أن أحيا وأموت كالبدوي الحر بين أهل الصحراء الأحرار. وأنا مستعد أن أدير ظهري إلى الغرب وأتجه نحو الشرق وسوف أفعل ذلك عاجلًا أم آجلًا»[(١)]. بهذه الروح كان يتفاوض مع الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية التي عرضت عليه المساعدة، وكذلك الجمعية الجغرافية الإمبراطورية الروسية، ولكنه وقبل غلق باب المفاوضات حول هذه الرحلة أسلم روحه إلى بارئها في منزله بهلسنكي في اليوم الثالث والعشرين من شهر أكتوبر ١٨٥٢، عن إحدى وأربعين سنة. وقد كانت وفاته صدمة لكل فنلندا، كما كتب أحد المستشرقين الفنلنديين الكبار، على الرغم من أن أهمية إسهاماته العلمية لم تكن قد عرفت بشكل كامل في حينه[(٢)].

لم يحقق والن شهرة واسعة في حياته إذ أن معظم أعماله لم تُنشر إلا بعد وفاته، ومع ذلك فقد حصّل تقديرًا لجهوده تمثّل في حصوله على جائزة الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية، والميدالية الفضية للجمعية الجغرافية

---

(١) W. R. Mead, "Georg August Wallin: The English Connection", in **Georg Agust Wallin, Travels in Arabia (1845 and 1848)** (Cambridge: The Oleander Press,1978), p. i.
William R. Mead, "G. A. Wallin and the Royal Geographical Society", **Studia Orientalia**: 23, 1958.
وانظر: كاي أورنبري، **عاشق الصحراء**، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩.

(٢) H. Holma, "Georg August Wallin 1811-1852", **Studia Orientalia** 17:1, 1952, p. 10
وحول أهميته في الاستشراق الفنلندي، انظر: عوض البادي، «صفحات من الاستشراق الفنلندي»، **مجلة الفيصل**، عدد ٢٦٦، نوفمبر - ديسمبر، ١٩٩٨، ص ص. ٩٩-١٠٦.

الفرنسية. وكان كل ما قدمه حول رحلاته محاضرات في الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية بلندن، تم نشرها بعد وفاته[1]. وقد نشرت له أيضًا بعد عودته إلى بلاده دراسات باللغة الألمانية حول قصائد من الشعر العامي في الجزيرة العربية في مجلة الجمعية الألمانية للاستشراق خلال عامي ١٨٥١-١٨٥٢[2]. وصدرت مراسلاته ومذكراته باللغة السويدية في خمسة مجلدات بعد وفاته[3].

---

(١) كانت محاضرته الأولى في الجمعية الجغرافية الملكية في الثاني والعشرين من شهر أبريل ١٨٥١ عن رحلته الثانية إلى شبه الجزيرة العربية، وجاءت تحت عنوان «ملحوظات حول رحلة عبر جزء من شمال الجزيرة في ١٨٤٨»، وقد نشرت تلك المحاضرة في عام ١٨٥٢ في دورية الجمعية. انظر:

Georg August Wallin," Notes Taken during a Journey through Part of Northern Arabia", **Journal of the Royal Geographical Society**, Vol. 20, 1851, pp. 293-344.

أما ما كتبه عن رحلته الأولى فقد قدمت بالنيابة عنه في الجمعية نفسها في ٢٦ أبريل ١٨٥٢، أي بعد وفاته، وكانت بعنوان «قصة رحلة من القاهرة إلى المدينة ومكة عبر السويس، عربة، الطفيلة، الجوف، جبة، حائل، ونجد، في ١٨٤٥»، وقد نشرت تلك المحاضرة في دورية الجمعية عام ١٨٥٤. انظر:

Georg August Wallin, "Narrative of a Journey from Cairo to Medina and Mecca, by Suez, Araba, Tawila, al-Jauf, Jubbe, Hail, and Nejd, in 1845", **Journal of the Royal Geographical Society**, Vol. 24, 1854, pp. 115-207.

و قد نشرت ترجمة باللغة العربية لهاتين المحاضرتين في: جورج أوغست فالين، **صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر**، ترجمة سليم شبلي ومراجعة يوسف إبراهيم يزبك (بيروت: منشورات أوراق لبنانية، ١٩٧١)، ص. ١٣٧-١٨٧.

ونشر له أيضًا في دورية الجمعية بعد وفاته وصف لرحلة له من القاهرة إلى القدس عبر سيناء قام بها في عام١٨٤٧. انظر:

Georg August Wallin,"Narrative of a Journey from Cairo to Jerusalem, via Mount, Sinai", **Journal of the Royal Geographical Society**, Vol. 25, 1855, pp. 260-290.

(٢) سعد العبدالله الصويان، «أدب البدو في كتابات الرحالة والمستشرقين » (١)، **جريدة الحياة**، العدد ٢٧٢٢١، ١ أكتوبر ١٩٩٦؛ عوض البادي، «أهمية كتابات الرحالة الأوروبيين لتاريخ منطقة الجوف»، **الجوبة**، عدد ١٤، محرم ١٤٢٧هـ / يناير ٢٠٠٦م، ص ص. ١٨-٢٩.

(٣) صدرت أربعة مجلدات من هذه اليوميات باللغة السويدية، وجاءت تحت عنوان: مذكرات جورج أوغست والن خلال رحلاته في الشرق في الفترة ١٨٤٣-١٨٤٩. انظر:

S. G. Elmgren, ed., **Georg Agust Wallins reseatechningar fran Orienten aren 1843 -1849**, 4Vols. (Helsinki, 1865).

وصدر عام ١٩٠٥م مجلد خامس يتضمن رسائله ويومياته من تحرير المستشرق والرحالة الفنلندي كنوت تالكفست. انظر:

بدأ والن رحلته الأولى من القاهرة يوم الثاني عشر من شهر أبريل ١٨٤٥ متجهًا صوب نجد. وقد عبر سيناء ومنها اتجه إلى بلدة معان[١] التي وصلها في يوم الثلاثين من الشهر نفسه. ومن معان تنقل بين بعض قبائل البادية الموجودة في المنطقة حتى وجد من يرافقه إلى الجوف[٢]. في اليوم الثامن عشر من شهر مايو انطلق في رحلته إلى الجوف محطته الأولى في شمال الجزيرة العربية إذ وصلها في اليوم الخامس والعشرين من الشهر نفسه، وأقام فيها حتى نهاية شهر أغسطس.

والآن نترك والن يقدم بنفسه وصفه لرحلته:

«في اليوم الثامن عشر من شهر مايو ١٨٤٥[٣] غادرنا آخر مخيم لقبيلة الحجايا[٤] برفقة ثلاثة رجال من قبيلة الشرارات[٥] الذين سيتركون خلفهم عائلاتهم في هذه المناطق التي سكنوها لعدة سنين لينقلوا إلى الجوف أربعة أحمال من الصوف. وبعد مسيرة ساعة[٦]، نزولًا في وادٍ ينحدر إلى قاع الجبال، عبرنا إلى أرض منبسطة شاسعة من بادية الشام. لقد كنا هنا في طرف ذلك السهل، على الحد الفاصل بين الجبال والصحراء على مسافة أربع

= Knut Tallqvist, ed., **Berf och dagboksanteckningar af Georg August wallin** (Helsinki,1905).

هذا، ويعكف المستشرق الفنلندي كاي أورنبري منذ سنوات طويلة على دراسة كافة رسائل والن ومذكراته ويومياته خلال رحلاته في الجزيرة العربية، وقد نشر الكثير حول حياته ورحلاته، وقد صدر له حديثًا كتاب باللغة الفنلندية يحتوي على بعض مراسلات والن حول رحلاته. انظر:

Kai Öhrnberg, **G. A. Wallin: A Avikon Vaeltaja**(Helsinki: Otava, 2007).

(١) مدينة رئيسة في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية.

(٢) لوصفه لأحداث رحلته من القاهرة حتى بداية رحلته إلى منطقة الجوف باللغة العربية، انظر: جورج أوغست فالين، مصدر سبق ذكره، ص. ص. ١١- ٣٨.

(٣) ١٢٦١هـ

(٤) من قبائل بادية شرق نهر الأردن.

(٥) قبيلة رئيسة من قبائل شمال شبه الجزيرة العربية، تستوطن عشائرها منطقة الجوف في شمال المملكة العربية السعودية، وسيرد كثير من المعلومات حولها في هذا الكتاب.

(٦) تقدر مسافات السير على ظهور الإبل في هذه الرحلات بالساعة، وهي حسب ما قدرها كافة الرحالة تتراوح بين ٤ و٥ أكيال تقريبًا.

ساعات إلى الجنوب الشرقي من قرية الطفيلة[١]. وباتجاه مباشر نحو الشرق بدأنا عبور منطقة من أشد ما رأيت من المناطق جدبًا وعزلة، سطحها غير مستوٍ، تغطيه بدلًا عن النبات حجارة صغيرة[٢] تلمع بلون داكن وأحيانًا بلون أبيض ساطع عاكسة أشعة الشمس بطريقة مؤذية جدًّا للعيون. كنا قد سرنا بسرعة لمدة أربع ساعات ونصف الساعة حينما شاهدنا على مسافة ساعة شمالًا قلعة الحسا[٣]، وهذه محطة على طريق الحاج فيها بئر ذات ماء رديء جدًّا، حسبما أكد رفقائي، وحامية صغيرة. مسيرة خمس ساعات أخرى في تلك الأرض المقفرة وفي الاتجاه الشرقي نفسه أوصلتنا إلى بركة ماء ضحلة لكنها واسعة. تسمى بركة باعج، وربما هي البركة التي تظهر في خرائطنا تحت اسم باير[٤]. تقع هذه البركة الذي تتجمع فيها مياه الأمطار في وادٍ مسطح ذي تربة رملية تنمو فيه بعض الأعشاب والشجيرات. وحينما تكون الأمطار غزيرة يبقى الماء في البركة طوال العام؛ وإلا فهي تجف في الشهور الأولى من الصيف. وكان الماء، وقت وجودنا، ثقيلًا وموحلًا جدًّا، وبالتالي فقد كان غير صالح للشرب.

في اليوم التاسع عشر، رحلنا من هذا الموضع بعد ملء قربنا الفارغة من مائها الرديء، وسرنا لمدة قصيرة عبر الوادي. لكننا بسرعة دخلنا ثانية تلك الأرض القاحلة التي يقطعها الوادي. وبعد مسير أربع ساعات وثلاثة أرباع الساعة من الغدير مررنا بسلسلة من المرتفعات الجيرية المنخفضة، وواصلنا سيرنا لمدة ست ساعات إضافية قبل أن نتوقف للمبيت.

في اليوم العشرين، سرنا خمس عشرة ساعة متواصلة عبر تلك الأرض القاحلة التي على الرغم من جدبها التام تتخللها هنا وهناك شعاب رملية من أثر

---

(١) مدينة في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية.

(٢) حجر الصوان، وتسمى هذه المنطقة أرض الصوان.

(٣) قلعة تاريخية ومحطة رئيسة على طريق الحاج الشامي تقع شمال مدينة الطفيلة جنوب الأردن.

(٤) باير موضع في جنوب شرق المملكة الأردنية الهاشمية يتكون من عدد من الأودية المتداخلة وسلسلة من الهضاب، ينطلق منها وادٍ رئيس يحمل اسم باير ويمتد مسافة تبلغ مئة كيل ويصب عند جريانه في وادي السرحان في شمال المملكة العربية السعودية.

سيول الشتاء تنمو فيها بعض الأعشاب الصحراوية، وقد كانت جافة وكافية لنستعملها لإعداد طعامنا وتغذية حيواناتنا.

في اليوم الحادي والعشرين، كان مسيرنا لمدة أربع عشرة ساعة، وعند المغيب وصلنا إلى آبار تسمى صديع(١) وكان ماؤها مرًّا ومالحًا للدرجة التي كان من المستحيل أن نروي ظمأ ثلاثة أيام منه. ذكر البدو أن ماءه في العادة عذب وجيد؛ لكنه بسبب عدم وجود بدو في الجوار يأتون لمتحه أصبح راكدًا وآسنًا وملوثًا بالغبار الذي تذروه رياح الصحراء المحيطة.

في اليوم الثاني والعشرين، مسير أربع ساعات أوصلنا إلى آبار أخرى هي آبار أويسط (٢) التي كان ماؤها لا يختلف كثيرًا عن ماء الآبار السابقة. تغيّر هنا مظهر الأرض تغيرًا كاملًا. فبدلًا عن تلك الأرض الجبلية الصلبة التي تتخللها الأحجار الداكنة والقمم الجبلية وسلاسل التلال الرملية الجيرية المتفرقة التي ترتفع هنا وهناك فوق مستوى الأرض، ولا يوجد فيها إلا القليل من النبت، أصبحت الأرض ابتداءً من هنا مغطاة برمال عميقة ناعمة لا تتخللها المرتفعات وهي خصبة نسبيًّا. تسمى الأرض التي تركناها وراءنا من قبل الجغرافيين العرب الصحراء السورية، وتشمل الجزء الشمالي المكمل لها ويمتد بين سورية والعراق؛ لكن الاسم الروماني لها هو العربية الحجرية (Arabia Petraea)، وهو اسم على مسمى، لا يوجد له مقابل في الأدبيات العربية القديمة والحديثة. يجوز وصف هذه الأرض كوادٍ كبير يبدأ في سهل دمشق، ويمتد نزولًا إلى تيماء حيث يلتقي بسهل آخر يمتد إلى قاع الشمالي الغربي لسلسلة جبال أجأ(٣). ومن الجانب الغربي يحوطها جبال الشَّراة(٤) حتى

(١) مورد ماء في وادي السرحان يحمل اسم وادٍ ينحدر من منطقة الطبيق ويرفد وادي السرحان.

(٢) مورد ماء آخر في وادي السرحان يبعد عن المنهل السابق عشرين كيلًا جنوبًا.

(٣) تمتد سلسلة جبل أجأ، الواقعة في شمال وسط الجزيرة العربية، حوالي ٢١٠ كيلًا طولًا من الشمال إلى الجنوب، ونحو ٥٢ كيلًا عرضًا.

(٤) سلسلة جبلية واقعة شرق نهر الأردن، وتمتد من الشمال إلى الجنوب منحدرة بشدة نحو الغور في غربها وتدريجيًا نحو الشرق وأهم جبالها: جبال عجلون وجبال البلقاء، وجبال الكرك، وجبال الشراة، وهي الواقعة في شمال بلدة معان. وفيها مدينة البتراء التاريخية، وعُرفت في الكتب الدينية القديمة باسم جبال سعير.

الحِجر[١]؛ ومن الشرق وادي السرحان[٢] الذي تقع على جانبه آبار أويسط؛ وحده البعيد من ناحية الجنوب أرض النفود المرتفعة، التي ترتفع كأسوار رملية ضخمة فوق مستوى هذه الأرض[٣]. لا تحمل هذه الأرض في هذه الأيام اسمًا محددًا، لكن كل جزء منها يحمل اسمًا خاصًّا غير واضح المعنى. والجزء الذي قطعناه في هذه الرحلة من هذه الأرض يسمى بسيطة[٤]، وذُكر أن نبات السمح[٥] ينمو فيها.

نظرًا لجدب الصحراء السورية التام؛ فمن النادر جدًّا وجود البدو فيها، وإن حصل فيكون لمدة قصيرة. يمكن أحيانًا مصادفة بعض أقسام قبيلة الشرارات الكبيرة التي تعيش بشكل رئيس في وادي السرحان في هذه الأرض

---

(١) معروفة باسم مدائن صالح وتقع في شمال غرب الحجاز.

(٢) وادي السرحان وادٍ رئيس في شمال الجزيرة العربية يبدأ من حوران جنوب سورية وينتهي في الجوف ويبلغ طوله نحو ٣٤٠ كيلًا، ويتراوح عرضه بين ٣٥ كيلًا و٥٠ كيلًا. وتجتمع فيه سيول أودية كثيرة، تنحدر إليه من الغرب ومن الشرق. وسترد معلومات وافية حول هذا الوادي في سياق هذا العمل.

(٣) النفود صحراء رملية كبيرة تقع في الجزء الشمالي من المملكة العربية السعودية، بين منطقة الجوف من الشمال ومنطقة حائل من الجنوب بين دائرتي عرض ٥٠َ ٢٧° و ٤٠َ ٢٩°، وتبلغ مساحتها نحو ٦٤٦٣٠ كيلًا مربعًا، ويبلغ أقصى امتداد لها من الشرق للغرب نحو ٣٤٢ كيلًا، أما من الشمال إلى الجنوب فيصل إلى نحو ٥٧٢ كيلًا، ويقل اتساعها كلما اتجهنا شرقًا بحيث لا يتعدى ١٢٨كيلًا عند نهايتها الشرقية. انظر: **أطلس المملكة العربية السعودية** (الرياض: وزارة التعليم العالي، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ص ٥٣.

(٤) سهل واسع يقع غربي وادي السرحان، ويمتد بامتداده من الناحية الجنوبية وتقارب أبعاده ١١٠×٦٥ كيلًا. وبسيطة اليوم أخصب مناطق شمال الجزيرة العربية إذ احتفر فيها مئات الآبار، وقامت عليها مئات المشاريع الزراعية الضخمة.

(٥) اسمه العلمي (Mesembryanthemum forsskalii)، وهو نبت بري حولي عشبي عصاري يسمو إلى ما بين ١٠- ٢٥سم، سيقانه بسيطة متفرعة صاعدة أو قائمة، وأوراقه جالسة متقابلة مخروطية وتشبه الأصابع غضة ممتلئة، وأزهاره مفردة أبطية أو طرفية بيضاء كريمية عديدة البتلات، وثمرته علبة مليئة بالبذور. يزهر في الربيع وتنضج بذوره في الصيف، انتشاره واسع وبمستعمرات كثيفة في السهول الحصوية. انظر: حمدان عجيريف الحسن، **النباتات البرية في مراعي شمال المملكة العربية السعودية**(الرياض: وزارة الزراعة، ١٤٢٧هـ)، ص. ١٦. وحول استخدامات هذا النبت، انظر: سليمان الأفنس الشراري، **السمح** (طبرجل: المؤلف، ١٩٨٧).

حينما يرحلون إلى معان وجبال الشراة. وإلى الشمال منهم وحتى الكرك[١] تنتشر قبيلة بنو صخر[٢]، وفي الأجزاء الجنوبية منها حيث تتسع الأودية وتزداد خصوبة تربتها، يقيم فيه أحيانًا لعدة أيام أقسام من قبيلة عنزة مثل قبيلة الفقراء وقبيلة ولد سليمان. إن انحدار هذه الأرض هو بكل وضوح إلى الجنوب والجنوب الشرقي إذ ما حكمنا عليه من خلال مجاري الأودية والشعاب الشتوية، ومن الانحدارات الكثيرة في طريق الحاج السوري الممتد من دمشق إلى الحجر على طول قاعها، حيث حسب علمي لا توجد أي هضاب أو شعاب تتجه صعودًا. اتجهنا من آبار أويسط باتجاه شرق - جنوب - شرق، عبر وادي السرحان وسرنا لمدة سبع ساعات ونصف الساعة قبل أن نتوقف للمبيت.

في اليوم الثالث والعشرين، كان مسيرنا لمدة اثنتي عشرة ساعة في اتجاه شرق - جنوب - شرق، وقبل انتهاء النهار كنا قد مررنا بسلسلة جبلية منخفضة الارتفاع. ذكر رفقائي أن الكثير من الآبار والغدران توجد في هذه المنطقة؛ وإنه لولا شح المطر شتاء العام المنصرم لوقعنا على مخيم للشرارات كل نصف ساعة، ولهذا لم نر أحدًا منهم طوال الرحلة. بتنا تلك الليلة عند آبار تسمى صبيحاء[٣]، فوجدنا حولها شيئًا من الخضرة، وإضافة إلى الأعشاب البرية المنوعة وشجيرات النخيل، كانت هناك نخلة طويلة مكتملة النمو قيل إنها تثمر دون رعاية من أحد.

في اليوم الرابع والعشرين استمر مسيرنا في اتجاه شرق - جنوب - شرق، بمحاذاة سلسلة جبلية منخفضة تسمى الأضارع[٤] وكانت إلى يسارنا. وبعد مسير إحدى عشرة ساعة ونصف الساعة عبرنا واديًا يسمى الخلاء، وسرنا في مجراه الشرقي الواقع بين جبال الأضارع مسافة ساعتين أخريين.

---

(١) مدينة تاريخية في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية.

(٢) قبيلة رئيسة من قبائل المملكة الأردنية الهاشمية.

(٣) مورد في منتصف وادي السرحان.

(٤) سلسلة جبلية منخفضة غرب بلدة دومة الجندل وتبعد عنها ثلاثين كيلًا، وقد أُقيمت بها حاليًا قرية تحمل الاسم نفسه.

في اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو ١٨٤٥ عبرنا أرضًا صحراوية حجرية، منبسطة وواسعة، تشبه الصحراء السورية، وكان اتجاهنا شرقًا - جنوب شرق. واستمر عبورنا هذه المنطقة ست ساعات، حيث دخلنا بعدها سلسلة جبلية تسمى «جال الجوف» وهي سلسلة تحيط بالوادي الدائري، الذي تقع به بلدة الجوف[١]. بعد مسيرة ساعة فوق قمة هذه السلسلة هبطنا قاع الوادي الذي يسمى البطين. إن الوقت الذي قضيناه في مسيرنا، منذ آخر توقف لنا في مخيم قبيلة الحجايا، الذي يبعد عن بلدة الطفيلة مسيرة أربع ساعات باتجاه الجنوب الشرقي، كان يقارب ثلاثًا وخمسين ساعة عبر صحراء بادية الشام إلى آبار أويسط، حيث يبدأ وادي السرحان من ذلك الجانب. ومن آبار أويسط إلى الجوف استغرق مسيرنا أربعين ساعة ونصف الساعة. ومن المستحسن هنا التوضيح أن مسيرنا رغم أنه كان على ظهور إبل محملة، فقد كان سريعًا جدًّا. وكانت الأرض التي كنا نسير عليها في الجزء الأكبر من الرحلة منبسطة ومستوية الأمر الذي سهل مسيرنا. إضافة إلى ذلك فقد كانت رواحلنا من إبل الشرارات ذات الأصل الجيد، كما أنها كانت قوية ومعلوفة جيدًا.

إن وادي السرحان، الذي مررنا عبر جزءٍ منه، وكما أعلمني بعض بدو هذه المنطقة، يبدأ من مكان يبعد عن جنوب دمشق مدة يومين، ويمتد إلى مكان يبعد يومًا واحدًا شمال الجوف. إن الوادي ينقطع هنا بجبال جال الجوف، ويمكن القول: إن الجوف مركز أو جوف، كما تعنية كلمة جوف باللغة العربية، لشمال الجزيرة العربية. ترتبط سلسلة جبال جال الجوف من جهتيها بتلال رملية ترتبط بصحراء النفود، أو صحراء الدهناء[٢] التي تبدأ عند الجانب الجنوبي للجوف. وبشكل مباشر، يجب ألا يُعدّ وادي الجوف واديًا عاديًّا

---

(١) المقصود بلدة دومة الجندل التاريخية المعروفة، وكانت حاضرة منطقة الجوف وعاصمتها حتى سنة ١٣٥١هـ / ١٩٣٣م إذ انتقل مقر إمارة المنطقة إلى شقيقتها سكاكة. ويطلق محليًّا اسم الجوف على هذه البلدة حصريًّا. وسيرد في ثنايا هذا الكتاب معلومات كثيرة حولها.

(٢) الدهناء غير النفود وهي صحراء رملية تتخذ شكل قوس يمتد مسافة ١٢٠٠كيل، وتربط صحراء النفود شمالًا بصحراء الربع الخالي جنوبًا. انظر: **أطلس المملكة العربية السعودية**، مصدر سبق ذكره، ص. ٥٣.

حسبما يظهر في خرائطنا، إنه انقباض محدد مقفل بتلال من الرمال الناعمة وبشكل يعكس السمات الخاصة لصحراء النفود وكامتداد لها، إلا أن تلال النفود أعلى ارتفاعًا وأكبر قاعدة. والتلال الرملية في هذا الوادي، كما يظهر، قد تكونت بفعل الرياح القادمة من الصحاري المجاورة، حيث تراكمت الرمال حول جذور الشجيرات على شكل أكوام، وبالتدريج، وبفعل عامل الزمن، تحولت إلى تلال وجبال.

من بين أراضي الصحراء تعدّ هذه الأراضي الأكثر خصوبة، وإذا ما هطل مطر كافٍ، فإن هذه التربة تتغطى بالأعشاب والشجيرات. لقد حاولت بلا جدوى أن أجد معلومات عن هذه المنطقة عند الجغرافيين العرب، حتى إنهم لم يذكروا اسمها. لذلك فأنا أفترض أنه في الأزمان السالفة عُدّت جزءًا من صحراء الدهناء، التي هي في الحقيقة كذلك. والاسم الذي تحمله هذه الأيام يرجع إلى زمن متأخر.

إن وادي الجوف يأخذ شكل الدائرة المنتظمة تقريبًا، والمحاطة من جميع جهاتها بسلسلة «جال الجوف» التي ترتفع ارتفاعات شبه متساوية تبلغ خمس مئة قدم فوق مستوى قاع الوادي. تتكون هذه الجبال من صخور رملية، وهي شديدة الانحدار وعرة، مغطاة جزئيًّا بالرمل بالقرب من الوادي، حتى تنضم إلى التلال الرملية لصحراء الدهناء. في الاتجاه الشمالي الشرقي ترتفع فوق قمة هذه السلسلة، مصطبة مميزة تسمى الحماميات. وفي الجانب الشمالي الغربي تنفتح هذه السلسلة بممر ضيق يسمى الفاو، وهو طريق يقود إلى سورية، وأما في الجانب الغربي فينقطع الشكل الدائري بحافة ناتئة ومنفردة وبارتفاع مساوٍ لسلسلة جال الجوف ومتصلة مع جبل منخفض من الحجر الجيري الذي يتدرج بالانخفاض وينحدر إلى أسفل حتى وسط الوادي، وعندها ينتهي إلى الرمال، وعند نهاية هذا الجبل تقع بلدة الجوف التي تأخذ شكل نصف دائرة وترها من غرب - شمال - غرب إلى شرق - جنوب شرق ٣٥٠٠ خطوة تقريبًا. وفي منتصف نصف الدائرة هذه تقريبًا، وفي مواجهة شبه كاملة لاتجاه الشمال، تقف قلعة مارد على حرف جبل كلسي، مشرفة على البلدة وعلى جميع الوادي.

هذه القلعة رغم أنها شبه متداعية وغير مسكونة، تبدو أنها المركز الذي تحيط به الأجزاء والأحياء المختلفة للبلدة، المقامة الواحد تلو الآخر. إن قطر الوادي من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي الذي يطول من هذه الناحية قليلًا قدَّرتُه بنحو ثلاثة أميال إنجليزية (٤٨٢٧ مترًا). والتربة رملية قشرية وخصبة بشكل عام، إلا أننا كلما ابتعدنا عن ذلك الجبل تصبح الأرض مجدبة، ففي نطاق الجبل توجد العيون وتحفر الآبار.

وأكثر المساكن في البلدة مبنية بالطوب الطيني المجفف بالشمس والمصبوب في قوالب مستطيلة الشكل ذات طول ٨ بوصات وعرض ٤ بوصات وسمك بوصتان.

كل حي من أحياء البلدة محاط بسور يفصله عن الأحياء المجاورة، وهو مبني من نوع الطوب نفسه الذي بُنيت به تلك المنازل. والمساكن موزعة بشكل غير منتظم، ومنفصلة عن بعضها بعضًا، وأحيانًا تنفصل عن بعضها ببساتين صغيرة وبعض الحفر العميقة التي تكونت مع الزمن جراء الحفر لاستخراج الرمل أو الطين، والأزقة ضيقة متعرجة ودون أي نوع من الرصف. في كل حي ساحة للغرباء ينيخون فيها رواحلهم عندما يصلون إلى الحي إذا لم يكن لهم أصدقاء أو معارف من بين السكان. في هذه الساحة أيضًا يجتمع أهل الحي في المساء لتزجية ساعة من الوقت قبل صلاة المغرب والحديث حول شؤونهم المشتركة. في أغلبية الدور غرفة تسمى القهوة، تكون منفصلة عن مبنى المنزل في معظم الأحيان، فيها ينزل الغرباء ويتناول الضيوف وجباتهم اليومية ويشربون قهوتهم. وتقع البساتين وحقول النخيل في مكان منعزل عن المنازل عند منحدر الجبل وتمتد على امتداد قاع الوادي، وكل بستان منها محاط بجدار يفصله عن البساتين الأخرى، وبين هذه الجدران الفاصلة بين تلك البساتين أزقة ضيقة تستخدم طرق أو ممرات لأصحاب الحقول، وقنوات للماء الذي يأتي من العيون ليلًا ونهارًا لسقيا هذه البساتين. تتحدد كمية مياه الري اللازمة لكل بستان بحسب مساحته، فتحسب حصته من المياه بعدد من الساعات فتكون في النهار حسب مواقيت الصلاة، وفي الليل بواسطة النجوم. وبما أن عملية الري هذه

من العيون لا تكفي لتغطية حاجة جميع الحقول والمزارع، فإن كل بستان يحتوي على بئر أو أكثر لتغطية هذا النقص في مياه الري. ويمكن الوصول إلى مياه الآبار بسهولة في هذا الوادي، وهو موجود بعمق ليس ببعيد في باطن الأرض، مثلما هو الحال في بعض الأماكن الأخرى في المنطقة، فمعدل عمق الآبار لا يتعدى عشر قامات[١].

بجانب أشجار النخيل وهي كما يبدو أول شيء أصيل هنا، هناك كل أنواع الفواكه التي تناسب مناخها، لكن بكميات صغيرة كالتين والمشمش والخوخ والبرتقال والعنب. أما الرمان، الذي ينمو في القرى الواقعة على خط الحاج السوري وفي نجد، فإنه لا ينمو بكثرة هنا. وتزرع هنا الخضروات أيضًا بكميات قليلة، وتقل كثيرًا عن نسبتها في نجد. كما أن السكان يبذرون الذرة بين الأشجار في بساتينهم، وإنتاجها عمومًا يكفي حاجاتهم، وهذا نادرًا ما تكون عليه الحال في قرى الصحراء.

بلدة الجوف، التي لم أسمع أبدًا كلمة سرحان مضافة إليها، كما ذكر الرحالة نيبور (Carsten Niebuhr)[٢] والرحالة سيتزن

---

(١) القامة مقياس لعمق المياه يساوي ٦ أقدام.

(٢) كارستن نيبور (١٧٣٣- ١٨١٥) رسام ومساح ورحالة ألماني عضو البعثة الاستكشافية الدنماركية التي أرسلها ملك الدنمارك لاستكشاف الجزيرة العربية عام ١٧٦١، والتي لم ينجح في العودة إلى بلاده من بين جميع أعضائها سوى نيبور الذي كانت عودته عام ١٧٦٧. عمل نيبور بعدها في خدمة الحكومة الدنماركية حتى تقاعده. ظهر العمل الأول لنيبور «وصف الجزيرة العربية» في كوبنهاجن عام ١٧٧٢ وهو كتاب مهدى إلى ملك الدنمارك يحتوي على وصف عام للبلاد من النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية واللغوية، وفصول عن المناطق المختلفة لشبه الجزيرة العربية: اليمن، حضرموت، وعُمان، ومناطق الخليج، وهجر، ونجد، والحجاز وصحراء سيناء. وترجم هذا العمل إلى اللغة الفرنسية والإنجليزية. وفي عام ١٧٧٤ نشر كتابًا يصف فيه رحلاته بعنوان " رحلات عبر الجزيرة العربية وبلدان أخرى في الشرق" قدم فيه وصفًا للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية للبلدان والمناطق التي زارها. ورد في كتاب نيبور الأول ذكر منطقة جوف السرحان، ضمن ذكره لمناطق في نجد، ومنها دومة وسكاكة (الجزء الأول، ص. ٣٢٦). انظر:

Carsten Niebuhr, **Beschreibung von Arabien, aus eigenen Beobachtungen und im Lande selbst gesammelten Nachrichten** (Copenhagen 1772; French trans. as: **Description de l'Arabie** = (Amsterdam 1774); English trans. By C.W.H. Sealy as: **Description of Arabia**, (Bombay, 1889).

(Ulrich Seetzen)[١]، من أي من العرب في المنطقة. ويعدّها السوريون أول مكان في نجد، لهذا تسمى أحيانًا باب نجد، ولكن سكان نجد يعدّونها سورية.

= Carsten Niebuhr, **Reisebeschreibung nach Arabien und anderen umliegenden Landern**, 2vols. (Copenhagen 1774).

————, **Travels through Arabia and Other Countries in the East,** 2vols. Trans. by Robert Heron (Edinburgh 1792).

وحول رحلة نيبور وبعثته، انظر:

Thorkild Hansen, **Arabia Felix: The Danish Expedition of 1761-1767** (New York: Harper & Row, 1964).

توركيل هانسن، من **كوبنهاجن إلى صنعاء**، ترجمة محمد أحمد الرعدي (بيروت: دار العودة، ١٩٨٣م).

(١) أورليخ سيتزن (١٧٦٧-١٨١١) رحالة ومستكشف ألماني، ولد في مدينة **Jever** بمقاطعة فريزلاند **Friesland** في شمال ألمانيا. وأصبح من رعايا الإمبراطورية الروسية بعد أن ورث التاج الروسي تاج تلك الإمارة في عام ١٧٩٣. تلقى تعليمه بالطب في جامعة جوتنجن؛ لكنه لم يمارسه فاتجه إلى هوايته بالسفر والترحال. بدأ عام ١٨٠٢ حياة الترحال فذهب إلى إستانبول وأزمير وحلب التي استقر بها لمدة سنتين لتعلم اللغة العربية والتعود على الحياة العربية. عُين بعد ذلك قنصلًا لروسيا في القدس التي منها وبدعم من القيصر الروسي بدأ رحلاته في المنطقة العربية. فزار بلاد الشام ومصر والجزيرة العربية. اعتنق الإسلام بعد زيارته إلى مكة عام ١٨٠٩ وتسمى بالحاج موسى. اتجه إلى اليمن بعد زيارته إلى مكة حيث قضى، كما يعتقد، مسمومًا عام ١٨١١. كان سيتزن يبعث بتقاريره ورسائله حول رحلاته إلى دورية **Monatliche Correspondenz zur Bef?rderung der Erd- und Himmels-Kunde** المختصة بالاكتشافات العلمية الجغرافية والفلكية والتي يرأس تحريرها عالم الفلك الألماني البارون Baron Franz Xaver von Zach. وقد نشرت بعد وفاته بعض أعماله حول رحلاته.

وحيث أورد سيتزن وصف المناطق التي لم يتمكن من زيارتها في شمال الجزيرة العربية فقد اعتمد في وصفها على معلومات استقاها من رفيقه في رحلاته في شرق الأردن يوسف المالكي. أورد سيتزن في تقرير له في شهر مايو ١٨٠٦ وصف يوسف لرحلة في منطقة الجوف. وقد ذكر سيتزن أن يوسف المالكي قد رحل من حوران مع أحدى القبائل العربية التي تنتقل كل خريف من حدود سورية إلى نجد. وقد بدأوا رحلتهم من بصرى الشام وعبر منطقة قفراء فيها بعض الآبار ولا سكان فيها حتى وصلوا إلى الأزرق التي يوجد بها قصر أثري لكنها غير مأهولة. ومن الأزرق يبدأ وادٍ تقع عند نهايته الجوف هو وادي عرب السرحان. وقد انتقل الأعراب عبر هذا الوادي إذ أوصلتهم مسيرة يوم ونصف اليوم إلى قرية تسمى إثرة. وهي قرية معروفة بإنتاج الملح. ويعتقد يوسف أنه رأى طبقات من الملح، وأفاد شخص آخر أن هناك ما يشبه النهر من الملح. ويقوم بعض العرب بحمل هذا الملح وبيعه في المناطق المجاورة في حوران والجولان وجبل عجلون وغيرها. والملح أبيض وصافٍ وأكثر ملوحة من ملح تدمر. وقد أعطاني يوسف كمية منه. ورغم ملحية هذه المنطقة يجد المرء مياه عذبة. توجد قرية أخرى على مسافة مسيرة يوم هي قراقر وهي قرية خربة ولكن بها بعض آبار ولا شيء لافت للنظر. مسيرة يوم آخر تؤدي إلى قرية كاف وبها قصر أثري (قصر =

تتكون بلدة الجوف من اثني عشر حيًّا، ويسمى الحي سوقًا. يرجع سكان الجوف أصولهم إلى قبائل وقرى عربية مختلفة كثيرًا. ويبدو أن السمة السورية تعم وتبرز في مظهرهم وعاداتهم كما هو الحال أيضًا في طريقة هندسة منازلهم وفي طريقة زراعتهم.

إن أقدم مجموعة من السكان بكل وضوح سورية الأصل، تعود إلى العنصر العدناني[١]، بينما سكان بعض الأحياء يبدو أنهم متأخرون في الهجرة إليها. ويمكن ملاحظة أن السكان يتمتعون بعلاقات نشطة مع سورية أكثر مما هي مع العراق. والتجار الجائلون الذين يزورون الجوف أحيانًا يأتون من سورية، عكس ما هو الحال في نجد، حيث يندر أن تقابل أحدًا منهم.

= الصعيدي) متداع على قمة جبل. والقرية محاطة بسبخات ملحية وبها بعض الآبار والبساتين غير المثمرة. ووجد يوسف في وادي عرب السرحان نبتة ذات جذور كريهة (Ferula Assa Fotida L.Feyn) [الحلتيت]. وبعد كاف توقفوا عند مورد حيث كانت قرية دارسة اسمها قدير. وعلى مسافة مسيرة يوم من كاف يوجد مورد أم الفناجيل حيث بعض الخرائب غير المهمة. بعد ذلك رحلوا عبر أرض مليئة بحجر الصوان يستخدمه العرب لإشعال النار وهي حجارة خطرة حتى أن العرب عند إشعاله يغطونه بتراب. ومسيرة يومين آخرين أوصلتهم إلى الجوف. وهذه المقاطعة لا شك أنها هي التي أشار إليها [العالم الجغرافي الألماني] أنطون فريدريك بوتشنغ (Anton Friedrich Busching) باسم جوف السرحان وعدّها جزءًا من نجد. وبلدة جوف السرحان النجدية خاضعة للوهابيين، وفيها عدة أحياء، عرف سبعة منها لكنه لم يتذكر إلا أسماء ثلاث: سوق الدرع؛ وسوق السعيديين؛ وسوق عين أم سالم. وإن المسافات قصيرة بين هذه الأحياء، ومنازل كل حي وهي منازل طينية مقامة إلى حد كبير على شكل دائري له مدخل واحد. وخلف كل منزل بستان نخيل صغير. ويعيش سكان هذه الأحياء في حالة نزاع ولا يتنقلون فيما بينها إلا مسلحين. ووسط هذه الأحياء يقوم بناء حجري قديم. وفيها برج رباعي الشكل مبني بحجارة كبيرة رباعية الأبعاد، قمته مستدقة، ويشبه المسلة. وهو عال الارتفاع إذ يزيد ارتفاعه على ضعف أو ثلاثة أضعاف أعلى منارة في البلدة. وبعدة عدة أيام في هذه البلدة رحل البدو إلى ما وراء الجوف إلى أرض قاحلة تغطيها حجارة سوداء صغيرة ولا ينمو فيها إلا نبات السمح الذي يجمع العرب حبيباته ويطحنوها ويعمل من طحينه خبزًا ويخلطونه مع التمر والسمن ويأكلونه. وتسمى هذه الأرض بسيطة. وبعدها ذهب الأعراب إلى النفود وهي صحراء رملية صافية. وفي هذه الصحراء ينبت شجر الغضا والنصي.... انظر:

Seetzen, "Beitrage zur Geographie Arabiens", in **Von Zach's Monatliche Correspondenz** (November,1808, Vol, XVIII, pp.383-389.

(١) كتبها المؤلف «عدوان Adwan».

الأحياء المختلفة التي تتكون منها البلدة، ابتداءً من جهة الغرب هي:

١ - الغرب:

ويقسم إلى ستة أقسام فرعية صغيرة، هي: عشوان، ابن حصيني، صناع المرعي، الجفرية، عين أم سالم، ابن قعيد. جميع هذه الأقسام الفرعية تقع على مسافات متقاربة من بعضها بعضًا، في الشمال الغربي لنهاية الوادي. تضم هذه الأحياء حوالي مئة عائلة، أغلبها يعيش في سوق ابن قعيد (أكبر سوق في حي الغرب). الجفرية وابن حصيني يرجعون أصلهم إلى حمولة من قبيلة شمر تدعى حمولة المناصبة. أما سكان عشوان، فهم من بدو الرولة من عنزة. وسكان عين أم سالم بدو يُدعون سرحان. أما صناع المرعي فهم جميعًا حرفيون من قرى مختلفة من سورية ومن الجزيرة العربية، واستوطنوا هنا. إن حي الغرب، كما يبدو، هو أحد أحدث الأحياء في البلدة.

٢ - الدرع أو سوق ابن درع:

هو أقدم جزء في البلدة جميعها، ويشتمل على بناية من الحجر يقال إنها كانت كنيسة، حوّلها الخليفة عمر إلى مسجد، وبعد ذلك رممه ابن سعود عند بداية الدعوة الوهابية. وبالقرب من المسجد ومن غير ارتباط به تقف منارة هي الوحيدة في البلدة منصوبة فوق قوس مبني فوق بوابة هذا الحي. هذه المنارة ربما تكون هي « البرج المربع المدهش، الذي بني من الصخور الكبيرة » الذي ظن ريتر (Karl Ritter)[١] بالاستناد إلى يوسف المالكي[٢] (مصدر معلومات

---

(١) يشير والن هنا إلى الجغرافي الألماني كارل ريتر(١٧٧٩- ١٨٥٩)(أحد مؤسسي علم الجغرافيا الحديث وأستاذ كرسي الجغرافيا في جامعة برلين. وهو ومؤلف موسوعة: **علم الأرض وعلاقته بالطبيعة وتاريخ الإنسان (Die Erdkunde im Verhaltniss zur Natur und zur Geschte des Menschen)** التي بدأ نشرها عام ١٨٢٢ وحتى وفاته ١٨٥٩، وبلغ ما نشره منها ١٩ جزءًا في عشرين ألف صفحة غطت قارتي إفريقيا وآسيا.

(٢) يوسف المالكي مواطن دمشقي يمارس التجارة مع قبائل البادية وقد رافق سيتزن في رحلاته في شرق الأردن عام ١٨٠٦. انظر:

M. Seetzen, **A Brief Account of the Countries Adjoining the Lake of Tiberias, the Jordan, and the Dead Sea** (London: Palestine Association of London, 1810), p. 13.

الرحالة سيتزن) بأنه مسلة، أو واحد من «الأهرامات» التي ذكرها الرحالة بوركهارت (John Lewis Burckhardt)[١] بناء على معلومات تلقاها في حلب من رحالة أتراك، وأشاروا إلى أنها موجودة في الدرع[٢]. أما بالنسبة لي،

---

(١) يوهان لودفيج بوركهارت (١٧٨٤-١٨١٧) رحالة ومستشرق سويسري. تلقى تعليمه في ألمانيا وإنجلترا، ورحل بتمويل من الجمعية الأفريقية البريطانية. بدأ رحلاته عام ١٨٠٩ تحت اسم إبراهيم بن عبدالله فزار بلاد الشام ومصر حتى وصل النوبة، والجزيرة العربية. توفي في مصر بالطاعون عام ١٨١٧. وقد جاءت خلاصة رحلاته في عدة كتب صدرت تباعًا بعد وفاته، وهي: رحلات في سورية والبلاد المقدسة؛ ورحلات في بلاد النوبة؛ وملاحظات حول البدو والوهابيين؛ ورحلات في بلاد العرب، والأمثال العربية، وعادات وأخلاق المصريين.

(٢) ضمن بوركهارت كتابه الخاص برحلاته في سورية والبلاد المقدسة المنشور سنة ١٨٢٢ ملحقًا خاصًّا وصف فيه الطريق بين بصرى في حوران وجبل شمر، وأورد فيه معلومات حول منطقة الجوف سبق فيها كافة الرحالة الأوروبيين الآخرين الذين زاروا المنطقة. وعليه فقد يكون من المناسب إيراد تقديم ما كتبه بوركهارت حول المنطقة اعتمادًا على المعلومات التي استقاها عنها خلال رحلاته. وما يلي النص الكامل لملحقه الموسوم: «وصف الطريق من بصرى في حوران إلى جبل شمر»:

«تقع بصرى في الجهة الغربية من جبل حوران، وعلى مسافة قصيرة من طرفه الجنوبي، وتنتشر في سفوح ومنحدرات جهته الشرقية ما يربو على مئتي قرية تتباعد فيما بينها بمسافات تتراوح ما بين ربع الساعة ونصفها، وهي قرى خربة كانت مبنية بحجارة سوداء. والأرض التي تعقبها أرض مستوية تسمى الحماد. وإلى الجنوب من هذا الجبل وعلى مسافة خمس ساعات منه تقع بلدة صلخد، وهي بلدة شبه خربة، فيها قلعة كبيرة محصنة بأسوار قوية، وفيها عدد من صهاريج وبرك مياه المطر. يبدأ من هذا المكان وادي السرحان الذي يجري باتجاه جنوب شرق وهو منخفض من الأرض بحوافٍّ منحدرة؛ ويجد المرء في هذا الوادي بئر ماء كل مسافة ثلاث أو أربع ساعات مع قليل من العشب حوله، وهو وادٍ غير جارٍ حتى في الشتاء؛ ومع ذلك يوجد الماء في أماكن عديدة فيه بعمق قليل تحت سطح الأرض. وكثيرًا ما يجد المسافر في مسار الوادي تلالًا صغيرة تتكون من طبقات سميكة متعاقبة بالسمك نفسه من الملح (ستة بوصات تقريبًا)، ومن التربة. يجمع الأعراب هذا الملح ويبيعونه في قرى حوران. تتبع مسار هذا الوادي المتجه جنوبًا مسير عشرة أيام أو أكثر (ثمانية أيام على رواحل الإبل) يوصل إلى بلاد الجوف. وتسمى التلال المحيطة بالجوف قارة. والجوف عبارة عن مجموعة من سبع أو ثماني قرى [أحياء] أقيمت متباعدة عن بعضها مسير نحو عشر أو خمس عشرة دقيقة باتجاه الشرق. والأرض رملية خالصة. وهذه القرى تسمى أسواق، والرئيسة منها هي: سوق عين أم سالم، وسوق الدرع، وسوق السعيديين، وسوق دومة، وسوق مارد. وهذه الأسواق متشابهة في طريقة عمرانها: المنازل الطينية مشيدة داخل سور طيني كبير يأخذ شكل مربع له مدخل واحد. ويشكل هذا السور جدار مشترك لكل المنازل التي يبلغ عددها في بعض الأسواق نحو مئة وعشرين منزلًا، وفي بعضها الآخر من ثمانين إلى مئة منزل. ويوجد وسط هذا السوق المسور فضاء. والمنازل مسقوفة بجريد النخيل ومبنية بالطوب الطيني المجفف (اللبن). =

فأنا لا أرى أي شيء خارق في هذا البناء. إنه واحد من تلك المداخل التي

= ويبلغ حجم الطوبة قدمين مربعة وبسماكة قدم. حين يأتي الغرباء إلى السوق يتركون رحالهم وسط السوق ويذهبون للنزول في بيوت مختلفة. وتحوط بالسوق بساتين النخيل (يسمى البستان حوطة)؛ في بعض هذه البساتين آبار عميقة لسقايتها ويسحب الماء منها ويسكب في حوض ليجري عبر قنوات لري البساتين، والجيران الذين لا يوجد في بساتينهم آبار خاصة يحصلون على الماء مقابل ثمن. ويسحب الماء من الآبار بواسطة سواني من الإبل؛ ويجري هذا العمل بربط طرف حبل حول السانية وفي طرفه الآخر دلو ينزل في البئر وعند امتلائه تساق الناقة حتى يصل الدلو إلى رأس البئر فيفرغ الماء في القنوات. وأكثرية سكان الجوف أما تجار صغار أو صناع؛ يعملون في صناعة الجلود والصوف والحديد، ويصنعون الأحذية ومقابض السيوف وحذوات الخيل وسنان الرماح وما إلى ذلك ويبيعونها بالإضافة إلى إنتاج بساتينهم من التمور إلى البدو مقابل إبل. وقلما يزرع سكان الجوف القمح؛ فالأرض الضيقة المتاحة للزراعة تزرع يدويًا؛ لأنهم لا يملكون محاريث. وهم لا يأكلون كثيرًا من الخبز ويعتمدون على التمر والسمن واللحم. وإضافة إلى لحم الصيد الذي يقومون به في الجوار، يأكلون لحم الإبل يوميًا تقريبًا، ولحم النعام الذي يبيعه لهم أعراب الشرارات ولحم بعض الحيوانات البرية. وهم يحتفظون بتمورهم في جرار طينية كبيرة لاستخدامها من قبل القبائل البدوية الكبيرة التي تمر بالجوف؛ ومنها قبيلة الرولة التي تنزل الجوف سنويًا تقريبًا، وقبل عهد الوهابية كانت قبائل بني صخر والحسنة من القبائل التي ترد إلى الجوف.

يسمى الفلاحون في الجوف قراونة وهو اسم يطلق في جوار دمشق على جميع السوريين أو من يفترض أنهم من أصل سوري. ومع أنهم فلاحون فهم يتزاوجون مع البدو، حيث إن كثيرين من أعراب شمر والسرحان قد استوطنوا فيها وأصبحوا فلاحين؛ ومع ذلك استمروا بالزواج من قبائلهم الأصلية. في المقابل، لا يستطيع الصناع، الزواج ببنات الأعراب أو الفلاحين جيرانهم المباشرين؛ فهم يتزاوجون فيما بينهم أو من بين الصناع المستقرين في مخيمات البدو. لكل سوق شيخ خاص به؛ والشيخ الرئيس في الوقت الحاضر هو ابن درع. وقد اعتنقوا الوهابية منذ عشرين عامًا، وشيخهم يجمع الزكاة لابن سعود ويخزنها في بيت خاص؛ وتستخدم هذه الزكاة لضيافة الغرباء وتموين قواته التي تعبر المنطقة، والزائد منها يبعث إلى ابن سعود نفسه. وجميع السكان مسلحون بالبنادق؛ وليس عندهم خيل.

يوجد في سوق مارد برج قديم ذو بناء مميز. ارتفاعه، كما قيل لي، أعلى من المنارة الموجودة قرب مقر إقامتي في دمشق، وهي حسب تقديري بارتفاع خمسة وأربعين قدمًا تقريبًا. وقاعدة هذا البرج مربعة الشكل، ويرتفع البناء متدرجًا إلى أن ينتهي بقمة؛ وكنت قد سمعت في حلب من بعض المسافرين الأتراك، عن وجود أهرامات تشبه أهرام القاهرة في الصحراء باتجاه الدرعية؛ وهم قد يعنون سوق مارد. يبلغ ارتفاع باب هذا البرج عشرة أقدام وعرضه ثمانية أقدام تقريبًا؛ لكن نصفه مسدود. وقد نقل البدو بوابة قصر السلمية الخشبية المطعمة بأسياخ الحديد إلى هذا القصر. داخل القصر غير مرصوف. وهو مكون من ثلاثة طوابق وأدراج تصل بينها. وتوجد بعض النوافذ الصغيرة على جوانب البرج التي يبدو أنها فتحات معدة للرمي. أسوار البرج مبنية بحجارة بيضاء مربعة الشكل ومحافظ عليها جيدًا. الطابقان المتراكبان غير مقنطرين. يقيم بشكل متواصل على قمة =

تستخدم في كل الشرق كبوابات لبلدة أو حي ويعلوها بناء صغير مربع الشكل له شبابيك أو منافذ للرمي ويوجد منها الكثير، خصوصًا في القاهرة حيث يوجد واحد أو أكثر في كل شارع. مع دخول الإسلام اعتبرت البوابة المكان المناسب للدعوة للصلاة، وأضيف برج فوق البوابة ليصبح مثل المنارة وعدا هذه البوابة التي أصبحت منارة لم أر أي بناء يمكن عدّه مسلة أو هرمًا.

في الأزمان السابقة، كان المبنى الذي يُعتقد أنه كان كنيسة مسيحية متصلًا من خلال سرب أو نفق أرضي بقلعة مارد، التي تتبع هذا الحي، كما يُقال، إلا أن هذا النفق مُقفل الآن، ومملوء بالأحجار والنفايات، ولكنني تمكنت من مشاهدة الجزء الذي قيل لي إنه لا يزال مفتوحًا.

= البرج حارس للإعلام عن وصول الغرباء.

إلى الشرق من الجوف وإلى حد ما إلى جنوبها، وعلى مسافة ثلاث ساعات، يبدأ سهل يسمى الضاحي أو الطعوس وهو صحراء مليئة بالطعوس (التلال الرملية) التي بسببها اكتسب هذه التسمية. ومع أن هذه الأرض قاحلة لا ماء فيها إلا أنها مليئة بشجر الغضا الذي يبلغ ارتفاع شجرته ثماني أقدام تقريبًا؛ يستخدمه أهل الجوف حطبًا لهم. ينمو في الربيع بالقرب من هذا الشجر نوع من العشب يجف حال دخول فصل الصيف يسمى نصي وهو يشبه سيقان سنابل القمح. ويوجد هنا بقر الوحش (المها العربي) وقد أفادني مخبري أن هذا الحيوان البري يشبه البقر العادي بكل مواصفاته. يصطاد عرب الشرارات هذا الحيوان ويأكلون لحمه ويصنعون من جلده دراقن شهيرة، ومن قرونها يصنع أهل الجوف مقابض للخناجر. وفي هذه الأرض توجد أيضًا أنواع أخرى من الحيوانات البرية ذات اللون الأسود كالذئاب والظربون. . . . وهنا على الخصوص يتكاثر ويعيش النعام الذي يصطاد بأعداد كبيرة. وفي هذه الصحراء أيضًا يعيش حيوان الضب الذي يشبه السحالي العادية لكنه أكبر منها إذ يبلغ القدم ونصف القدم طولًا وعكرته (ذيله) نصف قدم. يأكل الأعراب هذا الحيوان ويصنعون من جلده الحرشفي عكك لحفظ السمن. وبالمثل يأكل الأعراب في هذه المنطقة الطيور التي يصطادونها.

يمتد سهل الضاحي، الذي لا موارد ماء فيه، مسيرة ثلاثة أيام للرواحل(أو مسيرة ستة أيام ضمن قافلة) إلى حدود سلسلة الجبال المسماة جبل شمر الممتدة نحو الشرق مسيرة خمسة أو ستة أيام. وعلى مسافة مسيرة عشرة أيام أو أكثر تقع الدرعية عاصمة ابن سعود. يستوطن منطقة الجبل أعراب شمر الذين تحول قسم كبير منهم إلى فلاحين، ويعيشون في القرى المنتشرة في تلك السلسلة الجبلية. وهم وهابيون حقيقيون ومؤمنون». انظر:

John Lewis Burckhardt, **Travels in Syria and the Holy Land** (London: John Murray, 1822), pp. 662-664.

جون لويس بيركهارت، **رحلات في سورية والبلاد المقدسة**، ترجمة شاهر حسن عبيد (دمشق: دار الطليعة الجديدة، ٢٠٠٧)، ص. ص. ٣٧٤-٣٧٦.

أسوار مارد، كما يقول الناس هنا، كانت في الأصل ضعف ارتفاعها الحالي، وهي مبنية بعناية من الصخور المربعة، المنحوتة بطريقة معمارية تشبه تلك الطريقة التي بنيت بها الحصون القديمة في دمشق، ومازال ارتفاعها يبلغ من ثلاثين إلى أربعين قدمًا فوق الجرف الذي تقوم عليه. المدخل الرئيس للقلعة في وقتنا هذا يقع في هذا الحي، ولكن في الجانب الغربي منه يوجد باب خلفي ضيق، كان مؤمنًا في الأزمان السابقة كما يقال بباب حديدي، ويُعتقد أنه عند فتحها زمن الفتح الإسلامي للبلدة، قام الخليفة علي بشقه بضربة واحدة من سيفه. داخل القلعة لا شيء يستحق الملاحظة، وكذلك لا يوجد أي أثر لأية نقوش أو كتابات، وحتى السكان لا يتكلمون عن أية كنوز أو أية أشياء ذات قيمة تم كشفها في بقايا القلعة. وكثير من المنازل الخاصة في هذا الحي مبنية جزئيًا بنوع الصخور المنحوتة المبني منها الحصن والمسجد، بينما البيوت الموجودة في الأحياء والقرى الصحراوية الأخرى، مبنية بالطوب الطيني.

إن سكان حي الدرع خليط من الناس، لكن الأكثرية منهم يقال إنهم هاجروا من بلدة شقراء في نجد العارض. ذكر ريتر بأن بني درع هم سكان وادٍ يسمى حفل في سلسلة جبال طيّئ، وربما أنهم هم أسلاف السكان الحاليين للحي. ولأنهم كانوا مغادرين بلادهم الأصلية قسرًا فهم ربما سلكوا الطريق المطروق حتى اليوم، وهي الطريق التي تمر عبر منطقة القصيم إلى جبلي طيّئ[١] ومن هناك إلى جبة، فالجوف. بعض العائلات في هذا الحي من عنصر أقدم، هم أولئك الذين يسمّون أنفسهم (قراريط)، ويدّعون أنهم أصلًا من جُبَة[٢]. هؤلاء ربما يكونون بقايا العرب الذين ذكرهم مؤلف القاموس[٣] تحت اسم قروط، وينتمون إلى كُلاب المعروفين بأنهم من سكان هذه المناطق[٤].

---

(١) جبلي أجأ وسلمى.

(٢) بلدة في شمال منطقة حائل، تبعد عن الجوف (دومة الجندل) مئتين وثلاثين كيلًا تقريبًا.

(٣) المقصود القاموس المحيط ومؤلفه هو محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزآبادي.

(٤) ورد في القاموس المحيط: «والقروط بالضم: بطون من بني كِلَاب. انظر: الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، ط٤(بيروت: دار الرسالة، ١٩٩٤)، ص. ٨٨٠.

وربما في جبة أيضًا، حيث يوجد حي يحمل اسم الكُلاب. لقد أخبرني سكان جبة خلال إقامتي في قريتهم، أن هؤلاء القراريط ما زالوا يحتفظون بكُتب قديمة معهم مكتوبة بلغة غير مفهومة، تحتوي على أصلهم وتاريخهم القديم، ولكن لم يذكر لي أحد هذه المعلومات في الجوف مع أنني كنت حميمًا وصديقًا للشيوخ المسنين. في هذا الحي ثلاثة عيون وافرة المياه هي: الكبرا، بارد زبيدة، وعين الجمل. إن مجموع العائلات التي تعيش في هذا الحي، يبلغ نحو مئة وثلاثين عائلة.

٣ - سوق السعيديين، أو السراح:

يسكن هذا الحي خمس عائلات، هي: السعيديين، العمر، العباس، السلمان، الحبوب[١]، والأربعة المشار إليهم أولًا تعود جذورهم إلى قرى سورية، هي السراحية ورخم[٢]، أما العائلة الأخيرة فهم من بدو الموالي[٣]. يعدّ هذا الحي بعد حي الدرع، الأقدم في البلدة. وتقوم فيه قلعة طينية تسمى القُصَيْر (تصغير قصر)، على صخرة مارد نفسها، ولكنها أحدث عهدًا. ويقال إنها أنشئت كقلعة مضادة لقلعة مارد عندما كانت العداوات المميتة موجودة بين هذين الحيين المتجاورين. يضم هذا الحي نحو مئة وعشرين عائلة.

٤ - الرحيبيين:

يعيش في هذا الحي نحو سبعين عائلة: ويقال إنهم هاجروا من قرية سورية تدعى الرحيبة[٤]، وهي كما ذكر الرحالة الأمريكي البروفيسور

---

(١) عائلات العمر والسلمان والحبوب هي فروع لعائلة واحدة هي عائلة السراح، وبالطبع لها النسب نفسه.

(٢) تقع قرية رخم في سهل حوران بمحافظة درعا جنوبي سورية، وتبعد عن مدينة درعا نحو ٣٧ كيلًا باتجاه الشرق.

(٣) قبيلة رئيسة من قبائل بلاد الشام.

(٤) تقع على بعد ٥٠ كيلًا شمال شرق دمشق. ويذكر أهل هذا الحي حاليًا أنهم يعودون بنسبهم إلى قبيلة تميم.

روبنسون (Edward Robinson)[١] تقع في أرض التحتا بين حوران والنبك. وفي هذا الحي عين ماء جارية تحمل اسم العروس.

٥ - علاج:

يضم هذا الحي أربعين عائلة، هاجرت إلى هنا من الطفيلة وتدعى عين هذا الحي غنمة[٢].

٦ - خذما:

يسمى هذا الحي باسم عين ماء، تقع وسط الحي، وتوفر الماء الضروري لري البساتين المجاورة. مجموع السكان يبلغ ستين عائلة، وحسب ما يقولون فإن أسلافهم من الجيل السادس، قد هاجروا إلى هنا من وادي السرحان. وبما أن هولاء لا يزالون يحتفظون بسمات ولغة البدو فإنهم يعتقدون بأنهم أكثر نقاءً من سكان الجوف، ويعدّون أنفسهم بدوًا في مقابل جيرانهم الذين يطلقون عليهم اسم قراونة، وهي كلمة غالبًا ما تستخدم في سورية بالمعنى نفسه الذي يُطلق على الفلاح المصري. من بين عائلات هذا الحي توجد عشر عائلات ذات أصول زنجية يُدعون «مولّدين» وهؤلاء لا يميزهم من غيرهم من السكان إلا لون بشرتهم وملامحهم التي رغم التغير البسيط فيها فهي ما زالت سمات زنجية. يعيش في الأحياء الأخرى في البلدة بعض المولّدين ولكنهم

---

(١) إدوارد روبنسون (١٧٩٤-١٨٦٣) عالم دين أمريكي ومختص بالآثار التوراتية يعرف «بأب الجغرافيا التوراتية». زار فلسطين وبلاد الشام عامي ١٨٣٨ و١٨٥٢ برفقة القسيس والمبشر الأمريكي إيلي سميث (Eli Smith)، وقد نشرا كتابين حول رحلاتهما وبحثهما عن الآثار التوراتية في فلسطين وما جاورها عامي ١٤٨١ و١٨٥٦. انظر:

E. Robinson & E. Smith, **Biblical Researches in Palestine, Mount Sinai and Arabia Petraea, A Journal of Travels in the year 1838** (Boston, 1841).
E. Robinson, E. Smith & others, **Later Biblical Researches in Palestine and in the Adjacent Regions, a Journal of Travels in the year 1852** (London: John Murray, 1856).

(٢) كتب المؤلف اسم هذه العين باللغة الإنجليزية (Ghanara) وهذا الاسم لا يتسق مع الأسماء السائدة، كما أنه غير معروف. ولكن بالرجوع إلى أوراق الرحالة الأصلية، المكتوبة بالعربية، وجدنا أن اسم العين ﴿غنمة﴾ وأضاف إليها أسماء عيون أخرى هي عين حداج وعين بحرة ظهرا.

بمجموعهم ليسوا بعدد الموجودين في خذما. تعود جذور هؤلاء المولدين إلى زنوج تم شراؤهم من سوق مكة وجلبهم إلى بلدان مالكيهم. بعد ذلك، تم عتقهم، فتزوجوا من نساء من عنصرهم، وأحيانًا، مع أن ذلك نادر جدًّا، يتزوجون نساءً عربيات، فتضاعفت أعدادهم وانتشروا في مناطق الصحراء، حيث تجدهم في كل مكان في القرى وفي مضارب البدو الرحل.

٧ - الدلهمية:

كان في السابق حيًّا صغيرًا بالقرب من خذما، ويضم نحو عشرين عائلة من الأصل نفسه الذي يعود إليه السراح، وهم متحالفون معهم. وبسبب عداوة قديمة بينهم وبين جيرانهم أهل خذما وحلفائهم سكان الجرعاوي، فإن هذا الحي دُمر تدميرًا كاملًا قبل ثمانية أعوام (١٨٣٨) من قبل شيخ شمر[١]، وذلك في الوقت نفسه الذي أسس فيه سلطته في جبل شمر. لقد جاء شيخ شمر[٢] مع قواته ليساعد أقرباءه في حي الجرعاوي، فسلب ودمر المنازل والبساتين وقطع النخيل وطمر الآبار بالأحجار والأشجار، ولم يترك شيئًا للسكان في هذا الحي عدا حياتهم وحريتهم ليلجئوا إلى حلفائهم السراح.

بالإضافة إلى هذه الأحياء السبعة المتجاورة في منحدارات الجبل فيما

---

(١) يشير والن هنا إلى عبدالله بن علي الرشيد (١٢٠٤هـ/ ١٧٨٩م -١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م) مؤسس إمارة آل رشيد في منطقة حائل بدءًا من عام ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م حينما عينه الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله آل سعود إمام الدولة السعودية الثانية أميرًا على حائل التابعة لدولته مكافأة له على ما بذله من جهود لاستعادة الحكم بعد مقتل والده الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود سنة ١٢٤٩هـ، وقد عمل على ترسيخ حكمه وتوسيع سيطرة إمارته في الجوار. سوف ترد في ثنايا هذا الكتاب معلومات حوله وحول إمارته وعلاقتها بمنطقة الجوف منذ بدايتها حتى نهايتها. ولمزيد من التفصيلات حول تاريخ نشوء هذه الإمارة وجميع ما يتصل بهذه النشأة يمكن الرجوع إلى: عبدالله الصالح العثيمين، **نشأة إمارة آل الرشيد** (الرياض: جامعة الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)؛ محمد الزعارير، **إمارة آل رشيد في حائل** (بيروت: دار بيسان، ١٩٩٧)؛ جبار يحيى عبيد، **التاريخ السياسي إمارة حائل**(بيروت الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٣)؛ و

Madawi Al-Rashid, **Politics in an Arabian Oasis** (London: I.B. Tauris, 1991).

(٢) لم يأت بنفسه، بل قاد قواته أخوه عبيد بن عبدالله الرشيد.

يشبه شبه دائرة، توجد خمسة أحياء أصغر في أماكن أخفض من الأولى في قاع الوادي، وهي:

٨ - القراطين:

يقع هذا الحي في الجزء الغربي من الوادي وفي منتصف الطريق تقريبًا بين جال الجوف والجبل الداخلي، ويضم هذا الحي عائلتين متحالفتين مع سكان الغرب.

٩ - الوادي:

ويقع عند قاع جبل منعزل يسمى الصُّبة ويرتفع بشكل مخروطي في الجزء الآخر من الوادي شمال غرب مارد وبالقرب من جال الجوف، ويضم هذا الحي ثماني عائلات من قبيلتين مختلفتين، هما الدربي والمناحي وهما متحالفتان مع حي الدرع.

١٠ - غطي:

يقع هذا الحي شمال شرق قلعة مارد، في قاع الوادي، ويضم عائلتين متحالفتين مع حي السراح.

١١ - السعيدان:

وهو عبارة عن حقل نخيل، يسقى من بئر، ويخص عائلة زنجية تسكن في خذما.

١٢ - الجرعاوي:

يتكون هذا الحي من أربع عائلات من الحرفيين، ويعود نسبهم إلى قبيلة الرمال وهي من قبائل شمر، وقد هاجروا إلى الجوف من قرية جبة.

في مدّة العداوة التي عمت بين السراح والدلهمية من ناحية، وبين خذما وهذا الحي من ناحية أخرى، دُمِّر الجرعاوي بشكل كامل، وأُجبر السكان على الرحيل من أرضهم ومنازلهم المدمرة ليسكنوا عند حلفائهم أهل خذما. بعد

ذلك، وعندما سيطر ابن رشيد على البلدة وأصلح الخلافات بين الأحياء المختلفة، سُمح لأهل الجرعاوي بتنظيف آبارهم، وبدؤوا بغرس أشجار جديدة مكان النخيل المقطوعة، وفي الوقت الذي غادرتُ فيه الجوف كانوا جاهزين للانتقال من حي خذما إلى منازلهم التي أعادوا بناءها.

يوجد القليل من المعلومات التي احتفظ بها السكان الحاليون حول التاريخ القديم لبلدتهم. فهم يزعمون أن بداية الجوف ترجع إلى زمن سليمان ابن داوُد، ويحددون عام ثمان مئة ميلادية كسنة لتأسيس بلدتهم؛ وهو زمن نادرًا ما أتذكر أنني سمعته ذُكر في أي مكان في العالم الإسلامي. إن هذا الملك الإسرائيلي الحكيم يعدّه السكان في جميع شمال شبه الجزيرة العربية ونجد أول ممدن لأرضهم والمؤسس لقراهم وآبارهم، والمفترض أنه بناها بمساعدة الجن. من خلال هذا القول يبدو أنهم يقررون أن حضارتهم قد جاءتهم في الأصل من سورية وليس من عرب اليمن الذين - ونتيجة لموقع أرضهم وتفاعلهم ومخالطتهم في قديم الأزمان الهند والحبشة - لديهم حضارة مختلفة. أما فيما يتعلق بالمدة الزمنية التي فصلت بين عهدي سليمان ومحمد، فإن السكان الحاليين لا يعرفون شيئًا، عدا أن بلدتهم حملت في السابق اسم دومة الجندل، وهو الاسم الذي مازال معروفًا، ويذكره الجغرافيون العرب.

عند ظهور نبي الإسلام، كانت البلدة محكومة برجل اسمه كما ينطقه السكان الحاليون الأكيدر؛ ولكن الكتّاب القدماء يكتبونه الأُكيدر. كان الأُكيدر نصرانيًّا، وكان يسكن قلعة مارد. وهذا الاسم يستخدم بأسلوب غامض وغير محدد بزمن، والناس أنفسهم غير متأكدين فيما إذا كان فردًا، أو قبيلة، أو شيخ عائلة حاكمة. ويبدو لي أن هذا المعنى الأخير هو الأكثر طبيعية، أي أنه شيخ عائلة حاكمة. يقال إن البلدة في زمنه كانت ذات امتداد أكبر، فالبساتين وحقول النخيل تنتشر في الجزء الأكبر من الوادي. وكان هنا وفرة هائلة من الآبار والعيون والجميع كان مسورًا بحائط واحد مشترك. وفي الحقيقة ما زالت توجد آثار لزراعة سابقة ممتدة أكثر مما هي اليوم، ومن حين إلى آخر يتم

اكتشاف سراديب خفية تحت الأرض مبنية بالحجر المنحوت ذي الأشكال المربعة، المصمم بحرص ودقة ممتازة، وهي قنوات من عمل الإنسان. وهذه القنوات ربما كانت في السابق تستخدم بغرض تجميع ماء المطر للآبار ولمرور المياه من عيون الماء التي اختفت الآن. وخلال إقامتي هنا تم فتح واحدة من هذه القنوات في حي السعيدان، وكانت واسعة لدرجة أن الرجل يمكنه أن يقف بها على امتداد قامته، وكان يبدو أنه متصل فقط بالبئر الموجودة في ذلك الحقل. وبينما كانت هذه القناة مملوءة بالرمال كان هناك جزء صغير منها مفتوحًا كالسابق، ولكن بدايتها أو نهايتها غير محددة. هناك قنوات أخرى تم اكتشافها في البلدة نفسها تؤدي إلى أماكن لا يوجد بها أية آثار للزراعة. وفي قاع الوادي توجد آثار الأسوار الطينية المتداعية، ويقال إنها من بقايا السور الذي أحاط به الأُكيدر بلدته.

أنواع مختلفة من الأدوات غالبًا ما تكتشف من خلال الحفر في الأرض، مثل الهاونات الحجرية الكبيرة التي تشبه في وقتنا الحالي تلك المستخدمة في طحن القهوة في كل مكان من نجد. ويشتهر سكان الجوف بمهارتهم في قطعها، وهي تباع في نجد غالبًا بسعر يصل إلى جنيه واحد للقطعة الواحدة. كذلك يقوم الصناع المهرة بصنع مناصّ أو قواعد منافخ الهواء، بالشكل نفسه المستخدم به حاليًّا في شبه الجزيرة العربية. وهذه يمكن العثور عليها عند الحفر، وتكون مقطوعة من الصخور الصلبة، بينما الحديثة تكون بشكل عام مصنوعة من الصلصال. وقد قيل لي: إنه أحيانًا يتم اكتشاف عملات قديمة، قد يرجع زمنها إلى أيام موسى. ولكن مع كل البحث عنها بين السكان لم أجد أبدًا أكثر من عملة ذهبية واحدة تعود إلى الفاطميين، ولم أجد أو أقف في أي مكان على أية نقوش أو كتابات قديمة من أي نوع[١].

---

(١) كشفت عمليات المسح والتنقيب في منطقة الجوف خلال الثلاثة عقود الأخيرة أن المنطقة تزخر بالنقوش الثمودية والصفوية والنبطية والإسلامية المبكرة. انظر:

خليل إبراهيم المعيقل، **دراسة لآثار منطقة الجوف** (الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٤هـ).

آثار منطقة الجوف (الرياض: وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

لقد هُزم الأُكيدر، وقتله المسلمون الذين دخلوا هنا، كما يقول السكان الحاليون، تحت قيادة عمر [بن الخطاب] وعلي [بن أبي طالب][(١)]، وعندها دخل السكان النصارى الإسلام. وفي القرون اللاحقة لم يجد السكان أي شيء يربطهم عدا العداوات والخلافات بين القبائل والأحياء التي تتكون منها البلدة.

إن أهل الجوف لا يزالون في أيامنا هذه معروفين عند جيرانهم بميلهم للتنازع، ويقولون إن الشيطان لن يموت أبدًا في قلوبهم. في هذا السياق، يبدو أن المثل العربي، الذي يستشهد به القاموس، وكأنه يشير إليهم، فالقول يعبر عن أن أهل مارد يمتازون بـ«العناد»، وأن أهل الأبلق (حصن تيماء) يمتازون بـ «الصبر»[(٢)].

في العهد الأول للدعوة الوهابية[(٣)] دخل أحد قادة ابن سعود البلدة مع قواته ودمروا قبرًا قديمًا في حي الدرع، كان مزينًا بقبة ويجله السكان على أنه قبر ذي القرنين. وبعد أن قرر على السكان الزكاة المفروضة في القرآن كأحد أركان الإسلام، أصدر أوامره لفتوحات أخرى، تاركًا وراءه نائبًا ليحكم البلدة باسمه[(٤)]. أما الأئمة أو الخطباء كما يسمونهم هنا وفي كل أنحاء نجد فيتلقون

---

(١) لم تذكر المصادر التاريخية أية أدوار لهما في عمليات فتح دومة الجندل.

(٢) يقصد المؤلف القول الشائع المنسوب للملكة الزباء ملكة تدمر(٢٦٧-٢٨٢م): «تمرد مارد وعز الأبلق».

(٣) دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب.

(٤) يعود تاريخ وصول الدولة السعودية الأولى إلى منطقة الجوف إلى عام ١٧٩٣م الموافق ١٢٠٨هـ إذ وصلت إلى المنطقة قوة عسكرية استطاعت أن تخضع بعض بلدان المنطقة. وتشير المصادر التاريخية التي تناولت هذا الحدث إلى أن دومة الجندل عاصمة المنطقة كانت منقسمة على ذاتها، وكان يحكمها عائلتان من سكانها. وأنه بعد حصار وقتال وافقت العائلة الأولى، وهي عائلة آل درع، على الخضوع للدولة السعودية ودفع الزكاة لها، أما العائلة الثانية، وهي عائلة آل سراح، فقد استعصت على المهاجمين، ولم توافق على الدخول تحت سلطة الدولة فتركت وشأنها؛ وكُلف ابن درع بإكمال المهمة، فقامت حرب أهلية استمرت لمدة ثماني سنوات، انتهت بخضوع المنطقة كافة للدولة وتكليف رئيس عائلة ابن درع بإدارتها باسم ابن سعود. ولم تشر المصادر إلى وجود قبر قديم يوقره السكان على أنه قبر ذي القرنين. انظر: حسين بن غنام، **تاريخ نجد**، تحقيق ناصر الدين الأسد، ط٤ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٤)، ص.١٨٧؛ مؤلف مجهول، **كيف كان ظهور شيخ الاسلام محمد بن عبدالوهاب**، دراسة وتحقيق عبدالله الصالح العثيمين، ط٢(الرياض: المؤلف، ١٩٩٤)، ص. ١١١.

تعليمهم ودروسهم على نفقة ابن سعود في المدينة والدرعية ويرسلون إلى هنا ليعلموا الناس أصول الدين الإسلامي، حسب دعوة ابن عبدالوهاب التجديدية.

لقد توقفت العداوات والحروب، وأقيم العدل، وأعيد الأمن العام في كل المنطقة الواسعة الواقعة تحت نفوذ ابن سعود. ويتذكر الناس تلك الأيام الخوالي بحماس. إلا أنه وحينما سقطت سلطة الوهابيين أمام الباشا المصري[1] واحتلت قواته كل منطقة نجد وشمال الجزيرة العربية باستثناء الجوف، رجعت البلدة إلى حالتها السابقة من النزاع وعدم الاتفاق. وهكذا استمر الوضع حتى جاء عبدالله بن رشيد بعد تعزيزه لسلطته في جبل شمر، حيث أرسل أخاه عبيدالله (المعروف بعبيد)[2] إلى الجوف ليضع نهاية للعداوات المشار إليها، وكانت العداوة في حينه بين خذما والدلهمية وذلك سنة ١٨٣٨ تقريبًا. بعد هذا التاريخ أصبحت الجوف تحت حكم شيخ شمر الذي ليس له ممثل مقيم هنا. إن لكل حي شيخه، الذي يحكم ويفصل في الخلافات على الأمور ذات الأهمية المحدودة. أما الأمور الأكبر فإنها تعرض على شيخ شمر نفسه الذي يدعو الأطراف المتنازعة إلى عاصمته حائل، وفي اجتماع عام تعرض المسائل أمامه وتناقش مع استشارة القاضي. أما الزكاة فيقوم عليها خمسة رجال من الجوف، يختارهم شيخ شمر. وفيما يتعلق بالقضايا الدينية، فيُعهد بها إلى خطيب خاص يختاره سكان كل حي من بينهم. يوجد خطيب واحد في حي خذما من الذين تلقوا تعليمهم في المدينة، وهو من جبل شمر، ولكن

---

(١) إبراهيم بن محمد علي باشا (١٧٨٩ - ١٨٤٨) قاد جيوش والده محمد علي باشا والي مصر (١٨٠٥-١٨٤٨) الغازية للجزيرة العربية في الفترة من ١٨١٦م/ ١٢٣١هـ - ١٨١٨م/ ١٢٣٤هـ للقضاء على الدولة السعودية الأولى وتدمير عاصمتها الدرعية، وتمكن من ذلك. تولى الولاية في مصر بعد أن تخلى له والده عنها بسبب مرضه عام ١٨٤٨م/ ١٢٦٥هـ لكنه لم يعمر فيها طويلاً ومات بعد شهور من توليه الحكم.

(٢) عبيد بن علي الرشيد (١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م - ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م)، شقيق عبدالله بن علي الرشيد وشريكه في تأسيس إمارة حائل وتوسيع مناطق نفوذها. كان فارسًا وشاعرًا شهيرًا، قام بالدور الأكبر في قيادة قوات هذه الإمارة لإخضاع منطقة الجوف ولمواجهة حالات التمرد التي كان يقوم بها أهالي المنطقة بين الحين والآخر للتحرر من سيطرة تلك الإمارة. له قصائد عديدة منشورة وغير منشورة موضوعها معاركه في منطقة الجوف.

الآخرين من الجوف نفسها. كل حي له مسجده الخاص، تؤدى به الصلوات اليومية وصلاة الجمعة.

بعد صلاة الظهر، يقوم الخطيب عادة بقراءة بعض أحاديث الرسول (ﷺ) أو بعض آيات القرآن، أو تفسير تعاليم الدين في مسائل التوحيد وتحريم اتخاذ أولياء من دون الله. وهذه النقطة هي مثار الخلاف بين الوهابيين والمسلمين الآخرين، ذلك أن جميع أتباع الدعوة يقرون نقاء مذهبهم، ويطلقون على أنفسهم لقب الموحدين، مقابل الآخرين الذين يعدّونهم مشركين؛ لأنهم يشركون مع الله كائنات أقل منه يعتقدون أنها تستحق التقديس. يعتبر هؤلاء كلمة وهابي التي يطلقها عليهم أهل المناطق العربية الخاضعة للحكم التركي إهانة لهم، ولا يطلقونها على أنفسهم أبدًا. كما أنهم لا يرون أنفسهم طائفة مستقلة بل تابعين للمذهب السلفي للإمام أحمد بن حنبل. كما أن أمراء عائلة ابن سعود لم يسكوا نقودًا تحمل أسماءهم.

وكما هو الحال في معظم القرى الوهابية، فإن الشباب هنا يدرسون ويتعلمون مبادئ دينهم وأصوله. والقراءة والكتابة منتشرة بينهم أكثر مما هو الحال في البلدان العربية الخاضعة لتركية. ورغم أن سكان هذه البلدة معروفون بخصوماتهم وصلابتهم فيما بينهم، إلا أنهم معروفون ومعترف بهم من جميع الناس بأنهم مضيافون جدًّا، وودودون مع الغرباء. وفيما يتعلق بي، فعليَّ الاعتراف أنه حتى من القبائل العربية المضيافة في الصحراء لم أقابل أية قبيلة تفوق أهالي الجوف في هذه الفضيلة، ولم يعاملني أحد من قبل بمثل ما عاملوني. كما أن أهل الجوف معروفون بمواهبهم الشعرية، فرغم تشدد المذهب الوهابي فيما يتعلق بالغناء والربابة (الأداة الوحيدة في الصحراء) وأنهما لا يليقان بالإنسان الورع والمؤمن الحقيقي، اعتقادًا بأن من يتمتع بالشعر والموسيقى في الحياة الدنيا، فإنه سيحرم منهما في حياته الآخرة، إلا أنني نادرًا ما قضيت ليلة واحدة دون رفقة بعض الشباب الذين يغنون بصحبة هذه الأداة البدوية الرتيبة والساحرة في الوقت نفسه. وبما أن موهبة الشعر والموسيقى منتشرة بين البدو، فإنني لا أستطيع أن أقول إن أهل الجوف

يبزون الآخرين في هذا الجانب. أما فيما يتعلق بما ذكره بوركهارت إن رجال الجوف أحيانًا يترحلون في المناطق المجاورة كقصادين[١]، فإنني لا أستطيع تأكيد ذلك، فأنا لم أقابل في أي مكان ذهبت إليه في الجزيرة العربية أي مهاجرين أو مسافرين من هذه البلدة. إنهم نادرًا ما يغادرون بلدهم، ولا يسافرون إلا حينما يُدعون إلى حائل لسبب أو آخر أو حينما يذهبون لأداء فريضة الحج. وهم لا يقومون بغزوات لأنفسهم؛ لكن بعض الأفراد يشاركون أحيانًا في غزوات إمارة شمر. وليس عندهم عادة السفر المتكرر أو الالتجاء إلى البلاد المجاورة للحصول على مؤنهم، من الدقيق والأرز وحاجياتهم الأخرى، كما هو الحال عند أهل حائل والقصيم؛ بل يعتمدون على حلفائهم البدو من قبائل عنزة والشرارات لجلب حاجياتهم من سورية أو العراق.

يعتمد ري البساتين وحقول النخيل في جزء كبير على مياه العيون والآبار فهم لا يحتاجون للإبل، وعدد قليل منهم يملك واحدة أو اثنتين من هذه الحيوانات، رغم أنها ضرورية جدًّا في الجزيرة العربية. وبدلًا من الجمال تستخدم البقر والثيران لمتح الماء من الآبار العميقة، وهي هنا لا تختلف عنها في باقي الجزيرة العربية، قليلة وهزيلة، ولا تذبح للأكل أبدًا، وإن تم ذلك فبعد تردد كبير. وتسمى جميع الحيوانات من الإبل أو غيرها التي تستخدم في سحب الماء من الآبار «سواني».

بسبب الحرمان من وجود الإبل وهي الوسيلة الوحيدة للنقل والاتصال في الصحراء فإن السكان عليهم دومًا الاعتماد في شؤون التجارة والنقل على البدو، عكس ما هي عليه الحال في قرى الجزيرة العربية الأخرى. وقد أعاقت العداوات والحروب المصيرية التي يبدو أنها تسود بين السكان منذ قديم الزمان من فرص التجارة. ولو أخذنا في الحسبان موقع المكان الذي لا شك يجعله في

---

(١) ذكر بوركهارت الآتي: «أهل الجوف مشهورون بمواهبهم الشعرية والموسيقية، وشعراؤهم يزورون قبائل عنزة من وقت إلى آخر يؤدون القصائد في خيام الشيوخ ويحصلون على مقابل لذلك.» انظر:

John Lewis Burckhardt, **Notes on the Bedouins and Wahabys** (London: Henry Colburn and Richard Bentley, 1831), p.75.

مأمن من الغزوات الخارجية، فإنه غير مناسب كمحطة تجارة واتصال. ولهذا يمكن القول إن الجوف احتلت دائمًا موقعًا دونيًّا في عملية التأثير في التاريخ العربي، فهي محاطة من جميع جوانبها بصحراء قاحلة لا يتوافر فيها الماء ويصعب فيها السفر، وإن أيًا من الطرق الممتدة من سورية أو من العراق إلى مكة، مجمع العرب في كل الأزمان، ومهد حضارة العرب والإسلام - لا تمر عبر الجوف. وحيث إنها غير متصلة مع المناطق الزراعية والمدنية المجاورة بقي أهلها في حدود قدراتهم المتواضعة. إن الإنتاج الوحيد لأرضهم هو التمر الذي يقايضونه بحاجياتهم الأخرى. أما الزيتون، الذي يذكر بعض المؤلفين العرب أنه زرع هنا، فلا يوجد منه أية شجرة يمكن رؤيتها، وأنا أشك إذا كانت التربة تناسب هذا النوع من النبات[١].

إن حاجات السكان المحدودة بجانب ما تعطيه بساتينهم، ربما تزودوا بها في السابق، مثل ما هو اليوم، بواسطة البدو، حيث يقايضونها بالتمر أو يشترونها بأنفسهم من السوق السنوي الذي يذكر القلقشندي[٢] أنه كان يعقد سنويًّا في قديم الأزمان. إن بُعد الجوف عن الطرق التي اعتاد الناس ارتيادها وصعوبة الاتصال معها يبدو أنها من الأسباب الرئيسية لعقد السوق فيها.

إن تمور الجوف من أحسن الأصناف ويَفضُل طعمه طعمَ تمور البصرة وبغداد؛ ولأنها كذلك، شكلت التمور أساس طعامي بل معظمه طيلة إقامتي التي امتدت لما يقارب ثلاثة أشهر. وأعترف أنني لم أضجر منها، وهناك مثل يقول «لا تمر مثل تمر الجوف وتيماء». عندما كنت في تيماء وجدت نوعًا واحدًا فقط ذا نوعية ممتازة. أما هنا، فإن كل نوع من الأنواع المختلفة، التي تنمو في الجوف ودون استثناء، كانت من أحسن الأنواع. من هذه الأنواع الكثيرة لاحظت ما لا يقل عن خمسة عشر نوعًا، وكلها تعدّ ذات نوعية راقية. يرد أهل الجوف سبب جودة نوعية تمورهم إلى أنهم يسقون نخيلهم ماء أقل مما يفعل الآخرون. يأخذ سكان نجد بقاعدة أن حلاوة التمر تزداد بزيادة الماء

---

(١) نجحت تجربة استزراع شجرة الزيتون في المنطقة وأصبحت شجرة رئيسة فيها.

(٢) أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالله القلقشندي مؤلف كتاب **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**.

للنخل، لذا فإنهم يسقون نخيلهم كل يوم. أما سكان الجوف فإنهم يسقون نخيلهم مرة واحدة كل ثلاثة أو أربعة أيام.

مع أن أهل الجوف يدفعون الزكاة إلى شيخ شمر، الذي يتلقى الزكاة دون التزام منه بكيفية صرفها، فإنهم ليسوا بمنأى من غارات بعض البدو الرحل. فكل حي متآخ مع إحدى القبائل البدوية المجاورة، حيث يدفعون إتاوة تسمى الخاوة[١]، وعادة ما تكون كميات محدودة من التمر. القبائل الرئيسية التي تأخذ هذه الإتاوة هي قبيلة الشرارات والجلاس من قبيلة الرولة[٢] وخصوصًا عائلتي الشعلان والنايف. هاتان العائلتان القويتان تعيشان معظم أيام السنة في حوران، وهي المنطقة التي تعرف عند البدو فقط بنقرة الشام، غير أنهم في الصيف يتوزعون في أراضي النفود الواسعة باحثين عن المراعي لقطعان إبلهم في جوار الجوف وآبار الشقيق[٣]، وأحيانًا يذهبون جنوبًا إلى منطقة القصيم وإلى الشمال الشرقي وإلى الشرق حتى يصلوا إلى الجزيرة في تخوم العراق، حيث يلتقون الفروع الأخرى لقبيلتهم. ويعيش بعض البدو الميسورين معظم أيام السنة على حسابهم في البلدة، ويرسلون إلى الصحراء قطعانهم مع راعٍ يعود كل أربعة أيام أو خمسة للسقاية من آبار الجوف. وفي موسم نضوج التمر يجمعون الكمية التي يستطيعون الحصول عليها من إخوانهم ويعبئونها في جلود كبيرة ويقايضون أهل البلدة أنواعًا من الملابس ببعض الإبل المسنة، التي مصيرها الذبح، ثم يعودون إلى منازلهم في حوران.

تقيم قبيلة الشرارات، كما رأينا، معظم أيام العام في وادي السرحان وينتشرون في النفود، وأحيانًا في جبال الشراة. الأقسام الرئيسة لهذه القبيلة هي:

---

(١) الخاوة تعني الابتزاز والدفع قسرًا، وهي نوع من الإتاوة يفرضها طرف قوي على طرف أضعف منه من خلال علاقة تآخي تفرضها مصلحة الطرف الأضعف للمحافظة على وجوده واستقلاله عن الطرف الأقوى.

(٢) قبيلة رئيسة من قبائل شمال الجزيرة العربية المنتمية إلى قبيلة عنزة إحدى قبائل العرب الكبرى، وسيرد في ثنايا هذا الكتاب الكثير حول قبيلة الرولة ودورها في منطقة الجوف.

(٣) مورد ماء رئيس لبادية منطقة الجوف، ويبعد عن دومة الجندل نحو ٧٠ كيلًا في اتجاه الجنوب.

١ - الفليحان، وشيخهم اللحاوي وهو شيخ شمل القبيلة.
٢ - الضباعين، والعائلة الرئيسة فيها تسمى شوشان.
٣ - الحلسة، وشيخهم ابن دعيجا.
٤ - العزام، وشيخهم يسمى شبلي.
٥ - السليم، وشيخهم الدويرج.

ينظر الشرارات إلى الجوف بوصفها بلدتهم الأصلية، ويبقون بقربها قدر الاستطاعة. ويأتون إليها وقت الموسم بأعداد كبيرة لمقايضة الماشية والصوف والزبد والسمن، أو أي مقادير من الرز جلبوها من أماكن أخرى. إضافة إلى محصول التمر، ويحصلون من سكان الجوف مقابل بضاعتهم على أنواع مختلفة من الحصير، أكياس الحمل، المفروشات المصنوعة من الصوف وذلك النوع من العباءات الصوفية السميكة والدافئة، ويسمونها هنا عباءة، وأحيانًا كثيرة يسمونهامشلح، ويشتهر أهل الجوف بنسجها. هذه العباءات رغم أنها محاكة من النسيج الخشن إلا إنها قوية ودافئة وتصدر إلى مكة حيث يكون عليها طلب كثير خلال موسم الحج، وتستورد حاجتهم من البن في معظم الأوقات من مكة عن طريق جبل شمر. وكل هذه التجارة تتم بالمقايضة؛ إذ النقود قليلة جدًّا هنا كما هو الحال في معظم أجزاء الصحراء.

إن أهل الجوف يتخيلون أن بلدتهم واقعة في قلب العالم ويطلقون عليها عادة «جوف الدنيا»، وفي الواقع، فإن المسافة بين هذا المكان والمناطق الزراعية المجاورة فيما وراء الرمال، التي تحيط بها من كل جوانبها متساوية تقريبًا في كل اتجاه؛ فدمشق في سورية والنجف (مشهد علي) في العراق، والرياض عاصمة نجد ومقر ابن سعود والمدينة والحجاز والكرك يمكن الوصول إليها من الجوف خلال سبعة أيام تقريبًا. ودمشق معروفة عند عرب هذا العصر باسم الشام الكبيرة، بالأسلوب نفسه الذي نعرف به القاهرة التي تدعى مصر الكبيرة. وحتى لو استخدم الاسم القديم أحيانًا، فإن من النادر أن يتم ذلك إلا من قبل بعض المتعلمين الذين يتهجونها كما يتهجاها المؤلفون العرب. ولكن عموم الناس في الجوف ونجد وسورية يكتبونها بطريقة ثابتة

دَمْشَقْ أو دِمشْقَ. يكرر السوريون أحد الأمثال القائلة: «الشام دمشقاء»، أي إن دمشق نظيفة وجميلة وسكانها أنيقون وذوو وسامة. وبكل تأكيد، فإن كان هناك مدينة في الشرق تستحق هذا الثناء فهي دمشق.

في الطريق من الجوف إلى دمشق توجد موارد ماء في عدة مواضع بحسب إفادة أهل الجوف. وهذه المواضع هي:

النبك (في وادي السرحان وعلى مسافة يوم واحد من الجوف)، مغيراء، غراب، قراقر، الهزيم، الأزرق، بصرى، حريره، رزدالي على طريق الحج، العوبج، دمشق.

وفي الطريق إلى الكرك توجد آبار المياه الآتية:

ميقوع، عيون البيضاء، العمري، الحفير، القطران، اللجون.

أما الطريق إلى الرياض، وهو الطريق المستخدم، فتمر عبر جبل شمر والقصيم؛ ويتطلب الطريق سفرًا يمتد من اثني عشر إلى ثلاثة عشر يومًا، ولكن الطريق المستقيم عبر الصحراء لا يتجاوز سبعة أيام، بينما المدينة فيصعب الوصول إليها عبر تيماء والحجر في أقل من تسعة أيام. أما الطريق إلى الهلال الخصيب، فيعبر النفود شمال الجوف ويلتقي بالطريق الذي يسلكه سكان جبل شمر في زياراتهم المتكررة إلى ذلك الإقليم، ولكن كما سبق وذكرت، فإن سكان الجوف نادرًا ما يسافرون إلى هناك.

إن الاسم الحالي للجوف الذي لا يظهر أبدًا عند المؤلفين العرب، يبدو أنه يشير إلى شكل ذلك الوادي الموصوف، الذي يأخذ وضع فجوة في سلسلة من الجبال التي تحيط به من جميع الاتجاهات. ولا يمكن اعتبار أن الصحراء المحيطة بالجوف وتشكل امتدادًا له أرضًا منخفضة تنحدر تدريجيًّا من نجد إلى سورية كما كان افتراض فون هامر (Joseph von Hammer-Purgstall)[1]، الذي

---

(١) جوزيف فون هامر (١٧٧٤-١٨٥٦) مستشرق نمساوي، عمل في السلك الدبلوماسي النمساوي وعيّن في السفارة النمساوية في إستانبول في عام ١٧٩٦ وعاد إلى بلاده في عام ١٨٠٧ حيث أصبح مستشارًا خاصًّا في البلاط النمساوي. كان يجيد اللغات التركية والعربية والفارسية فترجم عدة أعمال منها إلى اللغة الألمانية. كتب كثيرًا في موضوعات مختلفة، ومن أهم أعماله كتاب «تاريخ =

نقل عنه ريتر، في موسوعته الجغرافية، وهو أن كلمة الجوف تعني المطمئن من الأرض مقابل الجبل الذي يعني الارتفاع. وأرى أن الجوف في موقع أكثر ارتفاعًا نسبيًّا من نجد. وجبال جال الجوف بالإضافة إلى البقع الجبلية الصخرية التي تحيط بها من الغرب والشمال هما الأعلى، الأمر الذي يجعلنا نقول إنها قمة هضبة شبه الجزيرة. وعلى المنوال نفسه، فإني أناقض ما جاء به ريتر، ذلك الجغرافي العظيم، الذي يعدّ الجانب الجنوبي للجوف هو الجزء الجبلي، أما الجزء الشمالي فهو الجزء المنخفض والمنبسط. بالنسبة لي، فإن العكس هو الصحيح، فكما رأينا فإن الجزء الشمالي للسلسلة الجبلية يرتفع مع وجود مصاطب ممتدة غربًا وشمال غرب، حتى يلتقي مع أخفض مكان لسلسلة جبال الأضارع. أما الجزء الشمالي من سلسلة الجوف فهو يتألف من بقع جبلية تقل وتزيد لمسافة رحلة يوم، حتى تقارب وادي السرحان، أما الجزء الجنوبي والشرقي لهذه السلسلة فهو بالمقابل، وإلى حدٍّ ما أخفض، ولا تتشكل به أية تلال أو بقع جبلية حتى النفود، ولكنها تتوقف مباشرة عند حد الوادي. وهكذا لا يوجد أي اتصال من أي نوع مع جبلي طيِّئ اللذين يفترض ريتر أنهما يبدآن بالانحدار التدريجي حتى يلتقيان بالأرض المنخفضة المتخيلة للجوف.

تقع في الشمال الشرقي لبلدة الجوف، وعلى مسافة إحدى عشرة ساعة، بلدة أخرى تسمى سُكاكة أو سكاكة[١]، حيث تلفظ بدون الضمة. تضم هذه البلدة قلعة قديمة متداعية، تسمى زعبل، كما تضم أربعة أحياء أو أسواق هي: العمران، السهيان، الحركان، والفياض. هذا المكان عدَّه ياقوت (ياقوت الحموي) ضمن القرى التي تنسب إليها دومة الجندل، وقال: «والسكاكة إحدى القريات التي منها دومة الجندل وعليها أيضًا سور، لكن دومة أحصن وأهلها أجلد»[٢]. رغم أنني لم أجد الفرصة لزيارة المكان خلال إقامتي

= الإمبراطورية العثمانية» في عشرة أجزاء. أسهم في تأسيس أكاديمية العلوم النمساوية في فينا وأصبح أول رئيس لها (١٨٤٧-١٨٤٩).

(١) سكاكة (تلفظ وتكتب حاليًا سكاكا) من بلدان منطقة الجوف الرئيسة، وعاصمتها حاليًّا، وتبعد عن بلدة دومة الجندل (الجوف) حاضرة المنطقة، خلال الحقبة التي يغطيها هذا الكتاب، بنحو خمسين كيلًا.

(٢) اعتمد والن، حسبما أشار، على مخطوطة معجم البلدان الموجودة في مكتبة معهد الاستشراق =

بالجوف، فإن لديّ سببًا للاعتقاد بهذا الوصف الذي يتناسب مع الحالة الحقيقية لسكانها الحاليين. كان رجال من هذا المكان يأتون إلى الجوف لاستشارتي كطبيب لأمراض مختلفة، فوجدت فيهم خشونة، وعلى غير العادة في الجزيرة العربية، كانت قسمات وجوههم غير مقبولة[1]، والحالة الصحية العامة في البلدة كما قيل سيئة، ومن الأمراض التي وجدتها عند بعض المرضى الدرجتين الثانية والثالثة من مرض السفلس[2]. ويُقدر عدد العائلات التي تعيش في سكاكة بنحو أربع مئة عائلة.

هناك موضع آخر صغير، يسمى قصر الطوير، ويضم عشر عائلات ويقع على مسافة ٨ ساعات من دومة الجندل. بين هذين الموقعين يوجد مكان ثالث يدعى قارة، وعدد سكانه يصلون إلى عشرين عائلة تقريبًا، ويردون أصلهم إلى بدو الدغمي من قبيلة عنزة. وفيه أيضًا قلعة تسمى المشرفة. جميع هذه الأماكن الثلاثة كما علمت تقع بأرض منبسطة مفتوحة ذات تربة صلبة، وتحتوي على وفرة من الماء، وعلى آبار عميقة. وبناء على ما سبق فإنني أفترض أن الصحراء هنا كما هي في الشمال الغربي للجوف ولمسافة يوم تزيد وتنقص، تحتفظ بسمات الأرض الجبلية المتداخلة بسلسلة منحدرة من جال الجوف.

جميع هذه القرى، تابعة لحكم شيخ جبل شمر. وتدفع له الزكاة التي يجمعها الرجال أنفسهم المكلفون بجبايتها في الجوف.

= الروسي في بطرسبورغ قبل تحقيقها ونشرها. وهي الآن محققة ومنشورة في عدة طبعات ويمكن الرجوع إلى المعجم مباشرة في أيٍّ من طبعاته. وفي تحقيق ما نقله والن من هذه المخطوطة عن موضوع هذا الكتاب اعتمدت: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**. تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠). حول ما ذكره عن سكاكة، انظر: **المصدر نفسه**، المجلد الثاني، ص ٤٥٥.

(١) هذا القول لا يتسق مع الموضوعية التي عرف بها والن، فهو قد عمم ما وجده في عدد محدود ممن رأى من أهل هذه البلدة على الجميع، وعليه لا ينبغي أخذ هذا القول كما هو، فالواقع ينافي هذا الوصف.

(٢) كان والن مهتمًا بهذا المرض كثيرًا لأسبابه الخاصة، لهذا نجده يكرر ذكره في مذكراته وكتاباته حول تجاربه في البادية. وهنا أيضًا لا ينبغي أن يحمّل قوله أكثر مما يحتمل، فإذا ما وجد هذا المرض في حالات قليلة كما أشار بنفسه فهذا لا يعني أكثر من الحالات نفسها.

إن اسم دومة الجندل، وهو الجوف حاليًا، ويطلق عليه حصريًّا، معروف ويذكره الجغرافيون العرب، ومازال يعيش في ذاكرة سكانه، وقد قيل: إنه يعني كومة من الصخور الكبيرة. فإذا كان هذا هو المعنى الصحيح للكلمة، فإنه ربما يفترض أنه يشير إلى ذلك الجبل الكلسي المشار إليه آنفًا، ويشمخ فوق سهل ذلك الوادي على شكل كومة. بعض السكان أكد أن كلمة «الجندل» تعبر عن نوع معين من الصخر الذي يتكون منه هذا الجبل. أما المؤلفون العرب، فلا يتفقون معهم في هذا المعنى للكلمة، فهم يرجعونها إلى دوم (كتبه البعض دومان، دُمًا، دَوماءُ) ابن إسماعيل بن إبراهيم. أو حسب آخرين إلى دومات أنوش(؟) ابن شيث بن آدم. وكما يختلف هؤلاء في تهجئة اسم مؤسس المكان، فهم يختلفون حول تهجئة الاسم نفسه. فالسكان الحاليون يلفظونه دَوما وآخرون دُوما. مهما يكن الأمر، فابن الكلبي المعروف المشار إليه في العمل الجغرافي العظيم لياقوت يقول: «إنه لما كثر ولد إسماعيل عليه السلام بتهامة خرج دوماءُ بن إسماعيل حتى نزل موضع دومة وبنى به حصنًا فقيل دوماء ونسب الحصن إليه، وهي سبع مراحل، من دمشق». مؤلف آخر، هو أبو سعد ومشار إليه في المؤلَف السابق نفسه يقول: «دومة الجندل في غائط من الأرض خمسة فراسخ، قال: ومن قبل مغربه عين تثجُّ فتسقى مابه من النخل والزرع». هذه العين ربما يمكننا تحديدها حاليًّا بعين أم سالم. ويقول أيضًا: «وحصنها مارد، وسميت دومة الجندل لأن حصنها مبني بالجندل». أما أبو عبيد السكوني الذي يقتبس منه معجم البلدان لياقوت فيذكر أن: «دومة الجندل حصن وقرًى بين الشام والمدينة قرب جبلَيْ طيِّئ كانت به بنو كنانة من كلب، قال: دومة من القريات، من وادي القرى إلى تيماء أربع ليال، والقريات: دومة وسكاكة وذو القارة، فأما دومة فعليها سور يُتحصن به، وفي داخل السور حصن منيع يقال له مارد، وهو حصن أُكَيْدر الملك بن عبدالملك بن عبدالحي بن أعيا بن الحارث بن معاوية بن خلاوة بن أبامة بن سلمة بن شكامة بن شبيب بن السكون بن أشرس بن ثور بن عُفير وهو كندة السكوني الكندي، وكان النبي ﷺ، وجه إليه خالد بن الوليد من تبوك وقال له

ستلقاه يصيد الوحش، وجاءت بقرة وحشية فحككت قرونها بحصنه فنزل إليها ليصيدها فهجم عليه خالد فأسره وقتل أخاه حسان بن عبدالملك، وافتتحها خالد عنوةً، وذلك سنة تسع للهجرة، ثم إن النبي، ﷺ، صالح أُكيدر على دومة وآمنه وقَرّر عليه وعلى أهله الجزية، وكان نصرانيًا فأسلم أخوه حُرَيْث فأقره النبي على ما في يده ونقض أكيدر الصلح بعد النبي، فأجلاه عمر، ﷺ، من دومة فيمن أجلى من مخالفي دين الإسلام إلى الحيرة[1] فنزل في موضع منها قرب عين التمر[2]، وبنى به منازل وسماها دومة، وقيل دوماء باسم حصنه بوادي القرى، فهو قائم يعرف إلا أنه خراب» .

ويقول ياقوت: «وأهل كتب الفتوح مجمعون على أن خالد بن الوليد ﷺ، غزا دومة أيام أبي بكر ﷺ، عند كونه بالعراق سنة ١٢هـ، وقُتل الأُكيدر لأنه كان نقض وارتد، وعلى هذا لا يصح أن عمر أجلاه وقد غزي وقتل في أيام أبي بكر». ويقول ياقوت أن أحسن ما ورد في ذلك ما ذكره أحمد بن جابر، الذي قال: «بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ﷺ سنة تسع إلى أُكيدر بن عبدالملك بدومة الجندل فأخذه أسيرًا وقتل أخاه، وقدِم به على النبي وعليه قباء ديباج بالذهب، فأسلم أُكيدر وصالحه النبي على أرضه وكتب له ولأهل دومة كتابًا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمد رسول الله لأُكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام، ولأهل دومة: إن لنا الضاحية من الضحل والبور، والمعامي وأغفال الأرض والحلقة والسلاح، والحافر والحصن، ولكم الضامنة من النخل والمَعين من العمور، لا تعدل سارحتكم، ولا تُعد فاردتكم، ولا يحظر النبات، تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة لحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق ولكم به الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر من المسلمين». ثم عاد أكيدر إلى دومة، فلما

---

(١) مدينة تاريخية قديمة تقع في جنوب وسط العراق.

(٢) يقول عنها ياقوت في معجمه: «بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له شفاثا منهما يُجلَب القسب والتمر إلى سائر البلاد وهو بها كثير جدًا، وهي على طرف البرية وهي قديمة افتتحها المسلمون في أيام أبي بكر على يد خالد بن الوليد في سنة ١٢ للهجرة». وهي اليوم من بلدان محافظة كربلاء في العراق وتبعد مسافة ٤٠ كيلًا غربي مدينة كربلاء.

مات الرسول منع أكيدر الصدقة وخرج من دومة الجندل ولحق بنواحي الحيرة وابتنى قرب عين التمر بناء وسماه دومة، وأسلم حريث بن عبدالملك أخوه على ما في يده فسلم له ذلك. وتزوج يزيد بن معاوية ابنة حريث، وقيل إن خالدًا لما انصرف من العراق إلى الشام مر بدومة الجندل، التي غزاها أولًا بعينها وفتحها وقتل أكيدر؛ قال: وقد روي: أن أكيدر كان منزله أولًا بدومة الحيرة، وهي كانت منازله، وكانوا يزورون أخوالهم من كلب، وإنه لمعهم وقد خرجوا للصيد إذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق إلا حيطانها وهي مبنية بالجندل، فأعادوا بناءها، وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها دومة الجندل تفرقة بينها وبين دومة الحيرة، وكان أكيدر يتردد بينها وبين دومة الحيرة، فهذا يزيل الاختلاف»[1].

إن هذه الروايات، هي جوهر ما ذكره ياقوت عن دومة الجندل أو الجوف حاليًا بالإضافة إلى مقاطع شعرية تشير إلى هذا المكان، ولكن هذه المخطوطة الثمينة التي تخص المتحف الآسيوي في سانت بطرسبورغ ومنها أخذت هذه المقتطفات، تحتوي على الكثير من الأخطاء والنواقص.

إن دومة الحيرة، التي يشير إليها ياقوت بأنها البلدة الشقيقة لدومة الجندل، هي بكل وضوح المكان الذي ذكره بوركهارت، وذكره ريتر، ويدعى Dumathir أو Dumathor الواقعة في الأرض المنخفضة والمنبسطة للعراق، وتبعد مسافة ستة أيام على الأقل عن دومة الجندل. إن ريتر المؤلف المعروف صاحب المعجزة الجغرافية، عنده كل الحق في ترجمة كلمة دميثة بالأرض المنبسطة (Terra Plana) حيث دومة العراق[2] ليميزها من دومة الجندل التي رأينا فيما سبق أنها محاطة بالجبال من جميع نواحيها. ولكن لا يوجد سبب لهذا الجغرافي الألماني المطلع ليستنتج من هذا أن نيبور ربما عرف الجوف فقط من الجهة الجنوبية، واقترض أن هذا الجزء هو الجزء الجبلي فقط

---

(١) معجم البلدان، المجلد الثاني، ص. ٥٥٤-٥٥٦.

(٢) Carl Ritter, **Vergleichende Erdkunde von Arabien**, Vol.2 (Berlin: Druck und Verlag von G. Reimer, 1847), p.377-381.

لهذه الأرض، بينما المعلومات المتأخرة، التي جاء بها بوركهارت وسيتزن ربما تشير إلى أن الجانب الشمالي هو المفترض أن يكون أرضًا منبسطة ومنخفضة.

وصف آخر لغزوة قام بها الرسول [ﷺ] ضد دومة الجندل، يوجد في تاريخ رشيد الدين[١] (مخطوط في الجمعية الملكية الآسيوية بلندن)[٢]. وجاء الوصف في هذا المخطوط كالتالي: «عندما، في شهر ربيع الأول، وهو الشهر الخمسون من الهجرة، وصل نبأ إلى النبي بأن هناك عربًا قد اجتمعوا في دومة الجندل وهي على مسافة خمسة أيام من دمشق، وخمسة عشر يومًا من المدينة، خلف على إدارة المدينة سباعًا [بن عرفطة الغفاري]، وانطلق بنفسه ومعه ألف رجل ودليل يدعى مذكور من قبيلة عذرة، وكان يسري ليلًا ويستريح نهارًا. عندما وصل إلى المكان وجد البلدة خالية حيث فر سكانها تاركين وراءهم ماشيتهم وأمتعتهم غنيمة سهلة لأتباع النبي. أرسل الرجال للبحث عن السكان، وفي آخر الأمر وجدوا رجلًا منهم أحضروه إلى النبي فأفاد: أن السكان عندما علموا بقدوم القوات المهاجمة تقترب من بلدتهم، فروا جميعًا. بعد ذلك أُجبروا على الخروج من مخابئهم، والمثول أمام النبي لاعتناق الدين الجديد، بعد ذلك رجع النبي إلى المدينة في العاشر من شهر ربيع الثاني».

آخر وأهم مؤرخي العرب القدامى كوسان دي برسفال (Armand-Pierre Caussin de Perceval)[٣]، بالاعتماد على الطبري ومؤلفين عرب آخرين،

---

(١) رشيد الدين فضل الله الهمداني (١٢٤٧ - ١٣١٨م) مؤرخ وطبيب ووزير فارسي. له كتاب «جامع التواريخ».

(٢) وهي مخطوطة من كتاب جامع التواريخ باللغة العربية تم نسخها في سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤م. وقد احتفظت الجمعية الملكية الآسيوية بهذه المخطوطة حتى عام ١٩٨٠ إذ قررت بيعها لحاجتها للمال. وقد بيعت في مزاد سوثبي **Sotheby** الشهير بمبلغ وقدره ثمان مئة وخمسون ألف جنيه إسترليني وهو ثمن لم تصله أية مخطوطة عربية أخرى. وكان المشتري رجل الأعمال وجامع التحف والنوادر الإيراني الأصل ناصر ديفيد خليلي. حول هذه المخطوطة وقصتها، انظر:

Paul Lunde and Rosalind Mazzawi, A History of the World, **Aramco World Magazine**, Vol. 32, No.1, January/ Febrauary1981, pp. 2-7.

(٣) أرمان بيير كوسان دي برسيفال (١٧٩٥-١٨٧١) مستشرق فرنسي أقام في الشرق مدة طويلة، ولما =

وصف الفتح الأخير لدومة الجندل كالتالي: «في السنة الثانية عشرة للهجرة، أرسل أبو بكر اثنين من قادته، خالد [بن الوليد] وعياض [بن غنم] لدخول العراق وفتحه من طريقين مختلفين، فأمر عياضًا أن يتبع الطريق الصحراوي المباشر لإخضاع دومة الجندل المتمردة. هذا القائد كان بعيدًا كل البعد عن التمكن من إخضاع المتمردين وإعادتهم للطاعة، فوجد نفسه متورطًا في حصار البلدة. كتب عياض إلى خالد، الذي فتح الحيرة والأنبار واحتلهما، وكان حينها في عين التمر، يرجو منه القدوم لمساندته. أسرع خالد في تلبية طلب مساعدة أخيه القائد، بعد أن ترك حامية في البلدان المفتوحة، فتمكن من فتح البلدة وإخضاع السكان المتمردين. قتل خالد الأُكيدر، الذي كان قد رفض مقاتلة خالد ونصح السكان بعقد سلام مع المسلمين وتسليم البلدة، وقتل كذلك حاكمًا آخر للبلدة، يدعى الجودي بن [ربيعة]، الذي قام بهجوم على قوات خالد، وكان يرأس الجيش الذي يتكون من محاربين ينتمون إلى البلدة وعددًا كبيرًا من القبائل المجاورة، وتم أسره في هذا الهجوم. مؤرخون آخرون حسب برسفال، يقولون: «إن أُكيدر أُخذ أسيرًا إلى المدينة ومثل أمام النبي. بعد ذلك أطلق عمر سراحه، ونُفي إلى العراق حيث بنى دومة الحيرة»[1].

إن من المحتمل جدًا عندي أن أُكيدر وجد وسيلة للفرار من الفاتحين المسلمين، أو أنه إذا ما تم أسره لم يمكث طويلًا في الأسر، وسُمح له بعد الفتح إما أن يرجع إلى بلدته الأصلية أو النفي إلى العراق. من بلدته الجديدة التي أسسها، ربما كان يعود إلى دومة الجندل التي كان يحتفظ ببعض النفوذ

= عاد إلى فرنسا عين في كرسي اللغة العربية العامية في مدرسة اللغات الشرقية ثم في كرسي اللغة العربية الفصحى وأدبها في الكلية الفرنسية عام ١٨٣٣، كما اختير عضوًا في المجمع اللغوي عام ١٨٤٩. له مؤلفات حول اللغة العربية والأدب العربي، ومن أبرز آثاره كتابه عن التاريخ العربي المطبوع عام ١٨٤٧ الذي جاء في ثلاثة مجلدات: يتناول المجلد الأول مرحلة ما قبل الإسلام؛ والمجلد الثاني عصر النبي محمد (ﷺ)، والمجلد الثالث انضواء القبائل العربية تحت راية الإسلام. انظر: عبدالرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ط ٣(بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣)، ص. ٤٨٨.

(١) A. P. Caussin de Perceval, **Essai sur l'histoire des Arabes avant rislamisme, pendant l'epoque de Mahomet,** Vol.3(Paris: Librairie De Firmin Didot Freres, 1848), p.414.

والسلطة فيها، حتى جاء الخليفة عمر، الذي في بداية خلافته، قرر أن ينفذ أمر النبي «بأن لا يُسمح لغير المسلمين أن يستوطنوا الجزيرة العربية». إن عملية طرد المسيحيين، وفتح المسلمين الأخير لدومة الجندل، هما الأمران اللذان يبدو أن السكان الحاليين يشيران إليهما، حيث ينسبون إلى عمر فتح المكان. كما أنه، ومن منطلق الاعتقاد السابق نفسه يقال: إن عليًّا [ابن أبي طالب] ساعد في عملية الفتح، فبضربة من سيفه شق الباب الحديدي لقلعة مارد، رغم أنني لا أعرف أي مؤلف عربي ذكر أن عليًّا شارك في أية حملة على دومة الجندل.

تخلط اعتقادات الناس هنا، موضوع الفتح الأخير لدومة الجندل، الذي تم في خلافة أبي بكر أو عمر مع الحملة التي أرسلها الرسول [ﷺ] بقيادة خالد عندما كان في تبوك. فالسكان الحاليون في الجوف وفي تبوك يخبروننا أن هذه الغزوة هي الأولى والوحيدة التي تم خلالها فتح المكان. وكما يظهر، فإن الاحتمال الأكبر، هو أن البلدة لم تُفتح في هذه الغزوة؛ لأن النبي خلال إقامته في تبوك استلم أيضًا رسائل من بعض البلدان المجاورة، أيلة وأذرح تقبل دفع الجزية، مقابل بقائهم على دينهم. أما غزوة السنة الخامسة للهجرة التي ذكرها تاريخ رشيد الدين، وذُكرت في تاريخ الخميسي[(١)] حسب ما نقل عنه برسفال، فكانت لتأديب بعض القبائل البدوية، كلب والسكون، الذين هاجموا قافلة آمنة كانت في طريقها من سورية إلى المدينة[(٢)]، ويظهر أنه ما عدا المنهوبات التي تم تحصيلها من السكان، لم تخلف أي نفوذ ولم يكن لها أي تأثير على الحياة السياسية للمكان.

أما القلقشندي في كتابه «الأنساب» فيعد دومة الجندل ضمن بلاد الأسواق في الجزيرة العربية التي يأتي إليها العرب القريبون والبعيدون وينزلونها في أول يوم من شهر ربيع الأول، ويتاجرون بالمقايضة حتى آخر

---

(١) هو كتاب **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس** لمؤلفه القاضي حسين الديار بكري(ت. ٩٦٦هـ)، ويعرف بتاريخ الخميسي.

(٢) A. P. Caussin de Perceval, **Essai sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme, pendant l'epoque de Mahomet**, Vol.3(Paris: LibrairieDe Firmin Didot Freres, 1848), p.129.

الشهر. ويستضيفهم أكيدر حاكم البلدة خلال هذه المدة. وفي بعض الأحيان تكون قبيلة كلب نفسها سيدة للسوق عندما يقوم بعض مشايخها برعاية العرب المشاركين[١].

فيما يتعلق بالدين الذي كان غالبًا في الجوف قبل الإسلام، فإن السكان الحاليين مجمعون على أن الدين المسيحي كان معتقدًا به هنا. ولكن هناك أحاديث نبوية أوردها ياقوت في معجمه الجغرافي يشير بصورة غير مباشرة إلى أن اليهودية كان معتقدًا بها هنا أيضًا. وإذا ما أخذنا في الحسبان العلاقات والمبادلات التي تقوم بين الجوف، بحكم موقعها، وفي جميع الأزمان، هي مع سورية أكثر مما هي مع غيرها من البلدان. وهنا يمكن الافتراض، أن أي دين أو حضارة سادت في سورية عبر الأزمان تغلغلت بصورة أو بأخرى هنا. ويصح الافتراض أيضًا أن الديانتين المسيحية واليهودية قد سادتا في الجوف، وعند ظهور الإسلام، كانتا سائدتين فيها، كما كان الحال في معظم البلدان الشرقية. لكن الكتاب العرب يذكرون أن صنمًا يسمى وَدّا كان في دومة الجندل. وفي رأيي أن الصحراء لم تكن أبدًا المكان المناسب لعبادة الأصنام، كما أن طبيعة البدو الأصليين، وطبيعة أرضهم، لا تتفق مع هذا النوع من العبادة. لذلك أفترض إذا كانت عبادة الأصنام قد وجدت في الماضي في أي مكان في الصحراء فهي قد جاءت مع القبائل اليمنية التي كانت تهاجر من وقت إلى آخر من أرضها، ومع الزمن تمكنت من السيطرة على نجد ومعظم شمال الجزيرة العربية. أما في اليمن، فإن من المحتمل أن عبادة الأصنام، جاءت من الهند التي كما يظهر أنها تمتعت قديمًا بعلاقات نشطة مع الأجزاء الجنوبية للجزيرة العربية ومازالت تلك العلاقات موجودة بشكل محدود.

إن طريق الهجرة من اليمن كان يقود أولًا إلى مكة، تلك البلدة التي تبدو لي ذات شخصية هندية أكثر من كونها عربية حقيقية، ومنها ينتشرون إلى الحجاز وتهامة. ومن مكة كانوا يرحلون بمحاذاة سلسلة المرتفعات الجبلية

---

(١) أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالله القلقشندي، **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب** (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، ص. ٢٥٩.

الممتدة من سلسلة الجبال الرئيسة في اتجاه الشمال الشرقي وتشكل الحد الشمالي لنجد. وقد وصل هؤلاء تدريجيًّا إلى جبلي طيِّئ، ومن هناك كان عليهم الاختيار بين طريقين مختلفين: أولهما يقود شمال شرق إلى الهلال الخصيب وفارس، أما الطريق الثاني فشمال غرب ويعبر إما إلى الجوف أو إلى تبوك وإلى سورية، ومصر، وشمال إفريقية. من المحتمل أن هؤلاء النازحين كانوا قد نقلوا معهم صنمهم الذي ينصبونه في المكان الذي يستقرون به، ليعبدوه ويتقربوا إليه؛ لكن من غير المحتمل، حسب ما يبدو لي، أنهم حاولوا حمل السكان الأصليين في البلاد التي نزلوها على اعتناق دينهم. وإذ كان هناك تسامح في الأمور الدينية في عهد الجاهلية في كافة أنحاء الجزيرة العربية يمكن لنا افتراض أن هؤلاء النازحين هم من تبنوا عادات ولغة ودين السكان الأصليين؛ لأن هؤلاء السكان يفوقونهم في الثقافة والحضارة. لقد كان ذلك هو الحال مع قبيلتي كلب وسكون اللتين كانتا مسيطرتين على الجوف زمن فتح تلك البلدة. فهؤلاء قد عبدوا صنمهم وَدًّا لبعض الوقت، ثم اعتنقوا المسيحية التي احتفظوا بها حتى دخولهم الإسلام على يد الفاتحين قسرًا. وهكذا يمكننا الافتراض وفقًا للاعتقادات المعاصرة وللمؤرخ العربي العظيم ابن خلدون الذي نقل عنه برسفال، أن الدين السائد في الجوف عند الفتح كان الدين المسيحي[1]، وليس كما ذكر ريتر أن بني كلب كانوا لا يزالون يعبدون صنمهم ودًّا الذي كان على هيئة رجل[2].

في اليوم الثلاثين من شهر أغسطس غادرت الجوف برفقة عائلة بدوية من قبيلة صغيرة، تدعى الحوازم، تعيش مع الشرارات بجوار سكاكة. وأعتقد أن هؤلاء الحوازم هم بقايا قبيلة غطفان القوية سابقًا، التي انتشرت تحت اسم الحوازم في جزء واسع من نجد، وكانت تتمتع بنفوذ كبير في تاريخ العرب

---

(١) ذكر ابن خلدون في تاريخه أن من كانوا في مواجهة عياض بن غنم من نصارى العرب عند محاصرته دومة الجندل في السنة الثانية عشر للهجرة بناحية دومة الجندل هم بهرام وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم. انظر: عبدالرحمن بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، مج ٢ (بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، ١٩٧٩)، ص. ٨٢.

(٢) Carl Ritter, Erkudne, Vol.13, p. 379.

القديم. وهم يعيشون هنا مستضعفين، معرضين لسلب وغزو جيرانهم الأقوياء من قبيلة شمر، الذين يقومون في مجموعات صغيرة أو كبيرة بمهاجمتهم وسلبهم باستمرار. وقد سلبوا مؤخرًا الجزء الأكبر من مواشي وإبل عدوهم الضعيف وساقوها إلى مضاربهم، وللحفاظ على نفسه وما تبقى له من القليل الذي كان يملكه قرر رفيقي أخذ عائلته وهذا القليل من الإبل التي بقيت له، متخليًا عن أرضه وعن قبيلته، والهجرة إلى منطقة عدوه وفيها سيكون متأكدًا من وجود الأمن بإعلانه الولاء ودفع الزكاة لشيخ شمر. ولأنه من قبيلة معادية لمن هو ذاهب إليهم، فقد أراد حماية لنفسه في طريقه في حال وقع مصادفة مع جماعة من أعدائه. لقد وجد الحماية من خلال امرأة شمرية أصلها من جبة، لكنها متزوجة ومقيمة في الجوف. لقد تبعتنا هذه المرأة وزوجها، وأثبت وجودها أنه كافٍ لحمايتنا من قطاع الطرق من رجال بلدتها الذين التقيناهم في طريقنا. بعد عبورنا وادي الجوف باتجاه جنوب - شرق في ثلاثة أرباع الساعة، صعدنا جبال جال الجوف وهي من هذه الناحية منخفضة إلى حدٍّ ما، ومنحدراتها مغطاة برمال ناعمة ومتحركة. ومن جهتها الأخرى لم يكن علينا القيام بأي عملية نزول من قمم سلسلة جال الجوف؛ لأنها تتلاشى تدريجيًّا في رمال أرض النفود التي تبدأ من هنا وتستمر دون انقطاع إلى قرب سلسلة جبال أجأ في منطقة جبل شمر. وبعد مسير خمس ساعات في هذه الأرض الرملية توقفنا للمبيت. وفي اليوم الواحد والثلاثين من شهر أغسطس أوصلنا مسير ثلاث عشرة ساعة وثلاثة أرباع الساعة متواصلة باتجاه جنوب - جنوب - شرق إلى آبار الشقيق، وعددها ست آبار، واقعة في سهل ذي تربة صلبة وملحية، تختلف اختلافًا كبيرًا عن الرمل الناعم الذي تتكون منه الأراضي المحيطة. تتراوح أعماقها جميعًا من عشرين إلى خمس وعشرين قامة، مشكلة أحواضًا واسعة في أسفلها، ولها فتحات دائرية ضيقة، قطر الواحدة منها نحو الياردة. وهي مطوية ببراعة بحجارة كبيرة، وعلى الأحجار التي تشكل فتحات هذه الآبار استطعت التعرف على رموز مختلفة من الصلبان والأشكال وهي بكل وضوح ترمز لحروف، مع أنها الآن غير مميزة وعفا عليها الزمن. الماء عذب

وممتاز، ولا ينقطع طوال السنة. ولأن هذه الآبار هي الوحيدة مابين الجوف ونجد، وفي أرض غنية بالكلأ، حتى إلى نهاية الصيف، فهي ذات أهمية كبيرة ليس للاتصال بين سورية ونجد فحسب، بل أيضًا للبدو الرحل الذين يكونون متأكدين من وجود المرعى فيها لقطعانهم في أي فصل من فصول السنة. وخلال الشهرين الأخيرين من هذا الصيف خيم حول هذه الآبار أكثر من مئة عائلة من قبيلة الرولة ومن قبيلة شمر ومن قبيلة الشرارات، إذ وجدوا مراعٍ كافية لقطعان إبلهم خلال تلك المدة الطويلة؛ ولأن الماء بدأ بالتناقص في هذه الآبار ولا يكفي لسقيا قطعانهم كانوا مكرهين على مغادرة المكان قبل يومين من وصولنا. تقطع المسافة في العادة بين الجوف والشقيق في اثنتي عشرة إلى أربع عشرة ساعة، لكننا قطعناها في نحو عشرين ساعة بسبب ضعف وهزال رواحلنا. من المحتمل أن هذه الآبار هي التي ذكرها ياقوت تحت الاسم نفسه بوصفها ماء لبني أسيد بن عمرو بن تميم. وقد ذكر أن الشقيق جمع شقيقة، وهو كل غلظ بين رملين[1]. وهذا الوصف ينطبق انطباقًا كاملًا مع طبيعة الأرض التي حفرت فيها هذه الآبار؛ وفي الواقع، وجدت أن كل أرض مررت بها في النفود وبها آبار وماء لها خصائص هذه الأرض نفسها. ولأننا قضينا الجزء الأكبر من اليوم التالي، الأول من شهر سبتمبر، عند هذه الآبار، نملأ قربنا ونسقي إبلنا، لم نسر في ذلك اليوم إلا ست ساعات. وكان اتجاهنا نفسه اتجاه الأمس جنوب - جنوب - شرق. وكنا نرى إلى يميننا طوال مسيرنا لذلك اليوم سلسلة منخفضة من الجبال تسمى [الطوال][2]، تمتد من شمال - غرب إلى جنوب - شرق؛ ولكن عند ظهيرة اليوم التالي اختفت عن أنظارنا. في اليوم الثاني من شهر سبتمبر سرنا أربع عشرة ساعة ونصف الساعة، وكان اتجاهنا دائمًا الاتجاه نفسه جنوب - جنوب - شرق، متبعين ما يشبه الطريق يسمى الخل الذي يمكن تمييز مساراته على طول الطريق من الجوف إلى جبة، ولكن بعض

---

(١) **معجم البلدان**، الجزء الثالث، ص. ٤٠٤.

(٢) جبال الطويل سلسلة جبلية تقع غرب النفود وتبعد عن دومة الجندل تسعين كيلًا تقريبًا في جنوبها الغربي.

أجزائه قد اختفت بفعل الرمال المتحركة. وهذا الانقطاع في المسارات حير كثيرًا دليلنا الذي لم يكن متأكدًا من طريقه؛ لكن في الصباح الباكر رأينا أمامنا في الأفق جنوب – جنوب – شرق قمتين لجبل منعزل ترتفعان فوق مستوى هذا المحيط الرملي مثل منارة لمنتصف الطريق بين الجوف وجبة. في اليوم الثالث من شهر سبتمبر وصلنا بعد مسير ثلاث ساعات إلى ذينك الجبلين اللذين يقفان متقاربين وكأنهما يشكلان قاعدة واحدة، منها يرتفع كل واحد منهما مثل قمة مخروطية. يسمى الجبل الشمالي العليم، والآخر الطرقي. وربما أن هذين الجبلين هما اللذان أشار إليهما ياقوت باسمي علم السعد ودجوج. وحدد موقعهما على أنهما يبعدان مسافة يوم من دومة الجندل، وأنهما يرتفعان عاليًا، وهما متقاربان لبعضهما، وكأنهما يتلاصقان. ويضيف أن دجوج سلسلة من الرمال المتصلة التي تمتد مسيرة يومين إلى دون تيماء بيوم، وفي الجانب الآخر من هذه السلسلة تبدأ الصحراء[1]، التي قد تكون الصحراء السورية. وبالفعل، تبدأ أرض النفود على مسافة يوم من تيماء شرقًا، وحسب كل الاحتمالات، فإن المسافة بين هاتين القمتين وتيماء قد تقدر بثلاثة أيام؛ ولكن مسافة يوم واحد من الجوف إلى هاتين القمتين حسب قول ياقوت لا تنطبق عليهما[2]. إن لهذين الجبلين أهمية كمَعْلَم في الصحراء التي بسبب تشابه معالمها قد يتوه فيها المسافر بسهولة»[3].

واصل والن رحلته إلى منطقة حائل عبر النفود وقد وصل مقصده بسلام[4].

---

(١) **معجم البلدان**، الجزء الرابع، ص. ١٦٦.

(٢) يبعدان عن دومة الجندل نحو ١٣٠ كيلًا.

(٣) النص المعرب:

Georg August Wallin, "Narrative of a Journey from Cairo to Medina and Mecca, by Suez, Araba, Tawila, al-Jauf, Jubbe, Hail, and Nejd, in 1845, **Journal of the Royal Geographical Society**, Vol. 24, 1854, pp. 115-207.

(٤) لتكملة بقية رحلته إلى منطقة حائل، انظر: عوض البادي، **الرحالة الأوروبيون في شمال وسط الجزيرة العربية: منطقة حائل**، الجزء الأول (بيروت: دار برزان، ٢٠٠٤)، ص. ص. ١٩–١٠٧.

الفصل الثاني

وليم جيفورد بلغريف

يعدّ هذا الرحالة أحد أشهر من زاروا الجزيرة العربية من الرحالة الأوروبيين، ونالت رحلته ما لم تنله رحلة أخرى من الاهتمام والنقاش إلى أن عدّ كتابه حول رحلته من أمهات أدب الرحلات رغم أن كافة النقاد يعترفون بدور الخيال في وصفه لرحلته، والمبالغة فيما كتبه. وشكّك بعض الرحالة في حقيقة المعلومات التي أوردها، وفي صدق قيامه بالرحلة نفسها وعدوها من نسج خياله، إلا أن كل ذلك لم يغير من حقيقة الشهرة التي نالتها قصته والاهتمام بها. ومهما يكن من أمر فقد أصبح ما كتبه يحظى بمكانة عند مؤرخي المعرفة الغربية حول شمال الجزيرة العربية ووسطها وشرقها، ولا يمكن عد كل ما جاء فيها من معلومات كما سنرى، من نسج الخيال أو النقل عن آخرين[1]. وعلى الرغم من عدم دقته في كثير من معلوماته، يبقى التساؤل: من هو هذا الرحالة؟

ولد وليم جيفورد بلغريف (William Gifford Palgrave) عام ١٨٢٦، وتلقى

---

(١) حول ذلك، انظر: جاكلين بيرين، **اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من المغامرة**، نقله إلى العربية قدري قلعجي، قدم له حمد الجاسر (بيروت، الرياض: منشورات الفاخرية ودار الكاتب العربي، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)، ص. ص. ٨٩٢-٢٢٣. وانظر:

Peter Brent, **Far Arabia: Explorer of the Myth** (London, Melbourne, New York: Quartet Books, 1977), pp.130-131; Zahra Freeth and H.V.F. Winstone, **Explorers of Arabia from the Renaissance to the End of the Victorian Era** (London:George Allen & Unwin,197), pp.153-158; Rashid Shaz, **In Pursuit of Arabia** (New Delhi: Milli Publications, 2003), p. 75.

تعليمه الجامعي في كلية ترنتي بجامعة أكسفورد، وتخرج فيها بتفوق، ثم التحق بعد تخرجه بالجيش البريطاني في الهند عام ١٨٤٧. وفي الهند، تحول بلغريف عن مسيحية والديه البروتستانتية التي تحولوا إليها من اليهودية إلى المسيحية الكاثوليكية، واستقال من الجيش وقرر أن يكون راهبًا فانضم إلى جمعية الآباء اليسوعيين (Society of Jesus)[١]. عاد بلغريف إلى أوروبا ليدرس علم اللاهوت في كلية رومان (Roman College)[٢]، مدرسة هذه الجماعة، في روما عام ١٨٥٣. ثم انتقل بعد ذلك إلى لبنان ليقوم بالأعمال التبشيرية لصالح جماعته الدينية التي أقامت لها مقرًّا في بلدة بكفيا لتمارس أعمالها في لبنان والمناطق المجاورة. بدأ بلغريف بالسفر إلى مناطق جبال لبنان وسهول حوران في سورية داعيًا لدينه بين العرب، ولم تنته سنة ١٨٥٧ حتى أصبح المسؤول الأول عن البعثات التبشيرية التي تنطلق من لبنان، ومسؤولًا أيضًا عن المدارس التي أسستها جماعته في لبنان.

لم تستمر أعمال بلغريف بلبنان كثيرًا فقد اندلعت حرب أهلية في عام ١٨٦٠ الأمر الذي اضطر جماعته مع بعثاتهم التبشيرية إلى مغادرة لبنان. توجه بعد ذلك إلى بريطانيا وإيرلندا، وبدأ سلسلة من المحاضرات عن الأعمال التبشيرية في الشرق. ثم ذهب إلى فرنسا حيث التحق بالكلية اليسوعية في نيس بفرنسا. عرض بلغريف على المدير المشرف عليه في الكلية بيير سيبستين فويلوت فكرة العمل على اكتشاف المناطق المجهولة للأوروبيين في الجزيرة العربية، مؤكّدًا أن معرفة حقيقة أوضاعها سيسهل السعي لتحقيق الطموحات الإمبريالية الفرنسية في الشرق الأوسط، وفي الوقت نفسه استكشاف إمكانية العمل التبشيري فيها. استقبل مديره الفكرة بحماس،

---

(١) جماعة دينية كاثوليكية تأسست رسميًّا سنة ١٥٤٠ بموافقة البابا في روما بهدف التبشير برسالة يسوع المسيح. اتخذت التعليم وإقامة المؤسسات العلمية وسيلة لتحقيق رسالتها. وقد أسست هذه الجماعة مئات المدارس والجامعات في العالم. أقامت في الشرق الأوسط عددًا من المؤسسات التعليمية منها جامعة القديس يوسف في بيروت.

(٢) أسست جماعة الآباء اليسوعيين هذه الكلية سنة ١٥٥١ في روما، وتحولت لاحقًا إلى جامعة كاثوليكية باسم (Pontifical Gregorian University).



وليم غيفورد بلغريف

وعرضها على الحكومة الفرنسية التي رحبت بها والتقى نابليون الثالث (Louis-Napoléon Bonaparte) إمبراطور فرنسا[1] بلغريف في مقابلة رسمية، عرض فيها فكرته عليه موضحًا أهميتها من الناحية السياسية، فالوجود المسيحي في شمال الجزيرة سيسهل على فرنسا إيجاد موطئ قدم لها في بلاد العرب الشرقية. لاقى المشروع اهتمام الإمبراطور الذي تجاوبت الفكرة مع طموحاته السياسية في الشرق العربي، فقبل تمويل الرحلة، ومنح بلغريف مبلغ ستة آلاف فرنك لتحقيق غرضه[2]. عاد بلغريف إلى لبنان يعدُّ لرحلته التي بدأها في منتصف عام ١٨٦٢ واستمرت ما يقارب السنة زار خلالها مناطق مختلفة في الجزيرة العربية. وقد زار الجوف، وحائل، وبريدة، والرياض، والهفوف، والقطيف، والبحرين، وقطر، وعُمان.

توَّج بلغريف هذه الرحلة، بكتاب من جزأين، تحت عنوان «قصة رحلة عام عبر وسط وشرق الجزيرة العربية (١٨٦٢-٦٣)»، نشر في عام ١٨٦٥[3]. استقبل هذا الإنجاز عند صدوره بكل اهتمام وتقدير، وعدّ أعظم عمل تم وضعه عن شبه الجزيرة العربية، فترُجم الكتاب حال صدوره إلى لغات أخرى. ومنحته الجمعية الجغرافية الفرنسية وسامًا لأنه شرف المنحة التي منحه إياها نابليون الثالث. تخلى بلغريف بعد الانتهاء من رحلته عن رهبانيته وعن مذهبه الكاثوليكي ودخل العمل الدبلوماسي في وزارة الخارجية البريطانية، وتنقل خلال عمله الدبلوماسي في عدة بلدان منها الفلبين وتايلند وتركيا وبلغاريا

---

(١) لويس نابوليون بونابرت (١٨٠٨- ١٨٧٣) ابن أخ ووريث نابليون بونابرت إمبراطور فرنسا (١٨٠٤-١٨١٥). عاش مع والديه في المنفي بعد سقوط إمبراطورية عمه. انتخب رئيسًا للجمهورية الفرنسية الثانية سنة ١٨٤٨ وتمكن من تغيير الدستور وإعلان استعادة الإمبراطورية الفرنسية. نصب إمبرطورًا لفرنسا ١٨٥٢ فأصبح الإمبراطور نابليون الثالث. حكم فرنسا حتى هزيمته أمام ألمانيا سنة ١٨٧٠ وسقوط إمبراطوريته وإعلان الجمهورية. عاش في المنفى في إنجلترا بعد سقوطه وتوفي سنة ١٨٧٣.

(٢) حول حياة بلغريف، انظر:

Mea Allan, **Palgrave of Arabia** (London: Macmillan,1972).

(٣) William Gifford Palgrave, **Personal Narrative of a Year Journey Through Central and Eastern Arabia 1862-63, 2 vols.** (London & Cambridge: Macmillan and CO.,1865).

وبعض جزر البحر الكاريبي حتى انتهى وزيرًا مفوضًا وقنصلًا عامًّا في منتفيديو عاصمة جمهورية أورجواي في أمريكا الجنوبية حيث توفي عام ١٨٨٨ .

كان بلغريف قد بدأ رحلته إلى الجزيرة العربية من بيروت إذ تقمص شخصية طبيب سوري، واختار اسمًا عربيًّا له، هو سليم أبو محمود العيس، واختار رفيق درب ومساعدًا له[١] .

انطلق بلغريف ورفيقه من بيروت إلى حيفا، فغزة، ومنها إلى معان جنوب الأردن حيث استأجرا خدمات ثلاثة أدلاء أحدهم من قبيلة الحويطات[٢] والآخران من قبيلة الشرارات، وهما القبيلتان الرئيستان في المنطقة التي كانا سوف يمران بها في طريقهم إلى الجوف المحطة الأولى لهما خلال هذه الرحلة. وصف بلغريف مشاعره قبل مغادرته معان وبدء مغامرته في اليوم السادس عشر من شهر يونيو ١٨٦٢ بقوله: «للمرة الأخيرة دعونا نحاول الحصول على معرفة موضوعية وشاملة حول الجزيرة العربية. إننا نعرف الكثير حول مناطقها الساحلية؛ ومعرفتنا بعضها حتى لو كانت قليلة فهي كافية؛ اليمن والحجاز ومكة والمدينة لم تعد سرًّا، ولدينا معلومات حول حضرموت وعُمان. أما داخل الجزيرة العربية بسهوله وجباله وقبائله ومدنه وبحكوماته ومؤسساته وبسكانه وعاداتهم وأخلاقهم وأوضاعهم الاجتماعية، ومستوى مدنيتهم أو بدائيتهم، ليس كذلك. هل ما نعرفه حتى الآن دقيق وكامل؟ لقد حان الوقت لسد هذا الفراغ في خارطة آسيا، ومهما كانت الأخطار، سنقوم به؛ إما أن تكون هذه الأرض قبرًا لنا أو نعبرها من أولها إلى آخرها. لا عودة عن ذلك»[٣].

بهذه الروح بدأت هذه الرحلة من معان عبر أرض الصوان القاحلة الفاصلة بين معان ووادي السرحان. كان المسير في أرض خلاء حتى وصول مورد ماء ميقوع، حيث كانت تنزل مجموعة من قبيلة الشرارات، من فرع

---

(١) كان رفيقه من زحلة في لبنان اسمه جريجوري، وقد تسمى باسم بركات الشامي خلال الرحلة.

(٢) اسمه سالم العطنة.

(٣) بلغريف، مصدر سبق ذكره، ص. ص. ١-٢.

العزام. أخلى بلغريف سبيل أدلائه واستأجر دليلًا جديدًا أوصله إلى بلدة الجوف (دومة الجندل) التي وصلها في الثلاثين من شهر يونيو ١٨٦٢. وهنا نترك بلغريف نفسه ليتحدث عن تجربته في الجوف:

«وادٍ عميق يميل إلى الانخفاض، مرحلة بعد أخرى حتى يصل إلى نهاية عميقة تحجبها عن النظر سلسلة جبلية، تتعرج بألوانها المحمرة، والمنظر عبر هذا الوادي وحتى نهايته تظلله بساتين النخيل، وأشجار الفاكهة، التي تحمل عناقيد ثمارها، كما يظللها لون أسود ضارب إلى الاخضرار على مدى تعرجات الوادي، ويشمخ بناء غير منتظم، يلوح ككتلة سمراء على قمة جبل في المنطقة الوسطى، وهي قلعة عالية منفردة تطل على الجانب الآخر من الوادي. وإلى الأدنى قليلًا تلوح أبراج دائرية أصغر ورؤوس منازل مسطحة، تختفي وتظهر بين أوراق أشجار البساتين، وكأن الوادي يغتسل في تيار عمودي من الضوء والحرارة. كان هذا هو أول منظر لبلدة الجوف عند اقترابنا منها، من جهة الغرب. لقد كان منظرًا خلابًا، بدا لنا بعد رحلة طويلة، شرعنا بها من غزة وفلسطين، إلى مشارف المواطن المأهولة في شبه الجزيرة العربية. كانت رحلتنا عبر صحراء موحشة طويلة، امتدت على وتيرة واحدة، فكانت الجوف أشبه بجنة الخلد لا يدخلها أحد إلا بعد عبور صراط جهنم حسب وصف شاعر عربي يصور منطقة شبيهة بالجزائر.

جدد هذا المشهد حيويتنا، فحثثنا رواحلنا المنهوكة لتسرع خطوها، فاجتزنا المنحنى المتدرج للوادي، وما كدنا نفعل، حتى أقبل اثنان من الخيالة بمظهر حسن ومسلحين بسيوفهم، على غرار ما عرفت تلك المناطق من أزياء، حيث رحبا بصوتٍ عالٍ «مرحبًا»، ودون مقدمات قالا: «ترجلوا وكلوا»، ونزلا من فوق فرسيهما الضامرين، وحلا رباط حقيبة جلدية مليئة بأفخر أنواع التمر، وأحضرا قربة مليئة من ماء ينبوع جار، ووضعا كل ذلك على الصخر. قالا: «لقد كنا على يقين من أنكم تتضورون جوعًا وتلهثون عطشًا فجئنا مستعدين لحاجتكم»، فدعوا مرة أخرى للجلوس والأكل. بالفعل كان الظمأ والعطش قد بلغا منّا مبلغهما، وكان التمر الجوفي المقدم لنا من أفضل ما

يمكن أن تجده في شمال الجزيرة العربية. أما الماء فقد بدا صافيًا وعذبًا وباردًا، لا يحتاج لتزكية بعد ماء آبار ميقوع وآبار أويسط. لم يكن هناك داعٍ للتمنع وانتظار الإلحاح على الدعوة، شرعنا فورًا في تناول نصيبنا تاركين المستقبل للعناية الإلهية ولما تجيء به الأيام. وبدأت باغتنام الفرصة بتقويم مظهر مضيفينا الخارجي. كان أكبرهما في الأربعين من العمر تقريبًا، طويلًا وقوي البنية، لونه يميل إلى السمرة، نظرته توحي بعدم الثقة، وفي الوقت نفسه تظهر عليه علامات ذكاء وغطرسة مكتسبة. وكان حسن الهندام بالمقياس العربي إذ كان يلبس صدرية بأكمام طويلة، تتدلى فوق ثوبه الأبيض الطويل، وعلى رأسه منديل حريري بخطوط حمراء وصفراء، وعلى جانبه سيف بمقبض فضي. إن كل ما ظهر فيه كان يوحي بشخصية ذات ثراء ومكانة. وكان هذا الرجل غافل الحبوب شيخ عائلة مهمة ومضطربة في الجوف، تعرف ببيت الحبوب. كانت هذه العائلة وحتى عهد قريب تحكم، ولكنها الآن مثل الآخرين، تحت سلطة حمود[١]، نائب الأمير طلال بن رشيد حاكم إمارة جبل شمر، في الجوف[٢]. أما رفيقه فقد كان اسمه ضافي وهو أصغر منه سنًّا، وأقل منه في تكوينه الجسماني وفي هندامه؛ لكنه مثله يحمل السيف ذا المقبض الفضي ذاته، والذي عادة ما يحمله في الجزيرة العربية أبناء الأسر المعروفة. كان ضافي أيضًا يحمل اسم حبوب، ولكن ملامحه تنمّ عن شخصية أكثر انفتاحًا واعتدالًا بالمقارنة بشخصية شيخه الذي يبدو أنه ابن عم له من الجد الرابع أو الخامس. بعد أن تناولنا نصيبنا، بقينا برهة في مكاننا، وأجبنا على أسئلة

---

(١) حمود بن عقلا العقلا.

(٢) طلال بن عبدالله الرشيد (١٨٢٢-١٨٦٦)، تولى إمارة حائل بعد وفاة والده عبدالله بن علي الرشيد سنة /١٢٦٣هـ/١٨٤٧م، عمل على توسيع حدود إمارته واستقرارها وإصلاح أوضاعها. انتحر سنة١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م وفي رواية أخرى في ١٧ ذي القعدة سنة ١٢٨٤هـ/ ١١ مارس ١٨٦٨م إذ نقل الرحالة أويتنغ ذلك من خلال رسم نقش شاهد قبره، وقد أخذ الرحالة ألويس موسيل بذلك عند حديثه في ملحق كتابه الموسوم «شمال نجد» حول تاريخ عائلة ابن رشيد. انظر:

Philip Ward, **Hail:Oasis City of Saudi Arabia**, (Cambridge:The Oleander Press,1983), p. 522.
Alois Musil, **The Northern Negd: A topographical Itinerary** (.New York: American Geographical Society, 1928), pp. 239-240.

مضيفينا. ولما كنا نعلم أن الحاكم حمودًا يقيم في بلدة الجوف، فقد اقترحنا على غافل أن نذهب إليه حال دخولنا البلدة؛ لكن الشيخ غافلًا، لم يحبذ ذلك لعدة أسباب سيعلم بها القارئ لاحقًا، وعدّنا ضيوفه، وأصبح من حقه استضافتنا، أما حمود فيمكن أن نزوره في وقت آخر، وهذا يتيح وقتًا مناسبًا ليوم أو يومين لإجراء الترتيبات اللازمة. وأضاف إن ظهوره معنا عند زيارة حمود سوف يمثل ضمانًا لرضاه. أراد ضافي أيضًا استضافتنا وأشار إلى أن بيته الأقرب؛ وإنه يعدُّ نفسه مضيفًا لنا فقد جاء بنفسه لاستقبالنا، وله الحق نفسه، الذي للشيخ غافل. على أية حال تنازل ضافي لقريبه الشيخ، وامتثل لأمره. درجنا جميعًا ببطء، وعندما كدنا نهبط إلى بطن الوادي، وكادت تغطينا بساتين النخيل بظلالها، أعرب ضافي عن أسفه لمرورنا بالقرب من داره دون أن ننعم بشيء من ضيافته. وبعد أن وجه لنا دعوة، على أن تتم في أقرب وقت، اختفى بين أسوار البساتين العالية؛ لكنه وهو يغادرنا رمق غافلًا ثم رمقنا بنظرة معبرة لم نفهم جيدًا معناها. واصلنا مسيرنا برفقة مضيفنا الجديد، وكان يردد طوال الطريق ترحيبه بنا، واستعداده لتقديم كل المساعدة المطلوبة.

تركنا تلة القلعة والبرج إلى يميننا وسرنا عبر أزقة البساتين إلى أن وصلنا إلى بوابة عالية، انفرجت عن تجمع لدور قامت حول ميدان مفتوح(مناخ) اصطفت حول محيطه، هنا وهناك، مصاطب طينية مقواة بحجارة وملتصقة بجدران المنازل. وهذا الميدان يمثل محطة الوصول للضيوف وانتظار استقبالهم. وهذا مما يدل على أهمية المنازل المجاورة له، وبالتالي عن مكانة ساكنيها. وعند مدخل عالي الارتفاع يسمح بمرور الراحلة وراكبها، توقف غافل وترجل وغاب لمدة قصيرة ليتأكد من أن كل شيء معد لاستقبالنا، وعاد مسرعًا ليقول: «تفضلوا»، وقادنا إلى منزله. اجتزنا مدخلًا آخر، ووجدنا أنفسنا في فناء صغير تكونت جوانبه الثلاثة من شقق مختلفة، وجانبه الرابع كان إسطبلًا للخيول والجمال، وفي الواجهة ارتفع جدار عالٍ، عليه نوافذ صغيرة كثيرة من تحت السقف، وفي النصف يبرز باب كبير يؤدي إلى مكان القهوة كما ينطقونها هنا، أو إذا أردت غرفة الاستقبال. ولما كانت النساء لا يدخلن لهذه الغرفة بتاتًا، فلا أستطيع بارتياح أن أسميها: غرفة استقبال

الضيوف. وصف واحدة من هذه الغرف، يمكن أن يكون كافيًا رغم وجود اختلاف بسيط في بيوت القهوة في شبه الجزيرة العربية. إن وجود هذه الغرفة يعد شيئًا مهمًّا بالنسبة لكل بيت محترم في بلاد الجزيرة من أولها إلى آخرها، والاختلاف فيما بينها، اختلاف بسيط. فهي إما أن تكون كبيرة أو صغيرة، في حالة حسنة أو سيئة، مفروشة أو خلاف ذلك، كله يعتمد على ظروف المالك، ولهذا السبب سأسمح لنفسي بوصف غرفة القهوة في منزل الشيخ غافل؛ لأنها يمكن أن تقف نموذجًا لآلاف الغرف الأخرى. كانت غرفة القهوة في منزل الشيخ غافل عبارة عن بناء مستطيل كبير، بارتفاع عشرين قدمًا، وخمسين قدمًا في الطول، وستة عشر قدمًا تقريبًا في العرض، وكانت الجدران ملونة بطريقة غير متناسقة، باللون البني والأبيض، مع وجود تجاويف في الجدران هنا وهناك، تصلح للاستعمال كمكتبة. ولم يكن لدى غافل الكثير من المصابيح والأشياء المشابهة. كان سقف الغرفة من الخشب مسطحًا، والأرضية مفروشة بالرمل، ومزينة بقطع طويلة من السجاد الذي نثرت عليه الوسائد المغطاة بالحرير الباهت. وفي بيوت الفقراء، تفرش الأرض بنوع من البساط الخشن بديلًا عن السجاد. وفي الزاوية، وبالتحديد الزاوية التي تبعد عن الباب يطل موقد النار وهو صغير، أو على وجه الدقة هو فرن مبني من حجارة الجرانيت، على شكل مربع كبير، وهو إما من الطوب أو حجارة بطول عشرين بوصة لكل بعد من أبعادها، ومجوف من الداخل له فتحة عند رأسه أشبه بالمدخنة، وفي أسفله أنبوب أفقي يسمح بمرور هواء الكير، الذي يزيد من اشتعال الحطب الموجود داخل الفرن المخروطي. وبهده الكيفية يتحول الحطب إلى لهب ثم إلى جمر، ويوضع إناء القهوة على الفتحة ليغلي الماء بسرعة. إن أفران القهوة في الجوف وجبل شمر متقدمة، بينما في نجد وفي مناطق أخرى جنوبًا وشرقًا من التي زرتها، موقد القهوة يستبدل بمكان مفتوح للنار عبارة عن حفرة في الأرضية لها جوانب مرتفعة قليلًا تبنى بالحجارة، ولها شبك للوقود كما هو موجود في إسبانيا. وهذا الاختلاف في أشكال مواقد القهوة في شبه الجزيرة العربية، يعزى إلى وفرة الوقود في الجنوب الأمر الذي يمكن الناس من

استعماله كيفما شاؤوا، بينما خشب الوقود نادر في الجوف وجبل شمر، والوقود المتاح من النوع الرديء يُستورد من أمكنة بعيدة، ولا يستهلك إلا بحذر شديد. يعدّ ركن الموقد في غرفة القهوة مكانًا متميزًا، فالقهوة والمكانة الرفيعة يتألقان في هذا المكان، حيث يجلس صاحب البيت، أو الضيوف الذين يريد إكرامهم وتشريفهم. وحول مواقد القهوة تصطف مجموعة كبيرة من الآنية النحاسية متعددة الأشكال والأحجام. وهنا في الجوف تتشابه الآنية الخاصة بالقهوة مع تلك الدمشقية، أما في نجد، وفي المنطقة الشرقية، فتختلف أواني القهوة، وتتعدد أنماط الزخرفة والتصميم، فهي طويلة ورشيقة، تحمل دوائر مختلفة من الزخرفة، وتصنع في قوالب تمنحها الشكل الأنيق بجانب احتوائها على صنابير طويلة، يحاكي فمها منقار الطائر، ولها مشاجب للغطاء. وعدد هذه الأواني غالبًا ما يكون مبالغًا فيه، وهو كبير. لقد رأيت اثنتي عشرة منها حول الموقد بينما صنع القهوة لا يحتاج لأكثر من ثلاثة على الأكثر. وفي الجوف خمسة أو ستة منها هي المطلوبة. وفي الجنوب يضاعف عدد آنية القهوة أو أباريقها وكل هذا إشارة إلى ثراء أصحابها ومكانتهم، ودليل تردد الضيوف عليهم، لكرمهم وكثرة القهوة التي تقدم في مجالسهم. يجلس بشكل دائم في المنازل المترفة خلف موقد القهوة، رجل أسود ودائمًا يكون اسمه مصغرًا دليلًا على الألفة أو العاطفة. وفي حالتنا كان اسمه سويلم وهو تصغير لاسم سالم، الذي وظيفته صنع القهوة وصبها للضيوف. وحينما لا يكون لدى الأسرة خادم يقوم بذلك العمل ربُّ البيت أو أحد أبنائه، وعملية صنع القهوة كما سنرى لاحقًا عمل شاق. هذا؛ وسأتحدث عن العبيد وأوضاعهم حينما أصل إلى المناطق الوسطى من الجزيرة العربية حيث إن هؤلاء المحترمين موجودون بأعداد أكبر من أعدادهم في الجوف.

عند دخول عتبة القهوة يستحسن قول «بسم الله» لأن عدم البسملة يعدّ فألًا سيئًا للداخلين والجالسين. ثم يتقدم الزائر بصمت حتى يتوسط غرفة القهوة، فينطق بالتحية «السلام عليكم»، وهو ينظر إلى جميع الحاضرين مع التركيز الخاص على صاحب الدار. ويتم كل هذا بينما يبقى كل الحاضرين في مواقعهم بلا إشارة أو إيماءة أو كلمة. عند سماع التحية، يقف رب البيت

مُرحبًا. وإذا كان وهابيًّا متدينًا، فسوف يكون رده «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته». أما إذا كان غير ذلك فرده: مرحبًا أو أهلًا وسهلًا، أو غيرها من كلمات الترحيب والسرور باللقاء، وهناك مجموعة لا حصر لها من عبارات الترحيب. ثم يقوم الحاضرون للرد على التحية. ويتجه الضيف إلى صاحب البيت الذي يكون واقفًا، وقد يتقدم بضع خطوات لمقابلة ضيفه ويضع الضيف كفه في كف صاحب البيت محييًا دون أن يهزها أو يلقفها بشدة. وبعد كل أنواع التحية تتبع كلمات المجاملة مثل: كيف الحال؟ وكيف دنياك؟ وتتم كافة هذه المراسم بحرارة دليلًا على الاهتمام، وتردد ثلاث أو أربع مرات، إلى أن يقول أحدهما الحمد لله، وبهذا ينتهي هذا المسلسل. وذلك قليل من المجاملة، ثم يجلس الضيف في مكانه مكرمًا حول نار القهوة، وبعد أن يكون قد حيًّا معد القهوة وأقرب جالس منه بالجانب الآخر. ويكون مكان الضيف قد جُهز بأفضل الوسائد وأجمل السجاد وبما يليق بمكانته الرفيعة. وتخلع الأحذية وتوضع على الرمل أمام السجاد. في شبه الجزيرة العربية، الصنادل هي المستعملة بكثرة، وتظل الصنادل في مكانها في متناول اليد. والعصى التي يهش بها العربي على دابته رفيق ملازم له، بدويًّا كان أم حضريًّا، غنيًّا كان أم فقيرًا، لطيفًا أم شرسًا، لابد أن تكون بيده وفي كل مكان. والعربي يناجي عصاه حينما يسود الصمت، مثل المراوح اليدوية التي كانت تستعملها جداتنا أيام مجدهن. دون تأخير، بدأ سويلم بإعداد القهوة.

يبدأ الإعداد للقهوة بالنفخ على الكير لتشتعل النار، وعندما يتكون الجمر ويزداد احمرارًا، يضع عليها إناء القهوة الكبير مملوءًا إلى ثلثيه، وفي العادة يوضع الإناء بجانب النار، حتى يغلي بالتدريج متيحًا فرصة لتحضير اللوازم الأخرى. بعد ذلك تناول سويلم خرقة من ثقب في الجدار، وبعد حلها أخذ منها البن بمقدار ثلاث قبضات يد ووضعها في صحن، وبدأ بتنقيته من الحبوب السوداء أو التالفة أو الغريبة التي قد تكون اختلطت به عند بيعه سائبًا غير معبئ في سوق الجملة. وتستمر عملية التصفية والتنقية هذه بعناية كبيرة حتى يتم التأكد من نظافتها، فتوضع حبوب البن في مغرفة حديدية كبيرة مفتوحة لتحميصها، ثم تقرب هذه المحمصة من النار، ويبدأ صانع القهوة بنفخ

الكير، ثم يقلب حبات القهوة بلطف حتى يحدث البن طقطقة ويحمر لونه، ويتصاعد منه الدخان قليلًا، ويبعد الصانع المغرفة عن النار بعناية إلى أن تسوَدَّ حبيبات البن على غرار الطريقة الخاطئة التي تتبعها تركية وأوروبا. وبعد ذلك يترك البن ليبرد لمدة على طبق كبير من القش. ويضع إناء القهوة الكبير المملوء بالماء على النار حتى يغلي ويكون جاهزًا، ويضم رجليه العاريتين ويضع عليهما الهاون المصنوع من الحجر، وله فتحة في منتصفه تسمح بمرور مدقة من الحجر بطول قدم وبسمك بوصة ونصف البوصة، ويمسك بها بيده، ويبدأ بصب البن، الذي تم تحميصه، ثم تبدأ عملية سحق حبيبات القهوة بمهارة ومثابرة منتظمة حتى تتم عملية تحويل الحبيبات إلى أجزاء صغيرة خشنة، ثم تغرف الحبيبات التي تحولت إلى مادة محمرة خشنة ولكنها ليست شبيهة بتلك التي تصنع في بعض الأقطار بطريقة خاطئة فتدخل رماد الفحم في القهوة، بعد أن تحرق النكهة الحقيقية للبن. وبعد كل هذه العمليات الدقيقة المتعددة التي تنجز باهتمام وجدية فائقة، كأنما رفاهية الجوف كلها تتوقف على هذه العمليات. يأخذ صانع القهوة إناءً صغيرًا ويملؤه إلى أكثر من نصفه بالماء الساخن، من الإناء الكبير، ويضع فيه البن المسحوق ويرجه ويضعه على النار ليغلي ما به ويحركه بخشبة صغيرة ليضمن اختلاطه وعدم انسيابه خارج الإناء، والغليان هنا، يجب أن يكون خفيفًا. وأثناء هذه العملية يأخذ من خرقة قماش أخرى حب الهال، وهو منتج هندي ثم يطحنه برفق حتى يكسب القهوة نكهة طيبة، ويضيف أيضًا الزعفران. هذه التوابل تعدّ في شبه الجزيرة العربية مهمة جدًّا ولا غنى عنها، بينما في بعض أقاليم الشرق لا يُهتم بها كثيرًا. أما السكر فبدعة لم يسمع بها في هذا المجال. ثم أخيرًا يقوم بتصفية القهوة من خلال صبها من فم الإناء المليء الذي وضع فيه بعض الليف. وتجهز الصينية وفناجين القهوة. وجميع هذه التجهيزات استغرقت نصف الساعة.

في تلك الأثناء دخلنا في مناقشات مع مضيفنا وجماعته؛ لكن دليلنا سليمان العزامي الشراري، وكبدوي حقيقي، لم ترقه فكرة الجلوس مع علية القوم من الحضر، فافترش الرمل أمام مدخل دار الضيافة، وعلى الرغم من تكرار الدعوة له ليشاركنا مجلسنا. كانت الجلسة تضم الكثير من أقارب غافل

بمقابض سيوفهم الفضية، التي تشير إلى أهمية العائلة. وقد جاء آخرون لمقابلتنا، لأن وصولنا عُرف سلفًا، من خلال الناس الذين رأونا في مدخل الحي. وكان حضورنا حدثًا مهمًّا بالنسبة لهم. وكان هندام بعض هؤلاء الناس يعبر عن حالة فقر، وكان بعضهم في حالة أفضل؛ ولكنهم كلهم مهذبون، وعلى قدر من اللباقة.

أُثيرت مجموعة من الأسئلة حول بلادنا، أي سورية ودمشق. كانت أجوبتنا في انسجام تام مع وضعنا التنكري، الذي كان يجب علينا أن نحافظ عليه. ثم توالت أسئلة أخرى عن رحلتنا، وما نقوم به من عمل، وماذا أحضرنا معنا، الأدوية التي نحمل، والبضائع والأدوات. . . إلخ. وكان من السهولة منذ البداية توقع تجمع المشترين والمرضى حولنا، ولأنني كنت مرهقًا، فقد ألمحت لرفيقي أن لا يتحدث حول هذا الموضوع، وأن يؤجل الحديث حول المصلحة التجارية.

من النادر أن يكون في الجوف تجار جائلون في هذا الوقت من العام؛ لأن زيارة الجوف في هذا الفصل من السنة ضرب من ضروب الجنون، أو شيء أقرب إليه. ومن ناحيتي لا يمكن أن أفعل ذلك ثانية. لهذا لم يكن هناك احتمال وجود منافسة لبضاعتنا في سوق الجوف، لقد كان السوق في أيدينا. قبل مضي ربع الساعة من وصولنا، وبينما كان سويلم ما زال منهمكًا في إعداد قهوتنا، دخل علينا شاب طويل نحيل، عرفنا أنه الابن الأكبر لغافل، وكان يحمل حصيرة كبيرة مستديرة مصنوعة من سعف النخيل، مثل بقية الحصائر التي رأينا. وضع الحصيرة أمامنا برفق، وأتى بإناء من الخشب مليء بالتمر، وعلى رأس التمر إناء مملوء بالزبدة السائحة، ووضع أمامنا على الحصيرة، وقال: سموا! أي اذكروا اسم الله وابدؤوا بالأكل. قام صاحب الدار من جوار القهوة وجلس قبالتنا على الرمل، واقتربنا من الطبق، واقترب أربعة أو خمسة أشخاص بعد أن أظهروا روحًا من الترفع والأناة، والتقط كل واحد تمرة أو اثنتين وغمسها في الزبد، وأكل كل منا حتى شبع ونهض ليغسل يديه. في هذه اللحظة، كانت القهوة جاهزة وبدأ سويلم بتقديمها. كانت دلة القهوة في

شماله وفي يمناه فناجيلها. ويبدأ حسب الطريقة المرعية بشرب الفنجان الأول كإشارة أمان بأن القهوة سليمة، ثم يخدم الضيوف ويختم بصاحب الدار. ورفض القهوة هنا يعدّ إساءة لا تُغتفر. وعلى أية حال كمية القهوة التي يترتب على الإنسان شربها بسيطة؛ لأن الفنجان الذي في حجم قشر بيضة لا يُملأ إلى آخره بل إلى منتصفه فقط. وهذا يعدّ من الأدب، وملء الفنجان هنا يعني عكس ما يعنيه في أوروبا. وهذا ما لا أفهمه إلا إذا كان ذلك لندرة وجود حوامل فناجين مع أن هذه منتشرة في مصر وسورية، وربما لأن الفنجان المملوء حارًّا يؤذي أصابع من يحمله دون وسيلة تحميه من السخونة. وعلى أية حال فالمثل البدوي يقول: املأ فنجان عدوك إلى آخره، وهذا المثل شائع أيضًا بين الحضر في شبه الجزيرة العربية. ومشروب القهوة ذو نكهة قوية ومنعشة، وهو شراب مقوٍّ ومنشط، وأفضل من القهوة التركية الفرنسية. وعندما يقدم لك عبد أو سيد فنجانًا يقول (سم) أي اذكر اسم الله، وأنت لا تأخذه إلا قائلًا (بسم الله). وعندما يتناول الجميع القهوة، تبدأ دورة جديدة. وهذه المرة تبدأ بصاحب الدار ثم الضيوف. وفي مناسبات خاصة، كاستقبال للمرة الأولى يقدم هذا المشروب المحمر اللون ثلاث مرات، وربما أربع مرات. ولكن كل هذه مجتمعة لا تساوي ربع ما يشربه الأوروبي في وجبة الإفطار.

كان غافل سيتمنى أن نفتح دكانًا في منزله، نبيع فيه بضاعتنا التي جلبناها معنا بسبب قرب نفاد مخزونه من القهوة. وكان واثقًا من أنه سيحصل على ما يريده بسعر مناسب لوجودنا في ضيافته. كنت ورفيقي نشعر بأننا نحتاج للانفراد بأنفسنا، الأمر الذي لم يحدث منذ أن وصلنا إلى الجوف، ولدينا الكثير من الأشياء التي نريد التشاور حولها، ولا يصح أن يتم هذا أمام مضيفنا وأهله وأصدقائه. فأنا كنت أحتاج وقتًا لكتابة يومياتي. ولهذا السبب، ولأسباب أخرى مماثلة، لم نجد وقتًا منذ مغادرتنا معان وحتى وصولنا إلى الجوف. كل أحاديثنا كانت في العلن، وبقاؤنا في ضيافة رجل، وتحت سقف واحد معه، وفي بيته، لن يمكننا من دراسة الأرض ومعرفة سكانها. لهذا لم نستجب لإلحاح الشيخ للبقاء معه، وطالبنا بسكن مستقل.

استجاب غافل أخيرًا لطلبنا ووعد بالبحث لنا عن مسكن مناسب في اليوم التالي. قضينا ما بقي من العصر في الراحة، وعند مغيب الشمس دعانا مضيفنا لزيارة بساتينه في ذلك المساء البارد. وسأغتنم هذه الفرصة الآن، وأعطي قرائي فكرة عامة عن إقليم الجوف، وهذا سيساعد في فهم ما سأرويه لهم، وفي الوقت نفسه أروي عنها أشياء كثيرة جديدة على قرائي، وأحسب أن ذلك سيكون جديدًا على أكبر عدد منهم.

إن هذا الإقليم أشبه بواحة، وهو عبارة عن منخفض كبير بيضوي الشكل بطول ستين أو سبعين ميلًا وعرض عشرة أميال أو أحد عشر ميلًا يقع بين الصحراء الشمالية التي تفصل الإقليم عن سورية ونهر الفرات، وصحراء النفود الجنوبية، أو الفراغ الصحراوي، الذي يربط بينها وبين هضبة نجد الوسطى، التي تبدأ بجبل شمر. على أية حال، إذا قارنا أقصى امتداد له من أوله إلى آخره، وتأملنا طقسه ومنتجاته فإنه ينتمي بشكل كبير إلى الإقليم الشمالي والأوسط لشبه الجزيرة العربية، وهو أشبه ما يكون بمدخلهما. وإذا ما رسمنا مثلثًا متساوي الأضلاع وكانت قاعدته من دمشق إلى بغداد فستكون الجوف تمامًا على رأس هذا المثلث، وستكون المسافات من دمشق وبغداد إلى الجوف تقريبًا متساوية. وفي الاتجاه المعاكس ستكون المسافة إلى المدينة والزلفي أيضًا شبه متساوية. والزلفي هي المدخل التجاري لنجد الشرقية. يقع جبل شمر في اتجاه الجنوب، وهو الأكثر قربًا إليها من الأماكن المحددة آنفًا. ويعزى اسم الجوف جزئيًا إلى هذا الموقع الوسط وإلى شكلها الذي تكوّن بفعل عوامل التعرية. فكلمة الجوف تعني بطنًا أو أمعاء أو فتحة، وهناك تطابق بين الاسم والمسمى.

بلدة الجوف (دومة الجندل)، هي المدينة الرئيسة في هذا الإقليم المكوّن من عدة قرى صغيرة وتحمل اسم كل الإقليم. تتكون هذه البلدة من ثمانية قرى أو أسواق كانت ذات يوم واضحة المعالم؛ لكنها بمرور الوقت تحولت إلى بلدة واحدة وأصبحت مركز الحركة التجارية، واكتسبت اسم الجوف. من هذه الأسواق، السوق الرئيس ويخص عائلة الحبوب التي نسكن

الآن معها، والتي تشمل مساكنها القلعة الوسطى، التي ورد اسمها من قبل، وعددًا من المنازل يصل إلى أربع مئة منزل. والأحياء الأخرى بعضها كبير وبعضها الآخر صغير، وهي واقعة على امتداد الوادي من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه ومترابطة بمجموعة من البساتين الواسعة، وبذلك يكون طول امتداد المدينة أربعة أميال كاملة، ومتوسط عرضها لا يزيد على نصف الميل، وفي بعض الجهات يقل عن ذلك. تختلف أحجام المنازل باختلاف أحوال سكانها. فالفقراء مساكنهم تكون ضيقة، ولكنها مستقلة. ولا أعتقد أن العائلات في الجزيرة العربية تشترك في دار واحدة مهما كانت الحاجة إلى ذلك. ودار غافل، الذي سبق وصفه، تعطي فكرة عن دور ميسوري الحال. وهي عبارة عن فناء خارجي لمناخ الجمال وما يشابهها، وفناء داخلي، وغرفة استقبال كبيرة وغرف متعددة صغيرة ولها مدخل خاص، حيث تسكن الأسرة. وهناك ظاهرة محلية معمارية، هي الإضافات المتكررة التي يتم إنجازها في الجوف، وتتمثل في تشييد أبراج دائرية ترتفع من ثلاثين إلى أربعين قدمًا، ويبلغ اتساعها أحد عشر قدمًا أو أكثر، ولها مدخل ضيق، وفتحات في أعلاها. ويكون هذا البناء أحيانًا امتدادًا للمنزل، وفي بعض الأحيان منعزلًا في البستان الذي يملكه صاحب الدار. هذه الأبراج أدت الأغراض نفسها التي أدتها الأبراج المعروفة للمسافرين في المدن الإيطالية بولونيا Bologna، وسينا Siena، وروما، وفي أماكن أخرى. وتشير في الوقت نفسه إلى تشابه حالة المجتمع في مراحل سابقة، حيث تستخدم في أوقات الصراعات التي يتكرر حدوثها بين الشيوخ وجماعاتهم المتنافسة ملاذًا وملجأ لهم ولأعوانهم عندما يتطور الخلاف بينهم إلى حرب، ومن هذه الأبراج كانوا يديرون هجماتهم. هذه الأبراج، مثل الصروح الحديثة، التي أقيمت بالجوف، مبنية بالطوب الطيني السميك والصلب؛ إذ إن صلابة التربة وجفاف المناخ يكسب الطوب اللبن متانة الحجارة صلادة وديمومة. وبالفعل، إذا وقفت الجدران وتركت بنفسها بلا سقوف ولا صيانة – وقد شاهدت ذلك مرات عدة – سوف تبقى صامدة أمام أمطار الشتاء وعواصف الربيع لقرن كامل من الزمان ولا ترمز إلى عمرها

الطويل. ومنذ تمت السيطرة المباشرة من قبل جنود طلال بن رشيد على المنطقة[1]، أصبحت هذه الأبراج غير مناسبة لأغراض الدفاع. وبعضها

---

(١) لقد سبق لإمارة جبل شمر في حائل أن أخضعت منطقة الجوف لسلطتها في عام ١٨٣٨ لكنها بقيت سلطة غير مباشرة وتحكمها من خلال شيوخ أحيائها وتتدخل عسكريًّا عند الضرورة إلا أن تمردًا كبيرًا قد حصل فيها عام ١٨٥٣ بقيادة حطاب السراح، أحد كبار حي السراح في الجوف، أدى إلى السيطرة المباشرة عليها بعد هزيمة هذا التمرد سنة ١٨٥٥. روى بلغريف في الطبعة الأولى الكاملة من كتابه قصة هذا التمرد والكيفية التي استطاع بها طلال السيطرة المباشرة على الجوف. وقد ذكر الآتي: «لم أسمع في الجوف أية تفاصيل تستحق التسجيل عن الأحداث التي أدت إلى خضوعهم للوهابية [الدولة السعودية الأولى] عند نهاية القرن التاسع عشر؛ لكنه وبعد سقوط الإمبراطورية النجدية على يد إبراهيم باشا في الأعوام ١٨١٧ و١٨١٨ استعادة الجوف استقلالها وكان من الصعب المحافظة عليه بسبب الضعف الذي انتابها بعد السيطرة الوهابية وحالة التنافس والصراع السائدة بين الأسواق أو الأحياء التي تتكون منها البلدة. كان كل شيخ من شيوخ أحياء المحلة يصارع لتوسيع سلطته أو طغيانه على الجميع، وبالتالي دخلوا في حرب أهلية مدمرة. وقد أكد لي بعض كبار السن أنه في تلك الأزمان قد تجد من الناس من ولد وعاش ومات في طرف من أطراف الجوف دون أن يشعر بالأمن الذي يسمح له بزيارة الطرف الآخر من البلدة طوال تلك المدة. وبسبب الخراب الذي حصل بسبب التدخل الخارجي والنزاع الداخلي، أصبح الجوفيون المشؤومون مطمعًا للبدو من حولهم. وفي النهاية استطاعت قبيلة الرولة التي تصيّف في سورية وتشتّي في جوار الجوف أن تهيمن على المنطقة، وتفرض إتاوة سنوية عليها تسمى الخاوة. في الوقت نفسه كان عبدالله بن رشيد والد الأمير الحالي طلال بن رشيد مشغول بتأسيس مملكته الجديدة وتعزيزها في منطقة جبل شمر غير البعيدة عن منطقة الجوف والواقعة إلى الجنوب منها. لقد قدمت النزاعات بين شيوخ البلدة ذريعة للتدخل في شؤونها وهو الذي يريد ضمها إلى مملكته. وقد حانت تلك اللحظة له فأمر آخيه عبيد أن يقود جيشًا كافيًا لإخضاع المنطقة؛ لكن عبيدًا إما لأنه رأى أن قوته غير كافية للسيطرة على الجوف أو لأسباب أخرى اكتفى بعقد نوع من الاتفاق المؤقت بين الشيوخ المتنازعين وبين الأحياء المتصارعة، واختار أحد أعضاء عائلة الحبوب ليحكم الجوف باسم أخيه ويكون نائبًا له فيها، وأن تذهب الزكاة إلى حائل وأن يتم قبول رجال دين لهداية الناس. قفل عبيد عائدًا إلى حائل بعد عقد هذا التفاهم. لقد خمدت النزاعات مؤقتًا، بسبب الخوف المشترك من السلطة الجديدة لكنها ما لبث أن اتقدت من جديد. لقد توفي الشيخ الذي عينه عبيد حاكمًا ونائبًا لأخيه في الجوف، فانقسمت عائلته حول من يخلفه إلى فريقين على رأس كل فريق أحد المتنافسين من هذه العائلة المضطربة. كان أحد هؤلاء المتنافسين مضيفنا غافل. كان عبدالله بن رشيد قد رحل إلى جوار ربه فخلفه ابنه الأكبر طلال وهو محارب أقدر من أبيه وأجدر في إدارة الحكم. طلب فريق غافل من طلال الذي لم يكن راضيًا عما حصل يد المساعدة. حدث هذا في سنة ١٨٥٥. وقد وجد طلال في هذا فرصة سانحة لاستكمال ما بدأه أبوه وعمه. وفي الوقت الذي كان يغدق فيه الوعود البراقة على من التجئوا إليه كان يعدّ قوته ليوم الحسم. جمع طلال قوة كبيرة مدعومة بمدفعين وسار على رأس هذه القوة حتى وصل إلى مكان قريب من الجوف أقام فيه معسكره. بدأ طلال عملية تفاوضية استمرت عدة أيام أكّد خلالها عدم رغبته =

أضحى متداعيًا. وهنا مرة أخرى، تتكرر هذه الظاهرة الأوروبية في الجزيرة العربية. لا تنفصل المنازل هنا عن بعضها بالبساتين والمزارع إلا في حالة منازل الشيوخ والرؤساء وأسرهم. وكل ما ذُكر عن الأبراج يفسر لنا وقوفها منعزلة. أما مساكن العامة فهي عمومًا متصلة وقريبة من بعضها دون تنظيم. وتجد الفوضى نفسها في الساحات الموجودة في كل حي، ملتقى السكان، والتي ليس لها صلة بالتخطيط الهندسي.

إن بساتين الجوف مشهورة جدًّا في هذا الجزء من الإقليم، وهي تستحق هذه الشهرة، فهي أكثر إنتاجًا وتنوعًا من بلاد جبل شمر وعالية نجد، وهي أكثر إنتاجًا كذلك من أرض الحجاز وما جاورها. فهنا ولأول مرة في مسيرنا جنوبًا، وجدنا أن النخيل هو العنصر الرئيس للزراعة، وحتى لو كان إنتاج التمر فيه أقل جودة مما ينتج في نجد والأحساء، فهو جيد جدًّا بالنسبة لما ينتج في مصر وأفريقية، أو وادي نهر دجلة من بغداد إلى البصرة. وعلى أية حال ينفرد النخيل

= في اللجوء إلى السيف .كان الفرع الثائر من عائلة الحبوب مطمئنًّا داخل الأسوار الحجرية لقلعتهم ولم تزدهم المفاوضات إلا التعنت والرفض لأي اتفاق. بدأ عندها طلال نشاطه العسكري بمناوشات خفيفة دون أن يقحم قواته الرئيسة في هذه الأنشطة انتظارًا لساعة القرار. لقد نجحت خطته؛ لقد أراد أعداؤه الذين يزدادون صلابة معركة مفتوحة لكنه كان يتجنبها. وفي صباح يوم خريفي حيث كانت قوته الرئيسة غير مرئية في وادٍ قريب، تقدم فرسانه لاستثارة أهل الجوف للمواجهة المباشرة وبأعداد أكثر من المعتاد. وحينما حمي الوطيس واشتد النزال أظهر أمير شمر مدفعيه القديمين اللذين لهما أهميتهما في حروب هذه البلدان ووجه قذائفهما إلى الأجزاء الطينية من القلعة التي لا يمكنها مقاومة هكذا صدمة. وقع شيوخ الحبوب وأتباعهم في حالة ذهول وارتباك من جراء ما فعلته المدافع التي لم تكن منتظرة، وهذا ما كان يريده طلال. وأمر فورًا قواته كافة بدخول المعركة، وفي برهة تحققت هزيمة أعدائه. اختلط الحابل بالنابل عند دخول البلدة وسادت حالة من الفوضى فحدثت مجزرة كبرى، ولم يأت الظهر إلا وقد تمت السيطرة على الجوف. كان القرار الأول لطلال بعد نصره تدمير منازل الفرع المعادي له من عائلة الحبوب وقطع أشجار نخيلهم، ونفي الأحياء من شيوخهم إلى المنفى رغم شفاعات أقاربهم وأصدقائهم لإبقائهم في البلدة. لقد توقع غافل أن يعيّن حاكمًا للبلدة؛ لكن الفاتح الجديد قرر أن يحكم الجوف مباشرة وبواسطة رجاله. بلا تأخير عيّن طلال أحد أتباعه واسمه حمود حاكمًا على البلدة وعلى المنطقة وحرم بقية شيوخ البلدة ومنهم غافل من أية سلطة مفضلًا تعيين ثلاثة من رجاله الموثوق بهم من أهل عاصمته حائل مستشارين ومساعدين ومراقبين لنائبه الجديد. واختار عددًا من رجال الجوف العاديين ليكون حراسًا لنائبه ويتلقون رواتبهم منه. بعد ذلك قفل عائدًا إلى عاصمته يحمل معه أربعة من كبار أهل البلدة رهائن لضمان سلوك أهلهم». انظر:
William Gifford Palgrave, 1865 Edition, pp. 62-65.

هنا بالمكانة الأولى، أما المشمش والخوخ والتين والعنب فتزخر بها المزارع ويتفوق ثمرها في النكهة والإنتاج على إنتاج بساتين دمشق، وجبال سورية وفلسطين. وفي المساحات التي تقع بين الأشجار يزرع القمح، والبقول، والقرع، والبطيخ، . . . إلخ، بكميات كبيرة. ويدرك المسافر الذي يتوغل في الجوف أهمية الري في هذه الأرض ذات الطقس الجاف بالنسبة للفلاحة ونمو المزروعات. ويتم الري هنا بواسطة قنوات تحمل الماء العذب الصافي من العيون الجارية، بينما في نجد وما جاورها يتحصل على الماء بمشقة من الآبار والحفائر. يأتي موسم نضوج العديد من الفواكه هنا مبكرًا عن موعده في سورية ناهيك عن أوروبا، فالمشمش ينضج في نهاية شهر مايو، والعنب يقطف في شهر يوليو، والخوخ في شهر أغسطس، والتمر يجنى في شهري أغسطس وسبتمبر. وإلى الجنوب في منطقة نجد يتأخر نضوج هذه الفواكه لمدة شهر، وفي عُمان لمدة شهرين على الأقل.

ولقد أسفت كثيرًا لأنني لم أحمل معي أثناء زيارتي لهذه المناطق ترمومتر أو أية وسيلة أخرى لقياس درجات الحرارة، ربما لأن وجود مثل هذه الأجهزة في أمتعتي قد يثير تساؤلات بحسباني أوروبيًا؛ ولأن مشقة الرحلة وركوبي الجمال لا تناسب هذه الأجهزة، لأنها قابلة للكسر. ولكن حالة الطقس يمكن أن تقاس قياسًا غير دقيق بما ذكرناه عن نضج ثمر الفاكهة مبكرًا في هذا الإقليم بالمقارنة بأقاليم وأماكن أخرى، وأيضًا بدراسة بعض الظروف المشابهة. ففي شهور يونيو ويوليو وأغسطس نقدر الحرارة من ٩٠ – ٩٥ درجة فهرنهايت. ولا نكون مخطئين بالنسبة لطقس هذا الوادي، فالطقس بارد ليلًا إلا فيما ندر. وقد يحدث تقلب في درجة الحرارة يزيد على عشرين درجة خلال مدة قصيرة. بساتين الجوف مسورة بجدران مرتفعة من الطوب الطيني، وتجري داخلها متاهة من جداول الماء التي تمر من شجرة إلى أخرى ومن جدول إلى جدول. وبين كل هذه المزروعات ينفرد التمر بالمكانة الأولى في البيع والتصدير، ويجني المواطنون منه دخلًا طيبًا ليس من بيعه في منطقة الجوف وحسب، بل مما يدره من دخل عند بيعه في تبوك وحائل وبغداد ودمشق وفي أماكن أخرى. وللتمر في حياة العرب أثر كبير، إنه خبز الأرض، وقوام الحياة،

والسلعة الرئيسة للتجارة. ولهذا يمكن أن تعزى نجاحات النبي محمد الباهرة على الأقل إلى قوته الشخصية مثلما تعزى إلى أمور أخرى طبيعية وما وراء طبيعية. فقد ذُكر أنه قال: «أكرموا أمكم النخلة»[١]، وهو توسيع بسيط للوصية الخامسة[٢]. . . . وعلى أية حال، لا أعتقد أن هذه الأم ذات الأوراق تستحق هذه الوصية المطلقة. والتمر شديد الحلاوة بحيث إنه في النهاية يُتعب، وإذا جف فإنه يولد طاقة حرارية كبيرة ليست في صالح صحة الإنسان، لاسيما بالكميات التي يستهلكها هنا الفرد الواحد، وقد يعود انتشار بعض الأمراض مثل التهابات المعدة وتقرحها الشائعة بين عرب داخل الجزيرة العربية إلى الاستهلاك الزائد منه.

بلدة الجوف عبارة عن مجموعة من المنازل والبساتين المتداخلة بطريقة عشوائية، وهي بلا تحصين طبيعي، ولكن عدد سكانها وشجاعتهم كانا عنصرين كافيين لحمايتها ضد هجمات البدو. ولم يكن لهم عدو يخشونه لمدة طويلة حتى تم استيعابهم بنجاح في القرن الأخير من قبل الوهابية، وبعد ذلك بمدة بواسطة القوة المتنامية لجبل شمر وشيخه. ولن أقوم بوصف القلعة وبرج مارد الآن، وسأترك الحديث حولهما حينما نقوم بزيارتهما.

إضافة إلى الجوف نفسها، العاصمة، يوجد عدد من القرى التابعة للمنطقة نفسها وتخضع لحاكم مركزي واحد. من أكبر هذه القرى سكاكة وهي تقع على بعد اثني عشر ميلاً في اتجاه الشمال الشرقي، ورغم أنها أقل أهمية من عاصمة الإقليم، من حيث المكانة وخصوبة الأرض، فهي تساويها في عدد السكان. فيما يتعلق بسكان هاتين المحلتين، فإنني أقدرهم مجتمعين وبكل فئاتهم بنحو ثلاثة وثلاثين ألف نسمة أو أربعة وثلاثين ألف نسمة. هذا

---

(١) ورد ضمن الأحاديث النبوية الشريفة كثير من الأحاديث حول النخلة وفضائلها. وقد جاء حديث بصيغة أخرى يقول: «أكرموا عمتكم النخلة فإنها خُلقت من فضلة طينة أبيكم آدم، وليس من الشجر شجرة تلقح غيرها، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران، فأطعموا نساءكم الوُلَّد الرُّطب، فإن لم يكن الرطب فالتمر».

(٢) يقصد الوصية الخامسة من الوصايا العشر في الديانة المسيحية، وهي الوصية القائلة: «أكرم أباك وأمّك».

التقدير، مثل غيره من التقديرات قبل زيارتنا، هو تقدير تقريبي معتمد على تعداد المساكن، وجزئيًّا على المعايير العسكرية، وعلى بعض ما سمعنا من أقوال المواطنين أنفسهم. فالتعداد السكاني غير معروف، ولا توجد سجلات للمواليد والوفيات والزواج. ويمكن التوصّل إلى عدد السكان من خلال عدد القادرين على حمل السلاح بالرغم من أنهم يمثلون عُشر العدد دائمًا، ويظل التعداد تقريبيًّا في كل الأحوال.

على مسافة غير بعيدة من هذه المراكز الرئيسة، توجد قرى صغيرة نحو ثمانٍ أو عشر كما أخبرني السكان، ولكني لم أتمكن من زيارتها لعدم توافر الوقت ولعدم وجود الفرصة. عدد مساكن كل قرية من هذه القرى تتراوح من عشرين إلى خمسين أو ستين مسكنًا. وهذه القرى قامت حول ينابيع صغيرة للمياه، وهي تنتج قدرًا صغيرًا من متطلبات العيش، بما يشبه الحال في العاصمة. إن العدد الإجمالي للسكان في كل المنطقة، لا يتجاوز بحال اثنين وأربعين ألف نسمة، لكنها منطقة موصوفة بالشجاعة. فأهلها تتوافر فيهم مواهب بدنية قل أن توجد عند غيرهم. فهم عادة يمتازون بطول القامة، وحسن البنية؛ ألوانهم فاتحة، وشعورهم سوداء، ويتصفون عمومًا بالذكاء ولهم ملامح دقيقة وفيهم كبرياء. والجوفيون من عنصر جيد، يمكن أن يكون العنصر العربي الإسماعيلي الشمالي الصافي، وهم الأصل الذي انبثق منه سكان جبل شمر. إن صفاتهم البدنية المتميزة، ومحياهم المقبول يناقض بشدة صفات البدو. وهم بجانب ذلك قوم أصحاء يحتفظون بنشاطهم حتى حينما يتقدم بهم العمر. ويبدو شيئًا مألوفًا أن ترى رجلًا عجوزًا في السبعين من العمر مسلحًا بكامل عدته ضمن جماعة من الشبان، وإن كانت ظاهرة ربيع العمر الدائم يمكن أن تجدها في الأقاليم الوسطى إلى الجنوب من الجوف، وقد لاحظت ذلك. الطقس هنا جيد وجاف، وعادات الحياة خارج السكن، يمكن أن تؤدي دورها في الحفاظ على الصحة والحيوية. وهم في أخلاقهم وسط بين البدو والحضر. إنهم يلتقون مع البدو في كراهيتهم للمهن اليدوية، وعدم اهتمامهم بالحصول على الثقافة، وتقلب مزاجهم بلا هدف محدد، حتى في أساليب الغدر والخيانة. إلا أنهم عمومًا متأدبون ويحترمون

أنفسهم أكثر . . . وبالدرجة نفسها بعيدون عن التشريفات والمجاملات اللطيفة التي تجدها عند شمر وفي نجد، وأقل بكثير من تلك التي تجدها في الأحساء وعُمان. أما فيما يتعلق بجوانب النظافة بالنسبة لهم ولعاداتهم، وفي المهارة في الزراعة، وفي ضبط الأعصاب والإدراك العام، وفي إحساسهم بالانتماء لإقليمهم، وفي التعامل مع الغرباء، وإدارة التجارة وقابليتهم للتطور، هم أقرب إلى سكان المدن والقرى الكبيرة في شبه الجزيرة العربية. وإذا حكمنا عليهم من خلال حكمنا على قبيلة طيِّئ التي تعود جذورهم لها فهم إلى حد معقول متحضرون، ولهم ميل فطري إيجابي ليكونوا كذلك. مرة أخرى فقد أخرتهم الحروب والنزاعات بالإضافة إلى النفوذ المقلق للقبائل البدائية الذين هم إلى حدٍّ ما معزولين عنهم بسبب موقعهم الجغرافي. القصة التالية التي كان لنا دور فيها ربما تصور إلى حد ما هذه الاتجاهات المتنازعة.

لقد قابلنا عند أعلى مدخل الوادي خيالة وتبادل قائدهم حديثًا سريعًا مع دليلنا ثم رجع وتحدث مع رجاله، وعاد إلينا قائلًا: اذهبوا آمنين. اسم ذلك الرجل الذي قاد الخيالة هو سليمان بن ظاهر، وهو رجل مغامر وذكي وفي مقتبل العمر، وكان قريبًا منا، وبعد زيارات ومقابلات أصبح صديقًا لنا خلال إقامتنا بالجوف. دخلنا معه في مناقشة ودية، فقال ضاحكًا: «أتذكرون عندما التقينا بكم عند مدخل الوادي وكنت أتشاور مع الرجال. لقد كان لنا رأيان: إما أن نستضيفكم لتبقوا معنا، أو نقتلكم أنتم الثلاثة ونأخذ ما معكم غنيمة». فأجبته بالبرودة نفسها: لو قتلتمونا نحن الثلاثة، فإن حاكمكم حمودًا لا شك سيسمع بالخبر، ولن تفلتوا منه. وسخر الرجل قائلًا: «لا يهم كثيرًا، وكأن هدية من هذه الغنيمة غير قادرة على حبس لسان حمود». فقلت: «إنكم بدو!» فرد: «نعم نحن كذلك ومازلنا حتى وقت قريب والنظام الجديد حديث عهد ولن يتمكن من تغييرنا». وهنا، أعترف أنهم كانوا مرتاحين لعدم قتلنا ليس لسبب أخلاقي، ولكن لسبب مصلحي.

إن أعظم سمة لسكان الجوف هي كرمهم، ولن تجد هذا في أي مكان في الجزيرة العربية، حيث تتم استضافة الضيف ومعاملته بالحسنى وإكرامه لدرجة

عرض الإقامة عليه وتقريبه حتى يصبح بالتدريج واحدًا منهم. أما الشجاعة فلا يستطيع أحد أن ينزعها منهم. إنهم وبالقدر نفسه كرماء في حياتهم وفي ممتلكاتهم ومع جيرانهم. وموقعهم في الوسط، الذي سبق أن أوضحناه من قبل، مناسب للتجارة، إلا أن المسافات الطويلة التي لا بد من قطعها للوصول إليهم أعاقت حركة التجارة عدا استثناءات قليلة في مواسم معينة في السنة، وبالتحديد في فصل الشتاء البارد والربيع. ولم يتعلموا تقدير مزايا أن يكون لهم سوق، ولا توجد دكان واحدة حتى في عاصمة الإقليم. فالبيع والشراء يباشر في الدور، وورشة الصانع هي أيضًا منزله. وهذا النظام سائد وتم الحفاظ عليه خدمة للاحتكار، وهو مازال نظامًا ساري المفعول، ولكن سلطة التحكم به هي لشيخ الحي، ومن المحتمل أن يتطور هذا النظام إلى الأفضل إذا استمر النظام الحالي لمدة أطول.

دعونا الآن نواصل القصة. في صباح اليوم الذي وصلنا فيه، وكان يصادف أول يوليو، قام غافل استجابة لطلبنا السابق بتجهيز منزل صغير بالقرب منه يملكه أحد أتباعه. تتكوّن دارنا الجديدة من فناء صغير وغرفتين، كل غرفة في جهة من جهاته واحدة لأمتعتنا والأخرى لإقامتنا، والدار محاطة بسور خارجي بباب يقفل بمزلاج. ولم نكن في حاجة ماسة لمطبخ، لأن دعوات المواطنين الكرماء لنا كانت منتظمة. ولم يكن بيتنا من السعة بمكان إلا أنه أتاح لنا ما كنا نرغب فيه، أعني الخصوصية والانفراد بأنفسنا، أضف إلى ذلك أنه كان على نفقة مضيفنا. قمنا بنقل متاعنا إليه وأعددنا كل شيء بشكل مريح قدر استطاعتنا. كنا قد أدركنا من مناقشاتنا، مع من عرفنا، أن الخدمات الطبية قد لا تجد تشجيعًا كبيرًا، فما زال وعي السكان بأهميتها ضعيفًا. إن هذا النوع من النشاط، يحتاج إلى وسط متقدم من الناحية الفكرية، ولديه الاستعداد لتقبله. وبناءً على ذلك ركزنا على التجارة وبذل كل الجهود لتخفيف ما نحمل من قهوة وملابس. كان سكان الجوف أكثر حرصًا منا على الشراء، فمنذ البدء ازدحم فناء مسكننا بالمشترين. ومن المشاهد المثيرة رؤية العربي ببساطته وذكائه وهو يساوم حول أسعار السلع المعروضة. شغلنا النشاط التجاري لمدة أسبوع، ومضت حركة البيع والشراء، منديلًا إثر منديل، بادرة بعد بادرة من

القماش، ومسبحة نسائية وراء أخرى، والسكاكين، والأمشاط، والمرايا، وأشياء أخرى، لأن بضاعتنا شملت الكثير من هذه الأنواع. وقد بعنا كل ما حملناه من هذه الأشياء، إما نقدًا أو بالدين. ومن العدالة أن أقول إن كل الديون قد دُفعت لنا بكل أمانة في موعدها وحتى تجار شارع أكسفورد في لندن لم يكونوا في الأزمان السابقة محظوظين مثلنا. وفي الوقت نفسه اكتسبنا الشهرة وعرفنا كافة أفراد البلدة. جاء إلينا الفلاحون من كل القرى بعد أن سمعوا عنا شائعات مبالغ فيها وهم معروفون بذلك، وتخيلوا أننا نحمل معنا أكثر من الواقع فازدحم حولنا المشترون، وجاءنا عملاء أكثر مما نحمل من الملابس ومما هو في مخزننا.

جرب غافل عددًا من الخطط ليحول دون بيعنا للبنّ الذي أحضرناه معنا، لأنه كان مصرًّا على شرائه لنفسه. وما إن يسمع بأننا على وشك بيعه حتى يرسل لنا أحد أقربائه أو أصدقائه ليطلبوا منا نقض البيعة. كنا قد أدركنا منذ البداية ما يهدف إليه، ولأنه أول من قابلنا وهو مضيفنا رأينا أن يكون له الاعتبار الأول حتى لو كان بسعر التكلفة أو بخسارة قليلة. إن قولي إنه مضيفنا الأول لأن كل من لبينا دعوته للعشاء في الجوف أصبح مضيفًا لنا. وقد توالت علينا الدعوات من كل حدب وصوب إذ إن في عرفهم ترك الضيف يتعشى تحت سقف واحد لليلتين يعدّ عيبًا ووصمة عار في جبين الكرم، وهذا أمر طبيعي لما عُرف عنهم من اهتمام بالضيوف. كان برنامجنا اليومي كالآتي: كنا نستيقظ مبكرًا، ثم نغلق باب مسكننا ونخرج للهواء البارد النقي في فضاء حول بساتين النخيل، ونمشي بمحاذاة أسوار البساتين المرتفعة، ونعبر الأحياء الفرعية الصغيرة إلى المزارع في المناطق الرملية المجاورة للوادي. وباختصار إلى أي مكان هادئ يمكن أن نقضي فيه ساعة صفاء بعيدًا عن اختلاطنا بالعرب، حيث يتاح لنا قدر من الحرية والفراغ لنخطط لأعمالنا اليومية، ونعود إلى المنزل عند شروق الشمس، وربما نجد شابًّا طويلًا أمام باب المنزل أرسله والده، وهو عادة يكون من وجهاء وأثرياء البلدة، ومن الذين لم نزرهم من قبل، ينتظرنا حتى نعود ليقول إن والده يدعونا لتناول إفطار الصباح معه. ونلحق بالشاب إلى دار والده، حيث الحفاوة الحارة ولقاء الجيران الذين يكون صاحب الدعوة قد دعاهم إلى

مناسبته، أو ممن استهواهم تناول القهوة الطيبة فأتوا لمشاركتنا إياها. وهنا نقضي ساعة أو أكثر، ويمكن إجراء عملية تجارية أو تقديم خدمة طبية أو التمهيد لهما. وكنا نقود النقاش، ما وسعنا ذلك، لتناول الموضوعات المحلية؛ لأن أمثال هؤلاء يمكن أن يقدموا لنا معلومات جيدة عن البلد وسكانها. نعود بعد ذلك إلى مأوانا، حيث نجد مجموعة كبيرة من الزبائن في انتظارنا، ولا مجال لراحة أو هدوء لنا إلى الظهر. ويتبع ذلك مدة أكل التمر أو القرع في منازل الجيران، ثم نعود لتجارتنا مرة أخرى لمدة ثلاث أو أربع ساعات، وتعقب ذلك نزهة بين البساتين، وكنا نسير عادة مع مجموعة من الأصدقاء والمعارف، وقل أن ننفرد. وفي الوقت نفسه دعوة للعشاء وقبولها. وهذه الدعوة المهمة في كل مكان في المدن العربية تكون قبل غروب الشمس بقليل.

إن الوجبة الرئيسة في الجوف وفي جبل شمر هي وجبة الجريش. وهي عبارة عن قمح مجروش، يغلى وتضاف إليه الزبدة واللحم وبعض الخضراوات مثل القرع وما شابه ذلك، والبيض المسلوق. ومهما كانت الخلطة، فإن كل ذلك يوضع في إناء واحد كبير من النحاس، أو إناء مستدير قطره قدم ونصف القدم أو قدمان، ويقدم الطعام ساخنًا ويؤكل باليد، ولا تعرف الملاعق والشوك لا لأي سبب فلسفي أو معنوي - كما ذكر أحد الكتاب وأعتقد أنه فرنسي - بل لأن مثل هذه الأدوات لا داعي لها، ولا أهمية لها حيث لا وجود للحساء والأوصال المشوية. الخبز لا وجود له في وجبة الجوف المسائية هذه، بينما يكون موجودًا في وجبة الإفطار. يعدّ الخبز من أسباب تنويع الوجبات في شبه الجزيرة العربية. ويقدم الخبز هنا أيضًا في شكل كيك أو كعكة بلا خميرة في سُمك معتدل. والتمر مكمل لهذه الوجبة، وهو تقريبًا لا يغيب عن كثير من الوجبات، والمشروب هنا هو الماء، ولكن في سالف الأزمان كان بعض العرب يصنع خمرًا من التمر، وقد ذكر ذلك الشعراء القدماء والكتاب في شمال إفريقية، ولكن يبدو أن صناعة الخمر بتلك الطريقة قد اختفت الآن ونسيها الناس. ينهض الجميع بعد تناول العشاء ليغسلوا أيديهم ويتجهون إلى أرض فضاء حيث الهواء الطلق، ليتسامروا ويدخنوا الغليون تحت السماء

الصافية، التي تبدو شفافة بلا ضباب أو رطوبة ولا يظهر السحاب إلا قليلًا، ثم يلوح القمر ناشرًا ملاءته الفضية فوق تيجان أشجار النخيل، وآخر أشعة المغيب لا تقل صفاءً ووضوحًا عن أشعة الشروق. يستمر القوم في السمر مدة ساعة أو ساعتين ثم يذهبون إلى منازلهم للنوم في الغالب الأعم. وننصرف نحن لكتابة يومياتنا، ودراسة الملحوظات التي سمعنا، وتقويم الشخصيات التي قابلنا. كنا في بعض الأحيان نتلقى دعوة من أحد الملاك الموسرين، لقضاء استراحة صباحية في بستانه نستمتع بأكل العنب جلوسًا تحت الأعناب بعناقيدها الوفيرة، وفوق رؤوسنا أشجار النخل العالية، وحولنا قنوات جارية. ما أجمل تلك المشاهد لو تذكرنا الصحراء القاحلة. وبعد ذلك تأتي زيارتنا الطبية، ووصفات الدواء، والواجبات المماثلة لها التي كانت تأخذ جزءًا من اليوم، أو نلتقي الشبان الصغار، الذين يتطلعون لمعرفة أخبار سورية ومصر أو التاريخ عمومًا أو العلوم الدينية، وكان هؤلاء الشبان يقتطعون ساعات من يومنا، بعض الأحيان نقضي هذه الساعات في مناقشات جادة، وكان ذلك مقبولًا لدينا.

الآن دعونا نقوم بزيارتنا الرسمية لحمود حاكم البلدة. لقد قبل غافل بعد أربعة أيام من وصولنا أن يمهد لتلك الزيارة، بعد تأخير تعلل فيه بعدة أسباب ببراعة. وبدأنا مشوارنا إلى حمود من منزل غافل. وكان برفقتنا عدد من فرسان حمود، وسار موكبنا المهيب بصرامة. ولربع ساعة ظل الطريق يتعرج بنا بين بساتين يظللها النخيل وفي أزقة صغيرة مظللة ومبتلة بالندى تجري فيها جداول الري إلى أن وصلنا إلى ساحة كبيرة تؤدي إلى مرتفع القلعة. وفي أحد الجوانب وعلى مسافة ما برز البرج المستدير وحيدًا، وهو برج «مارد» أو المتمرد الذي ذكرت جدرانه الحجرية الصلدة في الشعر العربي كثيرًا. ولكن معماره لا يشير إلى المعمار الروماني أو الإغريقي، ولكنه عربي خالص في تصميمه وتشييده، وبهذه الصفة يترك مجالًا ضيقًا لعالم الآثار أو الفنان. وعلى أية حال؛ فإن سكان المنطقة المحليين ينظرون إليه بإعجاب، لا يشاركهم فيه الأوروبيون.

وحيث وقفنا في المرتفع، كانت إلى الأسفل منا أطلال دور شيوخ أسرة

الحبوب الأوائل، الذين قُتل بعضهم أو نُفي. ومن حول هذه الخرائب أعجاز نخل خاوية وبساتين مقفرة دمرتها الحروب الأخيرة. وفوقنا تشمخ القلعة نفسها، وهي الآن مقر الحاكم حمود ومستقره. هذه القلعة، هي بناء كبير أو كتلة غير منتظمة بنيت بطريقة غير هندسية، بنيت فيها إضافات أفقدتها شكلها الهندسي الأصلي. ولكن الجانب الجنوبي منها حافظ على بنائه الأصلي بلا تغيير، حيث الحجم الكبير واستدارة الحجارة الدقيقة في الطبقات الدنيا، التي تعيد إلى الأذهان بداية هذا البناء، بينما تظهر نوافذ عديدة على ارتفاع عشرة أقدام إلى أحد عشر قدمًا من سطح الأرض، وهي مرصوصة على طراز - إذا لم تخني الذاكرة - أقواس سكلوبيّن (Cyclopean Arch)[١] التي يمكن معاينة أشكالها في قصر أتريوس (Palace of Atreus)[٢] في ميسينة (Mycenae)[٣]. والأقواس نوع من أنواع الهندسة المعمارية البدائية، يوضع فيها الحجر المسطح متعارضًا مع مثيله بطريقة مائلة. وبالقرب من منتصف القلعة يقف برج مربع، وهو عريض بالنسبة لطوله البالغ خمسين قدمًا، بينما جوانبه بعرض عشرين قدمًا تقريبًا، ويبدو أنه بني في أزمان لاحقة لبناء الجدار الجنوبي. وفي الجوانب فتحات للدفاع ضد المعتدين. يلتف حول القلعة جدار شبه دائري، يربط ركن السور الخارجي، ويبدو أنه أضيف مؤخرًا، وتم بناؤه على عجل بالحجارة ودون نظام، بينما البناء الحجري للبرج التزم الدقة والنظام. وبوابة المدخل في الزاوية من هذا البناء المتعدد الألوان تبدو شبيهة للبرج أكثر منها بالمخالفات القديمة، فهي مقوسة وتختلف عن الأسلوب المستعمل في منطقة نجد، حيث الأبواب والسقوف كلها مسطحة، وعلى رأسها حوافّ. للمبنى جدران جانبية تحول دون الدخول رأسًا إليه. وفي داخل القلعة ميادين وصالات مرصوفة بحجارة غير متساوية، ولكنها متماسكة أشبه بما يمكن أن

---

(١) طراز معماري شائع في بلاد اليونان القديمة، يقوم على استخدام حجارة كبيرة غير مهذبة توضع فوق بعضها وتعبأ الفراغات فيما بينها بحجارة صغيرة؛ وجميعها تربط بملاط.

(٢) كان أتريوس، حسب الأساطير اليونانية، ملك ميسينة.

(٣) موقع اثري في اليونان يقع على مسافة ٩٠ كيلًا جنوب غرب أثينا وهو موقع مدينة- دولة دارسة أدّت دورًا مهمًّا في تاريخ الحضارة الإغريقية في الألفية الثانية قبل الميلاد.

تشاهد في مدينة فلورنسا الإيطالية، والدهاليز التي تقودك إلى الداخل طويلة، مظلمة، ومقوسة. وهنا على الجدار رأيت وجود صليبين غائرين، ويبدو أنهما يعودان إلى تاريخ بعيد. ومثل هذه الأشكال يمكن مشاهدتها في حوران بسورية؛ لكنها تحمل دلائل على أن الدين المسيحي كان هنا في غابر الأزمان.

كان مدخل القلعة يعج برجال حمود ساعة وصولنا. وكان هؤلاء الرجال مسلحين بالسيوف والبنادق، وكانوا يلبسون زيًّا موحدًا، ولكن بلا أية علامات، وعبرنا بينهم بين تحديق العاطلين وتحيات المهذبين منهم إلى أن وصلنا إلى فناء آخر داخلي، محروس بالطريقة التي ذكرنا. كان يجلس هناك حمود حيث مجلس القهوة، وهي غرفة كبيرة تبدو عليها الصرامة وفيها مقاعد عالية من الحجارة على جانبيها بعيدًا عن موقد القهوة، الذي وضع في الركن البعيد عن المدخل. وهناك، في موقع الامتياز الذي لا يسمح حمود لأي فرد من الجوف أن يأخذه مهما كان ثراؤه أو منشؤه. ظهر لنا الحاكم حمود رجلًا قوي البنية، عريض المنكبين، وبحواجب وعيون سوداء، يرتدي ثوبًا أبيض محلي الصناعة، وعليه عباءة سوداء أنيقة مطرزة بالحرير الأحمر، وعلى رأسه منديل يشده عقال أبيض منسوج بدقة من وبر الإبل، وفي كفه مروحة من السعف. نهض من مقعده برشاقة عند اقترابنا منه ومد يده للمصافحة، وأجلسنا بجانبه، وأجلس غافلًا بوصفه صديقًا قديمًا بيننا وبينه ربما احتياطًا من اعتداء مفاجئ منا، لأن العربي مهما كان لا بد له من الحيطة والحذر في حضور الوجوه الغريبة. لقد أظهر لنا حمود الكثير من الحفاوة والاهتمام، واستفسر عن صحتنا بعد تلك الرحلة المضنية عبر الصحراء. وأشاد بدمشق وأهل دمشق بطريقة غير مباشرة، وعرض علينا السكن داخل القلعة. ولكن غافلًا استفاد مما تتيح له التقاليد العربية بوصفه المضيف الأول لنا وتحدث نيابة عنا معتذرًا عن عدم قبول السكن الذي أعطانا إياه حمود. ولم نهتم نحن كثيرًا بالأمر. قدمنا رطلًا أو يزيد من البن المختار هدية لصاحب السعادة بهذه المناسبة تعبيرًا صامتًا عن أهداف رحلتنا، وكوسيلة أفضل لكسب تأييده، وقبلت الهدية بترحاب من الرجل العظيم، الذي فيما بعد قدم لنا أفضل خدماته. وقلنا له: إننا لا نحتاج إلى شيء أكثر من أن يكون في أتم صحة

وعافية، وهكذا يتحدث العرب في مثل هذه المناسبات. وطلبنا منه أن يساعدنا في الوصول إلى حائل آمنين عند فراغنا من مهمتنا في الجوف. وكنا نرغب في أن نضع أنفسنا تحت رعاية الحاكم طلال في حائل، فوعدنا حمود بأن يحقق لنا كل ذلك، وفعلًا صدق وعده.

قدمت لنا القهوة والتمر. وفي الوقت نفسه دخل الرجال الثلاثة من شمر - الذين يشكلون مجلس استشارة حمود - في محادثة مألوفة مع الجالسين في مجلس القهوة، وكانوا صامتين لمدة من الوقت وهم جلوس على المنصة الحجرية العالية في مواجهة الحاكم حمود. وكانوا الثلاثة بهيئة حسنة، وفي مقتبل العمر، يلبسون مناديل القطن المخططة باللون الأحمر أو الأزرق، الأمر الذي كان غريبًا على سكان جبل شمر. وكان كل شيء يتعلق بمظهرهم ينم عن درجة من الثقافة والذكاء، الأمر الذي أسهم بوضعهم في مكانة متقدمة عن سكان الجوف، وحتى في وضع أرقى من حمود شخصيًّا، الذي رغم أنه يتصف بالحكمة والمهارة في إدارة مسؤولياته، إلا أنه مازال شبه بدوي في تصرفاته وأخلاقه، ولهذا أصبح حاكمًا مقبولًا لمن حوله ولمن يحكم. بلباقة وبساطة قادنا هؤلاء الثلاثة إلى النقاش، وأظهروا اهتمامًا بنجاح مهمتنا، ولم يتوانوا في تشجيعنا على التوجه إلى حائل، وأكدوا لنا أننا سنلقى ترحيبًا ومساعدة من حاكمها طلال. كانت هذه المناسبة هي الأولى لنا التي نسمع فيها اللغة العربية الأصيلة لغة وسط الجزيرة العربية، التي أُعجبنا بصفائها وجمالها وما واكبها من بلاغة في النطق تلفت الأنظار. لا غرو في هذا الأمر فهي لغة القرآن وهذا يكفي. وهي بكل طلاوتها، وتصريف كلماتها، وأصالتها لم تفقد شيئًا، ولم يستطع أحد أن ينال منها. واسترعى انتباهنا الرغبة التي أبدوها لمشاهدة عرض طبي يكشف المهارة التي توصل إليها الطب، ووعدوا بأن معرفتنا الطبية ستلقى الاهتمام في جبل شمر.

بالقرب من هؤلاء السادة، أعضاء مجلس استشارة حمود، جلس المطوع أو رجل الدين، وهو رجل متقدم في السن صارم التقاطيع، أُرسل إلى هنا ليعلم أهل الجوف عقيدتهم، وهو غير محبوب لا لتلاميذه ولا لرفاقه، الأمر الذي

يجعله في وضع لا يسمح له بتحسين طبيعته الحادة. خلال الثمانية عشر يومًا التي قضيناها في الجوف، قام حمود مع زملائه برد زيارتنا له مجاملة وأدبًا. وقمنا نحن بدورنا بزيارة القلعة مرارًا، وشاركنا في مناسباتها الاجتماعية، وأهدرنا ساعة أو ساعتين ندرس ما نراه داخلها من أشياء مثيرة. يعقد حمود مجلسه القضائي كل صباح وأحيانًا بعد الظهر فهو صاحب السلطتين التشريعية والتنفيذية. يؤم هذه المجالس جمهور كبير ويعرض فيها المدعي دعواه ويتناظر المدعيان أمام حمود في مجلس قهوته. يستمع الحاكم بصبر ثم يصدر الحكم. وتجدر الإشارة إلى أن قضايا الحياة والموت وأوامر التشريع تحال إلى رئيس القضاء في حائل، وما هو أقل من ذلك تبقى مسؤولية النائب الذي يتحمل عبئًا كبيرًا، فهو يقوم بها شخصيًّا. والمحامي لا يمكنه العيش في شبه الجزيرة العربية لأن كل إنسان هنا لديه من صفاء الذهن والفصاحة ما يمكنه من الدفاع أو الاتهام دون تضييع وقت المحاكم في مثل هذه المرافعات التي تصبح بلا هدف، إلا أن الرشوة ليست ببعيدة، ولها تأثير ناجح. وقد كنت معجبًا ببساطة ووضوح المتقاضين حتى إن المحاكم العسكرية تبدو أكثر تعقيدًا بالمقارنة. وعندما يكون المدعي بدويًّا فستكون لدينا تمثيلية رائعة ومحبوكة. في ذات يوم، كنا أنا وزملائي في زيارة ودية للقلعة، ومررنا بكل الإجراءات، ولكننا ربما تسببنا في شيءٍ من إعاقة النشاط الجاري فيها؛ ولكن التوقف كان قصيرًا واستُؤنف العمل.

كان هناك بدوي من قبيلة معاز[1] يعرض شكواه أمام حمود، وكان يتهم أحدًا بسرقة جمله قسرًا. كان الحاكم يجلس في هيبة كبيرة في ركنه يتكئ إلى وسادة، بينما جلس أمامه البدوي وعلى مسافة ستة أقدام على الأرض واضعًا قدمًا فوق أخرى في استرخاء ويحمل بيده منجلًا للحصاد، أو مما يستعمل في قطع الأعشاب. وكان البدوي يهز يده نحو القاضي (الحاكم حمود) بهذا المنجل ليلفت نظره، قائلا: «أتسمعني يا حمود»، وهو يهز بالمنجل في وجهه حتى أوشك أن يصل بدن الحاكم، كأنه كان يرمي إلى طعن جسده به: «لقد أخذ

---

(١) قبيلة معروفة حاليًا باسم بني عطية.

جملي، هل ذكرت الله» وشهر المنجل مرة أخرى في وجه القاضي الذي ظل ثابتًا في مكانه دون أية حركة. «الجمل حقي أتسمعني» وهز المنجل مرة أخرى مذكرًا القاضي: «أن الجمل حقي أعطاني إياه الله وأنت أيضًا، هل تسمعني يا ولد»، ولم يحرك حمود ساكنًا وهو يستمع إلى أن تدخل أحد أعضاء مجلس القضاء قائلًا للرجل وهو يهدئ غضبه: «اذكر الله يا والد، ليس واردًا أن نخطئك». استدعى القاضي أحد أعوانه وطلب منه إحضار الرجل المدعى عليه. بعد أن استمع للشهود من الجوف الذين أكدوا صدق قول البدوي. أضاف القاضي قائلًا له: «حسنًا يا والدي سيعود لك حقك، فاطمئن وضع ثقتك في الله، وأشار إليه بالانصراف فعاد إلى مكانه في المجلس».

داخل القلعة يقع المسجد، الذي شُيِّد بأمر من عبيد بن رشيد عند زيارته للجوف، وبالرغم من أن المسجد كبير، إلا أنه بسيط وغير مزخرف وبناؤه عادي، وهو أشبه ما يكون برواق ذي أعمدة، له أربعة عشر عمودًا في الطول، وثلاثة في العرض، وبين العمود والآخر مسافة أحد عشر قدمًا، وطوله مئة وثمانون قدمًا، وعرضه أربعون قدمًا. الجدران من الطين، والأعمدة من الخشب والسقف من عوارض خشبية. في هذا المكان، يلتقي الناس لصلاة الجمعة ويستمعون إلى خطبة الجمعة. كل من يحضر عليه أن يؤديها، ولكن حمودًا لا يفرض ذلك على الناس. وفي غياب التشدد في أدائها يكون الحضور قليلًا، والمتشددون ليس لهم أثر كبير في الجوف، ولن يتمكنوا من إحضار عدد مناسب منهم.

يُذكر اسم السلطان [العثماني] عبدالعزيز خان[1] في الخطبة، وهذا كل ما بقي من نفوذ العثمانيين في الجوف، وربما في بلاد الحاكم طلال، أما إلى الجنوب قليلًا فإن «خاقان القارتين والبحرين» يُنكر عليه حتى ذكر اسمه. مضى أسبوعان أو أكثر، ومازلنا في الجوف ضيوفًا معززين مكرمين حسب التعبير

---

(١) السلطان «عبد العزيز خان» بن السلطان محمود الثاني، وهو الخليفة الثاني والثلاثون في سلسلة خلفاء الدولة العثمانية، تولى السلطنة في سنة (١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م)، جرى عزله في سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م.

العربي، وزالت عنا نهائيًّا وعثاء سفر الصحراء، ومازال بيت غافل مقرنا الرسمي. ولكن كان هناك أيضًا منزلان نشعر بالراحة فيهما؛ هما منزل ضافي، الذي جاء مع غافل لاستقبالنا أول مرة، ومنزل سالم الرجل المحترم، الذي كان بطريقته رجلًا كبيرًا مثقفًا، وكان يسكن في جوارنا وتحيط به أسرة كبيرة مكونة من شبان صغار، كلهم تربوا على مخافة الله وإتباع القدوة الحسنة. وكنا نرتاح في بيت سالم عندما نتعب من غافل وأمثاله، ونجلس في ساعة صفاء في مجلسه ننشد الشعر العربي، أو نستمع إليه ونتحدث عن أحوال البلدة ومستقبلها ونناقش القضايا الأخلاقية، أو نعلق على أساليب واتجاهات الناس في عصرنا الحالي. وفي كلا المنزلين كنا على يقين من أننا نجد ترحيبًا حارًّا ووداعًا أكثر حرارة، وحتى عندما ابتعدنا ورحلنا إلى حائل كنا نستلم رسائل من سالم وضافي لنحقق لهما ما وعدنا به من عودة في المستقبل مع أن وعدنا لهما كان فيه شيء من الغموض والاستحالة. لقد كانوا جميعًا أصدقاء مخلصين وتصرفوا بنيات حسنة نحونا. كانت رغبتهم صادقة في رؤيتنا بينهم في إقامة دائمة، وفي علاقات عمل بل في علاقات زواج. حتى غافل كان إلى حدٍّ ما مخلصًا ولعلها ظاهرة عامة في سلوك العربي، فالصداقة الحميمة أرفع بكثير من المساومات وانتهاز الفرص، وكان سلوكهم من هذه الناحية أروع تصوير لذلك.

نحن الآن أمام سؤال مهم: كيف نصل إلى جبل شمر؟، وبيننا وبينه صحراء النفود التي يخشاها أجرأ المسافرين العرب في كل المواسم من السنة. وعبورها في منتصف يوليو من أصعب الأمور بل أصعب من إبحارك في مضائق بيرينغ (Behring's Straits)[1] في شهر يناير. وفي الحقيقة ابتداء من شهر مايو إلى سبتمبر يقل عدد الذين يعرضون حيواناتهم أو أنفسهم لمخاطر رمال كالجمر. وكل تحرياتنا عن هذه الصحراء كانت تنتهي بعبارة «انتظر حتى ينضج التمر» وهذا التمر لا ينضج إلا عندما تظهر نجمة سهيل أو نجمة

(١) المضيق الفاصل بين سيبيريا في روسيا عن ألاسكا في أمريكا الشمالية، وهو مضيق متجمد في فصل الشتاء.

«كانوبس»، وهذه تصادف الأسبوع الأول من سبتمبر. ماذا نصنع؟ لم نكن نعرف، وكنا نتزعج انزعاجًا شديدًا نتيجة لوجود فرصة تأخير طويل بعد أن لاحت لنا الفرصة المواتية لتحقيق أهدافنا. كان طلال عندما استولى على الجوف قد بدأ استخدامها كقاعدة لتوسيع دائرة حكمه في كل المناطق المجاورة لها إلى طريق الحاج في الغرب وسورية في الشمال. وكان ما يفصل بينهما من صحراء موطنًا لبدو الشرارات الذين شن عليهم طلال هجومًا انتهى سنة وصولنا باستسلام قبيلة العزام آخر فرع كان مستقلًّا من هذه القبيلة. وفي هذه المدة وفد إلى الجوف جماعة من رؤساء هذه القبيلة في طريقهم إلى جبل شمر، حيث يلتقون طلالًا ويقدمون له فروض الطاعة في عاصمته. استقبلهم حمود وأسكنهم لعدة أيام ليرتاحوا من عناء رحلتهم ويعدوا أنفسهم لرحلتهم القادمة. وكان بعض سكان الجوف، ممن لهم أعمال وتجارة مع حائل، قد عزموا على مصاحبتهم في رحلتهم إلى حائل. أرسل حمود لنا وأخبرنا بأمر هذه القافلة المتجهة إلى حائل. وعندما ذكرنا له أننا نريد أن نغتنم هذه الفرصة لنصل إلى حائل أعطانا رسالة إلى طلال، وذكر له في الرسالة بأننا دفعنا رسوم الدخول في أراضي شمر، وإننا كنا طبيين ونستحق المعاملة الحسنة. كانت رسوم عبور المنطقة لا تزيد على أربعة شلنات للفرد أو أقل من ذلك، ولا يمكن لأحد أن يقول إنها مكلفة حتى عندما تُدفع كل رسوم الجمارك والجوازات، وليس هناك أية نفقات أخرى متوقعة. بدأنا بعد ذلك عملية استئجار جملين بحضور حمود، وكان السعر وهو شامل لكل الخدمات الضرورية معقولًا وغير مبالغ فيه، ووصل إلى مئة وعشرة قروش، وهي تعادل تسعة عشر شلنًا بالنقود الإنجليزية. بدأنا إعداد زادنا من تمر ودقيق، وأصلحنا قِرب الماء واستعدنا الديون التي كانت لنا انتظارًا للرحلة رغم محاولة أصدقائنا إقناعنا بصعوبة الرحلة في هذا الفصل من العام. ولم يكن في مقدورنا تفسير الأمر لهم، وتوضيح أسباب مغامرتنا في هذا الوقت غير المناسب. لم يكن مفهومًا إصرارنا على الرحلة، وأخيرًا انتبهوا إلى أننا «شوام» أي من سكان سورية ولاسيما سكان العاصمة دمشق، المشهورين بالاعتداد برأيهم وبروحهم المخالفة. لقد حدثت تأخير للرحلة حتى يوم ٨ يوليو، وقت نضوج التين. وهذه

كانت حجة أخرى جعلت أهل الجوف يزدادون عجبًا من تصرفنا في الإسراع بالرحلة، بدلًا من التريث قليلًا والاستمتاع بنعم الأرض التي بدأت تنضج. جاءنا ظهر ذلك اليوم من يخبرنا بأن علينا الاستعداد للسفر، وعند العصر، تحركنا وودعنا جيراننا، وامتطينا رحالنا، وكانت أخف حملًا مما كانت عليه حينما بدأنا رحلتنا من معان. صحبنا ضافي وعقيل الابن الأكبر لغافل نيابة عن والده، الذي كان في رحلة صيد خارج البلدة. كذلك رافقنا بعض معارفنا مسافة قصيرة تمشيًا مع التقاليد الشرقية، وكانوا من كل قلوبهم آسفين لمغادرتنا، وقد وجهوا لنا العديد من الدعوات للعودة إلى الجوف، وكان ردنا: «إن شاء الله»، وليس هناك أفضل من هذه الإجابة.

بعد ابتعادنا عن المنازل والبساتين، قادنا دليلنا إلى طريق يؤدي إلى جنوب الوادي، حيث وصلنا قبل غروب الشمس إلى نهاية الجانب الشرقي منه. وهذه هي نقطة اللقاء مع رفاق الرحلة الذين لم يكونوا قد وصلوا بعد؛ لأنهم كانوا مدعوين للعشاء مع حمود، وكانوا حريصين على حضوره. ترجلنا عن مطايانا وكنا بالانتظار. تلقينا دعوة شيخ ذلك المكان للعشاء فذهبنا إليه، وعدنا لننام في العراء مع أمتعتنا ودوابنا في الهواء الطلق. كان فراشنا رمل ناعم، وهذا يُعد أمرًا معتادًا هنا، ولا يُعدّ من يقوم به بطلًا. ومع مطلع الفجر، وبينما النجم فينوس مازال مشعًّا كأنه قطرة فضة ذائبة في سماء زرقاء، أقبل علينا ثلاثة من رفاق الرحلة، وأفادوا: إن بقية الركب في طريقهم إلينا. حفزتنا تلك الأخبار على السير قبل شروق الشمس فارتقينا المرتفع المنحدر من الضفة الجنوبية، واستمتعنا بمنظر كامل للجوف، قلعتها وأبراجها وبساتين نخيلها وحدائقها في ضوء الشفق، وخلف ذلك تمتد الصحراء الشمالية إلى الأفق البعيد. وهبطنا الجانب الآخر من التلال المجاورة فاختفت الجوف عن أنظارنا. من يعلم هل سوف نراها ثانية أم لا؟

الآن كان مسارنا يأخذ الاتجاه جنوب - غرب، عبر سهل واسع منحرف بآكامه الرملية المغطاة بالغضا[1]، فانشغلت رحالنا بمرعاها أكثر من السير

(١) اسمه العلمي (Haloxylon persicum)، وهو شجر بري معمر يسمو ما بين متر وأربعة أمتار، سيقانه =

الحثيث للتقدم في رحلتها. توقفنا عند الظهر بالقرب من أجمة كبيرة من هذه الشجيرات التي كانت تسمو إلى عشرة أقدام، وأقمنا ما يشبه ظلة لنستريح ساعات الظهيرة الحارة وفي الوقت نفسه لانتظار بقية الركب الذي بدأت طلائعه في الأفق.

كان الركب مجموعة من الشرارات البدائيين[١] شيوخًا وأفرادًا، وقد كانوا مرعوبين من هيبة حمود نائب الأمير في الجوف، ومن جلال لقائهم المنتظر مع الأمير طلال الرهيب بنفسه. كان الجميع مسلحين يرتدون أحسن أزيائهم المرقعة... كان هؤلاء شيوخ العزام في طريقهم للقاء الملك وإعلان الولاء له[٢]. وكان ضمن هذا الركب أيضًا بدويين من قبيلة شمر أفضل مظهرًا ومخبرًا؛ وثلاثة رجال من الجوف ظهروا وكأنهم سادة وسط مثل هذا الجمع. وللقارئ أن يتصور كيف كنت أبدو أنا ورفيقي وسطهم، إنني واثق أنه سيفترض أننا كنا الأكثر تأنقًا بينهم، وعلى كل حال سرنا معًا.

وصلنا بعد شروق شمس اليوم التالي إلى وادٍ أبيض كلسي تحوطه تلال واطئة من المرل[٣] والرمل. هنا كان البئر الشهير، بئر الشقيق، الذي كان علينا تعبئة قربنا من مائها لأنه لا يوجد مورد ماء بعدها إلا على مشارف جبل شمر. وبعد مسير أربعة أيام عبر مسالك النفود الرملية. يصل عمق هذه البئر، في

= البالغة بيضاء غليظة كثيرة التفرع ونادرًا ما يكون له ساق مفردة، والصغيرة خضراء رفيعة عصارية مفصلية، وأوراقه شبه حرشفية صغيرة ثلاثية الأضلاع مستدقة القمة شبه ملتحمة بالقواعد وذوات شعيرات بالآباط، الأزهار صغيرة جدًا على فروع صغيرة تشبه الحوامل الزهرية على الفروع الجانبية عند المفاصل. انتشاره واسع على الكثبان الرملية، رعوي جيد للإبل وتستخدم سيقانه الجافة حطبًا. انظر: **النباتات البرية في مراعي شمال المملكة العربية السعودية**، مصدر سابق، ص. ٦٠.

(١) يستخدم بلغريف مثل هذه المصطلحات كثيرًا في وصفه للبدو بصفة عامة، وكثيرًا ما يكون غير موضوعي البتة في وصفه لهم. ونظرته للبداوة والحضارة القائمة على مفهومه الذاتي لهما وفي سياق ثقافته الأوروبية تأخذ المظاهر المادية كأساس لتقويم مستوى البشر، وهو لا يأخذ السياق الذي يعيش فيه البدو من شظف العيش وحياة الترحال وقلة الماء وانعدام الأمن وغياب الدولة التي هي أساس في البناء الحضاري المادي والإنساني.

(٢) كان بلغريف الرحالة الوحيد الذي يطلق لقب ملك على الأمير طلال بن رشيد.

(٣) طين غني بكربونات الكالسيوم يستعمل سمادًا.

الأقل، إلى ثمانين قدمًا إذا ما أخذنا في الحسبان طول الحبل الذي أنزل داخله قبل الوصول إلى الماء؛ وسعة فوهته تصل إلى ثلاثة أقدام، وهو مطوي بالحجر من داخله ومحوّط بمتراس مرتفع من الصخور.

هنا بدأ العرب عملهم وسط الصراخ والضحك وهم يمتحون الماء ويملؤون القرب الجلدية. كانت ساعات الظهر قد أدبرت، وليس هناك وقت لكي نضيعه؛ في الواقع، كان مخزون الماء المحمول بالكاد يكفي المدة التي سنكون فيها بعيدين عن موارده، لا سيما في قيظ حار كهذا. امتطينا رواحلنا المرتوية، وتابعنا طريقنا. في أقل من نصف ساعة خرجنا من ذلك المنخفض الطباشيري، ودخلنا النفود.

إذا ما استخدمنا مصطلح بنات النفود الذي يستخدمه العرب ليشيروا إلى سلاسل الكثبان الرملية في هذه الصحراء، فإن هذه البنات لا تختلف كثيرًا عن أمها غير الودودة. ما سبق وذكر في مصادر أخرى حول هذه السلاسل من الكثبان الرملية، أصلها وامتدادها وهيئتها، واتصالها بالدهناء، أو الربع الخالي في الجنوب، قد يعفيني هنا من الكتابة عن تفاصيلها الجغرافية؛ ولنكتفي حاليًّا بالقول إن تلك السلاسل ما هي إلا عروق رملية - ربما يسميها المرء خلجان، وهذا قد لا يجافي الواقع - للمحيط العظيم من الرمال الذي يغطي ثلث شبه الجزيرة العربية تقريبًا، ويخترق بعمق هضبتها الوسطى الخصبة ويتقاطع معها في بعض الأماكن. إن خصائصها العامة التي أعتقد أن الصفحات التالية سوف تعطي فكرة صحيحة ومقبولة عنها، هي خصائص صحراء الدهناء نفسها، أو خصائص الصحراء الحمراء (النفود) نفسها. إن العرب الميالين دائمًا للمبالغة يقدرون عدد هذه السلاسل بالعشرات، لكنها قد لا تتعدى أربع سلاسل من الكثبان الرملية المترابطة، والإنسان الذي يقطعها من الوسط لابد له بالضرورة أن يعبر اثنتين منها، أو ربما حتى ثلاثًا مثلما فعلنا.

إن الشكل العام للجزيرة العربية عبارة عن هضبة وسطى محاطة بدائرة من الصحراء، رملية في الجنوب والغرب والشرق، وصخرية من الشمال. هذه الدائرة المتسعة تطوقها الجبال المنخفضة الجدباء في أغلبها، ولكنها تتخذ في

اليمن وعُمان ارتفاعًا وعرضًا وخصوبة معقولة، بينما ما وراءها حافة ساحلية ضيقة يحدها البحر. وتحتل هضبة الجزيرة العربية الوسطى مساحة تساوي إلى حدٍّ ما نصف مساحة شبه الجزيرة بأكملها، وحدودها تتأثر كثيرًا؛ بل غالبًا بتحركات رياح النفود المتعرجة وزحفها إلى الداخل. وإذا ما أضفنا إلى هذه الهضبة الوسطى أو نجد، آخذين تلك الكلمة في أوسع معانيها، الجوف والطائف وجبال عسير واليمن وعمان والأحساء، باختصار كل المناطق ذات الخصوبة التي تنتمي للدائرة الخارجية؛ فإننا سنجد أن الجزيرة العربية تحتوي على نحو الثلثين من الأراضي الخصبة أو على الأقل القابلة للزراعة، والثلث المتبقي لصحراء يتعذر استصلاحها، وبشكل رئيس إلى الجنوب. إن المساحات الفراغية الكبيرة في خرائط هذه البلاد لهي في الغالب دلائل على عدم وجود المعلومات أكثر منه عن خلوها من السكان. على أية حال؛ فإن ما ينتظرنا الآن لحسن الحظ هو فقط سلسلة واحدة من كثبان الصحراء غير الودودة، التي بعد أن نقطعها سنجد أراضٍ أفضل؛ ومع هذا الأمل لنتحلى بالشجاعة ولندخل النفود بجرأة.

لقد سمعنا من البدو والحضر الكثير عن النفود، للدرجة التي هيأنا أنفسنا لشيء رهيب وغير ممكن. لكن الحقيقة، لا سيما في هذه الأيام شديدة الحرارة، أثبتت أن الأمور أسوأ مما سمعناه وتخيلناه. إننا الآن نقطعُ محيطًا واسعًا لا يحيط به النظر من الرمال الحمراء غير المتماسكة المتراكمة في سلاسل هائلة تجري متحاذية من الشمال إلى الجنوب، تموجُ إثر تموج، ترتفع كل منها إلى ارتفاع مئتين أو ثلاث مئة قدم في المتوسط، بجوانب منحرفة وقنن مستديرة متجعدة في كل الاتجاهات بفعل أنواء الصحراء المتقلبة الأطوار. وفي الأعماق، بينها يجد المسافر نفسه كما لو كان حبيسًا في حفرة رملية خانقة، محاطًا بأسوار لاهبة من كل جهة، وأحيانًا، وهو يكد في صعود المنحدر، يطل على ما يبدو وكأنه بحر واسع من النار تتصاعد منه ريح موسمية شديدة، تتجعد بفعل انفجار مضاد في موجات حارة حمراء صغيرة. لا ملجأ ولا راحة لعين أو لطرف وسط وابل من الضوء والحرارة المتدفقة من أعلى على وهج ساطع منعكس من أسفل. أضف إلى هذا إرهاق أيام صيف طويلة من الكدح -

وربما من الأفضل أن أقول الخوض - عبر رمال غير متماسكة ولاذعة على ظهور حيواناتٍ واهنةٍ نصف خَدِرة، ومع ساعات نوم قليل ومتقطع ليلًا، ومع عدم راحةٍ بالنهار لعدم وجود أي ظل، وبالقليل من المأكل والأقل من المشرب، بينما الماء الفاتر الملون في القرب يتناقص بسرعة أكبر بفعل التبخر أكثر منه بالاستخدام، وشمس عمودية، ويا لها من شمس تخترق حتى الملابس، والمتاع، ويتخذ كل غطاءٍ أو وقاء رائحة الحريق ونادرًا ما يسمح بلمسه. انقضى عاجلًا مرح البدو الصاخب، وتفرقوا واحدًا في الأمام والآخر في الخلف، كل يشق طريقه في صمت لا يقطعه سوى رغاء الإبل الغاضبة حينما تضرب، وهذا يحدث كثيرًا، لتحث في سيرها.

غادرنا بعد ظهر يوم العشرين من شهر يوليو ١٨٦٢ بقليل بئر الشقيق، وواصلنا بقية ذلك اليوم وكل الليل تقريبًا في المسير، ولم نتوقف إلا ثلاث أو أربع ساعات للراحة وتناول وجبة العشاء، وهذا هو كل ما يمكن تحمله، إذ إننا لو لم نصل إلى الجانب الآخر من النفود قبل أن ينفد مخزوننا من الماء فإننا لا محالة هالكون. وبالفعل خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية في هذه الممرات - كما يسميها العرب - لم نتوقف سوى لساعة واحدةٍ. انقضى يوم الاثنين الواحد والعشرين من يوليو ببطء، وبدا أكثر بطئًا في العناء نفسه، ووسط المنظر نفسه. الرمال المتحركة لا تكاد تسمح لأي نوع من النبات ينمو فيها، وحتى شجر الغضا الذي هو مثل النباتات التي بالكاد تحتاج إلى تربة خاصة أو الرطوبة للبقاء، لهو نادر هنا أو متوقف عن النمو بصورة بائسة؛ لا يقدم لا المأوى ولا المرعى. في بعض الأحيان يظهرُ ما يشبه الدرب، وفي أغلب الأحيان لا يظهر أي أثر، لأن الرمال المتحركة تكون قد غطت آثار أولئك الذين عبروا المنطقة. في هذه المرحلة من مسيرنا بدأنا نلاحظ في سلوك بعض مرافقينا، لاسيما الشباب منهم، بعضًا من عدم الكلفة الوقح الشيء الذي وضعنا في حالة كبيرة من اليقظة والحذر لهجوم مباغت؛ إذ إن من عادات البدوي، عندما يفكر في النهب والخيانة أن يقوم أولًا بجس الوضع على ذلك النحو، وإذا ما رأى أية علامات للجبن أو الإذعان في ضحيته المأمولة، فإنه يأخذها كإشارة للمضي قُدمًا في فعلته. إن أفضل خطةٍ في مثل

هذه الحالات هو أن يتصنع المرء وجهًا متجهمًا صارمًا ويلتزم الصمت المطبق مع توبيخ حادٍّ بين الفينة والأخرى على سبيل التهديد والتخويف. وهذا في أغلب الأحيان يروّع الشخص البدائي . . . الذي سيتراجع عندما يجابه بوقفة صمود. لقد كان تصرفنا وفقًا لذلك النحو في هذه المناسبة. بقينا متفرقين على بعد لساعات من الزمن، وحينما نكون بمحاذاة أولئك الناس لا ننطق إلا بالقليل، وذلك القليل لم يكن ودّيًا على الإطلاق. ولم ينقض وقت طويل إلا وقد شعر أكثرهم وقاحة بالخجل والحرج، وتقهقر إلى الخلف، بينما أخذ أحد شيوخ العزام بوجهه الناحل، طريقه بجمله في محاذاتي زاعمًا البحث عن رأي طبي، ولكن في حقيقة الأمر أراد أن يبادر للصداقة والاحترام. وبالطبع قابلت مقدماته بتحفظ بارد ومتجهم، ومن هنا بدأ يعتذر عن «الغُشُمُ»، أي الجهلة، من جماعته، مطمئنًا لنا بأنه لم يكن لديهم على أية حال أي سوء نية، وأن الأمر لا يعدو مجرد الافتقار إلى التربية الحسنة، وأنهم جميعًا إخوة لنا، وخدم لنا . . . إلخ. تلقينا اعتذاره بمظهر من الاعتزاز، وتبجحنا عما كان في استطاعتنا فعله، وما نستطيع أن نفعله – أخشى أن ما كنا نستطيع فعله قليلاً جدًّا لو وضعنا على المحك – ثم بدأنا حديثًا ودّيًا حول الموضوع الذي يشتكي منه وحسب ما يسمح مستوى ذكائه. لكن لاحقًا علمتُ من بدو شمر ومن رجال الجوف، أن أولئك القوم ظنوا أننا قد جنينا ثروة طائلة بدعم ورعاية حمود العقلا، عامل أمير حائل في الجوف، وقد فكروا جدّيًا بانتهاز هذه الخلوة الصحراوية وسلبنا، ثم تركنا دون ماء أو رواحل لنجد طريقنا للخروج من النفود بأفضل ما لدينا من مقدرة، أي إننا لن نجد مخرجًا على الإطلاق. أخبر هؤلاء بعض الشمامرة المرافقين لنا بخطتهم، آملين مطاوعتهم ومساعدتهم. لكن هؤلاء الأخيرين، وهم أكثر تعوُّدًا على قيود الحكم، كانوا يخشون العواقب، ومدركين أيضًا بأن طلال بن رشيد، إذا ما علم بطريقة ما بمثل ذلك الفعل، فمن المرجح جدًّا أن يجعل من نفسه وريثنا الوحيد الموصى له، والمنفذ للوصية في الوقت نفسه، وشيئًا أكثر من ذلك. لذلك لم يقبلوا بالخطة، وأسرع المتآمرون، الذين أدركوا من طريقة تصرفنا بأننا نشك مسبقًا

بنواياهم في تهدئة الأمور قبل أن نتمكن بطريقة ما من فضح أمرهم في حائل بالشكوى من خيانتهم المدبرة.

قبيل غروب اليوم التالي وصلنا إلى مكان شاهدنا فيه قمتين هرميتين منفردتين من الجرانيت الداكن، يشمخان وسط أمواج من الرمال تملأ طريقنا، يطلق عليهما الناس عليم السعد [العليم]، لأنهما دليل على أن ثلث المسافة بين بئر الشقيق وجبل شمر قد قطعت. وهما يقفان مثل جزيرتين، أو بالأحرى مثل الجبال التي تبدأ من البحر بالقرب من مصب نهر طاقوس (Tagus)[١]، أو مثل مجموعة من جزر المالديف وسط المحيط الهندي العميق. إن قواعدها لابد أن تكون في الطبقة الصخرية، التي غطتها الرمال مثلما تغطي مياه البحر حوضه؛ وسنرى بعد ذلك ظاهرة مشابهة في أماكن أخرى من الصحراء. من الواضح أن الطبقة السفلى من صخور الجرانيت، وأحيانًا تكون كلسية أو جيرية. وفيما يتعلق بعمق الرمال، فإنني أقدر أن تكون نحو أربع مئة قدم، ولكنها قد تصل في كثير من الأحيان أكثر من ذلك بكثير؛ إذ إنني قد لقيت أغوارًا تصلُ إلى ست مئة قدم في نزولٍ عمودي.

واصلنا المسير، وكانت قمم عليم السعد تلوح داكنة أمامنا، إلى أن كان قرب منتصف الليل، بقدر ما استطعت حسابه بواسطة النجوم التي كانت مصدرنا الوحيد لتحديد الوقت (وهو مصدرٌ لا بأس به في تلك السماء الصافية) إذ مررنا قريبًا أسفل هذه الجبال الصخرية السوداء. بالكاد متعت نفسي بالتوقف حيث بقينا بقربها لمدة نصف الساعة فقط، وتقدمنا ولم نترجل عن رواحلنا حتى بزوغ نجمة الصباح تحت نجم الثريا تقريبًا، حيث رمينا بأنفسنا على الأرض بسرعة لنغفو قليلًا؛ وقبل طلوع الشمس كنا في طريقنا مرة أخرى»[٢].

---

(١) ينبع نهر طاقوس من الهضاب الوسطى في إسبانيا ويجري باتجاه جنوب غربي عبر البرتغال، ويصب في المحيط الأطلسي، ويبلغ طوله ١٠٣٧ كيلًا.

(٢) النص المعرب:

William Gifford Palgrave, **Personal Narrative of a Year Journey Through Central and Eastern Arabia 1862-63**(London: (London: Darf Publishers Limited,1985), pp.30 -65.

بعد هذه النقطة واصل بلغريف رحلته ومرافقوه عبر صحراء النفود إلى أن وصلوا إلى قرية جبة أول قرية مأهولة في منطقة حائل، ومنها واصلوا سيرهم إلى مدينة حائل التي وصلوها بسلام يوم الثامن والعشرين من شهر يوليو ١٨٦٢[١].

(١) لتكملة الرحلة في منطقة حائل، انظر:
عوض البادي، **الرحالة الأوروبيون في شمال وسط الجزيرة العربية: منطقة حائل** (بيروت: دار برزان، ٢٠٠٤)، ص. ١٠٩-٢٠٧.

الفصل الثالث

كارلو غوارماني

لم يحظ هذا الرحالة الإيطالي بالشهرة التي نالها معاصروه من الرحالة رغم إنه من الرواد الأوروبيين الأوائل ممن ارتحلوا في شمال الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. وتعود ريادته انطلاقًا من كونه زار بلدان في شمال ووسط الجزيرة العربية لم يسبقه إليها أحد من الأوروبيين، فقدم معلومات أولية حولها لم يتطرق إليها من سبقوه. ولكن من هو كارلو كلاوديو كاميلو غوارماني؟

ولد كارلو غوارماني (Carlo Guarmani) في مدينة ليغون (Leghorn) غرب إيطاليا، في سنة ١٨٢٨. هاجر مع والده التاجر إلى بيروت سنة ١٨٥٠. في بيروت، امتهن التجارة فلم تناسبه فعمل في وظيفة ممثل البريد الإمبراطوري الفرنسي في القدس. من موقعه الجديد بدأ رحلاته في صحاري بلاد الشام، حيث نسج علاقات مع القبائل، وذلك من خلال ممارسة هوايته الشخصية في دراسة الخيل العربية والتجارة بها حتى عُد خبيرًا بها. وقادته خبرته في الترحال بين القبائل إلى التكيف مع الحياة الصحراوية ومعرفة العادات واللهجات المحلية للقبائل الرحل في شمال الجزيرة العربية. أسفرت جهوده في دراسة الخيل العربية عن تأليفه كتاب شهير أسماه الخمسة[١] يتناول الخيل العربية

---

(١) نسبة للسلالات الخمس المعروفة من سلالات الخيل العربية الأصيلة: كحيلان وعبيان وصقلاوي وحمداني وهدبان.

الأصيلة، ويحدد أنواعها، ويضع نظامًا، يعتقد أنه كفيل إذا ما تم اتباعه بتطوير هذه السلالة من الخيول[1]. ذكر غوارماني أن رحلته إلى الجزيرة العربية أتاحت له فرصة إكمال تأليف هذا الكتاب لوعورة الكتابة حول الخيل العربية الأصيلة دون وصف الأرض التي كانت مهد أكثر أنواع الخيل أصالة منذ فجر التاريخ. ولخبرته هذه استدعي في سنة ١٨٦٣ إلى باريس وتورين[2] من قِبل الحكومتين الفرنسية والإيطالية، وكُلِّف بشراء خيل عربية أصيلة لإصطبلات نابليون الثالث ملك فرنسا، ولملك إيطاليا فيكتور عمانويل الثاني (Victor Emmanuel II)[3]. بهذا الهدف المعلن انطلق غوارماني في اليوم السادس والعشرين من شهر يناير ١٨٦٤ من القدس، متنكرًا بشخصية موظف تركي باسم خليل آغا في رحلة إلى داخل الجزيرة العربية. اتبع في رحلته طريقًا لم يسبق لأحد من الأوروبيين أن وطأه إلى تيماء وخيبر والقصيم ثم حائل، التي عاد منها إلى القدس عن طريق الجوف. بعد عامين من انتهاء رحلته نشر غوارماني تفاصيلها في كتاب بلغته الإيطالية[4].

عاد غوارماني وعائلته بعد رحلته للاستقرار في مدينة جنوة بإيطاليا، حيث أصبح أحد أشهر تجارها، وتوفي بها في أكتوبر ١٨٨٤، وهو في منتصف عقده السادس[5].

---

(١) انظر:

Carlo Claudio Camillo Guarmani, **El Kamsa, il Cavallo Arabo Purosangue**, 1864.

————————, **The pure-bred Arabian Horse**, translated from the Italian by Philip Ward (Jeddah: Immel Publishing, 1984).

————————, **Al Kamsa: The Purebred Arabian Horse; a Study of Sixteen Years in Syria, Palestine, Egypt and the Arabian Deserts & Journey From Jerusalem to Northern Najd**; Introduced and Annotated by Andrew K. Steen (Seville, Spain: A Tale of breed, 2004).

(٢) عاصمة منطقة بيدمونت في شمال إيطاليا وكانت عاصمة المملكة الإيطالية من سنة ١٨٦١ حتى سنة ١٨٦٥.

(٣) فيكتور عمانويل الثاني(١٨٢٠-١٨٧٨) تولى عرش مملكة مقاطعات البيدمونت وسافوي وسردينيا الإيطالية سنة ١٨٤٩؛ عمل على توحيد جميع المقاطعات والإمارات الإيطالية الأخرى في مملكة واحدة، أعلن نفسه ملك لإيطاليا الموحدة سنة ١٨٦١. واصل العمل في سبيل تحقيق كامل الوحدة الإيطالية، وقد تحقق له ذلك سنة ١٨٧٠ وأصبح أول ملك لإيطاليا.

(٤) Carlo Guarmani Di Livoron, **IL Neged Settentrionale: iteinerario Da Gerusalemme A Aneizeh Nel Cassim** (Gerusalemme: Tipografia Dei pp. Francescani, 1866).

(٥) حول شخصية كارلو غوارماني وظروف رحلته وخلفياتها اعتمدنا على ما أورده عنه دوغلاس كارثرز =

وصف غوارماني في كتابه تفاصيل رحلته وأحداثها، ووصف البلدان التي زارها ومنها منطقة الجوف.

وهنا نترك له الحديث عن رحلته إليها ووصفه لها[(١)]:

في اليوم السادس والعشرين من شهر يناير١٨٦٤[(٢)] غادرت القدس مودعًا من قبل أصدقائي الذين يعتقدون أنني ذاهب إلى حتفي بيدي، وبعد عدة أيام قضيتها متنقلًا بين قبائل شرق الأردن، غادرت في اليوم الثالث من شهر فبراير مضارب بني صخر بعد وداع شيخهم فندي الفايز متوجهًا نحو تيماء برفقة خادمي محمد ودليلي الدريبي الصخري، وحينما وصلنا وادي الشومري[(٣)]، وقد أنهكنا لهيب الشمس الذي يتناقض كثيرًا مع برودة الليل القارس، وبعد أن عثرنا على مخبأ مناسب، أنزلنا الأحمال عن رواحلنا وتركناها ترعى برغبتها. وما إن تحررت حتى وجهت أبصارها نحو منحنًى في مجرًى مائي بين التلال ووقفت ساكنة دون حراك. واستبد بنا الشك فنظرنا إلى حيث كان تركيز نظرها؛ فلم نر شيئًا. وأخذ محمد يهش على الحيوانات ويضربها ضربًا مبرحًا، لكنها ازدادت تصلبًا. كان الأمر مثيرًا للريبة، فاستبد القلق بالدريبي، أما أنا فدفعني إحساس داخلي بإعادة جمع المتاع وتحميله عليها، وساعدت في ذلك بنفسي كالعادة. ووافق الدريبي وانصاع للأمر، لكن محمدًا أطاع دون أن يفهم. وما إن أحست مطايانا بنا ونحن فوق ظهورها حتى أسرعت بالتراجع. تراجعنا قليلًا نحو التلال ثانية ونحن نتلفت وراءنا دون أن نلمح شيئًا. وبعد برهة من الوقت زالت شكوكنا وهممنا بالنزول من التل ثانية لولا سماعنا فجأة الصرخة المألوفة للبدوي وهو ينادي

= محرر رحلته في طبعتها باللغة الإنجليزية. انظر:

Carlo Guarmani, **Northern Najd: A Journey from Jerusalem to Anaiza In Qasim**.Tras.by Lady Capel Cure, with Introduction by Douglas Caruthers (London: The Argonaut Press,1938), pp. IX-XXI.

(١) وردت النصوص المتعلقة بمنطقة الجوف في رحلة غوارماني مفرقة في ثنايا كتاب الرحلة، فجاء بعضها في الجزء الخاص بيوميات الرحلة، وبعضها الآخر في الجزء الخاص بوصف طريق رحلته والبلدان التي زارها. وعليه فقد حررنا النص ليتسق مع النصوص الأخرى الوارده في هذا الكتاب.

(٢) سنة ١٢٨٠هـ.

(٣) وادٍ رئيس جنوب شرق الأردن.

بعيره. ورأينا قطيعًا منها يعدو من المنعطف في المجرى المائي نحو أخدود قريب خرج منه عدد من البدو كان أحدهم يلبس معطفًا طويلًا أحمر اللون. هرب الدريبي إلى التلال وهو يحذر من غزو آت، ولحقنا به معتقدين أن هؤلاء، إن كانوا أعداء، فلن يتمكنوا من الوصول إلينا بكامل عددهم. أما نحن فكنا نحاكي الشاب هوراس (Horace)[1] ولدينا ما يبرر سرعتنا (الاشتباك معهم واحدًا واحدًا. . .). ولما ابتعدنا عنهم مسافة كافية وأصبحنا في أمان المرتفعات، توقفنا هنيهة لنتفحص أعداءنا فوجدناهم يعانون الخوف نفسه منا، وقد اتبعوا التكتيك ذاته، إذ غادروا السهل وصعدوا التلة من الناحية اليسرى بينما صعدنا نحن الناحية اليمنى، وهم يرقبوننا من موقعهم.

إن الإنسان في الصحراء هو أخطر الأعداء، فبمجرد مشاهدته أو سماع صوته يهرب الإنسان الآخر إلى أن يصل إلى ملاذ آمن لكي يتأكد من أنه وحيد أو في جماعة، وليفكر بعدها إن كانت ملاقاته تنطوي على خطر أم لا.

لقد حذا البدو حذونا وحاكوا شجاعتنا حتى تبين لنا أنهم أكثر خوفًا منا. وبعد مسيرة نصف ساعة على الطريق، لم أعد أر سوى كتلة مضطربة؛ لكن الدريبي شاهد خمسة رجال وعددًا من النساء والأطفال، وشعر أنهم كانوا يشيرون إلينا محاولين جذب انتباهنا. ومحمد الذي كان ضعيف النظر، وافق الدريبي، مع أنني كنت متأكدًا من أنه لم ير شيئًا.

ولما كان من المستحيل البقاء دون حركة إلى الأبد، وبالرغم من أن موقعنا كان يعطينا مزية أفضل من عدونا الذي يفوقنا عددًا بثلاثة أضعاف، فقد نزلنا إلى الوادي مرة أخرى. وقام عدونا بالفعل نفسه في الطرف المقابل من الوادي. ولما أصبحنا في مدى الإصابة بالرصاص توقفنا للحديث. عرفت الجماعة أن الدريبي صخري، أي من قبيلة بني صخر، واكتشف هو أن هؤلاء من قبيلة الشرارات؛ وكانت القبيلتان حليفتان وعندها لم يعد هناك مبرر

---

(١) أي الهروب والتخلي عن كل شيْ، وهو هنا يشير إلى هروب الشاب الضابط في الجيش الروماني هوراس من إحدى معارك الإمبراطورية الرومانية. وهوراس (٦٥- ٨ قبل الميلاد)، وهو أحد أعظم شعراء روما.

للخوف. اجتمعنا وأقمنا الخيام معًا، وسرعان ما جاءت إلينا النساء والأطفال والرجلان الآخران (كان دليلي الذكي على حق). وباح كل منا بالرهبة التي انتابته، وهنأنا أنفسنا على تصرفنا «الشجاع» و«الحكيم».

كان الرجل ذو المعطف الأحمر شاعرًا يجيد ارتجال الشعر اسمه سليمان اليماني، وأما الرجلان الآخران فكانا ولديه، والنساء والأطفال هم بقية العائلة. لقد أخرجه الفقر من مضارب قبيلته، وكان راحلًا إلى مضارب قبيلة بني صخر للاستقرار عندهم؛ لأنهم يعرفون أن بدو الشمال محبون للشعراء ويجزلون لهم العطاء. هناك منافسة شديدة بين شعراء الشرارات، وهم جميعًا شعراء؛ هذه المنافسة أصبحت غير محتملة لهذا الرجل العجوز. ربما لأنه بلغ من السن ما حد من قدرته على قرض الشعر الجيد، أو لإدراكه أنهم لم يعودوا يكترثون لنظمه، ولا يصفقون لقصائده بالحماسة السابقة التي اعتاد عليها.

استضافنا هؤلاء تلك الليلة، فدخلنا خيمتهم البائسة بعد أن أخرجوا منها النساء والأطفال. ووجدنا صعوبة بالغة حتى أقنعناهم بالسماح للأطفال بالنوم داخل الخيمة. كانت مأدبة احتفالية مؤلفة من قليل من دقيق السمح وطبق من نبت الطرثوث[1] وحليب ناقة. وأقول «مأدبة احتفالية» لأن سليمان اليماني «ليبعد الهم عنا» أخذ ربابته وارتجل قصيدة عصماء ليفتح بها شهيتنا بصوته الأجش وبأشعاره الرتيبة. كان كل بيت من الشعر ينتهي بالقافية ذاتها، وكانت العائلة كلها تردد تلك الكلمة بأفواه فارغة، ورفاقي يرددونها بأفواه مليئة.

ولما انطلقنا في اليوم التالي ألقيت ببضعة قروش إلى اثنين أو ثلاثة من أصغر أولاده، وقدر الشاعر ذلك، ورغب في معانقتي. وتركته يفعل دون أن آبه لنظرات رفيقي الدريبي الذي كان يعتقد أن قبلة مثل هذه من مثل هؤلاء لآغا تركي هي مثل قربان يقدمه أصغر منبوذ في الهند إلى كاهن براهمي.

---

(١) اسمه العلمي (Cynomorium coccieeum) وهو نبت معمر لحمي عديم الأوراق يسمو من ٣٠-٨٠ سم يتطفل على جذور نباتات فصيلة الحمض وخصوصًا الغضا، ساقه قائم غير متفرع أسطواني أحمر ينتهي برأس كالهراوة ترتب عليه أزهار دقيقة حمراء. وهو نبت يؤكل. انظر: **النباتات البرية في مراعي شمال المملكة العربية السعودية**، مصدر سابق، ص. ١٣٦.

كان الديم متواصلًا خلال الأيام الأربعة، ولم نستطع العثور على ملجأ لأننا كنا قد قررنا أخذ طريق مباشر لرحلتنا توفيرًا للوقت. وكانت عباءاتنا المصنوعة من الفرو المحشو جيدًا بمثابة مظلات لنا أثناء السير، حيث كنا نضعها فوق رؤوسنا الأمر الذي مكنني من كتابة بعض الملحوظات الضرورية، وتصحيح أو إكمال أخرى كنت قد كتبتها في مناسبات سابقة. كانت تلك الليالي تعيسة إلى أقصى الحدود، وفي نهاية اليوم الرابع لمحنا خيطًا صافيًا من السماء الزرقاء يطل من بين السحب فدخلت البهجة إلى نفوسنا أكثر من سعادة نوح عند رؤية قوس قزح. وحينما توقفنا مساء ذلك اليوم لم نتمكن من إشعال الحطب المبلل، ومع ذلك كان الرضا ديدننا لعدم تجمدنا من المطر البارد الذي كان يهطل طوال الليالي السابقة، لدرجة أننا لم نكترث بالرياح أكانت شرقية أم شمالية.

مع شروق الشمس كنا مستيقظين ومتأهبين للرحيل، أما إبلنا فقد كانت مقيدة بالطِوَل أثناء الليل وكانت ترعى قبل بزوغ الفجر في سفوح الطعوس القريبة. وبعد مسيرنا استفسرنا من أول راعٍ كان في طريقنا عن عربه فدلنا إلى مضارب سليم اللحاوي أغنى شيوخ قبيلة الشرارات وأكثرهم نفوذًا. كانت الغيوم متراكمة فكنا نخشى التقلبات الجوية. على أية حال ظل الطقس رائعًا حتى وصولنا مضارب الشيخ. كان الشيخ سليم اللحاوي الوحيد من بين المئات من أفراد قبيلته الذي يلبس ثوبًا. . . تحت عباءته، أما أولاده فكانوا مثلهم مثل البقية بأسمال بالية أو شبه عراة. وكان بعضهم يلبس العباءة فيرفع طرفها الأيسر ويطويها تحت زنار من سيور الجلد المضفورة التي تغطي الخاصرة، ويزعمون أنهم بدونها لا يستطيعون المشي أو أن يكونوا رجالًا. وقد زينها المتطيّرون منهم بتمائم وطلاسم. . . إلخ.

أما النساء فيرتدين ثيابًا بلا أكمام من عباءاتهن وقليلات اللائي يلبسن مثل بقية النساء العربيات الرحل. ويثبت غطاء الرأس بعصابة تغطي الجزء العلوي منه تاركة شعورهن الطويلة الجميلة تتموج بحرية فوق جباههن، بينما تتدلى أربع ضفائر طويلة على أكتافهن حتى تصل إلى ركبهن. وكما هي الحال في نساء بني

صخر - هناك كثير من الشقراوات بينهن. وبعد نساء قبيلة العدوان في البلقاء الفائقات بجمالهن، تعدُّ نساء الشرارات من أجمل نساء البدو في صحاري الجزيرة العربية. وهؤلاء النسوة يقُمْن بدور الرجال في غيابهم فيستقبلن الضيوف ويعتنين بهم في غياب أزواجهن دون بأس. ولأن وصول الغرباء حدث نادر فما إن يصل أحدهم حتى يجد نفسه محاصرًا بنسوة المضارب. أما البنات فيسترقن النظر إليه من الأخبية التي تفصل بيت الوبر إلى قسمين - المتزوجات والرجال في ذات الدائرة، والأطفال في أي قسم يستطيعون حشر أنفسهم فيه.

ويعدُّ جمال نساء الشرارات وقدرتهن وكياستهن أكثر ما يكذب بعض الخرافات السخيفة حول هذه القبيلة التي هي فرع من بني كلب من صحراء جنوب الجزيرة العربية. . . . والرجال لا يقلون عن النساء في بنيتهم الرائعة، وهم يفضلون النوم في العراء كرعاة أصيلين. يصاب الكثيرون منهم بخشونة الصوت في الشتاء دون أن يصابوا بالبرد. ونادرًا ما ترى أحدًا منهم لا يعاني من خشونة الصوت في فصل البرد.

ولو كان بنو كلب الموجودين، كما يقول بوركهارت نقلًا عن مصادر عربية[١]، في منطقة الدواسر يعيشون مثل الشرارات، لأصبحوا بالتأكيد يعانون بالمثل من خشونة في الصوت. . . . وأنا لا أنكر أن الشرارات ينتسبون إلى بني كلب؛ ولكني أقول إنهم ينحدرون من بني كلب من قضاعة اليمانية التي هاجرت إلى منطقة دومة الجندل التاريخية في أواخر القرن الثاني للميلاد. . .

كان العشاء الذي قدمه لنا الشاعر الشراري الفقير في وادي الشومري،

---

(١) يذكر بوركهارت نقلًا عن روايات سمعها في الحجاز: « بالقرب من الدواسر، لكن ليس بإمكاني تحديد المكان، يوجد بني كلب، وهم بدو تنتشر حولهم خرافات سخيفة في الحجاز: فيقال إن الرجال لا يتكلمون العربية، لكن ينبحون كالكلاب، ؛ وهذا ربما اعتقاد ناشئ من اسمهم كلب. . . . انظر:

John Lewis Burckhardt, **Travels in Arabia** (London: Frank Cass & Co. LTD, 1968), p. 452.

هو العشاء نفسه الذي قدمه لنا الشيخ الغني باستثناء نوعية الحليب برغوته القشدية التي يمكن أن تؤكل بالأصابع، ونظم الشعر. لقد كان حليب نياق الشاعر اليماني مرًّا بسبب عناء سفرها الطويل، وسليم اللحاوي لا يحب الارتجال في الشعر.

كانت النساء والأطفال يقتحمون الخيمة كل دقيقة ليدعوننا للإصغاء إلى قصيدة لا تنتهي لشيخ عجوز من أقارب اللحاوي. انسجم الدريبي مع القصيدة التي كانت تزعجني ورغب في الظهور بمظهر الذواقة للأشعار، ولما استبدت به الحماسة نظم قصيدة لاقت استحسانًا متواضعًا من الشرارات؛ لكن النساء تشجيعًا له أخذن شعره بيتًا بيتًا ونظمن أشعارًا أخرى على القافية ذاتها - وكان الدريبي نفسه أول من صفق لهن.

أراد محمد قبل النوم أن يشرب الماء بعد أن وجد أن لحليب الناقة مفعولًا مليئًا في الأيام الأولى وعزف عنه كلية؛ لكن الأطفال وجدوا ذلك من الكبائر، وحاولوا منعه، إذ لم يفهموا كيف يشرب رجل الماء والحليب بين يديه. أكدت بعض العجائز أنهم لم يشربوا الماء في حياتهم، وتساءلت النسوة إن كان يغار من النياق. تركهم المسكين يمازحونه، وهو محتار كيف يتخلص من هذه الورطة، وغضب محمد من الدريبي أشد الغضب لما رآه يضحك عليه بأعلى صوته، ورأيت أن من العبث أن أطلب من أتباعي أن يضبطوا أنفسهم في مثل هذه الحال. سمعت أن إحدى النياق كانت على وشك الوضع فطلبت من سليم اللحاوي أن يخرج معي خارج بيت الشعر لا سيما أنني كنت معه على انفراد. كانت الناقة الواقفة تعاني آلام مخاض شديد. سارت عملية الوضع بشكل طبيعي، وقد ظهرت القوائم الأمامية أولًا، وسرعان ما برز الرأس شيئًا فشيئًا. وبعد مزيد من المخاض تحررت الأكتاف، فاقترب أحد الرعاة للإمساك بها دون أن يشدها إلى أن خرج الوليد كاملًا وسمح للأم بأن تقطع الحبل السري بأسنانها. بعد أن وضع الراعي السليل[1] على طرفه شد القوائم وضغط السنام

(١) المولود من الإبل لحظة ولادته.

لكي يحرر المفاصل والفقرات. ثم لفت الناقة وسليلها في عباءات قديمة، وأبعدت عن القطيع. وبما أن السليل أنثى من سلالة نبيلة فقد اجتمعت النسوة وأطلقن زغاريد الفرح. يفتخر الشرارات بالإبل تمامًا كما يفتخر البدو الآخرون بخيولهم الثمينة.

لم يكن حديثي مع سليم اللحاوي يدعو إلى الاطمئنان. فالأخبار الواردة من نجد كانت سيئة. كان فيصل [بن تركي]ابن سعود[1] في حرب مع عتيبة؛ وقد أرسل طلال بن رشيد عمه عبيدًا في غزو ضد الرولة، وأعلن عن حملة تحت قيادته في أوائل الربيع. كانت نوايا حاكم جبل شمر تحمل تهديدًا للشرارات مع أنه ليس تهديدًا لسليم اللحاوي وجماعته المباشرة. كانت بقية الشرارات قد رفضت دفع الخاوة، وكانت بذلك تعدّ في حالة تمرد، أما هو فقد كان يدفع الخاوة دومًا ويقف على الحياد بين سيده وبقية القبيلة. والخبر المزعج الآخر الذي وصل ذلك اليوم بالذات يقول إن جماعة كبيرة من الشويمات[2] بقيادة رئيسهم طلاق أبو شامة قد رصدت على بعد ساعات غربي تيماء. وكان سليم اللحاوي يتوقع هجومهم في اليوم التالي لأنه منذ شهر أغار على أرضهم وسلب منها الكثير من الغنائم. وأمام هذا الخوف لم يكن قادرًا على مرافقتي إلى تيماء، ولا على تقديم الحماية التي طلبها الدريبي باسم الشيخ فندي الفايز شيخ عشيرة الطوقة من قبيلة بني صخر.

ظل اثنان من الشرارات في الحراسة طوال الليل وكانا يوقدان النار باستمرار استعدادًا لإعطاء الإنذار. سافرنا فجرًا دون أن نستأذن مضيفنا أو نشكرهم كما جرت العادة.

---

(١) الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود تولى الحكم في الدولة السعودية الثانية على فترتين، الأولى من سنة ١٨٣٤م/ ١٢٥٠هـ إلى سنة ١٨٣٧م/ ١٢٥٣هـ، حيث سقط بغزو مصري جديد وحمل إلى مصر، والثانية من سنة ١٨٤٣ م/ ١٢٥٩هـ حتى سنة ١٨٦٥م/ ١٢٨٢هـ. حول عهد هذا الإمام ودوره انظر: عبدالله الصالح العثيمين، **تاريخ المملكة العربية السعودية**، الجزء الأول (الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ص ٢٦٣-٢٨٤.

(٢) الشواما من عشيرة المواهيب من قبيلة بلي.

إن منطقة الطبيق هي ديرة الشرارات الذين ينقسمون إلى أربع عشائر: الضباعين (وشيخهم ابن جريد) والحلسة (وشيخهم ابن دعيجا) والعزام (شيخهم زيدان بن وردة) والفليحان (شيخهم سليم اللحاوي). وتتألف قوة هذه العشائر الأربعة من أربعة آلاف من المشاة، منهم ألفان وخمسمائة من حملة البنادق، وعشرين فارسًا. وعند الغزو يركب الرجال الذين لا يملكون خيولًا الإبل التي يربونها بأنفسهم، وتعد الأفضل والأسرع في الصحارى. والجبور هم فرع من الحلسة؛ والجويني أحد فروع العزام؛ والضباعين يتفرعون إلى الأصبح، الصبيحي، والدفاف، والرشيد، والدباوين، والعطية. وقبيلتا العتيق والحسالمة هما من فروع الفليحان..... وهم صيادون ممتازون للنعام، والغزلان، والحيوانات البرية، ويمتلكون أعدادًا كبيرة من الإبل، وهم رُحَّل من الطراز الأول، ينصبون خيامهم كل مساء، ويحملونها على الإبل مع شروق الشمس، ويبدلون مواقعهم يوميًّا بحثًا عن مراعٍ أفضل في مناطق وجودهم الشاسعة، وهربًا من مراقبة أعدائهم الكثيرين.

[بعد أن أكملت رحلتي من تيماء إلى منطقة القصيم وحائل[1] قفلت عائدًا عبر بلدة جبة في اليوم التاسع من شهر مايو ١٨٦٤م]. من جبة واصلت رحلتي عبر صحراء النفود إلى جوف العمرو[2] الواقعة على مسيرة تسع وأربعين ساعة وثلاثين دقيقة شمال غرب بلدة جبة[3]. يبحر الطريق عبر الرمال مسافة سبع وأربعين ساعة باتجاه شمال غرب، ثم يمتد في خط مستقيم عبر سهل رملي ثم ينحدر لمسافة نصف الساعة. و«الطريق» كما يسمى خطأً ما هو إلا تسوية التلال وملء القعور وإزالة رمال النفود بقدر المستطاع؛ لكنه مازال بحرًا هائجًا غير مستوٍ من الصعب على العين الأوروبية متابعة مساره المتعرج. وبعد مسير ثماني عشرة ساعة من جبة، يوجد كثيب تغطيه أحراش يسمى «سميحة» على اسم شابة

(١) لتفاصيل رحلته في حائل، انظر: عوض البادي، **الرحالة الأوروبيون في شمال وسط الجزيرة العربية: منطقة حائل** (بيروت: دار برزان، ٢٠٠٤)، ص. ص. ٢٠٩-٢٣٦.

(٢) أي الجوف أو دومة الجندل، وقد كانت نسبة العمرو أو السرحان تلحق بكلمة الجوف في بعض مراحل تاريخها العريق نسبة إلى جماعات أو قبائل استوطنتها في تلك المراحل.

(٣) ٢٣٠ كيلًا تقريبًا.

شمرية اغتصبت هناك، ولا شيء غير العين العربية يمكنها أن تميّز بين آلاف من هذه الكثبان على طول الطريق. أما «عيون قفيع» فهي شقوق في صخور لا تنزل منها قطرة ماء واحدة؛ وتقع على يمين الطريق في أسفل منحدر عميق على بعد ساعة وثلاثين دقيقة بعد كثيب سميحة؛ ولأنها دون ماء فإنها لا تصلح مكانًا للتوقف. وحتى لا يضيع المسافر، إن لم يكن عارفًا بالمنطقة فإن عليه اتباع مسار شمال - غرب، ويتحول نحو الشمال أو الغرب الأمر الذي يجعل من المستحيل متابعة السير في الاتجاه الصحيح، حتى تشاهد جبال العليم لأن هذه ترتفع فوق الرمال ويمكن رؤيتها من كل جهة قبل ساعات من وصولها. وتبعد جبال العليم، وعددها ثلاثة[1]، مسيرة خمس وعشرين ساعة من جبة، وهي تشكل مثلثًا فيما بينها، لكن يتعذر رؤية أكثر من اثنين منها في وقت واحد، وتختفي آثار طريق بني هلال من قاعدة جبال العليم وحتى نهاية النفود إلا في بعض الأماكن هنا وهناك، ويصبح من الصعب اقتفاء مساره. وإذا تركنا العليم إلى الجنوب شرق، وعلى مدى سبع ساعات في اتجاه شمال - غرب نحو الجوف، مرورًا بالفلوق ومع السير بطريق متعرج بين الكثبان الرملية مع محاولة البقاء على آثار ما يفترض أنه طريق. والفلوق هي أكثر أجزاء صحراء النفود وعورة وأعقدها اجتيازًا؛ فهي سلسلة من الكثبان المتتابعة شديدة الانحدار وعميقة الانخفاض ومن الضروري الانعطاف في كل الاتجاهات والخروج عن الطريق (الذي يصعب العثور عليه) حتى الوصول أخيرًا إلى المحقان، ويستغرق اجتياز الفلوق ثلاث ساعات. والمحقان حاجز عالٍ من الرمل الناعم، يمتد عدة أميال من الشرق إلى الغرب وتنمو فيه نباتات صحراوية كثيرة سرعان ما تذبل؛ والشجيرات الصغيرة التي يمر بها المسافر عارية من الأوراق إلا في الشتاء. ويمكن التعرف على المحقان من خلال استواء قمته، ولأن تموجات الأرض بعد عبوره تصبح أقل، تكثر نباتات الصحراء وتصبح أكثر إيناعًا وإزهارًا. والأرض التي تقع بينه وبين «البنية» لها ذات

(١) عددها اثنان، لكن غوارماني يبدو أنه عدّ جبل آخر قريب منهما ناحية الشرق واحدًا منها، وهو ليس كذلك.

الاسم المحقان ومسافتها ثماني ساعات ونصف الساعة. وبعد أربع ساعات جنوب - شرق يصل المسافر إلى وادٍ أعمق بكثير من الوديان المجاورة. وباتباعه مدة عشر ساعات غربًا يقود إلى بئر الشقيق المسدودة؛ وهي بئر حفرتها قبيلة الرولة هدمت بناءً على أوامر الأمير طلال بن رشيد الذي لا يريد لأحد أن يعثر على الماء في صحراء النفود تأمينًا لحدود مركز إمارته في مدينة حائل. والبنية حاجز آخر مرتفع وعريض من الرمل الناعم تعلو عنده كثير من الكثبان التي تذروها الرياح، الأمر الذي يجعلها تأخذ أشكالًا مختلفة. وبالنزول قليلًا من البنية مدة ثلاث ساعات وثلاثين دقيقة يصل المسافر إلى نهاية رمال صحراء النفود عند سهل رملي يحيط بالجوف ويمتد مسافة ست ساعات وثلاثين دقيقة نحو الشمال إلى قاعدة مرتفعات الحماميات. وتبدأ سلسلة المرتفعات بعد مسافة خمس ساعات إلى الغرب، وتغوص تدريجيًّا إلى الشرق حتى تختفي عن الأنظار حيث تتصل بأسوار بلدة سكاكة. وتبعد بلدة الجوف ساعتين من الحدود الشمالية لرمال النفود، وبعد هذه الرمال هناك حاجة لنصف ساعة أخرى لدخول أسوارها؛ ونصف الساعة الإضافي هو للنزول من السهل المرتفع إلى الأرض الواطئة، التي تأخذ اسمها منها، ومن ذلك المرتفع تبزغ المنازل بين أشجار النخيل. إن الطريق من جبة إلى الجوف خطر على المسافرين القلائل بسبب الغارات المستمرة التي تشنها القبائل البدوية من الظفير والرولة. وهاتان القبيلتان إذا تقابلتا تقاتلتا. وتنقسم قبيلة الظفير إلى فروع هي: سعيد، والعرايف، وعباورة، والمعالم، والفلو، والمسامير، وكلها تحت قيادة الشيخ سلطان بن سويط؛ ويمكنهم تعبئة ألف وثمان مئة فارس وحامل بندقية، ويغزون المناطق الواقعة بين سوق الشيوخ في العراق ومشارف سكاكة، الحدود الشمالية لنجد بين شمر وقبيلة البشر العنزية.

وتنقسم قبيلة الرولة العنزية إلى فرعين: الأول والأقوى تحت قيادة طلال ابن فيصل بن نايف [الشعلان]، ومؤلف من عشائر: الكواكبة، والدغمي، والقعاقعة، والفرجة، والمرعض، والربيشان، والشعلان، والغشيم. والفرع الثاني تحت قيادة نهار بن مشهور الشعلان، وعشيرته الوحيدة هي المشهور.

وهذه العشائر التسع متساوية القوة، وتملك مجتمعة ألفين وست مئة فارس وضعفي هذا العدد من الهجانة. ويعود انفصال المشهور عن الرولة إلى عام ١٨٥٩ والسبب كان جريمة قتل(١).

قبل الهجرة إلى الصحراء السورية، قررت الفروع الأربعة لقبيلة عنزة وهي: البشر، والرولة، وولد علي، والمحلف تقسيم مناطق الرعي فيما بينهم. كان نصيب البشر الجزء الشرقي من هضبة الحماد(٢) وضفاف الفرات؛ ونصيب ولد علي والمحلف الجزء الغربي لهضبة الحماد وحدود سورية وفلسطين؛ وكان نصيب الرولة وادي السرحان والحدود الشمالية للحجاز ونجد. وبقيت عشيرة اليديان من ولد علي وقسم من ولد سليمان من بشر بين الحجاز ونجد، ولكنهما سرعان ما خضعوا إلى سيطرة شمر. وكان من أثر الحروب الكبرى التي دارت رحاها بين عنزة وشمر في نهاية القرن الماضي (الثامن عشر الميلادي) وبداية هذا القرن (التاسع عشر الميلادي)، وبمساعدة القبائل البدوية الأخرى، استطاعت شمر أن تدفع الرولة إلى هجرة مواقعها

---

(١) ذكر غوارماني قصة هذه الجريمة في سياق ذكره لمقابلته للشيخ طلال بن فيصل الشعلان الذي كان زائرًا للشيخ فندي الفايز شيخ قبيلة بني صخر قبل بدء رحلته، وقال: « وكان طلال بن فيصل ضيفًا على الفايز لعدة أيام، وكان أبوه فيصل الشعلان مطاردًا بعد أن قتل قريبًا له من المشهور. وقامت أسرة القتيل بأكملها بتعقبه طيلة شهور، وفي آخر المطاف، فاجأه أربعون فارسًا وهو في خيمته التي نصبها بعيدًا عن قبيلته، لكن فيصلًا المعروف بشجاعته بين البدو، لم يفقد رباطة جأشه في وجه ذلك الخطر المحدق، وعندما لم يجد لديه متسعًا من الوقت ليرتدي درعه اندفع إلى الخارج للمواجهة، فقتل أول مهاجميه بضربة اخترقت درعه وكتفه، لكنه أصيب برصاصة، وبينما كان يحاول النهوض للدفاع عن نفسه ضربه الشيخ نهار شقيق القتيل ضربة شقت رأسه. ويروى أن نهارًا المشهور خضب شاربيه بدماء عدوه». انظر:

Carlo Guarmani, **Northern Najd: A Journey from Jerusalem to Anaiza in Qasim**.Tras.by Lady Capel-Cure, with Introduction by Douglas Carruthers (London: The Argonaut Press,1938), p. 16.

(٢) تقع هضبة الحماد في شمال الجزيرة العربية، وهي نجد منبسط شاسع يرتفع بين ٥٠٠-١٠٠٠ مترًا فوق سطح البحر، كثير الأودية والشعاب والخباري، تقدر مساحته بـ ٣٨٦٣٢ كيلًا مربعًا. يبدأ حده الشمالي في جنوبي تدمر وينتهي حده الجنوبي في الجوف وصحراء النفود، أما حده الغربي فيبدأ من جبل حوران وينتهي إلى أطراف جنوب العراق شرقًا. تلتقي في هذه الهضبة حاليًا حدود الأردن وسورية والعراق والمملكة العربية السعودية، وفي كل منها جزء من الحماد. حول هذه الهضبة، انظر: أحمد وصفي زكريا، **عشائر الشام**، ط٢(دمشق: دار الفكر، ١٩٨٣)، ص. ص. ٥١-٥٥.

الأولى، الأمر الذي مكن الظفير من اجتياح الأرض التي أخلاها الرولة شرقي الجوف. كذلك تحركت الشرارات إلى الأرض التي انسحبوا منها في الغرب، الأمر الذي أجبر الرولة على الاحتفاظ بوسط الحماد بحيث تكون صلة الوصل بين ولد علي والمحلف وبشر؛ لكنهم رغم هذا، احتفظوا بعلاقتهم بالجوف، وكانوا يستلمون خاوة سنوية استمر العمل بها إلى سنة ١٨٥٣. وكانوا يذهبون كل ربيع إلى الجوف للتجارة وجمع الخاوة من التمر. وفي تلك الأثناء استطاعت قبيلة ولد علي (الجدالمة والحمامدة والمصاليخ) الذين تراجعوا في أول الأمر إلى أطراف دمشق، وكانوا على وئام مع السلطات التركية أن يحصلوا على حق حماية قوافل الحجاج إلى مكة. علاوة على ذلك، عدَّ شيخهم، محمد الدوخي ابن سميّر، بسبب علاقته مع الباب العالي شيخًا لقبائل عنزة قاطبة مع أن قوة جماعته لا تزيد على تسع مئة فارس.

ظلت المراعي التي كانت تحت يد ولد علي تثير أطماع الرولة. وكانوا يحسدون أسرة ابن سميّر على المميزات والشرف الذي حصلت عليها من السلطات التركية؛ وهذا السلوك غير العادل جعل كل عنزة تهب ضدهم، عدا السوالمة، وهم فرع من المحلف الذين انحازوا إليهم، وبذلك بدأت الحرب الأهلية. وإذ تذكر الباشوات في دمشق انتصارات الشعلان، وفرحهم باقتراحهم الخضوع لطاعة السلطة التركية، اختاروا فيصل الشعلان شيخ الرولة بدلًا من محمد الدوخي ابن سميّر شيخًا لعشائر قبيلة عنزة، وبذلك جذب إلى صفه جميع البدو الموالين للحكومة، ووازن حظوظه في الحرب. وفي سنة ١٨٥٩ قدم برجس المشهور [الشعلان] اقتراحًا، بعدما اقتنع أن القضية التي يحارب من أجلها غير عادلة، بأن يسحب ولاءه، لكن فكرته انكشفت لسوء حظه، فأخذه على حين غرة فيصل وعبيده من بيته وقتلوه. وبعد ذلك بيومين دخلت بنو صخر الميدان تأييدًا للرولة فأوقف محمد الدوخي الأعمال القتالية وجرى التوصل إلى هدنة. بقي طلب الثأر لمقتل برجس قائمًا، ولما انتهت مدة الهدنة أعلنت بشر التي كانت في حرب مع شمر الجزيرة في العراق نفسها على الحياد؛ وظلت المشهور بعيدة؛ لكن المحلف التابعين لحمود الفلاح (الحذاق والبدور والبلاعيس والمعجل) دعموا محمد الدوخي بفرسانهم

السبع مئة؛ والسوالمة بقيادة الشيخ هايل بن جندل ظلت مخلصة لفيصل الشعلان وأرسلت مئة وخمسين فارسًا لنجدته. ودارت المعارك من جديد. ومرة أخرى وضعت بنو صخر حدًّا للحرب حين هبت لنجدة قبيلة الرولة، وتم إحراز النصر في بصرى فأصبح فيصل الشيخ الأقوى بلا منازع. ولكن في اليوم الرابع عشر من شهر يناير من هذه السنة، ١٨٦٤، قتله نهار وحمدان في شق بيته، وكان الأول شقيق برجس والثاني ابن عمه. وحينما سمعت المشهور بالخبر، ولت الأدبار من الصحراء السورية وتوغلت في نجد، حيث رحب بها الأمير طلال بن رشيد وأعطاها حق الرعي في مناطق سلطته بين الجوف وسكاكة. وبعد وفاة فيصل عقدت الرولة الصلح مع قبيلة ولد علي وقبيلة المحلف، وبهذا أصبحت هذه القبائل العنزية الثلاث تمارس الرعي بسلام في البراري نفسها. وما زالت القبيلتان الأولى والثالثة تناصبان شمر نجد العداء، أما قبيلة ولد علي فبقيت تنظر إلى شمر بصفتها حليفة.

في الثالث عشر من شهر مايو ١٨٦٤، كنا قد قطعنا النفود ووصلنا إلى حي خذما أحد أحياء الجوف، حيث نزلنا عند شيخ سابق، هو سكران بن عبدالله. كانت هناك قافلة كبيرة مجتمعة استعدادًا للسفر إلى وادي السرحان وقرى حوران، وسيرافق هذه القافلة فقراء أهل الجوف، الذين يذهبون كل عام في موسم حصاد الحبوب إلى تلك السهول الواسعة، ليعملوا في الحصاد وجمع بقايا الحبوب للدروز الفخورين والكرماء، وهم لا يحرمونهم من ذلك العمل؛ أو للعمل لدى المسلمين الآخرين الذين لا يستطيعون جمع كل محصولهم. كان رئيس القافلة دهيري بن خميس شيخ قرية كاف[1]، وكان الوقت المحدد لمغادرة القافلة يوم السادس عشر من الشهر نفسه. كان الأمير طلال بن رشيد قد وصل مع أتباعه إلى سكاكة في ليلة الثاني عشر من مايو

---

(١) قرية صغيرة واقعة شمال وادي السرحان، وهي حاضرة تلك المنطقة، وسيرد حولها وحول أخبارها الكثير في هذا الكتاب إذ زارها عدد من الرحالة الأوروبيين. بعد توحيد هذه المنطقة بالمملكة العربية السعودية سنة ١٩٢٥ أصبحت مركزًا ومقرًا لإمارتها. هجرت هذه القرية في منتصف القرن الرابع عشر الهجري لتنشأ مدينة حديثة تحل محلها هي مدينة القريات الواقعة في شمال المملكة العربية السعودية وبمحاذاة حدودها مع المملكة الأردنية الهاشمية.

للراحة لمدة يومين، قبل استطلاع الصحراء بحثًا عن منازل قبيلة الرولة الذين تواترت المعلومات بأنهم ليسوا بعيدين عن منطقة الحماد. في الوقت نفسه كان الأمير قد تخلى عن فكرة غزو الشرارات لأن لهؤلاء البدو صداقات كثيرة في جبل شمر، وبعضهم كانوا قد ابتعدوا شمالًا قبل مغادرة الأمير عاصمته، وهم الآن في مأمن في منطقة بني صخر. في يوم ١٤ مايو كلفت دليلي محمدًا ليبيع إبلنا الثمينة التي كنا نحلبها صباحًا ومساء طيلة عبورنا النفود، لنشرب ما يدره ضرعها، ولنسقيه خيولنا وحميرنا حينما لا نكون بحاجته.

ذهبت، كبادرة دبلوماسية، برفقة الأمير حمود العقلا[١] إلى سكاكة لتقديم نفسي للأمير طلال، وللتعبير عن الصداقة والتقدير لا سيما وأنا على وشك مغادرة بلاده، ربما إلى الأبد. لاقت مبادرتي، كما بدا لي، استحسانه. وجدته مخيمًا خارج البلدة، وعندما شاهدني وقف وصافحني قبل الآخرين. وفي الليل قفلت إلى الجوف وقد صلتها عند الفجر. كل شيء كان جاهزًا للمغادرة مع القافلة. الماء كان وفيرًا في وادي السرحان لذلك بعت النياق، فلا حاجة لحليبها. وكان ذلولي قادرًا على حمل أمتعتي، ولكن ركوبي عليه سوف يثقله، لذلك كان علينا إكمال الرحلة على ظهور الخيل. استأجرنا جملًا من أحد أبناء قرية إثرة[٢] القريبة من كاف وكان عائدًا إليها دون حمولة، لحمل مؤونتنا والماء الذي نحتاجه لليوم الأول. وكان على صاحب الجمل قيادة حصاني الأدهم العزيز عندي بيده. قمت خلال النهار بزيارة البلدة، التي كنت أعرفها من قبل، حيث كنت قد زرتها سنة ١٨٥١. وفي مساء ذلك اليوم دفعت حقوق أدلائي في رحلتي إلى الجوف، وهم رجل من قبيلة شمر وآخر من قبيلة الرولة، وليتمكنوا من المغادرة أيضًا، الشمري إلى مخيم الأمير طلال في سكاكة والرويلي إلى مخيم المشهور.

إن جوف العمرو بلدة صغيرة، يسكنها ستة آلاف نسمة، وهي مبنية بالطوب الطيني كما هو الحال في أغلب بلدان نجد، ولكن بعضها مبني

(١) عامل الأمير طلال ابن رشيد في الجوف، وقد ذكره بلغريف في الفصل السابق.

(٢) قرية صغيرة أخرى من قرى شمال وادي السرحان، وتبعد عن قرية كاف خمسة عشر كيلًا تقريبًا.

بالأحجار الطباشيرية المنقولة من جبال الحماميات المحيطة. كان سور البلدة، الذي كان في الأصل يحيط بأحيائها الأربعة عشر مدمرًا. وكل حي الآن له سوره الخاص، مثلما هو الحال في عنيزة بالقصيم. لذا يمكن القول إن الجوف تتكون من ثلاث عشرة قرية (حيًّا)، لأن حي الدلهمية كان قد دُمر، وكل قرية ترتبط بالأخرى ببساتين النخيل. ويمكن للتوضيح عدّ كل حي بلدة بذاتها، بدلًا من عدِّها قرًى، فهناك قرى كثيرة أخرى في المنطقة. كان حي الحصيني، هو أول حي في غرب - شمال غرب الجوف، بعده تأتي أحياء: الغرب، الزارع، القعيّد، الدرع؛ ومن ثم ديرة حطاب [أو السراح]. في الجزء الواسع من بقعة الأرض المتجهة إلى جنوب - شرق هناك أحياء السلمان، والحبوب، والسعيدان، والرحيبيين، وعلاج، وعين زغبة، وخذما، وبقايا حي الدلهمية. هذه الأحياء، إلى حد كبير، تقع على خط مستقيم، وجميعها تحتل فراغًا يعادل خمسين دقيقة مشيًا بالطول. ولكن في أي مكان لا يزيد الاتساع على عشر دقائق مشيًا. فأوسع بقعة من ديرة حطاب تبعد عشرين دقيقة عن حي الحصيني، وثلاثين دقيقة عن بقايا حي الدلهمية. تقف قلعة مارد على تلة حجرية إلى جنوب غرب ديرة حطاب، وهي متاخمة لمنازلها. أما جهة جنوب - جنوب - غرب فيقع حي الدرع حيث يتصل به سور طويل.

إن هذه القلعة قديمة، ومكتملة البناء تقريبًا. ومن المؤكد أن بناء قلعة مارد أعيد عدة مرات، فالجزء العلوي منه مبني بالطين، بينما الجزء السفلي مبني بالحجر. تأخذ قلعة مارد في الأصل شكلًا مستطيلًا، محاطًا بأربعة أبراج دائرية الشكل، ويوجد في وسطه برج أعلى من الأبراج الأخرى، وهو الذي من خلاله يمكن استكشاف ومراقبة المنطقة المحيطة بكاملها. إن البرج الكبير منتهٍ إلى بقايا، والإضافات المتواصلة التي تحاول أن تحافظ عليه شوهت شكله الأصلي.

يوجد في حي خذما عين ماء تمتاز بنقاء مائها، وهناك عيون ماء أخرى، في بقية أحياء البلدة، لكن بعضها تحتوي شيئًا من الملوحة. ويوجد عدد آخر من الآبار تم حفرها وسط الحقول والبساتين. يسمى جوف العمرو بهذا الاسم

نسبة إلى الوادي المنخفض الذي يقع فيه، وإلى بني عمرو، الذين بنوا المكان على بقايا دومة الجندل، ونزلوا في بعض أحياء البلدة. هذه البلدة القديمة، فتحها خالد ابن الوليد، وأصبحت ذات شهرة، بسبب التحكيم الذي جرى بها بين علي بن طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وأدى إلى سقوط [خلافة] علي، الفارس العربي العظيم في زمنه. في بداية القرن التاسع عشر، كان يحكم البلدة شيوخ، هم أسلاف عائلة، جاءت في الأصل من قرى مستقلة في وادي السرحان، وكانوا يدفعون خاوة إلى قبيلة الرولة. في سنة ١٨٥٣ حاصرها طلال بن رشيد، واحتلها رغم الدفاع البطولي لأهلها الذي استمر عشرين يومًا. لقد تم أخذ الأمير حطاب ابن سراح أسيرًا في حينه، ولا زال حيًّا مقيدًا بالسلاسل الحديدية في قلعة حائل، بينما رجع ولده[١] إلى وادي السرحان حيث أقام قرية صغيرة اسمها الوشواس، تقع بالقرب من قرى، إثرة والأخيضر (شمال غرب قرية إثرة وشرق قرية الأخيضر). أما القرى التي تتبع الجوف فهي: - الجرعاوي، غطي، البحيرات، وادي الدربي في الوادي. أما المرتفعات التي تتبعها فهي: حسياء، في غرب - شمال غرب حي الحصيني، وخذما، ومويسن في السهل المرتفع على طريق سكاكة على مسافة ربع الساعة من وادي الدربي. تقوم قرى البحيرات ووادي الدربي وغطي على أرض مرتفعة تحيط بالجوف، وبين وادي الدربي وغطي يوجد مجمع ماء المطر، وهي أرض ملحية. أما خارج الجوف، وفي سهل يقع في الجانب الآخر من الوادي، فيقع الجرعاوي. وسكاكة بلدة يقطنها عشرة آلاف نسمة عند قاع جبال الحماميات وتقع على مسافة ثمان ساعات شرق - شمال شرق الجوف. أما قرية قارة فهي على مسافة أربع ساعات غرب - جنوب - غرب سكاكة، وعلى مسافة ساعتين

---

(١) غالب بن حطاب السراح، وتفيد بعض أخباره أنه قد أخذ مع والده إلى حائل وبقي سجينًا معه حتى تمكن من الهرب بتشجيع من والده، وتردد له أشعار حول ما جرى له ومعاناته في الأسر ورغبته في العودة إلى مكانته. نسجت بعض الأساطير حول هروبه من السجن، ولكن الواقع ينافيها إذ يبدو أنه قد حصل على عفو بشرط عدم عودته إلى الجوف وسمح له أن يقيم في المكان الذي اختاره في قرى شمال وادي السرحان، ولو كان الأمر غير ذلك لما سُمح له البقاء حيث اختار لأن كامل تلك المنطقة كان خاضعًا لسلطة حائل، ويمكن الوصول إليه بسهولة.

جنوب - جنوب غرب قرية الطوير. يسكن قارة ألف وخمس مئة نسمة بينما يسكن الطوير ثمان مئة نسمة. كان عامل أو حاكم الجوف وسكاكة حمود العقلا قريب طلال ابن رشيد.

بعد صلاة فجر يوم السادس عشر من شهر مايو، كان موعدنا مع قافلة ابن خميس. وبدأنا رحلتنا من الجوف إلى بلدة كاف الكائنة على مسافة أربع وستين ساعة شمال غرب، نصف درجة غرب - شمال - غرب من الجوف، وهي قرية من قرى وادي السرحان كانت قد تداعت في القرن الخامس عشر الميلادي ثم أعيد بناؤها في القرن الثامن عشر، وكانت في وقت من الأوقات محطة للقوافل المسافرة بين دمشق والمدينة.

والطريق إليها من الجوف حسب مساري كان كالآتي: بعد مغادرة بوابة حي الحصيني في غرب الجوف يصعد المسافر منحدرًا بسيطًا بين التلال حتى الوصول إلى السهل المرتفع؛ وهنا تركت الأمطار كثيرًا من البرك على يسار الطريق. وتمتد المرحلة الأولى مسافة تسع ساعات وثلاثين دقيقة نحو الغرب مع ما تتطلبه وعورة الأرض من وقت، وبعد مسير ست ساعات يشاهد جبل الأضارع على مسافة ربع الساعة إلى اليمين (تتصل به الحماميات مسافة عشر ساعات شمالًا)، وفي الثلاث ساعات والثلاثين دقيقة الأخرى يتم العبور فوق أول جزء من السهل الذي يحمل اسم الأضارع. وخلال الجزء الثاني من هذه المرحلة ينعطف الطريق شمال - غرب مسافة سبع ساعات، ويترك المسافر وراءه بعد أربع ساعات وخمس وثلاثون دقيقة آخر الجبال جنوب - غرب الأضارع؛ وبعد ساعتين وخمس وثلاثين دقيقة أخرى يتوقف المرء عند بعض الكثبان الرملية التي تربط تلال وادي السرحان بالأضارع. ويتم الوصول إلى تلال وادي السرحان بعد سير متصل لمدة ثلاثة ساعات وخمس عشرة دقيقة غرب - شمال - غرب. وبعد مسير خمس عشرة دقيقة أخرى إلى الغرب، يستوي الطريق ثانية. وتشاهد فتحة بئر شغار في إحدى الصخور؛ والبئر مليئة بماء ملوث تحوطه الرمال، وتشرف عليها تلال من الرمال والطباشير تغطيها ترسبات سيليكونية في مرحلة تآكل. وبعد مسيرة خمس عشرة دقيقة إلى الغرب

نشاهد جبل صبيحة، الذي تحت جوانبه الترابية تختبئ بئر مياهها مالحة. تبعد هذه البئر مسافة ساعة وعشرين دقيقة من شغار ورائحة مياهها ليست بسوء مياه شغار.

وإذا ما ترك المسافر الطريق المؤدية شمال - غرب لكي يدخل وادي السرحان بالقرب من آبار شغار، فإنه يعثر على آبار الجراوي والنبك، والمشاش وشيبة والنباج والميسري على مسافات متماثلة تقريبًا من بعضها بعضًا.

ويمكن القول إن الماء في هذه الآبار صالح للشرب مع أن فيه ملوحة ورائحة من أثر بول الإبل وفضلاتها. وتزداد خطورة الطريق بين الجراوي إلى الميسري حيث ينتشر البدو من بشر - عنزة الذين يقومون بغزو الشرارات وشمر، أو يختبئون وهم مستعدون للانقضاض على القوافل المفتقدة للحماية الكافية. وهناك سلسلة من التلال التي تفصل الطريق عن الوادي المنخفض من وادي السرحان الذي تحده الرمال من الغرب وبعض المرتفعات البازلتية التي لا تبلغ ارتفاع جبال الطبيق[1] والفيحاء[2]. وبعد شغار يكون السير مدة تسع ساعات باتجاه غرب - شمال - غرب، وساعة نحو شمال غرب، وساعتين وخمس عشرة دقيقة إلى شمال شمال غرب، وثلاثين دقيقة شمالًا؛ ويجد المرء نفسه مضطرًّا لأن يسلك هذه الطريق الملتوية بسبب قرب التلال على يسار الطريق. والتلال على اليمين تتلاشى تدريجيًّا. وبهذا يتم الوصول بعد ساعة و٣٠ دقيقة إلى الجنوب من بئر الميسري. يزداد عدم استواء الأرض كلما اقتربنا من بئر أويسط التي يصلها المرء في أربع ساعات ونصف الساعة، ساعة واحدة منها شمال - شمال - غرب والبقية نحو الشمال غرب.

ولبئر أويسط أربع فتحات مخبأة تحت أكوام الرمال المغطاة بالشجيرات

---

(١) تقع منطقة الطبيق في شمال غرب المملكة العربية السعودية وبمحاذاة حدودها مع المملكة الأردنية الهاشمية، وهي منطقة جبلية وعرة تتخللها أودية وشعاب وخباري، غنية بالحياة الفطرية. تبلغ مساحتها ١٢٢٠٠ كيلا مربعًا.

(٢) وادٍ في مدخل منطقة الطبيق.

العالية. ويلاحظ وجود نحو عشرين شجرة نخل بالقرب من الفتحة الرئيسة للبئر. والماء في هذا المورد عذب ضارب لونه إلى الصفرة. وهذه صفة الماء الذي ينساب من جهات متعددة عند هطول الأمطار في الشتاء، حيث يذيب الماء دمن الإبل قبل أن ينفذ من خلال الرمال المشبعة ببولها. على مسافة ثمان عشرة ساعة إلى شمال - شمال شرق يظهر الرأس المزدوج لجبل المسمى القائم في وادي السرحان، وعلى مسافة أبع وعشرين ساعة شرق - شمال شرق تشاهد هلال جبال ليلى. وعلى مسافة عشر ساعات إلى الغرب توجد الجبال التي تفصل وادي السرحان عن أرض الصوان. وعند مورد أويسط يصبح السهل رمليًّا ثانية، لكن تعرجات الأرض غير ظاهرة تقريبًا. ومن الشرق - شمال شرق إلى الغرب جنوب غرب يمكن أن يقدّر عرض الوادي بمسافة ثلاثين ساعة، وهذا هو أقصى عرض له. وجميع مصباته تتجمع في هذه النقطة.

ويستمر الطريق مدة تسع ساعات وثلاثين دقيقة إلى شمال - شمال غرب، ويلتف مسافة خمس واربعين دقيقة دون تغيير وجهته حول قاعدة خط من التلال البازلتية التي تظهر من الشمال - شرق ثم تنعطف شمالًا، دون أن تتقاطع مع الطريق. ويعود الطريق إلى السهل المتموج أكثر من ذي قبل. ويؤدي بعد ساعة وعشر دقائق إلى شمال - شمال - غرب، ثم مسافة ثلاث ساعات وخمس واربعين دقيقة إلى شمال - غرب تاركًا بئر المحيضر إلى اليسار، وهي بئر مالحة المياه، ولكنه أقل سوءًا من ماء شغار، ثم ينزل الطريق تدريجيًّا لمسافة خمسين دقيقة شمال - شمال غرب إلى أن يصل السبخات المالحة.

يستغرق الوصول إلى بئر العظيمات ساعتين وخمس وأربعين دقيقة شمال غرب وساعة شمال - شمال غرب، وساعتين وثلاثين دقيقة شمال - شمال غرب إلى بئر أبو طرفين. وبين هذه البئر ونبع قصيبيا (ساعة) تنزلق أقدام الجمال على الدوام على الرمل المغطى بالملح الذي بللته مياه الأمطار في الشتاء وبالندى في الصيف. ودون مساعدة دليل خبير يتعرض المسافر إلى خطر الوقوع في المستنقعات في كل لحظة، فهي مغطاة بطبقة رقيقة من الملح تتقاطع مع الطرق عبر سبخات في جميع الاتجاهات.

والعظيمات وأبو طرفين وقصيبا هي ثلاثة مواضع تكثر فيها الأفاعي والحيوانات البرية، والماء فيها ممتاز. وفي قصيبا بناء حديث مساحته أربعة عشر مترًا مربعًا غير مأهول بعد. ويمكن الوصول إلى عين البيضاء بعد ست ساعات إلى الشرق بنصف درجة شرق - جنوب - شرق، والتي عندها ينعطف الطريق الممتد من الجراوي عبر وادي السرحان من الجنوب - شرق إلى الشمال - غرب، باتجاه التلال الواقعة شمال قصيبا. وهذه تلال بازلتية؛ ولأن أطرافها لم تتآكل بعد فليس هناك رمال عند قاعدتها كما هو الحال عند التلال الأخرى التي شاهدناها من قبل ومن بعد. وبعد سير نصف الساعة بعد قصيبا يصعد الطريق مرتفعًا عاليًا يشاهد من قمته جبل مقال في الشمال، وتكون كاف على مسافة ثلاث ساعات ونصف الساعة إلى الشمال - غرب. يتعرج المسار إلى كاف وينعطف باستمرار عبر الوديان الجافة والرملية تجنبًا للجبال والصخور البازلتية الضخمة التي تشكل حواجز طبيعية يجد فيها القرويون في تلك المنطقة ملجأ من هجمات البدو المفاجئة.

تشبه كاف، التي تعرف أيضًا بديرة الربابة، قرى جبل شمر والجوف سوى أن التراب المستعمل في البيوت والأبراج والأسوار الخارجية فاتح اللون، ونخيلها، أقل جودة وإنتاجًا ربما لامتصاصه ملوحة السبخات المجاورة. والبلدة مقامة على حافة سبخات ملحية عند السفح الجنوبي لجبل الصعيدي الذي كان متوجًا في يوم ما بقلعة حجرية لا تزال بقاياها قائمة؛ وقد بناها كما يقال رجل مصري من الصعيد كان مسؤول أمن الطريق للقوافل المتجهة نحو مكة. وهذه القوافل، نظرًا لكثرة الينابيع في كاف وبجوارها، جعلتها أماكن استراحتها.

يبعد جبل الصعيدي عن كاف مسافة عشر دقائق، ويتم الوصول إليه بواسطة طريق ينحدر انحدارًا شديدًا؛ وهو معزول عن المرتفعات الرملية والبازلتية الأخرى التي تحيط بالقرى الأخرى، وتشكل هلالًا حول كاف.

يبلغ عدد سكان كاف مئتين وخمسين نسمة، وتبعد ساعة ونصف الساعة شمال - شمال شرق من قرية عقيلة، وهي قرية جديدة بنيت على مرتفع وسط

سبخات، وعدد سكانها خمس عشرة نسمة فقط؛ وهي تبعد ثلاث ساعات إلى الشمال من قرية غطي، التي يبلغ عدد سكانها مئة وخمسين نسمة. وهي جزئيًّا متداعية بعد أن هجرها عدد كبير من سكانها ليستقروا في الجوف حيث شيدوا قرية تحمل الاسم نفسه، وتبعد مسافة عشر دقائق شرق - جنوب - شرق حي خذما.

على السفوح الشرقية للتلال المطلة على الجانب الأقل أهمية من السبخات المحلية ثلاث قرى أخرى وهي قدير وتبعد ساعة وخمسة وأربعين دقيقة إلى شرق - جنوب - شرق كاف، والوشوش وإثرة وتقعان على مسافة ساعتين إلى شرق - جنوب - شرق. وإثرة مبنية من الحجر وعدد سكانها ثلاث مئة نسمة. وعدد سكان الوشوش مئتا نسمة، وقدير مئة وخمسون نسمة، وبهذا يكون عدد سكان قرى وادي السرحان لا يتجاوز ألفًا وخمسة وستين نسمة.

المحاصيل الزراعية هي ذاتها الموجودة في الجوف - عدا السمح - والصناعة تماثل تلك الموجودة في تيماء. وبالإضافة إلى هذا يوجد الملح الذي يشتريه البدو بـمجيدي لكل حمل بعير. ومع أنهم لا يعترفون بحق القرى في بيعه، لأنهم يعدّونه ملكًا لهم، فإنهم يدفعون المجيدي كما يقولون «ليوفروا على أنفسهم عناء جمعه وتحميله». ويبعد المقال أو جبل مقال ساعتين وخمس وأربعين دقيقة إلى الشمال - شرق من كاف.

[والآن لأعود لرواية قصتنا في هذا الطريق]: في يوم ١٧ مايو، وقد كنا معتمدين على عددنا الكبير، مئة واثنين وثمانين رجلًا، وأغلبيتنا مسلحون، هاجمنا، عند عبورنا ممر بين مرتفعات رملية بالقرب من بئر الجراوي، خمسة رجال من البدو يمتطون نوقًا من إبل السباق. كان ظهور هؤلاء الرجال نذير شؤم. أعطى قائد القافلة ابن خميس الأوامر بإناخة الرواحل، ووضع النساء - اللواتي يوجد عدد لا بأس به منهن، وبعض الأطفال في الوسط، وأن يشكل الرجال الراجلون حلقة في مواجهة أعدائنا المجرمين، الذين تخيلنا أنهم فريق استكشاف لمجموعة أكبر. أعاقنا هؤلاء الشياطين الخمسة لما يقارب الساعة. كانت نخوتهم الحربية «أخو جوزاء» و«عبد الشعلان».

تقدم هؤلاء الرجال وأطلقوا النار من بنادقهم - ولحسن الحظ دون تصويب - ثم ولوا مدبرين بسرعة. تنتهي الأشياء الحسنة في وقتها، أو في وقت لاحق، لكن وقاحة هؤلاء الرجال استمرت لوقت طويل. وكان عليهم التأسف لعبثهم الطويل؛ فهم لو كانوا مع مجموعة أكبر لكان لديهم وقت كافٍ للانضمام إليهم لصعوبة حركتنا. كان بعض أفراد مجموعتنا يظنون أنهم بعض اللصوص الذين يدعون أنفسهم شعلان لإرهابنا. على كل حال لم يكن من المستحسن أن يبقوا بجوارنا خلال الليل، الذي بدأ يسدل خيوط ظلامه. وبعد أن أعلن الدريبي أنه من الجبن عدم التصدي لمجموعة صغيرة من الأشرار، امتطى عشرون رجلًا جمالهم ولاحقوهم. تراجع المعتدون وهربوا في وادي الجراوي.

تقدمنا إلى طريق مورد ماء شغار منحرفين عن الطريق الأساسي خشية أن يكون هؤلاء من الشعلان، وليسوا لصوصًا. ففي حالة كونهم شعلان فإن طريقنا الأساسي سيؤدي بنا إلى مضاربهم في الطريق بين الجراوي وبئر الميسري. مضت أربعة أيام منذ غادرنا الجوف، وعدا هذا الحادث الذي مر بسهولة ويسر، لم يعترض سبيلنا شيء. قطعنا أكثر من أربعة وأربعين ساعة في رحلتنا، وكنا نخيم في الليل وهذه كانت عادتي وعادة المرافقين لي خلال رحلتي عبر النفود، وفي الطريق بين جبل شمر وتيماء. عند مطلع فجر اليوم الخامس، بدأنا مسيرنا، وعند بداية شروق الشمس، وبعد قطعنا مسافة ساعتين بعد انقشاع الظلام، لاحظت امرأة شرارية جمعًا بدويًّا كبيرًا في أفق السهل الواقع إلى يسارنا. خلال نصف ساعة من هذه الملاحظة، كان عدد آخر من مرافقينا قادرين على رؤية هذا الجمع، بل حتى تقدير عددهم وكان يقارب مئتين. أمرنا قائدنا أن ننعطف يمينًا، وخلال نصف الساعة وصلنا إلى صدع في تلال بازلتية، حيث وضعنا القافلة في مكان آمن. وُضع ستون رجلًا مسلحًا من جمعنا في موضع دفاعي، عند مرتفعات مجاورة لنا للدفاع عند الضرورة. اتجه البدو إلى موقعنا بهدوء، واحدًا بعد آخر، وكان عددهم مئة وستين رجلًا، وكانوا قد وصلوا سفوح التلال ودخلوا واديًا صغيرًا في شمالنا وبدؤوا بصعود التلال إلى نقطة تقع تحت موقعنا بمسافة قليلة، ولكن عندما كانوا في مرمى بنادقنا، وقبل وصول قمة تلنا أنذرهم رجالنا المسلحون

المستعدون للدفاع عنا، للتوقف. لقد أطاعوا الأمر وتوقفوا. سألهم ابن خميس عن نيتهم، فأجابوا بأنهم شرارات، وأنهم سمعوا أن طلال بن رشيد موجود في منطقة الحماد، وأن لا خوف منهم، وهم عائدون إلى مضاربهم. كان الشرارات مسالمون، وصرحوا بأن ليس هناك ما يخشونه أو نخشاه منهم، وإنه يمكن قافلتنا التقدم في طريقها. كان الدريبي الوحيد الذي شكك في كلامهم، وبعد أن أمر بأن لا يتحرك أحد بما فيهم قائدنا حتى يعود. أخذ جملي ونزل إلى الوادي، ولكنه توقف على مسافة معقولة من هؤلاء البدو، وتفحصهم بشكل جيد فتأكد أن بعضهم شرارات، وليطمئن قلبه طلب من أحد شيوخهم أن يتبعه. ثم استدعى أحد الشرارات ممن كانوا ضمن قافلتنا وسأله إن كان يعرفه. لقد تعرف مرافقنا على الشيخ، وكان دغمان شيخ فرع الضباعين من قبيلة الشرارات. تأكدنا من هوية هؤلاء البدو ولم يكذبوا.

تحركت القافلة بعد ذلك بأمان ورجعنا إلى السهول تاركين التلال خلفنا، لكن الشرارات تقدموا إلى مواقعنا السابقة التي ابتعدنا عنها. هذا التقدم من جانبهم، واحتلالهم لموقعنا السابق أوجد الريبة في نفوس بعضنا؛ لكن العودة إلى الموقع كانت ضربًا من المستحيل. قسمنا مجموعتنا إلى مقدمة، وجناح ليغطي الجانب القريب من الجبال، وظهر لحماية المؤخرة. توقف البدو لما يقارب عشرين دقيقة، ثم تبعوا مسارنا لما يزيد على ساعة ولم يقتربوا إلى حد يجعلهم في مرمى بنادقنا. لم نفهم بعد ما كان يجري. كان هناك خمس عائلات من الشرارات، عائلتان منهم ينتسبون إلى الضباعين، أي إلى الجماعة التي تابعتنا. ولأن الدريبي من قبيلة بني صخر فقد كان محترمًا من قبلهم. أما بقية القافلة فهم من أبناء الجوف، الذين يحتفظون دائمًا بعلاقات حسنة مع الشرارات. بدأنا بسبب متابعتهم لنا إظهار بعض المشاعر العدوانية، وكان شباب قافلتنا يهزجون معظم الوقت أهازيج الحرب، وكنا قد وضعنا بعض قطع الشال على ثلاثة رماح كرايات. خرج بعض الشباب عن الخط وبدؤوا يتراقصون ويرمون ببنادقهم إلى الأعلى ويتلقونها قبل أن تقع أرضًا. لم ينبس ابن خميس ببنت شفة فتولى الدريبي، وكان مازال راكبًا فوق ظهر جملي، القيادة العامة كأمر واقع. فجأة بدأت مطايا المتابعين لنا حث خطاها

والاندفاع إلى جناحنا الأيسر، الذي دافعنا عنه بحزم، وعندها استداروا إلى الأمام وبدؤوا بإطلاق ما يقارب مئة طلقة مع نخوة الحرب الخاصة بهم (أخو جوزاء وعبيد الشعلان)، وهي نخوة الخمسة الذين اعترضونا سابقًا، وقد كانوا في مقدمة مهاجمينا. انكشف الغموض، فمهاجمونا هم من الشعلان الذين يقودهم حامد بن بنية ومن معه من الشرارات الذين كانوا تحت قيادته لتحالفهم معه ضد طلال بن رشيد. توقفت القافلة، وقاتلت لمدة ساعتين، رغم الحذر والابتعاد قدر المستطاع عن ميدان المعركة. لم يشارك الشرارات المرافقون لنا في النزاع؛ لكنهم قدموا أسلحتهم لأبناء الجوف غير المسلحين. أنا نفسي لم أطلق حتى رصاصة واحدة؛ لأنني لا أريد أن أضيع ذخيرتي مع الريح. أضحى استمرار المعركة غير مبرر؛ لأنه لا أمل لنا بالنجاح، فبنادقنا كانت خمس وستين بندقية مقابل مئة وأربعين بندقية على الأقل مع الطرف الآخر. وأخيرًا، أمر دهيري بوقف إطلاق النار مؤكدًا أنه يريد الاستسلام. تقدم ستة رجال من المهاجمين نحونا، عرضنا عدة مقترحات عليهم رفضوها جميعًا، وقالوا «إن الأصدقاء منكم بأمان أما الأعداء فلا». بكلمة أصدقاء كانوا يعنون العائلات الشرارية الموجودة ضمن القافلة، وابن خميس وجماعته، وأنا ومحمد والدريبي. أما «الأعداء» فهم أبناء الجوف، الذين عليهم الاستسلام. كان عارًا التخلي عن رفاقنا، فقد قاتلنا معًا، وحمايتهم مسؤولية الجميع. أبلغناهم أننا سنتابع المسيرة، وابتعدوا عنا مؤكدين أنهم سوف يسلبوننا جميعًا إذا ما رفضنا طلباتهم. بدأ القتال ثانية، ولكن هذه المرة كنا على مقربة منهم، وخلال عشر دقائق فقدنا قتيلين وأصيب عشرة بجروح. استسلمت العائلات الشرارية وفقد البقية رباطة جأشهم، فتقدم ابن خميس نحو العدو ورمى بسلاحه أرضًا معلنًا استسلامه. في الوقت نفسه، كان الدريبي يخفف من أحمال المؤونة، ورفع أعنة الجمل والحمار، وقفز على أحد الخيول، وكنت أنا ومحمد قد سبقناه على ظهور خيولنا. كان محمد ممسكًا بالحصان الحر أما رفيقنا السرحاني فركب الحصان الأدهم. لقد استدار حولنا الشعلان والشرارات، وهم يلوحون

ببنادقهم ويصرخون بنا للتخلي عما نحمله معنا. انطلقنا مسرعين ونحن نطلق نيران بنادقنا نحوهم، فردوا علينا الكيل. لقد أصابت إحدى الطلقات حصاني وسقط، لكن الدريبي قرب الحصان الحر الذي يقوده محمد ليَ فامتطيته، ووليت هاربًا. أما الحمار والجمل المعتادان رفقة الخيل وسماع صوت الدريبي فأسرعا خلفنا. تبعنا ثلاثون بدويًّا؛ لكن كلما رأيناهم اختفوا بسرعة لعدم استواء الأرض وسرعة مطاياهم، وكنا كلما استدرنا لمواجهتهم تراجعوا إلى الخلف. وقد واصلوا ملاحقتنا، إلى أن وصلنا جبال وادي محيضر. في هذا المكان، اعتبرنا أنفسنا آمنين، وتركنا مطاردونا بسلام ليعودوا إلى المشاركة في سلب القافلة.

قضينا النهار طوله في هذا المكان، في الليل عدت برفقة الدريبي لتفقد ميدان المعركة بعد أن تركنا محمدًا والسرحاني مع الحصانين والحمار والجمال قريبًا من محيضر لإخفاء أثر مسارنا الذي يمكن اقتفاؤه. وجدنا أفراد القافلة في مكان المعركة؛ الرجال منهم شبه عراة والنساء بأثوابهن الطويلة سافرات الرؤوس إذ سلبوهن حتى أغطية رؤوسهن. ما إن رأينا هذه الحالة وإنه ليس بمقدورنا فعل شيء قفلنا إلى محمد والسرحاني في محيضر مباشرين مواصلة الرحلة. أوصلنا سير نحو أربع ساعات ونصف الساعة إلى العديمات حيث استرحنا قليلًا، ثم لم نرخ العنان حتى وصولنا إلى قرية كاف آمنين. وصلت القافلة قرية إثرة اليوم الثاني والعشرين من شهر مايو في حالة يرثى لها، وذهبت لتفقدها ووزعت خمسين صاعًا من التمر وساعدت المطبب في القرية في متابعة حالات الجرحى. أربعة من هؤلاء التعساء قضوا ودفنوا في قبر واحد. عدت إلى كاف في اليوم نفسه رغم الدعوات المختلفة ممن استضافوني في إثرة في مرات سابقة، وكانوا يرغبون بأن أمضي الليل عندهم حتى اليوم التالي؛ لكننا في ذلك اليوم كنا في طريقنا إلى حوران، وبدلًا من عبور الطريق المباشر المؤدي إلى بلدة عرمان[1] في اثنتين وثلاثين ساعة شمال - غرب، ذهبت عن طريق

(١) تقع قرية عرمان في الجنوب الشرقي من مدينة السويداء في جبل العرب في جنوب سورية.

الشامية[1] مع أني أعرف أنها ستأخذ مني ثمانيّ وثلاثين ساعة. وقد وصلت إلى دمشق، ثم منها إلى طبريا ومنها إلى الناصرة، ثم جنين، فنابلس، وأخيرًا القدس، حيث كانت تقيم عائلتي

في قرية كاف حصلت على الأخبار الآتية: - أولًا: بينما كان ضباعين الشرارات يساعدون الشعلان في سلب قافلتنا، سلب حمدان بن معجل من قبيلة المحلف العنزية ومعه ستون فارسًا جميع ما كانوا قد تركوه في مضاربهم وصادروا أنعامهم. ثانيًا: إن شيوخ الشرارات الذين وجدوا أنهم مستهدفون من كافة القبائل البدوية عدا قبيلتي الرولة وبني صخر، قرروا العودة إلى مضاربهم الأصلية وأرسلوا وفدًا برئاسة سليم اللحاوي، للبحث عن الأمير طلال لإعلان ولائهم له من جديد ولدفع متأخرات الإتاوة المقررة عليهم، وتقديم هدية له على أمل الحصول على رضاه وعفوه. ثالثًا: إن الشيوخ سطام (ابن عم)، وهزاع (أخو) فيصل الشعلان ومعهم ألف وخمس مئة فارس من العمران والفدعان والسبعة والسوالمة هاجموا قبيلة المشهور بين الجوف وسكاكة واستولوا على ممتلكاتهم. في هذه المعركة لم يكن يوجد من شيوخ المشهور إلا جروح بن محسن وحمود بن حسين، أما بقيتهم فقد كانوا برفقة الأمير طلال في غزوة له. لقد استطاع المدافعون قتل خمسةٍ من مهاجميهم قبل أن يتراجعوا إلى الجوف مع النساء اللاتي لم يلحقهن أذى، وتمت مصادرة كل ما له قيمة معهم، وحتى الرعاة فقدوا مهنتهم؛ لأن قطعان مواشيهم قد نهبت.

إن بقية قصة رحلتي ليس لها مكان هنا، فالملحوظات التي ملئت دفتر يومياتي عن رحلتي من كاف حتى وصولي عائلتي في القدس، وشملت مروري بدمشق، وطبرية، والناصرة، وجنين ونابلس ربما ستنشر يومًا ما في عمل أهم من هذا العمل»[2].

---

(١) أي عن طريق هضبة الحماد.

(٢) النص المعرب:

Carlo Guarmani, **Northern Najd: A Journey from Jerusalem to Anaiza in Qasim**.Tras.by Lady Capel-Cure, with Introduction by Douglas Carruthers (London: The Argonaut Press,1938), pp.34-85& pp. 86-103.

الفصل الرابع

الليدي آن بلُنت

تعدّ هذه الرحالة السيدة الأولى في سلسلة طويلة من الرحالة الأوروبيين في الجزيرة العربية، واختلفت عن كثيرين منهم في خلفيتها ومكانتها وهواياتها وأغراضها وتمويلها، ولم تتنكر بشخصية أخرى. لقد كانت سيدة إنجليزية نبيلة وغنية امتلكت الوسائل كافة لعيش حياة غير تلك التي اختارتها ترحالًا ودورًا. كانت الخيل العربية الأصيلة هوايتها والبحث فيها وتربيتها وظيفتها وحياتها، ومن أجل اقتنائها رحلت إلى موطنها بلاد العرب بحثًا عنها، فأتحفت القارئ بوصف ومعلومات مهمة حول البلدات التي زارتها وسكانها. فيا ترى من هي هذه الرحالة؟

ولدت السيدة آن بلنت (Lady Anne Blunt)، واسمها الأصلي آن إيزابيلا كنج - نويل(Anne Isabella King-Noel)، سنة ١٨٣٧ لأبوين من عائلتين عريقتين يحملان ألقابًا ملكية تؤهل حامليها وورثتهم مراكز جاه وشرف في المجتمع الإنجليزي. كانت آن من جهة أمها الحفيدة الوحيدة للشاعر الإنجليزي اللورد بيرون (Lord Byron)[١]، وكان والدها اللورد وليم كنج نويل (William King-Noel)[٢].

---

(١) اللورد بيرون (١٨٢٤-١٧٨٨) شاعر شهير يعدُّ من أعظم شعراء بريطانيا. هجر بلاده طوعًا والتحق بحركات ثورية في إيطاليا واليونان، حيث شارك في حرب استقلال اليونان عن الدولة العثمانية. عدّ بطلًا قوميًا في اليونان ومات بها.

(٢) وليم كنج نويل (١٨٠٥- ١٨٩٣) نبيل وعالم ولورد إنجليزي.

تعلمت الليدي آن في سن مبكر الموسيقى والرسم والفروسية التي أجادتها وأدت بها إلى التعلق بالخيل. تعلمت اللغات الألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والعربية، ورحلت كثيرًا في أوروبا. وفي واحدة من رحلاتها إلى إيطاليا، سنة ١٨٦٦، تعرفت على الدبلوماسي البريطاني ويلفرد سكاون بلُنت (Wilfrid Scawen Blunt)[١]، وتوّجت هذه العلاقات بالزواج سنة ١٨٦٩، فأصبحت منذ ذلك التاريخ تُعرف باسم الليدي آن بلُنت.

وإذ كانت الليدي بلُنت مغرمة بالخيل العربية ولديها الإمكانات المالية لتحقيق ما تطمح إليه في الحصول عليها، فقد وجدت في زوجها الذي يعنى بشؤون الشرق وسياساته خير رفيق لها لا سيما وقد استقال من عمله الدبلوماسي بعد اقترانه بها.

قررت الليدي وزوجها تأسيس مزرعة لتربية الخيل العربية الأصيلة في المملكة المتحدة، فقاما برحلات كثيرة إلى البلدان التي يتمكنان فيها شراء أجود سلالات الخيل العربية. بدأت رحلاتهما إلى مواطن وجود هذا النوع من الخيل في سنة ١٨٧٨ برحلة إلى العراق وبادية الشام، ودرسوا نوعية الخيل عند القبائل العربية في صحاري هذه البلدان، واشتروا عددًا منها أرسلوه إلى بريطانيا[٢]. وأقاما مزرعتهما حال عودتهما من هذه الرحلة في

---

(١) ويلفرد سكاون بلُنت (١٨٤٠-١٩٢٢)، كاتب وشاعر إنجليزي، التحق بالسلك الدبلوماسي في بداية حياته وعمل في عدة سفارات بريطانية في اليونان وألمانيا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال والأرجنتين. استقال من عمله الدبلوماسي بعد الزواج من السيدة آن سنة ١٨٦٩. كان معارضًا لسياسات الحكومة البريطانية الاستعمارية في إيرلندا والهند ومصر والسودان، وتعاطف مع الحركات الوطنية في هذه الدول وزعمائها، وله صداقات شخصية مع عدد منهم.. كتب عددًا من المؤلفات التي تعبر عن آرائه، واشتهر منها «مستقبل الإسلام» سنة ١٨٨٢، و«أفكار حول الهند» سنة ١٨٨٥م، و«التاريخ السري للاحتلال البريطاني لمصر» سنة ١٩٠٦، وله دواوين شعرية وكتابات أدبية كثيرة. انظر حوله:

Elizabeth Longford, **A Pilgrimage of Passion: The life of Wilfrid Scawen Blunt** (London: Weidenfeld And Nicolson,1979).

(٢) وصفت الليدي آن تجربتها وزوجها في هذه الرحلة في كتاب بعنوان «قبائل الفرات البدوية». انظر:

Lady Anne Blunt, **Bedouin Tribes of the Euphrates** (London: John Murray, 1878).

وقد ترجم هذا الكتاب ونشر باللغة العربية. انظر: =



الليدي آن بلنت

مقاطعة سوسكس Sussex في جنوب شرق إنجلترا، وأسمياها كرابت أرابيان ستُد Crabbet Arabian Stud[(١)]. ولتزويد هذه المزرعة بأعداد أكبر من الأفراس قررا في السنة نفسها القيام برحلة إلى نجد مهد الجواد العربي الأصيل، فقاما برحلتهما الجديدة من دمشق في الثالث عشر من شهر ديسمبر ١٨٧٨ إلى حائل التي ودعاها إلى بغداد في السادس من شهر مارس من سنة ١٨٧٩.

واصلت الليدي بلنت وزوجها عملهما في مجال تربية الخيل العربية الأصيلة، واقتنيا المزيد منها من أفراس إصطبلات باشوات مصر الغنية بالجياد الأصيلة، وأقاما مزرعة أخرى في مصر للغرض نفسه عرفت باسم مزرعة الشيخ عبيد. حققت تجربة هذين الزوجين النجاح، وأضحت مزرعتهما في المملكة المتحدة مركزًا عالميًّا مهمًّا في عالم تربية الخيل العربية.

تعرضت علاقات هذين الزوجين للاختلال فقررا الانفصال سنة ١٩٠٦، واقتسما ثروتهما بما في ذلك الخيل. اختارت الليدي بلُنت الاستقرار في مصر حتى وفاتها سنة ١٩١٧. وقد ورثت لقب بارونة قبل رحيلها بأشهر، وورثتها ابنتها الوحيدة جوديث بالمال واللقب، وقد واصلت عمل والدتها بعد نزاع قانوني شديد مع والدها الذي وافاه الأجل في سنة١٩٢٢[(٢)].

وصفت الليدي بلُنت رحلتها إلى نجد سنة ١٨٧٩ في كتاب من جزأين تحت عنوان **حج إلى نجد، مهد العرْق العربي: زيارة إلى أمير العرب ورحلتنا إلى فارس**، نشر سنة ١٨٨١[(٣)]. ورد في هذا الكتاب وصف لطريق ومجريات

= الليدي آن بلنت، **قبائل بدو الفرات عام ١٨٧٨م**، ترجمة أسعد الفارس ونضال خضر معيوف (دمشق: دار الملاح للطباعة والنشر، ١٩٩١).

(١) معروف أيضًا باسم كرابت بارك ستُد (Crabbet Park Stud).

(٢) حول تفاصيل خلفياتها الاجتماعية وحياتها، انظر:

H V F Winstone, **Lady Anne Blunt, A Biography** (London: Barzan Publishing, 2003).

وباللغة العربية، انظر:

إيتش. في. إف .ونستون، **ليدي آن بلنت، السيرة الذاتية** (بيروت ولندن: دار برزان للنشر، ٢٠٠٣).

(٣) Lady Anne Blunt, **Pilgrimage to Nejd, The Cradle of the Arab Race: a Visit to the Court of the Arab Emir and 'our Persian Campaign,** 2 vols. (London: John Murray,1881).

نقلت بعض فصول هذا الكتاب المتعلقة بنجد إلى اللغة العربية، انظر: =

الرحلة التي بدأت من دمشق عبر حوران ووادي السرحان والجوف وصحراء النفود إلى حائل ومنها إلى العراق وإيران.

بدأت هذه الرحلة إلى نجد من دمشق في اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر ١٨٧٨ وبعد أربعة عشر يومًا من السفر عبر قرى حوران في جنوب سورية التي تمت بناءً على توصيات من بعض شيوخها إلى شيوخ القرى والقبائل التي سوف يضطرون للمرور فيها. وقد تمكنوا من الوصول بسلام إلى قرية كاف أول بلدة مأهولة في شمال نجد، أي منطقة الجوف، وذلك في اليوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٧٨.

ونترك القارئ الآن برفقة الليدي آن بلنت تصف مشاهداتها في منطقة الجوف.

«**٢٨ ديسمبر ١٨٧٨** : كاف قرية صغيرة جميلة بطابع خاص يختلف نوعًا ما عما يشاهده المرء في سورية. كل شيء بها صغير، الستة عشر بيتًا المربعة، والأبراج الحربية، والأسوار الحصينة التي ترتفع ٧ أقدام، والسبعون إلى الثمانين شجرة نخيل التي تسقى من الآبار، وبعض الأشجار، التي كنت أظن في البداية أنها أشجار سرو، وعرفتُ لاحقًا أنها أثل وهو نوع من أنواع شجر الطرفاء. ورغم ضآلة هذه البلدة، إلا إنها رائعة. كل شيء فيها حسن إذ لا حائط متداعٍ أو باب مخلوع مثلما يشاهد في قرى سورية. وبين النخيل القديم غرس جديدٌ من صغارها وشجر تين وعنب، وهذا نادرًا ما يجده المرء في الشمال. الناس حسنوا الخلقة ومؤدبون رغم روعنا في البداية؛ إذ كانوا قد تنكبوا سيوفهم أو أمسكوا بأغمادها بما يماثل الأشكال المنقوشة على الصخور لشهداء عصر النهضة أو تماثيل الحملات الصليبية.

استقبلنا عبدالله الخميس شيخ القرية بحفاوة بالغة، وكنا قد حملنا إليه

= الليدي آن بلنت، **رحلة إلى نجد**، ترجمة محمد انعم غالب (الرياض: دار اليمامة، ١٩٦٧).
وصدرت حديثًا ترجمة أشمل لهذه الرحلة، انظر:
الليدي آن بلنت، **رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية**، ترجمة وتعليق أحمد إيبش (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٥).

رسالة توصية وتعريف من حسين بن نجم الأطرش، شيخ صلخد[1]. أعد مضيفنا غرفة في داره، لإقامتنا، بابها، كما هو حال أبواب الغرف الأخرى، يفتح على فناء كان مربوط بوسطه مهر ابن سنتين. كانت غرفتنا مخزن حطب، ولا تحوي أثاثًا، وكنا سعداء بها. البناء هنا بسيط جدًّا، الجدران من الطين الخالص، دون نوافذ أو أي شكل من أشكال الفتحات، ماعدا بضع فتحات مربعة صغيرة قريبة من السقف. والسقف عبارة عن أعمدة من جذوع الأثل مغطاة بقواطع من عسب النخل وسعفها. الغرفة الرئيسة في الدار هي القهوة أو غرفة القهوة، وفي أحد زواياها موقد نار مربع الشكل بلا مدخنة. والدخان يذهب حيثما تيسّر؛ لكنه غير مؤذٍ كما هو متخيّل. وكان لهب الحطب المشتعل ساطع ودخانه خفيف وحرارته عالية. إنه حطب الغضا. يجلس الحاضرون حول الموقد بينما القهوة تُعدُّ، وتستغرق عملية إعدادها نصف ساعة تقريبًا.

ما إن جلسنا حتى قدم لنا طبق من التمر دبق ومهروس من محصول السنة السابقة، وكان لذيذًا؛ وفي المساء قُدم لنا عشاء من البرغل ولحم الدجاج المسلوق. وقد أدهشنا لطف استقبالهم ولباقتهم. استفسر مضيفنا الشيخ عبدالله عن صحتنا أكثر من عشرين مرة قبل أي شيء آخر، ولم يكن سهلًا العثور على عبارات الرد المناسبة على هذا النوع من المجاملات والكرم. كل شيء كان ينم عن فقر وبساطة ومع ذلك لا تشعر إلا أنك بين أناس متحضرين. أثنوا كثيرًا على محمد بن عروق وتعاملوا معه بصفته شيخ[2]. وتدمر معروفة اسمًا، ومن هذه المسافة البعيدة الفاصلة بين البلدتين تعدُّ بلدة مهمة. كان من المستغرب أن

(١) عرفت تاريخيًّا باسم صرخد، وتقع في منطقة جبل العرب في جنوب سورية.

(٢) محمد بن عبدالله بن طالب العروق(١٨٤٦؟- ١٩٢٩)، ولي مشيخة تدمر بعد صراع طويل عليها مع أبناء عمومته بعد عدة سنوات من هذه الرحلة. وكان أحد الشخصيات المهمة في البادية السورية، وقريب من السلطات العثمانية فيها، وقد ولته قائمقامية المنطقة الوسطى لهذه البادية الممتدة من القريتين إلى دير الزور. حافظ على علاقات جيدة مع كثير من الأوروبيين الذين يزورون البادية، وقد رافق أيضًا الرحالة إدوارد نولده في زيارته إلى حائل سنة ١٨٩٣. حوله وحول عائلته، انظر:

أحمد إيبش، «تحقيق حول تاريخ آل العَرَوْق بتدمر»، في الليدي آن بلنت، **رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية**، مصدر سبق ذكره، ص ص. ٤٠٥-٤١٨.

يقوم شخص في مركزه بخدمتنا، وبالتالي جاء التساؤل عن دافع رحلتنا. لم يُر من قبل إفرنجي في كاف، هذا ما ذكره الناس؛ وهم لا يفهمون الاحترام الذي يلقاه الأوروبيين في أماكن أخرى. شرح محمد أخوّته مع البيك (زوجها ويلفرد بلُنت)[1]، وأكد أن رحلته شرفية، وليست لمصلحة؛ ولهذا تعاملوا معنا وكأننا عرب بالأصل. أما مرافقنا عواد الشمري، فأثبت أنه مفيد لنا جدًّا، فهو معروف هنا، وكان يعرِّف بنا.

كاف بلدة مستقلة إلى حد كبير عن السلطان (الدولة العثمانية)، رغم أنها نُهبت مرتين من قبل جنود الدولة، مرة تحت حكم إبراهيم باشا سنة ١٨٣٤م[2]، وثانية قبل سنين قليلة عندما أرسلت حكومة دمشق حملة عسكرية إلى وادي السرحان[3]. وقد شاهدنا بعض آثار قصر الصعيدي، على قمة الجبل المشرف على القرية لتي دمرها المذكورون، وسمعنا الكثير عما سببته الأحداث الأخيرة من مآسٍ. يعترف سكان كاف بتبعيتهم لابن رشيد، شيخ قبيلة شمر الذي كان بعض رجاله هنا لاستلام الإتاوة السنوية المقررة، وهي مبلغ صغير نحو ٢٠ مجيديًّا (أي ما يعادل ٤ جنيهات إسترلينية)، وكانوا سعداء بدفعها له لقاء حمايته لهم، وهم متحمسون له ويلقبونه بالأمير؛ من المؤكد أن لا مبرر يدعوهم للانضمام إلى سورية. وكاف البلدة الصغيرة وجارتها إثرة التي كنا قد انتقلنا إليها، مرتبطتان تجاريًّا مع الشمال أكثر منه مع الجنوب بسبب أن ثروتهما الرئيسة، مهما كان قدرها، هي تجارة الملح مع بصرى[4].

---

(١) كانا قد تعاهدا على الأخوة في السنة السابقة خلال رحلتهم التي سبقت الإشارة إليها، وقد وصفت فيه مراسم عملية تعاهدهما. انظر: الليدي آن بلنت، قبائل بدو الفرات (النسخة المعربة)، ص ص. ٣٩٢-٣٩٣.

(٢) لا تذكر المصادر التاريخية المتاحة حول عهد إبراهيم باشا ابن محمد علي في بلاد الشام (١٨٣٢-١٨٤٠) شيئًا من هذا أو حول وصول قواته إلى كاف، لكنه قد يكون حدث إذ هبت ثورة احتجاجات في الأعوام ١٨٣٨-١٨٤٠ في جنوب سورية ومنها منطقة حوران وشرقي الأردن وثيقة الصلة بكاف، واتخذت إجراءات عسكرية ضدها وقد تكون امتدت إلى كاف.

(٣) كان ذلك سنة ١٨٧٣، وسيأتي ذكرها بالتفصيل في نص الرحالة الألماني أويتنغ في الفصل السادس من هذه الكتاب.

(٤) مدينة تاريخية في جنوب سورية تبعد ١٢٠ كيلًا عن دمشق تقريبًا.

يبدو أن عبدالله الخميس ميسور الحال، ويملك عددًا من العبيد، وهو متزوج بأكثر من امرأة، أما بالنسبة للمُهر الذي ذكرته فهو الوحيد الذي يملكه من ذوات الأربع. وكان عبدالله بن خميس يرغب بالذهاب معنا لو كان يملك ذلولًا. وقد شاهدت بضع جمال وحمير وماعز حول القرية.

غادرنا مرافقنا، مقبول الخريشة[1]، عائدًا من حيث جاء، ونحن الآن نبحث عن دليل من قبيلة الشرارات يأخذنا إلى الجوف[2].

قدمنا إلى إثرة، الواحة التوأم لكاف، وتبعد عنها ساعتين ونصف الساعة شرقًا[3]، وهي كذلك في وادي السرحان، وهذا لم يذكر أو يوقَّع في كثير من الخرائط الحديثة، وقد أشار تشيسني (Francis Rawdon Chesney)[4] إلى موقعها خطأً في خريطته. وقد وجدنا بواسطة مقياس الضغط الجوي، أن كلتيهما على مستوى واحد، وهذا ما أكد حدسنا أن وادي السرحان بلا انحدارات.

إن هذا الوادي منخفض غير منتظم ولافت للنظر، وربما كان قاعًا لبحر قديم يشبه البحر الميت، وهو يتسع من هنا نحو ٢١ ميلًا، لو حكمنا عليه من خلال التلال المحيطة في الجهة المعاكسة له. يوجد كثير من الآبار هنا في أثرة وفي كاف، وهي واسعة وسطحية، والماء يوجد على عمق ٨ أقدام تحت سطح الأرض، وتسقى مزارع النخيل من هذه الآبار. وهناك آبار خارج البلدة وجميعها سطحية وفي مستوى واحد. الماء فيها صالح للشرب، وإن كان من غير الممكن

---

(١) من فرع الخرشان من قبيلة بني صخر.

(٢) كان من عادة الرحالة اختيار مرافقين وأدلاء من أفراد القبائل التي تكون ضاربة في الأماكن التي يمرون بها لضمان حمايتهم. وفي هذه الحالة كان مرافقهم إلى كاف من قبيلة بني صخر لمرورهم عبر مناطق تواجدها، ولأنهم سيمرون في طريقهم إلى الجوف في مناطق وجود قبيلة الشرارات في وادي السرحان فقد أرادوا دليلًا من هذه القبيلة.

(٣) تبلغ المسافة بين الموضعين ١٤ كيلًا.

(٤) فرانسيس راودون تشسني (١٧٨٩-١٨٧٢) ضابط إنجليزي ومكتشف جغرافي أعد عملية المسح الأولى لخط قناة السويس، وقد اعتمد في عملية حفرها. كان مهتمًّا بتطوير خط تجاري عبر الفرات إلى الهند. في عام ١٣٨١م بدأ مهماته في مسح منطقة الفرات وإمكانية استخدام نهر الفرات للاستخدام البحري. وقد رسم خارطة للمنطقة.

عدّه ممتازًا بأي معنى من المعاني. وقطعنا بحيرة ملح كبيرة، وهي جافة الآن. والملح قد سبق جمعه وهو مجهز للتحميل.

في طريقنا أمتعنا رفيقنا محمد بن عروق بقصص ولادته ونسبه. كان أهل كاف يسمعون بابن عروق، وأخبروا محمدًا عن وجود أقارب له في أجزاء كثيرة من الجزيرة العربية، ومنها الجوف. وذكروا اسم شخص في بلدة بريدة، ابن حميدي، الذي سمع محمد أنه ابن عم له. وفي إثرة، كانت زوجة الشيخ من الجوف[1]. ويبدو أن كل شيء يسير حسبما توقعنا.

إن بلدة إثرة أصغر من بلدة كاف، ولكنها تتباهى بالبناية القديمة، وهي قصر صغير داخل أسوارها، يشبه منازل حوران، وقد بني بالحجر الأسود، بدلًا من الطين الشائع عند العرب، بطريقة هندسية منتظمة ومتقنة. وعلى عتبة المدخل نقش قديم قد يكون نقشًا حميريًّا وكان يمكننا نقله لو كان واضحًا، ولكن تأثير المناخ قد طمس رموزه بشكل شبه تام (ذكروا لنا أن هذا النقش له علاقة بكنز مدفون، وهو تهيؤ شائع بين العرب الأميين). استضافنا في إثرة جروان [المذهن]، وهو شاب يعوزه الذكاء وحسن الخلقة وكان ذا وجه طفولي وشعر طويل مجدول. أمه مرزوقة ابنة عم لمحمد، وبناءً عليه، فهو ابن عم نفسه. ومع أنه ليس هناك ما يدعو للفخر بهذه الصلة، فقد كان مضيفًا لطيفًا. أمه ذكية وحسنة التربية، ومن الغريب، أن يكون ولدها بهذا المستوى الأقل منها. أما أبناؤها الثلاثة الآخرون، الذين يُعدُّ جروان أكبرهم، فلهم ذكاؤهم مثل الآخرين؛ لكنهم في خلفية الصورة. جاءت مرزوقة لتراني حاملة طبقًا كبيرًا من التمر، ولم تنبس بكلمة. وجهها مازال جذابًا، وأعتقد أنها كانت جميلة جدًّا، ولاحظت أنها تلبس عددًا من الخواتم الفضية، المشابهة لخواتم الزواج، في أناملها.

---

(١) الشيخ نفسه أيضًا من الجوف؛ إذ نزحت عائلته (المذهن)، وهي من عائلات الجوف الرئيسة، إلى تلك البلدة قسرًا في خمسينات القرن التاسع عشر بعد الحرب التي حدثت بين أهل الجوف وابن رشيد سنة ١٨٥٣، وقد ذُكرت تفاصيلها سابقًا. وكانت هذه العائلة تسكن حي عين أم سالم التي سبق وذكرها الرحالة والن في غرب بلدة الجوف (دومة الجندل).

أخبرتنا مرزوقة وهي من الجوف أننا سنجد أفرادًا كثيرين من أقرباء ابن عروق هناك، وإنها قد غادرت الجوف فتاة يافعة. كانت مرزوقة تتحدث عن موطنها الأصلي وكأنه جنة الدنيا التي رحلت عنها لتعيش في هذه الواحة الصغيرة البائسة. وإثرة بالفعل مكان بائس لولا بستان جروان.

قام ويلفرد مع الآخرين بنزهة في الغيط، وقد منعني عرجي (كانت قد وقعت من فوق ذلولها قبل وصولها إلى كاف) من مرافقتهم. ثم جلسنا جميعًا حول عشائنا، وكان ثريدًا بلحم خروف ممتاز وخبزًا طيب المذاق. قدم لنا جروان الأكل وظل واقفًا يقوم على خدمتنا، طبقًا للعادات العربية، عندما يأكل الضيوف. كانت والدته تعنى به كثيرًا وترشده إلى كيفية التصرف، وهذا كان واضحًا إذ لم يكن لديه ما يقوله، وهذه العناية دليل على أنه الشخص الذي تعتمد عليه العائلة. وصف ويلفرد النزهة في البستان بالمدهشة، وامتدح محمد وعبدالله (ابن عم محمد بن عروق ورفيقهم في الرحلة) ما شاهداه، وفي الوقت نفسه أخبروا جروان قصصًا مثيرة عن عظمة تدمر وغناها. كان غيط جروان البستان الأكبر في إثرة، وكان يحوي ٤٠٠ شجرة نخيل أغلبها حديثة الغرس، وعمر أقدمها لا يتجاوز ٢٥ سنة. ومن بينها نخلة الحلوة، أو نخلة حلوة الجوف، المجلوبة من ذلك المكان، التي تعدُّ شيئًا نادرًا جدًّا، وكانت هي وشجرة الأثل موضع إعجاب شديد. وتنمو شجرة الأثل لاستعمال أخشابها، وست سنوات من النمو يوصل ارتفاعها إلى ٢٠ قدمًا.

قدم رجلان من الجوف بأخبار سارة مفادها أن كل شيء على ما يرام في الطريق من هنا إلى الجوف، وإن وداي السرحان خالٍ من الأعراب. كانت هذه أخبارًا سارة لنا؛ لأنه لا أحد يعلم مسبقًا بمرورنا ولا نحمل تعريفًا بنا، وقد لا يحظى مرورنا بالموافقة إذا ما قابلنا أعرابًا. أما سبب عدم وجود بدو في الوادي في هذا الوقت فهو هجرهم له لتأخر الموسم لهذا العام وقلة المرعى فيه. ولأن الطريق إلى الجوف، البالغ ٢٠٠ ميل من إثرة، غير محدد المعالم، فكان ينبغي أن نجد دليلًا يقودنا إلى موارد الماء في الطريق. لقد وجدنا شراريًّا قصير القامة عجيب المنظر كان بالمصادفة موجودًا هنا، وقد وافق على أن يرافقنا مقابل ١٠ مجيديات.

[. . . في صباح اليوم التاسع والعشرين من شهر ديسمبر ١٨٧٨ غادرنا إثرة متوجهين نحو الجوف عبر وادي السرحان. استغرقنا الوصول إلى الجوف سبعة أيام، تخللتها بعض المعوقات. فقد تعرضنا لهجوم أصبت به وأصيب ويلفرد؛ لكن الأمور سويت مع المهاجمين عندما علموا أننا إفرنجيان بحماية الشيخ ابن شعلان، وأعيد لنا كل ما أخذ منا، وانتهى الأمر بالاعتذار عما جرى. . . . كنا نستجوب دليلنا الشراري حمدان عن قبيلته، وقد أفاد بأن القبيلة تنقسم إلى عدة فروع، الرئيسة منها: العويمرة وشيخهم اللحاوي؛ والحلسة وشيخهم ابن دعيجا؛ والخيالي وشيخهم زيد الوردة؛ وشمالات وشيخهم فضل الدندة. وأفاد أن الشرارات لا يربون الخيل بل يربون أفضل أنواع الإبل في الجزيرة العربية. ويسمى هذا النوع من الإبل بنات عدهان (بنت عدهان). وذكر أنه لو امتطيت بنت عدهان، وابتدأت من حيث مكاننا عند غروب الشمس، فإنك ستصبح عند شروقها في كاف وهي مسافة ١٨٠ ميلًا. وسرق لص منذ مدة ليست بعيدة ذلولًا شرارية من مزيريب في حوران وامتطاها إلى حائل ووصلها بسبع أيام بلياليها[١] . . .]

٥ يناير ١٨٧٩ : كانت مسيرتنا شاقة وطويلة لمسافة عشرين ميلًا، وكنا نتوقع باستمرار أن نرى الجوف، إلّا أن آمالنا تخيب دائمًا، فقد تحولت الأرض إلى تلال وأودية مذهلة، لكن كان مستوى الأرض أقل ارتفاعًا مما كان عليه بالأمس، إذ كنا في حقيقة الأمر ننحدر على طول اليوم. وكنا بين مدة وأخرى نلحظ وادي السرحان إلى يميننا، على مسافة بعيدة. من الجهة الأخرى مرتفعات زرقاء. بينما بدت الأرض أمامنا سلسلة مستمرة من التلال الصخرية. وأخيرًا، ومن على قمة أحدها، ظهر خط أسود، يشمخ بسواده عاكسًا بصفاره خليط تلال الصخور الرملية، والأودية الجرداء، وعرفنا أنها لابد أن تكون قلعة مارد. وبدت شامخة في حقيقة الأمر، وإن بدت مرعبة وسط هذا العراء المقفر. مضينا نحوها تحدونا الرغبة بمشاهدتها عن قرب.

(١) هذه الفقرة اختزال لوصف الرحلة عبر وادي السرحان الذي سبقها في وصفه غوارماني، ولم نضف جديدًا لوصفه.

ومن ثم وصلنا إلى معبر طبيعي من الحجر الأبيض، وأكد لنا عواد وحمدان أنه امتداد للطريق الروماني، الذي يبدأ من صلخد. كنا نتمنى لو استطعنا أن نصدقهما، لكن من الواضح أن الطريق من فعل الطبيعة. وسرنا على هذا الطريق لبضعة أميال حتى اختفى. وفجأة وصلنا إلى حافة قاع، وهنالك من تحتنا امتدت واحة كبيرة من النخيل، يحيط بها سور ذو أبراج متباعدة، وقرية صغيرة التفت حول القلعة السوداء. لقد وصلنا الجوف.

ليست الجوف كما توقعنا أبدًا. لقد اعتقدنا أنها بلدة واسعة ومعتنى بزراعتها، وتبيّن أنها مجرد بلدة صغيرة. لاشيء إطلاقًا خارج الأسوار، سوى بضعة بساتين مربعة الشكل، كل منها نحو نصف فدان، مخضرة بالحنطة حديثة الزرع. وتسقى هذه من آبار، وتروى تمامًا مثل البساتين داخل الأسوار، بمجارٍ صغيرة خطت بأنماط مختلفة. وفي الواقع كل حوض الجوف بالكاد يبلغ اتساعه ثلاثة أميال في أوسع نقطة منه، ويبدو، وهو كذلك دون شك، الحوض المفرغ لبحر داخلي، أما كيف، أو متى، أو لماذا جف في الأصل، فأمر أعلى من استطاعتي على التخمين(يستطيع المرء فقط أن يقول مع محمد، إنه «من الله»)، ولكن براهين أصله البحري واضحة في كل مكان، ويبدو أوطأ من بقية وادي السرحان، الذي من المحتمل أنه يتصل به، وفي البداية، اعتقدنا أنه ربما كان آخر بقعة ماء للبحر، عندما جف؛ لكن القضية ليست كذلك في الواقع، من حيث أن أوطأ جزء منه يقع في المستوى نفسه لتجويفات وادي السرحان. إن آبار هذا الحوض ترتفع ما بين ألف وثمان مئة وألف وتسع مئة قدم فوق سطح البحر، وهي ضحلة، على عمق بضعة أقدام من سطح الأرض، ويجلب الماء بواسطة سواني تجر حبلًا طويلًا مربوطًا بدلو، يفرغ نفسه عندما يصل إلى السطح فيما يشبه الحوض.

إن البلدة، مع بساتينها، محاطة بسور من اللبن، ارتفاعه عشرة أقدام، وطوله نحو ميلين من الشمال إلى الجنوب، ونصف ميل عرضًا. أما بقية السهل فرملي منبسط قاحل، مع بقعة هنا وأخرى هناك من الأرض الصلبة، وصلصال رملي حيث تتجمع المياه عندما ينزل المطر، ويبقى الملح عندما تجف.

وأينما حُفرت بِئر وجد بستان صغير، مسيّج بحائط، ومزروع بأشجار النخيل. ويوجد نحو اثني عشر من هذه الحقول القاصية يحتل كل واحد منها نحو فدانين أو ثلاثة. وفي كل منها يوجد أربعة أو خمسة بيوت ببساتينها، ولها منظر قرية. والحوض بكامله، باستثناء هذه الواحات، أبيض باهر، وتظهر بساتين النخيل كبقع سوداء على سطحه.

الجوف نفسها، لا تحتوي على أكثر من ست مئة بيت، وهي كصناديق مربعة من الطين، ملتم معظمها حول بقايا قلعة مارد. ويوجد نحو ستة أحياء منفصلة في أجزاء مختلفة من البلدة. وكثير من هذه البيوت فيها نوع من الأبراج، أو طابق علوي، وهناك أبراج صغيرة على مسافات غير منتظمة حول السور الخارجي. إن إحدى القسمات الرئيسة للبلدة، بالإضافة إلى قلعة مارد، قصر جديد[١]، خارج دائرة القلعة تمامًا، يعيش فيه نائب ابن رشيد، أقيم على أرض مرتفعة. وهو بناء مبني مؤثر في النفس، مربع الشكل بأسوار ذات شرفات بارتفاع قدره أربعون قدمًا ومجنحة بأبراج دائرية ومربعة تستدق أطرافها وتعلو بارتفاع عشرين قدمًا على البقية، وليس لها نوافذ، بل ثقوب للرمي منها، ولكل برج زوائد تشبه القلنسوة للغرض نفسه.

ليس في الجوف ما يمكن أن يعدّ سوقًا، ولا شوارع، كما يفهم المرء عمومًا من هذه الكلمة، بل مجرد عدد من الأزقة المتعرجة، ذات جدران من اللبن على الجانبين. وحينما دخلنا البلدة فوق ظهور رواحلنا وجدنا هذه الخطوط مزدحمة برجال متنكبين سيوفًا بالطريقة التي رأيناها في كاف وبملامح متجهمة وغير مسرورين من رؤيتنا، كما ظننا. ردوا على تحيتنا (السلام عليكم) ببساطة، ودون حركة، وتركونا نمر دون بادرة كرم. كان افتراضنا خاطئًا إذ لم تكن برودتهم إلا رسميات عربية. وحين استفسر محمد عن دار أقاربه أشاروا إلى الطريق بأسلوب حضاري. رافقنا واحد أو اثنان منهم ليقودونا عبر عدد من المسالك الضيقة، وعبر بساتين النخيل إلى الجانب الآخر من البلدة، ومن ثم إلى خارجها عبر بوابة أخرى إلى أحد الحقول المنعزلة،

---

(١) يحمل هذا القصر اسم خزام.

التي رأيناها من المرتفع. كان هذا الحقل قريبًا، على بعد لا يبلغ الميل، وفي بضع دقائق أخرى ترجلنا، وعوملنا بكرم بالغ في قهوة دار حسين الأنيقة. ما هي بالضبط علاقة القرابة بين حسين ومحمد أمر لم أستطع حتى الآن اكتشافه - ومحمد نفسه لا يكاد يعرف - غير أنه من الواضح هنا، أن أية قرابة عصب مهما كانت بعيدة هي علاقة عالية الأهمية. لم نكد نجلس إلى نار حسين نراقب تحميص البنّ، حتى وصل قريب آخر، جذبه نبأ وصولنا، ثم آخر، وكانا عاتبان لكوننا لم نذهب إلى أي منهما. قُبّل محمد، وعونق، وكل ما استطاع أن يفعله لتهدئة هذين القريبين هو أن يعد بأن يقيم أسبوعًا عند كل منهما بمجرد انتهاء زيارتنا لحسين. حقًّا الدم هنا أثقل من الماء. لقد أثار الظهور المفاجئ لابن العم العشرين الشقاق فيما بينهم لرغبة كل منهم في استضافتنا. نحرت الذبيحة لعشائنا، واستمتع كل منا بترف الاغتسال وتغيير الملابس في خيمتنا التي نُصبت في بستان نخل صغير خلف المنزل. كنا في حالة هدوء استعدنا فيها قدرتنا على التفكير في كل ما حدث، وأن نضع خططنا للمستقبل.

٦ يناير ١٨٧٩ : بينما كنا البارحة نتناول القهوة للمرة التاسعة أو العاشرة منذ وصولنا في قهوة حسين، دخل شابان بملابس زاهية؛ وكانا يرتديان جُبَبًا حريرية وثيابًا مطرزة تحت عباءتهما الصوفية، وعلى رأس كل منهم كوفية حمراء من القطن، وعقال أبيض، وفي يد كل منهم سيف بغمد فضي. نهض كل من في القهوة عند دخولهما، وظننا أنهما ابنا شيخ، أو من شخصيات الجوف البارزة. همس ويلفرد بسؤال عنهما إلى حسين، الذى ضحك وقال: إنهما ليسا من أبناء الشيوخ إنما هم «زلمات ابن رشيد»، أي رجال ابن الرشيد، أي من جنوده في الواقع. كانت الكوفية الحمراء والسيف ذو المقبض الفضي، نوعًا من الزي الرسمي. لقد جاءا، كما اتضح، من عند دَوّاس نائب عامل الجوف، ليدعوانا إلى القصر. ومع أننا كنا آسفين أن نترك بستان حسين الهادئ، وكرمه اللطيف، فقد ظننا أن من الحكمة الاستجابة. وحسين، وأي شخص آخر، كما يبدو، لا يعتقد أنه يمكن رفض مثل هذه الدعوة؛ لأن حكومة ابن رشيد مطلقة في الجوف، ورغبات نائبه تعدُّ أوامر، وفي الوقت نفسه لا يبدو أن هناك أي شعور سيئ بين الحامية وأهل البلدة. وحسب الظاهر،

كان الجنود كما رأينا على وفاق تام مع الناس، وهم حقًّا ذوو أرواح مرحة، ومن الصعب معاداتهم؛ لكن الجوف مكان منتزع بالقوة، وفي حالة حصار دائم، والنظام صارم جدًّا. انتقلنا بكل مخيمنا إلى محيط المقر الرسمي للحاكم، وأقمنا المخيم تحت أسواره. إن القصر - كما أسلفت - خارج البلدة قام ببنائه منذ نحو اثني عشر عامًا، الأمير متعب بن رشيد[١]، أخو الأمير طلال (صديق السيد بلغريف). ورغم أنه مشيّد حديثًا إلا إنه يحمل ملامح طراز بناء العصور الوسطى؛ لأن الهندسة المعمارية لا تتغير قط في الجزيرة العربية. كان القصر مبهجًا بأبراجه الأربعة في زواياه، تتخلله فتحات ليست نوافذ، وله باب واحد في زاوية من زوايا السور موصدًا على الدوام. وبداخله يتعرج المدخل، وله فناء صغير تحيط به أسوار عالية، وغرفة قهوة وبضع غرف صغيرة مظلمة كئيبة كالزنازين. في هذا القصر يقيم نائب الحاكم مع ستة جنود شبان من حائل يديرون شؤون البلدة ويقومون بأعمال الحامية وأعمال الشرطة في الجوف. كان الحاكم نفسه غائبًا لوجوده في سكاكة، البلدة الصغيرة الأخرى في منطقة الجوف، وتبعد ٢٠ ميلًا من هنا. كان الحاكم، كما أخبرونا، عبدًا زنجيًّا؛ لكنه شخصية مهمة جدًّا، وصديق شخصي للأمير.

والجوف، بقدر ما استطعنا أن نعلم من محمد، لأننا لا نريد السؤال كثيرًا، كانت في السابق إقطاعية لعائلة الشعلان، مشايخ الرولة[٢]، وإنها لا تزال تدفع خاوة لسطَّام الشعلان شيخ قبيلة الرولة؛ ولكن متعب بن رشيد فتحها

---

(١) متعب بن عبدالله بن علي الرشيد (١٨٢٤ - ١٨٦٩) تولى حكم إمارة حائل خلفًا لأخيه الأمير طلال بن عبدالله الرشيد. لم يحكم طويلًا وقضى على يد أبناء أخيه في شهر رمضان ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٩م.

(٢) استخدمت الكاتبة كلمة إقطاعية (Appange) لتصف طبيعة هذه العلاقة، وهو وصف غير دقيق، لأنه لم يحدث ذلك تاريخيًّا ولم تكن الجوف إقطاعية. والثابت أن الجوف بسبب موقعها وبسبب الحروب الأهلية بين أسواقها وشيوخها قد خضعت لنفوذ بعض قبائل باديتها ودفعت الخاوة لبعضها مقابل الحماية من اعتداءات هذه القبائل نفسها أو اعتداءات قبائل أخرى، وكذلك لضمان عبور مضاربها في حالة تم ذلك. والثابت تاريخيًّا أيضًا أن بعض أحياء البلدة تستقوي بعلاقاتها مع بعض القبائل، وخاصة قبيلة الرولة ومشيختها وقبيلة شمر ومشيختها في حروبها الداخلية. وعليه فالصواب القول بأنها كانت خاضعة لهيمنتهم فذلك هو الواقع.

منذ نحو ٢٠ سنة[١]، وأصبحت منذ ذلك الحين جزءًا من نجد، وقد حدث فيها تمرد مرة أو مرتين، غير أنه أُخمد بعنف، وتخشى الجوف الآن من أن تحرك أصبعًا ضد الأمير. بعد واحدة من هذه الثورات قطع متعب عددًا كبيرًا من أشجار النخيل وترك البلدة في حالة شبه خراب، لذا فهم مجبرون على الانتظار، والاستفادة من الوضع القائم. في الحقيقة لا تستطيع الحكومة أن تكون شديدة القهر وهؤلاء الجنود الستة حتى لو ملكوا أقوى إرادة في العالم لا يمكنهم أن يستبدوا كثيرًا في بلدة ذات أربعة أو خمسة آلاف من السكان. إنهم جميعًا شبان أشداء، نشطون، ومرحون، يخدمون هنا سنة واحدة، ثم يعفون، وهم متطوعون ولا يحصلون على رواتب؛ لكن لهم، كما افترض، بعض ميزات، حينما يكونون قد أدوا خدمتهم، وهم حسب ما يبدو شديدو الولاء للأمير. أخبرونا، أنه منذ أربع سنوات، أرسل حاكم دمشق التركي، حملة عسكرية ضد الجوف (الحملة نفسها التي ذكرت في كاف)[٢]، واحتفظ بها لعدة أشهر، ولكن ابن رشيد احتج إلى السلطان، وهدد بطردهم وعدم استمراره دفع الضريبة المفروضة عليه لوالي المدينة [المنورة] إذا لم تسحب القوات، وهكذا عادوا إلى حيث أتوا. وهذه الضريبة التي يدفعها الأمير إلى الدولة هي عن مناطقه النائية مثل كاف، وتيماء، والجوف، التي حاول الأتراك في عدة مناسبات أن يتدخلوا بها. وهو، على أية حال، مستقل إلى حد كبير عن السلطان، ولا يعترف بالسيادة لأحد. إن عظمة ابن سعود والوهابيين الآن شيء من الماضي، ومحمد بن رشيد هو الحاكم الأقوى في جزيرة العرب حاليًّا[٣].

---

(١) لم يكن متعب الرشيد من فتحها وأخضعها لسيطرة إمارته المباشرة بل أخيه طلال بن عبدالله الرشيد، وكان ذلك سنة ١٨٥٥. انظر تفاصيل ذلك عند بلغريف في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(٢) كان ذلك في سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م، وحول تفاصيل هذه الحملة انظر ما سيرد لاحقًا في رحلة جوليوس أويتنغ. وانظر أيضًا: عبدالرحمن بن أحمد السديري، **الجوف وادي النفاخ** (الجوف: مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، د.ت)، ص. ص. ٥٠-٦٧.

(٣) محمد العبدالله الرشيد(ت. ١٨٩٧) تولى حكم إمارة حائل سنة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م بعد قتله الأمير بندر بن طلال (١٨٦٩-١٨٧٢) وأخوته. عمل على نشر الاستقرار في حدود إمارته وتوسيعها أرضًا ونفوذًا حتى حكم وسط وشمال الجزيرة.

لقد سمعنا تقارير مثيرة عن نجد، على الأقل عن الجزء الشمالي منه إذ يمكن السفر في أي مكان، كما يقولون، من الجوف إلى القصيم دون حماية. كانت الطرق آمنة وقطع الطريق لم يعرف في مسالك بلاد الأمير منذ سنين كثيرة، ومن يفعل ذلك تقطع رؤوسهم. لا يسمح ابن رشيد بمهاجمة المسافرين، وعندما يقوم بحرب فهي ضد أعدائه. إن ابن هذال[(١)] وابن معجل[(٢)] صديقان له، ولكنه ليس على وفاق لا مع سطام الشعلان ولا مع شيوخ السَّبَعة[(٣)]. يوجد في القلعة مدفعان زنة ٢١ رطلًا، إنكليزيا الصنع. وهما قطعتان قديمتان لا قيمة لهما، ولكنها استُعملا كما يبدو، في حصار الجوف بواسطة متعب.

إن الجوفيّين، من عنصر مختلف عن شمر نجد، فهم خليط في أصلهم تقريبًا مثل التدمريين أو القرويين في الفرات. حسين القُلب (el-Kelb)، مضيفنا الأول، أخبرنا أنه ينتمي لطيِّئ، وإن آخرين من جيرانه سرحان، أو بني لام وهو ليس في الحقيقة ابن عم لمحمد؛ لكن ابن عم لابن عم، وأبناء عمه المباشرون يقيمون في بلدة سكاكة. ومع أننا كنا سعيدين جدًّا معه، فلسنا هنا أقل ارتياحًا، وإنه لأمر أكثر إمتاعًا أن نكون في القصر، ودواس، نائب العامل، امرؤ ينتزع الحب، وجميع جنوده متحضرون ومؤدبون للغاية. وكانوا يثيرون البهجة، ويتحدثون معنا بصراحة، في السياسة وفي كل شيء. ويؤكدون لنا أن ابن رشيد سوف يسر لرؤيتنا، ولكن ينبغي أن نرى جوهرًا العامل أولًا. هناك عدد من الأرقاء في الحصن ولا يوجد نساء. كان الجنود يتركون زوجاتهم وراءهم في حائل حينما يذهبون لأداء الخدمة العسكرية.

لا توجد خيول في الجوف، باستثناء مهر عمره سنتان لأحد الجنود. لقد أبدوا إعجابًا شديدًا بفرسنا الشقراء، وذكروا أن لا مثيل لحسنها في نجد. لا يوجد أي نوع من حيوانات الحمل، حتى الحمير، والجمال القليلة الموجودة في البلدة تستخدم لمتح مياه الآبار، وكل ما رأيته من المخلوقات

(١) شيخ عشيرة العمارات من قبيلة عنزة.

(٢) شيخ عشيرة الأشاجعة من قبيلة عنزة.

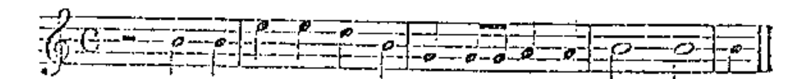
(٣) عشيرة من عشائر قبيلة عنزة.

ذات الأطراف الأربعة عدد قليل من الماعز وثلاث بقرات في القصر يعانين المسغبة.

لا توجد ذرة من الخضرة في نطاق أميال من الجوف، وعلى الجمال وهذه البقرات أن تأكل التبن مقطعًا، وهي لا تقبل أن تأكل التمر.

تألف عشاؤنا اليوم من حمل، وثلاثة أطباق أخرى - أحدها نوع من المعجون يشبه العجينة المستعملة في لصق الورق، وآخر مجرد زبدة زنخة مع بصل مفروم، والثالث ثريد، وكلها غير مستساغة عدا الحمل. وعلى أية حال، فقد كان هناك طبق إضافي أُحضر لنا كمفاجأة قطع من لحم البدن[1]، مشوي في الرماد، وكان من أفضل اللحوم التي تذوقتها.

في المساء رتب لتسليتنا رقص وغناء، اشترك فيه دواس والجنود، ولعبوا نوعًا من رقصة السيف، وكان أحد اللاعبين يدق على طبل، بينما رفع الباقون سيوفهم على أكتافهم وغنوا لحنًا مهيبًا، ورقصوا بمهابة وجلال. ومن وقت لآخر كانت السيوف ترفع ويلوح بها، ثم تنطلق صرخة تشبه إلى حد كبير الصرخات التي تحدث في حلبات الصيد في بلادنا. ومرة أو مرتين كان هناك «هو هوب» مميزة، ومضبوطة في المفتاح الموسيقي الملائم، وبالتفخيم المناسب، كانت أكثر الألحان أخاذة، على طريقة الموسيقى العربية، وجرى أحدها على النحو التالي:



انتهى الاحتفال، وقدم لنا في قدح كبير من عصير الأترج الممزوج بالدبس، وشربت كميات هائلة من هذا السائل المهدئ. ونحن الآن هادئان خارج القلعة الموصدة طوال الليل مستمتعون بحريتنا لنكتب أو نضع رسومًا تخطيطية في ضوء القمر، أشياء لا نجرؤ على القيام بها في أوقات النهار.

---

(١) البدن أو الوعل حيوان بري من أكلة النبات من جنس الماعز الجبلي. كان يكثر في مناطق شمال الجزيرة العربية وخاصة في منطقة الطبيق الجبلية القريبة في جنوب غرب منطقة الجوف.

٧ يناير ١٨٧٩: عاد خلسة هذا الصباح حمدان، دليلنا الشراري، الذي كان قد اختفى، لاستلام أجرته، وكان يخشى، حسب قوله، من في القلعة، ولا يمكنه البقاء معنا.

جاء رسول من سكاكة بدعوة لنا من جوهر، ولهذا فنحن ذاهبون غدًا، ولن نقيم مع جوهر، فليس له منزل خاص به، بل سنقيم مع آل عروق[١]، الذين تم اكتشافهم أخيرًا. أرسل ناصر بن عروج[٢] كبير العائلة عند سماعه بوصولنا، ابنه، حاملًا رسالة تتضمن كل أنواع المجاملات، وإلى بيته سوف تكون وجهتنا. كان الشاب متواضعًا ودمثًا بلا رياء، أمينًا وصريحًا، وإذا كان بإمكان المرء أن يقرأ أي شيء في الوجوه، فبكل وضوح كان شديد التأثر بالشرف الذي ناله بزيارتنا المتوقعة.

قمنا بزيارات عديدة طيلة الصباح، الأولى لمضيفنا السابق حسين، والأقرباء الآخرين، ثم لواحد أو اثنين من وجهاء البلدة. ويقول حسين: إن بيت الحبوب الذي ذكره المستر بلغريف موجود، ولكن أعرق العائلات هي عائلة حسن بن درع[٣]، الذي كان شيخ الجوف في السابق، ولكنه الآن أنزل إلى حالة واحد من رعايا الأمير. وابن درع (يخبرنا محمد) ليس راضيًا عن التغيرات السياسية في الجوف بأية حال، ولكنه يخاف إظهار عدم رضاه، لأن محمد بن رشيد يحتفظ بابنه الأكبر رهينة ليضمن حسن سلوكه. ويقيم هذا

---

(١) تحمل هذه العائلة الكريمة اسم آل عروج في منطقة الجوف، أما في تدمر فالاسم المستخدم هو آل عروق، وعليه سنستخدم اسم آل عروج عندما يأتي الحديث عن أفراد هذه العائلة من أهل الجوف.

(٢) ناصر بن قادر آل عروج، من شخصيات المنطقة المعروفة في تلك المرحلة، وهو شاعر تردد أشعاره التي سجل في بعضها أحداث مرحلته. حول بعض أخباره، انظر: معاشي ذوقان العطية، **حدائق الجوف** (الجوف: خاص، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ص ص. ٥٧- ٦٤.

(٣) كتبته المؤلفة محسن بن درع، وقد أخطأت كثيرًا في رسمها للأسماء فكانت تضيف حروفًا لبعضها فمثلًا سكاكة كتبتها مسكاكا وحسن محسن وهكذا دواليك. لقد كان حسن بن درع، شخصية رئيسة في الجوف وشيخ أكبر أحيائها المسمى باسم عائلته التي قامت بدور رئيس في أحداث تاريخ المنطقة، بلغ من العمر عتيا وقد مات اغتيالًا. ورد اسمه خطأ في الترجمات العربية لبعض فصول هذه الرحلة. حول بعض أخباره، انظر: معاشي ذوقان العطية، المصدر السابق، ص ص. ٨٤- ٨٦.

الشاب في حائل، وهو هناك ليس سجينًا بالمعنى الحرفي، لكنه لا يستطيع أن يعود إلى أهله. أُطعِمنا، وأُكرِمنا في كل المنازل. وكان علينا أن نشرب فناجين لا نهاية لها من القهوة المهيّلة، وأن نأكل ما لا عد له من تمر حلوة الجوف، التي يقولون عنها: إنها الأفضل في جزيرة العرب، وهي ذات نكهة ممتازة؛ لكنها شديدة الحلاوة وشديدة اللزوجة للاستعمال العام. ويكاد أهل الجوف أن يعتمدوا كلية على التمر، ليس على (الحلوة) فقط، وهي ليست بأية حال نوعًا شائعًا. فهنا توجد أصناف أخرى من التمر بكثرة أنواع التفاح في حقول بلادنا، وكل صنف مختلف عن الآخر تمامًا. والنوع المفضل لدينا للأكل الاعتيادي مجعد وفاتح اللون وأكثر دائرية من الحلوة، وفي حين أن هذه لا شكل لها إلا أن لونها أشقر كلون الفرس الشقراء.

إنه لخطأ كبير أن نفترض أن التمر يكون في حالته الأفضل عندما يكون رطبًا، على عكس ذلك، إنه ينضج مع الحفظ. وأحلى الأنواع تحتوي على زيادة في السكر لدرجة أنها حين توضع في طبق مكشوف تتحول إلى دبس يتكون فيه السكر بقطع كبيرة. ولا أشك في أن السكر العادي يمكن تصنيعه منها.

إن طريقة صنع القهوة هنا هي إلى حد كبير الطريقة المعروفة نفسها بين بدو الشمال، باستثناء أنها أكثر إملالًا. فهناك، أولًا، عملية لا متناهية لتنقية حبات البن وفرزها، وهي أصغر حجمًا وأخف لونًا مما يلقى المرء في أوروبا، ثم بعد التحميص، عملية سحن طويلة في الهاون، ولو أن البن لا يسحن ناعمًا قط، ثم غسيل مفرط لآنية القهوة، خمسة أو ستة منها، وأخيرًا الغلي الفعلي، وهو يجرى ثلاث مرات، إن هواوين الجوف أنيقة جدًّا، ومصنوعة من الصخر الرملي الأحمر، الذي هو الصخر الشائع في البلاد، وهي، كما أعتقد، سلعة للتصدير، وإني لأرغب أن آخذ واحدًا منها معي، ولكنها ثقيلة جدًّا، كل واحد منها ربع حمل الناقة. وتصميمها بسيط؛ لكنه أنيق، ولن أندهش لو تبين أنها قديمة جدًّا.

أما صناعة الجوف الوحيدة الأخرى، التي سمعت عنها، فهي أحزمة الخراطيش، والعباءات الصوفية. الأولى رائعة ومطرزة بالفضة، وجميع

الخدم، اشتروا منها، أما الأخيرة فهي مصنوعة من الصوف الذي يجلب من بغداد. اشترى عواد واحدة بست مجيديات ونصف المجيدي.

بعد ذلك ألقينا نظرة على قلعة مارد، البناية الوحيدة من الحجر في الجوف، ويرجع تاريخ تشييدها، كما أعتقد، إلى العصور الوسطى وإنها بالتأكيد ليست كلاسيكية، وليس لها ملمح خاص يجعلها مثيرة للاهتمام. وتبدو أجمل عن بعد. تضع الخريطة القلعة في محاذاة الطريق من الجوف، ولكنها في الحقيقة داخل أسوار البلدة، على الطرف الغربي، وتقف على ارتفاع ألفين قدم فوق سطح البحر.

بينما كنا نجلس في دار ابن درع، شهدنا نموذجًا حيًّا لكيفية عمل حكومة ابن رشيد الأبوية، وأولى مظاهر الوهابية. كان قد رفع الأذان لصلاة الظهر من سطح المسجد القريب، إذ ليس هناك منارة في الجوف، ولم يبد على أي فرد، لبرهة من الزمن، أي ميل لأن يتحرك معتذرين بوجودنا. ثم ابتدأ رجل مسنٌّ ذو ملامح فظة يحاضر الأصغرين ويطلب منهم النهوض والذهاب إلى الصلاة، وعندما لم يجد لأمره صدًى، ضرب لهم المثل في النهاية. ومع ذلك ظلت المجموعة الرئيسة من الضيوف ساكنة إلى أن نهض فجأة الجنديان الشابان اللذان جاءا معنا وأخذا يصرخان «قم(انهض)، قم»، ملوحين بسيفيهما على البقية وساقوهم جميعًا إلى المسجد عدا مضيفنا الذي كان مرعوبًا من الإهانة. ومن الواضح جدًّا أن التديّن ضعيف هنا، وباستثناء ذلك الرجل المسن، لم يبدِ أحدُ اهتمامًا بالصلاة، والجنديان بعد أن أديا واجبهما في دفع الآخرين إلى المسجد عادا دون أدائها. إن التجسيد المادي للدين لا يبدو طبيعيًّا بين العرب.

٨ يناير ١٨٧٩ : صباح غائم، وضباب متراكم، وزخة مطر. ودعنا دواس وجنوده. وظهر أنهم كانوا آسفين حقًّا لفراقنا. إنهم أناس ذوو مزاج حسن وأمناء بشكل غير عادي، وقد عاملونا بلطف بالغ. كانت آخر التفاتة من دواس نحوي هدية من الأترج[١] كبيرة في حجم جوزة هند كبيرة. والأترج ليمون حامض

---

(١) وهو ما يسمى بالأترنج، اسمه العلمي (Citrus medica)! وهو من الحمضيات.

وليس حلوًا، وله قشرة كثيرة الزغب سمكها بوصة، وحلاوة تكفي لأن تؤكل ولو أنها كثيرة الزغب.

تقع سكاكة، حيث وصلنا اليوم، على مسافة ٢٠ ميلًا تقريبًا من الجوف. يوجد طريق مطروق كثيرًا بين المحلتين. كنا جماعة كبيرة العدد نسبيًّا، لأن عددًا من الجوفيين جاؤوا معنا للمرافقة، وكان معنا عريبي بن عروج، ابن ناصر بن عروج، وعروج آخر، ابن عم له، ورجل آخر حامل لبندقيته، كان في طريقه معنا إلى حائل. كان الجمع، ما عدانا، راجلًا؛ لأن الجوفيين ليس عندهم وسائل ركوب من خيل أو إبل ولا حتى حمير. وكان مع أحد الرجال مصادفة بيضة نعام مدلاة في شبكة من نوع ما، وتستعمل كقلة لحفظ الماء، وقد ذكر أن النعام موجود في النفود القريب من هنا. كان المنظر على طول الطريق رائعًا، وأحيانًا يستحق التصوير. عبرنا أولًا حوض الجوف إلى الناحية الأخرى، وقد مررنا بعدد من الحقول البور، السطح مجدب تمامًا، وأدناه مغطى بالملح. إن هذا الانخفاض بكامله ليس إلا ميلًا واحدًا عرضًا. ثم فجأة ارتفع طريقنا مئة قدم فوق ضلع من الرمل، ثم مرة أخرى مئة وستين قدمًا فوق سلسلة صخرية، منحدرين مرة أخرى لنعبر سبخة ذات حاشية من شجر الطرفاء كان في حالة إزهار، ثم بقع من حصباء ناعمة من الصخور الحديدية لا يمكن تمييزها عن فضلات الأغنام.

وعلى بعد ساعتين من الجوف يوجد تجويف مائي يسميه الجوفيون العين، والماء على انخفاض نحو ٨ أقدام تحت سطح الأرض. وفي الأودية التي سال فيها المطر الذي قد هطل منذ شهر تقريبًا، وجدت نباتات بصلية زاهية ذات زهور زعفرانية تضفي على المكان مظهرًا غير حقيقي للخصوبة. وفي أماكن أخرى أحجار عجيبة من الصخر الرملي الوردي مكللة بالحديد. وعلى مسافة، ناحية الشمال، كانت تشمخ عدد من الكتل الجبلية يلفت النظر منها سلسلة جبال الحماميات. وهذه يمكن أن تكون أعلى من الجوف بألف قدم. وبعيدًا خلفها، إلى الشمال الشرقي، وإلى الشرق جرى خط الأفق مستويًا على ارتفاع متساوٍ، حتى هضبة الحماد، لأن كل الجهة التي كنا نقطعها، هي في

نطاق بحر قديم، من المحتم أنه شمل كما نفترض، وادي السرحان، والجوف، وسكاكة.

وعلى إحدى الصخور لاحظت نقشًا، أو بالأحرى صور جمال وخيول محفورة على وجه مسطح عرضه نحو خمسة أقدام، ولم نستطع، على أية حال، في مثل ظروفنا أن ننقشه نسخًا.

إن سكاكة، وهي ليست مقر حكومة جوهر، بلدة أكبر من الجوف إذ فيها سبع مئة بيت، كما يقولون، وبساتين للنخيل على الأقل ضعف ما في الأخرى. ومركز البلدتين يكاد يكون واحدًا، تجويف عريض محاط بحروف من الصخور الرملية، ولكن حوض سكاكة أقل انتظامًا، وتنتصب فيه تلال رملية وتلال نائية من الصخور. وسكاكة مثل الجوف فيها قلعة قديمة، تشمخ أعلى مرتفع علوه نحو مئة قدم، يُشرف على البلدة، المقامة بطريقة غير هندسية وبلا سور متصل يحوط بساتينها. وكان هناك عدد كبير من البساتين والدور المنفصلة عن بعضها وكانت عامرة وليست خربة كتلك الموجودة بالجوف إثر الحروب الأخيرة. كل هذه البساتين والدور ذات منظر مزدهر، ولا يوجد فدان واحد يمكن ريه ولم يُزرع. كل شيء مرتب ونظيف، الأسوار جديدة الشرفات، وكل منزل منسق وكأنه حديث البناء. والحقول المربعة الشكل المزروعة بالشعير مسيجة بأسيجة مصنوعة من أغصان النخيل المجدولة، والشوارع والأزقة منظمة بشكل دقيق. سرنا عبر هذه الشوارع والأزقة دون توقف لما يقارب ميلين وصلنا بعدها إلى بستان ناصر.

نحن الآن في قلب عائلة ابن عروج، وهي بعد كل شيء ليست أسطورة بل واقع مضياف، فقد استقبلونا بسواعد مفتوحة، وكأنهم ينتظروننا كل يوم على مدى المئة سنة الأخيرة. إنهم يعرفون نسب محمد وملحمة ابن عروج أكثر مما يعرف هو نفسه، لذلك يمكننا الآن على الأقل أن نشعر أن رحلتنا لم تكن عبثًا قط حتى لو لم تسمح الظروف لنا بالرحيل أبعد من هذا المكان.

أقمنا ثلاثة أيام مع ناصر وأولاده وزوجاتهم وأولادهم في منزلهم الريفي الهادئ. وكانت استراحة نحن في أمس الحاجة لها، وأثبتت أنها تجربة مثيرة

وفرصة ممتازة للتعلم أكثر عن الحياة العربية الاجتماعية، أكثر مما علمناه في رحلاتنا السابقة. . . . .»[1].

بينما كانت الترتيبات العائلية تجري بشأن زواج محمد، كان بين أيدينا أيضًا أمر أكثر أهمية يتعلق بنا، وهو ضمان موافقة جوهر على رحلتنا إلى حائل. كان أول ما ينبغي عمله نسج علاقة صداقة مع جوهر؛ لأن كل شيء في هذه البلاد الاستبدادية يعتمد على حسن نيته ورضاه، وإذا اختار أن يعيدنا إلى كاف عند وادي السرحان فلا أعلم إن كنا قادرين على أن نُبدي أية مقاومة. الجوف ليست مكانًا يسهل الخروج منه، إنها تبعد أكثر من ثلاث مئة ميل عن أقرب نقطة على الفرات، وبدون تصريح من الحاكم لا يجرؤ أحد على أن يسافر معنا ميلًا واحدًا. لذلك، في اليوم التالي لوصولنا سكاكة زرنا جوهرًا المتطلع إلى زيارتنا مسبقًا، وقد استقبلنا استقبالًا رسميًّا.

كان جوهر أسود اللون أفريقي الملامح، طويلًا وسمينًا ومختالًا، ارتدى أفخر الثياب لاستقبالنا، جببًا حريرية زاهية، واحدة فوق الأخرى، وسراويل بزرقة السماء - أشياء لم نعهدها في بلاد العرب - وعباءة سوداء مذهبة وكوفية أرجوانية. كان ثوبه متصلبًا، بسبب النشا، يخشخش عند الحركة، وكان يحمل سيفًا ذهبيًّا رائعًا. بدا بشكل عام، حاكمًا مستبدًا، يتمنى المرء مشاهدته. كان علينا انتظاره عشر دقائق تقريبًا في القهوة ليزيد، كما افترض، من أهميته، ثم دخل خلف كوكبة من الرجال المسلحين بسيوف بمقابض فضية، وأحزمة مرصعة بالفضة، وكوفيات زرقاء وحمراء، مثبتة بعُقُلٍ بيضاء كبيرة. تصنّع جوهر إضفاء جو من الأنس، باهت نوعًا ما، لشخصية ملكية، وكان يتنقل من موضوع إلى آخر في حديثه دون مقدمات، وأحيانًا يطلب تفسيرًا لملاحظاتنا أو أسئلتنا من شخص أو آخر من الحاضرين. ولقد أدهشني أن أشاهد هذا الزنجي، وهو ما زال

---

(١) أوردت الليدي بلنت بشيء من التفصيل وبعدة صفحات، تفاصيل كثيرة عن الحياة في بيت مضيفهم، وعن كيفية وتفاصيل خطبة إحدى بنات العائلة إلى مرافقهم محمد بن عروق. ونظرًا لكونها تحتل حيز عدد من الصفحات ولا تضيف جديدًا لنصنا فقد آثرنا عدم إضافتها. يمكن الرجوع إليها في الترجمات العربية الأخرى للكتاب وقد سبقت الإشارة إليها.

مملوكًا، مركزًا لمجموعة متملقة من رجال الحاشية البيض، ولهؤلاء العرب، وكثير منهم أصائل بالدم، ينحنون أمامه، ومستعدين عند أدنى إشارة من طرف عينه إجابة أمره والضحك لأتفه طرفة منه. بعد لحظات صمت مهيب، أصبح جوهر، كما قلت، ودودًا، وبدأ يسأل عن الأخبار. لقد قدمنا من الشمال، وكنا قادرين على أن نخبره بكل شيء عن الحرب. ماذا كان يفعل سطام الشعلان، وماذا كان يفعل ابن سميّر، الذي من الواضح أنه بطل بالنسبة للجوفيين، أو لنكن دقيقين لأهل حائل، لأنه صديقهم وعدو عدوهم سطام الشعلان. كنا سعداء لأننا كنا قادرين على أن نقول إننا رأينا ابن سُمَير في دمشق منذ مدة لا تبلغ الشهر. أخبرنا جوهر بالمقابل عن تقرير حمله مؤخرًا إلى سكاكة بعض الصَّلبَ يفيد أن الشيخ محمد الدوخي قد هزم قبيلة الرولة، وأن سطامًا قد خر صريعًا – خبر أسفنا لسماعه. ثم سألنا، ولكن بنغمة تعبر عن اهتمام أقل، عن السلطان. فأخبرناه أن السلطان عقد صلحًا مع المسكوف (الروس)[1]. كان جوهر مسرورًا لسماع ذلك قائلًا: «الصلح خير! والآن إن شاء اللّه السلطان مبسوطين»، وجاء قوله بلغة عاطفية مصطنعة، وبرنين أغن في الصوت، كان مضحكًا إلى حد كبير. عندئذٍ دار حديث هامس سريع بين محمد وأحد رجال الحاشية، انتهى بخروجهما معًا، لتسليم هدايانا لجوهر.

أظن أن محمدًا قد سُئل عنا وحول أهداف رحلتنا، وأجاب، حسب اتفاقنا المسبق، بأننا ذاهبون إلى البصرة لملاقاة أصدقاء، وقد جئنا عن طريق الجوف حتى نتجنب الرحلة البحرية. كان هذا نصف الحقيقة. كان حقًّا بالنسبة لما حدث، وقد كان هذا التبرير مقبول لدى كل من سمعه. وأضاف محمد، أنه وقد وصلنا إلى المناطق الخاضعة لسلطة الأمير، فإن البيك الإنجليزي كان حريصًا على أن يقدم واجب الاحترام لابن رشيد في حائل قبل أن يذهب في طريقه بعيدًا، وطلب من جوهر أن يقدم لنا الأدلاء اللازمين. بعد نقاش وتردد

(١) صلح معروف باسم اتفاقية سان ستيفانو الموقعة بتاريخ ٣١مارس ١٨٧٨ بين روسيا والدولة العثمانية لإنهاء حرب ١٨٧٧- ١٨٧٨ بينهما، وخسرت فيها الدولة العثمانية عددًا من مناطقها في البلقان وفي القوقاز.

اقتنع الحاكم بذلك. لقد رق قلبه بفعل الثياب الجميلة التي قدمناها له، وأعتقد أن هدية نقدية صغيرة جرى حديث في أمرها بينه وبين محمد.

عندما تم استدعاؤنا ثانية إلى مجلس جوهر فوق سطح المنزل هذه المرة، وجدنا الزنجي منشرحًا، وأن أمر رحلتنا قد حسم. مُدت البسط، وجلسنا جميعًا، وتناولنا طعام الإفطار، لحمًا مسلوقًا ورزًا، ومرقًا لاذعًا يضاف إلى الرز، وبعد الأكل وغسل اليدين، و- الحمد لله - انسحبنا بسرور لنتخلص من الذباب والشمس الحارة في سطح جوهر. لم يكن امتناننا قليلًا لتحول الأمور لصالحنا، وكما أشار ويلفرد، عندما استوينا على صهوات أفراسنا عائدين إلى المنزل، إن جوهرًا صورة لمستبد متقلب الأطوار يمكنه إذا كان مزاجه متكدرًا أن يأمر بقطع رؤوسنا باحتفال أكبر من احتفاله بإصدار أمر بإعداد طعام الإفطار. لقد كان آخر أيامنا في سكاكة يومًا هادئًا.

١١ يناير ١٨٧٩ : كان الضباب يكسو الأجواء كل صباح منذ قدومنا هنا، واليوم السبت هطل مطر غزير، مصحوب برعد وبرق، وكما أعتقد، فإن الحال هو دائمًا هكذا في هذا الجزء من العالم. لقد اندهشت جدًّا عندما علمت، عند الحديث عن البرق، أنه لا أحد في سكاكة سمع عن مقتل أحد بسببه، ومحمد يؤكد ذلك القول ويؤكد أن الوضع نفسه في تدمر. بدا محمد مندهشًا عندما سألته عما إذا كان يرى خطرًا في البرق؟ فأجاب : لم يسبق إطلاقًا أن تسبب البرق بأية حوادث في الصحراء. إن هذا لأمر غريب. ولأن التربة في سكاكة تكاد تكون رملًا نقيًّا، فإن المطر ينفذ من خلاله بالسرعة التي يسقط بها ولا يبقى منه إلا القليل في تجاويف قليلة فيها نوع من الرواسب الصلدة التي تحتفظ بالماء.

تحسن الطقس بعد الظهر، فقمنا بجولة استطلاعية قصيرة إلى قمة الجبل المنخفض القريب من مزرعة ناصر. يتكون هذا المرتفع من صخر رملي، ذي لون برتقالي عند قاعدته؛ لكن عوامل التعرية حولت لون طبقته العليا إلى اللون الأسود، وارتفاعه لا يزيد على مئة قدم، وينتصب وحيدًا، ويشرف على مشهد جميل جدًّا وغريب ككل المشاهد في منطقة الجوف. في الأرض المقابلة

الواقعة تحته تقوم مزرعة ناصر، وهي عبارة قطعة أرض مربعة محاطة بسياج تصل مساحتها إلى ثلاثة أو أربعة فدادين، وفيها نخيله وأثله، ومنزليه الواطئين المبنيين باللبن، وآباره، وكان كل ما فيها يبدو منسقًا ومنظمًا وكثير الخيرات. وما وراء ذلك ناحية الغرب، يشاهد الناظر ثلاثة حقول أخرى عبارة عن بقع من الخضرة العميقة في برية غير مستوية من الرمال والصخور الرملية، وخلفها سكاكة، التي لا يُرى منها غير أطراف قمم نخيلها، والكتلة السوداء للقلعة الشامخة فوقها في معلم رائع. وامتد الخط الطويل لحقول النخيل إلى الجنوب، وكانت هذه البساتين مختبئة في النهاية خلف سلسلة غير منتظمة من التلال الرملية. جذبت هذه التلال بصفة خاصة انتباهنا؛ لأنها حدَّدَت معالم بداية النفود، ليس النفود الكبير، بل مجموعة من الكثبان المنعزلة، التي نما فيها شجر الغَضَا، وطريقنا، كما علمنا، سوف تكون عبرها، وغدًا ستكون مغادرتنا.

بينما كنت جالسة أعد رسمًا تخطيطيًّا لهذا المنظر الغريب، عاد ويلفرد الذي كان قد تسلق إلى قمة صخرة عالية، تتوج المرتفع - عاد ليخبرني أنه اكتشف نقشًا. لقد كنا نبحث، منذ وصولنا عن آثار لكتابات قديمة؛ لكننا إلى الآن لم نجد شيئًا إلا بعض خدوش مشكوك فيها، وقليل منها عبارة عن رسوم بسيطة يجدها المرء أينما كان في الصخور الرملية، تمثل جمالًا وغزلانًا. وهنا، على أية حال، كانت ثلاثة أحرف واضحة التكوين Q H II، اثنان منهما ينتميان إلى الأبجدية اليونانية. وكان واضحًا من نوع النقش أنها قديمة الوجود، وعلى هذا بنينا عددًا من الافتراضات التاريخية تتعلق بسكاكة وحالتها في العصور الكلاسيكية.

وعندما عدنا إلى المنزل، وجدنا أن محمدًا قد وضع مع جوهر ترتيبات رحلتنا. لقد أثار الرجل اعتراضًا في أمر واحد؛ لكن قطعة ذهبية كانت كفيلة بسحب اعتراضه، وقد وافق الآن على أن يرسل معنا دليلًا محترفًا لعبور صحراء النفود. كما يبدو هناك طريقان لاجتياز النفود إلى حائل، أحدهما يُقطع في ثلاثة عشر يومًا، والآخر في عشرة أيام. ويقولون إن الأول أفضل بالنسبة للرحال

المحملة، لأن الرمل أقل عمقًا؛ لكننا نرجح اختيار الطريق الأطول ليس من أجل أن نرى النفود في جزئه الأسوأ فحسب، بل لأن النفود كان حلمنا طيلة هذه الرحلة، إنها صحراء ليس هناك ما يفوقها في العالم. لقد سمعنا هنا عنها معلومات عجيبة، وعن أناس ممن فقدوا فيها. أما الطريق الأقصر البالغة مسافته ما يقارب مئتي ميل فلا عليه إلا موردان للماء، الأول على مسافة يومين، والآخر على مسافة ثمانية أيام.

سوف يحضر الدليل راحلته، وسيحمل قربتين من الماء، وقد اشترينا نحن أربعًا أخرى، ليصبح المجموع ٨ قرب. وهذه سوف تكفي أفراسنا وتكفينا، وعلينا أن نكون حريصين. حملنا أيضًا كميات كافية من التمر والخبز وجدْي. يصعب الحصول على أي نوع من المؤونة في سكاكة. تمكّن جوهر باستخدام سلطته، على الطريقة التركية، أن يحصل لنا على حمولة جمل من الحنطة.

كف المطر، وسطع القمر، وأزف الرحيل، وفي بضع ساعات سوف نكون في طريقنا. سنحتاج كل قدراتنا للعشرة أيام القادمة.

١٢ يناير ١٨٧٩ : غادرنا هذا الصباح كثيف الضباب مزرعة مضيفنا وسط بركات آل عروج الذين عاملونا بلطف، وكنا آسفين لوداعهم وخاصة تركي وعريبي، رغم بعض خيبة أمل أصابت توقعاتنا من هذه العائلة بصفة عامة. فهي على الرغم من أصل محتدها وتقاليدها النجدية كان فيها نقائص الحضر عندما يكون الأمر متعلقًا بالمال إذ[توقع كل منهم أن يحصل على هدية صغيرة نقدية أو عينية].

على أية حال ودعنا الجميع، وسرنا باتجاه الجنوب فوق تلال رملية كنا قد رأيناها أمس وهي الآن تحجب سكاكة وبساتينها عنا. نحن الآن المجموعة المسافرة فقط وعددها ثمانية أفراد بمن فيهم راضي دليلنا الجديد، ويمكن القول إننا في طريقنا إلى حائل. هذه التلال الرملية(الطعوس) ليست النفود نفسها وما هي إلا ظواهر صحراوية يشاهدها المرء في أي صحراء كالصحراء الكبرى مثلًا أو في أجزاء من صحراء سيناء. منظرها صورة رائعة، تتكون من

رمل أبيض نقي وبين ٥٠-١٠٠ قدم ارتفاعًا، يتخللها فراغات صلبة التربة، ومغطاة بالخضرة. ينمو نبات الغضا هنا بشكل أشجار بجذوع رقيقة كثيرة العقد، بيضاء تقريبًا وأوراقها خفيفة رمادية.

قابلنا عددًا من رعاة البلدة مع قطعانهم وجماعات من نسائهم الحاطبات، وقد أمتعنا محمد هذا الصباح بحديثه الساذج معهن[حول ما إذا كنا من سكاكة، وما إذا كنا يعرفن عائلة ابن عروج وبناتها، ليصل إلى السؤال عن خطيبته وأختها وصفات كلٍّ منهما].

بعد أن قطعنا مسافة ثمانية أميال عبر هذه السلسلة من الكثبان الرملية خرجنا فجأة إلى قرية قارة، آخر قرية سوف نراها لعدة أيام. وهي قرية تشرف عليها رابية صخرية في قمتها بعض الآثار، وفيها سبعون أو ثمانون دارًا؛ وبساتين النخيل المحيطة بها رائعة جدًّا لنخلها وأثلها.

انقشع الضباب وأدفئت الشمس الأرض بما يسمح لنا بالاستمتاع قليلًا بالجلوس تحت السور الطيني المحيط بالواحة. جاء إلينا عدد من القرويين ودار معهم حديث قصير حول قارة وشيخها بينما كانت أفراسنا تورد إلى بئر قريبة. ذكر لنا هؤلاء القرويون إننا سوف نجد مخيمًا للرولة قريبًا من طريقنا، فإبل أهل هذا المخيم كانت قد استقت من البئر نفسه. كانت قارة مثلها مثل الجوف(دومة الجندل) وسكاكة خاضعة لسيطرة ابن شعلان، وما زالوا يدفعون خاوة لسطام، لكنهم في المقابل يحصلون من البدو على ثمن للماء الذي يستعملونه. لا خطر علينا من غزوات الرولة أو غيرهم؛ لأننا الآن في ديار ابن رشيد حيث لا تسامح مع قطع الطريق. كان قرويو قارة كرماء جدًّا في عروض استضافتهم لو قررنا البقاء في بلدتهم؛ لكن لم يكن هناك ما يدعو للتأخير فواصلنا رحيلنا. في قارة، كما في الجوف وسكاكة، قلعة خربة فوق تل منخفض إلا أن أطلالها ليست أكثر من أساسات جدران صخرية قديمة مشيّدة بلا ملاط.

وقفنا، بعد مغادرة القرية بقليل، بجماعة من قبيلة الرولة معها مئات الإبل الموردة للسقيا في قارة؛ كان الجمع أعزل يطوي الأرض بسلام. أفادونا أن مخيمهم بعيد جدًّا عن مسارنا، وإنه من غير الممكن بلوغه الليلة

وإننا سوف نجد بنية ابن شعلان، ابن عم سطّام قريبًا من بئر الشقيق موردنا نهار الغد. إن وجود جماعات من القرويين، كما وجدنا، في الكثبان الرملية على مسافة أميال من قارة وحولهم كل هؤلاء البدو خير دليل على أمن هذه البلاد. ويبدو حقًّا سيادة القانون والنظام في حكومة ابن رشيد. بعد مسيرة ساعتين أخريين ونصف الساعة في أرض وعرة، وصلنا أخيرًا إلى مرتفع شديد الانحدار يُظهر، بعد أن صعدناه، أنه نهاية أقصى طرف لحوض سكاكة، وبعده وجدنا أنفسنا في سهل حصباوي. كان المنظر خلفنا، من عند هذا الطرف مثيرًا، وأعطانا في الحال فكرة عن جغرافية المنطقة بأكملها، عن حوض سكاكة تلاله وطعوسه، وعن سلسلة جبال الحماميات أيضًا، وكلها عبارة عن جزر في هذا الحوض الذي يبدو أنه يشمل الجوف والقرى شرقه. وقد تيقن ويلفرد الآن أن سكاكة والجوف ما هما حقًّا إلا الذيل كما هما عليه بالنسبة لوادي السرحان، أو على الأصح رأسه، لأن الشكل الكامل لا بد أن يكون مقاربًا لشكل شرغوف[1]، وهذه النقطة هي أنفه.

إن هذا السهل الذي كنا الآن فيه مرتفع عن قارة وسكاكة ٣٥٠ قدمًا، أو ٢٢٢٠ قدمًا فوق سطح البحر. وهو سهل ممتد جنوبًا حتى خط الأفق، وهو مستوٍ تمامًا ومقفر لا نبت فيه تغطي تربته الحصباء، ولا يشبه شيئًا فيما هو أسفله في المنخفض. كانت دهشتنا كبيرة لوجود هذا السهل المفتوح أمامنا، لأننا لم نكن نتوقع إلا الرمال، وهي غير بعيدة من هنا وإن لم نرها بعد. وهذا السهل لم يكن إلا كما كان شاطئًا للنفود الكبير.

عند الساعة الثالثة والنصف مساءً، ظهر في الأفق أمامنا خط أحمر متصل وممتد شرقًا وغربًا، يرتفع ويزيد كلما اقتربنا منه، وقد حسبناه سرابًا، لكننا وجدنا باقترابنا أكثر منه أنه عبارة عن كتل متقطعة من الرمال التي لولا لونها الأحمر لكانت كبحر هائج يشاهد من الشاطئ، لأنها كانت ترتفع بالشكل الذي ترتفع به مياه البحر حينما تكون أمواجه عالية، وفوق مستوى سطح الأرض. صرخ أحد رفاقنا بدهشة قائلًا: «النفود»، وبرغم ترددنا لبرهة لقبول ذلك،

---

(١) صغير الضفدع.

سرعان ما صدقناه. ما أدهشنا حقيقة هو لونها المكون من لون الراوند والمغنيزيوم، وهي لا تشبه أيًّا من الرمال التي رأيناها حتى الآن، ولا ما كنا نتوقعه عنها، ومع ذلك كان النفود هو الصحراء الحمراء الكبرى لوسط الجزيرة العربية. خببنا إليها وفي بضع دقائق كانت حوافر أفراسنا تقف في أولى موجاتها.

١٣ يناير ١٨٧٩ : قضينا نهارنا في صحراء النفود التي فاقت ما افترضناه بإثارتها وسحرها، وهي لا تشبه وصف السيد بلغريف المرعب. نعم هو اجتازها صيفًا ونحن الآن في منتصف الشتاء، لكن المعالم الطبيعية فيها لا تتغير بتغير الفصول، ولا أفهم لماذا تجاوز عن خصائصها الرئيسة. إن أول ما يستوقف المرء في صحراء النفود هو لونها. فهي ليست بيضاء كالطعوس(الكثبان الرملية) التي اجتزناها في الأمس، ولا هي صفراء كما هي الرمال في أجزاء من الصحراء المصرية، لكن رمالها حمراء زاهية، وأقرب في الصباح للون القرمزي حينما تكون الرمال رطبة بفعل الندى. وهذه الرمال خشنة إلى حد ما، لكنها نقية لا مادة دخيلة فيها من حصباء أو حصى أو تربة، ولونها وتركيبها هما نفساهما في كل مكان منها. وإنه لخطأ كبير افتراض جدب هذه الصحراء. فالنفود أحسن نبتًا وأغنى مرعى من أي جزء من الصحراء التي اجتزناها منذ غادرنا دمشق. وهي مكسوة بأجمات من أشجار الغضا والأرطى[(١)]، التي تشبه شجرة عنب معرّشة في هذا الوقت من السنة لأنها لا تكون مورقة. ففروعها الطويلة المتشابكة وجذعها القوي يعطيها مظهر تلك الشجرة، وهناك قصة حول كونها في الأصل شجرة كرم. وقد روى دليلنا راضي القصة قائلًا، جاء رسول الله ﷺ ذات يوم إلى مكان كرم ووجد فيه فلاحين يقومون بتقليمه. ولما سألهم عن الشجرة وعما كانوا يعملون، وخوفًا

---

(١) اسمها العلمي (Calligonum comosum). وهي نبتة معمرة كبيرة وكثيرة التفرع ترتفع ١٥٠سم، السيقان صاعدة وقائمة متعددة الاتجاهات. لون السيقان الصغيرة أخضر والكبيرة أبيض والغليظة القديمة بنية مشققة القلف، أوراقها صغيرة سريعة التساقط. انتشارها واسع على الكثبان الرملية في صحراء النفود، تستخدم كوقود. انظر: **النباتات البرية في مراعي شمال المملكة العربية السعودية**، مصدر سابق، ص. ٢٠٨.

من غضبه أو سخرية منه ردوا بأنها أشجار أرطى، وكان اسم الأرطى أول ما بدر إلى خيالهم. فرد النبي «أرطى إن شاء الله، إذًا فلتكن أرطى»، ومنذ ذلك اليوم أصبحت شجرة الكرم أرطى. بالإضافة إلى الأرطى تنبت أنواع أخرى من كلأ الإبل، الجديد منها علينا يسمى عاذر[١]، ويذكرون أن الأغنام يمكنها أن تستغني عن الماء لمدة شهر إذا ما كانت تعتمد عليه في مرعاها. وقد سرت الأفراس والإبل بما وجدته من عشب، وسعدنا نحن بوفرة الحطب لحاجة مخيمنا. يقول ويلفرد أن طبيعة صحراء النفود كشفت له أخيرًا عن سر تربية الخيل في وسط الجزيرة العربية. ففي الصحراء المقفرة لا يوجد ما يقيم أود الحصان، لكن الأمر هنا مختلف فالمرعى وافر؛ إن طبيعة هذه الصحراء تفسر كل شيء. فبدلًا من كونها موحشة حسب وصف العدد المحدود من الرحالة الذين خبروها، هي في حقيقة الأمر موطن البدو معظم أيام السنة. ولا ينقصها إلا وجود الماء إذ لا وجود فيها إلا لبضعة موارد؛ جميعها واقعة في أطرافها، وهي مأهولة بكثافة. ويخبرنا راضي أنه في فصل الربيع وعند اخضرار العشب بعد نزول الغيث، لا يهتم البدو كثيرًا بأمر الماء ففي ضروع مغاتيرهم البديل، ويترحلون لأسابيع متوغلين داخل هذه الصحراء الرملية دون حاجة للماء.

كنا طوال يومنا نسير الهوينى عبر النفود، وقد أشغلنا أنفسنا بدراسة خصائصها الطبيعية. بدت لنا هذه الصحراء، لأول نظرة، غير منتظمة التشكّل، مرتفع رملي هنا ومنخفض هناك، امتدادات من الكثبان والكثبان المتداخلة، وعقد من الآكام، وكلها لا ناظم لها، لكن بعد مسير بضع ساعات بدأنا نكتشف حالة انتظام أو اتساق في وسط هذه الفوضى التي كنا مشغولين بمحاولة تفسيرها. إن أكثر خصائص النفود إثارة ظاهرة الفلوق، كما سماها راضي، وهي عبارة عن منخفضات لها شكل حافر الحصان تنتشر في كل مكان. وهي مع تفاوتها بالاتساع من فدان إلى مئتي فدان إلا أنها تتماثل

---

(١) اسمه العلمي (Artemisia Monosperma). وهو نبت معمر، شجيري أخضر أجرد، عطري قليلًا، يتسع انتشاره على التربة الرملية وفي الأودية وعلى الكثبان الرملية. نموه الخضري ربيعي وصيفي، رعوي ضعيف للإبل. المصدر السابق، ص. ٨٠.

شكلًا واتجاهًا. إنها تشبه إلى حد التطابق حافر حصان دون حذوة، بمعنى أن مقدمة الحافر مقطوعة بشكل عمودي حاد، بينما حافة الحافر تستدق تدريجيًّا إلى أن تنتهي عند الكعب إلى لا شيء، ويمثل النَّسْر في باطن الحافر تقريبًا الأرض غير المستوية في وسط الفلق المتكونة من مجاري سيول متداخلة. لا بد أن قطر بعض هذه الفلوق يصل إلى ربع ميل، أما أعمقها فيبلغ من العمق، حسب قياسنا، ٢٣٠ قدمًا، وذلك يجعلها تقريبًا في مستوى السهل الحصباوي الذي اجتزناه بالأمس، والذي دون شك، ممتد تحت الرمال. وما يؤكد هذه الاحتمالية وجود أجزاء أرض صلبة في قاع أعمق فلق، وفي فلوق أخرى. وكان عمق أعمق ثاني فلق قمنا بقياسه مئة وأربعين قدمًا وكان رمليًّا عند أخفض نقطة فيه، بمعنى تحت نقطة نسر الحافر فقط. ومع أن هذه الفلوق بجوانبها وأجزائها كافة هي من الرمل الصافي، وأن سطحها المباشر معرض دومًا للتغيّر، فإن من البيّن أنه في شكلها العام تبقى دون تغيير لسنوات إن لم يكن لقرون. ويثبت وجود النبات ذلك؛ لأنه ليس نبت الأمس، وهو يغطي الفلوق كما يغطي بقية أجزاء هذه الصحراء. ويؤكد دليلنا الذي اعتاد عبور النفود ذهابًا إيابًا لمدة أربعين سنة أنها لم تتغير. لم يحدث أن ملأ الرمل بطونها أو ذهب بقممها. إنه يعرفها جميعًا منذ صباه، ويقول: «هكذا خلقها الله». كان ويلفرد يبحث في هذه الظاهرة من خلال نظرية طبيعية تفسر تشكلها، لكنه لم يتمكن من حسم ما إذا كانت بفعل الريح أو الماء، أو لعدم استواء الأرض الصلبة تحتها. إنه يميل الآن إلى نظرية الماء. وقد يكون باستطاعتنا الحديث أكثر حول هذا الموضوع لاحقًا بعد أن نكون قد رأينا المزيد منها. كان مسيرنا طوال اليوم على وقع خطى رواحلنا التي كانت أخفافها تغوص بالرمل حتى الرسغ، وحان الوقت لنعتني برفيقنا حنا الذي كان مشغولًا بإعداد طعامنا. كان مستوى ارتفاع موقع مخيمنا ٢٤٤٠ قدمًا؛ لكن أعلى مستوى ارتفاع كنا قد اجتزناه خلال اليوم كان ٢٥٦٠ قدمًا. لم نلتق بأحدٍ طوال اليوم سوى رويلي على ظهر ذلول أفادنا بأن مخيمًا كان عن يسارنا، فتشوفناه ولم نر سوى قطيع إبل على مسافة بعيدة.

١٤ يناير ١٨٧٩: صباح مشرق صحو مع ريح جنوبية شرقية باردة. لا شيء أكثر إشراقًا وروعة من شمس الشتاء المنعكسة من هذه الرمال الحمراء. عاد موضوع ظاهرة الفلوق ثانية للاستحواذ على اهتمامنا. وقد وجدنا أنها جميعًا تنحو إلى الاتجاه نفسه، أو تقريبًا كذلك، بمعنى، أن اتجاه مقدمة حافر الحصان هي نحو الغرب، مع أن الجزء الأشد انحدارًا من منحدراتها يختلف اتجاهه قليلًا، أحيانًا تكون انحدارات الجانب الجنوبي، وأحيانًا تكون انحدارات الجانب الشمالي أكثر شدة من انحدارات الجانب الشرقي المقابل. كل هذا قد يشير إلى أن الريح وليس الماء هو المشكّل لهذه المنخفضات. وعند حافة الفلوق الكبيرة توجد بصفة عامة رابية رملية تأخذ شكلًا طوليًّا وطعس(تل رملي) تشبه رأس جبل جليدي، وبكل وضوح هي من فعل الريح، إذ إن الجانب المحجوب من الريح يكون شديد الانحدار والجانب المواجه له يكون دائريًّا. وهذه تتغير بتغير اتجاه الريح، وبصفة عامة، هي خالية من النبات، وتتفرد بكون لون رملها أفتح مما عداها. ويمكن للمرء أن يخمّن وجود فلق عميق من مسافة بعيدة من خلال رؤية هذه التلال المماثلة للرؤوس الثلجية في الأفق. إن من النادر رؤية البعيد في النفود إذ لا يفتأ المرء صاعدًا أو نازلًا لكثبان رملية، أو يدرج كمركبة خفيفة حول حواف هذه الأحواض المهولة. الأرض المباشرة لهذه الحافات مستوية بحيث يمكن الانتقال من فلق إلى آخر بالاستفادة من هذا الاستواء. صعدنا إلى قمة واحدة أو اثنتين من هذه التلال المرتفعة، وميزنا من إحدى القمتين خطًّا من المرتفعات الجبلية على مسافة خمسة عشر ميلًا غرب - جنوب غرب، من ورائها قمة جبل منعزلة، عرفنا أنه رأس جبال الطويل، وقد شاهدناه ونحن في طريقنا إلى الجوف. ومن مكاننا المرتفع أيضًا لاحظنا أن الفلوق تتتابع ممتدة ومتصلة، لكن ليس دائمًا في خط مستقيم، لكن كمجرى وادٍ يتعرج تعرجًا خفيفًا. وهذا ما جعلنا نفكر من جديد بنظرية الأصل المائي لها. ويرى ويلفرد أنه قد يكون هناك انحدار متدرج في السهل تحت الرمل، وأنه عند هطول المطر هنا يتسرب الماء خلال الرمل إلى الأرض الصلبة، ويجري في أودية ضحلة

متعرجة تحت الرمل، وبهذه الطريقة ينزلق الرمل تدريجيًّا إلى المنحدر وحيثما وجد انحدار في السهل التحتي وجد فلق فوقه.

كان لهذه الفكرة ما يعززها إذ لاحظنا أن المواضع الجرداء أينما كانت فهي دائمًا تنحدر غربًا. وقد أكد راضي أن مياه الأمطار لا تتجمع قط في الفلوق، وهي سرعان ما تهطل وسرعان ما تختفي. وبينما كنا نناقش هذه النقاط المتعلقة بالتاريخ الطبيعي، لاحظنا فجأة إبل ترعى عند حافة فلق تبعد عنا أقل من نصف الميل إلى الأسفل منا، فوثبنا بسرعة شديدة فوق صهوتي فرسينا. كنت قد طورت عصابة تمكنني من سرعة امتطاء الفرس، ومنذ حادثة الاعتداء علينا في وادي السرحان كنا شديدي الحذر من الأعداء. انحدرنا لاستطلاع ما رأيناه، فوجدنا في فلق ستة أفراد، رجال ونساء، وإبل أخرى ترعى حول خربوش(بيت شعر صغير مهترئ) مستتر من الخلف. لم يكن هذا الخربوش أكثر من ظلة، وبمجرد مشاهدتنا أسرعت النساء بهدها، واندفع الرجال للجمال الأقرب منهم وأناخوها. كان من الواضح أن الخوف هاجسهم إذ لم نكد نخب إليهم إلا وكل شيء كان على ظهر الراحلة استعدادًا للابتعاد عن المكان. يفخر البدو بقدرتهم الفائقة على هدم بيوت الشعر في مضاربهم والرحيل في لحظات معدودة، وفي حالتنا هذه لا أعتقد أن الأمر استغرق أكثر من ثلاث دقائق. كانوا مندهشين ومرتبكين من ظهورنا المفاجئ، وذكروا في البداية أنهم من قبيلة الرولة، لكن بعد أن اكتمل الجمع برفاقنا اعترفوا أنهم من الحوازم[١]، وهي قبيلة فقيرة مستضعفة من قبل بقية البدو. . . . وبالنسبة لنا كانوا غير مختلفين عن البدو الآخرين.

بعد هذه الحادثة سألت محمدًا عن الكيفية التي يعرف بها رجال القبائل في الصحراء، فأخبرني أن لكل قبيلة خصائصها في الملبس والملمح، وهي معروفة جدًّا للجميع. فالشمري طويل القامة، والسبعي (نسبة إلى عشيرة السبعَة

(١) أخطأت الكاتبة كعادتها في رسم الأسماء العربية إذ تستبدل حرف النون (N) بالميم (M) وحرف السين (S) بحرف الزاي (Z)! وهكذا دواليك. لذلك جاء رسم اسم هذه القبيلة في أصل النص حويسن (Huweysen)! وقد رسمته في مواقع آخر بحرف الميم وجاء حوازم.

العنزية) قصير القامة طويل الرمح، ورماح الرولة أقصر وخيلهم أصغر. وشمر نجد يلبسون عباءات بنية، ووجوه حرب سمراء بلون العبيد تقريبًا، وأخبرني أيضًا عن تفاصيل أكثر حول قبائل أخرى قد نسيتها. وذكر أن راضي قد عرف أن هذه الجماعة من الحوازم من منظر خربوشهم. ثم ذكرنا محمد بانخداعنا بالغزو الذي تعرضنا له السنة الماضية [١٨٧٨] في منطقة الحماد في اليوم الذي وجدنا فيه جدعان[١]. وقال كان من حسن طالعنا أننا لم نصب بأذًى حينها، لأنه قد عرف لاحقًا حقيقتهم، فالرجال التسعة الذين ركب ويلفرد للتحدث إليهم كانوا في الواقع غزو يرأسه رجا[بن ساجر الرفدي] شيخ فخذ الرفدة من عشيرة العمارات. وقد جاء رجا بعد أسابيع قليلة من وقوع هذه المصادفة إلى تدمر لشراء الذرة ونزل دار عبدالله (والد محمد) لمدة يومين فعرف أنه كان يرافق البيك(ويلفرد) في ذلك اليوم. كان هؤلاء العمارات يناقشون أمر مهاجمة قافلتنا إلا أنهم حينما رأوا ويلفرد يتجه نحوهم توقعوا أن قافلتنا قوية جدًّا، فتراجعوا عن فكرتهم وتركونا لسبيلنا. أصبح محمد ورجا صديقين وتبادلا الهدايا، كانت هدية رجا صقر، أما هدية محمد الغريبة فكانت كفن. وذكر أن البدو يقدّرون الأكفان، وذلك الكفن الهدية كان من حياكة أم محمد.

لم يطل مسيرنا بعد ذلك فوقعنا على مخيم للرولة، على الأقل مخيم لعبيدهم. لم يكن الرجال زنوج الهيئة مع أن سمرتهم شديدة ومناظرهم غير حسنة. ذكروا أنهم تابعون لبنية ابن شعلان، ابن عم سطام الشعلان، وإن كبير القبيلة حاليًّا موجود في النفود. أسقونا حليب نوق طازج وكانت المرة الأولى لنا هذا العام. سرنا بعدها عبر وادٍ طويل يتقاطع هنا مع النفود، وفيه تقع آبار الشقيق. أقمنا مخيمنا بقرب إحداها في أرض صلبة تحت الموجة الأولى لنفود ما وراء الآبار. كان هناك أربع آبار معروفة بالشقيق؛ اثنتان منهما متقاربتان، والآخريان على مسافة ثلاثة أو أربعة أميال في أعلى الوادي وأسفله. وجميعها، كما سمعنا، لها العمق نفسه، مئتان وخمسة وعشرون قدمًا، ومن الواضح أنها قديمة، لأن البئر الذي نقف عندها مطوية بحجارة منحوتة

---

(١) جدعان بن مهيد شيخ عشيرة الفدعان من قبيلة عنزة.

تحززت أطرافها بفعل الاستخدام الدائم للحبال في متح الماء، وكانت هناك بكرة خشبية صغيرة لمرور حبل السحب عليها، ومن المستغرب حقًّا بقاؤها في الصحراء إذ لا يبقى دلو أو حبل في مكانه أكثر من أسبوع عند أية بئر. كان عند البئر بعير نافق ينهشه نسران وكلب، ولا حياة أخرى هناك.

بينما كنا نتفحص حبالنا وما إذا كانت تطول الماء، أقبل نحونا قطيع إبل يتبعها عدد من الرجال فوق ركائبهم. اتضح أنهم من جماعة ابن شعلان، والأمر الذي أسعدنا وأدهشنا في آن واحد أن أحد الرجال واسمه راشد عرفنا. كنا قد قابلناه السنة الماضية في مخيم للرولة في صيقل[١] بعيدًا في الشمال. وجاء، كما ذكر، إلى خيمتنا برفقة أبو جديلة[٢]، ونحن نتذكر هذه المناسبة جيدًا. إن مما يسر أن تجد صديقًا في مثل هذا المكان، وهذا يوضح المدى الذي تنجع فيه القبائل خلال العام، فالشقيق تبعد عن صيقل بخط مستقيم مسافة تصل إلى خمس مئة ميل تقريبًا. عرض راشد الذي كان يحمل حبلًا طويلًا استخراج الماء لنا، ثم اشترك الجميع في تناول القهوة وأكل التمر. كان ضمن هذه الجماعة ابنان لبنّية، محمد وأسعد، كان الأكبر شابًّا خجولًا جلفًا، أما الأصغر ابن السنوات التسع فكان طفلًا لطيفًا، حملناه رسالة مجاملة إلى والده.إن بنيّة ابن حنيفي ابن شعلان شيخ قسم كبير من قبيلة الرولة، وهو نفسه الذي سمعنا العام الماضي أنه استقر في نجد. وهو على علاقة سيئة مع سطام منذ بضع سنوات جراء استحواذ سطام بالقوة على فرس شقراء له. لم يشاهد الولدان أوربيًّا في حياتهما، أو حتى خرجا شمالًا أبعد من وادي السرحان. لقد كنا راغبين بزيارة بنيّة لكن مضاربه تبعد عدة أميال من طريقنا، لا مزاح مع النفود»[٣].

---

(١) وتسمى بحرة، وبحيرة، وبحر صيقل في أطراف بادية الشام في الشمال الشرقي من دمشق، من منازل قبيلة الرولة.

(٢) ذكرت الليدي في سياق مذكراتها عن رحلتها السابقة في بادية الشام «أنه في يوم الثالث عشر من شهر أبريل ١٨٧٨ . . . . وصل إلينا اثنا عشر أو أكثر من فرسان الرولة قادمين من مضاربهم. . . وكان كبير ضيوفنا الجدد رجل يدعى «أبو جديلة». انظر: الليدي آن بلنت، **قبائل بدو الفرات**، ص. ٣٨٣.

(٣) النص المعرب:

Lady Anne Blunt, **Pilgrimage to Nejd, The Cradle of the Arab Race: a Visit to the Court of the Arab Emir and "our Persian Campaign"**, Vol.1 (London: Frank cass & Co.LTD, 1968), pp.84- 166.

بعد بئر الشقيق واصلت الليدي بلُنت وزوجها ومرافقوهم رحلتهم عبر صحراء النفود إلى أن وصلوا إلى قرية جبة أول قرية مأهولة في منطقة حائل، ومنها واصلوا سيرهم إلى أن وصلو مدينة حائل بسلام يوم الثالث والعشرين من شهر يناير ١٨٧٩.



الفصل الخامس

تشارلز هوبر

يعدّ هذا الرحالة الفرنسي الذي دفع حياته ثمنًا لمغامِراته في الجزيرة العربية أحد الرحالة الأقل شهرة بين أقرانه الأوروبيين ممن ارتحلوا فيها، ولكنه لم يحظ بالاهتمام الكافي في أدب الرحلات رغم أهمية اكتشافاته الجغرافية والأثرية وتصنيفه على أنه من أعظم الرحالة الأوروبيين لقدراته الاستثنائية، ودقة ملحوظاته[1]. وحتى خلفيته الشخصية والعلمية ما تزال غير واضحة إذ لم يتيسر للباحثين الذين اهتموا برحلاته المعلومات الضرورية لكتابة سيرة ذاتية كاملة له. يا ترى من هو هذا الرحالة؟

ولد تشارلز هوبر (Charles Huber) سنة ١٨٤٧ في مدينة ستراسبورغ (Strasbourg) في منطقة الألزاس (Alsace Region) شمال شرق فرنسا، لأبوين من الطبقة العاملة، وتلقى تعليمه في مدينته التي تعرضت إلى دمار واسع خلال الحرب الألمانية الفرنسية ١٨٧٠-١٨٧١ التي نتج عنها ضم مدينته ومنطقته إلى ألمانيا. وكان كغيره عليه الاختيار بين الجنسيتين الألمانية والفرنسية، فاختار الأخيرة. وقد كان ناشطًا في الوسط الطلابي الوطني الذي لم يقبل مثل هذه التحولات في منطقته.

---

(١) لم تذكره جاكلين بيرين المؤرخة الفرنسية لتاريخ اكتشاف جزيرة العرب من قبل الأوروبيين ضمن من ذكرتهم من الرحالة والمغامرين الذين ارتحلوا في جزيرة العرب في كتابها اكتشاف جزيرة العرب المنشور باللغة الفرنسية سنة ١٩٥٨. انظر:
جاكلين بيرين، مصدر سبق ذكره.

لا توضح المصادر القليلة المتاحة عنه نوعية دراسته إلا إن هناك ما يشير إلى أنه تلقى تعليمًا في المجال الطبي وفي مجال علم الأنثروبولوجيا، وأنه عمل موظفًا في محكمة قبل بداية رحلاته الخارجية. ويبدو أن اهتمام هوبر بالشرق كان مبكرًا إذ إنه كان قد بدأ دراسة اللغة العربية في باريس، وبعد الانتهاء من هذه الدراسة قام بزيارتين إلى الجزائر بدءًا من سنة ١٨٧٤[١].

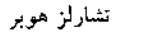
ومن المؤكّد أنه عُرف بكفاءة معينة خلال رحلاته إلى الجزائر لدى السلطات الفرنسية لا تظهرها الخلفية العلمية المذكورة آنفًا، فكلفته وزارة التعليم العام الفرنسية سنة ١٨٧٨ بمهمة مدتها أربعة أعوام للقيام بمسح جغرافي لشمال الجزيرة العربية. غادر فرنسا في شهر أبريل سنة ١٨٧٩ متجهًا صوب سورية التي قضى فيها مدّة طويلة يعدُّ لرحلته، ثم غادر دمشق في اليوم العشرين من شهر أبريل ١٨٨٠ في طريقه إلى حائل، وقد وصلها في اليوم العاشر من شهر يونيو، واتخذ منها محطة له للقيام برحلاته ودراساته في منطقة حائل ومنطقة القصيم، ومنطقة شمال غرب الحجاز، وقد نسخ هوبر مئة وستة وأربعين نقشًا أثريًا مما وجده خلال تنقلاته، وأكمل رسم خارطة لشمال الجزيرة العربية.

غادر هوبر حائل في منتصف شهر يناير ١٨٨١ إلى بغداد التي قضى بها زمنًا ومنها رحل إلى دمشق التي وصلها في منتصف شهر ديسمبر من السنة نفسها. قدم هوبر عند عودته من رحلته وصفًا لها نشر في ثلاثة أجزاء في مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس سنة ١٨٨٤ تحت عنوان: **رحلة في وسط الجزيرة العربية : حماد، شمر، قصيم، حجاز**[٢]. وقد منحته هذه الجمعية ميداليتها الذهبية سنة ١٨٨٣ تقديرًا لجهوده؛ ولأنه، كما جاء في حيثيات منحه هذه الميدالية، أول رحالة أوروبي يقدم معلومات جغرافية بمقاييس فلكية ومساحية موثوقة للمنطقة بين سورية في الشمال ونجد في

---

(١) Helen Louise Pearson, "Relations Between Julius Euting and Charles Huber In Arabia", MA Dissertation, University of Manchester, UK, 1993. pp. 37-39. (Unpublished).

(٢) Charles Huber, "Voyage dans L'Arabie Centrale: Hamad, Sammar,Qacim, Hedjaz,1878-1882", **Bulletin de la Societe de Geographie de Paris**,Vol. 5,1984. pp 304-326.



تشارلز هوبر



الجنوب، ومعالمها الطبوغرافية بجبالها وصحاريها، وإن ما قدمه يعدّ مساهمة معرفية أصيلة جديدة بالتقدير[١].

كان نجاح هوبر في مهمته واكتشافاته في مجال النقوش الأثرية دافعًا لوزارة التعليم العام الفرنسية أن تقدم له منحة جديدة لاستكمال أبحاثه وتوسيع دائرة مسحه الجغرافي للمنطقة. ولأن النقوش تتطلب خبيرًا بها لمرافقته فقد اتفق مع البروفيسور الألماني يوليوس أويتنغ المختص بدراسة النقوش الأثرية مشاركته في هذه الرحلة[٢]. وصل هوبر ورفيقه إلى دمشق في أوائل شهر سبتمبر١٨٨٣ ليبدأ رحلته الجديدة متبعًا مسار رحلته الأولى إلى حائل، حيث كان قد كوّن صداقة خاصة مع أميرها محمد العبدالله الرشيد الذي كان قد سمح له بإجراء بحوثه في مناطق حكمه. وصل هوبر إلى مدينة حائل في يوم ٢١ أكتوبر، وبعد إجراء بعض البحوث الميدانية فيها غادر ورفيقه إلى المواضع الأغنى بالآثار والنقوش في تيماء والعلا ومدائن صالح. وقد تمكنا من نسخ ونقل كثير من النقوش التاريخية والحصول على بعض الأوابد ذات الأهمية التاريخية، من أشهرها حجر تيماء(أو مسلة تيماء)[٣]، الذي كان محل نزاع بين ألمانيا وفرنسا لادعاء كل منهما أن مواطنها هو مالك الحجر الأساسي وهو من دفع ثمنه[٤].

في اليوم السابع والعشرين من شهر مارس١٨٨٤ افترق هوبر عن رفيقه يوليوس أويتنغ الذي شابت علاقته به بعض التوترات المتراكمة بسبب التنافس

---

(١) Helen Louise Pearson, Op.Cit, pp.41-42.

(٢) سوف يتم تناول يوليوس أويتنغ ووصفه لرحلته برفقة هوبر في الفصل التالي.

(٣) هذا الحجر محفوظ الآن في متحف اللوفر في باريس، وقد استعادته فرنسا مع ما خلفه هوبر من ممتلكات شخصية في حائل قبل مقتله. تأتي أهمية هذا الحجر من نقشه المكتوب باللغة الآرامية، حيث يعود تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وفيه أن كاهنًا استقدم إلهًا جديدًا إلى تيماء يدعى(صلم هجم) فانشأ له وقفًا، وعيّن له كهانة وراثية. ومثل الإله بالزي الأشوري، وظهر في أسفل الرسم رسم الكاهن الذي شيد النصب. انظر: حمد الجاسر، **في شمال غرب الجزيرة**، الطبعة الثانية(الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص. ٣٥٥.

(٤) David George Hogarth, **Op. Cit, pp. 281-82.**
Helen Louise Pearson, Op. Cit, pp.141-143.

والغيرة، وقد عاد إلى حائل ومنها سافر إلى جدة التي وصلها في اليوم التاسع عشر من شهر يونيو، وفي طريق عودته ثانية إلى حائل جرى قتله على يد دليله في الأيام الأخيرة من الشهر نفسه(١).

لم يتسنَّ لهوبر كتابة تفاصيل رحلته الأخيرة ونشرها إلا أن يوميات هذه الرحلة التي كان يسجلها في مذكراته الخاصة قد وجدت وتم نشرها بعد رحيله بعدة سنوات(٢).

كان هوبر في رحلته الأولى قد مر في طريقه إلى حائل بمنطقة الجوف(٣)، وهنا ندعه يتحدث عن تفاصيلها بنفسه:

«حينما كُلّفت بمهمة علمية في الجزيرة العربية سنة ١٨٧٨ من قبل وزارة التعليم العام قابلتني منذ البداية صعوبات وعوائق، أشرت إليها في تقريري للوزير. وأخفقت أول محاولة للوصول إلى الجوف برفقة الشيخ محمد الدوخي[بن سميّر شيخ قبيلة ولد علي العنزية]بسبب تمرد الدروز. كما أن الاتفاق الذي عقدته بعد ذلك مع سطام بن شعلان شيخ الرولة، لم يتحقق له النجاح، بسبب تراجع هذا الأخير في كلامه. وحدث الشيء نفسه بالنسبة للاتفاق الذي وقعته مع الشيخ علي القريشي، وأخيرًا وجدت الأدلاء الذين لم يكن لي غنًى عنهم عند محمد الخليل شيخ بصرى، وكانوا في ذلك الوقت ضيوفًا عليه. كان اثنان من هؤلاء من «البواقين» (أفراد غرباء عن البلدة لا يؤمن جانبهم)، واثنان منهم كانا من سكان بلدة كاف. اتفقت مع هؤلاء الأشخاص على الرغم من تحذيرات شيخ بلدة بصرى الذي صرح بأنه لا

---

(١) كانت حادثة مقتله وظروفها غامضة لكن المصادر تشير إلى أن مقتله كان بالقرب من رابغ بين جدة والمدينة، وأنها حدثت في اليوم التاسع والعشرين أو الثلاثين من شهر يونيو ١٨٨٤، وأن قتله جاء على يد دليله.

(٢) Charles Huber, **Journal d'un Voyage en Arabie** 1883-1884(Paris, 1891).

(٣) كان هوبر قد مر عبر منطقة الجوف في رحلته الثانية سنة١٨٨٣م / ١٢٩٥هـ، لكن ما نشر عن هذه الرحلة اعتمادًا على يومياته لم يتضمن معلومات أو تفاصيل جديدة عنها وكان عبارة عن مذكراته اليومية حينما كان في المنطقة. انظر: عبد الرحمن بن أحمد السديري، **مصدر سبق ذكره**، ص ص ١١٧-١١٩.

يستطيع أن يضمن لي أن هؤلاء الأشخاص سوف يوفون بوعدهم، وإن أقل ما يمكن أن أتعرض له هو أن يقوموا بنهبي والتخلي عني في الصحراء. لقد كنت في عجلة من أمري، ولا وقت لدي للإصغاء لمثل هذه النصائح الحكيمة.

غادرت بصرى في اليوم التالي وهو اليوم الرابع عشر من شهر مايو ١٨٨٠[١] بمعية رفاقي الجدد. في المرحلة الأولى من مسيرنا وصلنا إلى قرية عنز بعد أن تجاوزنا قرية أم الرمان[٢]. وعنز قرية صغيرة يقطنها ثلاث مئة نسمة، واقعة فوق تل صغير، وهي آخر منطقة قبل الدخول إلى الصحراء. تضم هذه القرية رغم موقعها المتقدم بين الدروز والبدو الرحل، سكانًا مسيحيين. وقد وجدنا هناك خمسة من العرب، مخيمين خارج الأسوار يريدون السفر إلى كاف أو بالقرب منها، وكانوا ينتظرون مسافرين آخرين ليلحقوا بهم ليشكلوا معًا قافلة صغيرة.

وفي اليوم التالي، رحلوا معنا؛ ولأن عددنا كان صغيرًا، توجب علينا أن نتحاشى المواجهات التي غالبًا ما تكون خطرة، في هذه المنطقة الأولى من الصحراء.

بدأنا المسير في يوم الخامس عشر من شهر مايو في الصحراء عبر مسار متعرج طبقًا للمعلومات التي جمعناها في بصرى وعنز عن المضارب المختلفة للبدو. وفي صباح اليوم التالي خيمنا على بعد ثلاثة أكيال شمال شرق قصر الأزرق[٣]، الذي للأسف لم أتمكن من الاقتراب منه؛ لأن المنطقة المحيطة به كانت لا تزال موحلة على إثر أمطار الشتاء. وحسب ما استطعت أن أحكم، ومن مسافة بعيدة فقد كان برجًا مربعًا من الحجارة، معزولًا تمامًا، وقمته

---

(١) ١٢٩٧هـ.

(٢) عنز وأم الرمان قريتان متقاربتان واقعتان على سفوح سلسلة جبل العرب في منطقة صلخد في محافظة السويداء، جنوب شرق دمشق.

(٣) قصر الأزرق أحد القلاع التاريخية المشيدة بحجر البازلت الأسود وكانت حصنًا من حصون الرومان أو الأنباط، وأعاد المماليك بناءه في القرن الثالث عشر للميلاد. وهو اليوم واقع وسط واحة الأزرق على بعد مئة كيلو متر شرق عمّان.

متداعية. يعود بناء هذا القصر على الأرجح إلى العصور القديمة جدًّا. ولابد أنه كان واحدًا من المحطات في الطريق المؤدي إلى وسط الجزيرة العربية عبر دومة الجندل. وقد أطلق الجغرافيون العرب القدامى على المنطقة المحيطة به اسم العمّري.

أما مؤلف « الطريق من القسطنطينية إلى مكة»(١) فيشير إلى هذا الموضع، ويضيف قائلًا إن النبي محمدًا ﷺ أثناء رحلته إلى الشمال تقدم حتى وصل إلى هذا القصر ونهره الصغير(٢)، الذي هو ربما وادي راجل(٣). وهذا المكان له أهمية كبيرة، فوادي السرحان يبدأ عنده ويمتد إلى الجنوب حتى آبار الجراوي، التي تقع على مسافة يومين من المسير إلى الجوف. وصلنا إلى وادي راجل بعد الظهر من اليوم نفسه، وكان لا يزال هناك ماء في بعض الحفر بالرغم من انتهاء موسم الأمطار. لم نتوقف بالقرب من قصر الأزرق إلا لتناول الغداء، ثم رحلنا في الحال، حيث كنا في العادة لا نتوقف؛ لأن جماعة قليلة وضعيفة مثل جماعتنا لا يمكنها التوقف بالقرب من هذا المكان ذي السمعة السيئة. فالقصر منطقة مرور، وغالبًا ما يتجه إليه اللصوص وقطاع الطرق. أما السهل الذي يحيط بقصر الأزرق فيمتد عدة أكيال، وأرضه طينية صالحة للزراعة ونباتات الصحراء التي ترعاها الإبل كثيفة ووافرة. ما إن غادرنا المكان حتى دخلنا من جديد إلى أرض صلبة تحمل آثارًا عديدة ذات أصل

---

(١) مختصر كتاب باللغة التركية يحمل عنوان: **كتاب مناسك الحج** مطبوع في الآستانة (إستانبول) سنة ١٢٣٢هـ (١٨١٦م) مؤلفه الحاج محمد أديب بن محمد درويش. وقد نشرت الترجمة الفرنسية سنة ١٨٢٥. انظر:

Muhammad Adib Ibn Muhammad, **Itinéraire de Constantinople à la Mecque: extrait de l'ouvrage turc intitulé Kitab menassik el-hadj....** , Trans. Thomas Xavier Bianchi(Paris: Société de géographie,1825).

(٢) يشير هنا إلى الحديث: «وَحَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَتَى عَلَى وَادِي الأَزْرَقِ فَقَالَ: «مَا هَذَا الْوَادِي» فَقِيلَ: «وَادِي الأَزْرَقِ»، فَقَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ مُنْهَبِطًا لَهُ جُؤَارٌ أَوْ خُوَارٌ إِلَى رَبِّهِ بِالتَّلْبِيَةِ».... إلخ.

(٣) وادي راجل هو أيضًا وادي الأزرق وهو واد ممتد من جنوب جبل حوران بمسافة تصل إلى مئة كيل، وينتهي في الأزرق حيث يأخذ اسمه، ثم يمتد جنوبًا فيصبح اسمه وادي السرحان الذي يمتد عبر منطقة الجوف وينتهي بها.

بركاني. ومن وقت لآخر كنا نعبر أجزاء من الصحراء تكسوها الحجارة بشكل كامل، وتصبح أكثر وعورة عند الاقتراب من كاف، التي وصلنا إليها مساء اليوم التالي ١٧ مايو، وقد كنا نسير الجزء الأكبر من الليل.

ينقل الرحالة سيتزن عن أحد مرشديه، ويدعى يوسف المالكي، مسارًا يضع كاف على مسافة خمسة أيام من بصرى، لكننا سرعان ما نلاحظ خطأه إذ يذكر قريتي إثرة وقرقر قبل كاف [انظر مخطط كاف والمنطقة المحيطة في نص أويتنغ]. كان سيتزن أول من قدم لنا المعلومات الأولى التي بحوزتنا عن هذا المكان، فهو يذكر: «إن كاف قصر متهدم، يقع على قمة تل يحيط به من جميع الجوانب مستنقع لا يمكن الاقتراب منه، ويوجد هناك بعض الآبار وأشجار النخيل البرية التي لا تعطي ثمرًا». وبعد وصولي إلى منطقة الدروز(جبل حوران) علمت أن كاف هي اليوم قرية صغيرة مأهولة. وقد حملت رسالة توصية من نجم الأطرش شيخ الدروز لشيخ كاف.

عندما وصلنا إلى كاف نزلت ضيفًا على دليلي محمد، لكن لضيق ذات اليد، فقد اقترح عليّ في اليوم الثاني أن أقيم عند الشيخ الذي طلب ذلك منه. عبدالله الخميس، شيخ كاف، هو رجل في حوالي الخمسين من عمره (هو نفسه يجهل سنه الحقيقي) ذو بنية ضعيفة، وعظام بارزة، تثبت أصله البدوي. أما فيما يختص بتاريخ القرية فقد ذكر لي عبدالله، أن والده دهيري الخميس كان أول من أقام فيها منذ حوالي خمسين سنة، بينما كان هو نفسه لا يزال طفلًا صغيرًا. وعيون الماء الصغيرة والعديدة المتوافرة في هذا المكان، كانت تشكل في ذلك الوقت بحيرة في أسفل التل، وذلك يتفق مع ما قاله يوسف المالكي. وبالنسبة لعبدالله لم يعد يتذكر كيف أن العيون الاثنتي عشرة الموجودة هنا، تحولت إلى أحواض صغيرة. في الرابعة صباحًا أخذت درجة حرارة عشرة من هذه الأحواض المائية، وكانت درجة حرارتها أكثر من أربع وعشرين درجة مئوية في المتوسط للأحواض المعرّضة للشمس، وإحدى وعشرين درجة مئوية في المتوسط لتلك الأحواض التي تقع تحت النخيل، ومعنى ذلك أن متوسط الحرارة في المنطقة مرتفع جدًّا.

أكّد لي الشيخ عبدالله أن درجة الحرارة في كاف هي أكثر ارتفاعًا خلال الصيف منها في الجوف، وأنه نادرًا ما يهطل المطر في الشتاء. وهناك مؤشر آخر لارتفاع درجة الحرارة وهو وجود أشجار النخيل، التي تنمو جيدًا هنا. الماء هنا مالح قليلًا، لكنه مع ذلك صالح للشرب. القرية تتخذ شكل الهلال وتمتد من الشرق إلى الغرب، وتتكون من مجموعتين من البيوت، مجموعة تضم ثمانية بيوت، والمجموعة الأخرى تضم تسعة بيوت، تفصل بينهما الآبار وأربع مئة وخمسون نخلة. وبالإضافة إلى النخيل، نجد أيضًا أن هناك شجرتين من شجر الرمان وبعض شجر الأثل. يستخدم خشب الأثل هنا في صناعة الأبواب وسقف المنازل. ويملك السكان البالغ عددهم تسعين نسمة ثلاثين جملًا والعدد نفسه من الماعز وحوالي خمسة عشر من الخراف، بالإضافة لبعض الدجاج، وليس عندهم ثيران أو خيل. تدين هذه الواحة الصغيرة بوجودها أولًا لآبار الماء فيها ثم لوجود منجم للملح يملكه الشيخ. وهذا المنجم في جبل صغير يبعد مسافة خمسة أكيال جنوب القرية، وتحمل الجمال الملح إلى جوار القرية، لوضعه في حفر بها بعض الماء ليذوب فيها الملح ثم يتبلور بالتبخر. وهذا الملح ناصع البياض، لكنه مر المذاق، ويباع لقبائل الصحراء. كما يتم تهريبه على ظهور جمال شيخ بصرى إلى حوران وجبل الدروز.

المنازل هنا، على غير داخلها، فهي نظيفة من الخارج. ولا يختلف السكان عن البدو في لبسهم، وجميعهم أميون، وتنتشر بينهم أمراض العيون. في صباح يوم التاسع عشر من شهر مايو أحضر لي عبدالله المتزوج من ثلاث نساء ابنه الوحيد ذا العشرة أعوام لفحصه، وكان مصابًا بحموضة في المعدة، وأحضر معه في الوقت نفسه فنجان قهوة مملوءًا بالماء، وطلب مني قراءة بعض آيات وأدعية الرقية على هذا الماء لشفاء ولده المريض.

وبهذا سأكون أول أوروبي يصعد إلى قصر الصعيدي فوق قمة الجبل المنعزل بجوار القرية - وهناك قصران آخران أقل حجمًا في سهل كاف - يبلغ ارتفاع هذه الجبل نحو ثمانين مترًا فوق السهل، وقمته تأخذ شكل

الطاولة، ويبلغ طول محيطها ثلاثة آلاف متر. وتتكون من كتل بركانية سوداء، كبيرة وصلبة جدًّا، مغطاة بمادة ترابية مع بعض طبقات رسوبية، جميلة وصلبة جدًّا أيضًا، ولكنها بيضاء. وكنت قد شاهدت مثلها على الطريق من الأزرق إلى كاف. والأطلال التي تتوج الهضبة العليا، تتكون من حائط يبلغ ارتفاعه من ثلاثة إلى أربعة أمتار، ويبلغ سمكه ما بين المتر ونصف المتر. وهذا الحائط هو الوحيد الذي يحيط بالقمة الشرقية للصخرة، والجوانب الثلاثة الأخرى بلا جدران. ومن المرجح أنها كانت هكذا دائمًا لأن جوانبها راسية، والطريق المؤدي إليها في الجبل نفسه، المنهار حاليًّا، يقع أيضًا في الجانب الشرقي، ويبدأ عند مقبرة كاف. وتقع هذه المقبرة عند قاعدة الجبل. وباب حائط الدفاع هذا كان مقفلًا بمتراسين من الحجارة السوداء، تشبه تلك التي رأيناها بكميات كبيرة في كل المدن الدارسة في اللجاة[1] وجبل الدروز[2] وحوران، وتلك التي رأيتها أيضًا مستخدمة في بعض بساتين تدمر. كان أحد هذه المتاريس تحت المدخل. وفوق الهضبة هناك أيضًا غرفتان صغيرتان غير مسقوفتين مستندتان إلى حائط الفناء. وفي الشمال نرى أسوار مبنى صغير يشتمل أيضًا على غرفتين. وعند باب حائط الفناء، يوجد حوض مستدير مسيّج يبلغ محيطه أربعة أمتار، وعمقه متر واحد. وعلى مسافة قصيرة من الحوض المستدير تشكل الأرض حفرة طبيعية، تأخذ شكل المغارة، وهاتان الحفرتان ربما استخدمتا كخزانات للماء. وبين هذين الخزانين توجد صخرة بركانية كبيرة ذات شكل غير منتظم، يبلغ حجمها مترًا مربعًا واحدًا تقريبًا، وتوجد بعض العلامات المحفورة عليها، وهي علامات تشبه الرموز، التي ما زال يستخدمها البدو لتمييز إبلهم، وهو ما يسمى بالوسم. لا يبدو على الجبل أية علامات للبناء، وأعتقد أنه لم يوجد أبدًا في هذا المكان نقطة محصنة تحصينًا طبيعيًّا غيرها،

---

(١) حرة اللجاة منطقة بركانية وعرة في جنوب سورية تمتد جنوبًا بطول ستين كيلًا وبعرض سبعة عشر كيلًا، وفيها مناطق استيطان تعود إلى عصور ما قبل الميلاد.

(٢) يحمل هذا الجبل أسماء عدة بالإضافة إلى هذا الاسم منها جبل العرب وجبل الريان وجبل حوران ويقع في جنوب سورية، وينتشر على سفوحه وبطول امتداده عدد من المدن والبلدات والقرى. ومنطقة هذا الجبل منطقة تاريخية وأثرية مهمة.

ومازال من السهل اليوم، جعلها قلعة منيعة مرة أخرى. ومن فوق قصر الصعيدي، يستطيع المرء كشف هذه الأرض، وهذه الجبال، بكل ما تمثله من ذعر، فهي جرداء ومقفرة. كما أن بريق الحجارة السوداء، التي تغطيها تجعلها موحشة أكثر، ولذلك فإن العين تستريح عند النظر إلى الواحة تحت الجانب الجنوبي منه. ومن بعيد، وعلى مسافة ستة أميال، يشاهد منخفض وادي السرحان.

على مسافة ستة أميال جنوبًا، وعلى انحراف سبعين درجة شرق كاف، تقع واحة صغيرة أخرى تسمى إثرة. والمساكن فيها مبنية بالحجارة السود كمساكن حوران، وليس بالطين كما هو الحال في كاف. وإثرة واحة قديمة هجرها الناس في السابق، كما هجروا كاف. ثم عمرت مرة أخرى بعد عشرة سنين من استيطان كاف، وتضم الآن عشرين دارًا يقطنها حوالي مئة نسمة. فيها نبع ماء جار طوال العام، مثلها مثل كاف، وقد ذكر يوسف المالكي في خط سيره اسم إثرة.إن منطقة كاف - إثرة لها أهمية جغرافية لتوسطها بين حوران والجوف، وهي المنطقة الأقل ارتفاعًا، وتنتهي إليها الأودية الصغيرة الممتدة من حوران وتنساب في منطقة الحماد وفي وادي السرحان. وهذا ما يفسر لنا أيضًا أنه على الرغم من ندرة المطر فإن منسوب العيون يظل ثابتًا، وهذا المنسوب ليس كبيرًا كما رأينا من قبل لأن أربع مئة وخمسون نخلة فقط دون مزروعات أخرى لا تكفي لامتصاصه. متوسط قراءات الضغط البارومتري التي قمنا بها في كاف أعطتني لهذه المنطقة ارتفاع أربع مئة وثمان وتسعين مترًا فوق سطح البحر.

لا يمكن لي أن أترك الحديث عن واحة كاف دون أن أذكر رحالة آخر مر بها سنة ١٨٦٤ ، لكن دون تصويب لما ذكره. هذا الرحالة هو كارلو غوارماني. وهو يذكر: إن كاف دُمرت في القرن الخامس عشر الميلادي، وأعيد بناؤها في القرن الثامن عشر. وكانت في الماضي محطة للقوافل التي تنطلق من دمشق إلى المدينة. وبخلاف كاف التي يقدّر سكانها بمئتين وخمسنن نسمة، وإثرة التي يقدّر سكانها بثلاث مئة نسمة، فإن هذا الرحالة يذكر أيضًا قرية العقيلة ويقدر

سكانها بخمسة عشر نسمة، وقرية غطي بمئة وخمسين نسمة، وقرية الأخيضر بمئة وخمسين نسمة أيضًا، والوشواش بمئتين نسمة. أما بالنسبة لزمن تدمير كاف فلم يتكلم عن هذا أحد من قبل حسب معرفتي، فلذلك من الصعب أن نؤكد أن هذا التدمير وقع في ذلك القرن. أما بالنسبة لتاريخ إعادة بنائها فقد ذكرت رواية ابن من أقام الواحة، وهو الأعرف بذلك. وأخيرًا، وفيما يخص موضوع محطة القوافل، فلا أعتقد أن طريقًا كهذا كان يمر من كاف ويربطها بدمشق. فالقافلة تتحرك ببطء شديد، ولا يمكنها أن تعبر هذا الاتجاه لأنها بحاجة للتوقف مرتين على الأقل. وبما أن القافلة تحتاج إلى خمسة أيام للوصول إلى هنا فمن الصعب أن تأخذ هذا الطريق لعدم توافر أماكن للماء فيه. أما بالنسبة للقرى الأربع الأخرى فلم يذكرها أحد من قبل غوارماني. وفي أمر تعداد السكان، فأنا أتمسك بأرقامي، فالتعداد سهل جدًّا إجراؤه ودون خطأ فيه.

اتفقت مع الشيخ عبدالله الخميس ليكون دليلًا لي إلى الجوف. وحددنا موعد الرحيل في اليوم الواحد والعشرين من شهر مايو. كان هناك اثنان من سكان الجوف ينتظران منذ مدة رفقة طريق فانضما إلينا عند بزوغ الشمس، يصحبنا بعض الرجال لتوديعنا خارج الواحة. وعلى الرغم من أننا كنا نسير على أرض مستوية إلا إنها منطقة جبلية ذات شكل خاص جدًّا. إنها هضبة واسعة وصخرية يبزغ منها عدد من النتوءات على شكل الأهلة، ورؤوس جبال متفرقة معزولة تمامًا عن بعضها ولا يوجد رابط بينها، وقممها مسطحة. وفوق ذلك، ليس بينها أية وحدة في الاتجاه، فهي تجري من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب وارتفاعها يتراوح مابين عشرين مترًا ومئة متر. ومن الغريب أن نلاحظ أن هذه المرتفعات مكونة من حجر جيري يغطي تربة من اللون نفسه، كما لو كانت قد هطلت عليها أمطار سود مؤكسدة. وهذا النوع من التربة هو نفسه في المنطقة التي اجتزتها قبل وصولي إلى كاف. كل هذه الهضاب المميزة لهذه المنطقة ولاسيما بين إثرة وكاف ووادي السرحان الأصلي تحمل اسمًا عامًّا هو «قدير». في منتصف النهار رأينا منظرًا وهو للأسف

مازال يتكرر كثيرًا في الصحراء، فبينما كنا ندخل في مجرى وادي السرحان قابلنا واحدًا ثم ثلاثة أشخاص يحتضرون، ثم بعد ذلك بقليل وقعنا على جثة شخص آخر. إنهم أربعة من فقراء الجوف تجرؤوا على الخروج بمفردهم سيرًا على الأقدام منذ ثمانية أيام بهدف الوصول إلى كاف ثم إلى دمشق، ولم يحملوا معهم قرب ماء ولا مؤونة إذ كانوا يأملون وجود مخيمات للبدو، ومن خلال التنقل من مخيم إلى آخر قد يصلون إلى هدفهم. لم يبق من هؤلاء الأفراد إلا الجلد والعظم كما يقال في الأمثال. أما جثة الميت فقد كانت ممزقة تقريبًا وعارية تمامًا، وأصحابه الثلاثة، ورغم أنهم على وشك الموت فإنهم تقاسموا ثيابه الممزقة. بللت ريقهما بلترين من الماء تقريبًا، ومنحتهم دقيقًا أكلوه في الحال. لاحظت أن عبد الله أشار إليهم في اتجاه إثرة ليوفر على بيته مؤونة غذائهم. أيضًا وفي منتصف النهار - كما ذكرت سابقًا -، دخلنا مجرى وادي السرحان ومشينا حتى الساعة الثالثة مساءً، ثم اجتنبناه نحو الغرب، حيث دخلنا من جديد في منطقة جبلية مغطاة بحجارة سوداء، تسمى المسمى. وهذا الاسم أخذته المنطقة من اسم الجبل الرئيس فيها، وقد شاهدته في صباح اليوم التالي من مسافة اثني عشر ميلًا شرقًا. تمتد هذه السلسلة الجبلية العالية من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. في ذلك اليوم دخلنا من جديد في وادي السرحان، وهناك وقع نظري على منظر رائع. على مرمى البصر كانت الأرض ملساء تمامًا تكسوها طبقة رقيقة من الملح ناصع البياض. وعند ابتعادنا عنها لصعوبة المرور فيها لرطوبتها ولزوجتها سرنا حولها لمدة ثلاث ساعات عبر ممر ضيق يحاذي هذه السبخة، لكن ولوجود بعض الصخور في جانبنا الأيمن في هذا الممر كان علينا عبور أجزاء منها. لقد كنا حذرين جدًّا وتركنا للجمل حريته، وهو الذي يكون أشد حذرًا عند ابتعاده عن الدرب أو الابتعاد أيضًا عن خطوات الرجل الذي يمشي أمامه ويقوده. علاوة على خطر الانزلاق والوقوع من فوق ظهر الراحلة، وذلك من أخطر الأشياء، إلا إن الأكثر خطورة هو الوقوع في هذه السبخة المسماة حضوضى. وفي المساء خيمنا بالقرب من

أربع آبار تدعى الملاحات، وهي اسم على مسمى إذ كان ماؤها شديد الملوحة وكان بعمق المتر ونصف المتر.

في صباح اليوم التالي، اليوم الثالث والعشرين من شهر مايو سحبنا ماءً من آبار قدير معاصر، وفي المساء تزودنا في الماء من بئر قدير في الميسري، وأقمنا مخيمنا الليلي في مكان يسمى النبك، وهو اسم كل المنطقة الممتدة من آبار قدير معاصر حتى الوصول إليه. اسم النبك [أبو قصر] مشتق من اسم حصن صغير خرب على مسافة كيل واحد من الجنوب الغربي لآبار قدير. يتوافر الماء طوال العام في هذه الآبار التي صادفتها حتى الآن، ولكن كما لاحظ السيد غوارماني فهي مياه مالحة وروائحها كريهة. وهذه الآبار ليست في الواقع إلا حفرًا بسيطة غير مسيجة. وقد أشار يوسف المالكي في وصفه لخط سيره إلى آبار قدير معاصر، التي أسماها قدير.

وفي اليوم الرابع والعشرين وصلنا إلى آبار القصايم. وفي مساء اليوم نفسه كنا عند آبار الجراوي الجافة.

من كاف وحتى النبك [أبو قصر]، يستمر الطريق في مجرى الوادي، الممتع السير فيه، فالأرض دائمًا رملية وتُرى فيها الخضرة. عند النبك تبدأ الخضرة في الندرة، وتصبح الأرض صخرية، وغالبًا ما كنا نسير فوق حجارة، وعند آبار الجراوي تنتهي الخضرة تمامًا، ويأخذ مكانها الرمل والحصى. ونظرًا لأننا لم نجد ماء في الجراوي، فقد اجتهدنا في المسير ولم نخيم إلا بعد منتصف الليل في «Ouelma»[١].

كان يوم الخامس والعشرين صعبًا، فلم يكن لدينا ما يكفي من الماء إلا لعجن الدقيق لعمل الخبز. وبما أنه لا توجد أي موارد ماء بعد الجراوي فقد توجب علينا المسير حتى الجوف. وقد سرنا ونحن فوق ظهور رواحلنا من الساعة الرابعة صباحًا ولمدة اثنتين وعشرين ساعة متواصلة حتى وصلنا إلى الجوف عند الساعة الثانية صباح يوم السادس والعشرين من شهر مايو ١٨٨٠.

---

(١) قد يكون يقصد الأعيلي.

كان الظمأ قد بلغ بنا حدّه إذ كان مسيرنا منذ الصباح فوق أرض صخرية قاحلة مكسوة بشظايا صغيرة تشبه شظايا البنادق، ولونها قاتم وتلمع كما لو كانت مدهنة، ورؤيتها متعبة للعين. وفي الساعة الثامنة مساء جاءتنا لفحة هواء شرقية، دامت ساعتين. وعندما قست درجة الحرارة وجدتها تشير إلى اثنين وأربعين درجة مئوية. كانت الحرارة خانقة، وفي حوالي الساعة التاسعة تراكمت الغيوم، لكن بالرغم من قطرات المطر فقد ظل الهواء محرقًا طوال الليل.

لا يعتمد تحديد مسارات السفر في الصحراء أبدًا على طبيعة الأرض أو على مدى ملاءمتها للسير، ولا يعتمد أيضًا على مدى توافر الأعشاب الضرورية للإبل، بل يعتمد على أماكن وجود الماء. وبناءً عليه، فإن اتجاهات السير لا تمثل إلا خطوط مواقع الآبار. إن الجزء الأكبر من هذه الآبار، حفرها البدو في مناطق الرعي الخاصة بهم. وعندما تكون هناك مصلحة تجارية أو سياسية أو دينية تتطلب العبور الدائم لمضارب القبائل التي عادة ما تمنع أعداءها من الماء، فإنها لا تمتلك آبارًا في حدودها بل يحفرون بئرًا أو بئرين لكي يرابطوا بينها، وبخلاف ذلك، فإنه كلما كانت البئر تتطلب عملًا أقل فإنه يتم الإكثار منها، وتلك هي الحالة في الآبار الموجودة في وادي السرحان. كما إن هذا يشرح لنا، لماذا نرى أسماء جديدة كل مرة نقارن فيها المسارات المعروفة حتى اليوم بين حوران والجوف.

ولكي نبين جيدًا التشابه القائم بينها، سأوضح هذه الأسماء المعروفة حتى اليوم، من خلال المسارات التي اتبعها الرحالة الآخرون الذين سبقوني: مسار يوسف المالكي: بصرى، هبكة، الأزرق، إثرة، قرقر، كاف، قدير، أم الفناجيل، قلية، الجوف. مسار غوارماني: كاف، البيضاء، قصيبا، أبو طرفين، العديمات، المحيضر، أويسط، الميسري، النباج، شيبة، الوصيص، النبك، الجراوي، صبيحاء، شغار، الجوف. مسار السيد بلنت وزوجته: ملاخ، كاف، إثرة، شيبة، غرايز، المابية، معارك، شيبة، النبك أبو قصر، الجراوي. مساري (مسار الكاتب): بصرى، عنز، وادي راجل، الأزرق، كاف، الملاحات، قدير معاصر، الميسري، قدير، القصايم،

الجراوي. إلى جانب هذه المسارات الأربعة، يوجد مسار خامس ذكره لي أحد سكان الجوف المولود هناك حاليًا هو غانم صانع السلاح. وهذا المسار: الأزرق، الهزيم، العمري، جبل عرابي، المعاصر، المشاش، قراقر، أويسط، البيضاء، النباج، شغار، شقير، النبك أبو قصر، صبيحة.

إن من السهل أن نجد على الخارطة نقاط التماس لهذه المسارات المختلفة، التي تلتقي عندها بعد ذلك الاتجاهات، التي يسار فيها. كما أن هناك بئرًا معروفة جدًّا في الوادي هي بئر ميقوع.

حللنا ضيوفًا في الجوف عند الشيخ سلطان الحبوب، وهو ابن أخ الشيخ غافل الحبوب[1] الذي سبق واستضاف الرحالة بلغريف. لقد مات غافل منذ عشر سنوات، وسلطان صهر للشيخ عبدالله الخميس.

استقبلني جوهر، مملوك الأمير محمد بن رشيد ونائبه في حكم الجوف، استقبالًا حارًّا. كان جوهر مملوكًا وسيمًا، طوله ١٧٥سم، عمره خمسون عامًا، عليه ملامح ذكاء، دائم الابتسام، ومميز السلوك. كان يستقبلني على الدوام بودٍّ، ويجلسني في صدارة المجلس سواءً أكان ذلك في مقره أو حينما يزورني في بيتي. في كل زيارة من زياراتي له كان يقدم لي ماء حارًّا به سكر (ذلك هو شاي البدو)، وقهوة مصفاة ثم يحضر أحسن التمور مع الزبدة، وقبل هذه وتلك يقدم لي النارجيلة. يمارس جوهر عادة التدخين، وهو بذلك يخالف المبادئ النقية للوهابيين، لكنه في المقابل يتمسك بالمبادئ التي تحرم الموسيقى والغناء في الجوف، الذي كان قديمًا يمتاز بالفرح كما ذكر بلغريف، ولم يعد به ربابة واحدة. لقد ذهب جوهر في لطفه حدًّا بعيدًا في مقابلتي الأولى معه حتى إنه قال لي «المسلم والنصراني سوى سوى»، أي كلهم واحد.

إن الجوف واحدة من أقدم الواحات في الجزيرة العربية، ولقد ذكر ذلك بطليموس وبعد ذلك ذكره عدد كبير من المؤلفين العرب. فبطليموس (Ptolemy)

---

(١) هو سلطان بن فهاد بن رخيص الحبوب، ولم يكن أبن أخ بل ابن أبن أخ غافل الحبوب.

ذكر الجوف تحت اسم دوماثا (Dometha)[١]، بينما المؤلفون العرب ذكروه باسم دومة الجندل، وهي تسمية مازالت معروفة عند العرب الحاليين. يشير أحد النصوص الآشورية التي ذكرها هنري رولنسون (Henry C. Rawlinson)[٢] إلى وجود هذا المكان في القرن السابع قبل الميلاد تحت اسم أدومات، وكان فيها ملك يسمى آكبارو «Akbarou»، وقد هُزم في حملة قامت بها الجيوش الآشورية تحت حكم الملك الآشوري أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩ قبل الميلاد)[٣]، وبعدها لم نعد نعرف شيئًا كثيرًا عن هذا المكان. ولكي نخرجه من الظلمات، يجب أن نصل حتى عهد هجرة النبي محمد ﷺ، ففي هذا الوقت، كان على هذا المكان ملك لقبيلة كندة يدعى أُكيدر وكان نصرانيًّا، أرسل له الرسول جيشًا قوامه أربع مئة وعشرون فارسًا لكي يخضعه ويدخله الإسلام. هذه المجموعة القليلة العدد حاصرته وأجبرته على أن يخضع لهم، وهذا ما يعطي فكرة هزيلة عن قوة الأخير وإقدامه، أو بالأحرى عن قوة إيمانه. لقد افتدى نفسه بمئتين وثمانين جملًا وأربع مئة درع، والعدد نفسه من الأقواس. وقد وفد شخصيًّا إلى المدينة أمام الرسول مرتديًا جبة من الحرير، ويضع على صدره صليبًا من الذهب. لقد ارتد واعتنق الإسلام هو وشعبه، وقد مكّنه ذلك من الاحتفاظ بمكانته أميرًا على قومه.

كان أهالي الجوف قبل الإسلام، حسب قول بعض المؤلفين، نصارى وقبل ذلك كانوا يهودًا، وقبل اليهودية كانوا وثنيين، وكان لهم صنم يعبدونه اسمه ود.

ابتداءً من تلك الحقبة، أصبح للجوف أهمية كبيرة، ولكن لا يعرف

---

(١) Ptolemy (Claudius Ptolemaeus), **Geography**, V. 19: 7.

(٢) هنري رولنسون (١٨١٠-١٨٩٥) دبلوماسي ومستشرق إنجليزي تخصص بالدراسات الآشورية وأصبح رائدها الأول حيث اكتشف وجمع الكثير من الألواح الأشورية وحل رموز اللغة المسمارية، التي دوّنت بها تلك الألواح وترجم ونشر الكثير منها.

(٣) H. C. Rawlinson, **Cuneiform Inscription of Western Asia**,Vol.1, Prisms A and C, Col.3,11.25-52(London: R. E. Bowler, 1861).

الكثير عن أحوالها إلا ما ذكره بعض الجغرافيين العرب مثل الإدريسي[1] وياقوت[2] أو الهمداني[3].

عند نهاية القرن الماضي[القرن الثامن عشر الميلادي]، عمت الجوف حرب أهلية، وهي من مظاهر هذه البلدة، فغزاها الوهابيون وخضعت لهم، وقد بعث ابن سعود عاملاً ليعمل على تهدئة الأوضاع، كما بعث أيضًا خطيبًا للعمل على نشر دعوته.

لقد أدى قضاء محمد علي حاكم مصر على دولة هذه الدعوة إلى تحرير الجوف، لكنها عادت سيرتها الأولى في حروبها الأهلية حتى عام ١٨٣٨. ففي هذه السنة قام عبدالله بن رشيد أمير حائل بحملة لنجدة أصدقائه في حي الجرعاوي، الذين تعود جذورهم إلى قبيلة شمر، وكانوا في حرب مع جيرانهم في حي الدلهمية. أدت غزوة عبدالله بن رشيد إلى خضوع الجوف له والصلح والوفاق بينهم. هذا النير الجديد، كان ثقيلاً على أهالي الجوف، ولضعف حكومة ابن رشيد فقد فكروا في استرداد استقلالهم، لذلك انتفضوا، وعملوا على طرد الحاكم الشمري. وهذا النصر الذى تحقق من المحتمل أن يكون قد تحقق بدعم قبيلة الرولة، وهم قبائل النايف والشعلان، التي أصبحت قبل فترة جزءًا من قبائل الجوف، وكانت فى عداء مستمر مع شمر، فضلاً عن أنها كانت طوال فترة ازدهارها في عداء مع الوهابية.

لقد أعاد أمير شمر، طلال بن رشيد الأمر إلى ما كان عليه، فطلال لم يكن الرجل الذى يتحمل الهزيمة. لقد كانت النفود قاسية إلا إنها لم تكن عائقًا بالنسبة لأعراب الأمس. حدث ذلك عام ١٨٥٣ أي بعد شهر من العصيان.

---

(١) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إدريس (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م . ٥٥٩هـ/ ١١٦٦م) أحد كبار الجغرافيين ومؤسسي علم الجغرافيا، له الكتاب الشهير **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**.

(٢) ياقوت الحموي مؤلف **معجم البلدان**.

(٣) أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (٢٨٠هـ٨٩٣م/ - ٣٣٦هـ/ ٩٤٧) له العديد من المؤلفات والتي لازال الكثير منها مجهولًا، له في الجغرافيا كتاب **صفة جزيرة العرب**.

عسكر طلال أمام الواحة، وذلك على الأرجح لكي يعمل على زعزعة معنويات المحاصرين وإضعافهم. وقد عمل على قذفهم بمدفعين جلبهما معه من حائل، وقد نجح في التأثير على معنويات المقاومة داخل السوقين، سوق المارد وسوق عين أم سالم، المأهولين بالعرب الرحيمات، الذين ترجع أصولهم إلى المناطق المحيطة بالنجف في الهلال الخصيب. وبعد عشرين يومًا من الحصار، اقتحم طلال السوقين ودمرهما كليًّا، ورأيت دمارهما بنفسي. سوق مارد الشهير تم ترميمه، وسُكن فيه مرة أخرى. أما بالنسبة لسكانه الأقدمين فمن لم يقتل منهم فقد هاجر وترك الواحة إلى الأبد، ومنذ تلك الفترة لم يعد هناك ما يعكر صفو السلام.

إن ما يفسر الانقسام الداخلي في الجوف هو أنها ليست واحدة، إذ تتألف من خمس عشرة قرية [حي] قائمة إلى جانب بعضها بعضًا. وكل قرية من هذه القرى محاطة بسور له باب واحد، ولكل قرية شيخها. وهذه القرى أو الأسواق هي:

١ - الهويدي في الشمال الشرقي، وعلى مسافة ميلين من مارد.

٢ - القراطين، ويقع أسفل الواحة.

٣ - عين أم سالم وهي الآن أطلال، ويسكنها بدو من الرولة من قبائل عنزة.

٤ - مارد ويقع جنوب عين أم سالم وهي أطلال، سكنها قوم أصلهم من شقراء، وهي بلدة تقع شمال القصيم. وهذا السوق يطلق عليه الدرع وهذا الاسم هو الأكثر شهرة بعد اسم مارد. ومن المحتمل أن يكون سوق مارد قد بني كليًّا بالصخور الجبلية وكما أسلفتُ فإن هذا السوق قد أعيد ترميمه، وتم بناء الجزء العلوي منه بعد أن كان قد هُدم أيضًا.

٥ - القعيد ناحية الغرب.

٦ - السعيدين، وقد سماه والن السعيديين، وذكر أن فيه قلعة قوية تسمى «القصير» وسكانها خليط من خمس قبائل، كانوا أعداء لسكان ديرة مارد.

٧ - السلمان بالقرب من مركز الواحة.

٨ - الحبوب.

٩ - السعيدان، ووضع سكانه مثل وضع سكان غطي.

١٠ - الرحيبيين، كان يسكنه في السابق بدو من تميم، أما حاليًا فسكانه مهاجرون من رحيبة في سورية.

١١ - علاج، أسسته وسكنتها عائلات من الطفيلة.

١٢ - الشعيب.

١٣ - خذما، ويقطنه بدو من السرحان، وكان به بئر ماؤها من أفضل مياه الجوف. كما قطنه المولدّون وهم أفارقة ينحدر أصلهم من الزنوج المجلوبين قديمًا من مكة.

١٤ - الدلهمية، دمره أمير شمر عند انتصاره سنة١٨٣٨. وفي هذا السوق شيد حاكم شمر قصره الذي يعد بحق قلعة حصينة.

١٥ - غطي، يقع في قاع الواحة وتسكنه عائلات تعود في جذورها إلى شمر، وقد قدموا من جبة.نلاحظ أن هناك اختلافًا بسيطًا بين الأسماء الوارده آنفًا، وتلك التي أوردها «والن» و«غوارماني» وهذا الاختلاف يعزى إلى أن جميع الأسواق لها أسماء أخرى، فمثلًا سوق عين أم سالم يسمى أيضًا الغرب.

منذ أن أصبح أمير شمر حاكمًا مطلقًا على الجوف، فإن صلة الواحة بالبدو الرحل أصبحت أقل مما كانت عليه سابقًا. لم يتأثر البدو بانقطاع هذه الصلة، فيما يخص تسويق إنتاجهم من منسوجات وسمن، كما أن عدم وصول المنتوجات إلى سكان الجوف لم يكن مشكلة أيضًا، لأنهم يتحصلون عليها من قبيلة الشرارات، التي تخضع لسلطة شمر. كما أن الرولة لهم علاقات مع سورية، وفيها يبيعون منتوجاتهم وإبلهم، ويشترون منها الملابس والأرز والقمح، وبذلك يحققون أرباحًا جيدة.

في القرن الأخير، كانت الجوف، قبل دخولها تحت سلطة الوهابيين،

تتعرض لعمليات سلب متكرر من قبل بدو بني صخر. أما الشرارات فليس لهم غير أن يعملوا للآخرين، لكن نظرًا لوقوعهم في الطريق بين الجوف وفلسطين، وبين تيماء وجبل شمر فقد كانوا يتعرضون للقوافل. وحيث إنهم يقطنون منطقة صحراوية معزولة وتعوزهم الوسيلة للاتصال بالمناطق الأخرى المحيطة بهم فهم يمدون الجوف بالمنسوجات والسمن ويحصلون في المقابل على التمور والعباءات والبرانس، وكذلك بعض الأشياء الضرورية لحياتهم وما لا يستطيعون توفيره مثل الملح والجلود المدبوغة. ليس في الجوف من إنتاج غير التمور، وهي من أفضل أنواع التمور الموجودة في الجزيرة العربية. أما القمح فينتج بها، لكن بكميات قليلة. هناك أيضًا بعض الصناعات ولكنها تقتصر على حياكة العباءات الخفيفة التي تباع على حسب النوعية، وتتراوح أسعارها بين مجيدي ومجيديين، وبها صناعة الأحذية وبعض المصنوعات الجلدية والمعدنية، والملح.

كانت النقود غير معروفة تقريبًا بالجوف، والمقايضة هي قاعدة المعاملات التجارية. عندما وصلت إليها توقفنا عند أول منزل في طريقنا لكي أسجل زمن وصولي في المفكرة. لقد كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحًا، وبالرغم من ذلك الوقت المبكر، خرجت امرأة من المنزل تحمل كأس ماء وقدمته للرجل الذي كان معي، وكان رجلًا شهمًا فطلب منها أن تقدم لي الماء أولًا، وفعلت ما أمرها به. وبعد أن شربت قدمت الكأس لرفيقي وأردت أن أعترف لها بذلك الجميل، فأعطيتها ربع مجيدي فأخذته باستغراب شديد، وقد سألها الشيخ عبدالله إن كانت قد رأت النقود قبل ذلك. فردت أبدًا.

تُعدّ الجوف واحة لوفرة الماء فيها، وعليه تقوم حياة الإنسان وحياة النخيل، وهو إما في الآبار أو الأحواض التي تحصل عليه من الأمطار نادرة الهطول. وغالبًا ما يكون الماء ذا طعم غير جيد، ومن ثم غير مستساغ، وليس هناك استثناء للآبار الأخرى ما عدا عين خذما في السوق الذي يحمل اسم البئر نفسه، ويعدّ ماؤها مقبولًا نسبيًّا.

أخبرني عدد من الأهالي، بأن كمية الماء قد نقصت عما كانت عليه في

السابق وهذا أيضًا يفسر لنا سبب تراجع عدد السكان في المنطقة عما كان عليه فى الماضي.

فى الشرق الذي لا تجري فيه عمليات لإحصاء السكان، كانت عملية التعداد تتم إما عن طريق النيران المتقدة، أو عن طريق عدد الشباب القادرين على حمل السلاح، والطريقة الثالثة عن طريق العد المباشر إذا كان ذلك ممكنًا. كل هذه الطرق، تسمح بالتوصل إلى نسبة تقريبية عند استعمال واحدة منها. وهذه الطرق تستعمل فى سائر البلاد، ولا يمكننا استثناء بلد معين فيما يتعلق بهذا الموضوع، إلا أن النتيجة في هذا الشأن دائمًا موضع شك. هناك طريقة للتقدير أكثر أصالة وأكثر دقة، وبالتالي لم أر أنها قد ذكرت من قبل أحد الرحالة السابقين، كما أنها لا تستعمل بطريقة صحيحة إلا فى منطقة نجد بالذات. هذه الطريقة ترتبط بمعرفة عدد الأماكن المتاحة في الجامع الرئيس.

إن أحد المبادئ الأساس للدعوة الوهابية شرط أداء صلاة الجمعة بالجامع الرئيس. أما صلوات الأيام الأخرى فيمكن أداؤها فى المسجد الخاص بكل سوق أو حي. وهذا التقليد متبع عندنا إذ يذهب الناس للكنيسة التي يخدمها راهب. أما صلاة يوم الأحد فتقام بالكنيسة الكبيرة (الكاثدرائية). وفي وسط الجزيرة العربية يحرصون على أن يكون الجامع كبيرًا، حتى يتمكن كل البالغين بالمنطقة من تأدية صلاة الجمعة فيه، وبالتالي ينبغي أن يكون هناك متسع للجميع، وهذا ما يجعلنا نقول: إن عددهم يكون معروفًا لكل الناس. والعدد الزائد يمكن تقديره أيضًا إذ إنه عند الصلاة تصطف الناس جنبًا إلى جنب فيأخذ كل واحد منهم مساحة مترًا وسبعين سنتيمترًا مربعًا. وإذا ما قسمنا مساحة المسجد على المساحة التي يشغلها كل مصلٍّ فإننا سنحصل على عدد السكان. بالنسبة للجوف، فإنه يتعذر استخدام هذه الطريقة إذ إنه مع وجود مسجد جامع في قلعة الحاكم إلا إن الناس غير ملزمين بأداء صلاة الجمعة فى الجامع. ويمكن القول إنها لم تكن إلزامية قبل ذلك البتة لزيادة عدد سكان الجوف ومحدودية مساحتها التي لا تتجاوز خمسة كيلات.

إن بوركهارت هو أول رحالة يقدر سكان الجوف بستة آلاف نسمة. وفي

سنة ١٨٦٢ قدرهم بلغريف بأربعة وثلاثين ألف نسمة، وقدرهم غوارماني بعد سنتين من ذلك في عام ١٨٦٤ بستة آلاف نسمة لـ ١٣ ثلاثة عشر سوقًا أو حيًّا. حسبما علمت إبان إقامتي في الجوف، ومن بعدها في حائل، فإن هناك ألف وخمس مئة بندقية بالجوف، ومع ذلك لا أعتقد أن تعداد سكان الجوف يتجاوز أكثر من اثني عشر ألف نسمة. أما البلدات القائمة حول مدينة الجوف فهي:

١ - سكاكة، وهي بالقرب من جبل الحماميات على بعد حوالي ٤٥ كيلًا تقريبًا في اتجاه الشمال الشرقي من الجوف، ويبلغ عدد سكانها ثمانية آلاف نسمة، وهذه المنطقة لم تكن قائمة قبل قرن من الزمن، وبالرغم من أنهم قدموا من بلدة الجوف إلا إنها كانت أكثر ازدهارًا قبل أن تكون تابعة لشمر. لقد كانت منطقة جذب لسكان المناطق الأخرى لوفرة مائها وقصر عمق آبارها بخلاف الجوف.

٢ - قارة، وتقع على مسافة اثنين وثلاثين كيلًا باتجاه ٧٠ درجة شمال الجوف، ويبلغ عدد سكانها ألف نسمة.

٣ - سحارة، وتقع على بعد عشرة أكيال في الشمال الغربي من الجوف، ويسكنها خمسون نسمة[١].

٤ - حسياء، وتقع على مسافة سبعة أكيال باتجاه الشمال، وعلى ٣٥ درجة غرب الجوف، ويسكنها خمسون نسمة[٢].

هاتان المنطقتان الأخيرتان، قديمتان قدم الجوف ذاتها. ولقد كانت لهما أهمية كبيرة، إلا أنهما الآن أطلال.

٥ - جاوة: تقع على الطريق المؤدي إلى سكاكة، وتبعد مسافة واحد وعشرين كيلًا.

٦ - مويسن: أكثر بعدًا من جاوة وبالتحديد في منتصف المسافة بين الجوف

---

(١) سحارة أحد الأحياء الداخلة ضمن نطاق وادي بلدة الجوف نفسها وليس ما ذكر، وهي جزء من أحياء غرب البلدة، وهو حي قائم إلى اليوم.

(٢) حسياء أيضًا ضمن نطاق البلدة نفسها.

وسكاكة.وتعدّ مويسن وجاوة مناطق معاصرة للجوف تاريخيًّا، وهما اليوم أطلال مهجورة.

كنت قد أبلغت جوهر عند لقائي الأول معه برغبتي بزيارة حائل، فأفاد بأن الرحلة شبه مستحيلة لصعوبة ومخاطر النفود، واستحالة اجتيازها في فصل الصيف. وأخبرني أن النفود الآن بحر من النار، سوف يلتهمني، فضلًا عن أنه ليس هناك دليل مستعد للذهاب معي. وقد أجبته بأنني أعرف أن البدو يجتازونها أحيانًا في منتصف فصل الصيف، وأنني قادر على الفعل نفسه. في ذلك اليوم لم ألحّ عليه كثيرًا. في صباح اليوم التالي وبعد أن قدمت له بعض الهدايا كررت له الطلب الأول نفسه فزالت كل العقبات ماعدا مشكلة الدليل؛ لكن عندما بينت له رغبتي في زيارة سيده محمد بن رشيد اقترحت عليه أن يتولى بنفسه البحث عن الدليل.

في آخر يوم من أيام شهر مايو ١٨٨٠ عثرنا على الدليل، وقد حُدِّد موعد المغادرة في اليوم التالي. هذا الدليل وهو من أهل الجوف يحمل اسم محارب، وكان رجلًا عجوزًا قليل الحجم، ملامحه صارمة. وكان مساعده أيضًا، ويحمل اسم صايل، من أبناء الجوف وقد قطعا النفود مرات عدة في السابق. قبل فجر صباح اليوم الأول من شهر يونيو كنا قد نهضنا من النوم إلا أن شد الرحال وتحميل القافلة وتجهيز الزاد وتوديع الأهل والأصدقاء، إضافة إلى حذر العربي عند السفر، حالت دون بدء الرحلة قبل تمام الساعة السادسة والنصف صباحًا.

ما إن خرجنا من وادي الجوف، وكان ذلك بعد ربع ساعة من المسير، حتى وصلنا إلى هضبة حصباوية هي امتداد للهضبة الواقعة شمال الواحة وتمتد إلى آبار الجراوي. بعد نصف ساعة من المسير فوق هذه الهضبة شاهدنا أمامنا، ومن بعيد، خطًّا أبيض اللون ثم لما اقتربنا منه صار لونه لون الزهر الفاتح. إنه النفود الذي وصلنا إليه بعد ساعة ونصف الساعة من مغادرتنا بلدة الجوف.

إن كل من قرأ الوصف الذي كتبه ويلفرد بلغريف عن النفود يتذكر تلك الصحراء التي عبرها هذا الرحالة الإنجليزي. يقول بلغريف: « سمعنا الكثير عن

النفود من البدو وكذلك من غيرهم إلى الدرجة التي جعلتنا نترقب مواجهة أشياء مروعة منها، لكن الحقيقة تتعدى ما سمعناه وما تخيلناه عن هذه الصحراء». ثم يضيف الكاتب واصفًا النفود بأنها أجمل ما في الصحراء، حيث يقول إنها عبارة عن تلال رملية متحركة يتراوح ارتفاعها بين مئتين وثلاث مئة قدم، ويوجد فوقها بحر كبير من النار. ويقول الكاتب: «كنا نعبر محيطًا واسعًا من الرمل المحمر غير المتماسك اللامتناهي بالنسبة للعين والمتراكم في سلاسل هائلة تجري متحاذية من الشمال إلى الجنوب، تموج إثر تموج، وترتفع كل منها إلى مئتين أو ثلاث مئة قدم في المتوسط بحوافٍّ منحرفة وقنن مستديرة متجعدة في كل الاتجاهات بفعل أنواء الصحراء المتقلبة الأطوار. وفيما بين الأعماق يجد المسافر نفسه كما لو كان سجينًا في حفرة رملية خانقة، محاطًا بأسوار لاهبة من كل جهة، وأحيانًا وهو يكد في صعود المنحدر، يطل على ما يبدو بحرًا واسعًا من النار تتصاعد تحت ريح موسمية شديدة، وتتجعد بفعل انفجار مضاد في موجات حارة حمراء صغيرة . . .إلخ».

إنها لمفاجأة سارة بالنسبة لي رؤية هذا المشهد عن قرب، وكان كل ما ذُكر عنها مبالغًا فيه رغم حقيقة وعورتها وصعوبتها بالنسبة للإبل. وعلى الرغم من هذا العيب فإن هناك العديد من الميزات، ولا أظن أن بدويًّا يختار عن النفود صحراء أخرى. تتميز النفود فوق كونها صحراء من الرمال الصافية التي لا يشوبها شائبة من التربة والحصى أو أية مادة غريبة تكمن في فلوقها. وفلوق النفود عبارة عن حفر نصف بيضوية الشكل في عمق الرمال من جهة منحناها، وتشبه كثيرًا آثار حافر حصان ضخم. هذا الحافر المجوف قليلًا والمنحني على شكل قوس ذي قطر يتراوح ما بين ثلاث مئة أو أربع مئة متر، إلا من طرفه، وفي العمق نحو خمسين أو ستين أو سبعين أو ثمانين مترًا. واتجاهه هو اتجاه سير الحصان نفسه نحو الشمال الغربي. ما يدهش أيضًا درجة ميلان الجدران الداخلية لحافر الحصان بسبب نعومة الرمال، ويصل هذا الميلان إلى خمسين أو ستين درجة حتى أن كل جسم يقذف من قمته يتدحرج إلى قعره ككرة ثلجية تتسبب في انهيارات رملية. ومع أن هذا التوازن غير الثابت يجعلنا نتصور وجود انهيارات متواصلة فإن الفلق يبقى ثابتًا، وبالتالي تبقى النفود محتفظة على

الدوام بالمظهر نفسه. بعض هذه الفلوق تعبر كامل طبقة الرمال بالعرض، وتسمح بمشاهدة قعرها وهو إما أرض طينية أو صخرية بها أحجار كلسية أو صوانية مثلما هو الحال في منطقة الحماد. من بين هذه الفلوق المذكورة على الخارطة التي تمتاز بهذه الخاصية بالإضافة إلى عمقها فلوق عيون قفيع وفلوق البيضاء.

نفهم من هذا عدم دقة معلومات بلغريف لأنه لا يمكن أبدًا تسلق أو النزول من هذه الفلوق؛ لأن زاوية انحدارها لا تسمح لا بالصعود ولا بالنزول إلى قعرها. والطريق التي سلكناها إما تدور حولها أو تمر من ورائها على شكل وتر القوس.

هناك الكثير من الفلوق، لكن أكبرها في الجهة الغربية وخاصة في الجنوب الغربي على شكل تلال رملية مرتفعة تعلوها قمم ذات ارتفاع يتراوح مابين ثلاثة وأربعة أمتار بمنحدرات حادة. وهذا ما لاحظته أيضًا الليدي آن بلنت. تقول بلنت: إن قمم هذه الفلوق ذات اللون الأبيض هي المهيمنة على تلك الفلوق ذات الألوان الأخرى في النفود. إن هذه الألوان لا تعدو أن تكون خدعة بصرية أو سراب، فالعينة التي أخذتها بنفسي وبعد مقارنتها مع عينات أخرى من النفود، تبين أن لها المكونات نفسها ودرجة اللون نفسه.

بالإضافة إلى ظاهرة الفلوق ذوات القمم العالية هناك ظاهرة أخرى لهذه الصحراء ألا وهي التموجات الرملية العالية التي تشقها في بعض الأماكن، وتمتد من الشرق إلى الغرب وتعلو عن المستوى العام للنفود، حيث يبلغ ارتفاعها من عشر إلى خمسة عشر وإلى العشرين مترًا. قمم هذه التموجات تظهر بيضاء اللون، ويوجد منها ثلاث أو أربع على الطريق الممتدة بين الجوف وجبل شمر.

قد يتصور البعض أن مثل هذه الصحراء الرملية تمثل وحدة مريعة لا مثيل لها، ومع ذلك يوجد بها بعض النباتات الكثيفة نسبيًّا والغنية والتي بدورها توفر الغذاء طوال الطريق للإبل التي تعبرها.

لقد شاهدنا في بداية الطريق وخاصة في منطقة الحماد بعض الشجيرات الهزيلة مثل العاذر والغضا التي لا يتعدى ارتفاعها قدمين، ولكن عندما دخلنا

النفود وجدنا نوعية هذه الأشجار نفسها، لكن ارتفاعها يتراوح ما بين ثلاثة وأربعة أمتار، فكان ذلك مدعاة لسروري، فالنفود هي جنة الإبل. فبالإضافة إلى الشجيرات المشار إليها التي نجدها في منطقة الحماد وصحاري أخرى، إلا أن هناك نوعين من النبت لا يوجدان إلا بها وهما الأرطى والحماط [1]، ويمتاز النوع الأول بارتفاعه والثاني بطعمه اللذيذ. وفيها أيضًا أنواع من العشب وهي النصي[2] والسبط[3] والعرفج[4] والحمراء، وهي مرتبة حسب الأفضلية.إن جميع النباتات وخاصة العشبية منها تكون مجموعة معًا، وفي بعض الحالات نجد قطعًا كبيرة من الأرض لا يوجد بها إلا نوع واحد. كانت نبتة النصي هي الأكثر شيوعًا.

إن فصل الشتاء هو الفصل الذي تكشف به النفود عن مميزاتها عندما تصبح مرعًى جيدًا. فساعات قليلة تكفي لكي تنبت الجذور الموجودة بكثرة في رمال النفود، وخلال خمسة عشر يومًا تصبح أرض النفود مغطاة ببساط

---

(١) اسمه العلمي (Moltikiopsis ciliata)! ويسمى أيضًا الحَلَم، وهو نبت معمر يسمو إلى ٣٠سم، كثير التفرع من القاعدة تغطيه الشعيرات الكثيفة خشن الملمس ذو لون أخضر مبيض، أوراقه جالسة بيضاوية مطاولة إلى رمحية مطاولة طولها ٢سم وعرضه ٠,٨سم ذات شعيرات هدبية بحوافها، الأزهار نورة محدودة، والزهرة صغيرة غالبًا جالسة زهرية باهتة إلى بيضاء بطول ١سم، والثمرة بيضاوية عبارة عن بندقه أو بندقتين عرضها ٢,٠.سم بيضاوية. وهو نبات رعوي. انظر: **النباتات البرية في مراعي شمال المملكة العربية السعودية**، مصدر سابق، ص. ٣٣.

(٢) اسمه العلمي (Stipoagrostis plumosa) وهو نبت معمر يسمو إلى ٥٠سم، قصباته ذات عقد، ونصل أوراقه خيطيّ ملتف ومنحني إلى متموج بطول ١٥سم، نورته السنبلية ضيقة بطول ١٥سم وعرض ٢سم عند النضج ذات مظهر ريشي. ينمو في الأرض الرملية اللينة. انظر: المصدر السابق، ص. ١٦٨.

(٣) اسمه العلمي (Stipagrostis drarii) وهو نبت من الفصيلة النجيلية، معمر كثير الأفرع يسمو إلى ١٠٠سم، عقد قصباته وبرية، ونصل أوراقه خيطي ملتف طوله ٤٠سم، نورته السنبلية مفتوحة بطول ٣٥ سم يضمها من الأسفل غمد الورقة، وتحوي العديد من السنيبلات الذي يصل طولها إلى ١سم وذات سفا طويل. يزهر في شهر مايو. المصدر السابق، ص. ١٦٧.

(٤) اسمه العلمي (Rhanterium epapposum) وهو نبت معمر شجيري قزمي، السيقان بيضاء وبرية كثيرة التفرع ويسمو إلى ٧٠سم، أوراقه قليلة جالسة ضيقة شريطية طولها ٤سم وعرضها٠,٣ سم كاملة الحافة أو مسننة قليلًا، الرؤوس زهرية صفراء أحادية طرفية عرضها ٠.١ سم ذات قلافات داخلية طويلة، الثمرة فقيرة معدومة الذؤابة. يزهر في مارس وأبريل. انظر: المصدر السابق، ص. ١٠٦.

أخضر فيه عدد من أنواع النباتات ذات الأوراق السميكة الغنية بالماء. أنه فصل العشب حيث يمكن ترك الإبل والأغنام ترعى فيه دون التفكير في سقيها. وطيلة فصل العشب هذا لا تحتاج الحيوانات إلى شرب الماء.

إذا أردنا معرفة زمن تكوّن النفود وتضاريسها، فأول فكرة تخطر بالبال هي أن الفلوق قد تكون تشكلت من جراء العواصف والأعاصير التي تغير نمط المنطقة من وقت الى آخر. لكن سرعان ما يتغير هذا الافتراض خاصة بعد مشاهدتنا لتواتر وتناسق الفلوق. فإذا افترضنا أنها تكونت بسبب عامل الرياح فإنها ستضمحل أو تغيب قطعًا بالعامل نفسه، لكن شيئًا من هذا القبيل لم يحدث كما يؤكد رفيقي البدوي. فعلاوة على عدم مواجهة النفود لرياح عاتية فإنه منذ ثلاثين أو أربعين سنة لم يلاحظ أي تغيير في حالة ومكان الفلوق كلما مر بها. بيد أنه من المؤكد أن البدوي لاحظ ذلك بسبب أحجامها الكبيرة، وشكلها ولون قاعها ومن بينها نذكر «فلوق عيون قفيع وفلوق البيضاء» التي ذكرت آنفًا وهي معروفة منذ أجيال عدة. رغم ذلك لا أجرؤ على القول للعربي دليلي الذي صاحبني أن النفود ثابتة الشكل، بل أؤكد عكس ذلك مرتكزًا على الحقائق التالية:

أولًا: لقد قابلت عديد المرات فضاءات واسعة متساوية المساحات تصل مساحاتها إلى أربعين وخمسين وستين هكتارًا، لا يمكن تفسير وجودها بين هذه الفلوق المغطاة، ولقد تمكنت في سهلين من هذه السهول الكبيرة من سلوك المحيط الأعلى باتجاه الغرب، لجوانب الفلق القديمة الموجودة بها.

ثانيًا: إن الرياح الشائعة في النفود هي تلك القادمة من الغرب، وتأكيدًا لذلك نلاحظ أولًا أن ميلان جميع النباتات هو باتجاه الشرق وانحدار الرمل هو من الناحية الشرقية لجميع الآجام والشجيرات، أضف إلى ذلك أن التعرية في سيقان وجذوع النبات هي في الجهة المقابلة للغرب. تشير هذه الملحوظة إلى أن النفود تتحرك من الغرب إلى الشرق، وإذا ما تحركت فإنه من البديهي القول إنها لا تتحرك بصفة كلية لا سيما وأن الرياح لا تحرك إلا الطبقات السطحية. وأن قسمًا كبيرًا من الرمال المتحركة تنزل ما بين الفلوق. نستنتج من ذلك أن

الحركة الانتقالية للنفود حاليًّا بطيئة بسبب العقبات المتواصلة التي تواجهها عند الطعوس والكثبان المرتفعة، وكذلك فإن القسم الأكبر من الرمال المنقولة، إن لم تكن كلها، تبتلعه أطراف الفلوق. وإذا افترضنا صحة هذه النظرية، فإن عدد الفلوق في الطرف الغربي للنفود سيكون قليلًا أو منعدمًا تمامًا لأنها ستكون الأولى التي تغمرها الرمال، لكن ليست لدي أية حقيقة أكيدة جديرة بالذكر في هذا السياق والمعلومات التي استقيتها من البدو متناقضة. كما أن وجود النفود في الشمال لا يضيف أي شيء لأن النقاط التي تحدد بدايتها لم يتم اكتشافها إلا منذ زمن قريب، وهذا لن يضيف لنا أي جديد.

بقي سؤال لا إجابة له عندي، وهو الأهم، حول أصل النفود. كانت الفكرة عندي في البداية هي أن تكوين هذه الكتلة الرملية جاء نتيجة لتحلل الجبال الصخرية الرملية الواقعة في الغرب وفي الجنوب الغربي على وجه الدقة، التي لم يبق منها حتى الآن إلا جبال المسمى والخنذوة وعرنان وحلوان والخل. . .إلخ[1]. ولأن اتساع مساحة النفود، التي حسب تصوري، أكبر بكثير من الجبال المتوقع وجودها سابقًا في المناطق المشار إليها آنفًا، فإن رياحًا عاتية في الأزمان السالفة مختلفة عن نوعية الرياح الحالية كانت تهب على هذه المناطق. وأخيرًا أود التطرق إلى افتراض مهم حول تفسير تكوين الفلوق لكن في هذه الظروف سأتحفظ على إبداء رأيي انتظارًا لمعلومات جديدة قد تساعد أولًا في تفسير تكوّن ظاهرة النفود.

يطلق علماء الجغرافيا العرب القدامى على النفود اسم الضاحي أو الطعوس، وتمتاز حسب آرائهم بتلالها الرملية، وندرة مياهها ووجود شجيرات الغضى والنصي فيها. وحاليًّا لم تعد كلمتا الضاحي والطعوس معروفتين بتاتًا، لكن في المقابل يستعمل البدو كلمة رمل عالج، أما سكان جبل شمر فيستخدمون كلمة النفود.

---

(١) تشمل هذه السلسلة كثير من السلاسل الجبلية الواقعة غرب وجنوب صحراء النفود، منها: جبال المسمى، جبال الصحية، جبل الحدباء، جبال الخنذوة، جبال الملحية، جبال عرنان، جبال الخرم، جبل ظلماء، جبل عاقر، جبال ذريعات، جبال أبا مغير، جبال أكباد، وجبل حلوان.

بعد خروجنا مباشرة من بلدة الجوف، وحيث سرنا في هضبة حجرية شاهدنا منها وعلى مسافة عشرين كيلًا باتجاه الجنوب، قمة سلسلة الجبال الممتدة على طول أربعين كيلًا من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي: إنه جبل الطويل الذي تحيط به النفود الأمر الذي لا يسمح بتجمع المياه عند نزول الأمطار.

هل يصح أيضًا إطلاق اسم الدهناء على هذه الصحراء كما فعل بعض الجغرافيين العرب القدماء، وهي أرض شاسعة كان يقطنها بنو تميم في الشمال الشرقي لجبل شمر؟[١] وصف هامكر(H. A. Hamaker) الدهناء بقوله: «هي منطقة بني تميم الممتدة من حران حتى رمال يبرين، وحباها الله بأخصب مرعى مع ندرة الماء فيها. وفي فصل الربيع تصبح هذه المنطقة خضراء يجتمع فيها العديد من قبائل العرب. ويصفها هؤلاء بأنها تمتاز بنقاء هوائها ولا يصابون فيها بالحمى، . . . إلخ »[٢]. سأنظر في الإجابة عن هذا السؤال مستقبلًا.

لم نكن في عجلة من أمرنا لذلك لم نشد على رحالنا لتسرع في خطوها حتى إننا في اليوم الأول لم نقطع إلا اثنين وعشرين ميلًا في عشر ساعات من المسير. وقد كانت الرياح شرقية ودرجة الحرارة مقبولة جدًّا بسبب نسمة عليلة كانت تهب طوال اليوم. أما مشهد النفود، فكان جديدًا بالنسبة لي مع أنه ليس غريبًا، وكان المشهد رائعًا أيضًا.

في اليوم التالي، بدأنا رحلتنا عند الساعة الثالثة والنصف فجرًا لاغتنام

---

(١) لقد حاول الرحالة الفنلندي جورج أوغست والن الإجابة عن هذا السؤال من قبل. حول ذلك انظر: عوض البادي ، **الرحالة الأوروبيون في شمال وسط الجزيرة العربية: منطقة حائل** (بيروت: دار برزان، ٢٠٠٤)، ص ص. ٤٣-٥٢.

(٢) وصف هامكر يعتمد على ما نقله من المصادر العربية التي وصفتها بالقول: « الدهناء ديار بني تميم معروفة، تقصر وتمدُّ... وهي سبعة أجبل من الرمل في عرضها، بين كل جبلين شقيقة، وطولها من حزن ينسوعة إلى رمل يبرين، وهي من أكثر بلاد الله كلأ مع قلة أعذاء ومياه، وإذا أخصبت الهناء ربّعت العرب جميعًا لسعتها وكثرة شجرها، وهي عذاة مكة نزهة، من سكنها لا يعرف الحمّى لطيب تربتها وهوائها...». انظر: **معجم البلدان**، ج٢، ص. ص.٥٦٠-٥٦١.

نسمات الصباح الباردة. وعند الساعة التاسعة كنا قد وصلنا إلى وادي الشقيق. يبلغ اتساع هذا الوادي كيلين، وأرضه غير مستوية، وقاعه صخري، وينخفض بثلاثين أو خمسين مترًا عن مستوى النفود. وفي بعض الأماكن من مجرى هذا الوادي صخور متلاصقة، وفي أماكن أخرى منه نجد أثرًا من حجر الصوان، وتلالًا حجرية متعاقبة مع قمم أخرى رملية. حسب تصوري؛ فإن هذا النمط من الأرض لوادي الشقيق يمكن أن يحتوي على كميات كبيرة من مياه الأمطار المتأتية من النفود المحيط به لتتسرب إلى الآبار التي تحمل الاسم نفسه وإلى آبار الزهيري القريبة، وبالتالي شكلت مصدرًا لهذه الآبار على مدى قرون.

عند الساعة الحادية عشرة، كنا قد وصلنا إلى بئري الزهيري[1]. ورغم اتساع قطريهما (أكثر من مترين)، فإن أشعة الشمس لا تصل إلى قاعيهما، الأمر الذي جعلها غير واضحة لنا، وهذا ما جعل مرافقي محارب، وقبل إحضار الدلو والحبال، يحاول التأكد من وجود الماء بها، فأخذ حجرًا ورماه في البئر فأطلقت صوتًا أصم، وقد أعاد الكرة عدة مرات وكانت بلا جدوى لكلا البئرين. كان من الواضح أنهما قد ردمتا على أثر هبوب رياح قوية. بعد أن تأكدنا بالفعل من ذلك مشينا راجلين غربًا، وبعد ساعة وصلنا الى آبار الشقيق التي لم تخيّب ظننا. يبدو أن آبار الزهيري ذات العمق المساوي لآبار الشقيق، والواقعة في الأرض نفسها وحفرت في الزمن نفسه، غير معروفة كثيرًا مثل آبار الشقيق، وحسب معرفتي لم يذكرها أحد أبدًا. فالرحالة غوارماني لم يذكرها وذكر آبار الشقيق. ويقول غوارماني إن طلال بن رشيد أمير حائل قد ردم هذه الآبار لمنع غزوات قبيلة الرولة لمنطقته. ويذكر الرحالة الآخرون أن هذه الآبار قد أحيطت بأسوار. في الواقع كان ذلك لحمايتها من طبقات الرمال المحيطة بها، التي يتراوح سمكها بين سبعة وثمانية أمتار. وهذه الآبار مطوية بأحجار منحوتة عند أطرافها ودون ملاط. أما باقي الآبار فإنها نحتت من الصخور بصورة عشوائية، وكانت أطرافها متآكلة وملساء بسبب كثرة استخدامها.

---

(١) وتسمى أيضًا الزهيريات.

بالقرب من آبار الشقيق وجدنا بعض الأشلاء البشرية المتناثرة، وكان ذلك مدخلًا للقصة المثيرة التي رواها لي محارب. ففي أواخر شهر أبريل السابق غادر رجل بلدة جبة متجهًا إلى الجوف، وكان وحيدًا وراجلًا، ولم يأخذ معه إلا قربة صغيرة للماء وقليلًا من الدقيق. ويبدو أن الماء قد نفد منه قبل وصوله إلى البئر بيوم أو يومين، ولما لم يكن لديه حبل أو دلو للتزوّد بالماء من البئر فقد هلك بصورة مأساوية ... وبعد نحو اثني عشر يومًا خرج بعض الفرسان من حائل فوجدوا جثته. سألت محارب عما إذا كان عدم استعمال مياه الآبار لمدة طويلة، وبقاء هذه المياه راكدة يفسد الماء أم أن الجثة قد رميت في البئر الأمر الذي جعل ماءها غير مستساغ. وبالفعل فقد كان كريهًا لا تطاق رائحته التي تشبه رائحة حامض الكبريت. وعافته حتى الجمال ومع ذلك كان علينا تعبئة قربنا الفارغة منه .

إن كلمة النفود في بعض الطروحات العربية تعني الصحراء عديمة الماء، وهذا يرمز في الحقيقة إلى تلك المنطقة الممتدة من آبار الشقيق والزهيري وحتى قرية جبة. ويعيب هذه المنطقة عدم وجود الماء الذي يجعل عبورها مرهقًا، أما ما عدا ذلك فإنها مناسبة للإنسان والحيوان لوجود المرعى والحطب بها.

أظن أن الرحالة بوركهارت هو أول من لاحظ أنه لا توجد في الجزيرة العربية طرق طويلة لا يوجد فيها ماء مماثلة لصحراء الربع الخالي في جنوب الجزيرة وصحراء النفود بين آبار الشقيق وجبة. لقد كان بإمكانه إضافة أيضًا الطريق الممتد من الجوف إلى العراق، الذي يُعدُّ الأطول وعلى من يسلكه اتخاذ مسار جانبيّ للتمكن من المرور إلى آبار الحزل[1] وآبار لوقة[2] وصولًا إلى آبار الشبيكة في درب زبيدة، وهو طريق الحاج الذي يسلكه حجاج فارس.

---

(١) آبار الحزل وتسمى أيضًا الحزول هي مجموعة من موارد البادية المعروفة في هضبة الحجرة شمال شرق الدهناء.

(٢) آبار لوقة مورد شهير للبادية ضمن آبار الحزول المشار إليها آنفًا، ولوقة قرية تبعد عن مدينة رفحاء في منطقة الحدود الشمالية للمملكة العربية السعودية مسافة مئة كيل.

بعد التزوّد بالماء من آبار الشقيق واصلنا مسيرنا. وفي اليوم التالي الذي يصادف اليوم الثالث من شهر يونيو شاهدنا من موقع مخيمنا المسائي قمة فلق كبير، وقمة أحد الجبلين المعروفين باسم العليم، وفي اليوم التالي وعند الساعة الحادية عشرة صباحًا استرحنا بجوارها.

كنا قد قضينا جزءًا من اليوم الثالث وكذلك صباح اليوم الرابع من شهر يونيو في عبور منطقة من النفود يطلق عليها اسم الفلوق. وتوجد هذه الأخيرة على الطريق من الجوف إلى جبة. وتمتاز هذه المنطقة بعدم استوائها وبفلوقها الأكثر عمقًا، وتموجاتها الرملية الأكثر ارتفاعًا، لذلك فهي أكثر مناطق النفود وعورة. وهي أيضًا الأكثر صعوبة بالنسبة للعرب بسبب كثرة المنعطفات الواجب اتباعها لتفادي الفلوق، ووجوب اختيار المسالك السهلة لعبور القمم. وتمتاز بعدم محافظة قاعها على شكل ثابت الأمر الذي يمكن أن يتسبب في اتباع مسالك خاطئة، الأمر الذي يتسبب بدوره في ضياع الوقت ووقوع متاعب إضافية.

تقع المنطقة التي تكثر فيها الفلوق بعد منطقة المحقان، وهي أكبر من الفلوق ويرجع اسمها إلى تلك الهضبة الكبيرة التي ارتسمت لنا طوال ساعات مع الأفق خطًا أبيض ممتدًا من الشرق إلى الغرب وإلى الشمال حيث تحدها الفلوق.

لم يكن دليلي محارب عقبة على الأقل هذه المرة، فعند انطلاقنا من الجوف كان قد سألني عن إمكانية وجود بوصلة معي، وكان كلما شك في صحة اتجاهنا، يطلب مني وبإيجاز اتجاه الطريق الواجب اتباعه. وبعد الاستعانة بجهازي أرد وبإيجاز أيضًا موضحًا له الهدف على الطريقة العربية المتمثلة في شق الأفق بخط عمودي، وذلك بمد الساعد وفتح الكف.

إن صخور «عليم السعد»، وتسمى أيضًا «عليم النفود»، وكثيرًا ما يستخدم اسم العليم اختصارًا، هما جبلان من الصخور الرملية تفصل بينهما مسافة مئتي متر، ويرتفعان عن بحر من الرمال بأربعين مترًا بالنسبة للجبل الجنوبي وضعف ذلك الارتفاع بالنسبة للجبل الشمالي. من بعيد وحتى من

مسافات قريبة نسبيًّا تذكرك هذه الجبال بالأهرامات عند مشاهدتها من القاهرة. وتشكل منحدراتها مع الأفق زاوية تصل إلى خمس وأربعين درجة الأمر الذي يجعل تسلقها صعبًا. كما تغطيها بقايا من الصخور إلى درجة أنها تظهر وكأنها كومة من حجر البناء. على مسافة أربعة أكيال شمال شرق صخور العليم يوجد تل يبلغ طوله الكيل تقريبًا، وله قمة مرتفعة عن وسط الرمال بما يساوي عشرة أمتار. هذه المنارة الموجودة في بحر من الرمال، عند رؤيتها تبعث في النفس البهجة، وذلك لأنها بالإضافة إلى تأكيد صحة المسار فإنها تبيّن كذلك للمسافر القادم من الجوف أنه قطع ثلث المسافة إلى جبل شمر. انطلاقًا من هذه النقطة يتغير اتجاه هذه الطريق القادمة من الجوف من الجنوب الشرقي إلى اتجاه الجنوب مع انحراف بسيط ببعض الدرجات إلى الغرب. بعد استراحة ما يقارب ساعة من الزمن عند هذه الصخور واصلنا مسيرنا إلى حائل»[1].

---

(١) النص المعرب:

Charles Huber, "Voyage dans L'Arabie Centrale: Hamad, Sammar,Qacim, Hedjaz,1878-1882", **Bulletin de la Societe de Geographie de Paris**,Vol. 5,1984. pp 304-330.



الفصل السادس

يوليوس أويتنغ

يعدّ هذا الرحالة الألماني واحدًا من الرحالة العلماء المستشرقين الذين جالوا في شمال وشمال غرب الجزيرة العربية، وكان من المبرزين علميًّا في علم كتابة النقوش السامية القديمة وقراءتها. وقد أهلته هذه الخلفية ليكون أحد أهم علماء اللغات السامية القديمة وممن أسهموا في تقدم المعرفة حولها، وآثاره لا تزال مرجعًا للمختصين فيها. وما رحلته ووصفه لها إلا في سياق الاهتمام بعلمه. يا ترى من هو هذا الرحالة؟

هو يوليوس أويتنغ (Julius Euting) المولود سنة ١٨٣٩ في مدينة شتوتجارت (Stuttgart) عاصمة مملكة فورتمبيرغ[١] في جنوب ألمانيا لعائلة ذات خلفية ثقافية ووظيفية جيدة. وإذ كان نظام التعليم في بلاده يتطلب إجراء امتحان عام من يجتازه توجهه الدولة إلى كليات خاصة على نفقتها، فقد نجح أويتنغ بتفوق وهو في سن الرابعة عشرة من عمره في هذا الامتحان الخاص، فوجه للدراسة في مدرسة بلاوبويرن (Blaubeuren) الكنسية سنة ١٨٥٣. بعد نجاحه بتفوق في هذه المدرسة حصل على منحة دراسية أخرى لاستكمال

(١) تأسست هذه المملكة سنة ١٨٠٦ في أعقاب الحروب النابليونية في أوروبا وتفكيك الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية (Holy Roman Empire of the German Nation) التي كانت تضم عددًا من الإمارات والدوقيات الأوروبية، ومنها دوقية فورتمبيرغ. أصبحت في أعقاب الوحدة الألمانية سنة ١٨٧١ جزءًا من الإمبراطورية الألمانية وبقيت محافظة على نظامها الملكي حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨. وهي حاليًا ولاية بادن- فورتمبيرغ (Baden-Württemberg) الألمانية.

دراسته الجامعية في جامعة تبنجن (Tübingen)، حيث تلقى دروسًا في علم اللاهوت وفي دراسات الشرق الأوسط. بعد تخرجه من الجامعة سنة ١٨٦١ حاصلًا على شهادة في علم اللاهوت فضل بدلًا من العمل في الكنيسة مواصلة تعليمه واهتمامه بالدراسات الشرقية وإن كانت ميوله وموهبته الفنية بالنقش والرسم تدفع به ليكون رسامًا. وبعد سنة واحدة ومن الجامعة نفسها حصل أويتنغ على درجة الدكتوراه بعد تقديمه أطروحة حول ترجمة سور من القرآن الكريم وشرحها. وقد ركز اهتمامه بعد تخرجه في النقوش الآرامية والآثار المندائية فرحل إلى لندن وأكسفورد وباريس للبحث والدراسة لمدة سنتين عاد بعدها إلى بلاده. عمل لمدة قصيرة بالتدريس الخاص ثم التحق سنة ١٨٦٦ بوظيفة في مجال إدارة المكتبات الذي بقي فيه حتى آخر حياته العملية. فشغل أولًا وظيفة أمين مكتبة معهد مدينة توبنجن ثم في سنة ١٦٨٨ عمل أمينًا لمكتبة جامعة توبنجن، وفي سنة١٨٧١ عمل أمينًا لمكتبة جامعة القيصر الجديدة (Universitäts-und Landesbibliothek) في مدينة ستراسبورغ التي كانت قد ضمت ضمن مقاطعة ألزاس الفرنسية إلى ألمانيا بعد هزيمة فرنسا في الحرب الألمانية الفرنسية سنة ١٨٧٠. تمكّن أويتنغ من جعل هذه المكتبة الجديدة خلال ثمانية أعوام رابع أكبر مكتبة في ألمانيا، وفي سنة ١٨٨٠ وتقديرًا لنجاحاته العلمية والعملية منحته جامعة القيصر فلهلم (Kaiser-Wilhelms-Universität)[١] درجة بروفيسور شرف في كلية الفلسفة. واصل أويتنغ عمله في هذه الجامعة حتى أصبح مديرًا عامًّا لمكتبتها سنة ١٩٠٠ وبقي حتى بلوغه سنته السبعين وتقاعده[٢].

وعلى الرغم من انشغاله بمتطلبات وظيفته ومشاركته في النشاطات العلمية الاستشراقية واصل البروفيسور أويتنغ بحوثه ودراساته في مجال النقوش القديمة جمعًا وقراءة ودراسة وتأليفًا، وكان يقوم برحلات لإجراء

---

(١) بعد أن عادت مقاطعة ألزاس وعاصمتها مدينة ستراسبورغ إلى فرنسا في سنة ١٩١٩ عادت هذه الجامعة لتحمل اسم جامعة ستراسبورغ.

(٢) Helen Louise Pearson, "Relations Between Julius Euting and Charles Huber In Arabia", MA Dissertation, University of Manchester, UK, 1993. pp. 18-32. (Unpublished).

بحوث ميدانية في المواقع الأثرية، خاصة في الشرق الأوسط، لهذا الغرض. وقد قام في المدة من ١٨٦٧ إلى ١٩٥٠ برحلات ميدانية إلى تونس واليونان وتركية ومصر وسورية وفلسطين والجزائر والجزيرة العربية. وقد جمع بالفعل آلاف النقوش الآرامية والنبطية والسبئية واللحيانية وغيرها، ونشر حولها مؤلفات عديدة[١] وحصل بسببها على جوائز علمية وعضوية مؤسسات علمية عريقة في بلاده وفي فرنسا وروسيا والنمسا.

كانت الرحلة إلى الجزيرة العربية هدفًا لأويتنغ منذ وقت مبكر في حياته العلمية، فقد تقدم سنة ١٨٦٤ بطلب منحة إلى وزارة الثقافة في ولاية فورتمبيرغ للقيام بهذه الرحلة وقد رفض طلبه. وتقدم مرة أخرى سنة ١٨٨٢ بطلب إلى وزارة الداخلية الألمانية لمساعدته في تحقيق هدفه ولم ينجح في ذلك أيضًا. وأخيرًا تحقق له ما يريد بموافقة حاكم مقاطعة ألزاس - لورين (Alsace Lorraine) البارون إدوين فون منتويفل (Baron Edwin Von Manteuffel)[٢] على تقديم مبلغ سبعة عشر ألفًا وثمان مئة مارك ألماني لمصاريف الرحلة. وتعززت هذه الموافقة بدعم ملك فورتمبيرغ الملك كارل (Karl Friedrich Alexander)[٣] بتقديمه الهدايا التي ستقدم إلى أمير حائل وغيره وهي عبارة عن بنادق حديثة[٤].

---

(١) كتب ونشر أويتنغ بمفرده أو بالاشتراك مع علماء آخرين عشرات الكتب والدراسات حول النقوش الفينيقية والنبطية والعبرية والآرامية والسبئية وغيرها، ومنها:

Julius Euting, **Sechs phönikische Inschriften aus Idalion**, Berlin, 187).

, **Nabatäische Inschriften aus Arabien**, Berlin 1885.

, **The Hebrew Alphabet**, Stra?burg 1882.

, **Übersicht der aramäischen Ziffern**, Berlin 1885.

Theodor Nöldeke, Julius Euting, James A. Crichton, **Compendious Syriac grammar** (Berlin: Williams & Norgate, 1904).

للمزيد، انظر: **http://www.euting.uni-tuebingen.de/ve_tayma/bibliography.html**

(٢) بارون إدوين فون منتويفل (١٨٠٩- ١٨٨٥) قائد عسكري ألماني أدّى دورًا كبيرًا في حروب الوحدة الألمانية، شغل عدة مراكز دبلوماسية وسياسية. عيّن سنة ١٨٧٩ حاكمًا عامًّا لمقاطعة ألزاس واللورين المحتلة من قبل ألمانيا منذ سنة ١٨٧١.

(٣) كارل فردريك ألكسندر(١٨٢٣-١٨٩١) تولى مملكة فورتمبيرغ سنة ١٨٦٤، وفي عهده أصبحت المملكة جزءًا من الإمبراطورية الألمانية سنة ١٨٧٠.

(٤) Helen Louise Pearson, Op.Cit., p. 9.

وانظر مقدمة كتاب: يوليوس أويتنج، **رحلة داخل الجزيرة العربية**، تحرير كرستين وأوفة بفلمن، =

كان الرحالة الفرنسي تشارلز هوبر ابن مدينة ستراسبورغ التي يعمل أويتنغ في مكتبة جامعتها قد عاد لتوِّه من رحلة إلى الجزيرة العربية (١٨٧٨-١٨٨٢) محملًا بمعلومات حول النقوش القديمة وأماكن وجودها[١]. التقت أهداف الاثنين فاتفقا على القيام برحلة مشتركة يستكمل من خلالها هوبر مسحه الجغرافي لمنطقة شمال غرب الحجاز ونقل نقوش كان قد عرفها وعرف عنها في زيارته السابقة، وأويتنغ للقيام بدراسات أثرية ونسخ النقوش والكتابات أيضًا بطريقة علمية[٢].

أكمل أويتنغ رحلته التي شملت منطقة الجوف ومنطقة حائل وشمال غرب الحجاز وقفل عائدًا إلى بلاده دون رفيقه الذي افترق عنه، وقد ساد علاقتهما التوتر في اليوم السابع والعشرين من شهر مارس وكان فراقًا إلى الأبد إذ قتل تشارلز هوبر في اليوم التاسع والعشرين أو اليوم الثلاثين من شهر يوليو ١٨٨٤ على يد دليله بالقرب من رابغ.

بدأ أويتنغ بنشر الجزء الأول من يوميات رحلته إلى الجزيرة العربية بعد اثنتي عشرة سنة من عودته إلى بلاده، أي في سنة ١٨٩٦[٣]، أما الجزء الثاني[٤] فنشر سنة ١٩١٤ بعد عام من وفاته.

كان أويتنغ قبل وفاته بثماني سنين قد اختار موقع دفنه فوق قمة مرتفع في الغابة السوداء (Black Forest) بالقرب من مدينة ستراسبورغ، وقد وافق ملك فورتمبيرغ على ذلك. وفي الثاني من شهر يناير ١٩١٣ أسلم أويتنغ روحه إلى بارئها في ستراسبورغ، لكن وبناءً على وصيته بحرق جثته تم ذلك في مسقط رأسه، وقد نقل رفاته إلى مدفنه المقرر في الأول من شهر يونيو ١٩١٣[٥].

= ترجمة وتعليق سعيد فايز السعيد (الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص١١-١٧.

(١) انظر حول تشارلز هوبر ورحلته الفصل السابق في هذا الكتاب.

(٢) Helen Louise Pearson, Op.Cit., pp. 10-12.

(٣) Julius Euting, **Tagbuch einer Reise in innerarabien,** Bd. 1 (Leiden: Brill,1896).

(٤) ————, **Tagbuch einer Reise in innerarabien,** Bd. 2, ed. Enno Littmann(Leiden: Brill, 1914).

(٥) Helen Louise Pearson, Op.Cit., pp..31-32.

وفيما يتعلق برحلته وهي موضوعنا هنا، فقد بدأها أويتنغ ورفيقه في اليوم الثاني والعشرين من شهر مايو ١٨٨٣، فأبحرا من مارسيليا إلى الإسكندرية ومنها إلى بيروت ودمشق التي أكملا فيها استعدادهما للرحلة والقيام برحلة قصيرة إلى تدمر. في اليوم الثلاثين من شهر أغسطس غادر أويتنغ دمشق عبر جبل حوران، ومن قرية عرمان عند الطرف الجنوبي له بدأ رحلته ورفيقه، وقد تمكنوا من الوصول بسلام إلى قرية كاف أول بلدة مأهولة في شمال الجزيرة العربية، وذلك في اليوم العاشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٨٣[١].

ونترك القارئ الآن برفقة البروفيسور يوليوس أويتنغ في سرده ليومياته في منطقة الجوف:

«تقع قرية كاف في سهل ملحي، يسمى النبك وعقيلة، ويمتد نحو الغرب والجنوب الغربي بنحو مسيرة يوم واحد. ويحوطها من الجهات الأخرى سلسلة جبلية غير مرتفعة ليس لها اسم واحد تنحدر إلى السهل. ويذكر أن وادي راجل الذي ينحدر من الجنوب الشرقي لجبل الدروز يُطلق عليه بدءًا من قصر الأزرق اسم وادي السرحان الذي يمتد متصلًا إلى هنا. وهنا سوف أسجل ملحوظة أدلى بها مرافقي البدوي وهي أن وادي السرحان يمتد مسافة ثماني ساعات جنوب شرقي قرية إثرة، حيث تكون بدايته. إن منازل القرية، وعددها نحو ثلاثين منزلًا، تنقسم إلى مجموعتين رئيستين تربط بينهما بساتين النخيل. يقدر عدد السكان من الذكور بنحو تسعين نسمة. الجزء الشرقي من القرية قليل الأهمية، وله مدخل واسع، وبه بساتين قليلة وآبار ضئيلة. وفي الجزء الغربي يسكن الشيخ عبدالله الخميس، وكانت مجموعة منازله جيدة وذات أحواش متعددة. وعلى الرغم من الدخل الذي يحققه بيع الملح من دخل للشيخ عبدالله، الأمر الذي يجعله ثريًّا، إلا أنه مقتر، ويضع نفسه في وضع الفقير. لم يكن عليه أن يدفع مختارًا ضرائب لأمير حائل فحسب، بل أيضًا للدروز وبعض قبائل البدو المختلفة. وإذا ما أراد اليوم وقف هذه المدفوعات المعتادة لهؤلاء السادة أو

(١) ١٣٠٠هـ.

لحلفائه، فإنه سوف يفقد هيبته، وتلحق تجارته خسارة فادحة. كانت بساتين القرية ملكية خاصة ومسيجة بحوائط. وفي البساتين الكبيرة بئر أو أكثر، ويقسم الماء على برك من خلال قنوات خاصة. بهذه الوسيلة يمكن أن تسقى أشجار النخيل ويستفيد منه صغار الملاك. في السنوات الجيدة تزرع الحبوب أو الخضروات على الحواف الخارجية لهذه القنوات.

يجوز عدّ قرية كاف بنخيلها البالغ عددها بين أربع مئة وخمسين وخمس مئة نخلة قرية حضرية. وتختلف لهجة أهل كاف اختلافًا كبيرًا عن العربية العامية السورية، فالأصوات الحلقية تشكل مقياسًا أكيدًا للهجة البدوية. فحرف «ي» يصبح بديلًا للحرف «ج»، وحرف «ك» يصبح «تش» بصورة مستديمة، وبمثل هذا النطق يمكن إذًا لـ «ك» والـ «ق» أن لايختلفا أبدًا[1]. إن الحرف «ج» غير سعيد الحظ فقد عانى مثل الحروف الأخرى شتى أنواع التنوُّع، فهنا نجده ينطق بأربعة أوجه: فلقد سمعت على سبيل المثال كلمة: جبل تنطق:

١ - كالمعتاد: جَبَلْ ٢- يَبَلْ، ٣ - (العربي المكتوب) چَبَلْ ٤ - تْشَبل (النطق الدمشقي) بـ «تش» خفيفة كالفرنسية لحرف (J) التي تشكل حركة صوتية مزدوجة (أُو au) والتي تسمع وكأنها (جُو) كما هو موجود في كلمات مثل: جُوع، الجوف، جوهر. علاوة على ذلك؛ فإن أنماط التخاطب الأكثر استخدامًا تختلف تمامًا عن تلك التي تستخدم في المدن السورية : مثلا ماهذا؟ تنطق وشو وشنو. وكيف ذلك ؟ إشلونو؟ (أيُّ شيء لونه)، (غدًا) باتشر أو باكر و«بعد غد» (عقب باكر)، والبعيد (العام) والحاضر (هالسنة)، في «هذه البلاد»، بها الديرة، «حسن»، زين، «لاشيء، لايؤثر» تقال ما يخالف، وكلمة المجاملة

---

(١) أضاف أويتنغ في هامش هذه الملاحظة الآتي: «وهكذا فعلى سبيل المثال فإن تحية البدو المعتادة «كيف أنت» تكون «تشيف إنت»، و«كم؟» تسم، «واركب تصبح ارتسب، وتعني حقيقة اجلس، أسرع. «وقرّب على النار» «إتْسرب على النار»، وقرّبه تسربه، وقليب تشليب ولكن صيغة الجمع: قُلبان. الناس من الأقاليم الجنوبية (القصيم، وادي الدواسر) ينطقون كبير أحيانًا تسبير وأحيانًا تشبير.

المعتادة، لا أدري والله (ما أدري والله)، (وأيضًا كلمة الشكر) هي «الله يسلمك»، وهكذا.

بالنسبة للحيوانات، فإن هناك نداءات خاصة لها : فمثلًا لطرد الإبل يكون النداء «داه داه»، والخيل «قش قش»، والحمير «خر خر»، والأغنام بـ «خ خ». أما نداء الاستدراج للإبل هو «هوط هوط»، وللخراف «تر تر تر»، والإبل السائرة بعيدًا تنادى عدة مرات بكلمة «هرتسبو»، ولحثها على السير - «هيك هيك»، ولكي ينيخ الإبل يجب على المرء أن يربت على رقبتها بصورة خفيفة ويصرخ «خُل خُل».

حول طبيعة لهجات بعض العرب ونشأتها، فقد أنيرت هنا بصيرتي. فمن يقضي بعض الوقت مع الإبل ويعيش معها، فلابد أن يتوصل إلى القناعة بشكل قاطع، بأن أُناسًا معينين ممن يتكلمون العربية كانوا قد اكتسبوا من الإبل كلامهم أو إن كلامهم ما هو إلا محاكاة لها. وسيكون من السهل لعالم وظائف الأعضاء البارع أن يبرهن ويوضح أن نغمة اختناق الصوت المتحشرجة والغرغرة خاصة، التي تخرج من الأنف كالعين والغين هي في أصلها من أصوات الإبل. إنني لا أملك إلا الدهشة من أن هذه الملاحظة لم تُطرح في السابق.

قام الشيخ عبدالله الخميس باستضافة من كان في القافلة، على شكل مجموعات، وقد جلست غالبيتهم في العراء مباشرة بعد المدخل، وآخرون في الساحة أمام منزل الشيخ. ونحن علية الضيوف، تناولنا القهوة والتمر والخيار في مجلس القهوة، وهو عبارة عن غرفة مستطيلة يصل طولها إلى إحدى وعشرين خطوة وعرضها إلى أربع خطوات تقريبًا، في قمة جدرانها فتحات صغيرة، ويدخلها الهواء والضوء فقط من الباب. وتحتوي هذه الغرفة على موقد ومنفاخ وهاون حجري وبعض الدواليب الخشبية، وهي مفروشة بالحصير، لا أكثر ولا أقل. وقد استوعبت جزءًا كبيرًا من أمتعتنا حتى إنه لم يبق متسع للزوار. ومع ذلك كان يتردد علينا طوال اليوم سكان القرية ورفقاؤنا في الرحلة، جيئة وذهابًا، آملين أن نقوم بعرض ما نحمله من بنادق. كان

السؤال المعتاد عما إذا كانت البنادق من نوع مارتيني(Martini)[١] سلاح الجيش التركي. كانت الإجابة «كلا، إنها ماوزر(Mauser)»[٢]، «ماهذه؟» «انظر هناك». كانت صيحات الدهشة تتطاير مع تطاير الطلقات الجديدة الواحدة تلو الأخرى عند تعبئة البندقية بها. واستمر تقاطر الناس إلى الداخل، وكان بعضهم يجلسون القرفصاء لساعات عديدة، أو يستلقون على الأرض وينظرون بنظرات ثابتة إلى البنادق العجيبة المعلقة على الحائط. ومن تتاح له فقط نظرة إلى جراب هذه البنادق كان يعدّ محظوظًا.

كنت قد اشتقت إلى نظافة جذرية لجسمي فذهبت إلى البساتين ومعي أحد العبيد، وكان من المفترض أن يكون عونًا لي، وحينما همَّ بصب أول سطل ماء على جسمي، اكتشف وجود حشرة قراد ضخمة منغرسة بشكل محكم في ذراعي الأيسر، ولمحَ مبتسمًا بأنه لابد وأن أكون قد شعرت بها. إن مثل هذه الحشرة لم تكن لتؤثر كثيرًا عليّ مثلما أثر ذلك الذئب اللئيم، الذي نال من اللحم الطري لمؤخرتي أثناء سفرنا من عرمان إلى كاف. لم يكن العبد ليتصور أن بقعتي الدم المستديرتين في جسدي كانتا بسبب تلك الحادثة، وأبدى العبد أقصى علامات الدهشة. وعندما انتهى ذلك الحمام تطلعت مجددًا إلى البساتين والآبار، وبدأت أرسم.

بعد العشاء توافد زوار آخرون، أو ربما هم أنفسهم من كانوا هنا سابقًا وعادوا مجددًا - بالنسبة لي كان الجميع متشابهين تقريبًا إذ لم أكن قادرًا في البداية على تمييز المعالم الفيزيولوجية بدقة. ولم يخلِ هؤلاء الزوار الفناء إلا في ساعة متأخرة من الليل. بسبب حرارة الجو في القهوة، قمنا بإعداد مكان المبيت الخاص بنا في الفناء، ولكن كان لابد لنا أن نتشارك المكان مع حصان

---

(١) ماركة معروفة للبنادق منسوبة إلى فردريك مارتيني (١٨٣٢-١٨٩٧) وهو صانع بنادق سويسري، وقد صنعت في بريطانيا باسم مارتيني هنري (Martini-Henry) وبعدة موديلات، كما صنعت في الولايات المتحدة باسم Peabody-Martini rifles تسلح الجيش التركي بالنموذج الأمريكي من هذا السلاح بعد رفض بريطانيا تزويده بها ابتداءً من سنة ١٨٧٠.

(٢) ماركة ألمانية معروفة للبنادق والمسدسات منسوبة لمصمميها ومصنعيها الأخوين بيتر بول ويلهيلم ماوزر (Peter Paul and Wilhelm Mauser) بدأ استخدامها سنة ١٨٧٢في الجيش الألماني.

الشيخ المربوط بحبل، والقادر على الحركة في الحوش، وقد قرض فراشي مرارًا.

الثلاثاء ١١ سبتمبر ١٨٨٣:

بعد أن استيقظت وجدت أن القافلة التي أتينا معها قد غادرت وهي في طريق عودتها إلى عرمان. لم تكن تلك المغادرة بلا منغص إذ اختفى معهم كيسان من الملح وثلاثة مسدسات.

خصصنا يومنا للراحة والعناية بأبداننا، ولغرض النظافة والراحة سلمنا أنفسنا للخادم محمود ليقوم بحلاقة شعور رؤوسنا باستثناء اللحى حلاقة جذرية بموس للحلاقة، وهي تجربة لم تخل من الألم بسبب الجروح الكثيرة التي لحقت برؤوسنا. ومع ذلك كانت رؤية تلك الرؤوس الملساء والإحساس بها يثيران البهجة. وشذّبت لحانا بهيئة شرقية إلى حدٍّ ما، إذ كان ينبغي أن يحدد الشنب فوق الشفة العليا لأن نزول شعره إلى ما تحت الشفة يعدّ عيبًا، وليس ذلك بغير حق. إنه ليبدو من الطريف حقًّا حينما يكون المرء بصحبة الإنكليز والأمريكيين وهيئة شواربهم التي تشبه شوارب القرود في كثافتها، حيث تسيل الأطعمة والمشروبات فوقها، ومن ثم من وقت لآخر بشفته السفلى الممدودة أو بلسانه يلعق بقايا الأكل، أو حتى يقوم بمسحه بمنديل على اللحية.

وكانت ملابسنا أيضًا تحتاج للتبديل إذ كانت خلال الأيام الثمانية الماضية تستخدم إضافة إلى كونها ملابس فوطًا وما شابه ذلك من الأشياء.

عند العصر، جاء إلى قهوتنا غلام في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر يسمى عليًّا، وكان شبه عارٍ حاسر الرأس وملتفًّا بخرقة معطف بالكاد تستره. ألقى السلام وانتحى في زاوية مظلمة. وعند استفساري عما يبتغيه، أوضح أنه يريد رؤيتنا فقط، وتدخين النارجيلة. سألته مباشرة عما إذا كان من التقاليد والأدب أن يقوم المرء -مثل الوحش- بزيارة الآخرين دون أن يكون بملابس مناسبة. وعلى ذلك رد متمتمًا أنه لا يملك غير تلك الأسمال، وليس

في مقدوره شيء آخر. اتضح أنه كان قد تيتم صغيرًا، وبالطبع لا يملك شيئًا، وهو أصغر من أن يشارك بالغزو، فمن أين له إذًا ملابس أخرى؟

قبل مغيب الشمس قمت بجولة حول القرية. ثم عدت للعشاء، حيث قدمت لنا وجبة مكونة من لبن وخيار وباذنجان وخبز. لقد اعتذرت عن هذه الخلطة، واكتفيت بالبلح. في المساء فر حصان الشيخ، ومما زاد الطين بلةً، جاءت بعض الأغنام التي بدأت تشمشم مكاننا بفضول.

الأربعاء ١٢ سبتمبر:

في هذا اليوم، قمنا بزيارة قرية إثرة المجاورة. امتطى الشيخ عبدالله حصانه، ونحن رواحلنا، وفي الطريق قابلنا عددًا من الأوغاد الذاهبين للصيد. وبعد مضي ساعتين بدت قرية قصر الوشواش للعيان في السهل، وهي قرية صغيرة تتكوّن من عشرة منازل متجاورة، وبها عين ماء، ويسكنها واحد وعشرون نسمة. وعلى بعد مسيرة نصف الساعة من هناك تقع في خليج من سهل الملح الأبيض قرية إثرة، وسكانها مابين مئة وعشرين ومئة وثلاثين نسمة. كانت هناك خيام خارج القرية، وكان في واحدة منها ستار من قطعة كبيرة من السجاد الإيراني تعدّ آنذاك قطعة فنية رائعة (من المحتمل أنها من غنائم الوهابيين من غزوهم لكربلاء سنة ١٨٠١). وعلى الرغم من أنها الآن في حالة يرثى لها، إلا أن جمال ألوانها كان لافتًا للنظر. وعند دخولنا القرية لاحظت على الأرض حجرًا في منتصفه فتحة. ذكر لي أحدهم أنه يستخدم في تجهيز طلقات البارود. نزلنا أمام منزل الشيخ ذي الشعر الأحمر من فوق أعنة دوابنا. يسكن هذا الشيخ منزلًا أو قصرًا أثريًا، وهذا القصر على النقيض من المنازل الأخرى مبني من الحجر الأسود، ومنشؤه حوران. قام الشيخ بضيافتنا بتمر أصفر غير ناضج (بسر) وبالقهوة، ولاحقًا بالباذنجان والبامية، والخبز، وأوعز إلى أحد الحاضرين بإصلاح قرن دَحْل ناقتي المكسور، وأن يسمره مع بعضه بقطعة صفيح. لهذا العمل الرائع تقاضى الرجل ربع مجيدي. بعد الأكل جلست في غيط النخيل. وفي أثناء ما كنت عند أحد الينابيع أو البرك مستلقيًا للقيلولة جاء عدة شبان ليستحموا. لم يمض وقت طويل في هذا المكان، حتى أفزعتني

طلقات بنادق. تبين لي أن الغلمان قاموا باصطياد طائرين أصفرين، ووسط دهشتي الكبيرة قاموا بأخذهما، وهما نصف أحياء لشوائهما على عصا فوق نار من جريد النخيل دون نزع الريش. كانت النتيجة كتلتين سوداوين تبدوان عند النظر إليهما كبطاطس شويت في رماد.

بينما كنت أتأمل منزل الشيخ عن قرب، لاحظت أنه يوجد فوق باب المدخل وعلى عتبة الدار العليا الحجرية شكل هلال متقن الصنع، وبجانبه بعض علامات الوسم المنقوشة، وفي الموضع الحجري فوقها توجد كتابة كوفية (الكتابة العربية القديمة، بالشكل الذي يوجد بالضبط على العملات النقدية العباسية) ونصها: «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله وحده لاشريك له. محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». وكان على الحائط الشرقي للقصر الأثري، وبالقرب من إحدى النوافذ، شكل رأس إنسان غائر، ومن فوقه حجر جميل يقف على حاملين.

اقترب موعد غروب الشمس ولم يبد الشيخ عبدالله نية للعودة إلى كاف، ولمَّح إلى أنه قد يأتي ضيوف من الجوف. قمنا مرة أخرى بزيارة أطلال بيت أسود يقع خارج القرية، فما كان إلا أن رأينا خمسة فرسان مدججين بالسلاح، على ظهور نياق ممشوقة القوام وجميلة الشكل، وقد اتجهوا إلينا مباشرة. لقد كانوا في حالة من الدهشة لوجود غرباء غامضين، لذلك كبحوا جماح إبلهم، ووضعوا أسلحتهم في وضع الاستعداد.

قمت أنا وهوبر بأخذ أسلحتنا، وحدقنا بهم متسائلين عما إذا كانوا عصابة نهب أم أصدقاء؟ قاموا برفع كوفياتهم التي كانوا يتلثمون بها. وفجأة صرخ أحدهم كالمجنون «هوبر» «هوبر»!، فعلق البندقية على رأس الشداد وقفز من على ظهر ناقته وجاء مهرولًا نحو هوبر واحتضنه وأمطره بعدها بالأسئلة. وقبل أن أنتبه لنفسي، وجدت أنني مشتبك في مشهد مماثل للسلام. فبدلًا من تقديم أي إيضاح أقبل نحوي البدوي النحيف الطويل مباشرة وكاد أن يقتلني بقبلاته، التي تفوح منها رائحة المسك، وأسئلته اللحوحة المكررة أربع أوخمس مرات: «تشيف أنت؟ تشيف أنت؟». أخيرًا، وبعد أن توقفت عاصفة السلام اكتشفت أن

ذلك البدوي هو حمود المجراد[1] من حائل من إمارة شمر، وأن الأمير محمد ابن رشيد أرسله ليرافقنا من دمشق. لفهم هذا الموضوع أجد لزامًا عليّ التحول إلى استراحة قصيرة وبيان الأمر. قبل مغادرتي للرحلة من ستراسبورغ كنت قد وجهت رسالة في أوائل مارس ١٨٨٣ إلى أمير حائل محمد بن عبدالله الرشيد أخبرته فيها عن نيتي، ونية هوبر بزيارة ديرة شمر، وأشرت له بصراحة أننا سوف نُحضر له معنا ما يسر قلبه (نعني بذلك السلاح). فوق ذلك أوضحنا أننا نرغب في كرمه بإرسال رجل مسؤول يعتمد عليه ليقابلنا في دمشق، ومن المستحسن أن يكون ذلك الرجل حمود المجراد، الذي تعرف عليه هوبر في رحلته الأولى سنة ١٨٨٠. وبعثت أيضًا برسالة أخرى لابن عم الأمير حمود العبيد الرشيد، أكدت فيها الأمر نفسه. بعثت بهذه الرسائل عن طريق شيخ الدروز نجم الأطرش الذي تسلمها من نائب القنصل الألماني في دمشق الهر ليتكه. لكن يبدو أن الرسالة الموجهة إلى الأمير قد بقيت في قرية عرمان وقتًا طويلًا إلى أن وجد إنسانًا يجازف برأسه ويقوم برحلة الأربعة عشر يومًا مع تلك الأوراق إلى حائل. على أية حال، يبدو أن ذلك الساعي لم يكن في عجلة من أمره، وسمح لنفسه بالاستمتاع بضيافة وكرم سكان المناطق التي يمر بها بصفته حاملًا رسائل إلى الأمير. وبالمناسبة، فإن الشيوخ[2] لم يكونوا موجودين في ذلك الوقت في حائل لتسلمها، بل حسبما علمنا الآن أنهم كانوا في إحدى الغزوات، ويعتقد أنها كانت في جهة عنيزة، أي على الأقل رحلة عشرة أيام إلى الجنوب من عاصمته، ولم يستلم رسالتي إلا هناك. لقد اشترك حمود المجراد أيضًا في هذه الغزوة، وهناك تلقى الأمر بأن يتحرك حالًا إلى دمشق لمقابلتنا، ومرافقتنا إلى الأمير. تحرك حمود حال تلقيه الأمر وتوقف فقط لمدة يومين في أثناء سفره في حائل، لكي يجهز بعض المهام المتعلقة بدمشق. وسافر من هناك إلى هنا لمدة أربعة عشر يومًا. كان معه أربعة مرافقين؛ وأحد من المولَّدين يدعى إبراهيم أبو خليل، وآخر يدعى محيثل أبو حمد من الجوف، وتاجر

---

(١) اسمه الكامل هو حمود بن إبراهيم بن موسى المجراد. (أويتنغ).

(٢) كان الأمير يلقب من قبل أتباعه بصيغة الجمع ويطلقون عليه لقب الشيوخ. (أويتنغ).

جمال دمشقي يدعى حسين، وشخص آخر من سكان قرية إثرة انضم إليهم في الجوف. كان حمود يحمل معه عددًا كبيرًا من الرسائل، كما كان مكلفًا ببعض المهام في دمشق. وكان هذا الشيء الأخير - أي الرسائل والمهام الواجب أن ينجزها في دمشق - أمرًا إضافيًا ومرعبًا؛ إذ إن ذلك يعني ببساطة تأخير الرحلة لمدة ثلاثة أسابيع. لم يكن لدي رغبة بالرجوع ثانية إلى دمشق، وحتى لو كان هوبر مستعدًا لمرافقة حمود إلى هناك فإنه سيبقى لي بالتأكيد الخيار العسير للصبر والإقامة لأسابيع عديدة في قرية كاف المقفرة.

من المؤكد أن رسول الأمير بمكانته العالية سوف يستقبل ويستضاف بطريقة مختلفة. لقد قُدّم لنا في هذا الصباح أولًا بلح ناضج (تمر) لا (بسر) مع الزبدة. كذلك قام الشيخ بذبح ذبيحة على الفور، ولطخت رقاب وقوائم جمالنا بالدم، وهذا عند البدو بمثابة تكريم واحترام للضيف، وحتى يفطن جميع من نصادفهم على الطريق بأننا من المسافرين ذوي الشأن ممن ذبح لهم. هبَّ إلى هذه الوليمة كل المجتمع، ويمموا شطر مكان إقامة الضيوف. وهناك هاج وماج الجمع. ثم قدمت وجبة طعام ثانية كاملة لا يمكن لغير معدة البدوي أن تتناولها مباشرة، الواحدة تلو الأخرى. كان كل شيء وافرًا وأكثر نظافة. وعلى كل حال أنظف مما كان عند الشيخ.

في أثناء التحضير للقهوة أحْضِرت مبخرة مصنوعة من الخشب، ومرصعة بصفائح النحاس الأصفر، وعلى الجمر المتقد كان يوضع خشب الصندل بكمية كبيرة لتكثيف دخان بخوره. يقوم الأشخاص ذوو المكانة بتبخير اللحى، وذلك بحمل المبخرة باليد اليمنى تحت اللحية، وفي الوقت نفسه مسح اللحية باليد اليسرى. أما البدوي العادي، فيقوم بتبخير الجانب الداخلي للكوفية، كما يقوم بحمل المبخرة تحت الثوب حتى مستوى الإبط. كانت المبخرة تملأ في حالات الضرورة ثانية، وتدور على الجمع مرة أو مرتين.

في وقت متأخر من الليل كانت هناك جلسة لاحتساء القهوة أمام القرية قرب دار حسين تاجر الجمال، وفيها فقط تناقش الصفوة من المجتمع أهم

الأخبار السياسية من نجد. ولاستيعاب الأوضاع السياسية الحالية في نجد يتحتم عليّ حقًّا أن ألقي الضوء بصورة موجزة على تاريخ الوهابيين.

بصفة عامة تتنازع السيادة حاليًّا على وسط الجزيرة العربية عائلتان حاكمتان تعترفان بدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وهما في النصف الجنوبي والجنوبي الشرقي، عائلة ابن سعود، ومقرها الرياض، وفي الشمال والشمال الغربي عائلة ابن رشيد ومقرها حائل. إن الرشيديين كانوا قد ارتقوا بصفة مضطردة نحو استقلال أكبر، بحكم أنهم كانوا الحكام الذين عينهم آل سعود منذ عشرينيات[١] هذا القرن (التاسع عشر الميلادي) لحائل.

إن من الصعوبة بمكان الحصول على تقارير مؤكدة يعتمد عليها حول حقيقة المواقف والأحداث داخل الجزيرة العربية. إن القدر القليل، الذي يرد إلى أوروبا يكون في أغلب الأحيان قد انساب بعد غربلة تركية لها. أما إذا ما سمع الإنسان في الموطن والمكان من بدوي مستقل ينبغي أولًا وقبل كل شيء أن يضع في حسبانه، لا سيما عندما يتعلق الأمر بالأعداد، أن يتحسب كثيرًا للمبالغات اللانهائية (مثل الإفادات عن الغنائم والخسائر). وثانيًا، أن يضع في تقديره مدى تعاطف أو كراهية الراوي، حيث إن الأمر يتضمن جهتين متعاديتين والأحاديث حول الحدث نفسه تختلف اختلافًا جوهريًّا. وعلى سبيل المثال: كنا قد سمعنا قبيل بداية رحلتنا إلى الجزيرة العربية، في القسطنطينية (إستانبول) أخبارًا مزعجة، بأن محمد بن رشيد قد مُني في إحدى غزواته ضد منافسه الجنوبي بواحدة أو أكثر من الهزائم النكراء على يد عبدالله بن سعود [عبدالله بن فيصل بن تركي آل سعود][٢]. وكان سبب انزعاجنا هو أننا كنا واضعين في خطتنا التوجه من حائل إلى الرياض لتتيسر لنا فرصة التعرف على الوضع من خلال معلومات موثوق بها. ولقد تلقينا رواية مشابهة، لكنها تتصف بالشماتة، وذلك في منطقة بني عيسى[٣] بجهة بلدة امتان في جبل الدروز، حيث لم يجد

---

(١) كان ذلك في منتصف ثلاثينات ذلك القرن.

(٢) الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي بن عبدالله آل سعود (؟ - ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م) تولى الإمامة في الدور الثاني للدولة السعودية سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م خلفًا لوالده الإمام فيصل بن تركي.

(٣) من قبائل منطقة حوران.

أحدهم إلا أن يعطينا رواية تقول: إن ابن سعود كتب خطابًا إلى ابن رشيد، يقول له فيه: «إن نجدًا يحكمها رجل واحد فقط، إما أنت وإما أنا»، وإن ذلك سوف يقود إلى قتال حاسم. وفي الرواية الأخيرة هذه، يقولون إن ابن رشيد انهزم هزيمة نكراء في جنوب مدينة عنيزة، وتم سحقه بصورة شاملة، وفقد قطعانًا كبيرة من الإبل وعددًا كثيرًا من الخيل. قام الشيخ عبدالله بتطميننا مباشرة، بعد وصولنا إلى قرية كاف، وإيضاح أن الأمر كان على العكس تمامًا. لقد وقع ابن سعود في أسر ابن رشيد، ولكنه بدافع من الكرم والسماحة منحه الحرية مرة أخرى، وأرسله على ذلولين إلى الرياض. يمكن لنا الآن على أحسن الأحوال، أن نحصل من حمود المجراد على توضيح صحيح للأمر. وقد أوضح لنا أخيرًا الأمر وأدلى بالتالي:

نتيجة للتذمر الشديد من أتباعه فقد اضطر ابن سعود إلى خوض غمار حملة حربية. ولهذا الهدف تحالف مع قبيلة عتيبة. قام ابن رشيد فجأة، وبعد أن حصل على معلومات مؤكدة، بهجوم عنيف على عتيبة ودحرهم بصورة لم يتبق معها لهم شيء. نجا ابن سعود بأعجوبة، وكان في نيته أن يحتمي في وادي نجران، لكنه وهو في الطريق وقع في أيدي قبيلة حرب. قامت قبيلة حرب بإخبار ابن رشيد بأن ابن سعود قد وقع أسيرًا في أيديهم، وأنهم مستعدون لتسليمه، لكن ابن رشيد لم يكن يرغب بالقبض عليه عبر غرباء فأبلغهم عدة مرات ناصحًا بإطلاق سراحه وإعطائه نوقًا ليغادر عليها. إن عرض الحكاية الأخيرة مع قبيلة حرب ومنذ البداية أثار شكوكي بالحكاية كلها ولكنني احتفظت بها لنفسي. ولاحقًا قال لي خليف العجوز أن الرواية بكاملها رواية خرافية. وهكذا حتى عندما لم يكن بمقدوري التصور الذكي للمسألة تأتيني كثير من الأخبار من روايات متباينة، تؤكد أن الغزوة ضد ابن سعود وعتيبة لم تكن باهرة بالشكل الذي أشاعه ابن رشيد، وأيضًا لم تؤد إلى الفصل في أمر المنافسة بين الخصمين.

الخميس ١٣ سبتمبر:

في الصباح الباكر، تم تقديم وجبة طعام دسمة مرة أخرى. وفي الساعة

السابعة والنصف ونحن في طريق عودتنا إلى كاف عبر قصر الوشواش، لم يكن بالفعل في نيتنا أن نتوقف هنا أبدًا، ولكننا وحتى قبل أن نشعر، كانت جمالنا قد لطخت من جديد بالدماء. وفي الساعة العاشرة صباحًا كانت هذه الوليمة قد تمت أيضًا. في الساعة الثانية عشرة ظهرًا غادرنا عائدين مرة أخرى إلى كاف يعززنا رهط من أهالي قصر الوشواش في موكب رسمي. لقد تحرك رجلان قبلنا لكي يبلغوا بقدوم عدد كبير من الضيوف. في الفناء كان يقف أطفال الشيخ وهم يرتدون ثيابًا نظيفة، وعدد من رجال وصبيان الحي، بعضهم في القهوة، والبقية في فناء دار الشيخ.تم تقديم بلح طازج للمجلس، ولاحقًا خيار طوله متر. عند العصر اصطاد أحد الشبان طائرًا ذا لون رمادي وأصفر، وكعلامة على حظه في الصيد قام الصائد بتلطيخ خشب بندقيته بدم وريش الطائر المقتول، وبعدها قام بشويه على عصا إلى أن تفحَّم.

الجمعة ١٤ سبتمبر:

عند شرب القهوة، حدث مشهد لا يتكرر إلا هنا، فقد شجع الشيخ عبدالله ابنه خميس ذا السنوات الثلاث، وعلمه كيف تتم عملية تدخين النارجيلة.

بسبب سرقة ملح في الليلة الماضية، كانت هناك معركة حقيقية هنا الصباح في الساحة أمام القرية. هجم المتنازعان على بعضهما موسعين أنفسهم ضربًا وتكسيرًا، وتدخل آخرون فيها بالعصي والسيوف. لقد دارت رحى معركة حامية، وتلقى أحد الأولاد الزنوج عدة ضربات بارعة من عبدالله بغمد السيف حتى سالت دماؤه. وبإبعاد الفاعل الحقيقي إلى بستان الشيخ انقلبت المناسبة إلى رضاء عام.

لوجبة الصباح كنا في النصف الشرقي للقرية[١]، بناء على دعوة من المدعو منصور، الذي يعد أغنى رجل في قرية كاف بعد الشيخ، ويمتلك حصانًا، ويعجبه كثيرًا أن يرتدي عباءته المصنوعة من القماش الأحمر

---

(١) كان هذا الجزء من القرية لعائلة ابن خضير.

القاني، الذي لابد وأن يكون قد غنمها من مكان ما. وتشهد الندبات العديدة وبعض من الأسنان المكسرة على أنه قد شارك في عدة معارك. واليوم كان يرغب عبر استضافتنا في وليمة هائلة، أن يشير إلى تفوقه على الشيخ، ولقد نجح بالفعل في ذلك. وفي مساء اليوم نفسه كان لابد لنا من أن نلبي دعوته ثانية.

تحدثنا اليوم مع حمود المجراد عن خططنا المستقبلية، ولقد فتح لنا آمالًا طيبة، بأنه طالما كنا في منطقة شمر، فإننا لا نحتاج لأن نهتم لأي شيء، وأن ابن رشيد سوف يقدم لنا أفضل المرافقين وأية كمية من مخزون الزاد. وكان يرى أنه من المحتمل جدًّا أن يأتي ابن سعود إلى حائل في الوقت نفسه الذي قد نصل فيه إليها، ومن ثم سيهتم ويبذل مافي وسعه نحو رحلتنا إلى الرياض. وحتى إذا ماحضر في وقت لم نكن موجودين فيه، فإن الشيخ سوف يحاول إبقاءه حتى عودتنا، وتحت كل الظروف سوف يحدثه عن زيارتنا المزمعة للرياض، وأن يحصل منه على الوعد برعايتنا.

في المساء، جلسنا طويلًا تحت ضوء القمر، وجرى تبادل الحديث مطولًا إلى أن أخذ أحدهم ربابته، وهي أداة ذات وتر واحد، يتم العزف عليها بأربعة أصابع ويجرى عليها بالقوس، ومع رنين النغمات، ألقى رجل عجوز قصيدة لم أفهم بالطبع أي جزء منها. كان الناس في حالة خجل وارتباك بسبب وجود حمود، الذي يجيء من حائل ذات التدين والورع. وحيث يُعدّ إظهار الفرح المكشوف وخاصة الموسيقى أمرًا مخالفًا للدين.

السبت ١٥ سبتمبر:

بدأ التجهيز لرحلة العودة لهوبر مع حمود ورفاقه إلى دمشق، وفي الصباح الباكر قبل انبلاج الضوء. كان حمود يعد رسائله بين مدة وأخرى خشية أن يكون قد فقد واحدة منها. لقد كانت بعض الرسائل موجهة إلى الحكومة التركية، وأخرى إلى محمد بن دوخي بن سميّر من ولد علي (عنزة)، رزمة كاملة من الرسائل موجهة إلى دمشق. كما أنه أخذ وعدًا من هوبر بالإبراق للسفير الفرنسي في إستانبول ليسأله عما إذا كان في مقدوره أن

يحرك الباب العالي (الدولة العثمانية) لإعادة خيبر إلى ابن رشيد، وهي التي احتلها باشا المدينة منذ عهد غير بعيد. ثم أعد حمود قائمة بما سوف يقوم به من مشتريات في دمشق، ويأمل أن يتمكن من البقاء في دمشق لمدة أربعة أسابيع - وآمل أنا شخصيًّا أن لا تكون المدة بهذا الطول - وطلب أن يأخذ جملي الذلول الجميل للرحلة، ولم يهدأ إلا بعد أن انتزع موافقتي بأن يأخذ معه بندقيتي المزدوجة لوفوشو، التي كانت مؤتمنة لدى خادمنا محمود للحفظ وللتزين بها. وللزيادة في هيبته رغب حمود أن يتمنطق أيضًا بمسدس محمود، لكنه وجد معارضة شديدة، حيث باءت كل محاولاته بالفشل. وضمر محمود منذ تلك اللحظة كراهية لاتنطفئ ضد ذلك الرجل. ولاحقًا كان لا يدع أقل فرصة تمر دون أن يحتك به. وفي اللحظة الأخيرة حضرت النساء بالطبع ببضع طلبات من دمشق، فهيدة، إحدى نساء عبدالله كانت ترغب في سوار من الفضة وخواتم وما إلى ذلك. وكان حمود مرتابًا وفطنًا، ولم يكن شهمًا بما فيه الكفاية، عندما طالبها بالنقود مقدمًا. ولم تستطع رغم كل الجهود من الاستدانة من النساء الأخريات أن تكمل النقود الضرورية ذات الفئة الصغيرة الأمر الذي أغضبه، إلى أن قمت بتسديد الباقي بتبرعي بمجيدي واحد. في الساعة السابعة صباحًا رحلوا مصحوبين بدعواتنا لهم بالتوفيق.

الآن بقيت هنا وحيدًا مع الخادم محمود، وبدا لي الأمر وكأنني سجين. ماذا يجب عليّ إذًا أن أقوم به من عمل صائب معقول؟ لكي لا أضيع الوقت الطويل هباءً في كاف، بل أيضًا أستغله وأنتفع به. كانت خطتي بشكل عام أن أتعرف على الأعراف والتقاليد التي لا تزال غريبة عليّ، وكذلك لهجة البدو عن قرب، إضافة إلى ذلك كنت أرغب في تعّود حياة الخشونة والمشي حافي القدمين. وبسبب استيطاني القسري في كاف، شعرت حالًا وكأنني برجوازي صغير من برجوازيي القرية، فاطلعت على تلك الحياة الهادئة لقرية قانعة للبدو. بعد رحيل الغرباء الكثيرين، بدأت النساء والأطفال في الظهور تدريجيًّا، الأمر الذي مكنني أن أراقب الحياة المنزلية اليومية.

أولًا، وقبل كل شيء، كان للسكون التام بعد ضجيج الأيام الأخيرة أثر

ممتع، وبدأت أحاول قدر الإمكان أن أقوم بتأثيث القهوة بشكل مريح. فقمت بصنع طاولة باستخدام غطاء أحد الصناديق ومع سرجين لأتمكن من الكتابة والرسم بشكل مريح أكثر منه على الركبتين. ولطرد الذباب الكثير قمت بصنع مروحة من سعف النخيل.

زارني اليوم رجل عجوز من الجوف، اسمه خليف، وروى لي تفاصيل مثيرة للاهتمام، ولكنني بكل أسف لم أفهمها كلها آنذاك من حيث اللغة، وكذا من حيث الموضوع، وكانت حول إخضاع موطنه إلى حكم أمير شمر في حائل.

تمتعت تلك الواحة (الجوف) عقب غزوة إبراهيم باشا لنجد عام١٨١٧ بنوع من الاستقلال. ولكن في أعقاب خصومات داخلية، لم يتمكن أهلها من الاحتفاظ بالاستقلال لمدة طويلة، بل وقعت على الأرجح في تبعية بدو الرولة الذين يقيمون في الشمال. استغل طلال الرشيد أمير حائل منازعات العائلات والقبائل بها، وبعد أن ضرب على أوتار الرفق في البداية، قام بإرسال عمه عبيد [ابن الرشيد] الملقب بـ «الذئب» في عام ١٨٥٥[١] (وفي رواية أخرى عام ١٨٥٣)[٢] ومعه مدافع إلى هناك فقصف الأسوار والمنازل وقطع رؤوس خمسة وثمانين من المتمردين أو حتى فقط ممن يشتبه بهم، واقتلع أشجار النخيل، وقد أرسى على هذا النحو وعلى الرغم من ذلك العنف نوعًا من الهدوء والنظام. ومنذ ذلك الوقت تبعت الجوف منطقة شمر. كان خليف، الرجل المذكور آنفًا من الناجين من حمام الدم الكبير ذلك. وكان واحدًا من خمسة وستين رجلًا من الوجهاء أخذوا إلى حائل، وهناك قيدوا بالسلاسل لمدة ستة أعوام، ثم أُطلق سراحه. لقد دُهش كثيرًا عندما سمع مني أنني كنت أعرف بحقيقة الحادثة الأخيرة هذه من بلغريف، وكان متلهفًا لمعرفة كيف وماذا أعلمه عن شخصه. ومنذ ذلك الحين دأب ذلك الرجل على الحضور بانتظام يوميًّا ليؤانسني اجتماعيًّا.

بدأ الشيخ عبدالله بالتدريج يكشف عن شخصيته الحقيقية بعد أن تأكد من

---

(١) انظر رواية بلغريف في الفصل الثاني من هذا العمل حول هذا الحدث.

(٢) ذكر بلغريف سنة ١٨٥٥، وكارلو غوارماني سنة ١٨٥٣ كتاريخ لتلك الأحداث.

بقائي مدة ثلاثة أو أربعة أسابيع في منزله. لقد كان من الواضح أنه أخذ في الحسبان رعايتي كضيف لمدة أكثر بمثابة الأمر غير الضروري، وحتى يمنع أية خيبة أمل أو ادعاء أو اتهام قام بمفاتحتي بملامح وجه تعبر عن الشكوى بأنه الآن وبكل أسف ليس لديه دقيق وأرز في منزله. لكنني أعفيته من الأعذار اللاحقة، ورجوته بأن لا يهتم بالأمر البتة، وأنني راضٍ تمامًا من استضافته. وجدت تلك الظروف الجديدة، المتسمة بالرياء والنفاق، الترحيب من ناحيتي، فلقد كان لديّ من الزاد المخزون من أرز ودقيق وبن ما يكفي. بعد ذلك، أمرت الخادم محمودًا بأن يقوم بكل مايخصني من تدبير منزلي وطعامي، وخاصة بعد انقضاء يوم دون أن يدعوني الشيخ حتى لشرب القهوة.

كان النظام المعتاد للوجبات المنزلية يتم كالآتي: مع طلوع الفجر شرب القهوة، وفي نحو الساعة التاسعة وجبة صباحية هي الغداء في واقع الأمر وتتكون من التمر والزبدة، أو الرز مع الزبدة السائلة المذابة فوقه، وتقدم أرغفة الخبز على قطعة من الخشب أو صحن نحاس. وبعد غروب الشمس مباشرة يكون العشاء، وهي الوجبة الرئيسة. تبدأ مراسم العشاء أولًا بالقهوة، ثم الأرز ثانية أو البرغل، وفي الحالات المتيسرة اللحم إلى جانب ذلك، وعندما يكون ممكنًا بعض (البامية الخضراء والباذنجان والخيار). وفي أوائل ساعات الليل، يتم تحضير القهوة ثانية. وإذا ما جاء ضيف في أثناء النهار، بعد الغداء، فلن تقدم له وجبة تامة، بل مجرد القهوة وبعض التمر. وعليه الانتظار حتى حلول الليل للأكل.

بعد وجبة مساء هذا اليوم، جلست في الفناء المظلم ضمن مجموعة زوار يدخنون النارجيلة، لكنني أصغيت إلى الحديث. قام أحد الزنوج بتقديم القهوة للضيوف، أما أنا فلم تُقدم لي القهوة إلا آخر الموجودين. ولأنني لم أكن معتادًا أن يقدم لي الشيء في الأخير، نهضت واقفًا، وقفلت عائدًا إلى مكان إقامتي. بسبب الارتباك الذي حدث، استيقظ الشيخ، الذي كان في أثناء هذا المشهد ينام بالقرب من المجلس، وأسرع نحوي واعتذر بإلحاح شديد لعدم الاحترام الذي تلقيته، مرددًا أن ذلك العبد مخلوق فظ وجاهل ولا يعرف قيمة الناس،

وأنني من أنبل الرعايا المسيحيين. وأنه شخصيًّا كان نائمًا وليس عنده أدنى فكرة عما حدث، وإن مثل ذلك لن يحدث ثانية. بناءً على توسلاته عدت لأجلس معهم، ومن قهوة قام بإعدادها بنفسه تناولت أول فنجان من يده. كان لابد لي من التصرف وفق مافعلت، لأن الأمر بلا ريب مع هؤلاء الناس اتخذ صفة اللامبالاة وعدم الاكتراث. وإذا ما احتمل المرء خرق التقاليد دون عتب ولوم، فإنهم وإلى إشعار آخر يحكمون على كرامة ووجاهة الآخرين فقط، وفق مايقوم بحسمه هو شخصيًّا.

الأحد ١٦ سبتمبر:

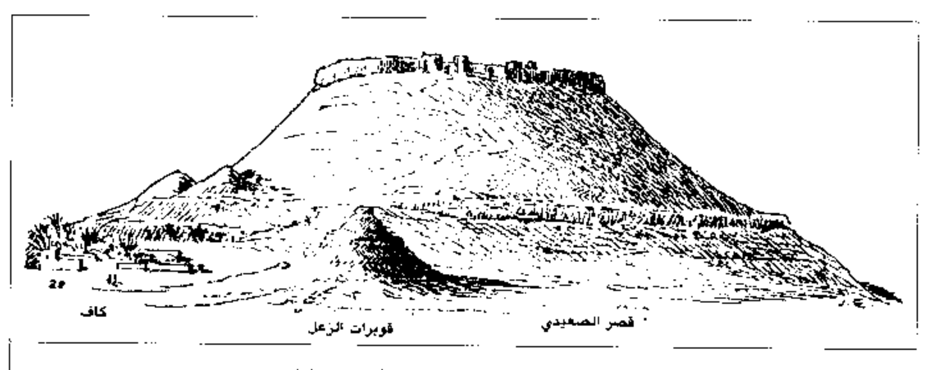
في الجانب الشمالي الغربي للقرية يشمخ بعناد وإصرار ويسمو بنحو ثلاث مئة قدم «جبل قصر الصعيدي»، الذي كان فيما مضى جبلًا حصينًا. يتكون الجبل في ثلثه السفلي من شرفة متصلة من حجارة بركانية رملية سوداء، ومن الخصائص نفسها تتكون القمة المخروطية المنتظمة الشكل في الناحية الشرقية من الجبل وتسمى قويرة الزعل، أما ظهر الجبل ذو الشكل البيضاوي في امتداد من جنوب الجنوب الشرقي نحو شمال الشمال الغربي فهو في معظمه من الحجارة الرملية البيضاء التي تتخللها عروق من الجبس، وفوق الجميع طبقة صخرية قوية سمكها من عشرة إلى خمسة عشر قدمًا، بدت لي كإكليل رمادي. وسطحه العلوي محاط بأسوار وأبراج حجرية. ولأن النظر من قمة الجبل يتيح رؤية أبعد طلبت من الشيخ أن يصطحبني إلى القمة، وأن يشرح لي ما أرى من مناظر. خلف القرية عبرنا مقابر غير منمقة أشار لي الشيخ إلى قبور عائلته، ورجاني أن أنتظر لبضع لحظات حتى يؤدي ركعتين. في هذه الأثناء تأملت المقابر، كانت تعلوها حجارة سوداء بارتفاع قدم واحد إلى قدمين، وهي جميعها غير منحوتة وأيضًا بلا كتابة - لا أحد يعرف الكتابة والقراءة هنا -، على البعض منها غرست عصي من عسب النخيل، وعلى قبر إحدى النساء لاحظت بقايا من قميص أزرق، وكذلك خصلة من الشعر، ويُعتقد أن الضباع قد قامت بنبش القبر. لقد قمت بتسلق الجبل في هذا الوقت، كمحاولة أولى لتعلم المشي حافي القدمين. في أثناء النهار سار الأمر بصورة جيدة للغاية،

وتمكنت من التعرف على الطريق بصورة لا بأس بها، وبما أنه مع انتعالي الحذاء لايمكن تفادي دخول الرمل والحجارة الصغيرة، فلابد من القول إن الأمر كان بالنسبة لي مريحًا، إذ إن الأمور ليست دائمًا كما هي في كل موقع.

خلال خمسة وعشرين دقيقة كنا في أعلى الجبل، وعبر باب مازال قائمًا صعدنا فوق درج صخري إلى أعلى، مرورًا على مواقع قديمة للحراسة يمينًا ويسارًا، ودخلنا السطح المستوي للقمة. في الجانب الجنوبي الغربي، كان الحائط غير موجود، بينما مازال متماسكًا في الجانب الشمالي والشمالي الشرقي، ومحصنًا أيضًا بأبراج بارزة رباعية الزوايا. بقية الغرف قليلة الشأن لاتستحق التعليق. في منتصف الجانب الشمالي الغربي، كان يقف ذلك البناء الضخم في هدوء ورزانة كبيرين، وإلى الجوار بركة مسطحة، وبعيدًا نحو الجنوب الشرقي بئر ماء طمرها التراب. في المنتصف، كان يوجد ما يطلق عليه الجامع بمحراب نصف دائري، وبما أن هذا الأخير لم يكن مطابقًا لاتجاه القبلة في مكة. لذا؛ فإنه يجوز الافتراض بأنه كان كنيسة مسيحيّة.

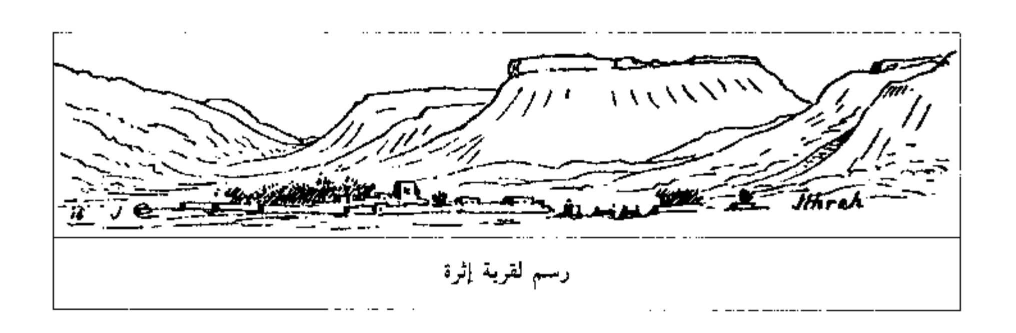
حول تاريخ القلعة وماهيتها، كان الشيخ بالطبع غير قادر على الإفادة بخبر يقين. ومن الآثار القديمة لم يكن هناك من شيء ليُكتشف. عند البئر وجدت حجرًا نُقش عليه هلال وشمس، وعدا ذلك كان هناك بعض النقوش التي يبدو أنها تعود إلى عهد قريب. على أحد البيوت وجدت هذين الشكلين: ، ، ونقوشًا أخرى كانت عبارة عن وسم، جزء منها مرسوم باللون الأحمر. ويعتقد «ويلفرد بلنت» أن القلعة قد دُمِّرت بواسطة إبراهيم باشا.

كان المنظر من قمة الجبل بعيد المدى، ويستحق المجهود لرسمه. على مسافة ليست بعيدة هناك ثلاثة جبال تقع إلى الشمال الشرقي من هنا وهي مقال وشمسانه وأبغيث. وهذا الأخير يطلق عليه أيضًا اسم شامة. على قمم هذه الجبال الثلاثة يُفترض أن يتساقط الثلج، وإن كان حدوث ذلك نادرًا. لقد روى لي أيضًا عن طائر ضخم يسمونه نعجة الطرفه، الذي يعيش فقط في هذه الجبال العالية في الشتاء البارد جدًّا، ولكنه دائمًا لايمكث إلا قليلًا. كان الوصف غير الواضح ينطبق على النسر صائد الخراف أو على أي طائر مشابه.



قصر جبل الصعيدي المشرف على قرية كاف

قرية كاف والمواقع المحيطة بها



رسم لقرية إثرة

فناء منزل الشيخ عبدالله الخميس في كاف



في الجنوب الغربي اختفى السهل المالح (النبك وعقيلة) إلى بضع طرق متقاطعة في خطوط متساوية تنتهي إلى الجنوب مع الجبل الأزرق الفاتح، أم الفناجيل (وتنطق الفناجير). على مسافة ساعتين أو ساعتين ونصف الساعة تبينت نقطة سوداء كانت تتحرك فأوضح لي عبدالله أن تلك النقطة السوداء هي لزنجي يملكه، وكان يقوم برفع الماء من بئر عند قليب الملح، ويصبه على الأرض المالحة حتى يجفف القشرة الأرضية. أمضيت كل عصر ذلك اليوم أردد ثم أكتب الأسماء التي سماها الشيخ، الجبال والأماكن وما شابه ذلك، ولكن على الرغم من ذلك ظل معظمها مشكوكًا فيه بالنسبة لي : إن أُذني آنذاك، لم تكن معتادة أن تفرق بين الأصوات الجهورية المترابطة.

عند المساء، واصلت التمرين بالأقدام الحافية وقمت بتعليق حذائي بخيط على كتفي. خلف القرية كانت هناك خيام بدائية نصبها رعاة الضأن أو الماعز، وبجوارها جلس بعض البدو. من بين هؤلاء الأخيرين نهض أحدهم واتجه صوبي، وطلب مني أن أكتب له حجابًا. كنت حائرًا ومترددًا في كيفية تلبية هذا الطلب. أفهمته أنه يجب عليه أن يأتي إليّ في الصباح الباكر، حينئذٍ سأرى ما يلزم عمله.

ثم جاء آخر أيضًا وسألني «لماذا تمشي حافي القدمين؟ لقد رأيتك بالفعل هذا الصباح وأنت تسير دون حذاء. وإنك رجل محترم وغني، ولديك بالتأكيد حذاء». أجبته : «نعم، لكن إلى متى؟ إلى حين أن تسرقوها مني، إنني في هذه الحالة قادر على مطاردة اللص وانتزاعها منه». « انظر، إنه ذكي، إنه يعرفنا». هكذا قالوا.في عشاء اليوم قدم بيض وبلح مع زبدة ساخنة. لاحقًا، حضر زوار كثيرون لتناول القهوة، ولم يكن بالكاد بينهم من لم يشحذني تبغًا، أو أراد أن يرى المسدس، ولم أعط أيًّا منهم شيئًا. هبّت عاصفة من الجنوب الشرقي، وأثارت غبارًا مزعجًا للجلسة، ودفعت باللذين خابت آمالهم في تلبية طلباتهم إلى منازلهم.

الاثنين ١٧ سبتمبر:

في الصباح الباكر، ذهبت إلى قصر الصعيدي، وأخذت معي ابن الشيخ

ذي الثلاثة عشر عامًا، ويسمى سالمًا إلى الخارج، وجعلته يعيد علي مرة أخرى أسماء المناطق المجاورة التي يعرفها. وعند نزولنا من الجبل إلى أسفل كان ذلك البدوي الذي طلب مني حجابًا بالأمس يقف هناك، وكان اسمه غيران ويريد أن يأخذ حجابه. حقًّا لم أكن بمزاج أن أُقحم نفسي في حماقة، وحاولت أن أقنعه، لكنني فشلت. إنه يعتقد أن الأمر مجرد سوء نية من قبلي لأنه بائس وفقير، ولأنه لايستطيع أن يقدم شيئًا في المقابل. أجبته بأن التفكير في كسب نقود لايمكن على أقل تقدير أن يكون مسيطرًا عليّ لتنفيذ مطلبه، وأنه يجب عليه يومًا ما أن يناقش معي طلبه عن كثب. حكى لي أنه صائد غزلان، ولكنه منذ زمن طويل لم يصد شيئًا، وأنه أيضًا غالبًا ما يشترك في مغامرات خطرة، وأن أكبر أمنياته أن يحصن نفسه ضد الرصاص. لقد كنت في وضوح تام حول القرار الحرج الذي سأتخذه إذ يمكن تحت هذه الظروف أن تتم محاكمتي في صباح الغد بشكل واضح بالكذب، حول فعالية حجابي. لذا أبديت بعض الملاحظات بتحفظ حول شروط معنوية وأخلاقية وأخرى لا يمكن السيطرة عليها والتي دونها لايكون الحجاب شافيًا فحسب، بل إنه يمكن أن يجلب الضرر لحامله في الحال. بعد أن أكد لي بأنه يمتلك كل الصفات المطلوبة، ونظرًا لأنه ألحَّ بشغف للانتهاء من تحرير المكتوب المليء بالأسرار، كتبت له على ورقة الأمنية التالية باللغة الألمانية:

الله

أيها التعيس الفقير! فلتجعلك عقيدتك مباركًا وبما

الله　　　أنك فتى طيب، أتمنى أن تخرج الطلقات مرة　　　الله

أخرى من جسدك مثلما دخلت فيه.

الله

«كاف»

التاريخ ١٦/ ٩/ ١٨٨٣

ي. أويتنغ

وقبل أن يتم تسليم هذا الكنز طلبت منه أن يعدني بأن يجلب لي هدية من صيده، عندما يصطاد أي شيء. في عناية مهيبة قمت بثني هذه الورقة إلى شرائط رقيقة وتقصيرها إلى عقدة ذات خمس زوايا. بالسؤال عن كيفية حملها وضحت له الأمر بأن يحافظ على الزوايا الخمس، وأن تحاك في جلد غزال نظيف وبشريط جلد يُربط حول الرقبة، وأن يوضع على الجانب الأيمن من الرأس، هذا كل ما هناك. وما كاد البدوي يحصل على تلك الورقة التي كان يطمع فيها حتى نهض، وألقى التحية، وابتعد كعادة آبائه وأجداده دون كلمة شكر. كان عبدالله خلال المحادثة وإهداء الحجاب مطبقًا عليه الصمت، جالسًا هناك إلا أنه كان منتبهًا. ولم يترك الحسد بالطبع له أية راحة، وما إن ابتعد البدوي، إلا وأوضح أنه وابنه الأصغر يحتاجان إلى حجاب. ماذا يجب علي أن أفعل؟ وتحت الرجاء وبعد وعد بعدم التقدم بأي التماس من هذا النوع في المستقبل كتبت للرجل بعض العبارات، ولابنه خميس ذي الأعوام الثلاثة. وكتبت له بروح طيبة وطبقت الورقة إلى خمس زوايا. كتبت في هذه السطور مايلي:

الله

أيها البريء القذر، اغسل نفسك، وبذا ستصبح طفلًا

الله غير عادي. وإذا ما أراد الله أن تعلم لمرة واحدة كرمًا الله

آخر للضيافة غير حال أبيك، وفي أثناء ذلك أتمنى لك

كل ما هو طيب، ودمت في أحسن حال

الله

كاف ١٦/ ٩/ ١٨٨٣

جي. أويتنغ

عبدالوهاب

أمرت بأن يُجهز أرز مع بعض الغلال وقمر الدين لوجبة الغداء، ثم استلقيت في القهوة المظلمة وأخلدت للنوم.

في حالة الاستيقاظ كنت قد تعودت وجود مابين عشرين وثلاثين ذبابة على وجهي ويدي وقدماي دون أن أهشها، ولكن عند النوم اليوم، غطيت كل جسمي بملاءة بيضاء شفافة طولها متران، آملًا أن أتمكن من الاستمتاع بالنوم من هذا المجهود المضني من النظر والسمع، وأن أستسلم إلى راحة تامة دون إزعاج. لكن شيوع أمر هذا الغطاء جعل الرجال والنساء والأطفال يتنادون فيما بينهم من خلال الأبواب المفتوحة، ويشيرون إلى تلك الأعجوبة. كان كل المجتمع من الناس يقفون هناك جامدين دون كلمة، وبتعبير وجه كالأطفال. كانت النظرة المجردة غير كافية أبدًا، كان الأكثر متطفلين لاينفكون يقتربون أكثر وأكثر مني، تلك الأعجوبة لابد أن تُلمس بالأيدي وأن تُرفع إلى أعلى، وقد ضربت بعضًا منهم على أصابعهم لكن دون جدوى. في السابق كان للذبابات الأولى الفرصة أن تدخل وتستشفي وتنتقم مني، لكنني أرى أن من الفطنة تحت هذه الظروف، أن يؤثر المرء الاستيقاظ على أن يستسلم ويضع نفسه تحت رحمة هذا التلمس والتحسس والجس غير المحدود للملاءة الشفافة. جلست الآن في العراء لأدخن النارجيلة، وكان لابد لي أن أقوم بالإجابة عن كل الأسئلة التي يمكن تصورها من النساء. وعبر ذلك، أصبحت معروفًا عن قرب لكافة سكان كاف من العنصر النسائي لا سيما عائلة الشيخ. كان الزي الذي ترتديه السيدات يتكون من ثوب ذي لون أزرق غامق، مصنوع من القطن، بأكمام طويلة وذيل يتفاوت في طوله، ويوضع على الرأس غطاء يكون من القماش نفسه، يغطى به الوجه عند الاقتراب من الرجال الغرباء. وبالنسبة للحُلي فإنهن يلبسن على جانب الأنف اليمنى زمامًا مثل الزرار، أسود، أو فيروز أو وردة مكونة من عدة أحجار مُركبة مع بعض، ومن الخواتم أكبر عدد ممكن، وإذا لم تكن من الفضة فهي في حالات الضرورة من الرصاص، وإلى جانب ذلك أساور من البلاستيك أو المعدن على السواعد، وتضع الفتيات الصغيرات أساور على أقدامهن أيضًا.

نادرًا ما كانت النسوة يخجلن أو يستحين مني، بل كن على العكس قد أصبحن تدريجيًّا يأنسن بي ويألفنني. في كثير من الأحيان، كنت أذهب إلى

الفناء الداخلي لأشاهد الأعمال المنزلية كطحن الحبوب والخبز والطهي والخياطة وما إلى ذلك. في العادة يكون هناك ثلاث نسوة من نساء عبدالله هن: فهيدة، ومقبولة، وفضة، واللائي تمتلك كل منهن غرفة يمكن إغلاقها. أما الرابعة حاكمة، التي لا تزال صغيرة جدًّا وجميلة بالإضافة إلى تورد خديها فإنها تستبقي الشيخ معظم الوقت داخل منزل خاص بها. لقد شاهدتها وجهًا لوجه مرة واحدة فقط، وقد أملت أن يترك جمالها انطباعًا في نفسي حتى لا تفوتها الفرصة لكي تطلب مني خاتمًا ذهبيًّا، لكنني خيبت أملها. أما الأخريات فكنت أهديهن أحيانًا بعض الأشياء الصغيرة، مما يجلب السرور لقلوبهن.

إضافة إلى هؤلاء جاءت أخت الشيخ طريفة المفتقدة للحسن، ذات الصوت الجهوري. لقد تم تزويجها إلى أحد البدو ولكن لم يره أحد منذ ست سنوات. وعلى العكس منها كان ابنها ذو الخمسة عشر ربيعًا «غثيان» الذي كان صبيًّا رائعًا. كانت فهيدة والدة الابن المدلل ذي الأعوام الثلاثة خميس، والابن الأكبر سالم. وبالسؤال عن عمر الأخير، قالت إنه قد ولد في سنة الجوع. لقد كلفني جهدًا كبيرًا حساب هذا التاريخ، وفي النهاية اتضح أنه ولد قبل ٢١ سنة. آنذاك، أي عام الجوع هذا لم تنمُ أو تثمر أية نخلة، كما أن الناس اضطرت لذبح إبلها. وكان صاع واحد من التمر القديم يكلف مجيديًّا واحدًا.

لا تحسب الفتيات عند حساب عدد الأطفال. وكان الوالدان ممن لديهم نصف دزينة من الفتيات عند سؤالهما عن عدد أطفالهم يجيبون بتحسر، بأنه للأسف ليس لديهما أي أطفال. على الرغم من ذلك، كان يجوز لأصغر الأولاد طالما كان قادرًا فقط على الإمساك بالمفتاح مجالسة أوساط الأهل والمعارف، ولكن لا يسمح له بالحديث، إنما يسمح له بالرد على الأسئلة، ذلك أنه ليس من السهل بالنسبة للكبار توجيه كلمة لطفل صغير، كما أنه لا يجب بأي حال من الأحوال لمسه أو الإمساك به لملاطفته من قبل الكبار. ومن المستحسن أن يتفادى المرء النظر إليهم نظرة إعجاب، وإلا فإن المرء يقع بكل بساطة تحت دائرة الشك بأنه سيصيبهم بالعين. ماذا يمكن أن يعني للمرء حديث مع الأطفال؟ أيسألهم الإنسان، كما هي العادة في أوروبا عن عمرهم. إن ذلك بالنسبة لهؤلاء

الصغار والكبار أيضًا أمر غير مفهوم، فالكبار البالغون يجدون صعوبة في تحديد أعمارهم بالضبط، وهذا يفرق عادة ما بين أربع إلى خمس سنوات. يمكن للإنسان أن يراقب ترتيب الناس على أحسن الوجوه في الولائم: فأولًا وقبل كل شيء، يأتي كل من هو من جنس الذكور، إما في مجموعة واحدة، أو على مرحلتين، ليأكل الضيوف مع الكبار البالغين، وبعدما يشبعون يتركون المتبقي للأولاد (الغلمان)، والذين يقضون عليه، ويرسلون الصحون الفارغة إلى جناح النساء، وهؤلاء يحصلن من الحيوان المذبوح كاستحقاق على الأقدام والأحشاء وما شابه ذلك، ولكن بعد تسليم الكبد. وفي النهاية يحصل العبيد والحيوانات المنزلية الأليفة ليس على أكثر من الجلد والعظام.

كنت أتمازح كثيرًا مع إحدى الزنجيات واسمها بلوى، والتي كانت في العادة تجلس في الفناء في أثناء عمل زوجها في الملاحات طوال اليوم. في أحد الأيام، طلبت مني أن أقوم برسمها، ولقد كانت حقًّا غير النساء الأخريات من حيث الشكل وكانت من أضخمهن بنية. بعد دقائق قليلة حينما عدت إلى الفناء من القهوة وجدت بلوى غارقة في الدموع والشكوى، ماذا حدث؟ لقد أدخل محمود الخبيث في روعها بأنها الآن وقد تم رسمها أصبحت تحت سيطرتي دون حماية، وأنني في أي وقت يخطرُ لي يمكن أن أحضرها عبر الأثير إلى بلادي المسيحية. كان محمود قد قام ببعض الحركات الخاصة ليعبر لها عن الكيفية التي سوف تؤخذ بها من خلال زوبعة في الهواء، وأنها في أثناء ذلك سوف تتقلب عبر الهواء، والله وحده العالم بما سوف يواجهها هناك. وعلى الرغم من محاولاتي إلى تهدئتها، إلا أنها من شدة الخوف لم يغمض لها جفن طوال الليل. لكي أوضح عدم ضرر الرسم وليكون مفهومًا، قمت بعرض عدد من الصور الأخرى لأناس وحيوانات. وآنذاك شهدت بشكل ملحوظ الانطباع المتغير، الذي أحدثته الصور الفوتغرافية على هؤلاء البسطاء بسجيتهم. في بادئ الأمر أمسكت النساء الصور بأيديهن دون أن يتعرفن على ماهيتها، وفجأة تركن الصور تسقط مع صرخة وقشعريرة فزع غير اعتيادية وكأنهن أمام عفريت. احتاج الأمر إلى إقناع خاص بأن عليهن الإمساك بالصور بارتياح دون حرج ويتأملنها عن قرب. تلك القشعريرة تحولت مباشرة بعد التعرف إلى ضحك ولم يكن للدهشة أي نهاية: «ياعبدالله،

تعال هنا، أسرع شوف». زرافات عديدة من الناس تأتي يوميًّا، وكان لابد من أن أخرج الصور كل مرة. «صورة امرأة مع طفلين وفتيات»، وحول الملابس الجديدة، تسريحات الشعر، الأحذية والجوارب كانت تجري مداولات لا نهاية لها، وفي كثير من الأحيان كنت أضطرُّ لأن أريهن العباءة السوداء المصنوعة من قماش واحد والملابس المخيطة في أوروبا لأريهن الحياكة الرفيعة والمتساوية والخيط الرفيع وما إلى ذلك، وكانت جميع هذه الأشياء مثارًا للدهشة والإعجاب. وعندما أردت أن أحكي لهن عن ماكينات الخياطة لاحظت في مدة وجيزة أن ذلك المجهود هو من الأباطيل السخيفة، وأنني على أقل تقدير أدخلت نفسي في دائرة الشك، بأن يعددنني مخبولًا؛ فهن أنفسهن يفهمن فقط بالإبرة السميكة والخيوط الخشنة ولايعلمن حقًّا شيئًا عما أقوله لهن عن الخيوط الرفيعة، ولم يكن هناك صندوق خياطة، أو إبر شك بل كن يعضضن القماش ببساطة بين الأضراس والأسنان الأمامية ويشددنه. لإنجاز الأعمال الخشنة، كن يغزلن بأنفسهن خيطًا أسود من الصوف، والذي يبدو على الرغم من كل شيء قابلًا للمقاومة، وعند الخيام خلف القرية شاهدت عدة استخدامات له في أعمال نسج قماش الخيام وقماش المعاطف.

جاءت لزيارة منزل عبدالله فتاة جميلة ذات سبعة عشر ربيعًا تقريبًا تدعى لهود، وهي قريبة له من قرية إثرة. ببساطة وسذاجة كبيرتين عبرت هذه الفتاة عن أمنيتها بأن أتزوجها. كذلك كانت الأخريات ورائي بشكل دائب ليقنعنني بالزواج[١]. كيف يتسنى لي إذًا أن أدافع مؤيدًا حججي بالرفض؟ قد يتبين ذلك من هذا الحديث المثير للدهشة بيني وبين لهود:

قلت: «إنني أسافر الآن في أرض البدو، وليس فيها هدوء وراحة، ولا أحتاج امرأة، وإلا لكنتُ قد صحبت إحداهن من بلدي».

قالت: «نساؤكم لسن معتادات على السفر، أما أنا فيمكنني ركوب الإبل ليلًا ونهارًا جيدًا مثلي مثل الرجل».

---

(١) لم يتزوج أويتنغ أبدًا، ومات أعزب.

قلت: «لكنني لا أملك إلا ذلولًا واحدة فقط كما تعلمين».

قالت: «هذا لا يهمُّ؛ سوف أركب رديفًا لك بشكل جيد؛ إنني لا أحتاج إلى حبل ولا إلى رباط».

قلت: «حقًّا، ولكن يعلم الله أنني أقضي كل حياتي هائمًا في بلاد موحشة، وإنني يومًا ما سوف أعود إلى موطني في بلد المسيحية، وإلى هناك لايمكنك حقًّا الذهاب معي».

قالت: «لماذا لايمكن ذلك؟ هل سيقوم المسيحيون بضربي حتى الموت وأنا امرأة؛ ألا يمكنك أن تحمي أنثاك؟ إنه سيكفيني للعيش اليومي حفنة برغل أو حفنة رز وبضع تمرات؛ وأن تشتري لي ثوبًا إذا ما احتجت إلى واحد منها».

قلت: «إن هذا لهو أقل شيء، لكنني أعلم مسبقًا أنه إذا ما جئتِ إلى بلادنا فلن تفهمين اللغة، وسترين بشرًا غرباء، وبعد ذلك سوف تقلقينني طوال الوقت بالنواح والحسرة على أمك وأبيك».

قالت: «أتحسبني مغفلة أو مخبولة. لماذا لا يمكنني أن أتعلم لغتكم؛ وكيف يتعلم أطفالكم؟ خذني امرأة لك، وسوف أظل كذلك. أما بشأن والديّ وأشقائي فسوف لن تنبس شفتي بكلمة شكوى واحدة». بسلاسة وطلاقة لسان لم تترك لي حجة.

هكذا بدأ موضوع الزواج يتداول ويُطرق كل يوم، وكانت الأحاديث البريئة والساذجة حقًّا مثار تسلية كبيرة ولابد لي أن أُقر بأنني لم أجد أي فتاة ذات جرأة، وبالتالي سهلة الانقياد. من يدري، فربما كانت الأمور لو طاوعتها ستصبح على ما يرام، مثلما كان الحال مع بيترو ديلا فالي (Pietro della Valle)[1].

الثلاثاء ١٨ سبتمبر:

كالأمس غطت الرياح الجنوبية الشرقية السماء بالسُّحب هذا الصباح.

---

(١) بيترو ديلا فالي (١٥٨٦- ١٦٥٢) وجيه وثري إيطالي قام برحلة امتدت اثنتي عشرة سنة تقريبًا، زار خلالها تركيا والعراق وإيران ومصر والهند وعمان تزوج بفتاة أشورية خلال رحلته وعاد بها إلى روما.

كان في نيتي أن أزور منصور ذي الجبة الحمراء فإذا بخمسة من بدو الحوازم يصلون إلى الباب ليحصلوا على ملح من قرية كاف. جاء إليّ الشيخ عبدالله، الفزع من الفقر، بملامح تجأر بالشكوى بأنه لايستطيع أن يكرم ضيوفه حتى بالقهوة، وأراد أن يستلف مني بعض البن. قبل غروب الشمس بقليل قدم بعض الناس راكبين من قصر الوشواش، الذين كانوا قبل بضعة أيام قد ذبحوا لاستضافتي. استغل عبدالله رقة وعذوبة زوجته فهيدة لتتوسط لديّ لاستلاف بن.

كانت الرياح الجنوبية الشرقية مع حلول الليل قد تحولت إلى عاصفة غربية، وأثارت الغبار في الفناء، وبذلك رفعت الطبقات القذرة فيه وقلبتها في الجو. كان لايمكن للمرء الجلوس في العراء، لذلك دعوت الجمع كله ليجلسوا معي في القهوة.... [(١)]

الأربعاء ١٩ سبتمبر:

جاء هذا الصباح الغلام الشاب، الذي عادة يقوم بتحضير القهوة في منزل الشيخ عبدالله، وهو إنسان سيِّئ يدعى مطيلق، وقميصه ملطخ بالدماء، ومعه بعض قطع الملابس الغريبة يحملها على جسمه. محمود الذي يعتقد بشكل دائم بأن مطيلق هو لص أتم تلمذته، افترض، وكان بالفعل على حق، بأن مطيلق لابد وأنه قد أقحم نفسه في مغامرة في الليلة السابقة، وقام بالاعتداء على أحد الشبان المساكين. غادر عبدالله القرية اليوم، مع الأشخاص الذين جاؤوا من قصر الوشواش في أثناء الليل للصيد.

قضيتُ مدة ما بعد الظهيرة في بستان «فضي» صاحب الربابة، وكان لابد لي من أن أتحدث عن الحرب، والمدافع والبنادق وما شابه ذلك.

الخميس ٢٠ سبتمبر:

أحضر عبدالله ستة من طيور الحجل غنيمة صيد، ووهبني اثنين منها

---

(١) لم ندرج في هذا النص وصف أويتنغ لعملية إعداد القهوة لأنه سبق تناوله.

للتغييرعن الرز. لهذه المناسبة كان لابد لي من شراء بيض، كل خمس حبات بقرش واحد. وعن ذلك الطائر الحجل يدفع المرء ما بين ثلاثة وستة قروش. وقد كانت هذه المرة الأخيرة خلال كل الرحلة التي تقع فيها عيناي على شيء من ذلك. كان الهواء اليوم يتحرك بصورة قوية مليئًا بالغبار، وكانت السماء بكاملها رمادية اللون، وكانت الجبال كأنما حُجبت بخمار أسود. لكي أفر من الناموس خرجت قُرب المساء متمشيًا بالخارج في السهل المالح حافي القدمين. كان الملح مُبللًا الأرض، وكانت قشرة جليد تغطيها، وكان يُسمع صوت خشخشة على الأرض مع كل خطوة. باستمتاع كبير استلقيت على الأرض الصلبة، وتطلعت إلى السحب، وتركت الرياح الشمالية الغربية القوية ترطب أعضائي.

في المساء تجمع مجلس أنس ومرح عند نار قهوة مضطرمة حول الربابة. كان من الحمق أن أطلقت لنفسي العنان لشرب كمية كبيرة من القهوة، ولذلك لم أجد طريقًا للنوم لمدة طويلة. كان لابد لمحمود أن يتحدث لي طوال ساعتين عن الحج (قوافل الحجيج إلى مكة). لقد كان مرافقنا محمود (محمود باشا عجليقين) يعمل كاتبًا لدى محمد سعيد باشا أمير الحاج، ورافقه سبع مرات؛ وكان أيضًا معروفًا عن قرب لسلفه أحمد باشا بوظو في أثناء مدة وظيفته، التي دامت أربع سنوات، وبالمثل مع سلف الأخير سبع سنوات في الوظيفة. لقد وصف لي محمود الاستعدادات والتنسيق والترتيبات التي تتم في رحلة الحج بصورة مسهبة، ومحطاتها التي تتكون من تسع وأربعين محطة بين دمشق ومكة. في صباح اليوم التالي قمت بتدوين إفاداته كتابة، لاسيما الملاحظات الطوبغرافية حول مسار الطريق، وربما سوف أكشف في مجال آخر عن هذه الملاحظات المدونة، والتي دونتها من منطلق الاهتمام العلمي الخاص.

الجمعة ٢١ سبتمبر:

عاد اليوم غيران الصياد «المحصن ضد الرصاص»، بعد إقرار بأنه لم يصد أي حيوان خلال عامين، عاد بغزال وأرنب، مقتنعًا للغاية بأن مثل هذا الحظ

يعزى فقط إلى الحجاب الذي كتبته له، وقام بتسليمي الغنيمة عن رضًا تام وتلقى نظير ذلك هدية عبارة عن خمسة عشر قرشًا.

وعند المساء أخرجت من أمتعتي خشبة تسمى «بُومرنغ» (مِجدَاع) وقمت بقذفها في السهل بالخارج عبر الهواء، لكي تعود مرة ثانية إليَّ بحركةٍ في شكل قوس جميل. هذه الأداة أثارت بالطبع دهشة وتعجبًا لاحدود لهما، وكان معظم الناس يميلون إلى الاعتقاد بأنها عمل من ضروب السحر. عندما طلبتُ منهم أن يقوموا بتجربتها بأنفسهم، وبإمساكهم للطرف الطويل غير الملحوظ، طارت قطعة الخشب تلك إلى الأمام، ولكنها بسبب طريقة القذف الخاطئة لم تعُد راجعة إلى مكانها. تدفق كل سكان القرية لمشاهدة تلك الأعجوبة الجديدة. قمت على سبيل الدعابة بقذف البُومرنغ إلى مسافة مئتي خطوة بصورة أشبه بالمجازفة فوق رؤوس بعض النسوة، اللائي كن قد خرجن مسرعات إلى الباب، وبصرخة مدوية ألقين بأنفسهن على الأرض، وعندما خاطرن بالتطلع إلى أعلى، ارتفعت تلك الخشبة بشكل عمودي فوقهن إلى الأعلى، وعادت بهدوء إلى نقطة انطلاقها، والناس تقول «ما شاء الله». كان من قبيل المصادفة النادرة، أن «البُومرنغ» عند عودته وللمرة الخامسة يعود إلى الرجل نفسه والحقيقة أنه فقط في تلك المرة عاد إليه بقوة لامثيل لها حتى أحدث شقًّا في معطفه وثوبه اللين، فاعتقد أنني قصدته بهذه الخشبة الشيطانية، ولكنه هدأ مطمئنًا عندما علم بنيتي في تعويضه عن الضرر، لكنه أراد أن يتلقى التعويض من يدي شخصيًّا، وليس بواسطة محمود، الذي كان [لمصلحتنا] بخيلًا وغير طيب.

وجبة عشاء ذلك المساء كانت فاخرة بصورة غير عادية: أرز بلحم طائر الحجل، وغزال ولحم وعن طريق محمود قمت بإرسال الفائض من بعض قطع اللحم إلى النسوة في الفناء المجاور. كالعادة قمت بدعوة الشيخ عبدالله بنفسي للطعام، الذي لم يجلس إليه إلا بعد أن انتهيت من الأكل هو وابنه خميس ومحمود.

السبت ٢٢ سبتمبر:

قبل طلوع الشمس مثُلَ أمامي الرجل الذي شُقَّ ثوبه بالأمس لكي يأخذ تعويضه عن الضرر. وكان التعويض، مقدار «زهراوى واحد» (ربع مجيدي = فرنك ألماني)، واتضح بأنه مقدار كافٍ، على أقل تقدير، وأن الآخرين سوف يأسفون لأنه لم يحدث لهمَ ضرر.لم أكن أشكو من شيء في صحتي، لكن عينيّ التهبتا بسبب الغبار الكثير والرمال، وتكونا غمصتين حينما أستيقظ صباحًا، الأمر الذي أوجب معالجتهما بمحلول زنك بحامض الكبريت.

لم يكن حمامي اليومي من ماء البئر الرئيسة للبستان مفيدًا للعينين فقط، لكنه كان يوجد شعورًا بالوجود. كان تأسيس البئر التي كان يسحب منها الماء يدويًّا عتيقًا للغاية وبدائيًّا، وكانت في البستان نفسه، بضع آبار أخرى مشابهة في حالة تصدع كبير.

جرى اليوم، بناءً على طلبي، تنظيف الفناء أمام القهوة، العديد من السلال المليئة بالتراب والمخلفات والقاذورات تم تفريغها في البستان، وأخيرًا عندما ظهرت الأرضية إلى الوجود برز موقدان تم قفلهما بالبناء. وفي القهوة ذاتها قمت بكنس ورش الأرضية بالماء. في أثناء هذا الشقاء اليدوي غير الممتع وغير المريح لبيت دعوة للقهوة من المدعو شاهر، وهناك كان بالإضافة للقهوة، دبس. وهو سائل غليظ منه نوعان؛ الأول مستخرج من الزبيب والآخر من نبت المصع[1]. لقد أحسست بثقل ظل هذا اليوم لأن الناس كانوا عندما تبدر مني أو أردد جملة بصورة رديئة أو حتى جملة نصف مفهومة، يصرخون في وجهي الأمر الذي يعطي الانطباع بأن القدرة على الفهم لا بد وأن تكون بحق تفارقني. عند الظهر تجمعت كتلة كبيرة من البشر تنتظر لعبة «البومرنغ».

---

(١) مصع غرقد اسمه العلمي (Nitraria retusa) وهو «شجيرة معمرة كثيرة التفرع تسمو ما بين متر ومترين، سيقانه خشبية تنتهي بشوك، الأوراق متبادلة او محيطية شبه جالسة لحميه بيضاوية بطول ٢سم وعرض ١- ١,٥سم، النوارة محدودة طرفية وجانبية متعددة الأزهار، والأزهار خضراء إلى بيضاء، والثمرة بيضاوية لحمية لبية حمراء، انتشاره محدود في السبخات وسط وشمال وادي السرحان، يزهر في شهرأبريل، رعوي جيد، ويستخرج من ثماره الدبس.» انظر: **النباتات البرية في مراعي شمال المملكة العربية السعودية**، مصدر سبق ذكره، ص. ٢٣٩.

ولسوء الحظ لم تدم الفرحة إذ إن تلك القطعة الخشبية، وبعد رميات قليلة، تحطمت على حجر في أثناء هبوطها الأمر الذي سبب حسرة لدى جميع السكان.

الأحد ٢٣ سبتمبر:

لماذا يستيقظ الناس من نومهم هنا في وقت مبكر جدًّا، في ظلام الليل الدامس، وعلى الأقل قبل ساعة من طلوع الشمس، ويكونون في غالبيتهم على أقدامهم؟ من غير الممكن أن يكون الأمر مجرد نزعة دينية بأن لا تفوتهم صلاة الفجر، أو استعجالًا للأعمال التجارية. إنني أعتقد أن الغالبية يستيقظون مبكرًا، لأنهم يتجمدون من البرد. ثلاثة أرباعهم ليس لديهم أي نوع من الفراش، ولا أي مطارح، وبعضهم ليس لديهم سوى الثياب والكوافي، ويندر أن يكون لديهم معطف، وهم يرقدون في ثيابهم طوال الليل على الأرض، وفي أية زاوية من الزوايا. فإذا ما كانت ليلة دافئة مقمرة فإنه لا يوجد أبدع من أن يتخذوا السماء سقفًا لهم، ولكن عند قرب طلوع الشمس عندما تزداد الرطوبة وتصل الحرارة إلى أدنى درجة، يتجمد البؤساء وينهضون، ثم ينتشرون هنا وهناك.

بعد الفطور، كانت هناك حاجة لأن ألعب دور ذواقة الماء أو الباحث عن الينابيع. «أو بيراز» (اسم خاص بمن يبحث عن الينابيع). على أحد المداخل عند أسفل قصر الصعيدي تأملت هيئة الأرض المجاورة بعناية، واكتشفت واديًا منخفضًا حددت فيه أربعة مواقع يحتمل وجود الماء فيها إذا ما تم حفرها، وأعلمت الشيخ وأتباعه عنه. وقد أكدوا لاحقًا أن اثنين من تلك المواقع نفسها كانت مواقع آبار في السابق، لكن الرمال طمرتها. لقد راق المكان الواقع مباشرة خلف القرية كثيرًا للشيخ، بسبب مجاورته لبستانه، ولم يرتح إلى أن قمت بعمل دائرة كبيرة بعصًا على الرمال لتحديد محيط الحفرة. لقد أراد بالطبع أن يعرف إلى أي عمق يجب أن يكون الحفر. وللاطمئنان أشرت إلى ارتفاع بيت كعمق ضروري لابد منه، وأضفت إلى ذلك أنهم لو لم يكونوا جميعهم أشقياء كسالى لما تركوا آبار أجدادهم الجيدة تندثر، بل كانوا بنوها

بالطوب. انتهزت حالة المزاج الطيبة لكي يعرفوني بأسماء أماكن المياه، والآبار، والينابيع في البلاد، ولقد أفادوني بالآتي:

أولًا: مواقع الماء بين جبل الدروز وحائل:

١- الأزرق (نهر)، ٢- العمري، ٣- الهزيم، ٤- الرقبان، ٥- كاف، ٦- إثرة، ٧- الوشواش، ٨- قصيبة (عين)، ٩- البيضة (عين)، ١٠- عدوانه، ١١- المحيضر، ١٢- اشقيق الذيب، ١٣- الأمغر، ١٤-مغيرة، ١٥- فاي شمال، ١٦- القدير، ١٧- العصُبي، ١٨- أويسط، ١٩- الميسري، ٢٠- النباج، ٢١- شيبه، ٢٢- حليقيم، ٢٣- النبك أبو قصر، ٢٤- الجراوى، ٢٥- شغار، ٢٦- صبيحة، ٢٧- ميقوع، ٢٨- الجوف، ٢٩- الشقيق، ٣٠- جُبة، ٣١- قناء، ٣٢- اللقيطه، ٣٣- الوقيد، ٣٤- حائل[١].

ثانيًا: مواقع الماء بين حائل والمشهد (النجف على طريق لينه):

١- الخاصرة، ٢- بقعة أو بقعا، ٣- شعيبة، ٤- خضرة، ٥- لينه، ٦- السلمان، ٧- السيد، ٨- المشهد.

ثالثًا: مواقع الماء بين الجوف والمشهد:

١-الحذل [الحزل]، ٢-الشبيكه، ٣- الرهيمه، ٤- المشهد.

رابعًا: مواقع الماء بين كاف ومعان:

١- غُطي، ٢- باير، ٣- الجفر، ٤- معان.

خامسًا: مواقع الماء بين كاف وتدمر (رحلة ٧ أيام):

١- غصين السعادة (ماء جار)، ٢- ضمير (ماء جار)، ٣- تدمر.

---

(١) من اللافت للنظر أن قائمة الآبار تنقصه بئر قراقر وهي تقع بين الأرقام ٨ و١١. (أويتنغ)

سادسًا: مواقع الماء بين تدمر ودمشق:

أ- إلى ناحية اليسار (جنوب شرقي):

١- تدمر، ٢- عين الوعول، ٣- اللقائط، ٤- البصير، ٥- حفير، ٦- الزبيدي، ٧- لفاعي.

ب - إلى الناحية اليمين (الشمال الغربي):

١- أبو الفوارس، ٢- حزل، ٣- جحار، ٤- الجبا، ٥- القريتين.

سابعًا: مواقع الماء بين تدمر وجبل الملوزا (في منتصف الطريق بين دمشق وهيت على الفرات):

١- المبطح (٨ ساعات)، ٢- الهيل (٤ ساعات)، ٣-المربعة (٢ ساعة)، ٤- الصقرى (٢ ساعة)، ٥- القعره (٢١ ساعة)، ٦- وركه (٢ يوم).

وبهذه المناسبة، علمت بالنبأ غير السار، وهو أن بئر الشقيق أهم بئر في طريق رحلتي المستقبلية، والبئر الوحيدة الواقعة على مسافة خمسة أيام في منطقة لا ماء فيها عبر النفود بين الجوف وجبة، قد أصبحت غير صالحة للاستعمال نتيجة طمرها بالحجارة والرمال. وإنها طمرت بناءً على أمر من أمير حائل ليجعل الغزوات من قبل جيرانه وأعدائه في الشمال (خاصة قبائل الرولة وبني صخر) مستحيلة (على الأقل من ذلك الاتجاه الذي تقع فيه البئر). يبلغ محيط فوهة هذه البئر مترين وعمقها ما بين ثمانية وستين وسبعين مترًا، وقد حفرت عبر طبقة صخرية. وإذ لا توجد في هذه البئر، مثل غيرها من الآبار الأخرى في صحراء الجزيرة العربية أية تجهيزات لسحب الماء منها، فقد أحضرت معي من أوروبا أربعة حبال رفيعة من القنب (طول كل واحد منها اثنان وخمسون مترًا) وأربعة جرادل من قماش الكتان، خاصة لهذه البئر. هذا التحوط أصبح الآن لا فائدة منه وكان لابد لي أن أحرص على تدبير «قرب» للماء إضافية على أقل الفروض من الجوف لتغطية حاجتنا من الماء للمسافة الطويلة بين الجوف وحائل.

أحضر ليَ اليوم أحد الصيادين، ويدعى «ذيبان»، أرنبًا قام باصطياده،

وطلب في مقابله حجابًا. وبعد أن أقحمت نفسي في هذا الجنون فلا بأس أن أفعل الشيء نفسه مجددًا، أي القيام بكتابة تعويذات ورُقى لأكثر الأغراض سذاجة. كنت غالبًا ما أنتج أكثر السخافات جنونًا، وأعتقد، أنه إذا ما قام أحد يومًا ما بعد مئتي سنة بجمع أحجبة البدو سيجد حتمًا تهريجًا مثيرًا للضحك. بقدوم عدد كبير من بدو الرولة، حصلت على بعض الهدوء من الزوار. حدث ترحيب وسلام وتقبيل كبير للضيوف. جلسوا جميعهم في الفناء، وفيما بعد، اتضح أن زعيمهم كريِّم ابن دغمي كان لديه مهمة رسمية، وسيتوجهون إلى الجوف لقضاء بعض الوقت فيها. وقد تركوا هنا بعض أمتعتهم إلى حين عودتهم في فصل الشتاء. يستشعر الإنسان حلول الخريف تدريجيًا بصورة غريبة، إذ يمكنني الآن أن أخرج في الثالثة ظهرًا بوجه مكشوف وأقدام حافية، وأمشي في السهل الرملي دون أن يحترق جلدي، فمنذ أربعة عشر يومًا فقط لم أكن في حالة جيدة. في الطرف الخارجي للقرية وخلف حائط شاهدت لهود جالسة ومعها فتاة أخرى منقوضات الشعر، وكانت كل منهما تحمل طاسًا من نحاس في حجرها به سائل أصفر. بسؤالي لهما عما تفعلانه هناك، أجابتا ضاحكتين بأنهما يريدان غسل شعرهما. طلبت منهما أن يتقدما حيث كنت أرغب أن أرى ما في الدلوين. لم يكن معهما مشط، وكان لابد لهما أن ينتظرا صديقة أخرى تملك واحدًا، وتأملان أن تحضره معها. أعلمني محمود لاحقًا أن السائل الأصفر ليس زبدًا، كما ظننت من مظهره، بل كان بول الجمال. وإن من الأشياء المحببة أن تسرع الفتاة جريًا وتضع رأسها أسفل الجمل عندما يتبول. البول هذا دواء شامل يصلح علاجًا ومنظفًا مثلما هو الحمام الدافىء عندنا، ويحل أيضًا محل الصابون وماء الكولونيا (يروي هـ. جي. بفايفر في مقالة له عن بوليفيا في أمريكا الجنوبية شيئًا شبيهًا للغاية). في معان هناك طلب من النساء على الرائحة العطرية والشذا العبق لعصارة «النيكوتين» المستخدمة في «النارجيلة»، ويستخدمنه لتلوين شفاههن وأسنانهن.

بينما كان بدو الرولة يجلسون في الفناء وأنا في مجلس القهوة، طلبت من محمود أن يروي لي أخبار العلا ومدائن صالح. وصف لي المساكن الصخرية (محفورة حقيقة داخل الصخر) لبني ثمود، وروى بأن الإنسان يجدُ

في القرية الأخيرة قطع حجارة صغيرة في حجم القرش عليها كتابة، وأنه شخصيًا كان قد وجد واحدًا منها ذات مرة، إلا أنه فُقد منه إذ لم يكن حريصًا عليه. وإن هناك أيضًا أوانٍ من الصلصال المحروق كتلك الموجودة بكثرة في تدمر.

الاثنين ٢٤ سبتمبر:

مع انبلاج صباح اليوم، قدمت مجموعات جديدة من قبيلة الرولة، وبما أنه لم يكن لدي اهتمام بتلك الجماعات، فقد بقيت طوال اليوم داخل القهوة، وتركت محمودًا يملي عليّ أسماء الأسلحة النارية وأسماء قطعها. أراد مطيلق أن يدخل عليّ ليجلس القرفصاء في أحد الأركان إلا أنني طردته خارجًا ليصب جام غضبه في مكان آخر. لقد شعر حقًّا بإهانة عميقة لأنه سحب سيف عبدالله الذي يعرض به أمام النساء من غمده، إلا أن سالم بن عبدالله أخذه منه، ومن شدة غضبه لم يعد ثانية إلى الأكل.

قدم إلى القرية شاكيًا شخص يدعى حوران من الشرارات، وهو مالك لأربعين رأسًا من الأغنام يهيم بها طوال العام في الصحراء ليعيش منها. وقد أفاد أنه بالأمس عندما كان على مقربة من القرية ساقه عدد من اللصوص إلى مكان قريب ونهبوا أغنامه وولوا هاربين، وإن اللصوص وكانوا ستة عشر رجلًا يمتطون ثمانية من الهجن، كانوا من الصقور وهم من جهة الحزل جوار الجوف.

بعد غروب الشمس سمعت أصوات طلقات نارية، فخرج الناس إلى خارج القرية لمقابلة القافلة القادمة من حوران المحملة بالحبوب، التي كانت قد غادرت محملة بالملح. جرى الاحتفاء برجال القافلة الخمسين أو الستين رجلًا بتقديم القهوة بحفاوة. أما أنا فقد سحبت نفسي إلى مقر إقامتي، لأنعم بالنوم إلى أن أقلقت راحتي مرارًا. جاء أولًا مطيلق الرديء ليأخذ أواني القهوة، فقام محمود بإعطائها إياه. بعد ذلك بمدة وجيزة حضر طالبًا مصباح الزيت الذي لا أسطوانة له، والذي لم أستطع استعادته منذ ذلك الوقت، رغم كل توسلاتي وتكرارالوعود الكاذبة. في وقت لاحق، جاءت أيضًا

طريفة العجوز إلى الداخل وسببت ضوضاء قاتلة من أجل المصباح نفسه. وحتى بعد أن بدأت أغفو لأنام، ظهر شاب تحت الباب يحمل سعفة نخيل مشتعلة ذات لهب يبحث عن المصباح مرة أخرى، وأمرت محمودًا بطرده.

الثلاثاء ٢٥ سبتمبر:

استيقظت مبكرًا قبل شروق الشمس، وراقبت منظر تبادل السلام وتبادل ما هو جديد من أخبار. لوجبة الصباح كان يوجد «سمح» (وهو نبات ينمو في كل مكان في شمالي الجزيرة العربية، يشبه العشب ذا الأوراق الصغيرة، ويزهر بلون أصفر فاقع، وله ثمر بحجم البازلاء، ويحتوي الثمر على بذور بنية، يجمع ويطحن ويعجن، وبعد خبزه يخلط بالسكر والزبدة، وكان يبدو كشكولاتة الجبن، وطعمه ليس رديئًا، إنه حقًّا خبز الصحراء).

اصطادوا قبل ليلتين ضبعًا بفخ حديدي وأراد بعض الشبان أن يقدموه لي كلحم للشواء، وقد وجدوا في معدة الحيوان يدًا بشرية. قام محمود بطرد الشبان شر طردة.

أراد عبدالله أن يطوف بي اليوم على منازله، لكي ألقي نظرة على طراز البناء والتعرف عليه. كانت المنازل جميعها مبنية بالطوب الطيني المجفف، ومعظمها ذات طابق واحد. الجدران بسمك قدمين إلى ثلاث أقدام، تعلوها تسنينات من الطوب الطيني، وتبدو من بعيد محصنة، وعن قرب تبدو في منتهى البساطة. تسمى تسنينات الأسوار العادية والبسيطة «حمام»، فيما تسمى تسنينات الأسوار المرصوفة المتدرجة «شمروخ» والجمع شماريخ بمعنى صفوف متدرجة. عند مداخل المنازل توجد غرفة الاستقبال (القهوة)، وهي عالية الارتفاع، عادة مابين أربعة وستة أمتار. والبيوت مسقوفة بخشب الأثل وعسب النخيل وسعفه، وفوق ذلك الطين والجير، وفي السطح ميل في المنسوب ليتم وضع المزاريب لتصريف مياه الأمطار من السطح. يترك المرء بين الدور أفنية إما صغيرة أو كبيرة، وزاوية للفضلات. الفناء الداخلي الكبير محاط بمداخل مختلفة منخفضة للغاية، يمكن إغلاقها، وهناك تكون غرف

التخزين، والمطبخ وغرف أخرى لكل أنواع الأعمال المنزلية. أعتقد أنني قد لاحظت أن كل زوجة تحتفظ مع أبنائها بقسم ومدخل خاص.

كيف تبدو البيوت العربية الغنية؟ هذا الموضوع، سوف أتطرق إليه بالوصف والرسم الوافي عند وصفي للإقامة في حائل.

طلب مني اليوم أحد البدو من الدهامشة، من جهة مشهد علي [النجف] على الفرات مساعدة مدعيًا أنه وزملاءه عندما كانوا في الحرة اعتُدِيَ عليهم ونهبت إبلهم، فأعطيته ربع مجيدي. بعد مضي ستة أيام سمعت بأن ما ذكره غير صحيح، فعلى العكس تمامًا اتضح أنه وشركاءه في الجريمة قد قاموا بنهب خمسة وعشرين بعيرًا من الجانب الشرقي لجبل الدروز.

سافر مساء اليوم عبدالله ومطيلق معًا في رحلة يومين إلى إثرة، وكان لابد لضيوفه أن يكونوا «غصة في حلقي» لشرب القهوة. كانت تؤخذ الربابة ويؤدى معها الغناء إلى وقت متأخر. لقد وجهت بوضع سريري في الفناء على طول أحد الجدران، واضطجعت لكي أنام. كان أحد الشبان عديمي الأدب ويدعى نزال من الوقاحة بحيث حشر رجليه بيني وبين الجدران على السجاد، أمسكت رجليه في الحال، وقذفت به إلى مكان مخصص له، مع بعض السباب والشتم. كان ذلك بمثابة إشارة تحذيرية للآخرين لأن يقبعوا في واحد من الأركان. وعلى الرغم من دفاعي المستمر إلَّا أن الهراء لم يكن له أية نهاية. عندما جاءت ماعز إلى موضعي قفزت واقفًا وأمسكت بسيفي الملقى بجانبي. اعتقد الشبان أن الأمر يسري عليهم، وعند سماعهم بسحبي السيف من غمده تركوا معاطفهم خلفهم وأطلقوا سيقانهم للريح. عند سماعه للضجة قفز محمود أيضًا من نومه وجرى خلفهم حاملًا بندقيته، لكنه فقد قضيب تثبيت بارود البندقية عند المطاردة. قام على أثر ذلك بكيل سباب لم يُسمع به من قبل ضد ذلك المعقل وسكانه، وهدد بنقل إقامتي إلى قرية إثرة الأكثر ضيافة وكرمًا.

خرجت كل من طريفة وفهيدة مندفعتين خارج منزلهما. وبعد توضيح الأمر اتخذت طريفة موقفًا آخر، وأوضحت من تلقاء نفسها، أنها سوف تطلق النار على أي شخص يتعدى بدخول الفناء ليلًا مرة أخرى.

الأربعاء ٢٦ سبتمبر:

استيقظت مبكرًا، وجاء أحد المطاردين ليلة الأمس ومعه قضيب البندقية المفقود على أساس أنه عثر عليه ببراءة.

أحضروا اليوم ضبعًا إلى القرية، والفخ ممسك به، وكان ذلك الحيوان قد وقع في الشرك المنصوب له خلف القرية، قرب المقابر، وكان فيما يبدو قد هام، حول قصر الصعيدي، وجنوبًا وشرقًا حتى أسفل جبل (أم الجراس)، وقد اكتشف هناك وضرب حتى الموت بالعصي.

كان الجو بعد شروق الشمس بساعة لا يزال باردًا ومنعشًا، لذلك حملت بندقيتي على كتفي وسرت نحو قمة «سمرة عريق» جنوب شرقي كاف. ومن هناك كانت الجبال العالية في الشمال الشرقي، وهي جبال الشمسانة ومقل وابغيبث، ظاهرة للعيان، وتبدو وكأنها قد زحفت من مكانها واقتربت.في كل صباح من التاسعة صباحًا وما بعدها، يبدأ السراب يتكون بصورة مستمرة حتى يبدو كسطح الماء، وهو حقًّا شيء مضلل، إذ قد يسير نحوه الإنسان الذي أخذ منه العطش ويضل دون أن يشعر بالخطر، يسرع برغبة جامحة لايمكن السيطرة عليها نحو ذلك البحر الجميل. تلك التمثيلية تستمر في كل مرة نحو نصف الساعة أو أطول حتى تضع طبقات الهواء التي تبدأ بالتسخين، نهاية للصورة الخادعة (السراب).

في طريق العودة من «سمرة عريق» التقيت بالمدعو ذيبان الذي كان قد أحضر لي أرنبًا، وكذلك المدعو غيران المحصن ضد الرصاص. وقد أكدت البنادق المخضبة بالدماء أنهما قد اصطادا غزالًا بريًّا، قمت بمقايضته بمجيدي واحد مع شرط الحصول على أرنب. بعد بضعة أيام جيء بأرنب حية.عند الظهيرة، حضر جمع من النسوة من قرية إثرة، لقد سمعن بالصور (الفوتغرافية) ويرغبن في رؤيتها بشغف. لقد تكرر بالضبط مشهد المرة الأولى نفسه.بما أن عبدالله لم يرجع بعد من رحلته، سادت الفوضى وعدم الطاعة مثلما كانت الحال بالأمس.

الخميس ٢٧ سبتمبر:

يجب أن لا يؤاخذ المرء شخصًا من بافاريا يصاب بحسرة وألم عندما يكون في الغربة، أكان في الولايات المتحدة المريكية أو في بلاد العرب، ويفكر في عيد ميلاد الملك فلهلم فون فورتمبيرغ، والاحتفالات الشعبية المصاحبة له. المسارح الخشبية الصغيرة والمغنون على الأرائك، والنساء البدينات، والمئة ألف كرنبة المخللة من تايشمان مع المقانق. صورة مكان الاحتفال بكاملها طفت إلى ذاكرتي كسراب ألماني.

الجمعة ٢٨ سبتمبر:

للاحتفال بذلك اليوم، يوم عيد ميلاد ملك بلادي، كنت بكامل هيئتي. فارتديت الجاكيت الحريري الأحمر الطويل، وتمنطقت بكل الأسلحة، وتأملت كيف أنني فتحت كرم ضيافتي للذين يستحقون والذين لايستحقون. كل من قدم حظي بالقهوة، والشاي والشيكولاته السائلة، والتبغ، والبلح، والخبز، ومرق اللحم وما شابهه. كما حصلت النسوة على ما فيه الكفاية دون انتظار. دُهش عبدالله الذي عاد للقرية عند الظهيرة بالوليمة التي لم يشهد لها مثيلًا من قبل، وترك لنفسه التلذذ بالأكل إذ وجد نفسه استثناءً على مائدتي، حيث الحساء والرز ولحم الغزال وعصير قمر الدين.

عند مغيب الشمس، حلق صقران عاليًا في الأفق فهاج مالكو البنادق واشتعل الفتيل وهرول الجميع بشغف لإطلاق الرصاص، ولكن بكل أسف لم يعجب الصقران أن يسقطا في قرية كاف فابتعدا نحو الشمال.كان الشيخ عبدالله ينوي بناء سكن جديد لأصغر زوجاته السيدة حاكمة، رغم أنه أكد لي مؤخرًا بأنه سوف يهجر هذه المرأة وما ذلك إلا محض رياء، وأعتقد أن التكلف قد بلغ منه ما بلغ، وأنه يرى أن من المعيب أن تكون هي التي ضغطت عليه لبناء البيت الجديد. في الفناء الداخلي، توجد الآن كميات من أعمدة وأخشاب الأثل القوية لتستخدم في سقف الغرف الجديدة، وما كان قد أحضره عبدالله معه من قرية إثرة في حزم ضخمة لم يكن سوى تجهيزات التأسيس لمنزل السيدة المفضلة (التي لايمكن استبدالها).

أردت أن أرى المكان الذي وقع فيه الضبع في الشرك أمس الأول، فسرت إلى أسفل شمالي قصر الصعيدي، في السهل المسمى «ساس القف». جلست عند أطلال منزل بالقرب من بئر مطمورة، لكي أرسم جبلًا أبيض معينًا، الذي عرفت لاحقًا أنه يسمى «قصر الضبع».

من هذا المكان، يمكن للمرء أن يراقب تكوين الصحراء بصورة واضحة ودقيقة. وكان الصخر المتفتت من جهة الجبل، يسقط في شكل ردم مخروطية من حجارة خشنة أو ناعمة. ويبدأ تدريجيًّا بالتحلل والاندثار، ثم تغطيه الرمال.

بعد الظهر سرت في «سهل النبك» حافي القدمين، وفي عدة مواقع لاحظت عددًا من الشباب الصغار ورجلًا عجوزًا، كان منهمكًا في عمل لم يكن مفهومًا لديّ في بادئ الأمر. فقد كان الرجل يقف إلى منتصف جسمه في حفرة ماء بعمق خمس إلى ست أقدام، ويغرف الماء واقفًا بدلو جلد ويصبها في شكل سيل رفيع إلى برك بعمق قدم واحد. وكان يوجد في الجوار أكواخ طينية بسقف أو بدون سقف. اعتقدت أن الأمر يتعلق باستخراج الملح، لكنني أعلمت بأنه ليس كذلك، بل لاصطياد الطيور. ففي هذا الوقت، الذي يشح فيه الماء تكون الطيور في حاجة شديدة للعثور على مكان للشرب، وهناك في الأكواخ يقبع الصيادون ببنادقهم ليلًا ونهارًا، ليقوموا عبر فتحات صغيرة بإطلاق الرصاص على الطيور المسكينة التي تأتي لشرب الماء.

يمتاز الماء هنا، وحتى ذلك الذي يستخرج من باطن الأرض، بملوحته الشديدة. وتكسو الأرض الطينية قشرة بيضاء.

حول الخبرة في استخراج الملح في هذه الناحية تمكنت من معرفة الآتي: إن قاع وادي السرحان العريض بتشعباته الكثيرة، يضم في ثلثه الأعلى مقادير من الطبقات المالحة التي تكون في أوقات السنة الغنية بالمياه بحارًا أو مستنقعات من المياه المحتوية على الملح. في ترابط وثيق، يوجد ذلك الملح ظاهرًا للعيان بقرب قريتي إثرة وكاف، واللتين تدينان بوجودهما له. وفي غير هذا المكان أيضًا وعندما تفيض الغدران بالمياه، يظهر ذلك الملح بكميات

وافرة على سطح الأرض. ويمكن لأي بدوي أخذ أية كمية يرغب فيها منه بالمجان، ولكن هذه الغنيمة تكون رطبة، وتحتاج إلى تجفيف خاص.

اشتهر هذا الملح بأنه حلو وليس مرًّا مثل ذلك الملح المستخرج في تدمر. في هذه الناحية اعتاد سكان كل قريتين أن يقوموا باستخراج الملح بصورة منتظمة نوعًا ما، وطوال السنة. على مسافة ساعتين من قرية كاف إلى الجنوب الشرقي تشمخ في «سهل النبك» جبال سمرا غطي وقليب الملح. تحت سفح كل من تلك الجبال أنشأ الشيخ عبدالله، شيخ كاف، مستغلًّا المياه السطحية، قناة وموقعًا لبركة ماء، لكي يجري الماء المستخرج باستمرار ويغسل التربة مستخرجًا بذلك الملح. وهناك أحد الزنوج، الذي هو زوج بلوى يقوم بالذهاب إلى هناك صباحًا ويعود بالمساء، وهو يقضي اليوم بأكمله في حفر المياه وسقي التربة وجمع الملح على شكل أكوام. وبعد أن يتم تجفيف المتحصل عليه من الملح وتنظيفه، يتم تخزينه في غرف طينية مسورة عند مدخل القرية. يقوم بدو السرحان وبدو بني عيسى بنقل ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف حمل منه سنويًّا (الحمل يساوي ستين رطلًا = مئة وستين عُكازًا = مئتين وخمسة كغم، وهي تساوي ثلاثين صاعًا. وسعر الحمل ثابت مقداره مجيدي واحد، ويباع في حوران. إنهم عادة يقايضون البضاعة بمقدار الوزن نفسه من الحبوب. يتم كيل الوزن بمكيال خشبي يسمى صاعًا، ويزن نحو ثلاثة عشر إلى أربعة عشر رطلًا. وحتى لايختلط العد في أثناء العمل كان يتم ترديد العدد الأخير المستخرج عشرين مرة أو أكثر بصوت عالٍ، الأمر الذي يسبب الإزعاج إذا ما أراد بعض الأصدقاء اللطفاء أن يقوموا بالعد الصامت إلى جوار البدو الذين يعدون دائمًا بصورة صعبة، وتوتر يصبب العرق. وبعد عدّ خمسة عشر صاعًا، وهي نصف الحمل، أي بالكاد تساوي جوالًا، يبدأ المرء في عمل كوم جديدة.

في أثناء الاحتلال التركي المؤقت لوادي السرحان سنة ١٨٧٠ فُرضت ضريبة جباية على الملح في كاف، كان مقدارها مجيديًّا واحدًا عن كل حمولة. يبقى نصف هذا المجيدي للشيخ والنصف الآخر يأخذه موظف الضرائب

التركي، وتسمى هذه الضريبة ميري (أي ضريبة الحكومة). وبعد أن يكون الموظف قد سرق مقدارًا جيدًا منه وعاد سعيدًا إلى دمشق يسلم هذا الموظف مبلغ ألفي مجيدية في السراي (مركز الحكومة) في دمشق، والتي يستلمها الأفندية المذهولون. وهم الذين ليست لديهم أدنى فكرة عن تلك الضريبة القادمة من كاف، ودون أن ينطقوا بكلمة ثناء واحدة، يدخلونها في جيوبهم.

عند المساء رأيت في ساحة القرية رجلًا جالسًا، لفت نظري بياض سحنته، يرتدي ثوبًا فقط، وعلى رأسه منديل أبيض بسيط، وفي يده عصاه، ولا شيء من الأمتعة. وبسؤالي له، من أين أتى، وماذا يفعل هنا؟ كان مترددًا ولم يدلِ بكلمة إلا بعد أن طمأنه عبدالله بغمزة من عينيه. عرفت منه أنه هارب من الحامية التركية في الحديدة وصنعاء، وتتكون هذه الحامية من أربعة كتائب ضعيفة. وقد هرب مع عدد من زملائه وكانوا يبيتون تلك الليلة في قرية إثرة. كان قد هرب منذ نحو ستة شهور، وقد رحلوا سيرًا على الأقدام وبمساعدة البدو حتى حلوا في ضيافة ابن رشيد في حائل. وهناك تلقى كل منهم ثوبًا وكوفية وربع مجيدي هديةً، وقد أطعِموا جيدًا لعدة أيام. والآن يرغب مع زملائه في العودة إلى وطنهم في جهة دمشق، ويأمل أن يتسنى له أن يجتاز الجزء الأخير من الطريق بسلام. وعن أسباب هربه من الجندية قال إن الحرارة غير العادية ومياه الشرب الملوثة، وما يعقب ذلك من حمى وأمراض أخرى كانت هي الأسباب التي دفعته للهرب. وذكر لي الشيخ عبدالله، أن مثل هؤلاء المساكين يأتون كل بضعة أسابيع. إن من المدهش حقًّا أن يكون هناك جنود أتراك في اليمن حتى الآن.

كان هؤلاء الجنود بمجرد أن يهربوا من حامياتهم يتركون وراءهم كل ما يشير إلى الجندية، خاصة السلاح، ولا يحملون أي شيء يعيقهم. بعد مغادرتهم يجدون لدى البدو وهم أعداء أشداء للدولة (الحكومة التركية) كل أنواع كرم الضيافة، ويظل البدو يدفعون بهم من قبيلة إلى أخرى حتى يصلوا إلى مواطنهم. في طريق عودة هؤلاء الجنود يتوقفون في حائل، لأنهم فيها يحصلون على هدية الضيافة المذكورة، دون أن يراهم أحد، ويستطيعون أن

يخلدوا إلى الراحة بعض الوقت. في وقت لاحق، وفي أثناء إقامتي هناك قابلت أيضًا للمرة الثانية مجموعة كبيرة منهم.

وعدني عبدالله هذا الصباح بتوفير الخبز مساء هذا اليوم، إلا أنه وقد علم أنني قد دعوت التركي الهارب من الخدمة العسكرية إلى وجبة العشاء معي خشي من توفير قطعة أخرى إضافية لهذا الأخير. وهكذا في المساء لم يكن هناك بكل بساطة أي خبز، وعندما أخذت بسكويتًا من حقيبتي السحرية دون أن أنتظره، وقدمت له منها واحدة بكل أدب قفز عبدالله وأحضر بعض رقائق الخبز. وفوق ذلك لابد وأنه قد سمعني أيضًا، وأنا أطلب من محمود الشاي، والقهوة والشوكولاته وأشياء أخرى، وأدعوه للاحتفال معي بضيفنا.

السبت ٢٩ سبتمبر:

في الصباح الباكر جاء أربعة من زملاء الجندي التركي الهارب من الجندية في حالة تبعث على الأسى والحزن. بعد أن قمت نوعًا ما بإسعافهم بالمأكل والمشرب وأيضًا لاستكمال المساعدة ناولت كلًّا منهم ربع مجيدي لعلي أحصل منهم على وصف لطريق العودة الذي قطعوه. وعلى الرغم من كل ذلك لم أتمكن من أن أحصل على معلومات مرضية. وحصلت فقط على عدد من أسماء الأماكن التي هاموا بها خلال ثلاثة شهور. ذكروا لي في ترتيب غير مؤكد: صنعاء، ملح، جبل يام، مأرب، وادي خاب، مخلاف (سبيع)، جبل عسير، خلعت، بيشة، تربة، الطائف، وادي الدواسر (مأهول)، شقراء، بريدة، حائل، الجوف.

في مكان فضاء في القرية عسكر بدو بني سرحان، المتآخين مع بني صخر والقادمين من جهة تقع بين البلقاء والسلط في شرق الأردن، وقد نقلوا الحبوب على أربعة وستين جملًا إلى هنا، ليخزنوها حتى الشتاء، ويأتوا عند الحاجة، لحمل ما يحتاجونه منها. وقد أخذ بنو صخر عند عودتهم بعض الحبوب.

تجولت اليوم عبر الجماعات المتعاطية بالتجارة، ولمحت بالمصادفة في فناء المسجد المجاور وجود هارب آخر يتكور في إحدى زاويا المسجد دون أي

اهتمام من أحد، ولم يقدم له أي شيء من الطعام. طلبت من هذا الرجل أن يتبعني، لقد كان يعاني من الحمى، وكان لديه إضافة لذلك جروح في قدميه، حتى إنه كان بالكاد يستطيع أن يسحب نفسه لمسافة المئتي خطوة للوصول إلى منزلنا. وبعد تناول الخبز والحساء ولحم الغزال والقهوة، بدأ يتحسن بصورة سريعة، وأخذ أيضًا بعض بودرة الحمى للطريق، التي كان يعرف قيمتها جيدًا. لقد عبر الرجل عن امتنانه بكلمات شكر لم أعد أسمع منها شيئًا منذ زمن طويل، بقوله: «الله يطول عمرك ويخليك».

في فترة مابعد الظهر، بدأت تتشكل سحب كثيفة، ومع غروب الشمس هبت ريح جنوبية شرقية عاتية، وخلال عشر دقائق ثارت عاصفة من التراب من المكان القفر إلى أعلى في شكل دوائر، وانقضت على رؤوس أشجار النخيل المتأوهة، لتلتف مع بعضها بعضًا. وفجأة ساد سكون تام، ومن الجهة الغربية بدأت قطرات المطر الباردة تتساقط مع الهواء.

يا إلهي ما أمتع هذا! فمنذ أبريل لم تسقط قطرة مطر. بقيت درجة الحرارة دون تغيير جذري، ففي المساء عند الساعة التاسعة لاحظت أن درجة الحرارة لا تزال ثلاثًا وأربعين درجة مئوية. لم تدعني حرارة الجو أن أنام لمدة طويلة. وفي الصباح استيقظت على تحية أمل كالبلسم من سماء صافية ملأى بالنجوم، حيث سقطت قطرات خفيفة من المطر على موضعي.

الأحد ٣٠ سبتمبر:

نصحني الشيخ عبدالله بأنه من المستحسن أن لا أتنزه اليوم، وعلى الأقل ليس بمفردي، وليس دون سلاح، لوجود أعداد كبيرة جدًّا من البدو، يهيمون في الطريق، ولوجود ضيوف كثيرين مع إبلهم في الحي.

حسب إفادة أحد الشرارات، فقد كان في السهل مئتا شخص من قبيلة الشرارات ومعهم إبل كثيرة. هذه المجموعات تجيء إلى القرية خاصة بالليل فرادى أو في مجموعات للسقيا.

صحيح أن الشيخ يدفع خاوة للشرارات وبني عيسى والرولة وحتى

الحويطات، لكن الحركة غير مأمونة في الوقت الحاضر كما كان الحال في السابق[١]. إن غرور بني عيسى يزداد مع ازدياد عدد بنادقهم، ويفترض أنهم يملكون الآن أربعين بندقية من نوع مارتيني.

قبل أن آخذ موقعي لتناول وجبة الإفطار بالقرب من موضع النار، كان أحد البدو قد جلس مسبقًا على سجادتي، وتم طرده، فولى هاربًا وهو يشتم بقوله «الله يقطع النصارى». رد عليه محمود بالمثل من الشتائم. كان الشاب يحمل معه حيوانًا لافتًا للنظر في شكل السحلية - إلا أن جلده الخارجي أشبه بالدرع - ذلك الحيوان يسمى ضبًّا، ويدعي الشاب أن ذلك الضب ذا الطول غير العادي يأتي إلى الأرض الصخرية الرملية، ويضع بيضه هناك، وأن له لحمًا أبيض طريًّا، وأنه يطبخ على النار مع الملح ويؤكل.

عند العصر، سمعنا فجأة صوت صراخ وعويل غريب صادر من حوش النساء. لقد تلقت لهود خبرًا بوفاة شقيقها المفاجئ في قرية إثرة، وانفجرت في عويل لايتوقف بينما تشاطرها النساء الأخريات النواح والأسى. بعيون دامعة، رجعت لهود إلى بلدها، فمددت لها يدي مودعًا، ولم أرها بعد ذلك على الإطلاق.

بعد غروب الشمس، جاء من السهل جماعة تتكون من خمسة وثلاثين ضيفًا. جلسوا في دائرة واحدة في الفناء، وقدمت لهم ثلاث صحائف كبيرة من التمر، بينما أضاء أحد العبيد المكان بسعفة نخيل موقدة. كان يمكنني مراقبة الوجوه واللحى بوضوح تام، لكن لتعبي من ليلة الأمس، انسحبت دون أن أنتظر القهوة، وكنت بالكاد أسمع صوت الربابة، التي لم تصمت ويصمت الجميع معها إلا عند الفجر.

الاثنين ١ أكتوبر:

كان صباح هذا اليوم باردًا نسبيًّا. وانسحب بنو عيسى في الصباح الباكر

---

(١) هذا القول مؤشر مهم على أن الخاوة لا تعني أكثر من حماية النفس والطريق من القبائل نفسها التي تُدفع لها الخاوة وليس أكثر من ذلك.

متجهين إلى حوران، وأخلوا المكان للشرارات. وعلى الرغم من أن هذه القبيلة الأخيرة تعدادها كبير نسبيًّا إلا أنها ضعيفة... يعلقون أسلحتهم البدائية البائسة على حائط، أو يضعونها بجوارهم على الأرض، وإلى أن يحصلوا على شيء من الأكل يعسكرون، بعض منهم مستلقٍ على بطنه، ساندًا الرأس على المرفقين، أو يلعبون ببعر الجمال على الرمال. أحدهم قام بمضغ عشرين نواة تمر أو أكثر، بالطريقة نفسها التي تمضغ بها حبوب البن المحمصة عندنا. عندما لاحظ هذا الرجل أنني أراقبه أتى نحوي وطلب تبغًا. وفي الوقت نفسه أخذ جمرة ملتهبة من النار قام بتفتيتها إلى قطع صغيرة بيده ووضعها على مكان جلوسه.

بالقرب من مكان جلوسي المعتاد، الذي كان يقع عند المدخل الرئيس لبستان الشيخ، كان شابان في مقتبل العمر، بقعان وسعود، يقومان بالحراسة. وكانا يوجدان بشكل دائم آناء الليل وآناء النهار، لكن الأمور كانت تجري طوال اليوم دخولًا وخروجًا وكأننا في سوق، ولم أشاهد أن أحدًا قد حُرم من الدخول.

من الأشياء التي لا يمكن أن أنساها، الباب الخشبي اللئيم، الذي يتم فتحه رجًّا كل ساعة ثلاث أو أربع مرات. وبما أن الباب يكون مغلقًا بشكل دائم فقد كان ينادى غالبًا «يا بقعان، يا سعود» افتح الباب، فالمفتاح نادرًا مايكون في حالة جيدة. كانت أسنان المفتاح السبع أو الثماني مصنوعة من الخشب القوي، وهي إما قصيرة جدًّا أو طويلة جدًّا، وفي الغالب مكسورة. وهكذا كان يهدر وقت غير عادي، في تركيب أسنان جديدة ووضعها في مكانها الصحيح.

كنت في الغالب أستلقي لساعات طويلة في البستان، لأن ذلك كان مصدرًا لتجاذب أطراف الحديث كثيرًا. كانت الحفر الصغيرة التي تمد أشجار النخيل بالمياه تقفل لوقت قصير عدة مرات في اليوم ثم تفتح أو تنظف. في كثير من الأحيان كان يجيء الضيوف إلى البستان، أو حتى ضيف واحد حيث يقوم في كل مرة ودون أداة مساعدة بتسلق جذع شجرة النخيل، وقطف بلح طازج ووضعه في جيب ثوبه. لقد أدهشتني المرونة وعدم الكلل من القيام بهذا العمل.

أن شجرة النخيل الكاملة النمو يتراوح ارتفاعها ما بين خمس وسبع أقدام. وتجد ما بين ستة وعشرة قنوان [جمع قنو] معلقة على كل نخلة، ويحمل كل قنو بضع مئات من الرطب. تتخذ الثمار التي لاتزال بلون أخضر فاتح كلون البازلاء في شهر يونيو لونًا أصفر في شهر أغسطس. وبعد تعرضها الطويل للضوء والحرارة يتحول لونها إلى أحمر غامق في شهر سبتمبر. ومن ثم تقطف ناضجة بعد أن تكون قد اتخذت لونًا أسود فاتحًا. طعمها وهي طازجة لذيذ جدًّا، وعند النضج التام تبدو وكأن العسل يسيل منها، بحيث إنه عند جني الرطب يتحول اللب الذي يتبقى على النواة إلى مادة سائلة(١).

ربما يكون من الجدير بالذكر أن أشجار النخيل ذات جنسين منفصلين، إما مذكر أو مؤنث، حيث يوجد في كل ألف شجرة أنثى مابين خمس وست أشجار مذكرة. الأشجار المؤنثة فقط هي التي تحمل الثمار، لكن لابد لها أن تلقح يدويًّا، ولهذا الغرض، يتسلق المرء الشجرة المؤنثة ويقوم بقطع الجريد القديم، وينظف تاج الشجرة جيدًا. وبعد ذلك يفتح الجزء المؤنث في الشجرة ويلفه بحبوب اللقاح المزهرة (طلع)، التي يكون قد أخذها من الشجرة المذكرة في حزام إلى أعلى، ويأخذ جزءًا صغيرًا من ذرات اللقاح وينثره على الزهر في الشجرة المؤنثة. لقد شاهدت هذا العمل لاحقًا في تيماء، في شهر فبراير عدة مرات. إن شجرة النخيل تظل هكذا تنمو، حيث تروى بالماء، إما عن طريق جذورها من باطن الأرض، أو عن طريق الري الصناعي لتحصل على الترطيب اللازم، فجذورها في الماء وبقية هيكلها في النار. وحيثما يرى المرء أشجار نخيل قائمة، فإنه لابد أن تكون هناك مياه في عمق غير بعيد، أو في مكان قريب.

إن وجود أشجار النخيل شامخة في أرض، وحيدة وصامتة حزينة على حائط صخر ملتهب، لهو تعبير شاعري، صيغ ببراعة، ولكنه حقيقةً أمر غير معقول. إن أشجار النخيل البرية، التي تنمو دون رعاية، ولا مالك لها، لا توجد في كل أنحاء الجزيرة العربية. وإذا ما رأى المرء مثل هذه الأشجار بعيدًا عن سكن الناس، فليس من غير المصادفة أن لا تجد المالك ولكن بمجرد أن تظهر

---

(١) يشير هنا إلى تمر نخلة الحلوة.

الثمار الأولى لن تُترك الشجرة ساعة واحدة دون حراسة، ليلًا ونهارًا، من اللصوص الذين لا يتركون حتى الثمار غير الناضجة دون قطف. إن قطع شجرة نخيل يسبب أسوأ أنواع المنازعات والحروب، إلا أن ذلك نادرًا ما يحدث هنا، ويعدّ من المنكرات.

عند الساعة الرابعة والنصف من مساء هذا اليوم، عاد هوبر وحمود المجراد من دمشق مع جمع غفير من المرافقين. وكانوا قد قطعوا مسافات طويلة سيرًا على الأقدام، ووقعوا إضافة إلى ذلك في وسط غزو لقبيلة الرولة، لكن كان اللقاء سعيدًا دون كارثة. وروى هوبر بأنه لاحظ في قصر الأزرق نقوشًا بخط كوفي رديء.اشترى حمود أدوات مثيرة للضحك من دمشق، من بينها كمية كبيرة من أجربة المسدسات، وليس أقل من ثلاث حقائب فارغة. لقد أثقل عليّ وأرهقني بفضوله وتوسلاته، التي دون حدود، وكذلك بالروائح العطرية، التي كان يدهن بها جسمه وملابسه بكثرة. ولم ينصرف من عندي إلا بعد أن شاهد نصف محتويات حقيبة الزاد وتلمس معظم الأشياء بيده. ولابد أنه عانى ألمًا كبيرًا في تحمل خيبة الأمل، لأنه لم يحصل على شيء من هذه الحقيبة الممتلئة، لا عن طريق الغنم ولا طريق الاستجداء. تصرفت وكأنني لم ألحظ قط نزاع نفسه العنيف، وصددت كل محاولاته، وحتى محاولات المقايضة رفضتها رفضًا شديدًا.

الثلاثاء ٢ أكتوبر:

منذ بضعة أيام بدأ ينمو بين أصبع قدمي اليمنى الأول والثاني بثر متقيح مؤلم للغاية حتى أصبح المشي أمرًا عسيرًا. وخلافًا لكل نصح بالعدول عن ذلك كنت أضع قدمي يوميًّا في جدول ماء جارٍ في البستان عدة مرات. ولما لم ينفتح البثر بصورة صحيحة قمت بوضع لزقة داياشيلون عليه، لكن ذلك لم يفد بشيء كثير، لذلك تركته ليأخذ دورته الطبيعية. إن هذا نوع من المرض يرتبط بعدم تعود الطقس، وتغيير نظام المعيشة المعتاد. افترض الشيخ، ويبدو أنه كان على حق، أن الناس الذين لم يولدوا في الجزيرة العربية، وأيضًا أولئك الذين نشؤوا في الجوار (صلخد، ودمشق) يصابون بمثل هذه الدمامل التي يرجع مصدرها

إلى نوعية المياه، وكونها تسبب ألمًا لهو دليل على الصحة الجيدة، وإنني يجب عليَّ ألا أفعل أي شيء تجاه ذلك.

من الواضح أن نوعًا من الكائنات الحية القوية تعمد إلى المواد الفاسدة التي تصل إلى الدم عن طريق المياه الملوثة، وعن طريق الترشيح مرة أخرى وتظهر بذلك الشكل على الأطراف. تركت هذا الدمل وقروحًا أخرى ظهرت لاحقًا كما هي رغم أن التراب والغبار يزيد التهابها.

الأربعاء ٣ أكتوبر:

بعد طلوع الشمس، تم إحضار الرواحل والبدء بتجهيز الأمتعة للرحلة عبر وادي السرحان إلى الجوف. لم يخبرني هوبر مسبقًا بموعد الرحيل الذي سوف يتم اليوم. ولابد لي أن أعترف، بأنني دهشت - نوعًا ما - ليس لأن وداع كاف قد أصبح صعبًا على نفسي، لكن لأنني كنت أتوقع من هوبر، الذي منحته مطلق الحرية في أمر تنظيم الرحلة، أن يعلمني موعد الرحيل، الذي حدده بنفسه مع حمود المجراد.

عند الوداع قدمت للنساء بعض الأشياء الصغيرة، واستفسرت من الشيخ عبدالله عما إذا كان لديه أي رغبة أستطيع أن ألبيها له. فطلب مني أن أقرضه بعض المال وسوف يرده لي عند عودتي، فأعطيته خمس مجيديات وطلبت منه أن يحتفظ بها حتى نلتقي ثانية في الجنة. ثم تجمع أهل القرية عند البوابة متمنين لنا سفرًا سعيدًا. تحركت القافلة نحو قرية إثرة في الساعة الثامنة والنصف وكانت مؤلفة من أربعة وعشرين رجلًا وثلاث وعشرين راحلة، بالإضافة إلى امرأة زنجية، ومعها طفلان. بالطبع كان هوبر وشخصي أهم شخصيتين في هذه القافلة إلا أن حمود المجراد كان هو قائدها الحقيقي وتوجيهاته كانت أوامر. لقد أُتيحت لي الفرصة لمعرفة هذا الرجل وتقدير قيمته، ويمكنني القول إنه من أفضل البدو بعد الأمير في حائل. كان حمود يبلغ السابعة والأربعين من عمره، فارع الطول نحيفًا، طويل الأنف، وعيناه لهما بريقهما الخاص. كان طماعًا يرغب في امتلاك كل ما تقع عليه عيناه حتى أنه إذا لم يتمكن من ذلك لن

يتوانى عن تكرار المحاولة. ويرى خادمنا محمود أن كل جملة تخرج من فم حمود تحتوي على كذبة. وهي وإن لم تكن تحتوي على كذبة فهو قد تعود منذ طفولته على إخفاء الحقيقة كنوع من الاحتراس وتضليل السائل بإجاباته. ولهذا كان يكلف دائمًا بواجبات صعبة ومهمات دبلوماسية (على سبيل المثال، كان قد قام بمهمة إلى إسماعيل باشا نائب خديوي مصر[1]، كانت تجد رضا ومباركة الأمير. كان ذكيًّا وشجاعًا لا يخلو وجهه وجسده من آثار إصاباته في المعارك، ومع ذلك كان محبًّا للحياة معتزًّا بنفسه وفخورًا. كان يخرج مرآته الصغيرة عدة مرات باليوم الواحد لينظر ويتمعن وجهه. كان يكحّل عينيه، ويمضي وقتًا طويلًا في صبغ لحيته البيضاء باللون الأحمر، حيث كان يقوم كل يومين أو ثلاثة بخلط الحناء بالماء في إناء. ثم يدهن بالمعجون لحيته وأطراف شعر رأسه وما إن يجف بعد ساعة تقريبًا ينفض بقاياه من شعره. حينما رأيته أول مرة يقوم بهذا العمل انفجرت ضاحكًا، إذ كان وجهه يبدو وكأنه قد غمس بفضلات بقرة فمازحته بذلك، ولم ينسَ لي أبدًا هذا الموقف. وبمقارنته بالبدو الآخرين فقد كان شديد النظافة لا يرى ماء إلا ويغسل يديه ووجهه، ثم باستخدام مفارشنا ينشفهما. كان لا يفوقه أحد في قيادة القافلة، فقد كان خبيرًا بمسارات الطريق، حازمًا في أوامره وقراراته، ويهتم بمعرفة أدق التفاصيل بنفسه. كان يتحاشى خادمنا محمودًا منذ لقَّنه الأخير درسًا قاسيًا عندما أراد التدخل في كيفية سرجه لراحلته، إذ كيف لرجل مثله أن يعطي تعليمات لرجل حج سبع مرات على ظهر جمل.

كانت الشخصية الثانية التي عرفتها عن قرب هي شخصية محيثل أبو حمد من الجوف، كان رديفي فوق ظهر الراحلة طيلة الأيام السبعة التي سبقت بلوغنا بلده. لقد كان يبذل جهودًا مضنية لكي أكون مستريحًا في ركوبي، وليخفف من آلامي التي كنت أشعر بها. ولم يضايقني منه شيء سوى صراخه، هيك، هيك، هيك، لحث الراحلة على السرعة في خطوها. ولا بد أن أذكر من رفاقنا أيضًا

(١) إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي (١٨٣٠ - ١٨٩٥) حكم مصر من سنة ١٨٦٣ إلى أن خلعته إنجلترا عن العرش في سنة ١٨٧٩.

إبراهيم أبو خليل وهو نصف زنجي من حائل، وصلبوخ الشراري صاحب خمس من إبلنا المستأجرة[1]. وكنا برفقتنا رجلين من دمشق وهما من تجار ومؤجري الجمال، أحدهما حسين وكان والده يعمل في تأجير الجمال لمدة ثلاثين عامًا، والآخر يدعى أحمد. اعتاد هذان الرجلان على الذهاب إلى جبل شمر بانتظام لشراء الإبل. وكنا معنا أيضًا رجل من القصيم، وكان مصابًا بالحمى وعائدًا إلى بلاده ليقضي بها بعد اثنتين وعشرين سنة من الإقامة في دمشق. ظل هذا الرجل الملفوف ببطانية يرتجف من شدة الحمى، ولم يكن قادرًا على الجلوس وحده على ظهر الراحلة، وقد مددت له يد المساعدة، وإلا لكان مصيره السقوط من فوق ظهر جمله. أما بالنسبة لمرافقينا الآخرين فلم أبالِ بمعرفتهم.

لدواعي الأمن وتخفيف أحمال رواحلنا قمنا بتوزيع بعض البنادق التي قدمها لي ملك بلادي على مرافقينا الذين سعدوا بحملها، مع علمهم أنها لن تكون لهم، مدة عشرين يومًا. وهي المدة التي سبقت بلوغنا حائل.

لا أريد القارئ أن يجد صعوبة في معرفة عدد موارد الماء الموجودة في مسار رحلتنا إلى الجوف الذي ليس به أية قرية عامرة، واستغرق سبعة أيام من السفر، لذلك أحيله إلى قائمة أسماء الموارد في هذا الطريق التي ذكرتها فيما سبق، وإلى رسم الطريق أدناه.

يمتد وادي السرحان من شمال غرب إلى جنوب غرب لمسافة مابين خمس وعشر ساعات، وهو وادٍ واسع، على جانبيه مرتفعات من الحجر الجيري الأبيض مكسوة بأحجار داكنة لامعة تحتوي بلورات جبسين. ومع وجود مستنقعات الملح التي سبق ذكرها في المنطقة إلا أن الأرض خصبة وغنية بالنبات. ويمكن للمرء أن يجد ماءً كل بضع ساعات، وبإمكانه أيضًا تحديد أماكن وجودها بناءً على وجود الأعشاب والنبات. لا يوجد شيء من النبت بالقرب من موارد الماء الرئيسة لتعرضها للرعي أو دهس الحيوانات

(١) استأجرنا منه خمسة من الجمال لرحلتنا إلى الجوف بعشرين مجيديًّا (نحو ٧٠ مارك ألمانيًا). (أويتنغ).

التي تردها. الماء في هذه الموارد كان صالحًا للشرب رغم وجود بعض الحشرات والقوارض فيه، التي يرى العرب إنها دليل على صلاحية الماء للشرب. كنا نقوم بإنزال مريض الحمى بهذه الآبار في أثناء مرورنا بها لتخفيض درجة حرارته المرتفعة.

كانت درجات الحرارة العليا في هذه الأيام تصل إلى ست وثلاثين درجة مئوية أما الدرجات الدنيا فتصل إلى عشر درجات في ساعات الصباح الباكر. كنا نصادف كثيرًا عواصف رملية، ونشاهد أيضًا سرابًا من أمامنا. وكنا نجد الكثير من النبت في طريقنا، فكانت هناك أنواع من الحلفا والغضا والسبط والنصي والمصع، وعشب الزعتر برائحته العطرية العبقة. وقد قدمت لي مرافقتنا السيدة الزنجية أم الطفلين، التي كنت أقدم لها فائض أكلنا، دم الغزال الذي تنبعث منه رائحة عطرية. في طريقنا رأيت أشجارًا كثيرة تآكلت أغصانها وجذوعها وقد تساقطت ودفنت بالرمل، وقد ذكر حمود أنها من أثر الأرضة، وأسماها محمود الأرمة. رأينا الكثير من الغزلان في طريقنا، وصادفنا أرنبًا انتهى إلى مائدتنا، ولم نشاهد إلَّا ثعبانًا واحدًا.

في اليوم الثاني من بدء سفرنا شاهدنا إلى يميننا جبلين هرميين أبيضين يسميان الخصيين، وفي اليوم الثالث كان عن يسارنا سلسلة جبال المسمى[١]، ومقابلها كان جبل صغير قاتم اللون، وفي اليوم الثامن كانت إلى يسارنا جبال قريميس والأضارع، وإلى يميننا على مسافة يوم كامل تشمخ جبال الطويل وسط النفود.

كان برنامج سفرنا يجري كالآتي: الانطلاق دون إفطار قبل ساعة من شروق الشمس أي نحو الساعة الخامسة فجرًا، والمسير حتى الساعة السابعة والنصف صباحًا، ثم نتوقف لمدة ساعة أوساعة ونصف الساعة لتناول الفطور. بعدها نواصل المسير دون توقف إلى الساعة الرابعة عصرًا، وعند الساعة

---

(١) غير سلسلة الجبال التي تحمل الاسم نفسه غرب سلسلة جبال أجأ في منطقة حائل وفي منتصف المسافة بينها وبين تيماء.(أويتنغ).

السادسة مساءً نتوقف لتناول العشاء وأداء صلاة المغرب. ثم نبدأ السير من جديد حتى الساعة التاسعة التي عندها ينتهي يوم سفرنا ونعسكر للنوم، ويبقى رجل أو اثنان للحراسة.

لهذه الرحلات الصحراوية ميزات من أهمها: الاعتماد على النفس، وعدم الحاجة للمال، والاستمتاع بالهواء النقي والبرودة المنعشة، واختفاء الحشرات كالبعوض والذباب، وتوافر أشجار الحطب بروائحها العطرة، والنومة الهنية فوق الرمال الؤللؤية. وإذ إنني جديد على هذا النوع من التجربة كان الأمر لا يخلو من بعض المعاناة، فتلك القروح التي أصابت جسمي اضطرتني للنوم على جانبي، واختلاط ذرات الرمال وقطع الحصى بطعامنا، وصرخات حث الإبل، ومع ذلك أصبحت هذه الأمور معتادة لتعودي عليها.

لا تندهش عزيزي القارئ مما سأذكره لأنك لست مضطرًّا لمعايشته، وأعني هنا الرفيق الدائم للبدو وهو القمل. كان عندي سابق علم بهذه الحشرة من بعض الرحالة المجربين وأن لا ضير منها، لذلك لم تكن مفاجأة لي عندما شعرت في اليوم الثاني بلسعة وهرش في عنقي فطلبت من رديفي محيثل أن يرى الأمر، وقد وجد قملة فقضى عليها. وقال: «أها، حتى عبدالوهاب صار به قميلة»، ومنذ تلك اللحظة صار ينظر إليّ وكأنني أحد أفراد قبيلة القافلة ولم أعد غريبًا عليه. وقد هدَّ أني بقول «ما يخالف» أي لا ضرر منها. وحيث إن ثياب البدو عبارة عن جلباب فضفاض دون حزام، فإنها لا تكون ملتصقة بالجسم بشكل دائم إلا عند الرقبة نجد أن مكان تجمعها حولها. وللتخلص من هذه الحشرة فإن أسهل طريقة مجربة منذ أسهل طريقة وهي المجربة منذ ربعة آلاف سنة هي التقاط هذه الحشرات ورميها في النار كل صباح ليتخلص من متاعبها طوال اليوم لأن صغارها تحتاج ليوم كامل للنمو والقدرة على اللسع. وهنا لا بد لي من الاعتراف أنني لم أشعر يومًا طوال سبعة شهور أن جسمي خلوٌ منها. ويمكن تخليص الملابس منها إذا ما توافر الوقت، وذلك بخلع الملابس وتعليقها في مكان طلق ولن يجد بعد يومين أثر لها.

في المرحلة الثانية من رحلتي داخل الجزيرة العربية وخلال فترات الراحة في المخيمات كنت أذكر لرفاق الرحلة على سبيل التعليم بعض العادات والتقاليد الأسرية في أوروبا، وكيف أن الأسرة تدعو ضيفها للاغتسال وفي بعض الأحيان يسأل الضيف عما إذا كان لديه شيء من الملابس يحتاج تنظيفًا. بعد ذلك كنت أُسأل عن الملابس التي تحتاج غسيلًا، فأقوم بتغيير ملابسي ويأخذونها إلى قسم النساء في المخيّم فتنظف وتعاد ليَ في غاية الترتيب.

في صباح اليوم السابع من أيام سفرنا(يوم الثلاثاء التاسع من أكتوبر) تقدمنا في مسيرتنا نحو بلدة الجوف (دومة الجندل) بعد عبور ممر ضيق تحوطه جبال من الحجر الرملي إلى هضبة تكثر فيها حجارة فضية اللون على شكل فقاعات ضخمة، وتحوطها الجبال التي ترتفع ما بين أربع مئة وخمس مئة قدم وفي وسطها واحة النخيل وبعض الدور المتباعدة التي تشرف عليها قلعة مارد والقصر الجديد للرشيديين. وما وراء هذه الأرض من ناحية الشرق تقع صحراء النفود الرملية القاحلة ممتدة إلى جبل شمر. وعملًا بعادة البدو اغتسلنا على أطراف البلدة وارتدينا ثيابًا جديدة، وبعثنا برجلين للإبلاغ عن وصولنا. عند الساعة التاسعة صباحًا دخلنا قصر عامل الجوف.

تضم واحة الجوف العديد من القرى والأماكن التي تتباعد عن بعضها بعضًا مسافات كبيرة تصل إلى أبعاد تقدر بسفر يوم كامل، وتقع هذه القرى على مستويات ومرتفعات مختلفة، ولكنها تشترك جميعًا في حوض مائي واحد. وهذه القرى هي: سكاكة (ثمانية آلاف نسمة)، قارة (ألف نسمة)، الطوير (ثلاث مئة نسمة). وقد ذكر العديد من الرحالة الآخرين قرى أخرى مثل: سحارة، حسيا، جاوة، مويسن. ولكن يبدو أنها مهجورة وغير آهلة بالسكان. ولكن المكان الرئيس هو الجوف التي يبلغ تعداد سكانها نحو اثني عشر ألف نسمة، ويبلغ طول الوادي مسيرة ساعة ونصف الساعة إلى ساعتين، ومسيرة نحو ثلاثة أرباع الساعة بالنسبه للعرض. وفي الوقت نفسه تحتل ثلث مساحته منازل وحدائق تنتشر في الناحية الجنوبية عند حافة الهضبة. وكانت أسواق أو

أحياء البلدة الاثنا عشر[١] قبل سيطرة شمر عليها، يشكل كل واحد منها قلعة أو حيًّا بذاته. وكان أهل البلدة الذين جاءوا من أماكن وقبائل مختلفة[٢]، يعيشون حالة من الخلافات والنزاعات وكان لابد من وجود يد حديدية كيد عُبيد بن رشيد والسياسة القاسية لطلال، التي تمكنت من تحقيق العديد من التغييرات. ويمكننا أن نقول إن النظام والأمن يسودان المنطقة، ولكن لا يوجد أي نوع من أنواع التجارة. لا توجد أية بازارات أو أسواق أو محال تجارية على الإطلاق، ولكن يوجد عدد محدود من الورش اليدوية التي تختص بدباغة الجلود وصنع الصنادل، والسروج، ولصنع أنواع من الملابس والعباءات. وتتعرج الأزقة بين الحارات الضيقة وبين أسوار الحدائق والمنازل على طول امتدادها داخل البلدة.

يبلغ ارتفاع المنازل الجيدة من ثلاثين إلى أربعين قدمًا، وتحتوي على أسوار مُسننة، وتجويفات وأبراج عمودية كانت تستخدم أساسًا للأغراض الدفاعية في الحروب على أساس أنها آخر مكان أو موقع للدفاع عن النفس وللاختفاء بداخلها، لكنها الآن تعدُّ من مظاهر الزينة والثراء. لايوجد في الوقت الحاضر إلا القليل من الأبنية والآثار القديمة. وفي النهاية الغربية للوادي، وبالتحديد أسفل رجم البرج تم سد بوابة الدخول الموجودة في السور الحجري لعمارة الأكيدر والاكتفاء ببوابة صغيرة. ومن الأبنية التي لها شأن كبير وتعدّ من الآثار المهمة بقايا قلعة مارد، وهي مبنية بأحجار مهذبة ومكونة من ثلاثة طوابق لها سلم دائري محاط بسور دائري مرتفع. وقد تعرض هذا البرج بعد قصف عُبيد بن رشيد في عام ١٨٥٥ له إلى فقد نصف ارتفاعه تقريبًا، ولم يتبقَّ منه غير حطام، تسكنه الآن أسرة فقيرة. لقد أطلق العديد من الخرافات حول هذا البرج، فادعى يوسف المالكي في سنة ١٨٠٨[٣] أن هذا البرج يبلغ من الارتفاع ضعفي أو ثلاثة أضعاف أعلى

---

(١) يبلغ عددها اليوم أربعة عشر أو خمسة عشر حيًّا. (أويتنغ).

(٢) رولة، تميم، سرحان، شمر، بني لام، شرارات، مولّدين وآخرين. (أويتنغ).

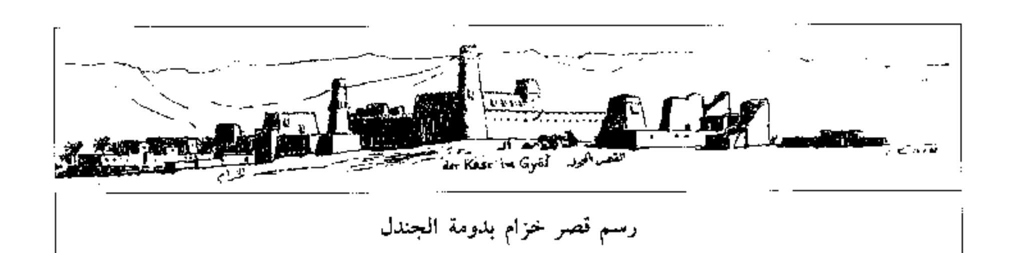
(٣) انظر ما ذكره يوسف المالكي في الفصل الأول في هذا الكتاب.

أبراج المساجد في القدس، لكنه حاليًّا لا يسمو إلا إلى خمسين قدمًا تقريبًا. ويوجد بين المارد والقصر قصر صغير محاط بالعديد من البقايا والحطام من آثار الحصار المذكور سابقًا.

أنشئَ هذا القصر الذي نحن فيه مؤخرًا في موقع رائع يسمى خزام. ويحتوي هذا القصر الذي من شأنه أن يخيف البدو ويبث الرعب في قلوبهم على العديد من: الأسوار، والأبراج، والساحات، وأجزاء بارزة من البناء والفتحات الخاصة بإطلاق النار. وفي الناحيه الجنوبية منه يوجد البرج الرئيس وبوابة الدخول. وتتكون البوابة من أربعة أركان، يقل اتساعها كلما اتجهنا إلى أعلى. وتوجد على رؤوسها بعض الكاتولات التي تستخدم في الدفاع عن القصر في شكل عمودي، بالإضافة إلى فتحات عمودية. وتتم مراقبة البوابة الخشبية الثقيلة التي تحتوي على فتحة أو نافذة لمشاهدة الموجودين في خارج القصر مدعمه بشبكة حديدية، يقوم بفتحها أحد العبيد. وبالنسبه للزوار العاديين يتم فتح جزء صغير من البوابة وليست البوابة بأكملها. وهذا الجزء الصغير من شأنه أن يتيح للفرد الدخول ولكن بصعوبة، وهذا الجزء بمثابة باب صغير داخل الباب الرئيسي، يبلغ عرضه نحو قدمين ويرتفع قدمًا ونصف القدم فوق الأرض.

عند وصولنا يوم الثلاثاء التاسع من أكتوبر، كانت البوابة الرئيسة مفتوحة على مصراعيها. وفي وسط الزحام، واندفاع العديد من الناس، تم إنزال جميع أمتعتنا وحقائبنا ووضعها في غرفة مغلقة، أما بالنسبة للسجاد والحقائب، فقد تم وضعها على أحد السطوح المكشوفة.

عند دخولنا ساحة القصر كان علينا أن نتعود على الظلام الموجود، على الرغم من مشقة السفر لمدة سبعة أيام لم تتمتع خلالها أعيننا بظلٍّ. في أحد الأركان المظلمة، وجدنا مدفعًا حديديًّا قديمًا محمولًا على عربة حصينة لها عجلات خشبية. وبدا هذا المدفع في هذا الركن، وكأنه شيء مليء بالأسرار ومليء بالقوة، الأمر الذي يعطي إحساسًا وشعورًا بالقوة، وكان في الوقت نفسه يدخل الخوف والرعب في قلوب البدو.



رسم قصر خزام بدومة الجندل

der Thurm Mârid im Gyôf

المارد بالجوف

رسم قصر مارد بدومة الجندل



رسم لعامل الجوف جوهر بن عنبر



رسم لبوابة قصر خزام بدومة الجندل



وعند دخولنا، اقتادنا رجاجيل الشيوخ[١] عبر ممارٍّ متعددة ومتعرجة وغير ممهدة إلى صالة الاستقبال (القهوة) كان استقبالنا من قبل الجنود، والسيوف في أيديهم. وحيينا بـ «سلام عليكم». وجاء رد التحية من الحجرة المظلمة «عليكم السلام». ثم جاء إلينا من بعد خطوات قليلة أحد رجال الشيوخ وهو مملوك أسود اسمه جوهر، وتقدم إلينا مبتهجًا ومد يده، ثم قبل، لا أعرف، الخدود أم الرأس، وقال في صوت مؤدب كيف أنت وكررها نحو أربع أو خمس مرات. ووجدنا صعوبة في الرد عندما أجبناه بكلمة طيب الحمد لله. وجلسنا على سجاد إيراني جيد ووضعنا سروج الجمال كي نستند عليها، ووضع كل منا سيفه بجواره، وقمنا بتحية جميع الموجودين في الغرفة عن طريق إيماءة وحركة صغيرة للرأس، وذلك بقول «أسعد الله صباحكم».

وبعدها طرح العديد من الأسئلة عن رحلتنا بكل تفصيل، وفي تلك الأثناء قدمت إلينا القهوة الحلوة[٢]. ثم جاءت القهوة الحقيقية بعد هذه القهوة الحلوة ومعها التمور التي كان حجمها كبيرًا ومذاقها طيبًا، وأيضًا قُدم إلينا الزُّبد السائل

---

(١) يوجد من رجاجيل الشيوخ في حائل نحو مئتي رجل وما بين ثلاث مئة إلى أربع مئة آخرين مكلفين بتأديه مهام مختلفة. وهناك فصيلة منهم تتحرك بصورة دائمة طوال العام، وهي تملك مئات الجمال. ويرسل الأمير هذه الجمال كل خمسة إلى ستة أسابيع إلى النجف التي تقع على الفرات لكي يجلبوا الأرز إلى داخل البلاد، وآخرين يقومون بنقل الحجاج الإيرانيين إلى مشهد ويصاحبونهم إلى مكة ويعودون بهم مرة أخرى. في الجوف كان هناك عشرة رجال وفي القرى الأخرى كان يوجد نحو أربعة إلى خمسة رجال موزعين. وكان يتم التفرقة بين الرجال عن طريق القمصان البيضاء النظيفة وغطاء الرأس الذي يتكون من الأقطان الحمراء والطواقي البيضاء المصنوعة من الصوف المغزول. وكان هؤلاء الرجال يتسلحون بالسيوف التي يتم حملها بصورة دائمة في اليد، ولا تحمل على الكتف وكان من النادر أن تجد أحدًا من هؤلاء الرجال يحمل معطفًا على كتفيه، والقليل منهم كان يمتلك أو يرتدي حذاءً في قدميه. وعند خروج الرجال في مهمات شاقة وخطرة يحصلون على البنادق من قصر حائل. وكان الأمير يمتلك نحو سبع مئة إلى ثمان مئة قطعة من هذه الأسلحة. وجميع السيوف التي رأيتها هناك كانت مُطعمة بالفضة، وسلاح لها مطلي أيضًا بالفضة، وجميع هذه السيوف تم عملها وسبكها في أشهر مسابك شبه الجزيرة العربية للأسلحة في حائل بواسطة صانع السيوف الشهير غانم. وكان أحد أبناء غانم واسمه حميد ينتمي إلى هذه الفصيلة من الجنود التي تم الآن تسريحها، ونقلها إلى حائل.(أويتنغ).

(٢) قهوة حلوة عبارة عن ماء ساخن مذاب فيه سكر وقليل من الشاي والليمون وبعض البهارات الأخرى. (أويتنغ).

والخبز المفرود. وأحضر جوهر الغليون (القليون)[1] الخاص بأحد الجنود وأشعله في حين قمنا نحن بتدخين النارجيلة، وقد أعرب عدة مرات عن فرحته وسعادته بتشريفنا له بزيارته. وقد أعربنا في الوقت نفسه، عن سعادتنا بترحيبه بنا.

وضعنا أمامه (أمام قدميه) سيوفًا أحضرناها من سولينجن، وثلاثة جنيهات تركية (نحو خمسين ماركًا ألمانيًا) وكان لهذا وقع جيد عنده. وقد بدت عليه مظاهر الثراء والثروة، وكان ما يهمه، هو تلبية طلباتنا وتسهيل أمر زيارتنا. وحسب تصورات الليدي آن بلنت يمكن للإنسان أن يتصور أن جوهرًا الأسود، يخفي تحت جلده أيضًا روحًا سوداء وأن سلطاته اللامحدودة، جعلت منه طاغية مستبدًّا[2]. ولكنني لم أجد هذه الصفات فيه، وتبعيَّته لحائل لا يمكن فهمها على أنها دليل على عدم وجود العدل فيها. ومنذ تولي جوهر زمام الأمور في الجوف، أصبح بنفسه يشرف على تقدير محصول التمور[3]، الأمر الذي جعل تدفق الضرائب من الجوف إلى حائل يتضاعف. إن وجود أحد العبيد وتحمله مثل هذه المسؤولية، واحتلاله لمثل هذا المنصب، ليس من الغريب على عبد لأنه في الأول والأخير ملك لسيده، ويمكن بيعه والاستغناء عنه في أي وقت. وفي حائل، كان يدور الحديث عن عبد أسود يدعى «عنيبرًا» كان يتولى زمام الأمور عند غياب الأمير.

---

(١) الغليون هو عبارة عن أنبوب خزفي أسود وله رأس أحمر أو أسود وله أشكال عديدة، وفي بعض الأحيان يكون له غطاء من الأسلاك المتشابكة ويتكون عمود الغليون أحيانًا من سبيكة القصدير ويتم استعمال هذا الغليون من قبل البدو بدون أي خرطوم أو ماسورة. وبعد ذلك وفي تيماء رأيت العديد من رؤوس هذا الغليون التي تتكون من حجر رملي رمادي تم فتحه بالسكين. وبالنسبة لغليون جوهر فهو يتكون من رأس خزفي (فخار) لونه أحمر وله ماسورة صغيرة وقصيرة، وعند الفتحة العليا التي تدخل في الفم، يوجد بروز غليظ ملفوف بالقماش ومزود بطبقة رقيقة من الفضة يوجد في منتصفها ثقب. (أويتنغ).

(٢) انظر ما ذكرته الليدي آن بلنت عنه في الفصل الرابع وما ذكره أيضًا هوبر في الفصل الخامس من هذا العمل.

(٣) من الممكن أن يكون هناك نحو ستين ألف نخلة. وأود هنا بهذه المناسبة أن أسجل أن الشيوخ تطلب الضرائب دائمًا في العام التالي: لكل أربع من النخل الكبير مجيدي واحد أي ما يعادل ثلاثة مارك ألماني ونصف المارك، ومجيدي واحد لكل أربعة رؤوس من الإبل أو عشرة رؤوس من الاغنام، وفي واحة تيماء يبلغ إجمالي الضرائب أربعة آلاف مجيدي. (أويتنغ).

بعد الانتهاء من مراسم الاستقبال أردت أن أستمتع وأنعش نفسي، فطلبت من خادمنا محمود أن يحضر لي بعض الماء للاستحمام. أحضر محمود الماء في العديد من الجرادل وقمت بعدها بحلاقة شعر رأسي بالكامل، ثم ارتديت ملابس نظيفة، وقد أحسست بعدها أنني قد ولدت من جديد. بعد ذلك، توجهت إلى خارج القصر في الخلاء، حيث أردت أن أقوم بالرسم، ولكنني تمددت على الأرض وقلت لنفسي «ياربي إنه لجميل أن أستلقي على الأرض وأستغرق في نوم عميق».

وللعشاء أحضر إلينا أرزًا متبلًا وبه لحم غنم. وفي ضوء القمر صعدنا إلى مقر إقامتنا، الذي يوجد على السطح، نصف المفتوح، لمنزلنا المكون من طابقين، وتحدثنا عن خطة عمل اليوم التالي في أثناء تدخين النارجيلة.

الأربعاء ١٠ أكتوبر:

في الثامنة صباحًا، ركب كل من هوبر ومحارب دليله القديم على ظهور الخيل، وقاما بجولة لمدة يومين داخل النفود وفي القرى الشمالية من الواحة، في اتجاه سكاكة، وقارة، والطوير. ونظرًا لوجود العديد من الإصابات في قدمي لم أذهب معهم في هذه الرحلة، وأعترف هنا بصراحة، بأنني في حاجة إلى راحة، وطلبت من الخادم محمود أن يقص عليّ حكاياته عن احتلال الأتراك للجوف، التي سبق وذكرها لي في كاف، في تلك الليلة التي قضيتها دون نوم. وأود هنا أن أقدم القصة كاملة كما رواها محمود: في نهاية عام ١٨٦٩ أو بداية عام ١٨٧٠ أتى شيخ الرولة سطام بن شعلان[١] إلى دمشق عند صبحي باشا[٢] ومحمد سعيد باشا قائد قافلة حجاج مكة[٣]. وجلس يتناقش

(١) كان شيخ قبيلة الرولة في ذلك التاريخ هو الشيخ هزاع بن نايف الشعلان (١٨١٠ - ١٨٧٣)، وتؤكد الوثائق التركية أن الشيخ هزاع هو من قدم هذا الاقتراح، وقد صدرت الموافقة على «منحه نيشان مجيدي وسيفًا» وذلك بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٢٨٩هـ/ ١٩ مايو ١٨٧٢. انظر: عبدالرحمن السديري، مصدر سبق ذكره، ص. ٥٠. كان سطام بن حمد الشعلان قد خلف الشيخ هزاع بعد وفاته، وكان شيخًا للقبيلة عند زيارة أويتنغ.

(٢) عبداللطيف صبحي باشا والي دمشق (١٨٧١-١٨٧٣).

(٣) محمد سعيد باشا شمدين الكردي أمير الحج الشامي(١٨٧٠-١٨٩٢).

معهما، وكان يعلم بعدم سيادة الدولة على هذه الأرض المثمرة والغنية بالماء، التي تحتوي على العديد من القرى التي في الوقت نفسه سوف تدفع الكثير من الضرائب (الميري). في ذهول استفسر الأتراك عن مكان هذه الأرض المجهولة عندهم، وعلموا بعدها أن هذه هي وادي السرحان، وكان بدو الرولة على استعداد أن يستوطنوا هذه القرى، ويقوموا بدفع الضرائب. ولكي يتحقق لهم ذلك، كان لابد للأتراك أن يستولوا أولًا على الجوف، التي كانت عملية سهلة ويمكن تحقيقها، والسيطرة عليها توفر لهم الحماية (حماية ظهورهم) من الخلف ضد جيرانهم البدو.

لقيت هذه الفكرة قبول الأتراك، وتم تخطيط هذه العملية في سرية تامة وصدرت الأوامر بالتحرك من دمشق. وفي نهاية شهر فبراير ١٨٧٠[١] انطلق محمد سعيد باشا بقواته من قلعة معان عند نهاية الجهة الجنوبية للبحر الميت. وكانت تتشكل هذه القوة من مئتي جندي من الخيالة وستين جنديًا من المشاة، وثمانين رجلًا من العقيلات[٢] المسؤولين عن إعداد الطعام تحت قيادة الشيخ محمد الرواف[٣]، إضافة إلى مدفع صغير. وكان من المنتظر أن يقوم حسين بيك الشركسي زوج ابنة صبحي باشا في إستانبول بتولي إدارة البلدة التي سوف يتم الاستيلاء عليها، وحيث إن هذا الرجل لا يتكلم العربية فقد رافقه خادمنا محمود أغا للقيام بالترجمة والكتابة. وفي نهاية فصل الشتاء، وبعد هطول مطر كثير استطاع الأتراك أن يعبروا الصحراء. وبعد نحو ثمانية أيام وصلوا إلى الجوف وبدؤوا في التعامل الحسن مع السكان. كانت مؤخرة هذه القافلة تبعد عنها مسافة نصف اليوم في برج العبد[٤]، عندما تم سوق

---

(١) ترجح كافة المعطيات أن العملية العسكرية قد تمت بعد هذا التاريخ أي في منتصف سنة ١٨٧٢، وانتهت بكل تداعياتها في أواخر سنة ١٨٧٣.

(٢) يطلق مسمى العقيلات على رجال القوافل التجارية من أهل نجد وبالأخص أهل منطقة القصيم الذين يعملون بتجارة الإبل والخيل وصنوف التجارة الأخرى تصديرًا واستيرادًا والنقل بين بلادهم والكويت والعراق والشام والاردن وفلسطين وتركيا ومصر.

(٣) محمد بن احمد الرواف، من أمراء العقيلات المعروفين في دمشق، وهو من أهل بريدة.

(٤) جبل شاهق يقع غربي الجوف (دومة الجندل) ويبعد عنها خمسة وعشرين كيلًا تقريبًا.

مارد، وكذلك قصر خزام، وقاموا بتثبيت المدفع على هضبة مرتفعة ثم خلدوا إلى الانتظار، يراقبون فقط مايحدث حولهم، ولا يبادرون بشيء. في اليوم التالي، جاء العديد من النذر من طرف ابن رشيد من حائل، وصعدوا إلى سوق الدّرع الموجود بالبلدة وكان على رأسهم صالح بن رخيص[١]. وعندما سألهم صالح عما يريدونه، أجاب الأتراك عن هذا السؤال الساذج بقولهم لا شيء أردنا فقط الاطلاع على ما يحدث ويدور في هذه البلدة.

وفي اليوم الثالث، وصل محمد بن رشيد بنفسه ومعه نحو ثمانية آلاف رجل من الهجانة، وكثير من الخيالة[٢]. وعن طريق مملوك يدعى إبراهيم بعث برسالة إلى الأتراك، كان ملخصها: وجوب مغادرة الأتراك للجوف فورًا. بعد نصف الساعة تقريبًا شن ابن رشيد هجومًا على الأتراك، لكنه لم يتمكن منهم، لأنهم كانوا قد احتلوا مناطق إستراتيجية. وبالتحديد ما بين الظهر والعصر اقترح ابن رشيد إجراء المفاوضات. قبل الأتراك هذا الاقتراح فورًا فجاء ابن رشيد ومعه ثلاثة مرافقين، ومن الأتراك كان الوفد يتكون من محمد سعيد باشا ومعه خورشيد آغا ودرويش آغا ومحمود آغا (وهو خادمنا الآن). انتهت المفاوضات بعد نحو ربع الساعة، في أثنائها كان ابن رشيد يضحك بصوت عالٍ. بعد ختام المحادثات امتطى ابن رشيد ظهر جواده وتبعه مرافقوه عائدًا إلى حائل عن طريق سكاكة.

رحل محمد سعيد باشا ومعه مئة وعشرون جنديًّا ورجال العقيلات بعد نحو سبعة أيام قضوها في الجوف إلى السلط في شرق الأردن، وترك حسين بيك الشركسي ومعه نحو ثمانين جنديًّا، وعدد من المغاربة كقوة احتلال وقوات تمركز. بقيت هذه المجموعة الأخيرة دون مضايقات، وتنقل القائمقام الجديد (الحاكم الجديد) من سكاكة إلى قارة والطوير ليشاهد بنفسه مناطق نفوذه وسلطانه الجديدة.

---

(١) صالح بن عبادة الرخيص أحد شيوخ قبيلة شمر، من رجال الأمير محمد بن رشيد المقربين منه وقام بأدوار مهمة في عهد إمارته.

(٢) كان محمد بن رشيد قد استلم الحكم في حائل في شهر ربيع الثاني ١٢٨٩هـ/ شهر يونية ١٨٧٢م، وهذا مؤشر على أن العملية العسكرية التركية قد تمت بعد توليه الحكم.

حينما بدأ الحاكم الجديد بجمع الضرائب على الغلال والملح بصورة غير عادلة، بدأت حالة من الغضب والسخرية تعم البلاد. وتصاعدت أيضًا حدة الاستنكار من هذه الضرائب. وتم التخطيط للتعامل مع الأتراك بطريقتهم، حيث قام حسن بن درع بعمل وليمة كبيرة للأتراك، وكان من المخطط قتلهم في هذه الوليمة، ولكنهم تمكنوا من الإفلات من هذه المصيدة التي من بعدها قرروا عدم الخروج من معاقلهم ثانية.

وصلت رسالة عاجلة من محمد سعيد باشا تحث على الصمود بأية صورة حتى يصل هو ومعه جنود وقوة أخرى للمساندة، وكانت هذه الرسالة غير رسمية، ولكن كان عليها خاتم محمد سعيد باشا الشخصي. في الوقت نفسه، حاول ابن رشيد رشوة حسين بيك الشركسي بألف ليرة تركية (ثمانية عشر ألفًا وخمس مئة مارك ألماني) مقابل انسحابه مع توفير جميع مستلزمات السفر، من جمال وغذاء وحماية حتى يصل بصرى في حوران. أعتقد أن سبب رفض الانسحاب كان الاعتداد بالنفس أكثر منه إحساسًا بالواجب. استعد محمود للانسحاب، وعرض على القائمقام قلقه لتركه في هذه المحنة دون أية مساعدة من قبل محمد سعيد باشا، وإنه لا فائدة ترجى من البقاء هنا، والجنود يتضورون جوعًا والأعداء يحيطون بهم من كل جانب. في الشهر الرابع أعلن محمود بأنه لا يستطيع البقاء أكثر من ذلك. وغادر البلدة في هدوء بصحبة شراري، هو عواض الوطة. وفي اليوم الخامس بعد رحيلهم وصلوا إلى معان.

تماسك حسين بيك الشركسي بعدها لمدة أربعة شهور، ولكن لم يعد يمتلك أي طعام، ثم بدأ يندم بشدة على عدم تقبله العرض السابق لمغادرة البلدة. غادر حسين الجوف بعد ذلك مثل اللص، وهو يسب ويلعن، وفي الوقت نفسه يشتكي من أنه قبل ثمانية شهور كان يقود جيشه بكل فخر واعتزاز عند دخول البلدة. وقد ضغط عليه ابن رشيد لكي يقبل ويستسلم للأمر الواقع، فالجوف دون حكومة بدوية لايمكن السيطرة عليها مع الوقت، وأن الأتراك حتى دون حرب كان لابد لهم أن يغادروا من تلقاء

أنفسهم[1]. إنها التجربة نفسها التي خاضها محمد علي (المصري) منذ ثلاثين عامًا في جنوب نجد، والتي دفع ثمنها غاليًا.

---

(١) نقل الرحالة الإنجليزي تشارلز داوتي رواية مشابهة، وقال: «من بين الغرباء، إبان إقامتي في حائل (١٨٧٧ - ١٨٧٨) كان يعيش على رواتب ابن رشيد بعض من المغاربة. هؤلاء المغاربة كانوا ضمن الحملة التركية التي انطلقت من سورية للاستيلاء على الجوف. وقد عُهدت إليهم بعد الاستيلاء على البلدة ومغادرة الباشا التركي، واحدًا من بُرجي قلعة مَارد؛ والبرج الآخر عهد به لقلة من الجنود السوريين. تم ترك هؤلاء في الحامية مع (قائم مقام) للدولة. ولكن عندما مَرّ الزمن، ولم يتلقوا إعاشاتهم، قال هؤلاء الرجال ذوو الطبع الحاد القادمون من المغرب، بأنهم سيدعون ابن رشيد للعودة واستلام البلدة! وذهبوا أيضًا لمهاجمة العسكر السوريين الذين بالرغم من أنهم في القضية نفسها، إلا أنهم رجال يرغبون في العودة إلى ديارهم، فبقوا على ولائهم للسلطان. كان للمغاربة اليد العُليا، وعندما بلغ هذا النبأ في عجالةٍ إلى حائل، عاد الأمير مع رجاله المُسَلحين، واستعاد المكان الذي كان قد خسره مكرهًا قبل مدة قصيرة. تم نقل المغاربة، وكان عددهم خمسة عشر رجلًا إلى حائل، حيث أصبحوا في خدمة الأمير العسكرية. واحدٌ منهم (كان ثقيل الحجم لا يستطيع الركوب) تم تعيينه مسؤولًا عن بوابة القصر، لا يُسمح لأحد أن يدخُلَ إلى هناك إلا بموافقة ذلك المغربي. في بعض الأحيان عندما يكون الشيوخ متغيبين، فإن المغاربة المسلحين يبقون في حائل، ويقيمون في القصر ليلًا، خشيةً من هجوم للبدو، الذين سمعوا العجائب عن خزانة ابن رشيد: وعليه، فإنه لا يوجد سلام وسط «الإسماعيليين»، ولا آمان حتى في عاصمة الأمير!.

تمت استعادة الجوف، بسبب ارتداد المغاربة، قبل أربع سنوات (١٨٧٣) من مقدمي إلى حائل. وهؤلاء الرجال تزوجوا واستقروا في حائل، اثنان منهم فقط غادرا حائل. وواحدٌ آخر منهم الحاج إبراهيم الجزائري وكان جنديًا في شبابه (يذكر كلمات الأوامر) في الخدمة العسكرية الفرنسية، كان غير سعيد بالراتب الضئيل للأمير العربي، والطعام الفقير للمضيف، وذكر أنه حالما يبلغ ابنه الصغير المولود في حائل من العمر ما يمكنه من السفر فإنه سوف يغادر حائل. ويعد هؤلاء المغاربة العرب جَهَلة غلاظ.

إن رواية الجوف قد تساعد في تقييمنا لأهمية الأرقام عند العرب في مواجهة قوات تحت قيادة تركية مسلحةً بالبنادق. في نحو عام ١٨٧٢ تم إرسال حملةً من قبل الحكومة السورية (كان الأتراك في ذلك الوقت يطمحون إلى توسيع سلطتهم في الجزيرة العربية) لإخضاع بلدة الجوف الصحراوية، التي تبعد خمسين فرسخًا إلى الشرق من طريق الحج، لطاعة السلطان. تم تجميع القوة الصغيرة في معسكر معان. وقد أخبرني محمود، الذي كان معهم بأنهم كانوا سبعين من العسكر غير النظاميين، والبقية طاقم متنافر من عناصر مختلفة لرجال مسلحين في الخدمة العسكرية، من ضمنهم هؤلاء المغاربة الذين تم توظيفهم في دمشق لهذه الحملة. أما محمد علي الذي كان في معية الباشا، قائد الحملة، فقد أعطاني عددًا لهم أكثر من العدد الحقيقي، مئتين من الجنود، ومئة من الشرطة العسكرية (الضبطيّة)، بالإضافة إلى خمسين من العقيلات الذي يعملون في خدمة الحج، وقادهم الباشا الكردي محمد سعيد. تم حساب عشر رحلات أو =

إن هذه الادعاءات السابقة لمحمود تم تأكيدها والتصديق على صحة

= مسيرات من معان إلى الجوف، مع جمال مُحملة. كما تم اتخاذ عناية كبيرة في الإمداد بقرب ماء كافية، لوجود مياه قليلة على الطريق. «ولكن، قال محمود، برحمة من الله أمطرت السماء بغزارة حينما كنا نتأهب للخروج، وبذلك كنا نستطيع أن نشربُ من البرك الموجودة في الطريق حيث نشاء خلال مسيراتنا اليومية.» في مساء اليوم التاسع أوقف الباشا عسكره على بُعد ثلاثة أو أربعة فراسخ من الجوف، وطلب منهم إشعال أكبر قدر من نيران المُراقبة في السهل: -أولئك الذين كانوا في البلدة، يراقبون من أبراجهم، رأوا هذا الضوء يملأ السماء وكأن كل الصحراء قد احترقت. وعند أول نقطة مراقبة مَرّ عليهم بعض عرب الشرارات - وهم بدو رُحّل يميلون كثيرًا إلى الدولة [العثمانية]، لأنهم يعتقدون أنهم مظلومين بطغيان ابن رشيد؛ ونقلوا أخبار العجائب في تلك الليلة إلى الجوف عن الجيش الكبير لعساكر السُّلطان! «يا أهل الجوف، لقد مررنا حيث يُعَسْكِرون، وأنهم لا يمكن أن يقلوا عن أربعين ألف رجل. لقد شاهدناهم، والله رَهْطًا أو اثنين حول كل نار، عند بعضها يعزفون «الطمْبُور»، وعند البعض الآخر يرقُصون، وفِرقهم لا حصر لها: إنك لتسير لمدة أربع ساعات وسط نيران معسكرهم! - وما هي الفائدة من ابن رشيد».

خرج الشيوخ وسلموا مفاتيح البلدة في الليلة نفسها، واستسلموا للباشا، الذي قام في صباح اليوم التالي باحتلال البلدة سلمًا. عندما بلغ الأمير ابن رشيد النبأ في حائل، بأن بلدته الغنية في الشمال قد استولت عليها الدولة، أرسل رسالة خطية للباشا العثماني تقول: «بما أنك دخلت الجوف بدون قتال، فالآن بالاسلوب نفسه غادرها؛ وإن لم تفعل، فإنني سآتي لأخرجك منها». انطلق ابن رشيد عبر النفود من حائل، مع رجاجيله والقرويين على ركائبهم؛ وتبعته سحابة كبيرة من البدو (قال محمد علي إن مجموعهم الكُلي عشرة آلاف، أي إن العدد ربما ألف رجل فقط). لقد كانت هناك مدافع قديمة في الأبراج: ولكن الباشا صوب نحو العرب قطعة «إنجليزية» من مدفعية الفولاذ الجبلية، التي نُقلت محمولة على ظهور البغال مع الحَملة. أصابت القذيفة الأولى راكبًا بدويًّا من مسافة مناسبة، ولا شيء تبقى منه سوى ساقيه الداميين يتدليان من الشِداد. وجَفتْ قلوب العرب من ذلك المنظر - إنه الموتُ الزؤام الذي كانوا يعتقدون أنهم آمنون منه، ها هو وسطهم! ليس هذا فقط ما أخافهم بل أيضًا وصول القذائف من مسافة بعيدة جدًّا؛ وبالرغم من ذلك تقدموا إلى الهجوم. وقف محمود ورجاله السبعون خارج البوابات بأسلحتهم النارية الصغيرة لمقاومتهم وصَدِّهم، بينما الآخرون يمطرونهم بوابل من القذائف من الأبراج. قام ابن رشيد، الذي كان يُدْرِكُ بأن رجاجيله وجموع البدو قد لا يفيدونه، وأن أعداءه محصنين داخل الأسوار، وأن هذه البداية ضده كانت من فعل الدولة، بدعوة الباشا إلى التفاوض؛ لقد كان ابن رشيد واثقًا من أنه سيجد تركيًّا معتدلًا وجشعًا يمكن إقناعه برشوة منه. لقد التقيا، وكما يقول العرب «فهما بعضهما بعضًا». قال محمد ابن رشيد: «أعطيك إذًا الجوف» - فأجابه محمد سعيد: «ولكننا في الجوف؛ وإذا شاء الله فإننا ربما نواصل للاستيلاء على حائل». في نهاية الأمر اتفقا على أن تبقى الجوف تابعة للأمير، ولكن الضريبة تدفع للدولة؛ وتعهد ابن رشيد كتابة أن يدفع كل عام عن البلدة مبلغ ألف وخمس مئة مجيدي في دمشق؛ وأن يبقى في البلدة قائم مقام مع حاميته السورية. كل من هذين الرجلين الكبيرين نظر إلى الآخر في إعجاب وتقدير؛ ومنذئذ بقيا =

ماجاء فيها من قبل أحد الجوفيين. وعن تاريخ هذه الواقعة، قال هذا الجوفي إن هذا حدث في عام كانت تسوده مجاعة، في العام الثاني من تولي محمد بن رشيد. وقال إنه عند وصول الأتراك، كان القمح لا يزال في بداية النمو (بداية شهر مارس) وعندما غادر محمود الجوف، كان التمر لا يزال أخضر على النخل (شهر يوليو)، وعند انسحاب الأتراك من الجوف، كان التمر قد نضج على النخل (شهر أكتوبر).

كان الحديث في تلك الليلة، في قهوة جوهر كله سياسيًّا، وتمحور النقاش، الذي كان للبدو فيه النصيب الأكبر، حول ضعف الدولة العثمانية وانهيارها المتوقع قريبًا. وكان حديث حمود المجراد عن سماعه لصوت العديد من المدافع التي كان يمتلكها المسيحيون قد أعطاني الفرصة لكي أفكر قليلًا. ورأيت بعدها أن يكون هذا هو الوقت المناسب وهذه هي الفرصة لكي أهدي الشيوخ العديد من الأسلحة.

أعرب لي حمود عن حزنه عندما نظر إليّ وهو يشاهد السيوف التي أحضرتها من سولينجين، وأنه متألم جدًّا ولابد له أن يستحي من نفسه ويخجل أمام البدو، لأنه لم يتلق أية قطعة من السلاح، وهو قائد قافلتنا، كرمز لرضائنا وسرورنا. وقد حاولت أن أخفف عنه وأرضيه ونحن في حائل، وحققت له أمنية أخرى، وهي أن يلقي نظرة في المساء على الجزء الثاني، أي النصف الآخر من أمتعتي الشخصية، التي لم أفتحها له حتى الآن.

الخميس ١١ أكتوبر:

في الثامنة صباحًا جاء عشرة رجال من رجاجيل الشيوخ من حائل ليستبدلوا الحامية الموجودة في البلدة بعد انقضاء أربع سنوات من خدمتها في الجوف.

= صديقين طوال حياتهما». انظر:

Charles M. Doughty, **Travels in Arabia Deserta**, Vol.2 (Cambridge: The University Press, 1888), pp. 33-35.

وانظر: عوض البادي، **الرحالة الأوروبيون في شمال وسط الجزيرة العربية: منطقة حائل** (بيروت: دار برزان، ٢٠٠٤)، ص. ٢٦٢ - ٣٦٦.

كما وردني خبر وقوع رديفي محيثل مغشيًا عليه أمام منزله عند وصوله، لإصابته بحمى شديدة، فقررت أن أبحث عنه بعد الظهر. كانت داره تقع بعيدة في سوق الهويدي، ولذلك لم يقبل جوهر أن يتركني أذهب إليه سيرًا على الأقدام، فأمر لي بحمار، فركبته دون سرج أو لجام، وكان يمشي أمامي إبراهيم، العبد الأسود، الذي كان يحمل سيفي وبجواره محمود حاملًا معه الأدوية والعقاقير، وكان خلفي اثنان من الجنود. مضينا في طريقنا الذي كان ينحدر إلى أسفل عبر الوادي الواسع سالكين طريقنا بين الأشجار وأسوار البساتين الطويلة، وكنا نقابل في طريقنا مجموعات من الناس وكانوا يحيوننا بأدب وحرارة. وأراني محمود ونحن في طريقنا، مكانًا خاليًا في وسطه تل صغير، وذكر أنه المكان الذي وضع عليه الأتراك مدفعهم، وأشار أيضًا إلى المكان الذي جرت فيه المحادثات بين ابن رشيد ومحمد سعيد باشا. بعد مسيرة نصف الساعة تقريبًا وصلت إلى منزل مُحيثل، وكان يرقد وكأنه مختفٍ في بستان اعتنى بسقاية أشجاره، وعندما دخلت وجدت مرافقي في الرحلة، في حالة سيئة عاري الصدر، وحاسر الرأس، ملتفًّا في عباءة، ملقًى على أريكة من الطين، فاقدًا الوعي. وقام بالرد على تحيتي، لكنه كان غير قادر على الوقوف أو الكلام. وقد قمت بتشجيعه والشد من أزره، وبدأت أفحصه: لقد كان يسعل كثيرًا من شدة الحمى، وكان مصابًا بالطحال، وبطنه متحجرة، وهذه هي أعراض التيفوئيد، قمت بإعطائه مسحوق الكالومل، وتركت كمية من هذا المسحوق للظروف الطارئة. وقمت بتوبيخ ابنه، لأنه أعطاه ست جرعات من الشنين في ثلاثة أيام، وأنه كان من المفروض أن يحضر إليَّ ويحصل على ما يلزم له. نصحت الابن بأن يبقى بجوار والده، ويقوم بعمل كمادات باردة أربع مرات يوميًّا (الجدير بالذكر، أن الإسفنج لم يكن معروفًا هنا)، وأن يعطي والده مشروبات باردة ولبنًا ولا يعطيه أي نوع من الأكل على الإطلاق، وأيضًا لابد وأن يأخذ قسطًا كبيرًا من الراحة والنوم. وبينما كان يجري إعداد القهوة، طلبت أن أشاهد هذا البستان المنسق الجميل، الذي يحتوي على أشجار التين والعنب والرمان والمشمش والكمثرى، والخيار، والبطيخ، وخضراوات أخرى، إلى جانب النخيل.

وقبل مغادرتي منزل محيثل، كررت نصيحتي لابنه وأعطيته جميع الإرشادات مرة أخرى لكيفية العناية والرعاية المطلوبة لعلاج والده. وقد علمت بعدها بشهور وأنا في حائل أنه شُفِيَ تمامًا من مرضه وتحسنت حالته الصحية.

وفي المساء جاءتني الفرصة لأول مرة، لكي أتذوق طعم لحم الإبل. وكان طعم هذا اللحم المسلوق في الماء لايختلف كثيرًا عن طعم لحم الضأن أو الماعز، من حيث المذاق، لكن لونه كان داكنًا قليلًا وأليافه أكبر من ألياف اللحوم الأخرى. وبعد انتهاء الطعام، تناولت القهوة أمام القصر عند تاجر الجمال حسين.

الجمعة ٢١ أكتوبر:

في أثناء الليل، هبت رياح شديدة، وقمت برسم بورتريه بالألوان المائية لجوهر. فلقي هذا الرسم إعجابًا شديدًا عنده، حيث كان مسرورًا ويجلس بهدوء في أثناء قيامي بالرسم، وكان من دواعي سروره وسعادته تخليد وتمجيد غليونه في الرسم الموجود على اللوحة. لقد دهشت بعدها كثيرًا، وتعجبت لانتشار خبر هذه اللوحة في الصحراء، لدرجة أنه بعد وصولي إلى حائل بنصف الساعة، طلب مني الأمير أن يرى اللوحة التي رسمتها لمسؤول بلدته. وعند رؤيته لهذه اللوحة قال مداعبًا: «ولكنك رسمت هذه اللوحة، ويبدو فيها أبيض اللون». كذلك بعدها في تيماء وفي أثناء انتقالي من قبيلة لأخرى طلب مني العديد من الناس مشاهدة صور جوهر ومُفرج.

وقد أعطيت أحد البدو المسافرين، الذي تعرفت عليه عن طريق تاجر الجمال حسين إلى دمشق رسالتين أرسلتهما إلى القنصلية الألمانية هناك لبعثهما إلى ألمانيا، لكنهما لم تصلا على الإطلاق.

للاستعداد للاحتفال بالعيد الكبير(اليوم العاشر من شهر ذي الحجة ١٣٠٠هـ وهو اليوم الذي يقوم الحجاج فيه بذبح الآلاف من الأضاحي)، جرى نحر أحد الجمال استعدادًا لهذه المناسبة، وتمت عملية النحر بسيف قطعت به رقبة الجمل، وفي أثناء عملية الذبح وقفت الجمال الأخرى دون

أية حركة أو انفعال، وأخذت الضحية وقتًا طويلًا حتى سقطت على الأرض، وظل الجمل يُلقي برأسه هنا وهناك وهو يئن ويتوجع حتى فاضت روحه.

وقد لاحظت الناس جميعهم وقد دبت بينهم طفرة نظافة. وأينما نظر الإنسان في أي ركن أو زاوية يرى من يغسل رأسه أو يحلق ذقنه، أو يستبدل لباسه. وكأنها بلدة عامرة ظهرت مرة واحدة على وجه الأرض. ويمكنني هنا أن أذكر أن خادمي محمودًا كان قد فاقني وسامة.

بعد تناول طعام العشاء، كان هناك اجتماع آخر ومقابلة مع العديد من الرجال أمام البوابة عند تاجر الجمال حسين. كان جوهر نفسه يرتدي عباءة سوداء جديدة وكوفية صفراء بخطوط حمراء، وقد أعطاه هذا اللباس وقارًا في أثناء زيارته. قبع هنا أكثر من خمسين رجلًا خلف سور صغير في حلقة حول النيران في أثناء إعداد القهوة، وحتى الجنود الذين كانوا يقفون في البداية خلف جوهر ويبلغ تعدادهم نحو عشرين رجلًا تلقوا إشارة من جوهر بالجلوس وقد وضع كل منهم سيفه مغروزًا أمامه في الرمل. تلألأت النيران، وكان ضوؤها ساحرًا مع القمر، لأن الضوء وانعكاسه يعطي انطباعًا حيًّا وجماليًّا وسط تلك المجموعة المظلمة. انتهت هذه المناسبة والاحتفال بعد أداء صلاة طويلة، وبعد أحاديث طويلة. وقد وجدت صعوبة في الاسترخاء والنوم بسبب الإفراط في شرب القهوة.

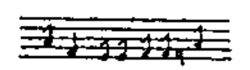
السبت ١٣ أكتوبر:

في الصباح الباكر تلقى جوهر تهاني العيد في أثناء تناوله للقهوة. بعدها دخل أربعة من العبيد، يحملون إلى الداخل صينية من النحاس قطرها يتراوح بين قدمين ونصف القدم وثلاث أقدام عليها جبل من الرز ولحم الإبل، وبعد وقت قصير وبدهشة انتهت تلك المراسم بعد نفاد الطعام. وقد تعالت بعد انتهاء الطعام الأصوات قائلة الحمد لله، وذلك بعد شبع البطون. وقام الرجال مودعين جوهرًا قائلين: «أنعم الله عليك»، وكان رد جوهر كل مرة هو: «ينعم عليك».

وكانت النية في ذلك الصباح، أن نتأهب للسفر ولكن ظهرت مشكلة

تأجير الجمال، حيث إنه لا يوجد في الجوف نفسها أي منها لقلة العلف الخاص بها، وعندما تأتي هذه الحيوانات إلى الجوف وهي جائعة لا يوجد طعام غير أوراق البطيخ أو ما شابهها، لذلك، فهي تعود مرة أخرى إلى الصحراء، حيث يتوفر المرعى بكمية أكثر. وكانت الإبل التي سنستأجرها على مسافة يوم كامل في مراعي النفود. وكان حسين تاجر الجمال الذي لا يرسل حيواناته هناك يدفع مقابل غذائها لمدة خمسة أيام ما يقارب ستة مجيديات (واحد وعشرين ماركًا ألمانيًّا). كانت قد بدت على جوهر علامات عدم الرضا حينما نظر إلى الإبل التي ستقوم بنقل أمتعتنا وجميع احتياجاتنا، وكانت من إبل الشرارات التي لا يمكنها تحمل ثقل معداتنا ومستلزماتنا، ولكن لم يكن هناك خيار آخر، وكان على صلبوخ الشراري صاحب الإبل أن يتغلب على هذه المشكلة، كما كان من الصعب علينا الحصول على قرب للماء حيث إننا لن نتوقف عند آبار الشقيق، وكان أمامنا رحلة خمسة أيام دون ماء.

عند الظهر تقريبًا عادت ركائبنا من المرعى، وعند العصر قررنا أن نركبها عبر الوادي إلى سور البلدة المائل في غربها. وفي طريق عودتنا وقرب غروب الشمس شاهدنا منظرًا عجيبًا رسخ في ذاكرتي، لم أشاهد مثله ثانية طوال رحلتي. ففي سهل واسع وفسيح، جرت رقصات رائعة، حيث وقف صفان متقابلان، تفصل بينهما عشرون خطوة، في الصف الأول عدد من الفتيات، وفي الصف الثاني عدد من الفتيان وفي الوسط وقفت فتاتان ترقصان برؤوس مكشوفة وشعر مسدول إلى الخلف. بدأ الرقص على شكل خطوات قصيرة للأقدام، مع فرد الأذرع حيث تتقارب الصفوف وتتباعد، ثم مرة واحدة أدارت الفتاتان ظهريهما لبعضهما وأمالتا رأسيهما إلى الخلف، وحركتاهما نحو بعضهما. وقام صف الفتيات بالتصفيق لهما وأيديهن متعامدة فوق صدورهن. وفي هذه الأثناء كان الفتيان يتراصون في الجهة المقابلة، وقد التصقت مناكبهم وسيوفهم أمامهم، وكانوا يغنون معًا بصورة سريعة. لم أتمكن من فهم كلمات القصيدة، لكن الإيقاع كان كالآتي:



لقد قيل لي إن هذه الرقصة تسمى الدّحة[١]، وكان بوركهارت قد أشار إلى رقصة شبيهة عند البدو[٢]. وقدم فيتشتين (Johann Gottfried Wetzstein)[٣] وصفًا دقيقًا لهذه الرقصة[٤]. لم يذكر لي أحد اسم «سحجة» كاسم لهذه الرقصة[٥]. لم يقف الأشخاص هنا في الجوف في أثناء الرقصة بشكل دائري، لكن الرقص كان في صفين متقابلين. وقال لي غراف لاندبيرغ (Graf Landberg)[٦] إن مثل هذا النوع من الرقص في سورية يسمى الدبكة وحيث كنا سنمضي صباح اليوم الخامس من أيام إقامتنا في الجوف عبر صحراء من الرمال، سقينا في الليل ركائبنا كثيرًا من الماء، وفي مثل هذه الحالات لم يكن من المستحب أن تشرب الجمال مثل هذه الكمية من الماء قبل أن تتحرك في تلك الصحراء بوقت قصير.

الأحد ١٤ أكتوبر:

كان كل شيء جاهزًا للرحيل قبل طلوع الشمس، وبعد الإفطار قدمنا هدية لجوهر عرفانًا لخدماته، وقد لاقت استحسانه، وهي عبارة عن سكين جميلة. بدأنا مسيرتنا عند الساعة الثامنة، وودعنا جوهر بكلمة: «في أمان

---

(١) لم تكن هذه الرقصة الموصوفة رقصة الدحة الشعبية المعروفة عند عدد من قبائل شمال الجزيرة العربية، وهي رقصة حرب رجالية تتكون من صف واحد. فيها دور لفتاة واحدة تسمى الحاشي، حيث تحوش بالسيف محتشمة أمام الجمع ولا تعرف بين الحاضرين. انظر: سليمان الأفنس الشراري، **الدحة: رقصة الحرب والسلم** (طبرجل: خاص، ١٤١٨هـ).

(٢) وصف بوركهارت رقصة مشابهة خبرها في صحراء سيناء وذكر أنها رقصة شائعة في كل الصحراء لكن القبائل تختلف في طريقة أدائها وأسماها السامر (asamer). انظر:

John Lewis Burckhardt, **Notes on the Bedouins and Wahabys,** Vol.1 (London: Henry Colburn and Richard Bentley, 1831), pp.252-253.

(٣) يوهان غوتفريد فيتشتين (١٨١٥-١٩٠٥) دبلوماسي ومستشرق ألماني. عمل في سورية ودرس منطقة جبل حوران.

(٤) Johann Gottfried Wetzstein, **Zeitschr. der D. Mrgnland**, Gesellsh,1868, 20,105f.

(٥) السحجة نوع من أنواع الدبكة. حول رقص الدبكة وأنواعه، انظر: عدنان بن ذريل، **رقص السماح والدبكة: تاريخ وتدوين**(دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٦).

(٦) جراف لاندبيرغ (١٨٤٨-١٩٢٤) مستشرق سويدي أمضى سنوات طويلة في الشرق لدراسة اللهجات العربية واللغات القديمة في جنوب الجزيرة العربية.

الله». سار معنا جمع من الرفاق لمدة نصف الساعة لتوديعنا، وما إن بدا صعودنا إلى السهل المرتفع المشرف على البلدة حتى ودعنا هؤلاء ولم يبق معنا سوى مجموعة من اثني عشر رجلًا كل على راحلته؛ بعضهم ذاهب إلى جبة، وبعضهم الآخر سيواصل معنا الرحلة إلى حائل. عند حافة هذا المرتفع ألقينا نظرة وداعية على تلك الواحة الوادعة خلفنا، وأخذنا طريقنا عبر صحراء النفود التي لا نرى فيها غير تلال رملية»[1].

واصل أويتنغ رحلته إلى حائل عبر صحراء النفود التي لم يتوسع في وصفها كغيره ممن سبقوه، ووصل مقصده بسلام.

---

(١) النص المعرب:

Julius Euting, **Tagbuch einer Reise in Innerarabien** (Leiden: Brill,1896), pp. 51-142.

الفصل السابع

البارون إدوارد نولده

يعدّ هذا الرحالة الألماني الأصل الروسي الولاء من المجهولين كثيرًا في أدب الرحلات الغربية في الجزيرة العربية، فقد قدم إلى وسط الجزيرة العربية في مهمة سياسية وبشخصيته الحقيقية في مرحلة حرجة في تاريخ هذه المنطقة. لم ينظر إليه مؤرخو المعرفة الأوروبية في الجزيرة بأهمية وإن عدُّوا ما وصف من أحداث سياسية في غاية الأهمية إذ لم ينقلها غيره[١]. يا ترى من هو إدوارد نولده؟

ولد نولده (Baron Eduard Nolde) سنة ١٨٤٩ في مدينة كاليتي (Kaleti) بمقاطعة كورلان[٢] (Courland)، في لاتفيا، لعائلة ألمانية. تلقى تعليمًا خاصًّا حتى ربيعه السادس عشر فالتحق بمدرسة ثانوية في مدينة ريغا[٣]. استهوته الحياة العسكرية مبكرًا فالتحق في سنة ١٨٧٠ بكتيبة أولان (Ulann)[٤] التابعة للحرس الملكي البولندي، ثم تركها بعد سنة ونصف السنة قبل أن يتخرج برتبة ضابط راحلًا إلى إسبانيا التي كانت قد اشتعلت فيها حرب أهلية ليعمل في

---

(١) David George Hogarth, **The Penetration of Arabia: Record of the Development of Western Knowledge** Conceming the Arabian Peninsula (New york: Frederick A. Stokes Co, 1904), p.255.

(٢) إحدى مقاطعات البلطيق، وقد كانت دوقية خاضعة للإمبرطورية الروسية منذ سنة ١٧٩٥ وحتى سنة ١٩١٨. ثم أصبحت جزءًا من جمهورية لاتفيا المستقلة التي ضمت إلى الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٤٠ فبقيت جزءًا منه حتى استقلال هذه الجمهورية سنة ١٩٩١.

(٣) عاصمة جمهورية لاتفيا.

(٤) كتيبة نخبوية للفرسان تقوم على تراث التتار المسلمين الموجودين في بولندا وكانوا يعملون فيها.

صفوف فرسان كارلوس[1]، وصل فيها إلى رتبة ملازم وقاد سرية من الفرسان حتى نهاية هذه الحرب سنة ١٨٧٦. في سنة ١٨٧٧، رحل نولده إلى أمريكا الجنوبية، وشارك في الحرب بين تشيلي وبيرو لمدة عام كامل ضمن صفوف التشيليين. بعد أن زار ريو دي جانيرو وسان فرانسيسكو في أواخر خريف سنة ١٨٧٨ عاد إلى بطرسبورغ في روسيا ليعمل في وظيفة حكومية، بصفة مفتش ضريبة خمور في يناير ١٨٧٩. ثم بدأ بعد ذلك يكتب في صحيفة بطرسبورغ «هيراولد» مقالات طويلة عن ضريبة الخمور وعن كيفية تحسينها. ونظرًا لكونه على علاقة دائمة بدوائر الجمعية التقنية في بطرسبورغ، فقد اختارته الجمعية عضو شرف فيها. وفي عام ١٨٨٨ سافر نولده إلى القسطنطينية ومنها قام برحلات للصيد في أفريقيا وإلى أصقاع أخرى منها الجزيرة العربية إذ قضى سنواته التالية مرتحلًا.

في اليوم الحادي عشر من شهر مارس سنة ١٨٩٥ أنهى نولده حياته وهو في سنته السادسة والأربعين، في لندن. ترك نولده في غرفته رسالة للسفارة الروسية، التي كان على اتصال بها خلال إقامته في لندن، يعلن أنه انتحر برغبته، وأن له بعض المال في حسابه البنكي في لندن يطلب استخدامه لعمل مراسم دفن تليق به. تأكد بعد ذلك أنه كان يعمل سريًّا لحساب القيصر الروسي، وأن رحلته إلى الجزيرة العربية كانت بهدف خدمة المصالح الروسية[2] مع الأخذ في الحسبان أن رحلته تمت بموافقة ورعاية السلطان العثماني.

قبل وفاته كان نولده قد سلم مخطوطة وصف رحلته إلى الناشر الألماني ريتشارد أندريه، الذي بدوره عمل على نشرها[3]. وقد نشرت بعد أشهر قليلة من انتحار الكاتب.

---

(١) حركة سياسية وعسكرية إسبانية تدعو إلى أحقية تولي الأمير كارلوس (١٨٤٨- ١٩٠٩) حكم إسبانيا بصفته وريثًا للعرش، وليحكم باسم الملك كارلوس السابع في وجه مدّعين آخرين للحكم، وقد قاد حركة عسكرية خلال هذه الحرب الأهلية التي انتهت سنة ١٨٧٦ بهزيمة قواته، ولم ينجح في مسعاه.

(٢) H. V. F. Winstone, **The Illicit Adventure**(London: Jonathan Cape,1982), p.11

(٣) حول سيرته الذاتية اعتمدنا على ما أورده ناشر كتابه، انظر: =

بدأ نولده رحلته إلى الجزيرة العربية في مطلع سنة ١٨٩٣[١] من دمشق، وقد زار في هذه الرحلة منطقة الجوف ومنطقة حائل والقصيم، ثم عاد بعد أدائه مهمته عبر العراق وكردستان إلى إستانبول.

وهنا نتركه يصف بنفسه رحلته في منطقة الجوف:

«بعد أن هيئت نفسي، وبعد أن حصلت على التموين اللازم في لندن من الهدايا التي لاغنى عنها عند السفر إلى الشرق، رحلت من هناك بتاريخ ٢٥ نوفمبر ١٨٩٢ آخذًا طريقي عبر مارسيليا وبيروت ثم دمشق، التي وصلت إليها في ١٦ ديسمبر١٨٩٢. في أثناء رحلات سابقة لي في كردستان والعراق وسورية تعرفت على اثنين من الوسطاء واحتفظت بهما، وقد بقيا في خدمتي وهما يفهمان جيدًا أفكاري ورغبتي في القيام برحلات طويلة في الشرق. وكانا قد خبرا جيدًا كيفية التعامل مع أنماط مختلفة من البشر وحققا رضائي الكامل بحيث قررت أن أحتفظ بعلاقتي بهما لفائدتهما لي في رحلاتي إلى داخل الجزيرة العربية. أولهما هو نصر الله، وهو عربي من الموصل يجيد إجادة تامة خمس لغات، هي العربية والتركية والكردية والكلدانية والروسية. والثاني جودو (Guedou)، وهو عربي من بغداد يتحدث اللغة الفرنسية بطلاقة. وهو لا يعرف فقط لغته معرفة تامة بكل لهجاتها، بل يكتبها بقدرة كبيرة. ولذلك كان لي نعم السكرتير في مراسلاتي العربية.

بناءً على تعليمات سابقة وجدت الرجلين بانتظاري في دمشق، ومعهما أيضًا خدمهما، وخدم الخيل، وأخيرًا الفرس العربي الذي حملني في الرحلة السابقة. كان هذا الفرس قد ازداد سمنة في أثناء مدة الشهور الخمسة، التي غبت فيها عن دمشق بل أصبح متعاليًا، وكان لا يبدو في مخيلته أنني أنوي ركوبه للسفر مسافة تزيد على خمسة آلاف كيل. بالإضافة إلى ذلك قمت

= Baron Eduard Nolde, **Reise Nach Innerarabien, Kurdistan und Aremenie 1892** (Braunschweig: Druck und Verlag Von Friedrich Viewe und Sohn,1895), pp. V-VII.

(١) ١٣١٠هـ

بتوظيف شيخ تدمر، محمد بن عبدالله [بن عروق][1] لقيادة ركب الإبل في جميع المناسبات، وكان من أهم أعضاء الفريق في رحلتي، وقد ظهر في الوقت والموعد الملائم تمامًا مع عشرة من الجمالين المختارين.

رغم كل هذه التجهيزات التي تمت، فقد بقي عليّ أن أقوم بكثير من العمل قبل أن أفكر في الرحيل، ذلك أنه في مثل هذه الرحلات المهمة لاشك أن الأمر يتطلب الكثير من الحساب، والترتيبات الصحيحة، وإن النجاح يتوقف على التجهيز والتخطيط المسبق.

كان عليّ شراء الركائب، وطبيعي أن تكون الإبل من النوعية الممتازة لرحلة في الصحراء تزيد على ثلاثة آلاف كيل. وشراء المزيد من الخيل، التي يجب تجهيزها، وأيضًا استئجار المزيد من الأفراد للخدمة. واتخاذ الترتيبات لحمل مخزون من جميع أنواع الأطعمة، وربما الأهم قرب الماء إذ إنه لا يكفي شراء القرب، بل يتعين قياسها بعناية واختبارها ووزنها.

وقد يكون هذا هو المكان المناسب للتأكيد على أهمية هذه الاحتياطات، حتى ولو كان ذلك كتمرين لرحلات صحراوية قادمة قد أقوم بها تحقيقًا لأهداف عملي، ورغبات الارتحال في الجزيرة العربية. إن ذلك لن يتحقق بنجاح إلا اعتمادًا في المقام الأول على قوة الرواحل التي يتم تغذيتها بعناية، وعلى المخزون الكبير من المياه، الذي سيكون تحت تصرفي في الرحلة.

بأوامر خاصة من جلالة السلطان العثماني[2] فقد أُرسلت معي حراسة شرف من الجنود الأتراك، رافقتني حتى الجوف أي مسافة ما يقارب سبع مئة كيل من الرحلة. وكانت الفرقة تتكون من ضابط وخمسة وعشرين من الخيالة، وكلهم من الأكراد الذين لا يُتوقع منهم أي ميل أو ضعف من أي نوع كان في مواجهة أي اعتداء من البدو.

كل هذا تم لحسن الحظ في أربعة عشر يومًا، فأصبح بإمكاني في أول

---

(١) هو نفسه من رافق الليدي آن بلنت وزوجها ويلفريد بلنت في زيارتهما إلى نجد سنة ١٨٧٩، انظر ما ورد حوله في الفصل الرابع من هذا العمل.

(٢) السلطان عبدالحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩).

يناير سنة ١٨٩٣ مغادرة دمشق. كانت حقًّا قافلة مهيبة: ستة وثلاثون رجلًا في الخدمة وأربعون جملًا وستة خيول، وعدد مختلف من البغال والحمير يضاف إلى ذلك الحراسة التي تتكون من ستة وعشرين رجلًا ومعهم أمتعتهم محمولة على خمسة وعشرين جملًا، وكانوا يشكلون قافلة وحدهم.

كانت بداية المسيرة في أرض مأهولة وفيرة الماء، ولم يكن هناك ما يستدعي العجلة. وبعد بضعة أيام من التمرين الجيد اتضح أن تجهيز مخيم المبيت لم يعد يستغرق أكثر من خمسة وثلاثين إلى أربعين دقيقة. في هذا الوقت تكون خيامي الثماني وخيام العسكر الست منصوبة وجاهزة تمامًا، ونيران الطبخ قد أشعلت، وأول وجبة طعام لي قد قدمت، وتتكون من زجاجة نبيذ وسردين أو لسان بارد مع البسكويت. أما الغداء أو على الأصح العشاء فيكون جاهزًا بعد أربع ساعات، وعند الاستعجال يجري كل شيء بوقت أسرع. وكان غذائي يتكون في الأساس قبل كل شيء من حساء من الدرجة الأولى لي وحدي، ويتكون من ٣ دجاجات وبعض لحم الضأن المشوي، ثم بيض أو أرز ثم بسكويت مع النبيذ والقهوة. ومع الوقت فإن اتباع نظام غذائي واحد لمدة طويلة، يصبح مرهقًا ويضر بالصحة إذ يسبب السمنة.

بعد خمس مراحل من المسير وصلنا إلى بصرى وهي لا تبعد عن دمشق أكثر من مئة وثلاثين كيلًا، وهي حاضرة حوران الرئيسة وتمثل الحدود الحقيقية لسلطة الإمبراطورية التركية من هذه الجهة.

ونظرًا لهطول أمطار غزيرة وصعوبة سير الجمال على الأرض الزلقة فقد مكثت في بصرى مدة ثلاثة أيام قضيتها في أحسن ما يمكن عمله في مثل هذه الظروف، فقمت بمقايضة بعض الأشياء مع الدروز، الذين يسكنون الجبال المجاورة، بالإضافة إلى زيارة الآثار الموجودة في بصرى بقدر المستطاع. وعلى سبيل المثال القلعة التركية، وثكنات الجيش الروماني، وهي كلها ذات أهمية قصوى ومازالت محتفظة بهياكلها على أحسن وجه. لحسن الحظ استطعنا أن نعبر الأرض الزلقة، وبعد ظهر اليوم التاسع من شهر يناير وصلنا إلى قرية

الدروز التي لاتبعد سوى ثلاث ساعات ونصف الساعة وهي قرية دبين[١] ومن هنا، وبصفه عامة، ظلت قافلتي تسير على أرض صلبة. وفي الأيام التالية، كان السير في الصحراء حقيقة، تاركين على يسارنا قصر صلخد العالي المطل على المنطقة، وتاركين على اليمين القلعة الرومانية القديمة في الأزرق. أصبح سفرنا في خط مباشر إلى كاف، التي وصلنا إليها بعد خمسة أيام من المسير بمعدل أربعين كيلًا لليوم الواحد.

في هذه الصحراء القاحلة، التي قطعناها يرى الإنسان الجزيرة العربية في شكلها الصخري، وهي تمثل الوحدة والقسوة وبشكل ما تظهر في نوع من الجلال الشاعري من وقت لآخر. كانت الصحراء تبدو مستوية، ومع ذلك فهي شامخة تطل علينا من علو بشكلها الصخري. ومع أن الأرض كانت تبدو مغطاة بطبقة من الحجارة البركانية، فهي تتكون من صخور تبدو صلبة وغامقة السواد كما لو كان مصدرها النيازك. ويرى الإنسان في الجزيرة العربية، بشكل يكاد يكون متكررًا، مجموعات كاملة من الجبال الصخرية، ذات لون الحبر الأسود بحيث تحدث تأثيرًا عجيبًا، حيث تجد نفسك على أرضية ميدان يمتد لعدة أميال لا يوجد به أية بقعة فاتحة اللون، كما لو كانت مغطاة باللون الأسود تمامًا. كنا نجد أحيانًا في الطريق بعض مياه الأمطار، ومع ذلك فطيلة المسافة الكاملة من دبين إلى كاف أي نحو مئتي كيل لم نجد سوى آبار الهزيم[٢] وحتى هذه ليست في وسط المسافة بل على مسافة سبع ساعات ونصف الساعة من قرية كاف.

في ١٤ يناير ١٨٩٣ وصلت إلى كاف وهي تمثل عُشًّا صغيرًا غير ذي أهمية يسكنها على أكثر تقدير ما بين مئتين وثلاث مئة نسمة، يعيشون حياتهم على زراعة بضع نخيلات، وكذلك جمع الملح الذي يوجد على سفوح التلال، والذي يظهر كما لو كان قشرة تغطي تلك التلال. ومهما كان وضع هذه القرية فإنها مكان التقاء للبدو، الذين يستثمرون فيها ما لا يحتاجون إليه لمدة معينة،

---

(١) من قرى جبل حوران.

(٢) مورد في شمال وادي السرحان.

وبذلك تعدّ قرية مهمة للبدو ومحصنة من غزوهم. وحتى يمكن لأهل كاف حماية أنفسهم ضد المصائب الأكثر شدة فإنهم يضعون أنفسهم رعايا لابن رشيد أمير حائل، أو كما يقال عنه باختصار أمير نجد.

أما هذا الأخير، فلم يكن يهتم كثيرًا بشرف كونه أميرًا لقرية كاف، حيث قال لي هو نفسه: إن ما يأتيه من إتاوة من كاف قليلًا جدًّا فهم فقراء ولايمكن أن يكونوا تحت مسؤوليته. إن حماية قرية بعيدة بهذا القدر وتأمين الحياد لها يتطلب دفع إتاوة مناسبة تسمح له بتجهيز الجيوش والدخول في الحروب.

كما ذكرت، كاف مكان فقير جدًّا. وقد اشتريت بنفسي من هذه القرية كل ما كان متوفرًا لدى أهلها من الدجاج وعددها ستة وعشرون دجاجة فقط، أما الخراف فلم تكن متوافرة، فقط بعض الماعز وصغارها عُرضت للبيع. وبهذه الكمية لم يكن من المستطاع عمل أي شيء، إذ في كل المشرق لايحب الناس حتى الفقراء منهم أكل لحم الماعز، الذي لا يأكله إلا المرضى. وبذلك بقيت دون لحم ضأن. وكان ذلك يمثل حساسية شديدة لي فقد كنت في هذا الشأن أضع الآمال العريضة على كاف.

في اليوم التالي مباشرة لوصولي إلى كاف أكملت المسيرة في اتجاه الجوف التي وصلت إليها في اليوم الثالث والعشرين من شهر يناير.

على بعد مسافة ساعة ونصف الساعة من كاف توجد قرية إثرة وهي قرية بحجم كاف. وأنا أحسب المسافة من دمشق إلى كاف بواقع ست وسبعين ساعة ونصف الساعة من ساعات سير الإبل (أي خمسة أكيال وثلث الكيل في الساعة). والمسافة من كاف الى الجوف بسبعين ساعة (أي ثلاث مئة وخمسين كيلًا) وبذلك تكون المسافة الإجمالية من دمشق إلى الجوف ست مئة وثمان وسبعين كيلًا، حيث كانت قافلتي تقطع في المتوسط خمسة أكيال في الساعة. وهذا حساب كنت أعتمد عليه، حيث كنت أحسب الدقائق والساعات للمسافات المعروفة خصوصًا وأن الركائب كانت تسير بخطًى منتظمة. وكنت أقارن هذه الساعات والدقائق مع المسافات المعروفة. وكان من الطبيعي مراجعة هذه المسافات وتقديرها بعناية. لذا فإنني أعتقد أنه في هذه

الحسابات لا يمكن أن يزيد الخطأ أبدًا عن كيلين أو ثلاثة أكيال في مسيرة اليوم الواحد.

من كاف عبورًا بقرية إثرة، كانت الأرض مرة أخرى تتشكل من الصحراء الموحشة نفسها، حيث يسيطر عليها الطابع الجبلي الصخري، الذي يتغير أحيانًا إلى جبال. وهذه المنطقة كلها تمثل أحد سهول قبيلة الرولة التي تشمل تقريبًا نصف كل شمال الجزيرة العربية مابين سورية وبغداد. وكصديق شخصي لكبير مشايخ الرولة سطام بن شعلان لم أكن أخشى أي شيء من الجزء الأكبر من هؤلاء البدو. ويقف سطام في قمة قوته على رأس خمسة عشر ألف مقاتل، وهو عدد كبير جدًّا في الجزيرة العربية. وللأسف علمت فيما بعد أن هذا العربي الشجاع والنبيل قد قُتل في صيف ١٨٩٣ إثر عودته من رحلة إلى القسطنطينية حيث استقبل فيها استقبالًا حافلًا.

قابلت في الواقع، مرتين، عصابات من اللصوص، كانت بالمقارنة برفاقي وقافلتي في موقف الضعف (لا يزيد عددهم على مئة فارس سيئ التسليح) لدرجة أنهم شعروا بالسعادة والفخر عندما وافقت على أن أشرب معهم فنجانًا من القهوة.

عندما غادرت دمشق في وسط الشتاء دون توقف وفي خط مباشر كنت آمل وأعتقد أنني سأخرج بسرعة من منطقة البرد الشديد، لكن ذلك لم يحدث بل على العكس تمامًا، حيث إنني كلما اتجهت إلى الجنوب بدا الجو أكثر برودة. شيئًا فشيئًا نزل الترمومتر إلى تحت درجة التجمد، ومع ذلك كنا نوجد على خط عرض القاهرة، كما كنا على ارتفاع لايزيد على سبع مئة إلى ثمان مئة متر فوق سطح البحر.

قبل أن نصل إلى الجوف بقليل بعثت نصر الله للقيام حسب التقاليد الشرقية بإبلاغ خبر زيارتي إلى جوهر عامل الجوف. وقد انتاب هذا الأخير خوف شديد من رؤية هذا العدد الضخم من الفرسان والجنود الأتراك الذين ظهروا له كأكبر قافلة جبلية مسلحة. لذلك قرر ألا يسمح لنا بالدخول بقدر ما يستطيع.

حينما وصلنا إلى البوابة الرئيسية للجوف وجدتها مغلقة. وعندما سألت لماذا لا أرى نصرالله أو أحد الجنديين المرسلين معه، شرح لي الكثيرون من المحيطين بي من العرب أن نصرالله موجود بالقصر وينتظر هناك أوامر الحاكم. وعندما سألت مرة أخرى أين يوجد هذا الحاكم؟ قيل لي إن الحاكم موجود بالبلدة وسوف يظهر قريبًا بطبيعة الحال. كنت أحتاج إلى شرب بعض القهوة ولكن أين؟ لذلك اقترحت أن نأخذ القهوة في الميدان أمام البوابة، وأردت لهذا الغرض فرش بعض السجاد، وفوجئت بثورة العرب بشدة لهذا الاقتراح وأوضحوا لي أن مثل هذا التصرف: أجنبي يشرب قهوة الجوف أمام البوابة المقفلة أمر سيجلب العيب والعار على القصر إلى الأبد.

في هذه الأثناء، ظهر نصر الله على عتبة بوابة البرج وأوضح أنه والجنديين قد جردوا من سلاحهم، ومن الواضح أنهم محتفظ بهم في القصر أسرى، ويرجو أن أكون على درجة كبيرة من الحرص، وبصفه خاصة ألا أضع نفسي شخصيًّا في مثل هذا الفخ الخطير والمضحك. أي أنه عليَّ أن لا أسمح لنفسي بأن أقترب من البوابة تحت أية حجة، مثل شرب القهوة أو الدخول إلى الممر المظلم الموجود بجانب القصر، وهو ماكان العرب يمنعونني منه تمامًا. وبمثل هذه الحالة كان يمكن أن تسير الأمور إلى المزيد من سوء الفهم وعدم الثقة. وأخيرًا ظهر جوهر فوق البرج فاقترحت عليه الاتفاق على الأسس التالية: أن لا يخشى مني أي شيء حيث إنني في رحلة سلمية في اتجاه نجد وبصفة أساسية لمقابلة سيد جوهر نفسه الأمير محمد بن رشيد وزيارته. وأن وجود بعض الجنود الأتراك له ما يبرره، حيث إنني حتى هذه اللحظة كنت أسافر في بلاد خطرة وخارجة على القانون، وكنت في حاجة إلى حراسة، والآن وبعد أن وصلت إلى مناطق سلطة الأمير لم يعد لهذه الضرورات أي مبرر وأنه سوف يتم ما سبق التخطيط له، أي عودة الجنود الأتراك إلى ثكناتهم قبل سفري من الجوف، وأنني أتحمل مسئولية حماية جنودي وجميع المرافقين.

كان من الواضح في هذه الحالة أن جوهرًا نفسه متأكد من أنني أستطيع بسهولة اقتحام قصر الجوف بالقوة، وهي عملية لن تكلف أكثر من فردين،

وبصفه خاصة إذا هاجمنا البوابة ليلًا أو حطمناها حرقًا. ولكن من الطبيعي أنه ليس لديَّ أي تفكير للقيام بمثل هذا العمل. وعندما يثق جوهر بي ويظهر لي حسن نواياه بأن يترك نصرالله يخرج إلينا عندئذٍ سأظهر له أيضًا حسن نواياي، بأن أذهب إليه وحدي إلى القصر. وحتى يطمئن جوهر من أنه ليس لدينا نوايا لمهاجمة البوابة واقتحام البلدة فقد اقترحت أن أرجع إلى الوراء بعيدًا عن البوابة مع جميع الأفراد المسلحين. وبذلك عندما يطلق سراح نصرالله لا يكون هناك أية مخاطر من اقتحام البوابة في أثناء فتحها لمدة قصيرة ثم قفلها.

لم أكن أبدًا أشك في أمانة ووفاء العرب وبعدهم عن الخيانة، ولي كثير من التجارب عن هذه الأمور، والآن كان في إمكاني اختبار خبرتي السابقة لأجد المثال الحي لهذا الطابع من التصرفات.

أوضح جوهر باختصار أنني إذا أعطيت كلمة شرف أمام رجالي وأمام رجاله فإنه سيأخذ اقتراحي مأخذ الجد وسوف ينفذه. وهكذا حدث وعندما انسحبت إلى الوراء بعيدًا تم إطلاق سراح نصرالله، وبعد دقائق من ذلك دخلت أنا نفسي إلى القصر. ربما كانت هذه الخطوة مني مخاطرة، لكنني لم أكن أستطيع عمل غير ذلك، إذ كيف كان يمكن التفكير في رحلة ناجحة دون هذا العمل، فلو كنت بقيت كعدو خارج القصر، فقد أفقد كل أمل في الحصول على المزيد من التموين والمساعدين من الجوف. لقد تم في الواقع كل شيء على خير وجه.

كان جوهر يقف خلف البوابة تمامًا في انتظار دخولي، وأقفلت البوابة على الفور، وكان جوهر محاطًا برجاله المهمّين، وفي عصبية ظاهرة قبّل يدي ثم أسرعت فقبلت جبينه واحتضانه.

بعد ذلك، أدخلت إلى القاعة الرئيسة للقهوة والاستقبال، وذلك من خلال ممرات وصالات مظلمة إلى حد ما. وفي الطريق كنا نرى المشانق وغرف التعذيب. لم يكن ذلك بالمنظر المريح لاسيما عندما كنت أفكر في أنني في هذه اللحظة وحيد تمامًا ووقعت في فخ عجيب، حيث إنني موجود الآن في قبضة السيد جوهر. ومع ذلك فقد سارت الأمور سريعًا وبصورة

ممتازة. أخرجت السيف وأعطيته إياه للاحتفاظ به، ثم ألقيت بنفسي في مجلس أمام المدفأة المشتعلة، ثم قدمت لي القهوة، وما كادت شفتاي تمسان الفنجان حتى سمعت صوت جوهر يعطي الأمر بسرعة فتح البوابة. وقد حدث ذلك بسرعة مسرحية فلم تكد تمر دقيقة حتى امتلأت الصالة بأكثر من خمسين من رجالي المسلحين، حيث جلسوا لاحتساء القهوة أيضًا.

ومنذ هذه اللحظة، قامت العلاقات الوطيدة فيما بيني ورجالي من جهة وبين جوهر والقصر ومدينة الجوف من جهة أخرى.

تحتل بلدة الجوف بالنسبة للجزيرة العربية موقعًا ذا قيمة كبيرة إذ لا يقل عدد سكانها عن عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف ساكن. المياه طيبة وغزيرة والحدائق جميلة وواسعة، والتمر في الجوف له بحق سمعة طيبة كأحسن تمر في العالم، وذلك بسبب مذاقه الطيب.

لم أجد أية صعوبات في الجوف: كثير من الغنم والعجول والدجاج يمكن شراؤها كما يحلو لي، وكذلك كل ماكان يلزم الرحلة في الصحراء من التموين مثل تجديد سروج الخيل والجمال.

كانت فكرتي في البداية، أن أبقى يومين في الجوف للراحة إلا أن رياحًا رملية شديدة منعتني ومنعت الجنود من الرحيل، فبقينا يومين إضافيين. قضينا هذا الوقت في ظروف ممتعة على الأقل من وجهة نظر حياة الصحراء. كنت أنا وجوهر نتبادل دعوات الأكل، كما أنني ورجالي والجنود وكذلك أفراد القصر كنا نعيش في وضع بهيج. وهنا رأيت لأول مرة أحد المسلمين في الجزيرة العربية، وهو جوهر يأكل طعامًا أوروبيًا بالكامل، وهذا الحدث بدا عجيبًا للآخرين أيضًا إلى درجة اجتماع عدد ربما يبلغ ألفين من الناس للتمتع بهذا المنظر. وهو كيف أن جوهرًا يتذوق طعامًا يتكون من الحساء والسمك والخضروات المعلبة، كما يشرب شيكولاته، وقهوة أمريكية، ثم بعد ذلك يدخن سيجارًا من هافانا. وفي هذه الأثناء اختار جوهر دليلين على درجة عالية من الكفاءة، حققا فرحتي، حيث كان عليهما مساعدتي في عبور صحراء النفود.

كان هناك طريقان فقط لعبور هذه الصحراء نحو حائل. أحدهما: الطريق

المعتاد الذي سلكه بلغريف والسيدة والسيد بلنت، وتمر عبر قرية وقصر جبة، أما الطريق الآخر إذا أردنا ترك جبة فيمر عبر قصر الحيانية[١] ومن هناك نحو حائل. في كلتا الحالتين لا تكون الجوف هي آخر نقطة خروج بالنسبة للقادم من الشمال بل قرية تقع على بعد ستة وثلاثين كيلًا إلى الجنوب الشرقي منها تسمى قارة، وعلى بعد عشرة أكيال من الشمال منها تقع سكاكة وهي أيضًا تحت حكم جوهر، ولها الحجم نفسه والأهمية نفسها التي للجوف وفيها قصر يشبه قصر الجوف.

بعد أن رحل الجنود ليلًا سافرت أنا في اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير وقد وصلت عصر اليوم نفسه وأقمت معسكري أمام قرية قارة، واخترت الطريق الثانية للوصول إلى حائل لأنه لا يعرف عنها الكثير، وبذلك يكون لها أهمية كبرى بالنسبة لي.

سافرت في اليوم التالي مع قافلتي في البداية إلى بئري الماء المسميتين بخوعاء. هاتان البئران تبعدان مسافة أربعة وعشرين كيلًا تقريبًا عن قارة، وتعدّان آخر موقع ماء قبل الحيانية، ولذلك توقفت هناك بعض الوقت حتى يمكن لي أن أستفيد حتى آخر لحظة من هذه المياه قبل المسير عبر صحراء النفود. والبئران الموجودتان هناك عميقتان جدًّا، ولا يبدو عليهما أنهما غنيتان بالمياه. كما أن المياه ساخنة وسيئة لدرجة أنه لا داعي لذكرهما. ولكن بالقرب منهما يوجد مجمع لمياه الأمطار في شكل بحيرة دائمة تقريبًا. ويبدو أن البدو يحاولون الاحتفاظ بوجود هذه البحيرة سرًّا، ولكن نظرًا للعلاقات الطيبة مع جوهر ومع الدليلين فقد وضع هذا الامتياز أيضًا تحت تصرفي. يقع مجمع مياه الأمطار هذا داخل النفود والموقع أكثر أماكن هذه الصحراء احمرارًا. لقد ظللت لمدة طويلة منفعلًا من رؤية هذا المنظر «للصحراء الحمراء»، ربما لأن الأمر لم يكن سوى التناقص بين هذه الصحراء الحمراء وماسبق أن رأيته وذكرته من لون الفحم الأسود. ومع استمراري في المسير وجدت أن لون النفود لم يكن

(١) مورد ماء رئيس في أقصى شرق صحراء النفود يبعد عن مدينة حائل مئتين وسبعين كيلًا تقريبًا.

بالأحمر الشديد غير العادي الذي ذكرته الليدي بلُنت وزوجها على طريق جبة. أما هنا في خوعاء، فتحت الشمس الساطعة، كانت تبدو كما لو أن الأرض التي يمشي عليها الإنسان وكذلك الصحراء وجميع الصخور المحيطة بالمنطقة - كما لو كانت قد خضبت بالدم.

بعد وقت قصير، بدأنا نسمع أصوات الوحوش في هذا المكان الموحش، وهي الوحوش التي يجتذبها وجود الماء، أصوات الثعالب والضباع العديدة التي تشبه الصريخ، وأخيرًا زئير الفهود الذي يكسر سكون الليل.

أما الماء الذي كان مقدرًا أن نأخذه من خوعاء ليكفي مدة أسبوع، فلم يكن طعمه سيئًا، ومع ذلك فقد كان لونه يميل إلى الاحمرار، كما لو كان حساءً جيدًا للكابوريا، إلى الدرجة أن حصاني كان يتردد في الشرب من هذا الماء في النهار حتى عند العطش الشديد. ومع ذلك فلم يكن ذلك يمنعه عند دخول الظلام أن يشرب منه ملء معدته. وقد اتضح أن هذا اللون الذي يكوّن الماء كان من التركيز بحيث إن قرب الماء ظلت محتفظة باللون لمدة طويلة حتى إننا كنا نشرب ماءً أحمر لعدة أسابيع لاحقة.

في اليوم الثلاثين من شهر يناير، بدأ المسير الحقيقي في صحراء النفود ذات الشهرة العالية أو بالأصح، المكان الموحش والخطير حقًّا. كان معنا أكثر من اثني عشر جملًا محملًا بالماء، ورغم ذلك، كانت هذه الجمال محملة أكثر من اللازم، لأنني أردت أن أتأكد بنفسي من نتيجة اختيار الجمال في دمشق من أفضل الأنواع، فهي ذات قيمة لا تقدر بثمن، وكان يتم تغذيتها من أفضل ما يكون الغذاء. ولهذا السبب أعطيت الشيخ محمدًا الأوامر المشددة بالحفاظ على سرعة سير الجمال المحملة بواقع ستة أكيال في الساعة وعلى ألا تقل السرعة عن خمسة أكيال ونصف الكيل في الساعة، وأن يحافظ على ذلك. إن أداء الجمال يعدّ أداءً ممتازًا، إذا أخذنا في الحسبان كثافة الرمال ووعورتها وكذلك الحمولة التي لم تكن تقل عن الحد الأقصى الذي يقدر بسبع مئة رطل لكل راحلة. فيما بين خوعا والحيانية كان مؤشر البارومتر

يوضح ارتفاع الأرض في النفود متذبذبًا فيما بين ثمان مئة وألف متر، وكان هذا الارتفاع على خط عرض (٢٧,٥ - ٣٠ درجة)، لكن ذلك الارتفاع لم يكن سببًا في البرودة الشديدة، ولم يكن يبررها، وهي البرودة التي كنا نتحملها، والتي كانت تزداد سوءًا يومًا بعد يوم. كان الموضوع هو القصة القديمة، وهي أن الرمال موصل رديء للحرارة، وتؤثر بدرجة كبيرة على درجات الحرارة. كان النهار دافئًا ومريحًا إلا أن البرودة في الليل كانت شديدة، حيث تهبط درجة الحرارة إلى أقل من عشر درجات مئوية، ولم أكن أبدًا قد عرفت هذا الهبوط الشديد والمفاجئ في الترمومتر لا في المكسيك أو في جبال الهملايا أو القوقاز أو أرمينيا العليا، مثلما كان عليّ أن أراه هنا في النفود.وهنا للتوضيح أنقل بعض مذكراتي المسجلة في دفتر الرحلة، وهي أمثلة متعددة: ١ فبراير: يوضح الترمومتر في الساعة الثانية عشرة ظهرًا أن درجة الحرارة كانت ٥,٥ درجة مئوية وترتفع بعد ذلك مع الرياح الشديدة البرودة ببطء شديد. وفي الساعة الثانية بعد الظهر تكون درجة الحرارة ست درجات مئوية، وفي الساعة الرابعة تكون درجة الحرارة ٧,٥ ثم يجري سائل الترمومتر بسرعة إلى أعلى وذلك حتى يصل إلى ٥,٢٠ درجة مئوية في الساعة ٧ مساء (بعد قليل من غروب الشمس)، وعندها تنزل درجة الحرارة فجأة وخلال ربع الساعة الأول الذي يلي اختفاء الشمس بواقع ٣ درجات مئوية، وهذا يعني ٨ درجات مئوية ثم عند الصباح تصبح ١١ درجة مئوية. بهذا الشكل كان الجو خلال النهار، وغالبًا حتى عند هبوب الرياح الشديدة البرودة، مثل التي تهب كثيرًا في الصحراء، والتي تتوقف أيضًا فجأة كما بدأت. وفي ظروف الطقس الشديدة هذه بدأت أشعر بالقلق على الخيل، وقبل كل شيء على حصاني، الذي لا يقدر بثمن. ولحسن الحظ بالنسبة له كان يوجد غطاء من الفرو، وكان يغطى به كل ليلة من أذنيه إلى ركبتيه. أما بالنسبة للخيول الأخرى، فلم يكن لها للأسف مثل هذه الاحتياطات، وبالرغم من ذلك، لم نخسر أيًّا منها، وقد كنا نشعر بالألم عندما نرى هذه الخيول المسكينة ترتجف من البرد، كما أن البرودة الشديدة للرمال لا تجعلها تستريح على الأرض طوال الليل. كانت المفاجأة الكبرى لا

تزال أمامنا، ففي اليوم الثاني من شهر فبراير سقطت الثلوج بكثافة بحيث غطت النفود طولًا وعرضًا بطبقة من الثلج إلى الدرجة التي كنا وكأننا نرى منظرًا طبيعيًّا من روسيا، لا منظرًا في وسط الجزيرة العربية. لقد أوضح لي البدو أنهم سمعوا أن مثل هذه الثلوج تسقط أحيانًا، إلا أنها نادرة جدًّا، فلم يسبق أن حدث هذا إلا قبل نحو خمسين سنة.

في ليلة ٣ فبراير اقتربت من معسكرنا عصابة لصوص وحاولت في هدوء تام محاصرتنا، لكن الكلاب نبحت في الوقت المناسب تمامًا، الأمر الذي أعطانا الفرصة لنقف جميعًا بالسلاح في الميدان، قبل أن تفاجئنا أية أحداث ويحاول اللصوص من البدو خرق قرب المياه بإيقاعها على الأرض ثم ثقبها بواسطة سهم، وبذلك تصبح القافلة دون ماء، فيتمكنون منها في اليوم التالي أو على أكثر تقدير اليوم الذي يليه. في حالتي لم يكن الأمر ليصل إلى أي شيء من هذا، فاللصوص الذين لم يزد عددهم على خمسة عشر أو عشرين رجلًا قويًّا، أخذهم الرعب ففروا فجأة إلى درجة أنهم تركوا وهم يفرون ذلولين استطعنا في اليوم التالي أن نأخذهما غنيمة. إحداهما استطعنا أن نأسرها في الحال، أما الأخرى فقد استمرت ملاحقتها مدة طويلة. لقد ظل المعسكر عدة أيام دون لحوم طازجة، وكانت رغبة الجميع اللحاق بهاتين الناقتين. في البدايه قاومت هذا الطلب، رافضًا أن أدفع بأحسن الخيول عندي لهذا الصيد، بالإضافة إلى أن الخيول من الممكن أن نحتاج إليها في أية لحظة، إذا ما طرأ طارئ. بعد أن لاحظت أننا لن نتمكن من الناقتين بطريقة أخرى أصابتني حمى الصيد، ركب الدليل العربي منيس على ظهر فرسي السوداء السريعة (ليلى) وأنا على ظهر الفرس مانك مقررًا الإمساك بهاتين الناقتين. وبالرغم من استخدامنا لهذين الفرسين السريعين، فلم يكن ذلك يحط من قدر النياق، فالإمساك بهما استغرق مدة طويلة.

إن الجمال في نجد سريعة جدًّا، ومع ذلك فإنني كنت أجد أن الخيول الجيدة تستطيع بقدر معين من السهولة أن تلحق بها، إلا أن هذه الذلول كانت سباقة بدرجة غير عادية؛ قد لا يستطيع أحسن الخيول أن يلحق بجمل سباق من

نجد. لقد حاول الأتراك مرارًا تربية هذه الجمال في شمال الجزيرة العربية واستخدامها في البريد في العراق وصحراء سورية، إلا أن تلك المحاولات كانت تبوء بالفشل، إذ اتضح أن هذه الحيوانات تموت سريعًا. بعد مسيرة أخيرة لأكثر من إحدى عشرة ساعة في اليوم الرابع من شهر فبراير ظهرت أمامنا قلعة الحيانية الوحيدة في وسط الصحراء. من هنا كان النظر إلى هذه القلعة يجعلنا نعتقد بانتهاء النفود عمليًا، إلا أنه مازال هناك مسيرة ثلاثة أيام نحو الجنوب دون ماء.

في تقديري؛ فإن المسافة من الماء في خوعاء حتى الحيانية هي مئتان وتسعون كيلا، وقد يكون هذا هو الحد الأدنى الذي يضاف إليه مسافة اختراق النفود التي لم يكن من الممكن تفاديها وهي كلها مسافة دون قطرة ماء.النفود كما سبق ذكرها هي عبارة عن أرض حمراء غير عادية، وهي صحراء رملية تكسوها التلال الرملية أو التموجات الرملية. في المتوسط؛ فإن ارتفاع هذه التلال من قمتها إلى قاعدتها يتفاوت ما بين ثلاثين مترًا وخمسين مترًا، وأحيانًا من سبعين إلى مئة متر، بحيث يشعر الإنسان أحيانًا أنه محاط بحوائط رملية حقيقية وقائمة. بغض النظر عن التساؤل عن أصل هذه الظاهرة، وكيف حدثت؟، وما إذا كانت في الأصل قاعًا لبحر أو شيئًا من هذا القبيل؟ إنه ليبدو من غير المفهوم كيف أن الزوابع الصحراوية طوال آلاف السنين لم تعمل على تسوية هذه الرمال، أو على الأقل التقليل من حدتها ومن شدة انحدارها. أو هل يجب علينا أن نقبل الرأي الذي يقول: إن الرياح هنا تتبع خطوطًا معينة وتقوم برسم أشكال معينة، وهذه تعملها بنوع من النظام المحدد، وأنه في تأثيرها على هذه الرمال تقلّبها ثم تسوّيها ثم تعيدها إلى وضعها الأول؟

لم يكن تأثير موجات الرمال على النمط نفسه، فليس لها أي نوع من الانتظام مثل تلك التي وصفتها في رحلات أخرى. بل يرى الإنسان أن ارتفاع الأرض على امتداد النظر، ليست في شكل أمواج تجري في اتجاه واحد مطلقًا. كما أن هذه التموجات كثيرًا ما تتحول إلى دوائر من الارتفاعات وتترابط فيما

بينها تمامًا، كما لو كانت ترتبط بجسور. وهكذا يكتسب هذا الشكل الطبيعي شكله الفني. إضافة إلى ذلك، يلاحظ وجود عدد من الأشجار قائمة في شكل انفرادي، ولكنها مع ذلك كثيرة، بحيث تغطي إلى حدٍّ ما هذه الصحراء. كما أن سيقان هذه الأشجار جافة تمامًا، ويزيد طولها على طول الإنسان، أما قطرها فهو ما بين نصف القدم والقدم الواحد وهي بذلك أصبحت حطبًا ممتازًا، وهو ما ساعدنا كثيرًا في التدفئة في ظروف الطقس البارد.

يعطي البدو النفود أهمية كبيرة جدًّا، كما يخافون السفر فيها إلى درجة معينة. إن أقسامًا من العرب يعيشون في أعماق هذه الصحراء، وهم يفقدون بعض أفرادهم في أثناء تنقلهم عبرها: أي أن الأفراد الذين يبقون منفردين في أثناء السير، نتيجة الإهمال أو عدم الاهتمام، يجدون أنفسهم فيما بين دوائر الرمال الكثيرة، فيضلون الطريق ثم ما يلبثون أن يموتوا عطشًا وجوعًا.

من المؤكد أن الإنسان لا ينصح بمواجهة مخاطر النفود وغيرها من صحراء الجزيرة العربية، دون أخذ الاحتياطات أو مرافقة أناس قادرين، ودون استخدام جمال قوية، وتموين كبير من المياه وتموين بصفة عامة. وفي حالة الاحتياج يُرسل طلب معونة بواسطة الخيول، وأن يكون الأدلاء جيدين، يمكن الاعتماد عليهم. فإذا أخذنا كل هذه الترتيبات، فإنني أستبعد حدوث أية مخاطر، وإن اختراق النفود أو أيٍّ من الصحاري الجميلة والرومانسية لهو متعة كبيرة.

أما عن الحياة الفطرية في هذه الصحراء، فهي متغيرة جدًّا، بل إن وجود العدد القليل من الحيوانات، التي قابلتها يبدو صعب الفهم. كل مارأيت كان الضباع والغزلان وبعض الأرانب. وكذلك هنا، كما في الأماكن الأخرى الخالية من المياه، يوجد نوع جميل جدًّا من الثعالب. لم يكن من المفهوم كيف تعيش هذه الحيوانات دون مياه وبالتدريج استطعت أن أعرف بعض الشيء عن ذلك، وأصبحت أذكر دائمًا أن هناك بعض الحيوانات مثل الخراف والماعز لا تشرب حتى عندما تعطيها الفرصة للشرب، وهو ما لاحظته بالنسبة للحيوانات التي ترافقنا.

من الواضح، أن هذه الحيوانات، تكتفي بالسوائل الموجودة في الأعشاب الجافة، والتي بها مكونات تساعدها على مقاومة العطش بطريقة العلاج الهوموباتي (علاج المرض بشيء قليل من الميكروب نفسه، يعطى على دفعات فيقوم بإحداث آثار عكسية) ويبدو هذا في كل حالة كأحد الأدلة على كيفية تطور الأجيال من المخلوقات، عبر تجاربها وعاداتها وتحقيق متطلبات حياتها بذاتها الأمر الذي قد يغير في طبيعة الحياة وشكلها، كل ذلك من مبدأ الصراع من أجل البقاء. عندما لا يقتنع الإنسان بالأمر الواقع من أن الخراف والماعز في الجزيرة العربية لاتشرب فإن ذلك يوضح بذاته كيف أن فصائل من الإبل وأصناف الغزلان قد تعلمت أيضًا أن تعيش في هذه البلاد دون ماء.

وأضيف إلى ذلك، أن البدو كانوا يخبرونني أنه في الأراضي الداخلية التي لايوجد بها ماء، فإن هذه الحيوانات لا تظهر سوى لمدة تسعة شهور فقط. أما عندما تضع صغارًا ويتعين عليها إرضاعها، فإنها تنتقل إلى أراضٍ بها ماء وفير، مثل مناطق الفرات أو الأحساء أو اليمن أو حوران.

أما الضباع أو الفهود، فلم أجدها تنتقل هكذا بعيدًا عن الماء، كما لم أسمع بوجود حيوانات من هذا النوع بعيدًا عن الماء، بغض النظر عن أنه قد يكفي هذه الحيوانات ماتحصل عليه من دماء الفريسة كسوائل لحياتها.

وكذلك الحيوانات التي تعيش فقط على النباتات فلم أر إلا القليل من الأرانب. ويظل السؤال عن الثعالب التي رأيتها في جميع الأمكنة على بعد مئات الكيلومترات عن أية بقعة ماء. قد يكون أيضًا من العسير عليها الوصول إليها في أماكن لا ترى خلال عدة أيام حتى طائرًا يطير في السماء.

لقد كنت أفكر ساعات بل أيامًا في هذا الأمر إلا أنني لم أصل إلا إلى تحليل معقول قد يصل إلى نصف تبرير لحياة هذه الثعالب. وهو أنه ربما أنها تعيش على الزواحف والضبان، وأنه يكفيها ما يوجد في هذه الزواحف من سوائل كبديل للماء. تصطاد هذه الثعالب الجرذان، إلا أن هذه الجرذان لا

نجدها في كل مكان، وفيها قد تجد الثعالب رطوبة (ماء) أكثر بكثير من الزواحف؟

تستطيع الجمال في نجد أن تسير في رحلة وأن تعمل في الفصل البارد من السنة لمدة ٢٥ يومًا دون ماء، وفي الفصل الحار يمكنها السير، حيث تسير ٥ مرات خلال ٢٤ ساعة دون ماء. والحصان العربي الأصيل لا يمكن عدَّه كذلك إلا إذا كان في استطاعته تحمل السير إلى أراضٍ بعيدة لمدة ثمانية وأربعين ساعة دون أن يشرب.

وفي أماكن إقامة البدو التي تبعد مسافة طويلة عن الماء، نجد أنه ليس فقط الإنسان وحده الذي يعتمد على لبن الإبل بل أيضًا الخيل. إن الرجل البالغ والقوي من البدو يستطيع أن يتحمل السفر أو الحرب حتى في أشد درجات الحرارة ارتفاعًا لمدة ست وثلاثين ساعة دون أن يشرب أي سائل، إلا أن هذه المدة يجب ألا تشتمل على نهارين وليلة، ولكن يجب أن تكون ليلتين ونهارًا. وهذا له معنى كبير، حيث إنه في الحرارة الشديدة ورياح الصحراء يحتاج الرجل العادي كل ساعة ونصف الساعة أو ساعتين إلى عدة كؤوس من الماء.

إن قلعة الحيانية تمثل مبنى بدائيًّا. الجزء الأسفل فقط من المبنى مقام من الحجارة، أما الجزء العلوي فهو مبني من الطين وهو بالكامل مكون من أربع زوايا، ويعلوه برجان فقط، وهو أصغر بكثير من القصور والقلاع الموجودة في الجوف وفي سكاكة. ويوجد باب واحد فقط، مصنوع من الحديد للدخول. وعلى مسافة مئتي متر تقريبًا نجد برجًا واحدًا يقف منفردًا ومتصلًا بالمبنى الرئيس بواسطة سرداب. وهو بذلك يشكل حماية للبئرين الموجودتين فيما بين المبنى الرئيس وهذا البرج، وتكون الحماية بواسطة رماية بندقية من الجهتين. ورغم أن ذلك ليس إلا تحصينات بسيطة إلا أنه يكفي تمامًا ليس فقط لصد أي هجوم من أعداء ليس لديهم مدافع، لكن أيضًا لمنع الحصول على المياه دون تصريح من ابن رشيد.

أما البئران الموجودتان في الحيانية، فماؤهما عذب وغزير وبصفة خاصة البئر الرئيسة الموجودة على بضع خطوات من باب القصر، وفي الوقت

الحاضر يتراوح عمقها بين مئة وأربعين ومئة وسبعين مترًا، وهي مبنية بطريقة ممتازة، بل بطريقة قوية جدًّا، وذلك بقدر ما استطعت أن أرى بنفسي عن طريق إنزال عيدان كبيرة مشتعلة في سلة إلى عمق البئر. فقد لاحظت أن أجزاء منها مبنية من الصخور الطبيعية، وأجزاء أخرى مبنية من الحجارة المنحوتة والمسواة في شكل مربعات. وهذه البئر مثلها مثل آبار أخرى رأيتها في الجزيرة العربية، لابد أنها حفرت في عهد الملوك الآشوريين، الذين نعرف أنهم وجهوا حملات إلى داخل الجزيرة العربية وحتى إلى الجنوب منها.

وجدت الحيانية مزدحمة بآلاف الإبل التي يمتلكها الرولة الذين يستخدمون النفود أرض رعي في فصل الشتاء إذا كان بإمكانهم سقي قطعان إبلهم من وقت لآخر من آبار الجوف وسكاكة والحيانية وجبة. إن هذا الوضع يجعل من الواضح أن ابن رشيد لم يكن يشعر بأنه سيد النفود الوحيد»[١].

اتجه نولده بعد هذه المحطة إلى حائل، ومنها إلى مقابلة محمد بن رشيد في مخيمه بالقصيم[٢]، وبعد أن أتم تفاوضه معه، سافر إلى النجف، ومنها أكمل رحلته في العراق وكردستان وأرمينيا.

---

(١) النص المعرب:

Baron Eduard Nolde. **Reise Nach Innerarabien, Kurdistan und Aremenie 1892**(Braunschweig: Druck und Verlag Von Friedrich Viewe und Sohn,1895), pp.3-28.

(٢) لتكملة رحلته، انظر: **الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر: نص رحلة مبعوث روسيا البارون إدوارد نولده إلى نجد ١٨٩٣م/ ١٣١٠هـ**. تقديم وتعريب عوض البادي، ط ٢(الرياض: دار بلاد العرب للنشر، ٢٠٠٢).

الفصل الثامن

أرتشيبالد فوردر

لا يُعدُّ هذا الراهب ضمن الرحالة الأوروبيين في الجزيرة العربية، وتجاهله من درسوا الرحالة الغربيين وكتاباتهم إذ لم يروا أية أهمية علمية لما كتبه مقارنة بالرحالة المميزين عنه علمًا وهدفًا، ومع ذلك فقد كان معروفًا في الأوساط التبشيرية لكونه يعمل لها، وينشط في حركتها وتستفيد من تجاربه. قام فوردر برحلته إلى شمال الجزيرة في مطلع القرن العشرين بعد مدة انقطاع لم يزر فيها المنطقة أحد من الرحالة الأوروبيين، وما جاء به له أهميته الخاصة في توثيق المحاولات التبشيرية في هذه المنطقة التي استمرت مدة طويلة بعده، وبسبب ما بذله من جهود. فمن هو هذا الراهب أرتشيبالد فوردر؟

ولد أرتشيبالد فوردر(Archibald Forder) سنة ١٨٦٦ في بلدة سالزبوري (Salisbury) في جنوب إنجلترا. بدأ تأثره الديني في سنيِّه الباكرة، وأصبح يرتاد مدارس الكنيسة ويشارك في نشاطاتها، وخاصة جمع التبرعات لها. وفي سنته الثالثة عشرة غادر منزل عائلته ليبدأ حياته العملية بالعمل في السوق في منطقة ويمبورن (Wimborne)، جنوب غرب إنجلترا، مع بقاء صلاته بالكنيسة ومدارس يوم الأحد. بعد ثلاث سنوات من هذه التجربة قرر العمل في المجال الديني وخدمة الكنيسة، فانتقل إلى لندن لمدرسة كنسية حيث بدأ بتلقي دروس في الإنجيل في كنيسة القديس جونزهل (St. John's Hill Church) في واندزورث (Wandsworth) في لندن. ارتبط فوردر بهذه الكنيسة يتعلم ويعمل حتى عين سكرتيرًا لمدرسة الأحد للصغار في هذه الكنيسة.

لم يتلقَّ فوردر تعليمًا عاليًا، كما أنه تزوج مبكرًا سنة ١٨٨٨، الأمر الذي أعاقه عن الدخول في عمليات التبشير الخارجية، إلا أنه في آخر المطاف تم قبوله للعمل في إرسالية للتبشير، في بلدة الكرك في شرق الأردن.

غادر فوردر مع عائلته لندن في الثالث من سبتمبر سنة ١٨٩١ متوجهًا إلى عمله الجديد في الكرك عن طريق فلسطين بعد أن تلقى هو وزوجته تدريبات طبية لمساعدتهما في عملهما، وتقديم الخدمات الطبية للسكان المحليين.

استقر فوردر في الكرك، يمارس أعماله في خدمة الكنيسة وتعلم اللغة العربية والتدريس في مدرسة الكنيسة في الكرك، إضافة إلى تقديمه الخدمات الطبية لبادية الجوار والسكان المحليين. بعد أن قضى خمسة أعوام في الكرك، ذهب فوردر إلى القدس حيث تعرف إلى مندوبين لمنظمة دينية أمريكية يقع مقرها في نيويورك تدعى التحالف المسيحي التبشيري (The Christian and Missionary Alliance (C&MA))[١]. تمت دعوة فوردر إلى نيويورك لمقابلة قيادة هذه المنظمة، حيث قدم لهم المعلومات الضرورية عن الصحراء العربية، وأقنعهم بتبني دخول الجزيرة العربية، التي كان الاتحاد يسعى لها ويبحث عَمَّن يقوم بمثل هذه المهمة. حصل فوردر على موافقة المنظمة للعمل معه، فرجع إلى الشرق فرحًا كما يقول ليحمل الدعوة إلى «مهد الإسلام»، وانتقل إلى القدس حيث تأسس مقر هذه المنظمة.

انطلاقًا من القدس، بدأ فوردر محاولات دخول الجزيرة العربية، ولم يتمكن من ذلك إلا بعد ثلاث محاولات، ونجح في محاولته الرابعة، حيث قام برحلته الأولى إلى منطقة الجوف[٢].

---

(١) حركة مسيحية بروتستانتية تأسست سنة ١٨٨٧ في نيويورك على يد الراهب ألبرت بنجامين سمبسون (Albert Benjamin Simpson) بهدف تعزيز الحياة المسيحية والعمل على التبشير بها في الخارج. وتأسس لتحقيق هذين الهدفين منظمتان كنسيتان إحداهما التحالف المسيحي(The Christian Alliance) للهدف الأول، والتحالف الإنجيلي التبشيري (The Evangelical Missionary Alliance) لتحقيق الهدف الثاني. واتحدت هاتان المنظمتان سنة ١٨٩٧ في منظمة واحدة باسم التحالف المسيحي التبشيري (The Christian and Missionary Alliance (C&MA)).

(٢) A. Forder. **With the Arabs In Tent And Town: An Account of Missionary Work, Life and Experiences in Moab and Edom** (London: Marshall brothers, 1902. pp 1-82.

بعد هذه الرحلة واصل فوردر نشاطاته التبشيرية انطلاقًا من القدس في الأردن وفلسطين وسورية وبين قبائلها حتى أصبح من المبشرين الأساسيين في المنطقة لصالح هذه المنظمة التبشيرية الأمريكية. وكان أيضًا ناشطًا في فعالياتها الثقافية.

مع بداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ألقت السلطات التركية في القدس القبض عليه وأودعته السجن في دمشق بتهمة التجسس، لكن أطلق سراحه بعد سقوط دمشق في أيدي القوات العربية والإنجليزية سنة١٩١٨[١]. بعد إطلاق سراحه عاد إلى عمله، وقام بنشر عدد من الأعمال حول رحلاته وحول فلسطين[٢]. وقد فارق هذه الدنيا في سنته التاسعة والستين في شهر نوفمبر من سنة ١٩٣٥[٣].

كان فوردر قد انطلق في رحلته إلى شمال الجزيرة العربية من القدس في اليوم الثالث عشر من شهر ديسمبر سنة ١٩٠٠[٤]، وبعد مدة قضاها في بلدة عرمان إحدى قرى جبل حوران رافق قافلة متوجهة إلى كاف ليكمل رحلته إلى الجوف. **وهنا نترك القارئ برفقته في مغامرته:**

«لقد كانت إقامتي الطويلة في قرية عرمان فرصة جيدة للإعداد لرحلتي إلى جزيرة العرب، ومن خلال احتكاكي بالناس اكتشفت أنه لم يزرهم أحد من المبشرين من قبل. ومن المؤكد أن أحدًا لم يحمل إليهم الكتاب المقدس من قبل، وإن حدث فليس له أدنى أثر. قضيت أيامي الأولى في زيارة الناس في بيوتهم. وسألت عن الكتاب المقدس، لكن لم يكن له وجود. وقد سنحت لي فرص يومية للحديث عن الخلاص والمخلّص. بعد العشاء كنا نقضي في العادة

---

(١) وصف فوردر تجربته في السجون التركية في كتاب، انظر:

A. Forder. **In brigands' hands and Turkish prisons, 1914-1918** (London: Marshall brothers, 1920).

(٢) ———, **Daily life in Palestine: sites, scenes and doings in the Holy Land** (London: Marshall brothers, 1912).

———, **In and about Palestine with notebook and camera** (London: R. T.S., 1919).

———, **Petra: Perea: Phoenicia**(London: Marshall brothers, 1923).

(٣) Hartford Seminary Foundation, **The Moslem World**, Vol. 25, 1935, p. 200.

(٤) ١٣١٨هـ

ساعتين مع الضيوف الذين يفدون لقضاء السهرة معنا. وكان الحضور يصغي إلى أقوالي جيدًا، وفي هذه السهرات غالبًا ما كنت أبيع عددًا من كتب الإنجيل أو الكتب المقدسة الأخرى. كانت هذه الكتب تحمل إلى أماكن متعددة بواسطة من امتلكوها الذين كانوا يعودون في اليوم التالي إلى قراهم. لقد تركت في عرمان نحو أربعين نسخة من العهد الجديد، واشترى العديد منها شباب يافعون يعرفون القراءة جيدًا.

كان قد أرسل لي بعض الأصدقاء من إنجلترا خمسين نسخة من كتاب عن حياة يوسف، وإنجيل يوحنا في مجلد واحد. وقد وجدت هذه النسخ مفيدة ومقبولة عند هؤلاء القوم.

وذات يوم، دخلت منزلًا فوجدت قسيسًا أرثوذكسيًّا عجوزًا من التابعين للكنيسة الأرثوذكسية اليونانية تجاذبت معه أطراف الحديث، فكان مثل مئات من أمثاله يجهل معنى الخلاص بالإيمان بنبي الله عيسى، وأخبرني أنه لم يقتَنِ في يوم إنجيلًا. ولما كان يجيد القراءة، فقد أعطيته إنجيلًا من المجموعة التي أهداني إياها الأصدقاء الأمريكيون. وكان الإنجيل باللغة العربية، وقبله بتردد لاعتقاده بأن أمثاله ليسوا أهلًا لمثل هذا الحظ السعيد. وفي اليوم نفسه رأيته راكبًا متجهًا إلى القرية التي يعيش ويعمل فيها، وقد لف هديتي في منديل وخبأها في صدره.

لقد كانت أيامي في عرمان حزينة انعدمت فيها المواساة، فالمطر كان متواصلًا، والثلج يتساقط مخلفًا وحلًا كثيفًا. وكان الوقود الوحيد للتدفئة روث البهائم الذي كنت أفضل قسوة البرد على رائحته النتنة المنبعثة من كتلة محترقة منه، وضعت في منتصف الغرفة. وفي الليل كان عليَّ الاستلقاء على فراش خشن، وكان عبارة عن حصيرة محشوة بالقش، وكانوا قد أمدوني بغطاء غير نظيف لم أذكر أنني استعملته بعد الليلة الأولى. كان سكان القرية في غاية اللطف والحفاوة إذ كانوا يدعونني لتناول الطعام في منازلهم. وكان الطعام في معظمه من البازلاء المغلية المغطاة بالزيت أو السمن الذائب، ويقدم ساخنًا الأمر الذي جعله مقبولًا عندي، ويساعد في دفء بدني. كنت أحمد

الله على هذا العطاء. ولما لم تكن في القرية حوانيت لم أتمكن من شراء شيء يؤكل لاسيما أن العرب لا يبيعون طعامًا للضيوف.

لن أنسى ليلة الاحتفال بأعياد ميلاد السيد المسيح التي قضيتها في تلك القرية إذ كانت ليلة باردة انعدم فيها الوقود بفعل المطر والجليد، وكان عليّ أن أقضي كل اليوم متحملًا البرد والرطوبة. ولما كانت أسقف المنازل من الطين، فإن المطر كان يتسرب داخل المنزل، وهكذا كانت الحالة في ليلة عيد الميلاد تلك. لقد كان المطر ينزل من ثماني فتحات صغيرة من سقف غرفتي، وتعذّر عليّ أن أجد مكانًا جافًّا فيها. منذ وصولي تلك القرية كنت أسأل عن إمكانية انتقالي إلى المكان الآخر، الذي كنت أنشده، وكان في الخريطة يحمل اسم كاف. كنت قد عرفت أن الرحلة إلى تلك القرية تستغرق ستة أيام باتجاه جنوب شرق، والطريق إليها خالٍ من المياه، وفي غاية الخطورة، لأنه مكمن لعصابات قطاع الطرق المتأهبين دائمًا لاقتناص أي عابر سبيل. كان سكان عرمان يجهلون اسم كاف، ولا يعرفون عن هذا المكان شيئًا، وكانوا في حديثهم العادي عنها، يرددون كلمة (قريتين)، وأحيانًا يسمونها «ديرة الملح» لأن أهلها يستخرجون الملح ويبيعونه للقوافل الذاهبة هناك. وعندما أوضحت لهم نيتي زيارة قرية كاف هزُّوا رؤوسهم قائلين: «لا تذهب إلى هناك؛ لأن عربها مجموعة من الأشرار؛ ونحن حينما نذهب إليها في جماعات لا تفارق أيدينا السلاح». ولما أبديته من إلحاح في الذهاب ذكر لي مضيفي أنه سيبحث عن بدوي يأخذني إلى كاف.

بين حين وآخر كان يزور عرمان بعض من يجوبون الصحراء بحثًا عن مسافرين، ليكونوا أدلاء لهم في طرقها، لقاء أجر معين، ولما كانوا على معرفة تامة بمضارب الأعراب أصبح في مقدورهم قيادة المسافرين إلى قرية كاف بسلام. وجد مضيفي اثنين أو ثلاثة من هؤلاء الرجال، لكنهم لما علموا بأن الرجل المراد اصطحابه إلى كاف نصراني، أشاحوا بوجوههم قائلين: ما لنا وأعداء الله وأعداء أتباع محمد. لقد بدا واضحًا أن عليّ الانتظار طويلًا حتى أجد من يقبل مرافقتي إلى كاف. رجوت مضيفي أن يتعهد لي بالبحث عن هذا

الدليل، وقطع لي الوعود دون أن يفي بواحد منها. لقد باءت كل محاولاته بالفشل، وبدا لي أن رحيلي إلى كاف أصبح أمرًا مستحيلًا. وفي ذات يوم رويت لشيخ تلك المنطقة حكايتي وطلبت منه المساعدة. وكان رجلًا عجوزًا ولطيفًا يبدو أبًا للجميع، فأخذ ينصحني أن لا أذهب إلى هناك وأعاد إلى ذهني صورة الأخطار المحدقة في الصحراء، والإرهاق الشديد من الرحلة، واحتمالات الموت الماثلة من العطش أو من تشدد أعراب قرية كاف. أكدت للشيخ أنني مستعد لمقابلة كل ذلك لأنني واثق من حفظ ورعاية الله ليَ، ووعدته أنني سأخليه من أية مسؤولية إذا ساعدني في التوجه إلى حيث أريد. وأخيرًا؛ وافق الشيخ على عمل اللازم لأسافر صباح اليوم التالي. عدت إلى منزلي وأعددت كتبي وأمتعتي استعدادًا للسفر. وقمت بإخفاء بعض نقودي بخياطتها داخل حزام سراويلي، وأمنت الباقي عند مضيفي ليحفظها إلى حين عودتي المشكوك فيها. إن إيداع المال بهذه الصورة التي تنم عن الثقة في الغريب يضمن الحفاظ عليها. وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى الشيخ فقدم لي الأعذار بأنه لم يتمكن من ترتيب رحلتي، وأعاد على مسامعي كل ما سمعت من قبل عن هذه الرحلة ومخاطرها. وحاول مرة أخرى إثنائي عنها نهائيًا، وذكرت بأنه قطع لي الوعود وكشيخ كان ينبغي أن يحفظ وعده وألا يخل به. أثاره كلامي هذا واستدعى رجلًا وأمره بإحضار جمل وحمل أمتعتي، ثم أركبني على ظهر الجمل على أن يسلمني صاحبي إلى أول خيمة نصل إليها، ونُفذت جميع أوامر الشيخ، وبدأت الرحلة.

سرنا حتى مغيب الشمس ولم نر أثرًا للخيام فعسكرنا لقضاء الليل، ثم تحركنا ثانية في الصباح. وعند الظهيرة لاحت لنا بعض الخيام فاتجهنا نحوها. لم يكن استقبالنا حافلًا، وأحسست بأن مقدمي لم يجد ترحيبًا. دعونا للدخول، وأخذ أحدهم أمتعتي وراكمها فوق بعضها بعضًا. أخبرهم رفيقي بوجهتي التي أقصدها، واستقبلوا ذلك بتجهم، ثم أخبرهم بأنه سيرجع إلى عرمان. شعرت بتردد أن أطلب منهم أن يبيت مرافقي معنا، ولحسن الحظ فعل ذلك. تناولنا طعام العشاء، ولما كنت متعبًا جدًّا سرعان ما غطيت في نوم عميق حتى الصباح لأستيقظ والخيمة على رأسي بقماشها الثقيل، فزحفت خارجًا، فرأيت بعض

النسوة يلملمن أطرافها قبل الرحيل، فسألتهن عن الخطب، فكان جوابهن: «لقد أمر الرجال بالتحرك إلى موقع آخر؛ إنهم يخشون من إيواء مسيحي، نجس، يجلب الشر لنا». وبعد قليل طووا الخيمة وكل أمتعتهم وحملوها على ظهر جمل وربطوا الدجاج والديوك إلى أطراف الحمولة فوق الجمل، أما الأغنام فقد سيقت مبكرًا في الصباح.

لقد رحلت هذه العائلة البدوية، وتركتنا أنا ورفيقي وحيدين. واقترح رفيق أن يركب الجمل ويتركني وحدي للحفاظ على الأمتعة ويذهب بحثًا عن خيام أخرى ثم يعود إليّ. رفضت الفكرة لأنه إذا ركب الجمل فلن أراه مرة أخرى، فقلت له: «اترك الجمل واذهب راجلًا بحثًا عن عرب آخرين». فقبل ذلك وتركني وحيدًا في الساعة السابعة صباحًا، وانتظرته حتى أوشكت الساعة أن تكون الرابعة عصرًا، وكدت أن أجزم بأنه تخلى عني وتركني وحيدًا، لكنه ظهر فجأة عائدًا إليّ. علمت منه أنه وجد خيمة قريبة، فقضى وقته يتسامر مع الرجال فيها ويأكل الطعام ويحتسي فناجين القهوة وأنا تحت وهج الشمس الحارقة جائعًا ظمآن. مرة أخرى، حملنا متاعنا وتحركنا صوب الخيمة التي عثر عليها مرافقي فوصلناها في ساعة من الوقت، وجلسنا أرضًا وأكلنا بعض الخبز، وكنت مسرورًا عندما علمت من الرجال أن قافلة كبيرة ستمر بنا ليلًا في طريقها إلى كاف لجلب الملح. وبعد تناول العشاء تحدثنا واتفقنا على أنه إذا أمكن التحاقي بالقافلة فسأذهب معهم إلى كاف. كانت ليلة مقمرة، وكنا نجلس حول النار عند مدخل الخيمة عندما أقبل علينا رجل ليقول: إنه سمع صوت أجراس العير ويبدو أنها القافلة، وقد كان الأمر كذلك.

حملت أمتعتي بسرعة على الجمل ثم امتطيته فقاده رفيقي. وفي ضوء القمر كنت أرى كتلة سوداء تُقبل علينا وكانت تلك الكتلة هي القافلة الموعودة. وسرنا مسافة ربع الساعة ثم توقفنا في انتظار القافلة. جاءنا بعد قليل بعض العرب يمتطون صهوات الخيل وابتدرونا قائلين: من أنتم؟ وماذا تريدون؟ فأجبناهم. ثم وصل القسم الأول من القافلة المتكوّن من أربع مئة جمل، ثم مر علينا القسم الثاني والثالث ثم القسم الأخير، وكان كل قسم

معه خيالة مسلَّحون بالحراب، والبنادق، والسيوف والمسدسات. كان مرافقي يصيح بأسماء رجال يعتقد بأنهم في القافلة كلما مر فوج منها ومرت الأقسام الثلاثة الأوائل من القافلة وبلغ تعدادها ست مئة جمل ولم يرد أحد على مرافقي. وفي القسم الأخير من القافلة تعرف مرافقي على بعض الرجال وبعد تبادل أسئلة سريعة عمن أكون وإلى أية جهة أقصد، وُضعت مع أمتعتي على جمل آخر، وأضحيت بسرعة جزءًا من تلك الكتلة المتحركة صوب قرية كاف.

لم يتم الاتفاق حول أجرة الجمل الذي يقلني، وكم سأدفع للأكل والماء. لقد انضممت إلى القافلة في التاسعة إلا ربعًا مساء، وكان من المفترض أن تستغرق الرحلة أربعة أيام ونصف اليوم. واصلنا السير ودخلت في مناقشة مع رجال كانوا بجانبي، فأكدوا لي أنه يجب علينا أن نأخذ الرحلة على مراحل لأن الجمال المحملة بالقمح والشعير الذي ستتم مقايضته بالملح والتمر، لابد لها من أخذ قسط من الراحة، لأنها لا تستطيع السفر لمدة طويلة دون التوقف من وقت لآخر. سرعان ما اكتشفت أن ما ذكروه كان غير صحيح، وقد ذكرت لهم ذلك فيما بعد فردوا قائلين: «أردنا أن نخفف عنك الأمر، إذ ينبغي ألا تركب وأنت مثقل بالهموم والقلق». واصلنا الرحلة طوال الليل كله، حتى السادسة والنصف صباحًا من اليوم الثاني، حيث توقفنا وقال لي رجال القافلة: «يمكنك أن تنام، فالقافلة ستتوقف لمدة ساعتين». استلقيت على الرمال، وغطيت جسمي بالعباءة العربية ونمت نومًا عميقًا، لكنهم أيقظوني بعد ربع الساعة، وصاح أحدهم «انهض لقد تحركت القافلة». وبالفعل كانوا قد تقدموا فقفزت فوق راحلتي ولحقنا بهم مواصلين السير بعد عشرين دقيقة فقط من نزولنا للراحة. استمرت مسيرتنا بلا توقف حتى الخامسة والنصف بعد الظهر حيث أنيخت الإبل، وسرت شائعة أن القافلة سترتاح لساعات، لكن وبينما كان الرجال ينزلون ما على ظهور الإبل أرضًا صاح رجل: «إن العرب يقتربون». وتطلعت إلى الأفق لأرى هضبة عالية أمامنا وعليها نحو عشرة رجال راكبين. وقفز بعض خيالة القافلة على جيادهم، وانطلقوا إليهم. لقد فر الخيالة وتبعهم خيالة القافلة، وعلى الرغم من أنهم كانوا ينطلقون بسرعة فقد أطلقوا نيران بنادقهم فأصابوا أحد المعتدين في ذراعه فسقط رمحه. اعتليت تلًّا مجاورًا

لأراقب المعركة وكان رجالنا يتفوقون على المعتدين، وعادوا بعد قليل بهم أسرى. ولما كان عددهم أقل من رجال قافلتنا فقد ألقوا أسلحتهم وكانوا من قبيلة كبيرة تسكن على بعد نحو ميل واحد منا. لقد أجبرهم الرجال على العودة معهم. وصدرت التعليمات للقافلة بالتحرك بعد تحميل الإبل، وبدأ السير مرة أخرى بعد ربع الساعة فقط من الراحة. دس رجل في يدي كسرة خبز جافة بينما نحن نتحرك وبدأت أقضمها، وكان الأسرى يسيرون معنا في القافلة وقد وضعوا في منتصفها لمدة لمنعهم من الهرب واستدعاء آخرين من مضاربهم لمهاجمة القافلة خلال الليل. ولما كانت الأرض صلبة في هذه الأجزاء لا تساعد على سرعة الجمال فقد ترجلت لمدة لطرد النوم من عينيَّ وتدفئة جسمي. وفي الصباح لم نتوقف، وسُمح للأسرى بالعودة إلى حيث أتوا إذ لم يعد هناك خطر منهم أو من جماعتهم.

أشرقت الشمس ولكننا واصلنا المسير، وعند الساعة العاشرة صباحًا صاح بي أحد الرجال قائلًا: «انظر النخيل إنها قرية كاف، وسندخلها بعد قليل». عند الساعة الحادية عشرة صباحًا تقريبًا دخلنا كاف وانتهينا إلى ميدان تحيط به المنازل حيث أُنيخت الإبل ورفعت أحمالها ووضع أمامها علفها.

كنا قد سرنا نحو ثمانية وثلاثين ساعة لم نتوقف خلالها سوى مدة نصف الساعة. لست في حاجة للقول: إنني متعب، وظمآن، وجائع، لكن مجرد التفكير في أنني وصلت إلى كاف - التي كانت أمنيتي لسنوات - جعلني أنسى وعثاء السفر.

في غمرة الفرح بتحقيق أمنيتي انتقلت من ساحة البلدة التي كانت ترزح تحت هبات الرياح إلى بساتين النخيل القريبة، وبدأت أتجول في مرح وأترنّم في شكر الإله وحمده. وبعد الاستحمام بمياه معدنية دافئة من أحد الينابيع، عدت إلى القافلة في ميدان القرية. وقد أخذوني معهم إلى بيت صغير من الطين، جوار الميدان، وكان صاحب البيت من معارفهم. قدم لنا صحنًا كبيرًا من التمر أكلنا منه قدر استطاعتنا، واستلقيت على أرض الغرفة، ووضعت رأسي على السرج ورحت في نوم عميق، ولم أستيقظ حتى كانت الساعة تقترب من الخامسة،

حيث كانت الشمس تنحدر للمغيب. خرجت من المنزل فالتقيت برجال أعرفهم وقال لي أحدهم: «تعال معي إلى شيخ القرية، وسأطلب منه أن يهتم بك». وذهبت معه إلى الحي المجاور، وكان الشيخ يجلس خارج الدار، مع عدد من الرجال، لكنه عندما رآنا نهض واقفًا وحياني. وعندما دار الحديث عني قال الشيخ: من المستحسن أن تضع أمتعتك هنا في القهوة، وتأتي لتسكن أنت فيها، وأمر صبيًّا بأخذ حمار والذهاب معي لإحضار أمتعتي. وبعد ذلك سمعت طلقًا ناريًّا، فعلمت أن القافلة تستعد للعودة من حيث أتت، بعد أن حملت ما تريد. وقد جاء رجال القافلة لوداعي وحثي على العودة معهم قائلين: «لماذا تبقى هنا مع هؤلاء القوم الملاعين، إنهم سوف يقتلونك لكونك نصرانيًّا». ما لبثوا أن رحلوا وتركوني. وبدأت أرقب القافلة تذهب بعيدًا، ومتابعتها وهي تختفي تدريجيًّا، وانتابني شعور للحاق بها لكن الله منحني الرحمة والعون لمقاومة ذلك الإغراء، فقفلت راجعًا إلى منزل الشيخ. لن أنسى ذلك الشعور بالضياع الذي انتابني وأنا عائد إلى تلك الغرفة في منزل الشيخ. كان كل ما حولي غريبًا ليس من الناحية القومية فحسب، بل من الناحية الدينية. وكنت أعلم جيدًا أن هذا الوضع غير مناسب للمسيحيين. أما هاجس أنني المسيحي الوحيد في كل هذه المنطقة فلا قدرة لي على وصفه بما يستحق.

كانت كاف قرية كبيرة، مقسمة إلى قسمين، تفصل بينهما بساتين النخيل، ومساكنها مشيدة بالطوب الطيني ومصممة بطريقة يمكن استخدامها في صد هجمات المغيرين، وتفتح المساكن أبوابها على ميدان كبير. يستقبل هذا الميدان القوافل ويجرى فيه التعامل والتبادل التجاري. وعندما تحل فيه قافلة يموج الميدان بالحركة والضوضاء. ويأتي إليه التجار من سورية يحملون القمح والشعير اللذين يقايضونهما بالملح الخام.يستخرج الكافيون الملح الخام بتبخير المياه ذات الملوحة التي تتوافر بكثرة من ينابيع كثيرة تنتشر في المنطقة. وكاف بلدة غنية بالمياه، وبعض ينابيعها تزخر بالكبريت، وتتصف بالدفء وتستخدم لأغراض طبية.

يهاجر سكان كاف إلى الصحراء خلال جزء كبير من العام، ولا يعودون

إلى بيوتهم في القرية إلا عند موسم جني التمر. وهو موسم يماثل مواسم حصاد الحبوب في مناطق أخرى. النساء غير معزولات، وغير محجبات، ولكنهن لا يجالسن الرجال، ويتمتعن بحريتهن، وهن بذلك أفضل حالًا من آلاف النساء في أجزاء أخرى من العالم الإسلامي.

لقد أسعدتني رؤية بساتين النخيل الكثيفة حيث قضيت ساعات طويلة فيها بصحبة رجال تعطفوا بمرافقتي. وفي جانب واحد من القرية يقع جبل مرتفع، صخوره سوداء بلون الحبر، وفي قمته بقايا حصن أو قلعة حصينة سويت إلى السطح. وعلى الرغم من اعتراض الأهالي، تسلقت إلى القمة وعاينت الحصن، ولكنني مُنعت من أخذ بعض الصور الفوتغرافية أو تسجيل الملاحظات. وكنت أسمع عندما أتجول في القرية، وحيث يجتمع رجال كاف في مجموعات؛ الكلمة الوحيدة وهي نصراني، ولعنات مفادها أنني عدو الله والمسلمين. وإذ لم يسبق أن كنت مضطهدًا بهذه الصورة من قبل أتباع محمد المعزولين هؤلاء، فقد أخذت أفكر في نوع المعاملة التي سألقاها منهم.

عند وصولي إلى غرفة الشيخ وجدته هناك ومعه بعض الناس. أحضر العشاء وتم تقديمه في صحن كبير من المعدن، وقد أكلت نصيبي دون أن أعرف بالتحديد من أي شيء يتكون، وحتى الآن ليس لدي أي معرفة عما أكلته، وكل الذي أعرف أنه كان شهيًّا، فقد كان ساخنًا جدًّا وخفيفًا ودسمًا ولذيذ الطعم. بعد العشاء تحلقنا حول النار وبدأت عملية إعداد القهوة. . . .[1] إن كرم الرجل يقاس بمقدار القهوة التي يقدمها لضيوفه وأدق عبارة تقال عن الرجل الكريم «إن دلته(إناء القهوة) ما تنزل من على النار». إن شرب القهوة عند العرب هو الترف الوحيد، فالكحوليات غير معروفة، ولم تعرف طريقها إليهم، وليس لهم مشروبات محلية تحتل مكانها، ويبدو أنهم سيظلون لمدة طويلة على هذه الحالة.

بينما دارت فناجين القهوة، كنا نتجاذب أطراف الحديث حول إمكانية

(١) وصف فوردر عملية إعداد القهوة، ولم نر حاجة لإدراجها في النص، وقد سبق لرحالة آخرين في هذا الكتاب وصفها.

تغلغلي في هذه البلاد. اختلف الجالسون؛ فمنهم من يعتقد بإمكانية ذلك بلا مخاطر، وبعضهم يقول: إن الخطر قائم وبشدة، هذا إلى جانب الإعياء من مشقة الرحلة وصعوباتها. نصحني الشيخ أن أعود إلى عرمان، لكنه لم يجد وسيلة لإرجاعي. في الوقت نفسه، دخل علينا رجل ليقول إن فريقًا من العرب وصل، وهو في طريقه صباحًا إلى الجوف، وهي مدينة كبيرة على مسافة أحد عشر يومًا إلى الجنوب الشرقي. لقد كنت عازمًا إذا تيسرت الأمور معي الوصول إلى هذه البلدة بوصفها الأكبر والأهم في الجزء الشمالي من الجزيرة العربية. ولابد من الإشارة هنا إلى أن كاف كانت تحت حكم ابن رشيد سلطان الجزيرة العربية المقيم في حائل. أما الشيخ، وكان اسمه محمد البادي، فقد أرسل يطلب حضور رئيس هذه القافلة، التي وصلت للتو. جاء رئيس القافلة مسرعًا فأبلغه الشيخ برغبتي الذهاب معهم إلى الجوف، وسأله إن كان من الممكن توفير جمل والسماح لي بالسفر معهم. رد الرجل بسرعة بعد أن أيقن أنني مسيحي قائلًا: «إذا أخذته إلى الجوف فإن جوهرًا، الشيخ هناك، سيأمر بقتلي على فعلتي هذه، وعليه لا يمكنني فعل ذلك».

استدعى الشيخ رجالًا آخرين، فقدموا الجواب نفسه، وقال لي أحدهم: «إذا أردت أن ترى الجوف فعليك باعتناق الإسلام، فالنصراني لا يُسمح له بالبقاء في الجوف إلا لأيام معدودة». لقد كان ذلك مثبطًا بعض الشيء، لكن الشيخ نصحني بالتماسك وأخبرني بأن عليَّ أن «أقوي قلبي»، وسنحاول معهم مرة أخرى في الصباح قبل رحيلهم. عندئذٍ تم التخلي عن الموضوع واشتغلت بتقديم الإنجيل.

كان بين الحاضرين رجل يجيد القراءة فأخذ الإنجيل وبدأ بالقراءة. وأريته الفصل الثالث من إنجيل يوحنا، وبينما كان يقرأ بدأت التعليق. وكثيرًا ما كنت أطلب من الرجل ليقرأ حتى يطمئن السامعون إلى أن ما يسمعون هو فعلًا ما كُتب في الإنجيل. لقد علق بعض العرب على أنني أؤلف بعض الأشياء التي قرأتها لهم. لقد كان المستمعون في غاية الاهتمام والانتباه لما أقول. لقد كان وقع كلامي جديدًا عليهم. سألوني كثيرًا من الأسئلة عن الدين والعادات عند

المسيحيين، وأشفقوا علينا كمسيحيين لأن ديننا يسمح لنا بزوجة واحدة فقط، ولأننا لا نملك نخيلًا في بلادنا. وقبل أن نفترق للنوم طلب مني الرجل الذي كان يقرأ الإنجيل أن يأخذ الإنجيل معه. فقلت له: «عليك أن تشتريه». فقال إنه يستطيع أن يدفع مقابله بعض التمر إذا كنت أقبل الدفع بهذه الطريقة، فقبلت، وفي صباح الغد جاءني بشيء من التمر وأخذ كتابه وانصرف، ولقد أدى ذلك التصرف إلى بيع ثماني أو تسع نسخ من الإنجيل، إما من سِفر المزامير، أو من سِفر لوقا، أو من سِفر يوحنا أو سفر التكوين.

استيقظت مبكرًا، وخرجت مع الشيخ، الذي حاول جاهدًا أن يقنع أفراد القافلة المتجهة إلى الجوف لحملي معهم، ولكن الرجال رفضوا بإصرار. ولقد رأيتهم يحملون ويغادرون، وبدأت أحس بأن فرصتي في اختراق هذه البلاد تكتنفها الصعوبات. ولقد أمضيت ذلك اليوم في منازل أهل القرية وبساتينهم. وعاملوني برفق يفسدونه دائمًا بأقوال قاسية عن نصرانيتي. في المساء ذاته وفدت على كاف قافلة أخرى لقضاء الليلة فيها. وذهبت محاولات الشيخ لإقناعهم بأخذي معهم أدراج الرياح، ورددوا التبريرات نفسها التي قدمها رجال القوافل الأخرى في الليلة الماضية. ورأيتهم يغادرون كاف صباحًا، وتساءلت هل من طريقة لخروجي من هذه القرية؟ وبعد رحيلهم جاءني مضيفي الشيخ محمد ليقول لي: «طالما رفضوا كلهم سأرافقك إلى قرية تدعى إثرة ومن هناك ربما تجد طريقك إلى الجوف». وفي الظهر استدعى أحد خدمه ليحضر جملًا، ويعد حصانه للرحلة. حملت أمتعتي على الجمل واعتليت سنامه، وركب هو الحصان وبدأنا السير عبر البوابة التي تقود إلى البلدة، وهناك، التقينا اثني عشر رجلًا على رحالهم، وكانوا شيوخًا لقبيلة تعسكر قريبًا منا وجاؤوا لزيارة مضيفي. فرجعنا معهم وكان عليّ الانتظار لبضعة أيام، أو القبول بالذهاب مع اثنين من خدم مضيفي، فاخترت الخيار الأخير. امتطى الشابان الجمل وركبت أنا الحصان، وبدأنا الرحلة.

عند مغيب الشمس لاحت في الأفق أشجار نخيل إثرة وكانت المسافة بين القريتين تستغرق أربع ساعات. لاحظت أن الشابين أناخا الجمل بعد أن نزلا

عنه مرتين كأنهما يعدلان وضع الحمولة على ظهره، لكنني اكتشفت أخيرًا أنهما قاما بدفن كل أغراضي الشخصية في الرمال. وعندما رجعت إلى كاف بعد نحو ثلاثة أشهر سلمني شيخ كاف كل أغراضي التي أخفاها الشابان. حيث أخبر الشابان سكان القرية ما فعلاه بي، وكيف عاملاني فأمرهما بإعادة أشيائي إليّ، وعنفهما على معاملتي بوصفي ضيفه السابق.

كانت قرية إثرة أصغر من كاف بكثير، ولها شيخ وسكانها بين ست مئة إلى ثمان مئة نسمة. وهي تشبه غيرها من الأماكن التابعة لجبل شمر، مبنية من الطوب الطيني، ومحاطة ببساتين النخيل، ويتوسطها ينبوع ماء يمد السكان والحيوان بماء الشرب. وكل المنازل تتكون من غرفة واحدة كبيرة، وكثير منها بلا أبواب ولا أثاث. ولاحظت وجود أطلال مبنى قديم في وسط القرية مشيد بالحجارة المنحوتة غير المهذبة، وهي سوداء اللون، واستنتجت أنها كانت في الماضي مبنًى للحراسة، فيها أماكن فسيحة للحراسة والحيوان. وقد حولت بعض الغرف في تلك الأطلال إلى مساكن ومستودعات، وهي أكثر ثباتًا من المباني الجديدة. ولاحظت هنا أن النساء يتمتعن بحرية، ويتجولن سافرات الوجوه.

كانت غرفة ضيافة شيخ إثرة قريبة جدًّا من المدخل الرئيس لهذه القرية. وظللنا ركوبًا حتى وصلنا إلى باب غرفة القهوة، حيث ترجلت وتم إنزال أمتعتي القليلة عند المدخل. ودخل الشاب الصغير الذي أتى معي من كاف للغرفة وصرخ قائلًا للجالسين في الغرفة: «لقد جئتكم بالنصراني فأدخلوه معكم وافعلوا به ما شئتم». بهذا الأسلوب أودعني الشاب لا إلى شخص بعينه، بل لأي واحد منهم، بينما العرف المعمول به أن يسلم الأجنبي للشيخ شخصيًّا، وبهذا الأسلوب، لم يكن هناك شخص معين مسؤولًا عني. حملت أمتعتي إلى الداخل ووضعتها في ركن من الغرفة. لم يرحب بمقدمي، ولم يفسح لي مكانًا فبقيت واقفًا عند مدخل المجلس. كانت غرفة المجلس واسعة يصل طولها إلى ثلاثين قدمًا، وعرضها خمسة عشر قدمًا ولها مدخل في أحد جدرانها، كانت غرفة الضيافة هذه كالعادة، خالية من وسائل الراحة، وأرضها مغطاة بالرمل

الذي كان يجلس عليه ثلاثون رجلًا القرفصاء. وكان يصب القهوة ويوزعها عليهم رجل أسود بعيون جاحظة، وجهه وجه شيطان. كان للغرفة استخدامان: الجزء الواقع إلى يمين الباب يستخدم للرجال والزوار، والجزء الواقع إلى اليسار إصطبل خيل، وكان قذرًا بشكل مقيت. وكانت به خيول لرجال من بني صخر جاؤوا لقضاء بعض أعمالهم، وتعيّن عليهم قضاء الليل هنا.

بينما بقيت منتظرًا دعوة الجالسين للانضمام إليهم، سمعتهم يخمنون حول من أكون؟ من المؤكد أنهم ظنوا أني لا أعرف اللغة العربية ولن أفهم ما يقولون. ذكر رجل كان يجلس بجواري أنني مسيحي من بيت المقدس وينبغي الابتعاد عني، وأنه زار بيت المقدس ووجد أن المسيحيين - غير بروتستانت - يعبدون الصور والخيالات. وكان هذا للأسف صحيحًا لأنك تجد ذلك في الكنائس التي تنتمي للطوائف الشرقية المسيحية. واختلف معه رجل يجلس في جانب آخر وتطوع بتقديم معلومة «أنني لست مسيحيًّا، لكنني يهودي»، وثالث ادعى أنه يعرف أكثر وتحدث بصوت عالٍ قائلًا: «إنني لست مسيحيًّا ولا يهوديًّا بل وثني كافر لا يعرف الله ولا نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام». - لم تقتنع أغلبية الحضور بهذا القول، فوقف رجل آخر ليقول بصراحة ووضوح: «إن هذا الرجل لا نصراني، ولا يهودي، ولا كافر، لكنه خنزير».

إن كل من يعرف أي شيء عن المسلمين يدرك أن هذا الكلام هو أكبر إساءة تلحق بأي إنسان، فوصف رجل بكلب سيّئ جدًّا، وهو سبب كافٍ لخلق عداوة تدوم دوام الحياة، لكن أن تشبهه بخنزير فلن يغفر لك أحد، وربما أدى ذلك إلى الموت. وبعد أن نطق هذا الرجل بحكمه عليّ غادر المكان، ربما كان خائفًا من فداحة قوله. وعندها دخل شيخ القرية الذي سمع الكلمات الأخيرة للمتحدث الأخير، وما تجرأت على ذكره في ردي على الاتهامات من «أنني لست خنزيرًا، ولا كافرًا، ولا يهوديًّا. لكني مسيحي أعبد الله الذي تعبدون، ولست من أولئك المسيحيين الذين يعبدون ويركعون للصور والرسوم والخيالات، ومثلما تختلف أصابع اليد الواحدة، يختلف المسيحيون».

وعندها خاطبني الشيخ العجوز قائلًا: «إذا كنت مسيحيًا فعليك أن تجلس بين البهائم»، فامتثلت لأمره وجلست بين جمل وفرس عجوز بيضاء اللون.

لم أجلس بين البهائم طويلًا إذ أقبل رجل تأكدت من ملابسه أنه غريب واتجه نحوي مادًّا يده وصافحني، وأيقنت أنه لم يصافحني أحد في حياتي بمثل هذه الحرارة التي عبرت عن التعاطف والشفقة والمواساة. وجلس بجانبي وتابع بمحادثة قصيرة ومفيدة في صوت هامس، فقال لي:

الغريب: من أنت، ومن أين جئت؟

الجواب: من القدس، وأنا راهب مسيحي.

الغريب: ماذا تريد هنا؟

الجواب: جئت لمشاهدة هذه البلاد، والناس، والمدن والقرى، ومعي كتب للبيع.

الغريب: إذا كنت تريد حياتك فعليك مغادرة هذه البلاد وبأسرع فرصة ممكنة وإلا قتلك هؤلاء الأشرار.

وسألته: أي نوع من الرجال رئيسهم؟

الغريب: إنه رجل عطوف جدًّا، وله نفوذ كبير إذ تشعر ذلك من كثرة ضيوفه.

سؤال: من أنت وماذا تفعل هنا؟

الغريب: أنا من الدروز، وأملك الدكان الوحيد هنا، وقد سمحوا لي بالإقامة لأنني تظاهرت بالإسلام.

وأنهى الرجل حديثه معي ونهض واقفًا، وخرج ولم أره بعد ذلك خلال إقامتي القصيرة هناك.

استمعت لما كان يقوله الرجال في الركن القصي من الغرفة، وكانوا يناقشون مع الشيخ خططًا للتخلص مني. عرض أحدهم قطع عنقي بينما أغط في نوم عميق، لكن الشيخ العجوز قال: «لن أسمح بإراقة دم نصراني في بيتي وفي قريتي». واقترح آخر وضع السم في طعامي وبهذا يتم تحاشي قتلي لأني

سأموت في أثناء نومي، ويتم دفني، وإذا سأل أحد أو حكومتي عني يمكنهم أن يمكنوا من يريد من رؤية قبري، وحتى إذا اضطروا لفحص جثماني فلن يكون هناك ما يدل بسهولة على قتلي. اعترض الشيخ على الاقتراح الأخير، واقترح أن أُطرد إلى الصحراء حيث الاحتمال أن أموت جوعًا أو عطشًا. وأخيرًا، استقر الرأي على أن يعلق أمـري حتى الغد، وقال الشيخ العجوز: «خوفًا من أن يحدث ضرر لبهائمنا لوجود هذا النصراني بينها، أرى أن ينام في البساتين تحت أشجار النخيل». جاؤوا بالعشاء، وبعد أن أكل الجميع استدعوني للأكل، وجلست أمام الصحن المستدير الكبير، ولما كنت جائعًا بدأت في الأكل والاستمتاع بخلطة مجهولة الهوية ناقلًا إياها إلى فمي عن طريق أصابعي بدلًا من ملعقة أو شوكة، وهما غير معروفتين هنا. وعندما رأيتهم يأكلون من الإناء ذاته والطعام نفسه زالت مخاوفي من أن يكون الأكل مسمومًا. ثم استدعوني لأتبع الشيخ الذي قادني إلى البساتين التي تقع في مكان قريب. وجلست تحت شجرة نخيل كبيرة، ووطنتُ نفسي على أن أنام في العراء. وبعد قليل رجع إليّ الشيخ ليقول: «أخشى إذا قضيت الليل تحت شجر النخيل أن تؤثر على محصولي لهذا العام، ويصيب النخيل نحس منك فيفسد المحصول، تعال معي»، وانطلق إلى الأمام وتبعته، وكان الليل قد أرخى سدوله، وأشار الشيخ إلى خيمة معزولة تقبع تحت ظلال جدران متهالكة. وقال الشيخ: «ادخل هناك وابق مكانك»، وقد فعلت. داخل الخيمة رأيت رجلًا عجوزًا يعاني من مرض عضال أشبه ما يكون بالجذام في حالة سيئة، وكان عدائيًّا. أخبرني أنه لم يعد يحتمل العيش في القرية لذلك تم عزله حتى يحين أجله، ويرتاح إلى الأبد مما يعاني. شعرت فعلًا بأن هذا هو الوقت الذي أحتاج فيه إلى الشجاعة والمساعدة، ومن خلال قراءتي المستمرة حفظت غيبًا المزمور المئة والحادي والعشرين من سِفر المزامير(١)، فتمتمت الترنيمة السابعة كما لم أتمتم من قبل(٢). وفي صباح الغد استيقظت مبكرًا

(١) أحد أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس لليهود والنصارى.

(٢) نص المزمور المئة والحادي والعشرون: =

انتظارًا لما سوف يأتي به هذا اليوم، لكن لم يقترب مني أحد، ولم أعد أعرف أين أمتعتي وكل ما كان معي هو إنجيل الجيب، وكل ما قرأت ذلك المزمور. قبيل الظهر رأيت عددًا من الرجال مع الشيخ العجوز الذي كان اسمه خويخان [المذهن]، وكانوا يمرون أمام الخيمة وتبعتهم دون أن يلحظ ذلك أحد. وجلسوا يتحدثون دون إدراك قربي منهم وسماعي حديثهم. خرجت من الحديث بينهم بثلاثة أشياء: أولًا: إعداد قافلة تتجه إلى الجوف في يوم الجمعة القادم، وكان اليوم الأربعاء عندما اجتمعوا. ثانيًا: الشيخ العجوز سيرأس القافلة شخصيًا. ثالثًا: المجموعتان اللتان غادرتا كاف قد تأخرتا لسبب أو لآخر، وقد تقرر قيامهما مع هذه القافلة المقترحة يوم الجمعة.

لقد شعرت بالسرور لسماع هذه الأفكار، وقررت الحديث مع الشيخ ومواجهته بما سمعت. وبعد ابتعاد الرجال تبعت خويخان، وتحدثت معه قائلًا: «أنت ذاهب إلى الجوف، فهل تأخذني معك؟». نظر إلي باستغراب وقال: «لن تغادر هذا المكان حيًّا، وإذا قدر لك ذلك ووصلت الجوف ستقتل هناك بكل تأكيد. إن هذه بلاد المسلمين. ولا ينبغي لنصراني أن يأتيها، أنت من أعدائنا وأعداء الله». فرددت عليه: «سأدفع لك لتأخذني معك، وأنا مستعد لمقابلة الجوف ومخاطرها». وكان جوابه: «وهل تعرف كم تبعد الجوف؟ إنها على مسافة عشرة أيام، إن الرحلة عبر الصحراء، وأخطار قطاع الطرق، والجوع، والعطش، والإرهاق، كلها عوامل ستعصف بحياتك». أكدت له ثانية أني مستعد لمقابلة كل ذلك، وسألته: «كم تطلب من المال لتأخذني معك؟ لتأخذني في رحلة الأيام العشرة، وفي رحلة العودة، وتجهز لي جملًا، ومؤونة الرحلة، وتساعدني ما وسعك في أثناء وجودي في الجوف؟» كانت إجابته مختصرة وحاسمة عندما قال: «جنيهان إنجليزيان في اليوم الواحد»، وهي

= «١ أَرْفَعُ عَيْنَيَّ إِلَى الْجِبَالِ، مِنْ حَيْثُ يَأْتِي عَوْنِي! ٢ مَعُونَتِي مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ، صَانِعِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. ٣ لاَ يَدَعُ رِجْلَكَ تَزِلُّ. لاَ يَنْعَسُ حَافِظُكَ. ٤ إِنَّهُ لاَ يَنْعَسُ وَلاَ يَنَامُ حَافِظُ إِسْرَائِيلَ. ٥ الرَّبُّ حَافِظُكَ. الرَّبُّ ظِلٌّ لَكَ عَنْ يَدِكَ الْيُمْنَى. ٦ لاَ تَضْرِبُكَ الشَّمْسُ فِي النَّهَارِ، وَلاَ الْقَمَرُ فِي اللَّيْلِ. ٧ الرَّبُّ يَحْفَظُكَ مِنْ كُلِّ شَرّ. يَحْفَظُ نَفْسَكَ. ٨ الرَّبُّ يَحْفَظُ خُرُوجَكَ وَدُخُولَكَ مِنَ الآنَ وَإِلَى الدَّهْرِ.

تعادل عشرة دولارات أمريكية. وإذا ما حسبنا ذلك على أساس عشرة أيام ذهابًا وعشرة أيام إيابًا، وإذا أضفنا إليها خمسة عشر يومًا للإقامة، فسيكون مجموعها خمسة وثلاثين يومًا، ويصبح المبلغ سبعين قطعة ذهبية إنجليزية، وعليه سوف آخذك معي إذا دفعتها»، لكنني أخبرته أن هذا مستحيل والمبلغ أكثر بكثير مما أملك وعليه أن يخفض المبلغ. ثم قال: «إذا لم يكن لديك المبلغ فعد من حيث أتيت». وعليه عدت إلى الخيمة المعزولة. لقد كنت في غاية التأثر عندما أمرني الله أن آتي إلى إثرة في الوقت الذي جئت به. فأن تجد رجلًا مثل خويخان على وشك الانطلاق ليقود قافلة إلى الجوف، لقدر من الإله، كما هو الأمر بشأن الجماعات التي رأيتها في كاف وتأخرت في إثرة. لقد شعرت بأنه يتعين عليّ الآن أن أعمل شيئًا، وعندما عدت إلى الخيمة بدأت بالصلاة والتأمل واهتديت إلى أن أقدم مالًا للشيخ، لكن ليس بمقدار ما يتوقع. كان لدي قطع ذهبية فرنسية تساوي الواحدة منها أربعة دولارات، وكنت أخبئها في أحزمة سراويلي، وبعد استخراج أربعة منها ذهبت للشيخ، وعندما وجدته وحيدًا في القهوة دفعت نحوه بالقطع الذهبية قائلًا: «إذا سمحت لي بالذهاب معك إلى الجوف، وهيأت لي جملًا ومؤونة، سأدفع لك هذه القطع الذهبية الأربع». نظر الشيخ إليها ثم وجه نظره نحوي قائلًا: «أعطني هذه النقود الآن، وسنبدأ الرحلة بعد غد». فقلت له: «لا، تعال معي إلى الخارج، وسأعطيك هذه القطع أمام الجميع ليكونوا شهودًا على اتفاقنا». لقد خشيت أن ينكر المبلغ، وبالفعل خرجنا وفي حضور رجال إثرة أعطيته المال، وأجريت معه الاتفاق. وقد سمح لي في تلك الليلة بالنوم في غرفة الضيوف، وكان يقبع بجانبي جمل، وبالجانب الآخر حصان، وكنت أخشى أن يدوس عليّ الحصان وأنا نائم على الأرض. على أي حال نمت نومًا هادئًا، وفي الصباح استيقظت لأجد المكان خاليًا.

ذهبت إلى ينبوع الماء القريب واغتسلت وكان ذلك أول اغتسال لي منذ عدة أيام، ثم ذهبت بحثًا عن الرجال والتقيت بامرأة اتضح لي أنها امرأة خويخان، وكانت كريمة فدعتني إلى منزلها، ودخلت فقدمت لي تمرًا وخبزًا

ساخنًا ولبنًا حامضًا، ونلتُ بذلك إفطارًا سخيًّا. ولقد تحدثت المرأة معي حديثًا طويلًا، وأبدت تعاطفًا وشفقة عليّ، لأنها تعتقد أنني هربت من أهلي وعشيرتي وجئت لأحتمي بالعرب. وقالت لي: «أخبرني ما الجريمة التي ارتكبتها؟ أو من قتلت؟ ما الذي اضطرك إلى الهرب؟» وأخبرتها بالسبب الحقيقي لقدومي إلى إقليم الصحراء العربية، لكن المسكينة لم تصدق أن رجلًا يترك زوجته وأطفاله ووطنه ليعيش مثل هذه العيشة، ويعاني مثل هذه المعاناة ليحدث الناس عن المسيح المخلّص. سألتها عن الرحلة المزمعة، فأخبرتني أن زوجها يقوم بمثل هذه الرحلة مرة كل عام، وقد آن أوانها. إنه يجبي الضرائب السنوية من هذا الإقليم ويحملها إلى شيخ الجوف الذي بدوره يرسلها إلى العاصمة حائل، وقالت: «إن الرجال المسافرين معه ملعونون»، لكن لن يصيبني منهم أذًى مادمت في وجه خويخان، وتحدثت معها عن نفسها فردت كالمعتاد: «نحن النساء لسنا أفضل من جمالنا وحميرنا، ليست لنا قيمة حتى ندفن في قبورنا». علمت أن الرحلة ستبدأ قريبًا فلم أهتم كثيرًا بالأمر.

سمعت أذان الظهر فعدت إلى المنزل وبعد الانتهاء من الصلاة سمعت هرجًا ومرجًا، وأقبل رجل يقود جملًا قائلًا: «ضع أمتعتك على ظهره بسرعة، لأن القافلة ستتحرك الآن». وضعت أمتعتي وقفزت فوق سنام الجمل خارجًا من القرية. التقيت الشيخ الذي أمر أحد رجاله بإعطائي عصًا لأهش بها على راحلتي، لتوجيهها لعدم وجود مقود أو لجام لها. انزلقت أمتعتي من على ظهر الجمل، وانزلقت أنا أيضًا ونحن في بداية الرحلة إذ لم يحكموا رباطها، فأرسل الشيخ إليّ رجالًا لربطها جيدًا، ولحقت بالقافلة. كان تعداد القافلة، حسب تقديري، مئة وعشرين جملًا ونحو ثمانين رجلًا. كان بعضهم يبدو شرسًا لا يخلو من غلظة، وقد تجمعوا حولي بخناجرهم وبنادقهم مرددين الألفاظ العدائية عن المسيحيين. هدد بعضهم بأنه يجب ألا أصل الجوف وأنا على قيد الحياة، وإنهم سوف يتركونني جثة هامدة على الرمال. وبدؤوا بتمجيد دينهم طالبين مني ضرورة تغيير ديني إذا أردت العيش في بلادهم. إن بداية رحلة الجوف لم تكن مشجعة ولا مطمئنة من منظور إنساني، لكن إيماني كان قويًّا بأن الله معي، وما أبرمته من اتفاق، وما أعددته للرحلة لقاء أجر زهيد، جعلني

أعتقد بأن كل شيء سوف يتم على خير ما يرام. لم أتجاهل المخاطر التي كانت ماثلة أمامي، لكنني اعتمدت على وعدهم بألا يعتدوا عليَّ. لقد غادرنا قرية إثرة نحو الساعة الواحدة بعد الظهر، وسرنا حتى غروب الشمس. وقبل الخامسة صاح أحدهم: «انظروا إلى الخلف»، وبالفعل كانت هناك جماعة من البدو تجري بسرعة نحونا وكانوا مجموعة شرسة من قطاع الطرق. فجمعت الإبل في مكان واحد، وأُنيخت لتكون ساترًا للرجال، وجاءني الرئيس ليقول: «لأنك معنا تحدث لنا مثل هذه المشاكل وفي اليوم الأول لرحلتنا». وأمرني بأن أنبطح أرضًا وأتخذ لي ساترًا بين الإبل، حيث كان يخشى أن تصيبني رصاصة، لأن قطاع الطرق بدؤوا بإطلاق النار. لم أهتم لذلك ولم أقبل أن أعمل باقتراحه وأخبرته بذلك لأنني رأيته وضعًا غير محترم. وأكد لي أنه يخشى أن أُقتل ولعن اليوم الذي رآني فيه. لقد نشبت معركة مثيرة بين رجالنا في القافلة والأعداء، وأظهر بعض رجالنا مهارة فائقة، هنأتهم عليها لاحقًا، وكسبت صداقتهم بعد ذلك. وتقهقر قطاع الطرق وولوا الأدبار. وصدرت الأوامر بأن نقضي الليل حيث دارت المعركة. وكان عشائي من التمر والخبز الغليظ الدافئ، أكلته واستلقيت على الرمل ونمت. وظهر اللصوص مرة أخرى وصدوا ثانية.

في اليوم التالي، تحركنا باكرًا وبعد قليل من الوقت وصلنا إلى بئر ماء مالح، فملأنا منه القرب وتحركنا بسرعة. كنا دائمًا لا نطيل المكوث أمام موارد الماء، لأن وجود عرب آخرين غير ودودين قد يؤدي إلى الاحتكاك والعراك. ومعظم الخلافات الدامية بين البدو، سببها الماء والتنافس حول الآبار والينابيع. وفي تلك الليلة شربنا كل الماء الذي حملناه على أمل أن نجد بئرًا آخر في اليوم التالي، لكننا لم نجد مورد ماء لمدة خمسة أيام، فأصابنا الكثير من الظمأ. وفي مساء اليوم الخامس، شجعت الرجال على البحث عن الماء، وانتشروا في مختلف الاتجاهات وشوهد أحدهم يلوح بعباءته من فوق رأسه دليلًا على أنه نجح في العثور على ماء. وانطلقت الجمال إليه، وقمت بقيادة من تخلف وعندما أدركت مكان الماء رأيت عشرة من الرجال جاثمين على الأرض ينبشون في الرمل تمامًا، فسألتهم عن الماء، وجاء جوابهم: «انتظر قليلًا أنت رجل مدن لا تعرف شيئًا عن البرية، نحن أبناء الصحراء، ونعرف كيف

نتصرف». وبدؤوا يحفرون لعمق ثلاثة أقدام، ثم لخمسة أقدام ولم يظهر الماء، ثم وبدلًا من الرمل بدأت تظهر الحجارة، وبعدها ظهر السائل الذي لا يقدر بثمن وطال انتظارنا كلنا له. ظهر الماء، وأُسقي كل رجل جرعة ماء، ولشفقتهم عليّ أعطوني الجرعة الأولى لمعرفتهم أنني لا أقوى على مثل هذه الشدائد، وكان الماء يحمل إليّ في طواقيهم المتسخة التي لم تعرف الصابون منذ أن استعملت للمرة الأولى، ولم تتعرض للهواء النقي لأنها مشدودة على رؤوسهم ومغطاة بمنديل كبير يغطي كامل الرأس. ولم يكن هناك وقت لأي شيء، فقد كنا جميعًا عطشى، ولا سبيل للسؤال كيف حمل إليك الماء، أو في أي إناء؟ المهم أن يصل الماء إلى أفواهنا من منبعه وبأسرع وقت. أما كوبي وإنائي المنقوش الجميل الذي يتناسب مع هذا الموقف فقد سرقهما متلهف لجعل هذا النصراني مجردًا من أدواته النافعة، وتركه بلا حول ولا قوة. بعد أن شربنا الماء أعطونا التمر بدلًا عن الخبز، وتم إعداد العجين ووضعه على الجمر فوق الرمل[1] وعندما جهز تم تقسيمه. تكون حصتي من الجمري في بعض الأحيان، عندما تكون القسمة غير عادلة، صغيرة. وأذكر أنه في إحدى المرات تسلمت حصة صغيرة جدًّا، وعندئذٍ تذكرت أني أحتفظ في خرق الشداد ببقايا خبز حملته معي من عرمان منذ ستة عشر يومًا، وأخرجته بقصد أكله، لكنه كان يابسًا. ولمعرفتي بأن العرب لا يحبون رمي الخبز على الأرض بللته بالماء وأطعمته الجمل، وقد فعلت ذلك معتقدًا أن لا أحد رآني. وفي الصباح التالي، صنع الخبز ووزع على الجميع كالعادة ولم أعط شيئًا، ولم أطلب شيئًا، لأن هذا خلاف للعادة. وبدأنا يومًا آخر. أسفت على إعطائي الجمل ذلك الخبز الجاف إذ كان سينفعني إذ كنت جائعًا، وكان من الممكن أن أبله وأُسكت به نباح الجوع، لكن الأوان قد فات. لم يخطر ببالي أن إطعام الجمل ذلك الخبز الجاف سيحرمني من الخبز في اليوم التالي. لقد رآني بعض الرجال وأنا أبلل الخبز الجاف وأعطيه الجمل، وظنوا أنني رجل مبذر. أخبرت الشيخ بحقيقة القصة، لكنه اعتقد أنني أشارك الجمل من حصتي، وأبدد بذلك ما لديهم من

---

(١) يسمى هذا النوع من الخبز جمري.

دقيق في التصدق على الجمل. وحينما سألت صناع الخبز لماذا؟ كانت الإجابة: «إن النصراني يطعم جمله خبزًا، وهو رجل مبذر ولن نعطيه من خبزنا». حاولت شرح ذلك، لكنها غلطة يصعب غفرانها. تعلمت درسًا لن أنساه، ولن أنسى تلك الليلة التي أعقبت ذلك اليوم. أنخنا بالقرب من شجر نخيل بري وجيء بالماء من بئر قريب على بعد نصف الميل. كانت الريح شديدة طوال اليوم، وعند المغيب هبت ريح شمالية شرقية حركت الرمال في كل اتجاه، وأصبح إشعال النار مستحيلًا، لأن الريح تدفع بها في الاتجاهات الأربعة. وأقام الشيخ حاجزًا من أكياس القمح ليحمي النار، لكن خطته لم تفلح، ولم نجد فيها حماية إلا في الصباح، حيث قلت حركة الريح عند شروق الشمس، لكن شعرت ببرد شديد، وبدأت أمشي لأحس بالدفء، ومشيت لمدة ساعتين. لقد كنا في آخر مرحلة من رحلتنا، والكل كان متلهفًا الوصول إلى الجوف. كان كل شيء يسير على ما يرام لولا تعب الرحلة. كان سلوك الرجال نحوي قد تحسن كثيرًا، لكنهم لم يتركوا سانحة دون إخافتي بكوني مسيحيًا، وفي وضع خطر. لقد رأينا عظام جمال على الرمال، ومرتين رأينا هياكل بشرية. ذات يوم مررنا على جمجمة بشرية، فأراد الرجال أن يثيروا رهبتي، فقالوا: «إنها لنصراني مثلك غامر بدخول بلاد المسلمين فهلك في الصحراء، وتركت بقاياه عظة وعبرة لكل نصراني يحاول ذلك، وهكذا سيكون مصيرك». وكانت هذه هي الضمانات التي قدموها لي.

وفي الليلة الأخيرة؛ ونحن في الخلاء في طريقنا إلى الجوف، استيقظت قبل انبلاج الفجر، وقمت بغلي قليل من الماء لأصنع لي كأسًا من الشوربة قبل التحرك لاستئناف الرحلة. وفي ذلك الصباح، لم يفكر رجال القافلة في الطعام، لأن الرحلة أوشكت على الانتهاء. وبعد أن أخذت إبريق الشاي لأعلقه على شداد البعير اكتشفت أن به ماءً سعة كأس من الشاي وحانت لي فرصة لأغتسل أو أغسل وجهي ويديّ من الغبار العالق بهما. كنت أظن أن لا أحد يلاحظني ولكن كل العيون كانت تنظر إليّ. وحينما طلبت شربة ماء بعد مدة من هذه الحادثة قالوا: «إنك تستعمل ماء الشرب للاغتسال، فلا حاجة لك بها

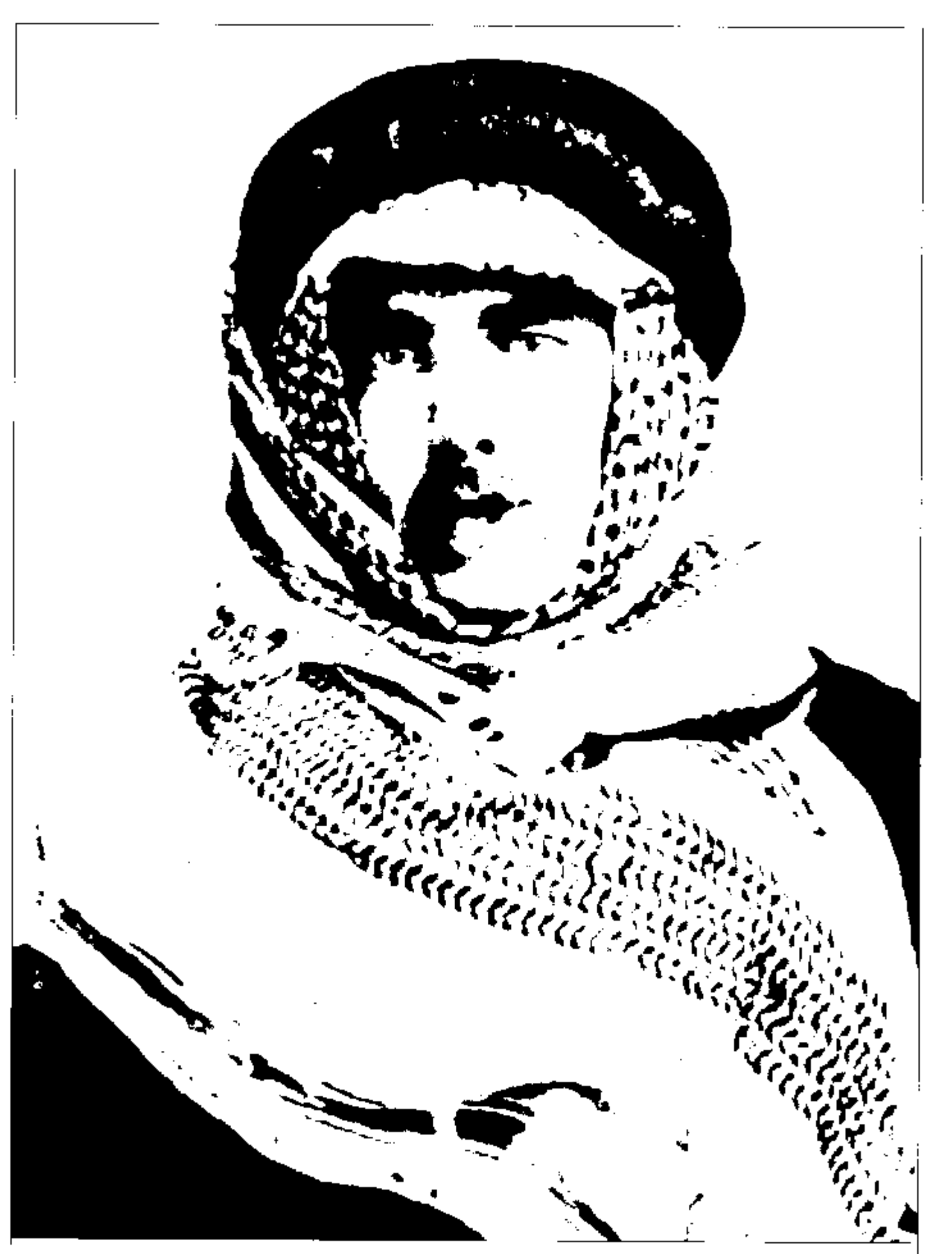
للشرب». وحاولت تفسير الأمر لكن بلا جدوى، لقد اقترفت إثمًا عظيمًا لا مغفرة له. وخلال وقت قصير رأيت الرجال يفرغون قرب الماء ويسكبونها على الرمال، إن ما سكبوه من ماء على الرمال قليل منه يروي ظمئي. وعلى مدى النظر بدأت تلوح نخيل الجوف وخلفها القلعة الدائرية القديمة[١]، التي لا يعرف عمرها أحد والتي مُنعت من الاقتراب منها لاحقًا لعدة أسباب.

في نحو الساعة الرابعة، دخلنا هذه الواحة المعزولة في الصحراء المحيطة بها من كل جانب، واستضافونا في غرفة الضيوف الواسعة التابعة لأبناء شيخ الجوف الثلاثة، الذي كان يسمى جوهرًا أو أبا عنبر. حال أن شاهدنا القلاع القديمة، رأيت عددًا من الرجال والنساء والأطفال حضروا لاستقبال أقربائهم وأصدقائهم، الذين وصلوا بعد رحلة عبر الصحراء تعرضوا فيها للتعب والمخاطر. لبعض الوقت، تركز اهتمام المستقبلين في السلام والترحيب بأقربائهم وأصدقائهم، الذين غابوا عنهم طويلًا، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن بين العائدين رجلًا غريبًا لم يرحب به أحد. لقد سمعت بعض العبارات الموجهة لي أمثال: «لعنه الله»، «عدو الله والنبي»، «نجانا الله منه». «الكافر النجس»، وكانت من مختلف الطبقات لاسيما من النساء والأطفال.

لقد كنت مهتمًّا بالأبراج القديمة المبنية من الطين، التي رأيتها في كل الأنحاء عندما دخلت الجوف من الشمال. وأخيرًا علمت أنها شيدت للدفاع عن البلدة. لقد كان من الصعب التقاط صور لها، لأنني كنت مراقبًا بانتظام. لقد ركبنا وسرنا على طول الواحة الصحراوية الجميلة، وقد لفت انتباهي وإعجابي منظر آلاف النخيل الجميلة المزدهرة.

تمتد بلدة الجوف لميلين طولًا ونصف الميل في العرض. والمنازل معظمها محتجبة خلف النخيل الأمر الذي يعطيك انطباعًا أن الجوف قليلة السكان، لكنني علمت من الشيخ مؤخرًا أن الجوف يسكنها أربعون ألف نسمة. والدور مشيدة من الطين والطوب الرملي المجفف عدا القلعة. وبعض

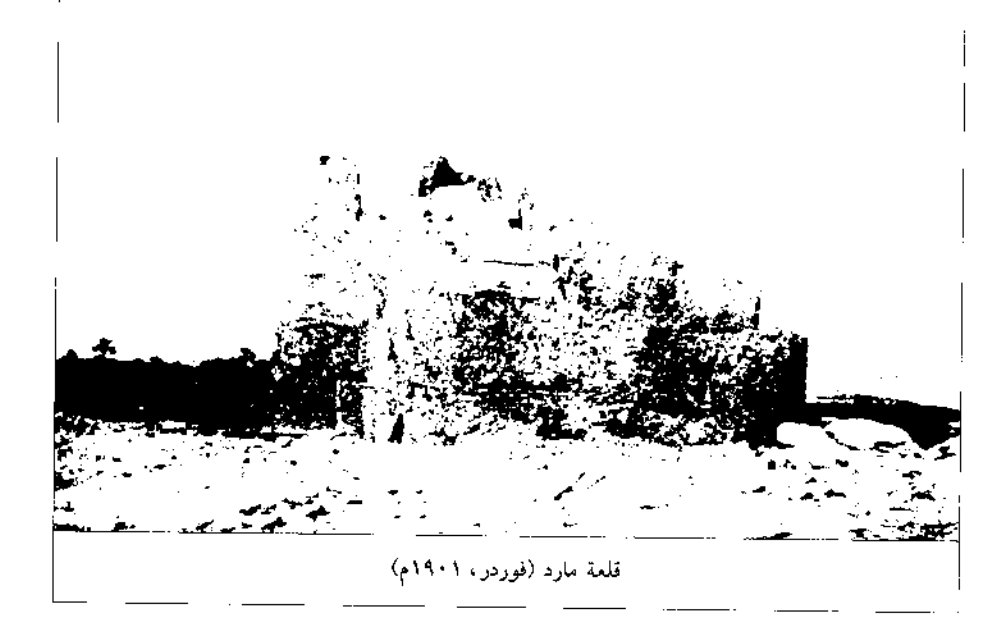
(١) قلعة مارد التي سبق ذكرها في ثنايا الفصول السابقة من هذا العمل.



أرتشيبالد فوردر



محمد البادي مضيف فوردر في قرية كاف



قلعة مارد (فوردر، ١٩٠١م)



قصر خزام (فوردر، ١٩٠١م)



رجال من الجوف (فوردر، ١٩٠١م)

المنازل مكونة من ثلاثة أدوار ومبنية بالطبع بطريقة بدائية، وكل السقوف مسطحة ومحمية بجدران قصيرة. غالبًا ما تبقى النساء في حماية هذه الأسطح بعيدات عن أعين الناس، أما داخل البيوت فلا تجد إلا الهاون الذي يسحن فيه البن، وحصيرة أو حصيرتين قديمتين، وكل المنازل بلا أبواب لندرة وجود الأخشاب. ويعيش الناس في الغالب الأعم خارج المنازل، وفي فصل الصيف حيث ترتفع درجة الحرارة يبحثون عن ظل تحت شجرة نخل أو مجموعة من أشجار النخيل، وفي الشتاء والبرد تراهم يسعون للدفء تحت أشعة الشمس.

إن الأمطار نادرة في الجوف. وأخبروني أنها تهطل ثلاث مرات في العام. أما الماء فجيد، لأنه يسحب من ينبوع عميق في الأرض. وهناك ينابيع كبريتية دافئة يستعملها الناس لأغراض الاغتسال والوضوء. ولم أر حانوتًا واحدًا في البلدة، وعندما سألت كيف يحصل الناس على حاجاتهم الضرورية مثل الملابس، أدوات الطبخ، القهوة... إلخ؟ أجابوني بأنهم يعتمدون على القوافل القادمة من مكة وبغداد ودمشق.يصنع الرجال في الجوف عباءاتهم بمغازلهم العتيقة، ويعرضون الفائض عن حاجتهم في السوق. لقد اشتريت عباءة بثلاثة دولارات ونصف الدولار. إن عباءات الجوف مرغوبة ولها سوق في فلسطين وسورية. كما رأيت الرجال يصنعون العقال، وقد أثار اهتمامي كثيرًا بساطة ودقة الأسلوب الذي يصنعونه به. كما أن عمل خروج السروج والسجاد هو من ضمن الصناعات اليدوية بالجوف. إن الأكل الشعبي هو البلح والتمن، والتمن عبارة عن الشعير أو نوع من الحبوب أقل جودة من الأرز. الخبز يعدّ ترفًا ولا يأكله إلا عليةُ القوم، وحتى أولئك لا يأكلونه كل يوم. وهناك نوع من الخبز من دقيق يستخرج من حبوب صغيرة في حجم حبات الرمل، ولونها أحمر داكن، واسم هذه الحبوب «سمح»، وطعم هذا الخبز رديء. والناس هنا محظوظون لتوافر الفاكهة في هذا المكان، فبجانب البلح بأنواعه، لديهم العنب، والمشمش، والخوخ، والبطيخ، والطماطم، والخيار، والأترنج، والفاصوليا، والقرع وأنواع كثيرة أخرى لا أجد لها أسماء في اللغة الإنجليزية. ومثل كل المدن الشرقية لا توجد وسائل صحية، وكان المشروب

الوحيد لأهل الجوف هو القهوة، أما المسكرات فلا تعرف هنا وأتمنى دوام هذه الحال. عدد كبير من الرجال يدخنون. وعدد كبير من الرجال والصبيان يجيدون القراءة بطلاقة، وعدد كبير منهم يمتلك ساعات؛ أما جهلهم بشؤون العالم الخارجي فقد أدهشني. فعدم وجود البريد والبرق والصحف والسكة الحديد جعلتهم في عزلة تامة. إن حكومة الجوف وإثرة وكاف خاضعة لعبدالعزيز بن رشيد[1]، الذي يقيم في حائل، وهي مدينة تبعد مسافة ستة أيام عن الجوف. يمثل الحاكم في الجوف رجلًا متنفذًا هو جوهر، وقد سمعت به منذ سنوات. إن جوهرًا رجل عادل، ومتحرر، ومتفتح القلب والعقل، وحازم، وكان يخشاه كل من تعامل معه أو عرفه. وهو أيضًا مسؤول عن الضرائب واستقامة الأمور في مدينة أخرى تسمى سكاكة على بعد ست ساعات شرق الجوف وبعض أخبارها تقول إنها في حجم الجوف ومزدهرة مثلها تمامًا. ولم تساعدني الظروف على زيارة هذه المدينة وكم وددت لو أمكنني ذلك.وبعد أن قدمت مدينة الجوف وسكانها للقارئ باختصار، سأعود إلى قصتي.

أخذ طريقنا منحًى حادًّا ولاحت قلعة جوهر، ذات الأبراج الطويلة الأربعة على أركانها الخارجية. توزع أفراد قافلتنا إلى كل الاتجاهات، وكنت أركب خلف الشيخ خويخان عندما أشار إلى القلعة قائلًا: «إنها سكن الشيخ جوهر هنا». واصلنا السير وأنا أتبعه إلى أن انتهى سيرنا إلى ميدان مربع يجلس به عدد من الرجال يستمتعون بأشعة الشمس، وبالقرب من الميدان، يوجد منزل كبير. ترجلنا وسط عاصفة من الترحيب بقائدنا، ولم يهتم بي أحد أو يوجه لي سلامًا أو ترحيبًا، ودعونا للدخول والجلوس، وكنت مثار الدهشة والتعليق، وأخذ كل واحد يسأل: «ماذا يريد هذا النصراني هنا؟»، والتزمت الصمت بينما تصدى لهم الشيخ وأجاب عن أسئلتهم حولي بطريقته الخاصة، ولم يكن صادقًا بعض الأحيان في بعض ما قال على أية حال. ولما كان الشهر

---

(١) عبدالعزيز بن متعب بن عبدالله الرشيد (١٨٥٧ - ١٩٠٦)، تولى حكم إمارة حائل سنة ١٨٩٧ خلفًا لعمه الأمير محمد بن عبدالله الرشيد. تميز عهده بمعاركه العسكرية نصرًا وهزيمة للمحافظة على حدود الإمارة، وقد قضى في إحداها وهي معركة روضة مهنا سنة ١٩٠٦ التي خسرها أمام قوات الإمام عبدالعزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود.

هو رمضان فلم يقدم لنا شيء، ولم يقم أحد بصنع القهوة أو يقدم طعامًا، ولم نجلس طويلًا حتى أقبل رجل وقال لقد سمع جوهر بخبر وصول القافلة وهو في طريقه إليكم. وبعد قليل ظهر جوهر يرافقه ستة أو ثمانية من حراسه، وبدا زنجيًّا قصيرًا ضخم البنية، يرتدي ثوبًا متعدد الألوان، ويحمل في يده سوطًا. قمنا كلنا احترامًا له، ثم أخذ صدارة المجلس في مقدمة الغرفة الواسعة. ثم دعا الشيخ خويخان ليجلس إلى يمينه ودعاني أنا لأجلس إلى يساره. وتبادل الجالسون التحيات، وطرحت بعض الأسئلة ثم التفت جوهر إليّ ليقول: «أأنت نصراني»؟

فأجبته: «نعم»

- «ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

- «لكي أرى الجوف وأهلها ولأبيع كتاب الله لمن يرغب».

- «ألستَ خائفًا من الناس أو مني؟»

- «لا، لأنني أؤمن بأن الله سيحفظني. ولأنني تحت حمايتك فلن يصيبني ضرر».

- «هل سمعت عني من قبل؟»

- «نعم، في الكرك. لقد سمعت عنك مرارًا من بدو من الجوف جاؤوا لشراء الحبوب. واسمك له وقع طيب في كل مكان، وأنا سعيد أنني هنا في الجوف وتحت حمايتك».

- «إنني أخشى أن تقتل إذا تجولت هنا لوحدك. إن الناس هنا يكرهونكم وربما آذوك».

- «سأكون حذرًا، ولن أتجول بعيدًا عن المنازل».

ثم أمر جوهر أحد أتباعه ليحضر تمرًا من أجود الأنواع لي، وقال لي: «نحن صائمون ولن نأكل الآن. لابد أنك جائع لا تخجل من ذلك، كُل، وكل واحد على دينه». كان البلح أمامي يكفي عشرين رجلًا. ترددت، فالكل صائم، وقلت: «لن آكل إلا في المساء مثلكم، مثلكم تمامًا. وأستطيع أن أصبر حتى غروب الشمس»، لكنه أصر عليّ فأكلت قليلًا من التمر. وبينما كنت آكل البلح

نهض جوهر وخرج وكان يتبعه ابنه الأكبر وكان اسمه فالح، ومرافقوه. استُدْعيت إلى خارج الغرفة وهناك خاطبني فالح، وأشهد أنه شاب لطيف، طيب القلب في نحو الخامسة والعشرين من العمر، وقال لي: لقد قال والدي «ينبغي ألا تجلس مع الناس في غرفة الضيوف لأنك لست طاهرًا. لابد من إعداد مكان صغير لك قريب من هنا، حيث تجلس وتنام وسوف يُرسل إليك ثلاثة رجال ليرافقوك عندما تخرج من غرفتك وسيلازمك واحد منهم ويقيم معك في الغرفة». وأراني مكانًا صغيرًا مجاورًا لغرفة الضيافة، وكان المكان بطول اثنتي عشرة قدمًا طولًا وأربع أقدام عرضًا، وسبع أقدام ارتفاعًا، والمدخل إليها يبلغ ارتفاعه أربع أقدام، وغير متناسق. ولها باب بلا قفل يحميني من فضول الناس ليلًا ونهارًا. أرضية الغرفة التي كان من المفروض أن أنام عليها، مبلطة بأحجار كبيرة يربط بين حوافها ملاط طيني. لا هواء ولا ضوء يدخل إليها إلا عن طريق الباب، ويظلل المدخل ويزيده ظلامًا وجود درج فوقه يوصل إلى غرفة فوقية يسكنها الابن الأصغر للشيخ جوهر. لقد نقلت جميع أمتعتي إلى الداخل ووُضعت حيثما اتُّفق. كان المكان متسخًا لأنه يستخدم إصطبلًا للخيل، ومستودعًا للمخلفات. وكنت شاكرًا لهذا السكن المنفصل والمستقل، ورغم أنه ليس ما تمنيت، إلا أنه أتاح لي قدرًا من الخصوصية، وقدرة على أداء صلواتي وتأملاتي دون أن أكون محاطًا بعدد من الفضوليين، وأصبح الليل ملكي أقضيه كيفما شئت. لقد أنقذني هذا الوضع الجديد من بعض الأعمال غير المستحبة، التي كنت أقوم بها ليلًا وصباحًا لكي أنظف ملابسي من تلك الحشرات الصغيرة [القمل] التي تترعرع في الأجسام وتنتقل بسرعة من شخص إلى آخر بحثًا عن شيء تمتصه.

على الرغم من عزلتي هذه، فقد كان لي نصيب في استقبال بعض الزوار، ودُعيت إلى تناول طعام العشاء في بيت الضيافة والتهمت ما قدم لي، لأنني كنت جائعًا ولم أذق طعامًا طيلة يوم كامل، وعلى الرغم من تعليمات جوهر دُعيت للجلوس مع الجالسين حول النار واحتساء القهوة معهم.في صباح اليوم التالي، استيقظت مبكرًا، وقضيت وقتًا عند عين ماء دافئ أغسل ملابسي. جذب منظر الصابون بعضًا من الناس فانضموا إليّ وأخذوا يغسلون أيديهم

ورؤوسهم، لذلك انتهى الصابون الذي كان معي بسرعة. بعد أن تناولت طعام الإفطار بأكل بعض البلح من صحن كبير مليء بالتمر وضع في غرفتي لآكل منه كلما احتجت إلى ذلك. فكرت في زيارة جوهر في حصنه، فليس هناك حراس حول المبنى، ولا يحتمل أن تكون هناك امرأة في طريقي، ولذلك عزمت وتحركت وبعد ربع الساعة وصلت إلى السور الخارجي للحصن ودرت حوله باحثًا عن مدخله، وفجأة وفي جانبه الجنوبي وجدت جوهرًا وهو يعقد مجلسه اليومي. وكان يجلس فوق منصة على ارتفاع ثلاث أقدام، وبجانبه كاتبه، وأمامه في حلقة شبه مكتملة، جلس عدد من الرجال يستمعون إلى القضايا المختلفة التي تقدم له ليصدر حكمه فيها. وعندما رآني استدعاني لأجلس إلى جانبه. وفرغ من القضية التي كان ينظر فيها والتفت إليَّ قائلًا:

- «هل أتيت وحدك إلى هنا؟»

- «نعم».

- «ألم تكن خائفًا؟»

- «لا».

- «ألا تخاف من أحد؟»

- «نعم، أخاف الله وأخاف الشيطان» - (وهذه عبارة شائعة بينهم).

- «ألا تخاف مني؟»

- «لا».

- «لكن في استطاعتي قطع رأسك».

- «أعرف ذلك، لكنك لن تفعل ذلك بضيفك».

- «لا، لن أفعل ذلك، لكنني كنت سأفعل - والتفت إلى خويخان - لولا أنه جاء بك إلى هنا وجاء معك، وهو صديق عزيز وقديم لنا».

ثم استدعى أحد الحراس، وطلب منه أن يرافقني إلى المنزل الذي سوف أقيم فيه. وأوصاه بعمل الخبز لي وألا أنام وأنا جائع و«لا تدعه يخرج بمفرده» هكذا صاح به ونحن نغادر.

لقد أمضيت ساعات مع مرافقي في هدوء. وكنت أقرأ وأكتب في مذكراتي، وبعد ذلك منعت منعًا باتًّا من الكتابة، وأخبروني بأن جوهرًا في طريقه إلينا. وما هي إلا لحظات حتى وصل جوهر ومعه عدد كبير ازدحمت بهم غرفة الضيافة الكبيرة، واستدعوني لأمثل أمامه. ووجه جوهر أسئلة لي عن بلادي وعن ديننا وأجبته عن تساؤلاته. ثم قال جوهر إنه يريد أن يرى الكتاب المقدس الذي أحمله معي. ودخلت غرفتي وأتيته بإنجيل عربي كبير غلف بغلاف مزركش في مراكش. لقد جئت بهذا الكتاب له لكنني لم أرغب في فرضه عليه. رفعنا التجليد عنه فاستلمه وقبله وتفحصه من الخارج، وذكر أنه كتاب جميل، وفتحه ووضع نظارة عتيقة على عينيه، وبدأ يقرأ في سِفْر التَّكْوِينِ[1]، الإصحاح الرابع والعشرين[2]. قرأ كل هذا الفصل ثم قفله، وطلب مني الكتاب. قلت له: «عليك أن تشتريه، وثمنه يساوي جنيهًا إنجليزيًّا أو خمسة دولارات، وسأبيعه لك بنصف هذه القيمة». وقال: «دع هذا الأمر إلى الغد»، وأضاف: «اسمع أيها النصراني أريد أن أتحدث إليك». فقلت له: «حسنًا تحدث»، فقال: «لقد دخلت بلاد المسلمين المؤمنين بمحمد رسولًا من الله إليهم وهنا لا يوجد نصارى، ولا نسمح لهم بالإقامة هنا، ويأمرنا ديننا بقتلهم، ويحتّم عليّ واجبي أن أطلب منك أن تعتنق الإسلام، ماذا قلت؟» هنا أدركت أنني في مأزق حرج، فإذا أغضبت جوهرًا فربما تعرضت لخطر كبير، وأنا هنا وحيد ويفصل بيني وبين أي مسيحي آخر مئات الأميال عبر الصحراء. وكان لديّ شعور قوي بأن مثل هذا الموقف قد خطط مسبقًا.

مضى جوهر ليقول: «أحمد الله فقد أسلم على يدي ستة من المسيحيين الذين وفدوا إلى هذه البلاد في فترات متقطعة، أضف إليهم أحد اليهود، وفي الجوف رجل كان في الماضي مسيحيًّا، لكنه الآن أسلم لله واتبع دين الحق (هذه القصة الأخيرة كانت صحيحة وقابلت ذلك الرجل مرارًا بعد ذلك فخجل أن

---

(١) السفر الأول من أسفار التوراة، ويتناول قصة الخلق وقصص الأنبياء كما «أوحي بها» إلى النبي موسى عليه السلام.

(٢) يتناول هذا الإصحاح قصة عبد لإبراهيم عليه السلام.

يتحدث معي)، ردد الشهادة بعدي «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» وفي لحظة ستصبح مسلمًا مخلصًا، وسوف يتقبلك الله والناس من عباده هنا».

كان الجمع في انتظار إجابتي، وبعد مدة صمت قصيرة وبعد دعوة قلبية ليلهمني الله الإجابة، قلت: «أيها الشيخ جوهر سأسألك سؤالين وأسمع إجابتك». وقال جوهر: «حسنًا، تكلم». « السؤال الأول: لو كنت أنت في بلاد المسيحيين ضيفًا على الملكة، وطلبت منك أن تكون مسيحيًّا وتترك دينك، فهل تقبل؟».فقال جوهر: «لا، وحتى لو قُطع عنقي». و«السؤال الثاني: أيهما أفضل أن ترضي الله أم ترضي الإنسان؟». «أن ترضي الله»، كانت إجابته السريعة. ثم قلت له: «يا جوهر أنا في هذا الموقف مثلك تمامًا، لا أستطيع تغيير ديني حتى لو قطعت عنقي، ولو كنت أملك أكثر من عنق لابد أن أرضي الله وأبقى مسيحيًّا. إذا رددت شهادتكم سترضون كلكم عني، لكن لن تكون إلا من هنا - وأشرت إلى شفتي - وسيبقى قلبي مسيحيًّا، ولذلك إذا أرضيتكم سأغضب الله لأنني سأصبح كاذبًا ومخادعًا، لن أفعل ما طلبت مني. . . إنه المستحيل». نهض جوهر وانصرف غاضبًا. وتوجهت أنا إلى غرفتي، وكنت سعيدًا بذلك. لقد كان لقائي هذا مع جوهر أشبه بهجوم على روحي وليس على جسدي واستعدت بسرعة ما جاء في سِفر المزامير «إنه سيحفظ نفسك». وقد زارني الرجال مرارًا ذلك المساء وأشاروا إلى أنني لم أكن حكيمًا عندما رفضت طلب جوهر، «وغدًا يوم عيدنا الكبير، ودخولك في الإسلام كان سيزيد في بهجتنا». هذا ما قاله رجال زاروني في غرفتي.

سعدْت بدخول الليل لأنفرد بنفسي، وبالفعل صليت طلبًا للهداية وطلبت من الرب أن يساعدني في اليوم المقبل، واضطجعت على الحجارة لأنام وكنت في قلق، روحًا وجسدًا، ولم أكن في حالة طيبة.

في اليوم التالي وبعد انبلاج الفجر أيقظني رجلان مسلحان ودفعا باب غرفتي بقوة ففتحاه ودخلا قائلين لي: «انهض، أيها النصراني، فجوهر يطلبك،

تعال معنا إلى القصر بسرعة». و«ماذا يريد؟» سألتهما. و«ماهو الدليل على صدقكما وهل لديكما تفويض؟» فردا أنهما لا يعلمان شيئًا عما طلبت، لكن «سيوفنا تدل على أننا في مهمة رسمية».

لبست بسرعة وكنت أتساءل ماذا سيحدث؟، وقررت أن أكون هادئًا ولا أعرض نفسي للخطر، لأن الناس في هذه المناسبة يكونون أكثر حساسية وهم يحتفلون بأعيادهم وربما أثارهم مجرد وجودي بينهم، ولا بد من الحذر. تبعت الرجلين إلى القصر ورأيت أفواجًا من الناس متجهة نحوه من كل حدب وصوب، وحينما وصلنا المكان الذي سبق وأن التقيت فيه بجوهر. رأيته يجلس على منصة عالية، يرتدي ثيابًا متعددة الألوان، ومبتسمًا وهو يحييني بحرارة. وبادلته التحية المألوفة وهنأته بالمناسبة السعيدة. وكان سعيدًا بحضوري ومندهشًا لوجودي، وطلب مني أن أجلس إلى جواره.

كان هناك عشرات بل مئات من الرجال والأطفال يجلسون تحت أشعة الشمس على الرمال أمام جوهر. قال جوهر: «إن هذا يوم عيد عظيم لنا(عيد الفطر) وكنا في القلعة القديمة، وأقمنا صلاتنا هناك لماذا لم تأتِ لمشاهدة صلواتنا». فأجبته: «إننا نرى أنه لا يجوز النظر إلى المصلين بشيء من الفضول، لأن الصلوات عندنا أمر مقدس، ونحب فيها دائمًا أن نكون بمفردنا وفي سكينة تامة، وأعتقد أنكم لا ترغبون في أن آتي لمجرد المشاهدة والفضول»، وقد سُر جوهر بذلك فربت على ظهري، وقال: «أنتم أفضل منا ولا ينقصكم إلا الإيمان بالرسول كما نؤمن به». ثم طلب جوهر من الخدم تقديم الإفطار. وفتح باب الحصن الكبير على مصراعيه ورأيت مدفعًا صدئًا قديمًا. وظهر فجأة عدد من الرجال يحملون صحنًا دائريًّا كبيرًا قطره نحو أربعة أقدام مليئًا باللحم والتمن مطعمة بالبهارات والمرق. تم وضع هذا الصحن أمامي أنا وجوهر، وتبعه تسعة صحون أخرى ووضعت في شكل دائرة، وعندئذٍ طلب جوهر مني الجلوس أرضًا مثله تمامًا، فامتثلت لأمره واستدعى خويخان وآخرين ثم قال بصوت عالٍ «بسم الله» طالبًا من الجميع البدء بالأكل، وبدأ الرجال في التهام الوليمة. وكان لحم الجمل في قطع

كبيرة، لكنه بسرعة التهم واختفى. إن الكمية التي يلتهمها فرد واحد تدعو للغرابة. كان جوهر مهتمًّا بي ووضع أمامي قطعًا من اللحم ولاسيما الدسمة منها، والشهية التي يأتي بها من قطع في وسط الصحن، وكان يقول لي: «كل واشبع ولا تستحي». كان المنظر كافيًا ليشبع الإنسان، لكن كان عليّ أن آكل. وسررت عندما نهض جوهر وجلس ثانية في مقعده فتبعته بسرعة. وشاهدنا الجمع وهو يتدافع ليحظى كل بنصيبه من الوليمة. ولن أنسى ذلك المنظر، وكم تمنيت لو كان باستطاعتي التقاط صور له، لكن ذلك كان مستحيلًا. «انظر إلى هؤلاء المتوحشين مثل الكلاب، هل عندكم مثل هؤلاء في بلادكم أيها النصراني.» هكذا سأل جوهر، فرددت عليه: «لا»، وضحك. بعد أن أُفرغت الصحون ونظفت تمامًا أُعيدت إلى داخل القلعة، وانفض السامر. دخلت إلى القلعة لتناول القهوة مع الشيخ جوهر الذي استدعى أحد الحراس وطلب منه أن يذهب معي إلى غرفتي ويبقى معي خوفًا من اعتداء أحد عليّ. وعدنا أنا والحارس إلى بيتي. علمت أن جوهرًا ذبح ثلاثة جمال لهذه المناسبة، وأربعة أحمال من التمن تم طحنها كلها على نفقته، وهو يفعل ذلك كل سنة. ولقد بقينا داخل الغرفة لمدة ساعة. وقلت لمرافقي أريد التنزه في بساتين النخيل لبعض الوقت ولن ينتبه أحد لي، لأن الناس مشغولون بتهاني بعضهم في منازلهم. وتسللت وحيدًا إلى بساتين النخيل، واغتنمت فرصة الهدوء فاستعملت الكاميرا.

بعد الظهر، جاء جوهر إلى منزل الضيافة، وبينما كنت في بساتين النخيل جاء رجل ليبلغني بحضور جوهر، وأنه يستدعيني. وأسرعت بالرجوع إلى منزل الضيافة، ووجدت الغرفة الكبيرة مكتظة بالناس، وطلب مني الجلوس بالقرب من جوهر، وكان الكل صامتًا... وعندها خاطبني جوهر قائلًا: أيها النصراني ما طلبته منك بالأمس كان صعبًا، وأكيد أن هناك أشياء جعلت قبولك الإسلام أمرًا غير يسير، لكنني أريد مساعدتك: «هل أنت متزوج؟»، فأجبته «نعم». و«هل لديك أطفال»؟ فأجبته «نعم، ثلاثة». وسألني و«هل لديك نقود»؟ فأجبته: «لا». وسألني: و«هل تعمل بالتجارة أو لديك دكان؟»، فأجبته: «لا، لكن الله يرسل إليّ ما أحتاج». ثم قال جوهر: اسمع: إذا أصبحت مسلمًا سوف

أزوّجك أربع زوجات بدلًا من زوجتك الواحدة، وسيكون لك أبناء أكثر من ثلاثة وبأسرع فرصة ممكنة. وسأعطيك جمالًا ونخيلًا لتتاجر بها وتصبح بعد مدة وجيزة رجلًا ثريًّا. وسنعطيك منزلًا وكل ما تحتاجه، إذا أصبحت مسلمًا مثلنا». شكرته على عرضه السخي، وأكدت له أنني لن أغير ديني مهما منحني. ونهض جوهر مسرعًا نحو قلعته وهو يتمتم: «إن يوم حلوله بيننا هو يوم نحس، وإذا بقي في الجوف سيحل بنا مكروه». وفي ذلك المساء أرسل جوهر لي ابنه طالبًا الإنجيل الذي رآه عندي، وأرسلته إليه.

وفي صباح اليوم التالي أرسل جوهر رجلين ليقولا لي: «لقد أرسلنا جوهر لنقول لك لا بد لك من مغادرة الجوف فورًا، لا ينبغي لك أن تقيم هنا، وسوف يحدث لنا ضرر إذا بقيت بيننا». وكانت إجابتي: «كل احترامي لجوهر، وأرجو أن تبلغوه بأنني لن أغادر الجوف وحيدًا دون مرافق، وعندما يعزم خويخان على الرحيل فسأرحل معه، لأنني قد دفعت له مصاريف العودة، ولهذا السبب لا أستطيع الرجوع مع أي شخص آخر». وذهب الرجلان وأخبراه بما قلت وعادا ليقولا لي: «إن جوهرًا يطلب أن تغادر فورًا، ولا يمكنك البقاء هنا». فقلت لهما: «اذهبا إلى جوهر وقولا له: إذا أردت أن أغادر الجوف بمثل هذه السرعة فأعطني جملًا ورجالًا يصلون بي إلى قرية إثرة، التي أتيت منها. وإذا لم يستحسن ذلك الطلب فسأنتظر عودة القافلة التي جئت معها». ذهبا إليه ثم عادا ليقولا: «يقول جوهر إنه يمكنك الانتظار على شرط ألا تغادر مكان سكنك، أو غرفتك، وإذا علم السلطان في عاصمته هناك بأنك هنا وتتصرف في منتهى الحرية، فإن جرهرًا سيكون عرضة للعقاب، لأنه سمح لك بالبقاء». وكان حديثهما بمثابة مواساة لي، لكنني شعرت بأنه لا بد من اتخاذ جانب الحذر.

بعد أيام قليلة من الأحداث، التي سجلتها سابقًا، وبينما كنت جالسًا حول النار في بيت الضيافة ومعي نحو عشرين رجلًا، جاء رجل دين متشدد وألقى خطبة دينية فيها روح عدائية للمسيحية، وذكر الرجل كل ما ورد في القرآن من أقوال معادية للمسيحيين. وذكر المستمعين بأن نبيهم طلب من

المؤمنين أن يبيدوا الكفار أينما وجدوهم، وكانت كل الخطبة موجهة ضدي ولم أُبد أي اهتمام. ذهب ذلك الواعظ إلى حال سبيله، وذهبت أنا إلى ركني المظلم وأديت صلاتي، وطلبت من الله المساعدة والهداية.وفي صباح اليوم التالي جاءني فالح الرجل ذو القلب الطيب، وقال لي: «لا تخف يا أبو جورج (جورج اسم ابني الأكبر) لن يحيق بك ضرر إذا كنت مستطيعًا رده، لا تستثر الناس عليك، بعضهم يحبك، وبعض الجهلة منهم يكرهك».

في ذلك اليوم، وفي أيام أخرى خلت، وزعت وبعت عددًا من كتبي للرجال والأولاد الذين أثبتوا أنهم يجيدون القراءة. وبعد الظهر جاءني فالح بثلاثة رجال قال إنهم من حائل العاصمة، وأنهم في طريق عودتهم، إلا أنهم يرغبون في أخذ الإنجيل معهم. فهل أعطي نسخة كل واحد منهم؟ لقد كنت مسرورًا لسماعي هذه الأنباء وسعيدًا لانتقال كلمة الرب إلى حائل، ولاسيما وأنني لن أستطيع الذهاب إليها. أخرجت ثلاث نسخ من الإنجيل من النوع الجيد في تغليفه، وأعطيتها للرجال الثلاثة، فغادروا المكان في طريقهم إلى حائل عاصمة وسط الجزيرة العربية.

في ذلك اليوم بعد الظهر، كنت في غرفتي وحيدًا، عندما حدثت واقعة كادت أن تعصف بحياتي، واقعة حركت أغلبية سكان الجوف ضدي.

لقد سبق أن ذكرت أن جوهرًا يسكن في قلعة تبعد مسافة قصيرة عن البلدة، في الطرف الجنوبي لها. وهذه القلعة مبنية من اللبن أو طوب من الطين والحجارة وللقلعة ثلاثة جدران، وعلى كل ركن من أركان الجدار الخارجي يوجد برج عالٍ يرتفع إلى أربعين قدمًا. وكانت الشقق التي يقيم فيها جوهر في وسط هذه الجدران. وكانت هذه الأبراج تستخدم للدفاع عن القلعة .

وفي صباح ذلك اليوم هطلت أمطار غزيرة صحبتها رياح تهب من الشرق. ذوبت الأمطار أحد أبراج القلعة، وأحالت الطوب إلى طين ما لبث أن انهار على الشقة التي كان بداخلها جوهر يقرأ القرآن. دفن حاكم الجوف الذي كان مهابًا داخل الأنقاض. سمعت صراخًا وعويلًا في الخارج فخرجت صوب

القلعة، وكنت في حيرة عما حدث، فسبَّبَ كل تلك الضجة في الجوف، وأخيرًا علمت بما حدث فآثرت البقاء في غرفتي.

لقد أُنقذ جوهر وأُخرج من تحت الأنقاض. واكتشفوا أن رجله مكسورة وبه جراح وكدمات شديدة. وبينما هو مسجًّى على الرمل في فناء قلعته علق واحد منهم قائلًا: «هذا هو النصراني وهذه هي أفعاله. لا بد أنه خرج وألقى نظرة على البرج فأصابه بالعين حتى سقط، إنها بداية شره». كانت هذه الكلمات عبارة عن الشرارة التي قدحت زناد البارود. بسرعة مذهلة صدق الناس هذه الرواية وإنني الفاعل، وارتفعت الصيحة: «اقتلوا النصراني... تعالوا لنقتل النصراني..» ووقفت على مدخل الميدان ورأيت جموعًا تتجه نحو ركن البيت وسمعتهم يصيحون: اقتلوه... اقتلوه.... النصراني.... النصراني، وكانوا يحملون العصيَّ، والخناجر، وبعض البنادق. وأخذوا يقتربون ولم أهرب، فالهروب معناه الموت، ومعناه أني فعلت شيئًا، وعندما كانوا على بعد ثمانين ياردة مني تدخلت العناية الإلهية، فجاء ثلاثة رجال واصطفوا أمامي وصرخوا على الجمهور ملوحين بمسدساتهم قائلين: «لا تقتربوا منه»، وتوقفت الجموع وساندني الرجال وأخذوني إلى غرفتي. ظل الرجال الثلاثة واقفين أمام باب بيتي وبدأ الجمهور بالانصراف، فأقبل عليّ الرجال الثلاثة الذين أنقذوني فشكرتهم على صنيعهم ومروءتهم وسألتهم ما الذي حملهم على الوقوف مني هذا الموقف. أجاب هؤلاء بالقول: «لقد كنا في الهند ورأينا المسيحيين هناك، ونعرف أنهم لا يضرون أحدًا؛ ورأينا أيضًا ما خلفته الإدارة البريطانية من آثار هناك، وفي مصر، وسنساعد النصارى ما استطعنا ذلك؛ ونتمنى أن يأتي الإنجليز هنا؛ النصارى أحسن من المسلمين.

إن الناس هنا في الجوف يجهلون عادات النصارى ولو لم نتدخل نحن لكانوا سيقتلونك بلا شك». بعد ذلك جاء مضيفي وصديقي الطيب، وكان حزينًا يبكي للحادث الذي ألم بوالده، وقال لي: «يا أبو جورج. أنا أعلم أن هذا ليس عملك، إنه أمر مقدر وكان لابد له أن يحصل، وأتمنى ألا يموت أبي». وبعده جاء الولدان الآخران لجوهر وجلسا معنا، وقدمت لهم كل مواساة لما ألم

بوالدهما. وفي اليوم التالي أقمت في غرفتي أو بجوارها، واستحسن فالح هذه الفكرة. أما شيخي الذي جئت معه فقد اختفى، لم أر خويخان منذ يومين وتساءلت ماذا حل به؟ في المساء جاءني رجل ليقول: «إن خويخان أرسلني لآخذك إليه. إنه في منزل في الطرف الآخر للبلدة». لقد صدقته ونهضت سائرًا خلفه مسيرة ساعة، لكن خويخان لم يكن هناك، وسألت عنه فقيل لي إنه سيأتي مع مغيب الشمس.

غابت الشمس ولم يظهر خويخان. وقلت للرجل سأذهب إلى غرفتي لأنني لم أكن مطمئنًا له ولمن معه من الرجال، فتصرفاتهم كانت مريبة. أحضروا تمرًا، وقالوا لي: «كل لأن العشاء سيكون جاهزًا بعد مدة». أكلت قليلًا من التمر وفكرت في الرجوع ولكن الظلام كان دامسًا، ثم إن الرجال لن يسمحوا لي بالذهاب. وأصررت على الذهاب إلى خويخان أينما كان أو إحضاره، ولكنهم طلبوا مني الجلوس. وفي نحو العاشرة جاؤوا بصحن به طعام ووضعوه أمامي وقالوا لي: «كل»، ولم أعرف نوع الطعام وتذوقته لكنه لم يعجبني، ورفضت الأكل ولما لم يدع إلى هذا الطعام غيري شككت في أن يكون مسمومًا، وأخذوا الصحن وأعادوه كما هو، وسألوني إن كنت أريد النوم. فقلت لهم: «لا». أحسست أنهم أضمروا شيئًا، وجاؤوا بي إلى هنا بحجة أن رئيس قافلتي يريدني. أمضيت الليل كله جالسًا. وكثيرًا ما رجوني أن أنام ولكنني رفضت، وأخيرًا أشرقت الشمس، وبينما كنت أستعد لمغادرة هؤلاء عائدًا إلى غرفتي رأيت في الباب أحد حراسي الثلاثة، وكان أقلهم اهتمامًا بالقيام بمهمته حيالي، وسررت عند رؤيته، وقال لي: «لقد افتقدتك هذا الصباح، وقلت لا بد من البحث عنك، كما أنه لا ينبغي أن تخرج هكذا وحيدًا». عندما عدت وجدت خويخان يجلس حول النار. وأنكر أنه أرسل أي أحد في طلبي، واتضح لي أنني وقعت في فخ مدبر، لكنهم لم يفلحوا في تنفيذ تدبيرهم.

لقد أمضينا عدة أيام في الجوف، ووزعت عددًا من كتبي. وفي ذات صباح وأنا أفتح باب غرفتي وجدت كل ما وزعت مكوّمًا عند باب غرفتي،

ويبدو أنها وضعت هناك بالليل. أدخلت الكتب داخل الغرفة، وأيقنت أنني إذا لم أعلق على ذلك ربما عرفت لماذا أُرجعت. وبعد قليل جاءني فالح ليقول: «لا تغضب لأن الكتب أعيدت. لقد أصدر والدي أوامره بأن تعاد إليك، وقال إن هناك أشياء سيئة فيها». وسألته: «ما هي»؟ فقال: «ما ورد في المزمور الثاني من كتاب المزامير، الفقرة السابعة، ونصه: «إني أخبر من جهة قضاءِ الرب. قال لي أنت ابني. أنا اليومَ ولدتك.» وقلت لفالح: «عدد كبير من الناس سيسعد باقتناء هذه الكتب، لكن والدك لماذا لم يرجع الإنجيل الذي أخذه؟» فرد فالح: «إنه يريد أن يحتفظ به ويقرأه»، وكنت سعيدًا لسماع ذلك.

في ذلك اليوم جاءني خويخان وقال لي: «لابد أن نغادر بسرعة. لقد كنت أرغب في البقاء هنا لمدة شهر، لكن بسببك أنت لابد أن نغادر بسرعة». وفي اليوم التالي جاء الرجال وسألوا عن كتبهم التي أعادوها، وذكرتهم بما قاله جوهر، فقالوا: «لقد نفذنا ما أمر به، وأعدنا الكتب إليك. ولم يأمرنا أحد ألا نعيدها مرة أخرى إلى منازلنا. أعطنا الكتب وسوف نخبئها حتى تغادر». فأعدت الكتب إليهم ثانية، ولم أسمع شيئًا عنها بعد ذلك. وبعد ظهر ذلك اليوم ذهبت إلى القلعة لأودع جوهرًا، لأننا سنسافر صباح اليوم التالي. وأُوقفت في باب القلعة لمدة طويلة لإبلاغه بحضوري. ثم سُمح لي بالدخول، ورأيت الرجل العجوز مستلقيًا على سرير فوق الأرضية الطينية في أحد أركان الغرفة الكبيرة. وجلس حوله عدد كبير من الرجال، ولم يُسمح لي بالاقتراب منه، ومن المدخل أشرت إليه قائلًا: «سنسافر غدًا، وجئت لأودعك وأشكرك على عطفك وأسأل الله أن يمنحك السلام ويعيد إليك الصحة ويعيد إليك قدمك». وفي هذه اللحظة وُضعت يد على ذراعي وقادتني خارج القلعة. هكذا انتهت علاقتي مع جوهر، أبي عنبر، أكثر الشيوخ مهابة وأكثرهم احترامًا في بلدة وإقليم الجوف قاطبة. ولم أسمع عنه شيئًا منذ ذلك التاريخ حتى الآن. ربما ذات يوم في المستقبل أعود إلى تلك البلاد، فخبرتي السابقة فيها، قد تشجعني على ذلك، ويقيني أنني في زيارتي الثانية سأكون أكثر توفيقًا.

في تلك الليلة أويت إلى فراشي، وعندما بدأت بالنوم أيقظني صوت

رجال ينادون عند بابي فاستيقظت، وحينما فتحت الباب وجدت رجلين وفي ضوء فانوس صغير أدركت أنهما يحملان شيئًا في كيس ودخلا إلى الغرفة ووضعا حملهما قائلين: «فالح، يرسل إليك هذا التمر مؤونة تكفي رحلتك، فهو لن يتمكن من وداعك صباح الغد، وهو يهديك تحياته واحتراماته ويتمنى لك رحلة موفقة. ثم أفرغا التمر في خرج سرجي الكبيرة وجاءا بقربتين من الجلد في حجم مناسب وقد ملآهما تمرًا، وقالا: «هذه هدية من فالح إلى زوجتك وأطفالك في بيت المقدس. عليك أن تحملهما لهم مع عاطر التحيات».

وفي صباح اليوم التالي استيقظت ولاحظت أن ترتيبات الرحلة قد اكتملت للانطلاق، وقبل التحرك كان قائد القافلة وأنا معه قد ارتبطنا بمواعيد لزيارة ستة منازل وتناول طعام الإفطار معهم. تناولنا قليلًا من الطعام في كل بيت إرضاءً لأصحابها، ثم عدنا إلى مكان سكننا فوجدنا الإبل محملة وجاهزة للتحرك، وكان فالح معنا يحمل حقيبة فيها خبز قدمه لي قائلًا: «هذا سينفعك لعدة أيام وأنت في الصحراء»، وتبادلنا كلمات الوداع. كان فالح عطوفًا وكريمًا معي خلال إقامتي في الجوف. ففي كل صباح، وفي نحو العاشرة يأتي إليّ أو يرسل في طلبي ليأخذني إلى السطح على ارتفاع ثلاثة أدوار ليقدم لي إفطارًا خاصًّا شهيًّا من: الخبز، والدبس، والزبدة البلدية، والحليب. وكانت هذه من أجمل منتجات الجوف.قائلًا: «كل واستمتع بها فإننا لا نقدم مثل هذا الأكل للضيوف العاديين، أنت صديقي، منذ أكلنا الخبز معًا»، وهذا كان ما يردده دائمًا. كان يجلس ويأكل ولا يتردد في وضع يده في الإناء ذاته الذي يأكل منه المسيحي. لقد أخبرني أنه زار مكة مرتين، وكان دائمًا كما لاحظت يحافظ على مواعيد الصلوات. وعند وصولنا إلى أقصى طرف البلدة الشمالي كانت القافلة تنتظرنا، ونزل خويخان وقبل الرجال المحيطين بنا مودعًا، وأعطى القافلة إشارة البدء، وابتهلنا ليبارك الرب هؤلاء الذين ودعونا وأكرمونا وأن تكون حياتهم في أحسن حال. وودعنا الجوف وبساتينها العامرة الخصبة وبساتين نخيلها الظليلة.

سافرنا في الصحراء أربعة أيام دون أن نجد ماءً. كنا نتوقع أن نعثر على

مياه سطحية، ولكن خاب أملنا. وعند غروب الشمس في اليوم الرابع، وجدنا الماء في حوض كبير بين الصخور التي دخلنا بينها. كان الماء متسخًا ولاذع الطعم، لأن الجمال شربت منه وأقامت فيه ليوم كامل. وقبل أن نملأ القرب من الماء وجدت جمالنا طريقها إليه الأمر الذي زاد الماء عكرًا واتساخًا. وكنا شاكرين لله فضله، بأن أعطانا الماء لنصنع خبزنا ونشرب منه.

في اليوم الثاني؛ ونحن نتحرك انهار جملي من تحتي ورفض التحرك، والنهوض. واستدعيت بعض الرجال، وعندما رأوا الدموع تنساب من عينيه قالوا لي: إن جملك ثمل ولا يستطيع الحركة لأنه سكران، لقد أكل نوعًا من العشب فانتشى وتخدر. أحضروا ماء وبلوا فيه بعض العشب وربطوه على عنق الحيوان، وجهزوا عصارة للتمر وخلطوها بالملح والدقيق وعندما تم تحضير هذه الخلطة فتحوا فم الجمل وقذفوا بالخلطة إلى حلقه. وفي غضون نصف الساعة توقفت الدموع، واستعاد الحيوان وعيه وانطلق مع الآخرين. وفي تلك الليلة عثرنا على ينبوع من الماء أسوأ من الذي سبقه، وعسكرنا قريبًا منه. وفي اليوم التالي أخذتنا المفاجأة عندما رأينا عن بعد رجلًا يتجه إلينا، فتحرك بعض رجالنا لمقابلته، ولم يعرفوا ما إذا كان كشافًا لعدو أم صديقًا. جاؤوا بذلك الشخص إلينا. ولم يكن قادرًا على الكلام، وأشار في طلب الماء، فأعطيناه الماء. وقال إنه واحد من تسعة أشخاص تحركوا عبر الصحراء على ظهور جمالهم، وكانوا يحملون ماءً وزادًا لكن اعترضهم قطاع الطرق ونهبوا منهم كل شيء، ولثمانية أيام ظلوا بلا ماء أو غذاء، وأن زملاءه مطروحون على الرمال بلا حراك على مسافة غير بعيدة من هنا، وعبرت قافلتنا من بعيد فرأوها، وكان هو الأقدر على الحركة فجاء إلينا. وأعطيت الرجل قربة ماء وشيئًا من دقيق وتمر وغادرناه مبتهجًا بحظه السعيد.

في ذلك المساء؛ وبينما كنا نعسكر في الوادي الذي كان يزخر بالأحجار والشجيرات، استشعرنا خطرًا ولكنه انتهى بسلام. كان الرجال يجلسون حول النار عندما انتقل الهمس بينهم بأن أصواتًا تأتي من الوادي، وأطبق على الجميع صمت، وفي هدأة الليل أمكن استماع أصوات رجال يتحدثون بشكل واضح،

ومن معه سلاح هب إليه على الفور واستعد لملاقاة الهجوم، وألقى الرمل على النار فاختفت. كنا على أهبة الاستعداد لملاقاة أي شيء. ولما لم يظهر شيء، تحرك بعض رجالنا لاستجلاء الخبر. وبعد قليل سمعنا أصوات البنادق وتخيلنا أن الأصوات التي سمعنا أصوات أعداء. ولكن بتتبعنا لأصوات البنادق سمعنا صرخات ترحيب، أصدقاء. . . . أصدقاء وبعد عشر دقائق عاد رجالنا ومعهم اثنا عشر رجلًا من ذوي الوجوه المتوحشة التي يندر أن يراها الإنسان.

بنظرة واحدة في تلك الوجوه الكالحة، يدرك المرء أن أصحابها عانوا الحرمان والإرهاق. أُشعلت النيران من جديد، وابتدأ السمر وأعدت القهوة للضيوف الجدد، حيث أخبرونا بقصتهم وهي باختصار: لقد تحركوا من الجوف قبل أسبوعين بهدف الوصول إلى دمشق للبحث عن عمل، ولم يكن معهم جمال فقط طعام يكفي لمدة، إذا استمر الحال على ما يرام، ومعهم قرب للماء فارغة ليملؤوها إذا وجدوا ماء في طريقهم، حيث كانوا يفترضون وجوده. جلد القرب هذه كان جافًّا فتشققت ولم يشربوا ماء لمدة طويلة. كما أن عدم معرفتهم بالطريق جعلهم يتيهون في الصحراء فانتهى الطعام والشراب الذي كان معهم. واستمروا يضربون في الصحراء بلا هدى لمدة خمسة أيام جوعى وعطشى ومرهقين. وفي ذلك اليوم؛ وقعوا على أثر أقدام جمالنا فتابعوها حتى وصلوا إلينا حيث نعسكر. أُعد لهم الخبز، وبينما كان يخبز، أعطيتهم كمية جيدة من التمر الذي أحمل معي فشكروني، وفي اليوم التالي سافروا معنا.

في اليوم التالي؛ وعند ظهر اليوم العاشر لمغادرتنا الجوف، رأينا عن بعد نخيل قرية إثرة مرة أخرى. لقد غبنا عنها لمدة ثلاثة وثلاثين يومًا لا خمسة وثلاثين كما كان تقدير خويخان. وعند وصولنا، كان أول شيء لاحظته اختفاء الخيمة التي كان يقيم فيها الرجل المريض، فأيقنت أنه قد مات وأزيلت الخيمة من بعده. بعد ساعات من الراحة جاءني خويخان الذي أنجز العقد الذي أُبرم بيننا بإخلاص، وخرج بي من دار الضيافة وأراني عشة صغيرة من الطين على مقربة من دار الضيافة، وللعشة باب بارتفاع ثلاثة أقدام وعرض قدمين، وقال

إن هذه العشة ستكون محل إقامتي للمدة التي سأقيم فيها هنا. أبلغته إنني عازم على الرحيل بسرعة من هنا، لقد ابتعدت عن أسرتي وأصدقائي لمدة طويلة، عدة شهور، ولم تصلني منهم أي أخبار. لم تكن هناك فرصة فدخلت إلى العشة، وكانت متسخة ومغبرة وتنتشر هنا وهناك أوانٍ فخارية قديمة، وصناديق خشبية بها بعض التمر، وقد أُخبرت أنه بإمكاني أكل ما أشاء منه. كان الغبار على أرضية العشة بارتفاع بضع بوصات. حملت حقائب سرجي إلى العشة وجلست هناك. وحل المساء فأعطيت خبزًا وإناءً به ماء. ولم يحضر لي فانوس أو مصباح، فذهبت إلى خويخان لأطلب منه مصباحًا وشيئًا أنام عليه وأغطي جسمي به. لقد رُفضت كل طلباتي هذه، وأُمرت بالرجوع إلى حيث كنت. عدت إلى العشة، ولما كنت في حالة شديدة من الإرهاق فقد استلقيت أرضًا على التراب ووضعت طوبة كبيرة من الطين تحت رأسي، وحاولت النوم، ولكن فجأة اكتشفت أنني لست وحدي فقد كانت هناك أشياء تزحف وكانت في أعداد كبيرة وأحسست بها على وجهي ويدي فنهضت وأخرجت علبة الكبريت العزيزة من جيبي وقدحت عودًا منها لأرى، ورأيت جيشًا من الزواحف والحشرات ويشمل هذا الجيش العقارب والسحالي. ولم يكن الوضع مريحًا وظللت الليل كله في حركة منتظرًا الصباح. وأخيرًا؛ أشرقت الشمس فذهبت إلى خويخان وقلت له أريد أن أسافر إلى بلدي، ولن أبقى في العشة التي اختارها لي. وقال إنه سيسافر في اتجاه بلدي ووعد بأن يأخذني معه خلال ثلاثة أو أربعة أيام، وأخذني إلى بيته وطلب من زوجته أن تحضّر لي طعام الإفطار. بعد ذلك اختلطت بالرجال في المنطقة، وسألت عما إذا كان هناك أحد يذهب معي إلى عرمان، وهي على بعد مسيرة ستة أيام. واتفقوا كلهم على أن أدفع ثلاثة جنيهات إنجليزية، أي خمسة عشر دولارًا لقاء مرافقتي. واكتشفت أن السعر قد تحدد لأقوم بدفعه لمن أتفق معه. وفي كل يوم من هذه الأيام الأحد عشر التي مكثتها هنا، كنت أسعى يوميًّا للسفر ولكن لم يساعدني أحد على ذلك. وقد رأيت جماعات تسافر شمالًا وغربًا. ولكن ليس لديهم جمل زائد لأركبه، ولو كان عندهم لسافرت معهم فورًا، ولكنهم

يسافرون راجلين. نشأت بيني وبين واحد منهم صداقة، وفيما يبدو سببها أنه كان يشفق عليّ وكان يذهب معي لبساتين النخيل. ويشرح لي الكيفية التي ينبغي من خلالها التعامل مع النخيل، وماهية أسرارها، لقد أفادني كثيرًا وساعدني في فهم الفقرة الثانية عشرة من المزمور الثاني والتسعون من سفر المزامير، ومعانيها[1]. إن النخيل شجر مفيد وجميل ومثمر، وله خاصية النمو من الداخل وهذا مما يبهج الإنسان، وله مزايا أخرى وكلها متاحة للصالحين. أخذني هذا الصديق في جولة ليشرح لي كيف يستخرج العرب هنا وفي كاف الملح الذي يبيعونه للقوافل. وفي الأرض توجد ينابيع مياه شديدة الملوحة، وهم يأخذون هذه المياه ويصبونها في جداول في الرمل ويتركونها حتى تتبخر وتزول منها الرطوبة، ثم يأتون بسلال ويجمعون الملح، الذي يكون قد تبلور وأصبح أشبه بقطع الثلج البيضاء. وتترك هذه السلال حتى يجف الملح ثم يعودون بها إلى القرية، ويحفظ في أوعية من الطين حتى يأتي من يشتري. إن قيمة حمولة جمل كاملة لا تزيد على ثلاثين سنتًا.

وخلال إقامتي الجبرية هنا التي امتدت ثلاثة أيام عانيت من الحمى ولم ينتبه أحد لذلك. وكانت الليالي أسوأ بكثير من بقية الوقت. وكنت أسمع أصوات الحشرات فوق رأسي وحولي، ومرة في الصباح رأيت آثار ثعبان مر من حولي، وشعرت بأنني سجين. إن حكاية أن رئيس القافلة سيسافر في اتجاه البلد الذي أرمي إليه، مجرد قصة غير صحيحة. إنه كان يرجو أن يدفعني التأخير لدفع مال أكثر، لكن لم يكن لدى شيء لأدفع لقد دفعت كل ما معي بالإضافة إلى حذائي، وبرادي، وصابوني، ومشطي، ومنشفتي، وملابسي الداخلية وأشياء أخرى كثيرة ذات قيمة لي.

وذات صباح رأيت رجلًا كنت قد رأيته في كاف يقترب مني، فذهبت إليه فأخبرني بأن شيخ كاف سافر، وهذا ما سمعت به في اليوم الثالث من حضوري هنا. ولو كان الشيخ موجودًا لكنت قد ذهبت إليه ووضعت نفسي تحت رحمته.

---

(١) الفقرة الثانية عشرة من المزمور الثاني والتسعين تقول: «اَلصِّدِّيقُ كَالنَّخْلَةِ يَزْهُو، كَالأَرْزِ فِي لُبْنَانَ يَنْمُو».

وأخيرًا؛ قررت المحاولة مع خويخان ثانية وبإلحاح. وفي صباح اليوم الحادي عشر لقيته، وقلت له: «إذا لم ترسلني اليوم سأذهب وحيدًا عبر الصحراء، وسوف يكون دمي مسؤوليتك».

بدأ خويخان يلتمس لنفسه الأعذار، لكني ألححت عليه في الكلام. وأخيرًا نطق: «حسنًا سأرسلك بعيدًا عن هنا وأرجو ألا تعود ثانية»، ونادى على رجل وطلب منه إحضار بهيمة، وفي خلال ساعة أتاني بحمار هزيل لا يحمل حتى أغراضي التي خف وزنها بعد أن أفرغت حقائب سرجي. وطلبت جملًا فرفض طلبي. وقال لي: «يستحسن أن تمشي على قدميك»، فتحركت دون إفطار أو وداع مع هذا الرجل المجهول بالنسبة لي تمامًا، والذي طلبوا منه أن يتركني مع أية جماعة من العرب يقابلهم.

سرنا فوق رمال كثيفة، وتحت شمس محرقة، وبعد ساعتين لم أتحمل واستسلمت وغصت في الرمال مرهقًا، وكان الرجل متقدمًا قليلًا أمامي مع الحمار، فناديته، وتوقف، وأنزل الحقائب والصناديق وبعض الأواني، فقد ظن أنها مليئة بالنقود. وفتح اثنين من الصناديق بخنجره وأفرغ الأواني، وأغلب الظن أنه لا يدري ماذا يصنع بمثل هذه الأواني؟ واستولى على آخر جوارب عندي، وبعض الأوراق، وإناء للشوربة، وصفيحة فارغة كنت أحتفظ بها لغلي الماء. وقد قام بدفن هذه الأشياء في رمال الصحراء. ثم جاءني ليقول: «انهض واتبعني وإلا سأتركك هنا»، ونهضت متحاملًا وتبعته وسرت لمدة ساعتين على الرغم من الألم الذي كنت أحسه في أطرافي المتألمة، مع شدة العطش. وأخيرًا؛ رأينا بستان نخيل بجانبه نصبت خيمة. ولم يكن هناك أبدًا منظر أدعى للترحيب أو مأوى مقبولًا مثله. خرج صاحب الخيمة لمقابلتنا وحمل عني حقائبي وأدخلها في الخيمة، وساعدني في الدخول إليها وأشار إلى ركن فيها، وأجلسني فيه. كان أطفاله شبه عراة وزوجاته الأربع جلسن قريبًا مني يراقبنني. وارتسمت على وجوههن الشفقة عليّ، واللعنة على من تسبب بإيذائي وعلى الذين عاملوني بمثل تلك القسوة، وأعطوني تمرًا وزبدة لأدفع بها التمر إلى حلقي، ومكثت معهم خمسة أيام... خمسة أيام مع هؤلاء البدو البسطاء الذين أبدوا نحوي كرمًا وعطفًا.

في اليوم الخامس جاءت جماعة من الرجال برواحلهم إلى الخيمة. وكانوا في طريقهم إلى دمشق، وكنت أتمنى أن أجد طريقًا لأتجه غربًا لأصل إلى بيت المقدس، ولكن لم يكن ذلك ممكنًا. وبعد كثير من المجادلة والمساومة مع قائد الجماعة المكوَّنة من ثمانية عشر رجلًا واثنتي عشرة راحلة. وبعد مساومات مع قائد الجماعة قبل أن يأخذني إلى عرمان لقاء دولارين. ولم يكن معي مال وأصر الرجل على الدفع مقدمًا. وأخبرته أن لديّ مالًا في عرمان. وأخيرًا؛ سمح لي بالركوب فوق أحمال الجمل، وبدأت رحلة عودتي إلى وطني. ومضى كل شيء على ما يرام خلال يومين. وكان الرجال في القافلة مجموعة طيبة عطوفة. وفي اليوم الثالث استيقظت استعدادًا لمواصلة الرحلة، لكنهم أخبروني أن ستة من الجمال ضلت الطريق واختفت في الظلام وبعض الرجال ذهبوا لإعادتها إلى القافلة. أضعنا ذلك اليوم منتظرين حيث كنا، ولم يجد الرجال أثرًا للجمال الضائعة، فقاموا بتفريغ ست شحنات من الملح في الصحراء، ودفنوا الجوالات في الرمل، واتفقوا على أن نغادر في منتصف الليل. مر يومان وأنا أسأل متى سنصل عرمان، وجاءت الإجابة، «لسنا ذاهبين إلى عرمان، لقد قتلت رجلًا هناك ذات مرة وأخشى من دخولها. سوف نتركك في قرية تسمى أم الرمان وهي على مسيرة ساعتين من عرمان». شعرت بالأسف وأنا أسمع ذلك، لأن ذلك يعني أن أدخل على غرباء وأتفق معهم على نقلي إلى عرمان. وبما أنني لا أملك مالًا، كان ذلك صعبًا عليّ.

وفي ظهر اليوم السادس وصلنا مشارف أم الرمان وسكانها كانوا مسلمين ودروزًا وكاثوليك. سكنت مع رجل على معرفة بالرجل الذي سار معي وقام بتنظيم رحلتي إلى عرمان، وكان يرافقني أيضًا رجل جاء معي ليعود بمصاريف الرحلة من عرمان. وفي اليوم التالي ذهبنا إلى عرمان واستقبلت بحفاوة إذ كنت قد غادرتهم قبل عدة أسابيع. وكان مشجعًا لي أن أسمعهم يقولون: «كنا ندعو لك كل يوم في أثناء غيابك أن تصل بالسلامة وأن يحفظك الله وتعود لنا سالمًا»، وكان من الطبيعي أن أخبرهم بما حدث لي في هذه الرحلة. أعاد

الرجل الذي ائتمنته على مالي أمانته، وبقيت لأيام قليلة مع هؤلاء الناس الطيبين. طلبوا مني الكتب، لكني كنت قد بعتها كلها. وامتطيت حمارًا في صحبة رجل، واتجهت إلى دمشق. وفي الليل قبل مغادرتي جاءني عسكري في دار الضيافة يسأل عن المسيحي الذي عاد من الجوف. وكان الموظف في قلعة صلخد التي مررنا بها في أثناء الضباب، وسمعوا عني وكانوا يريدون رؤيتي، وكان من المفروض أن أعطيه نسخة من الإنجيل إذا بقيت عندي واحدة. في صباح اليوم التالي؛ ذهبت إليه وكان إنسانًا مهذبًا، وأخبرني بأنني قمت برحلة جريئة وخطرة، وأنه كان سيمنعني لو كان علم بذلك في وقت مبكر، لم أبين له كيف عبرت من عنده قبل ثلاثة أشهر. لقد كان مسرورًا بالإنجيل وأخبرني بأنه يريد قراءته، وبعد خمسة أيام كنت في دمشق جنة العرب في الأرض، وسكنت مع أحد أصدقائي من أبناء بلدي في منزله. ورحب بي أصدقائي الأوفياء السيد ريتشارد وحرمه في القنصلية البريطانية، وكانوا مسرورين لعودتي بعد غياب طويل. ومن هناك أرسلت خبرًا عن صولي من الرحلة سالمًا لأسرتي وأصدقائي الذين لابد أن يكون قد أصابهم قلق حول مصيري. وبعد أن استرحت لعدة أيام في دمشق، بدأت الرحلة مجددًا - وفي هذه المرة في ظروف حسنة - متجهًا إلى وطني في بيت المقدس. وبعد ركوب لتسعة أيام نظرت من مرتفع إلى المدينة المقدسة مرة أخرى، وكان غيابي عنها لمدة ثلاثة شهور ونصف الشهر»[١].

(١) النص المعرب:

A. Forder. **With the Arabs in Tent And Town: An Account of Missionary Work, Life and Experiences in Moab and Edom** (London: Marshall brothers, 1902), pp112-.177.

الفصل التاسع

إس.إس. بتلر

لا يعد هذا الضابط الإنجليزي رحالة بالمعنى الذي ينطبق على من سبقه من رحالة أوروبيين في شمال الجزيرة العربية، حيث كانت رحلته بمثابة تدشين لعهد ونوع جديد من الرحلات لضباط يعملون في جيوش ومخابرات دولهم، في سياق خطط سياسية للتعامل مع تداعيات الضعف التي كانت قد انتابت الدولة العثمانية التي تخضع لها هذه المنطقة اسميًّا، ولمعرفة الظروف السياسية المتغيرة في مناطق الجزيرة العربية المختلفة. فمن يا ترى إس. إس. بتلر؟

ولد ستيفن سيمور بتلر (Stephen Seymour Butler) سنة ١٨٨٠، والتحق في ربيعه السابع عشر بالجيش البريطاني، وبعد سنتين نقل مع فوجه العسكري إلى جنوب أفريقيا للمشاركة في الحرب المعروفة بحرب البوير(١٨٩٩-١٩٠٢)[1]، وفي سنة ١٩٠٨(سنة رحلته) ألحق بفوج ساوث ستافورد شاير(The South Staffordshire Regiment)[2]، وعمل مع فوجه في مصر

---

(١) وقعت حرب البوير (١٨٩٩-١٩٠٢) بين جمهوريات البوير، وهم المستوطنون البيض ذوي الأصول الهولندية، وبريطانيا من جانب آخر بسبب زحف البريطانيين غير المتوقف في داخلية جنوب أفريقيا وأطماعهم في توسيع نفوذهم. ونظرًا لرفض البوير لهذه الأطماع أعلنت الحرب بين الطرفين (١٢ أكتوبر ١٨٩٩). وأحرزت قوات البوير انتصارات في بداية الحرب لكن البريطانيين قاموا بإنزال إمدادات بريطانية كبيرة وتمكنوا من هزيمتهم سنة ١٩٠٢.

(٢) فوج مشاة في الجيش البريطاني تأسس سنة ١٨٨١ واستمر فاعلًا حتى سنة ١٩٥٩ حينما تم دمجه =

خلال الأعوام ١٩٠٩-١٩١٥، ومع بدء الحرب العالمية الأولى كُلِّف بإدارة قطاع الاستخبارات في القيادة العامة لفيالق الجيش الأسترالي النيوزلندي (Australian and New Zealand Army Corps (ANZAC))[١]، فشارك مع هذا الجيش في حملة شبه جزيرة غاليبولي (Gallipoli Campaign)[٢] التي قامت بها القوات البريطانية والفرنسية. هزمت هذه القوات، بسبب صمود القوات التركية بقيادة مصطفى كمال (أتاتورك لاحقًا)، الأمر الذي اضطرها للانسحاب. انتقل بتلر مع من بقي من فيالق هذا الجيش المنسحب الذي تمت إعادة تنظيمه إلى الجبهة الفرنسية وخاض معاركها حتى سنة ١٩١٨. وقد رقي عدة مرات خلال هذه المرحلة في وظيفته الاستخبارية. بعد الهزيمة التركية واحتلال إستانبول شغل بتلر منصب رئيس الاستخبارات البحرية فيها في المدة (١٩١٩-١٩٢٠). وعمل في المدة (١٩٢١-١٩٢٣) في الهند مساعدًا لقائد الجيش في القيادة الشمالية. عيِّن بعد ذلك ملحقًا عسكريًّا في رومانيا حتى سنة ١٩٢٦. وفي سنة ١٩٢٦ عيِّن مفتشًا عامًّا لقوة حدود غرب أفريقيا (The West African Frontier Force (RWAFF))[٣]، وبقي في هذه الوظيفة حتى سنة ١٩٣٠. من غرب أفريقيا نقل إلى شرقها، حيث عين قائدًا لقوة دفاع السودان حتى سنة ١٩٣٥. بعد السودان عيِّن قائدًا عامًّا للفرقة الثامنة

= بفوج آخر فأصبح اسمه ستافورد شاير رجمنت .(Staordshire Regiment) أدى دورًا كبيرًا في المستعمرات والحروب البريطانية.

(١) فيالق من الجيش الأسترالي والجيش النيوزليندي استقدمت للمشاركة في الحرب العالمية الأولى لكنها أنزلت في مصر لإعدادها لمهمتها فأصبحت جزءًا من جيش الاستطلاع للبحر المتوسط. انتهى وجود هذا الجيش بعد انسحابه من جزيرة غاليبولي.

(٢) معركة غاليبولي معركة تاريخية دارت خلال الحرب العالمية الأولى بين قوات بريطانية وفرنسية مشتركة غازية في حملة لاحتلال إستانبول، والقوات العثمانية، واستمرت أحداث هذه المعركة من اليوم الخامس والعشرين من شهر أبريل ١٩١٥ وحتى اليوم التاسع من شهر يناير ١٩١٦، لكن المحاولة باءت بالفشل. قدرت خسائر هذه الحرب بعشرات الآلاف من الأنفس من جميع أطراف الحرب.

(٣) قوة ميدان بريطانية متعددة التشكيلات شُكلت سنة ١٩٠٠ من قبل وزارة المستعمرات البريطانية للدفاع عن مستعمراتها في غرب أفريقيا، وقد حلت هذه القوة سنة ١٩٦٠ عند استقلال آخر مستعمراتها في غرب أفريقيا.

والأربعين من جيش الأقاليم[1]. تقاعد سنة ١٩٣٩ من عمله العسكري برتبة ميجور جنرال متحصّلًا على عدد من الأوسمة الملكية العالية لخدماته المميزة في خدمة الإمبراطورية.

لم يهنأ بتلر بتقاعده بعد هذه الحياة الحافلة إذ استدعي للخدمة العسكرية ثانية في الحرب العالمية الثانية التي انطلقت شراراتها عام تقاعده. عمل خلال مدة الحرب كاملة (١٩٣٩-١٩٤٥)، فشغل منصب رئيس البعثة العسكرية في تركيا سنة ١٩٣٩؛ ثم استدعي في أوائل سنة ١٩٤٠ ليقوم بدور ضابط ارتباط بين قيادات القوات البريطانية في غرب أفريقيا؛ وفي ١٩٤١ عيّن أيضًا ضابط ارتباط بين قادة القوات البريطانية والفرنسية في جنوب أفريقيا حتى نهاية الحرب، وفي هذه المرحلة (١٩٤١-١٩٤٣) رأس البعثة العسكرية البريطانية في أثيوبيا.

عاش بتلر لمدة طويلة بعد هذه الحرب، وانكب على كتابة مذكراته التي لم تنشر وبقيت محفوظة في متحف الحرب الإمبراطوري (Imperial War Museum). وتوفي سنة ١٩٦٤[2].

قام بتلر برحلته في شمال الجزيرة العربية برفقة زميله النقيب ليستر أيلمر[3] (Leycester Aylmer) في مطلع سنة ١٩٠٨[4]، وقدم تفاصيلها في محاضرة عامة[5] في الجمعية الجغرافية الملكية في لندن تحت عنوان: **من بغداد إلى دمشق عبر الجوف، شمالي الجزيرة العربية.**

---

(١) قوة احتياط تطوعية.

(٢) http://www.kcl.ac.uk/lhcma/locreg/BUTLER6.shtml

(٣) أحد ضباط القوة الملكية البريطانية في شرقي أفريقيا المتمركزين في منطقة جوبا جنوبي السودان. قام بالإضافة إلى هذه الرحلة بعدة رحلات مسحية في مناطق شرقي أفريقيا. كان يجيد اللغات العربية والسواحلية الصومالية والأمهرية. عيّن سنة ١٩١١ مفتشًا للحدود مع أثيوبيا، وقتل سنة ١٩١٣ في مواجهة مع صيادي فيلة الأثيوبيين. انظر نعيه في:

The Geographical Journal, Vol. 42, No. 1 (Jul., 1913), pp. 85-86.

(٤) ذي الحجة ١٣٢٥هـ

(٥) ألقيت هذه المحاضرة في الثاني والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٠٩.

وهنا نترك للقارئ متابعة نص هذه المحاضرة:

«كانت مغادرتنا أنا والكابتن أيلمر من شرق أفريقيا في خريف ١٩٠٧ فقررنا إن أمكننا ذلك محاولة العودة إلى إنجلترا عبر الخليج وبغداد ودمشق. بدلًا عن أخذ المسار المعتاد من بغداد إلى دمشق الموازي لنهر الفرات، عقدنا النية بالسفر غربًا من بغداد إلى الجوف الواقعة شمال وسط الجزيرة على الحد الشمالي لصحراء النفود الكبير. ومنها نتجه شمال غرب إلى دمشق عبر طريق جبل حوران.

الجوف بالطبع ليست مجهولة فقد زارها جورج أوغست والن سنة ١٨٤٥، ووليم بلغريف سنة ١٨٦٢، وكارلو غوارماني سنة ١٨٦٣، وتشارلز هوبر سنة ١٨٨٠، والليدي آن بلُنت وويلفرد بلُنت سنة ١٨٧٩، ويوليوس أويتنغ سنة ١٨٨٣، وإدوارد نولده سنة ١٨٩٣، وراهب من الكرك يُدعى أرتشيبالد فوردر سنة ١٩٠١.

زار هؤلاء الجوف، فجاء بعضهم من الغرب (والن، وبلغريف عن طريق معان) وبعضهم من الشمال (هوبر وأويتنغ والليدي بلنت وزوجها ويلفرد بلنت وإدوارد نولده عن طريق دمشق)، وأحدهم من الجنوب (غوارماني عن طريق حائل). وحسب معرفتي لم يزر الجوف أحد عن طريق بغداد أو من الشرق من قبل أيٍّ من الأوروبيين، أو أن المنطقة بين بغداد والجوف قد استكشفت بأية طريقة.

كانت الصعوبة الرئيسة لنا في البداية هي مغادرة بغداد، لأننا ولمدة طويلة كنا غير قادرين على أن نجد رفيقًا ودليلًا وصديقًا دونه سوف يكون من المستحيل السفر في الجزيرة العربية غير الآمنة.

بعد مدة قصيرة من وصولنا إلى بغداد من زيارة إلى كربلاء تبسم لنا الطالع، فسمعنا أن بدويًّا سيعود إلى قبيلته في الحال، وهو ينتسب إلى عرب ابن مجلاد[1] من قبيلة بشر العنزية القاطنة في الصحراء جنوب غرب كبيسة.

---

(١) الدهامشة وهم من العمارات من قبيلة عنزة، ومشيختهم في عائلة ابن مجلاد.

كان هذا البدوي محمد الماضي وهو رجل مهم في قبيلته، وكان ضامنًا معه تجار ملابس وبائعي إبل، وكان مستعدًّا لأخذنا معه إلى مضارب قومه إذا دفعنا الثمن، ومن مضاربهم إلى الجوف سوف يساعدنا مقابل مبلغ آخر. اشترط هذا البدوي أن نحضر رواحلنا وعدتنا، وأن نتزيا بزيّ البدو، وقد نفذنا هذه الشروط. فيما يتعلق باللباس العربي، فإنني أعتقد أن ذلك أمر ضروري لمن يريد دخول الجزيرة العربية، فاللباس الأوروبي يسبب كثيرًا من عدم الاطمئنان بل يشكل خطرًا حقيقيًّا. لم أحاول لا أنا، ولا رفيقي الكابتن أيلمر أن نُظهر أنفسنا بدوًا، فإذا ما تحدثنا مع من يقابلنا فلغتنا ستظهر شخصياتنا، لكننا عندما نضع الكوفيات على رؤوسنا ونتلثم بها نبدو كأننا بدو لا نختلف عن رفقائنا، بل أحيانًا يتم الخلط فيما بيننا حتى نتحدث.

غادرنا بغداد في التاسع من شهر يناير ١٩٠٨ مع دليلنا وصديقنا محمد الماضي وبرفقتنا جماعة تقارب العشرين تاجرًا ومساعدوهم، وكنا جميعًا نمتطي الإبل. أنا والكابتن أيلمر ركبنا نياقًا دفعنا لكل واحدة منها ثلاث عشرة ليرة تركية؛ أما خادمنا فركب جملًا وكانت تكلفته اثنتي عشرة ليرة. أما مؤونتنا التي حملناها معنا فكانت عبارة عن عدة قطع من الملابس، وبعض التمر والرز والطحين والقهوة والشاي والسكر والملح والسمن والبصل وبعض الأشياء المعلبة. طوال رحلتنا كنا نأكل ونشرب مع رفقائنا والعرب الآخرين ممن قابلنا. أما الأطعمة المعلبة فعلى الرغم من أنها تعدّ تغييرًا جيدًا إلا أنها لم تكن ضرورية، فهي ثقيلة الوزن وتحتل حيزًا كبيرًا، ولو أُتيحت لي الفرصة ثانية لزيارة الجزيرة العربية لما حملت معي غير ما يحمله العرب عند سفرهم، أي الطحين والتمر والملح والرز والسمن وبعض البصل الذي يفضله العرب، لأنه يساعد في إعطاء نكهة للرز.

كانت المحطة الأولى لنا بلدة كبيسة، وهي بلدة عربية تحت الحكم التركي تبعد نحو تسعين ميلًا شمال - غرب بغداد وعدة أميال غرب بلدة هيت، وهي بلدة صغيرة على شط الفرات. في هذه المحطة (كبيسة) كان علينا أخذ اثنين أو ثلاثة من التجار الذين يريدون الذهاب للمتاجرة مع قبيلة

عنزة برعاية دليلنا محمد الماضي. اكتملت استعدادات قافلتنا في كبيسة، وفي السادس عشر من شهر يناير بدأنا دخول الصحراء إلى مضارب ابن مجلاد شيخ الدهامشة. كان دليلنا غير واثق من موقع مضارب قبيلته، لكنه يعرف أنها في مكان ما في اتجاه جنوب غرب. انطلقنا نحو تلك الوجهة بعد أن ملأنا قربنا بالماء من عين زعزوع خارج بلدة كبيسة. بعد أربعة أيام من المسير وصلنا في اليوم الخامس إلى مضارب القبيلة في منطقة عواج. كنا نعبر طوال الأيام الأربعة الأولى سهلًا منبسطًا مكسوًّا في جزئه الأكبر بأعشاب أو شجيرات تعلو إلى ما بين قدم وقدم ونصف القدم. كانت هذه الأعشاب صالحة في معظمها لرعي الإبل وخصوصًا شجيرات الروثة[1]. أما التربة وعلى طول الطريق فكانت حصبائية، ولم نمر بأية موارد للماء أبدًا. كان مسارنا خلال اليومين الأولين عبر مجرى وادي هجيا الذي يكثر فيه الماء في موسم الأمطار، كما علمنا، لكنه كان قد جف وقت مرورنا. تخلو جميع هذه المنطقة من القرى والمنازل أيًّا كانت، وبشكل مطلق لا يوجد شيء على شكل منزل بين كبيسة وسكاكة. لا يسكن هذه المنطقة إلا بدو يعيشون في بيوت الشعر، ويتنقلون كل يوم مع قطعان أغنامهم وإبلهم يبحثون عن الماء والكلأ. أما القبيلة التي جُل الوقت تجول المنطقة، ومررنا على بعض خيامها خلال الأيام الأربعة الأولى لرحلتنا، فهي قبيلة الدليم[2]. لم نر عددًا كبيرًا من أفرا هذه القبيلة، وما رأيناه لا يتجاوز مجموعة تقارب عشرة بيوت شعر. تستوطن قبيلة الدليم المنطقة المحاذية لشط الفرات الممتدة من كربلاء إلى هيت، وتنقسم إلى قسمين: الفلاحين، ويعيشون على ضفة النهر في دور؛ والبدو الذين يعيشون حياة الصحراء مع أنعامهم، ومن رأينا منهم من هؤلاء البدو. إن قبيلة الدليم

---

(١) اسمها العلمي À(Salsola villosa) وهي نبت شجيري معمر شبه عصاري يسمو إلى سبعين سنتمتر، سيقانه خشبية متفرعة صاعدة إلى قائمة والأفرع الحديثة عشبية. ينتشر في منطقة الوديان، ومنطقة الحماد، ومنطقة الحرة في شمال الجزيرة العربية. وهو رعوي ممتاز. انظر: **النباتات البرية في مراعي شمال المملكة العربية السعودية**، مصدر سابق، ص. ٦٥.

(٢) قبيلة رئيسة من قبائل غرب العراق.

قبيلة كبيرة، ومن المعلومات التي حصلنا عليها من بعضهم نستطيع تقدير مجموعهم بما يقارب ثلاثة عشر ألف بيت شعر.

إن ما يمكن ملاحظته في المنطقة بين كبيسة ومنخفض الجوف، هو وجود عدد من الرجوم (جمع رجم)، وهي نتوءات صخرية تعد علامات للحدود بين سلطات مختلف شيوخ البدو.

في اليوم الخامس منذ مغادرتنا كبيسة كما ذكرت آنفًا، وصلنا إلى مضارب دليلنا. وخلال إقامتنا معه لمدة أربعة أيام عوملنا معاملة حسنة، ولم يكن هو الوحيد الذي عاملنا باحترام بل آخرون، ومنهم الشيخ ابن مجلاد وكل من رأينا من أفراد هذه القبيلة.

تنقسم قبيلة عنزة إلى قسمين: بشر ويسودون تقريبًا في شمال وشرق الصحراء السورية الكبيرة[1]؛ وضنا مسلم ويسودون الجزء الغربي منها. بعض العشائر الرئيسة المتفرعة من فرع بشر، هم السبعة، والفدعان، والعمارات. أما ضنا مسلم فيتفرع منه الرولة، والسوالمة، وولد علي، والأشاجعة. فيما يتعلق بعدد أفراد قبيلة عنزة وجدنا من المستحيل الوصول إلى تقدير مقنع لتعدد التقديرات وتفاوتها، لكننا أحصينا بجانب بيت ابن مجلاد حيث خيمنا ما يقارب مائتين وخمسين بيتًا من بيوت الشعر.

كانت إقامتنا مع الدهامشة لمدة أربعة أيام وكانت هي الأكثر إثارة، حيث أتيحت لنا الفرصة لنأخذ صورة ممتازة عن حياة البدو في الصحراء. خلال هذه المدة انتقلنا معهم مرتين بحثًا عن الماء والمرعى. النساء في هذه المناسبات (مناسبات الرحيل) بشكل عام يركبن في هوادج يظللهن غطاء كبير يسمى «شطاب». والرجال المسنون وأيضًا الرجال الأصغر سنًّا يبدون ملتزمين دينيًّا؛ إذ يؤدون صلواتهم اليومية الخمس بانتظام.

كانت بنية أبدانهم متوسطة، لكنهم رشيقو القامة ونحيلين، وسحنهم أشد سمرة من الحضر المستوطنين في حائل والجوف. خلقتهم حسنة وعيونهم داكنة

---

(١) منطقة الحماد.

اللون، وجميعهم يضفرون شعورهم في جديلتين، كل جديلة منها على جانب من جوانب الوجه. بالنسبة لنا وبعد سنين من وجودنا في أفريقيا يمكننا وصف جميع هؤلاء البدو رجالًا ونساءً بالوسامة والجمال، وأعتقد أن أغلب الناس يعدّونهم كذلك. النساء في هذه القبيلة رغم أنهن بشكل عام يبقين في المحارم، ولا يشاركن في النقاشات مع الرجال حول مواقد القهوة (كما جرت العادة عند النساء في قبيلة الصلبة أو نساء الجبل في حوران) إلا أنهن أكثر تحررًا من نساء القرى من حيث سترهن لوجوههن. إضافة إلى ذلك فإنهن كما يبدو يقمن بمعظم الأعمال في عمليات الرحيل وجمع الحطب وغير ذلك من الأعمال. الخيول قليلة عندهم وفي الحقيقة لم نر إلا ما يقارب ثمانية أو تسعة منها عند عشيرة ابن مجلاد عندما كنا عندهم، والإبل هي الوسيلة المستخدمة للركوب، وخصوصًا النياق منها لأنهم يعدّون ركوب الجمال أمرًا غير مناسب.

إن من المثير هنا، ملاحظة أن الصوت المستخدم لمناداة الناقة غير ذلك المستخدم لمناداة الجمل، وقد كانت تجربتي تتلخص في أنه إذا تم استخدام النداء الخاطئ فقد لا يلقى النداء صدًى. الصوت المستخدم للناقة هو «هيّ» ويبدأ الصوت منخفضًا ويرتفع بحدة، أما بالنسبة للجمل فالصوت هو «زا - ها» وأن تكون نبرة الصوت أعلى في القسم الأخير، وأقصر في الجزء الأول.

تعدّ حياة البدو أقصى حالة من حالات البطالة، حيث إنهم لا يفعلون شيئًا على الإطلاق، عدا التنقل من يوم لآخر مع قطعان ماشيتهم. كبار السن منهم يمضون أوقاتهم جالسين بالقرب من موقد النار يشربون القهوة، أما الأصغر سنًّا فهم بالمثل أيضًا يعيشون حياة رتيبة ماعدا شهور الشتاء عندما يذهبون في الغزو للاستيلاء على ماشية أعدائهم وبيوتهم. إن مطالب البدو وحاجياتهم قليلة جدًّا، فأقصى رغبة لهم هي الحصول على بندقية أو مسدس أو منظار. أما طعامهم وملابسهم فهي بسيطة جدًّا.

يتكون الأكل بشكل أساسي من الرز والطحين والتمر وحليب النياق والقهوة وفي بعض الأحيان اللحم. أما ملابسهم فتتكون من عباءة وثوب

(زبون) وسروال وكوفية وعقال. لا يبدو أن هؤلاء البدو بصحة جيدة، فعدد منهم يعانون من سعال قوي، وكثير منهم يشتكون من صعوبة في الهضم، كما أن بعضهم يشتكون من عيونهم بسبب الإكثار من شرب القهوة حسب قولهم.

كانت قبيلة الرولة كما أُخبرنا مخيّمة في مكان ما بين مساكن هذه القبيلة والجوف، لذا فإن دليلنا محمد الماضي، الذي قال إن أخاه عبدالله سيرافقنا، رأى أنه من الضروري أن نأخذ معنا رفيقًا آخر ينتسب إلى الرولة حماية لنا إذا ما قابلنا أحدًا منهم. لقد وجدنا بصعوبة رجلًا كبير السن من الرولة يرافقنا مقابل مبلغ من المال. وثبت لنا أن هذا الرجل لا فائدة منه على الإطلاق، لأننا لم نصادف أحدًا من قبيلته ولم يساعدنا أبدًا لا في حلنا ولا في ترحالنا.

في اليوم الرابع والعشرين من شهر يناير اشترينا جملًا لعبدالله الماضي ليركبه، وانطلقنا إلى الجوف بعد أن ودعنا رفيقنا السابق وأصدقاءنا من قبيلة عنزة.

بعد أن غادرنا مضاربهم، عبرنا منطقه تدعى عميج، التي تأخذ اسمها من اسم وادٍ هو وادي عميج الذي سرنا على امتداده مسافة ليست قصيرة حتى التقى بوادي حوران[١]. مثل جميع الوديان التي عبرناها في هذه الجهة من جهات الجوف، لم نر ماءً يجري بها، لكننا كنا نحصل على الماء بعد حفر عدة أقدام في الأرض، وكل هذه المنطقة تحمل اسم الوديان[٢]. لم تختلف المنطقة التي سرنا عبرها لمدة يومين عن المنطقة التي عبرناها قبل وصولنا مخيم عنزة، فهي سهول واسعة مغطاة بالأعشاب. في مساء اليوم الثاني؛ وصلنا إلى سلسلة من التلال التي ترتفع من ثمانين إلى تسعين قدمًا في السهل المحيط، وتسمى حزيميات، وتمتد هذه السلسلة باتجاهات الشرق والغرب.

---

(١) واد رئيس في منطقة الحماد شمال الجزيرة العربية ويمتد من الجزء الأردني مارا بالجزء السوري منها، وينتهي إلى نهر الفرات عند مدينة حديثة في غرب العراق.

(٢) منطقة الوديان منطقة حجرية شاسعة تنحدر بصفة عامة نحو الشمال الشرقي باتجاه الفرات، وهي متاهة من الشعاب والوديان التي تجري فيها، ومنها وادي تبل ووادي المراء. ووادي الأبيّض ووادي أحامر ووادي عرعر ووادي أبا القور ووادي بدنه. تحيط هذه المنطقة بمدينة عرعر في شمال شرق المملكة العربية السعودية.

ابتداءً من هذا اليوم وحتى وصولنا إلى الجوف، تغيرت جميع سمات المنطقة فأصبحت تلالية يتراوح ارتفاعها ما بين مئة وخمسين ومئتي قدم، وتمتاز بصخريتها وبشدة انحداراتها ووعورتها. كانت بعض المنحدرات التي كان علينا النزول من خلالها، شديدة الانحدار. وبدلًا من العشب الذي كان في طريقنا في المراحل الأولى من سفرنا أصبحت المنطقة صخرية، صخور صغيرة وكبيرة، مدورة الأشكال، والاستثناء الوحيد في هذه المنطقة نجده في بعض المنخفضات وقيعان الوديان، حيث نرى بعض الأعشاب أو الشجيرات التي تحمل أزهارًا برية. لقد عبرنا أودية جافة ذات قياسات متساوية يبلغ اتساعها من عشرين إلى ثلاثين ياردة. وكما قلت كانت هذه الوديان جافة عدا وادي تبل وأودية أخرى، حيث كنا محظوظين بوجود اثنتين من خباري الماء، التي خلفتها الأمطار، لكنها كانت ملوثة. في المواسم الممطرة يكثر الماء في كل هذه الأودية كما أخبرنا مرافقونا. في وادي تبل توجد بعض الآبار التي تبعد إحداها عن الأخرى مسيرة ثلاث ساعات على طول مجرى الوادي، حفرها أفراد قبيلة الصلبة. وفي الصيف يمكن استخراج الماء من هذه الآبار بشكل دائم إذا حُفرت الأرض لعدة أقدام. إن الصخور الرملية الموجودة في جبل أمغار ومنطقة الجوف من النوع الذي تتغير ألوانها بشكل آسر، فتأخذ اللون البنفسجي والأزرق الأرجواني والأصفر. لا توجد أية علامات لوجود زراعة في المنطقة، لا حديثًا ولا قديمًا، ولم نر شيئًا يدل على ذلك، سوى في مكان قريب من وادي حزيم، حيث وجدنا بعض الصخور المبنية التي قال مرافقونا إنها تشير إلى أنه كانت هناك بعض البساتين، لكنني أعتقد أنه من غير الممكن حتى في موسم الأمطار وجود زراعة في المنطقة عدا في بعض البقع بجوار مجاري الأودية. ما وراء نطاق كبيسة لم نر الكثير من حيوانات الصيد، لكن في ثلاث أو أربع مناسبات رأينا قطعانًا من غزال الريم الصغير الحجم، الذي يقارب في حجمه حجم غزال تومسون[1] الذي ينتشر في شرق أفريقيا، ولكن

---

(١) غزال أفريقي شهير سمي بهذا الاسم نسبة للمستكشف الأسكتلندي جوزيف تومسون، ويتميز بشريط أسود يمتد على طول جسده الشبيه بالمعطف المشع وبقعة بيضاء ممتدة إلى أسفل الذيل وقرون طويلة منحنية قليلًا.

قرون غزلان الريم أطول ولها انحناءة صغيرة للخلف. أما طيور الحبارى والقطا فهي متوافرة وعلى طول امتداد طريقنا إلى الجوف. كانت جميع الغزلان والطيور فِزعَة، فالغزلان فرت عندما كنا على بعد نصف الميل منها، ولم نرها مرة أخرى. إنني أرجع سبب ذلك إلى حقيقة أن البدو الذين يتنقلون في هذه المنطقه دائمًا مسلحون بالبنادق ويطلقون نيرانهم على كل طاردة يرونها، وكان بعضهم يستخدم الصقور لصيد الطيور وحتى الغزلان. لقد كنا محظوظين لاختيارنا أحسن أوقات العام للسفر، فالمناخ كان ممتازًا، وإن كان باردًا خلال الليل، فالتيرمومتر سجل في إحدى الليالي خمسة وعشرين ونصف الدرجة المئوية فهرنهايت، ولكن ذلك يتغير بشكل كبير خلال منتصف النهار، حيث تصل درجة الحرارة إلى واحد وتسعين درجة فهرنهايت، أي أن مدى التغير يصل إلى خمسة وستين ونصف الدرجة فهرنهايت بين الصباح والظهر.

بالقرب من وادي الباطن[1] أسعفنا الحظ بملاقاة أفراد من قبيلة الصلبة. وأقول محظوظين ليس لأن هؤلاء القوم مثيرون للاهتمام، بل لأننا قد أضعنا طريقنا، والماء أخذ يقل معنا، ولا نعرف أين نبحث عنه، وقد أخذونا إلى مكان نستطيع أن نحصل منه على ماء لتعبئة قربنا.

إن أصل هؤلاء القوم ينتابه الغموض، لكنني سمعت عدة نظريات، النظرية الأولى تقول إنهم يعودون بجذورهم إلى الصليبيين، وإن اسمهم يعني الصليب. نظرية أخرى تقول إنهم السكان الأصليون للجزيرة العربية واسمهم يأتي من كلمة صُلب، أي أصل.

إنهم صغار في أحجامهم لكنهم يتصفون بالوسامة. نساؤهم أجمل من نساء البدو الآخرين ممن رأيت، وهم مسلمون وإن كانوا غير دقيقين في تطبيق الشعائر والقوانين الإسلامية. القبائل البدوية الأخرى تحط من قدرهم وتسلبهم. فعندما يغتنون، تهاجمهم قبيلة عنزة والقبائل الأخرى وتأخذ قطعانهم. وهم لا

---

(١) وادي الباطن وادٍ يقع في شمال شرق شبه الجزيرة العربية. يبدأ من رمال صحراء الدهناء غربًا، ويمتد إلى شط العرب في العراق شرقًا، ويبلغ طوله التقريبي ٤٢٥ كيلًا وعرضه يتراوح من ٢٢٠ مترًا إلى ٥٥٠ مترًا.

يملكون إلا القليل من الإبل، لكنهم يمتلكون الكثير من الأغنام والماعز والحمير المشهورة بقدرتها على التحمل والصبر.

يشتهر الصلب ببراعتهم في الصيد، وبمعرفتهم بالمنطقة، ومعرفة أماكن وجود الماء. الرجال منهم يلبسون ثيابًا فضفاضة جذابة الشكل، مصنوعة من جلود الغزلان التي يصطادونها. والثوب الواحد يتطلب جلود ما يقارب خمسة عشر غزالًا. أما النساء فإنهن يلبسن زيًّا عاديًّا كالبدويات الأخريات. أما بنادقهم فهي تشبه بنادق صيد الحيوانات الكبيرة المستخدمة في شرق أفريقيا، وقد رأينا بندقية ذات فتيل رائعة ملفوفة بالقماش ومربوطة بأسلاك، قال صاحبها بافتخار إنه بواسطتها كان دائمًا يصطاد الغزال عن مسافة أربعين إلى خمسين ياردة. إنهم أكثر إبهاجًا وبساطة من غيرهم ممن رأينا. في المساء ذهبنا إلى أحد اجتماعاتهم، حيث يجتمع الجميع رجالًا ونساءً حول النار في إحدى خيامهم. إنهم يعزفون بشكل ممتاز على آلة موسيقية تتكون من قصبتين مجوّفتين مربوطتين مع بعضها بعضًا، تخرج صوتًا يشبه المزمار. كما أنهم شعراء مدهشون فهم يستمرون لساعات يقصون قصصًا على شكل قصائد منظومة، وعند آخر كلمة من كل بيت شعر له إيقاع يردده المستمعون بهتافات مليئة بالدهشة والفرح والحزن وبتأثر شديد. لقد كنا آسفين لمغادرة هؤلاء الناس المتواضعين والمضيافين في الوقت نفسه، وأخذنا واحدًا منهم ليرينا الطريق إلى الجوف.

إن منطقة الجوف عبارة عن منخفض كبير يعطي الانطباع أنه كان بحيرة كبيرة، أو بحرًا داخليًّا. أرض هذا المنخفض الكبير صخرية، ومغطاة بطبقات مسطحة من الصخور الرملية ذات الألوان الأرجوانية والمحمرة. وتقع بلدة الجوف التي تأخذ اسمها من اسم المنطقة على الحد الغربي لهذا المنخفض وفي جوف من الأرض يتسع تقريبًا لميلين. ولكن القادم من الشرق سيصل أولًا إلى بلدة سكاكة، التي تبعد نحو الثلاثين ميلًا شرق بلدة الجوف.

بلدة سكاكة عبارة عن واحة فيها عدة آلاف من أشجار النخيل التي تنتج أفضل أنواع التمور. وفيها ما يقارب أربع مئة مسكن، جميعها مبنية بالطين،

ولكنها تمتاز بالمتانة، وبعضها يتكون من طابقين. ونحن نقدر عدد السكان بألف وسبع مئة نسمة. بعد أن زرنا الجوف وجدنا أن سكاكة هي البلدة الأكثر نظافة، وتبدو الأكثر ازدهارًا، والتجارة القليلة في المنطقة تتم كما أعتقد في سكاكة حيث وجدنا عددًا من تجار كربلاء (مشهد الحسين) ومن النجف (مشهد علي) يعيشون بها. كان الماء في سكاكة وافر بأنواعه الحلوة والمالحة، ويسحب من الآبار عن طريق الجمال أو الثيران، وبالقرب التي تفرغ آليًا، حيث تسقى حقول النخيل والمزارع عن طريق مجاري ماء ضيقة. طريقة الري هذه شائعة في شرق تركيا وفي شمال الجزيرة العربية. يبلغ عمق آبار المياه الحلوة ما بين خمسين إلى ستين قدمًا تحت سطح الأرض.

في الطرف الشمالي للبلدة توجد قلعة مبنية بالحجارة تدعى قصر زعبل، أعتقد أنها ذات جذور عربية قديمة، وأخبرنا السكان أنها تستخدم الآن، في بعض الأحيان، سجنًا.

لقد وصلنا إلى سكاكة كأجانب، ولم ندَّعِ أننا مسلمون، ومع ذلك عوملنا معاملة تشمل كل معاني الضيافة من شخص مشهدي[١] يدعى حسينًا، وكل الذين قابلناهم في سكاكة عاملونا بكل كرم، وبطريقة لا تختلف عن معاملة حسين.

تخضع سكاكة، كبقية منطقة الجوف، لابن رشيد، ويديرها أحد أمرائه، ومقره في بلدة الجوف، وله وكيل أو مندوب بسكاكة. كان هذا الوكيل علي بن جارد (Ibn Gaarde). عندما سمع هذا الوكيل بوصولنا، وبأننا عازمون على زيارة الجوف جاء إلينا ليعلمنا أنه علينا الانتظار في سكاكة حتى يحصل على إذن بالسماح لنا بمواصلة مسيرنا من فيصل بن رشيد[٢] أخي أمير حائل[٣]، الذي جاء إلى الجوف قبل شهر، أميرًا لهذه المنطقة.

هذه الأنباء عن فيصل بن رشيد في الجوف لم تلق استحسانًا لكوننا لم

(١) يقال مشهدي لكل من ينتسب إلى مشهد علي(النجف) أو إلى مشهد الحسين (كربلاء) في العراق.

(٢) فيصل بن حمود بن عبيد الرشيد.

(٣) كان الأمير حينها سعود بن حمود بن عبيد الرشيد.

نحمل له خطاب تعريف بنا، والهدية التي أحضرناها لنعطيها سلفه كانت بندقية، والآن كان من المؤكد أن هذه الهدية لا تليق برجل في مكانة فيصل.

بعد يوم من وصولنا إلى سكاكة جاءت موافقة فيصل بن رشيد بتوجهنا إلى الجوف وأعرب عن ترحيبه بنا. إن الرحلة من سكاكة إلى الجوف تستغرق سبع ساعات على ظهور الإبل. وهذه المنطقة تزخر بالتلال، يتخللها بعض بقع نفود (رمال)، وكل الصخور من أصل رملي. وفي مكان يسمى مويسن على مسافة ساعتين من الجوف، يوجد حصن قديم غير مستخدم، وينبوع، وبئران. وفي جاوة، وهي تبعد قليلًا عن مويسن توجد هناك قرية صغيرة، وزراعة في وادي روض الفراس. حال وصولنا إلى الجوف أُخذنا فورًا إلى قصر الأمير أو قلعته وهي عبارة عن مبنى كبير من الطين والحجارة طولها تسعون ياردة، وعرضها خمسون ياردة، وارتفاع الجدران أربعون قدمًا. وفي كل ركن يوجد برج بارتفاع ستين قدمًا. وهي مبنية بغرض دفاعي، فليس بها نوافذ، والباب في زاوية الجدار وهي محصنة جيدًا. دخلنا غرفة استقبال وقدمت لنا القهوة، وبعد دقيقة قادونا إلى فناء القصر حيث رأينا المدفعين البريطانيين اللذين تكلمت عنهما الليدي آن بلُنت، ثم أخذنا لمقابلة الأمير فيصل بن رشيد.

كنا غير واثقين من نجاح المقابلة مع فيصل، لأن سمعته لم تكن طيبة كما ستوضح هذه القصة:

قبل نحو سنتين ونصف السنة من زيارتنا (١٩٠٦)، كان سلطان حائل عبد العزيز بن متعب قد قضى تاركًا ثلاثة أولاد، هم: متعب ومشعل ومحمد[١]، وأعمارهم على التوالي عشرون سنة، وخمس عشرة سنة وعشر سنين. خلَف متعب[٢] وهو أكبرهم والده على المشيخة. عند وفاة عبد العزيز، كان على قيد

(١) بالإضافة إلى هؤلاء كان له ولد صغير آخر من زوجة أخرى هو سعود، وقد هرب به أخوله من آل سبهان وعبد والده ووزير ماليته سعيد إلى المدينة المنورة ليكون بحماية السلطات التركية. وقد عادت السلطة إلى هذا الطفل في بداية شهر سبتمبر سنة ١٩٠٨، وقد قضى قتلًا أيضًا، كأخوته وأبيه وجده، سنة ١٩٢٠ بعد حكم دام إحدى عشرة سنة شهدت فيها إمارته تحديات كبرى أدت إلى نهايتها سنة ١٩٢١.

(٢) متعب بن عبدالعزيز بن متعب بن عبدالله الرشيد، تولى الحكم في شهر إبريل سنة ١٩٠٦خلفًا =

الحياة أبناء ابن عمه [حمود عبيد الرشيد] وهم: سلطان، وفيصل، وسعود، وكانوا رجالًا راشدين. بعد مضي ستة أشهر على متعب في الحكم تآمر أبناء حمود على ابن عمهم لإبعاده عن السلطة فدعوه هو وأخوته الصغار ومعهم غلام يدعى طلالًا وهو ابن نايف بن طلال إلى رحلة خارج البلدة. وبعد تناول الأكل، تم اقتراح أن يقوم العبيد بالاستعراض على ظهور الخيل وبإطلاق النار. وبينما كان هذا الاستعراض جاريًا أخذ سلطان وفيصل وسعود بنادقهم وبدأوا بإطلاق النار على الأولاد الأربعة فقتلوهم جميعًا ماعدا الصغير محمدًا الذي جُرح جرحًا بليغًا فأُخذ إلى أمه أخت هؤلاء السفاحين الثلاثة. وبعد ما يقارب شهرين بعد هذه الوقعة شعرا بأن محمدًا قد يشفى فذهب سعود إلى بيت أخته ومعه ستة من العبيد فقطَّع الصبي إربًا إربًا أمام عيني أمه. بعد هذه الحادثة الوحشية، تولى سلطان الرشيد(١) بوصفه أكبر هؤلاء الوحوش مقاليد الحكم في حائل، لكنه، وهي العادة في هذا الجزء من العالم، قُتل على يد أخيه سعود عندما كنا هناك، وسعود(٢) وفيصل(٣) بدورهما تم القبض عليهما وسجنهما من قبل خال(٤) الغلام الرضيع الذي خلفه متعب(٥).

وجدنا فيصل بن رشيد يجلس في غرفة سفلية، سقفها مدعم بأعمدة خشبية، وفرشت أرض الغرفة بالسجاد، حيث كان يجلس وزراؤه وأعضاء

= لوالده القتيل الأمير عبدالعزيز بن متعب. وقد اغتيل هو نفسه بعد حكم دام تسعة شهور بالطريقة التي ذكرها بتلر، في بداية شهر ذي القعدة ١٣٢٤هـ/ شهر مارس سنة ١٩٠٧.

(١) سلطان بن حمود بن عبيد الرشيد، تولى حكم الإمارة بعد مقتل الأمير متعب ولم يهنأ بها إذ عزله أخواه سعودًا وفيصلًا بعد سبعة شهور من الحكم وقتلاه في نهاية شهر يناير ١٩٠٨.

(٢) تولى حكم الإمارة بعد مقتل أخيه وقتل بدوره بعد ثمانية شهور علي يد مناصري الأمير الطفل سعود بن عبد العزيز بن متعب في أوائل شهر سبتمبر ١٩٠٨.

(٣) لم يقبض على فيصل الذي كان أخاه سعودًا قد عينه بعد استلامه الحكم مباشرة أميرًا على الجوف لإبعاده، بل رحل من الجوف إلى الرياض ليبقى في حماية عبدالعزيز آل سعود والعمل معه لتقويض الحكم الجديد في حائل.

(٤) حمود بن سبهان السبهان خال الأمير سعود بن عبدالعزيز بن متعب الرشيد والوصي عليه، وقد أدار شؤون الأمارة حتى موته مسمومًا في ربيع سنة ١٩٠٩.

(٥) يشير هنا إلى سعود بن عبدالعزيز بن متعب الذي سبقت الإشارة إليه ولم يكن رضيعًا بل كان في ربيعه الثامن تقريبًا عند مقتل والده.

بلاطه. جلس هو خلف موقد النار في الجانب الآخر من الغرفة، وعند دخولنا وقف وتقدم للترحيب بنا. إنه رجل يبلغ الثالثة والثلاثين من العمر، وله لحية سوداء مدببة، وملامح منتظمة وحسنة، وعينان باردتان قاسيتان وله سلوك مستفز، وكان كل الوقت مشغولًا بإصلاح عباءته، ويمشط ويرتب شاربه وينظر إلى مرآة رخيصة الثمن كانت معلقة خلفه. وفوق رأسه على الجدار علقت عصا محلاة بالفضة وسيفه المحلى غمده بالفضة أيضًا. كان الأمير يرتدي فاخر الثياب الأمر الذي يدل على مدى ثرائه، وكانت عباءته من القماش الغالي، مطرزة بخيوط مذهبة وكان كل ثوبه حريريًّا، وعقاله مثقلًا بشريط من خيوط ذهبية.

وعند وصولنا إلى المنزل الذي أُعد لإقامتنا، أعربنا أنا والكابتن أيلمر عن غبطتنا بهذا الاستقبال والحفاوة وطالعنا السعيد. اعتقدنا أننا سنقضي وقتًا طيبًا في الجوف، لكن الأمور بسرعة تحولت إلى خيبة أمل. لم نستقر أكثر من خمس دقائق في المنزل حتى جاء إلينا رئيس عبيد فيصل، وكان يلبس فاخر الثياب ويدعى داحمًا، وأخبرنا أن الأمير لن يأخذ جمالنا أو مالنا لأنه يملك الكثير منها، لكنه يرغب في أي شيء معنا أوروبي الصنع أو مثير أو جديد أتينا به معنا. وفي أثناء الأيام الخمسة التي قضيناها هنا توافد علينا عبيد الأمير والطفيليون من القلعة يطلبون أشياء للأمير ورجاله. وكانت المطالبة بصورة لا يمكن بالنسبة لمن هو في موقفنا أن يرفضها، فاستمر الأمر على هذه الحال إلى أن فرغ تمامًا ما كان لدينا، وأعطيناهم كل ما له قيمة حتى أصبحنا صفر اليدين من الساعات، والمسدسات، والبوصلات، والملابس بأنواعها، والأشياء الأخرى. وبعيدًا عن هذا الأسلوب، الذي يعدُّ نهبًا مؤدبًا، فقد عاملنا الأمير معاملة حسنة، وكان يرسل طعامنا بنفسه من القلعة. كما كان يدعونا أربع مرات في اليوم للقلعة، وكنا نسارع بتلبية الدعوة لاحتساء كميات من القهوة وشايًا جيدًا طيب المذاق في صحبة الأمير، ونتحدث عن بلاده وعن أوروبا. كان يسأل أسئلة كثيرة عن إنجلترا وشعبها، وكان يكشف عن جهل عظيم بها، لكنه كان يعرف اسم ملك إنجلترا[١]

---

(١) الملك إدوارد السابع (١٨٤١- ١٩١٠). توج ملكًا لبريطانيا العظمى وملحقاتها وإمبراطور للهند سنة ١٩٠١ خلفًا للملكة فيكتوريا.

وملكتنا الراحلة فكتوريا[1] جيدًا. وكان لطيفًا في الحديث عن هذه الأشياء، الأمر الذي جعلني أعتقد بأنه كان يظن أنه عاملنا معاملة جيدة لأنه لم يأخذ كل ما لدينا ويقذف بنا للصحراء لنموت هناك.

وقبل أن نترك موضوع ابن رشيد، ينبغي علينا أن نعرف كيف يتعامل مع جيرانه المتعددين. كان أهم وأول هؤلاء هم الأتراك. ولابد أن أذكر هنا أنني أتحدث عن مدة مضى عليها ثمانية أشهر، أي قبل أن يمنحوا الدستور الحالي[2].

إن الأتراك فيما يبدو ليس لهم نفوذ على سلطان حائل، والأمر ليس له علاقة بعدم وجود علاقات صداقة، بل إن هناك شعورًا بالعداء للأتراك من السلطان ابن رشيد في حائل. وهذه الكراهية كما أخبرني أحد الرجال المهمين في الجوف ربما كانت تعزى إلى أن الحكومة العثمانية كانت تدفع إعانة لسلطان حائل الذي كان يدين لها بالولاء، ولكن عندما قتل سلطان الرشيد الراحل أبناء عمومته، وأعلن نفسه سلطانًا على حائل أوقفت الحكومة العثمانية الإعانة. وبدلًا من أن تدفع له أخذوا يدفعونها للطفل الذي أنجبه الحاكم الشرعي القتيل متعب، والذي أُخذ ليعيش في المدينة بعيدًا عن خطر الموت.

يلي الأتراك في الأهمية من الجيران، آل سعود المنافسون القدامى لسلطان حائل، والذين بينهم وبينه حالة حرب مستمرة يتقاسمان انتصاراتها. وعندما كنا في الجوف أخبرونا بأن ابن رشيد هزم ابن سعود هزيمة كبيرة في ربيع سنة ١٩٠٧ كانت أشبه بالمذبحة الكبرى، فقد قُتل من رجال ابن سعود ثلاث مئة رجلٍ وساد ابن رشيد بعد تلك المذبحة. لكننا ونحن في الجوف علمنا بأن الدائرة دارت على ابن رشيد وأضحى ابن سعود هو المتفوق. وبجانب هاتان

---

(١) الملكة فيكتوريا (١٨١٩- ١٩٠١). توجت ملكة لبريطانيا العظمى وإيرلندا سنة ١٨٣٧ وإمبراطورة للهند سنة ١٨٧٦.

(٢) شهدت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر الميلادي مشروعات إصلاحية عرفت باسم التنظيمات، وكان من ضمنها دستور للدولة، وقد أعلن هذا الدستور سنة ١٨٧٦؛ لكن العمل به سرعان ما أبطل من قبل السلطان عبدالحميد سنة ١٨٧٨. وقد أعيد العمل به بعد ثلاثين عامًا من قبل السلطان نفسه في ٢٣ يوليو ١٩٠٨.

القوتين الكبيرتين الأتراك وابن سعود، لم يكن هناك قوة في الجوار تهدد ابن رشيد إلا قوة قبيلة عنزة.

كان ابن رشيد الراحل في حالة سلام مع الرولة - فرع من عنزة - بقيادة ابن شعلان، وعندما كنا هناك، جاء ابن شعلان[1] شخصيًّا في زيارة مجاملة لفيصل ابن رشيد في الجوف، وقدم له هدايا رمزًا للصداقة. لكن مع بشر عنزة كانت الحرب مستعرة، وليس بعيدًا من تاريخ وصولنا إلى الجوف كان فيصل بن رشيد يقوم بغارات على بشر عنزة بنجاح كبير على حد رواية أتباعه إذا كانوا قد صدقونا القول.

قضينا خمسة أيام في الجوف، وكان لدينا الوقت للاطلاع على ما حولنا. البلدة تمتد من الشمال الغربي والجنوب الشرقي، وتقع في حزام من النخيل يبلغ طوله ميلين ونصف الميل، وعرضه نصف الميل. وفي النهاية الشمالية يوجد الحصن القديم المسمى مارد والسوق. وفي النهاية الجنوبية توجد قلعة الأمير وهي مبنًى شُيِّد في منتصف القرن الماضي. أما السوق، فلا يستحق هذا الاسم فهو عبارة عن مجموعة منازل حول الحصن، ولا توجد دكاكين وكل عمليات البيع والشراء تتم في البيوت التي يمتلكها التجار هنا وفي سكاكة أيضًا. وفي كلا المكانين لم نجد شيئًا يمكن شراؤه، عدا القهوة والدقيق ولا يوجد سكر أو أرز أو شاي أو بصل أو أي شيء آخر له قيمة يمكن شراؤه. إنها بلدة تتكون من أربع مئة وخمسين منزلًا طينيًّا، وأقدر عدد سكانها بين ألفين وخمسمائة وألفان وسبعمائة وخمسين نسمة، وبالتأكيد ليس أكثر بكثير، وأتفق مع ويلفريد بلنت بأن بلغريف بالغ عندما وضع سكان الجوف وسكاكة في رقم مثل أربعين ألف نسمة، بينما السيد فوردر قدَّر عدد السكان بأربعين ألف نسمة في الجوف وحدها. إن المنازل مثلها كمثل المنازل في سكاكة مبنية جيدًا من الطين، وبعضها يتكون من طابقين. وفي الجوف مثلما هو الأمر في سكاكة يعتز الناس بالنخيل لأن تمرها كبير ولذيذ الطعم ومشهور بأنه أطيب تمر في

---

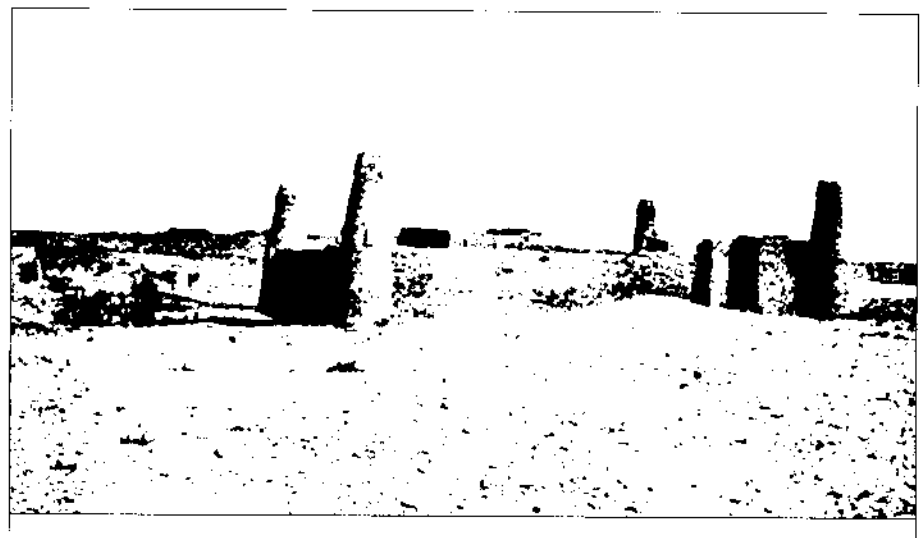
(١) كان شيخ القبيلة في هذا الوقت الشيخ النوري بن هزاع الشعلان، وسوف يرد حوله الكثير في الفصل العاشر من هذا العمل.



فيصل بن حمود الرشيد أمير الجوف مع رجاله في قصر خزام بدومة الجندل (بتلر، ١٩٠٨م)



علي الجارد، وكيل أمير الجوف في بلدة سكاكة (بتلر، ١٩٠٨م)



قصر خزام بدومة الجندل (بتلر، ١٩٠٨م)



داخل قصر مارد بدومة الجندل (بتلر، ١٩٠٨م)



منظر للجزء الشرقي من دومة الجندل ويظهر بعيداً في الصورة قصر خزام (بتلر، ١٩٠٨م)



منظر للجزء الغربي من دومة الجندل (بتلر، ١٩٠٨م)

شمال شبه الجزيرة العربية. والصناعة الرئيسة هنا هي نسج العباءات وحقائب السروج وأغطية رؤوس الجمال، وصناعة السيوف، وفي سكاكة أيضًا ينسجون العباءات الفاخرة، وهذه العباءات معروفة في دمشق وبغداد. الماء في الجوف متوافر وجيد، وهناك ستة ينابيع وكثير من الآبار، ويقول المواطنون إن ماءهم بارد في الصيف ودافئ في الشتاء. وبالفعل كان الماء دافئًا في الشتاء أما برودته في الصيف فهي ما لا أستطيع تأكيده. ومارد القلعة القديمة التي تتجمع حولها المنازل، والتي يعطيها السكان أهمية كثيرة لا تلفت النظر إلى أنها كانت شيئًا رائعًا ذات يوم، وهي الآن متداعية، وأعتقد أنها شيدت قبل ست مئة سنة.

إن سِحَنَ أهل حائل أفتح لونًا من سِحَنِ أهل الجوف. وقد أثبت السكان بأنهم أقوياء المراس في الماضي، وأثاروا مشكلة كبرى للسلطان في حائل، ولكنهم الآن كما يبدو مطيعون للقوانين ويدفعون الضرائب لابن رشيد دون أدنى تذمّر. والضرائب هي: ريال عن كل عشر رؤوس من الماعز أو الضأن، وريال لكل خمس رؤوس من الإبل، وستة ريالات لأية حمولة بضاعة يجلبها التجار، وريال عن كل جمل يباع، والعُشر عن جميع محاصيل التمر والحبوب من المنتج نفسه. بعد صعوبة؛ وجدنا رجلًا بمساعدة الأمير ليأخذنا إلى الشام (دمشق جنة البدو). وفي صباح اليوم الخامس من وصولنا إلى الجوف، وبعد وداع الأمير فيصل بن رشيد الذي أعطانا خطابات تعريفٍ منه إلى دروز جبل حوران، بدأنا رحلتنا ومعنا مرشدنا حبيب، وخادمنا عباس، وشاب يسمى حامدًا تعلق بنا على الرغم من أننا أبلغناه بأننا لا نريده.

في الأيام الثلاثة الأولى للرحلة بعد مغادرتنا بلدة الجوف، سافرنا عبر سهل ممتد ذي تربة صخرية، تكسوها أعشاب قصيرة، ومن وقت لآخر تتخللها أحزمة رمال وتلال رملية منخفضة. لقد سرنا عبر طريق وادي السرحان، لكننا بقينا معظم الوقت بعيدًا بعض الشيء شرق طريق الآبار، هناك ماء على طول الطريق من الجوف إلى دمشق. وهناك خط منتظم من الآبار بعد آبار ميقوع، وبعد ساعات قليلة من الوصول إلى قصر الأزرق يمكن الحصول على الماء حتى في الصيف كما أخبرنا أدلاؤنا. وعندما تكون في قصر الأزرق فإنك عمليًّا في جبل حوران حيث الماء متوافر.

عند منتصف نهار اليوم الثالث بعد أن غادرنا الجوف أتينا لآبار النبك أبو قصر، حيث وجدنا بعض الرولة يستقون، ولديهم جمال كثيرة. لقد كانوا من رولة الشيخ ابن شعلان، أقوى شيخ في قبيلة الرولة. وكانت مضارب قومه على بعد يومين منا كما أخبرونا. ولما كان يسود في ذلك الوقت سلام بين ابن رشيد وابن شعلان، ودليلنا من رجال ابن رشيد، عاملونا معاملة طيبة. وفي المساء الذي تلا ذلك وقريبًا من وادي الأعيلي[١] مررنا بجماعة أخرى من الرولة وعسكرنا معهم، وبسبب هطول الأمطار الغزيرة التي منعت الذلائل من السير، قضينا اليوم التالي معهم. لقد عاملونا معاملة طيبة وأكرمونا جيدًا، ونصبوا لنا خيامنا وأمدونا بلحم إبل وحليب وحطب. لم يكن عددهم كبيرًا، فقد رأينا نحو ثلاثين خيمة فقط، ولم يكن معهم أغنام أو ضأن بل إبل فقط.

عندما وصلنا إلى مخيمنا في وادي الأعيلي، تغيرت طبيعة الأرض، واختفت الرمال والأرض المستوية، ذات التربة الصخرية، لتحل محلها تلال رملية مغطاة بالحجارة والصخور. ولم نشاهد جنوب وادي الأعيلي تكوينات بركانية. ومن هنا إلى جبل حوران ظلت طبيعة الأرض تلالًا رملية باستثناء الجزء الواقع بين كاف وقصر الأزرق، حيث كان مسطحًا وسهلًا تغطيه أعشاب قصيرة. وكان أكبر تلين شاهدناهما بين وادي الأعيلي وجبل حوران هما جبل الشداد وسمي كذلك لأنه يشبه سرج الجمل، وجبل المسمى وهو في الشمال قليلًا وجبل آخر طوله عشرون ميلًا ومئتان إلى مئتين وخمسين قدمًا في الارتفاع في بعض أجزائه. وقريبًا من جبل الشداد على بعد ميل واحد أو ما يقاربه مررنا على بحر من الرمال اللينة تسمى نقرة حضوضى وتبدو بيضاء، وتلمع في ضوء الشمس وهي نحو عشرة أميال مربعة، ولا يستطيع إنسان أو حيوان اجتيازها. هكذا أخبرنا أدلاؤنا، ولو ألقيت فيها حجرًا لابتلعته.

بعد ثمانية أيام من مغادرتنا الجوف، وصلنا إلى البليدات[٢]، وهي

(١) وادٍ رئيس من أودية حرة الحرة شرق وادي السرحان.

(٢) تصغير لكلمة بلدات، وكان الاسم يطلق على مجموعة القرى المذكورة، وفي أحيان أخرى كان =

مجموعة من القرى الصغيرة، تمثل حدود سلطة ابن رشيد الشمالية. وأسماء القرى على التوالي هي: قرقر، غطي، قليب طلال، الوشواش، إثرة، منوة، كاف، أم الغيران. وباستثناء كاف التي يسكنها أربع مئة نسمة، وإثرة التي يسكنها مئة نسمة، فبقية القرى عبارة عن حصون طينية بها بعض النخيل وينبوع ماء ونحو عشرة من السكان. الماء في كاف كبريتي، ولكنه لا يطاق طعمًا، ويسبب وجع رأس وإسهالًا لمن لم يتعود عليه، ويسبب في الصيف حمى للسكان. وهناك بقايا حصن يسمى قصر الصعيدي، وهو مشيد فوق جبل ارتفاعه أربع مئة قدم، ويطل على البلدة. بالقرب من كاف، توجد ملاحة كبيرة يجمع منها الأهالي الملح، ويبيعونه للبدو المجاورين. وفي قصر الأزرق توجد آثار قديمة، لكنها في حالة أحسن من التي في كاف. وعندما قضينا الليل كان هناك مجموعة من الأعراب ذوي نظرات إجرامية، وكانوا يحمون هذا المكان للدروز. لقد عاملونا معاملة حسنة، وعملوا ما في وسعهم لتكون إقامتنا مريحة. وقال لنا رئيسهم إنه موجود في هذا المكان منذ شهرين فقط، وإن أول واجباته هي أن يمحو بقايا من سبقه في هذا المكان، والذي عُلقت جثته على باب بيته لعدة أسابيع لأنه قتل رفيقه في هذا المكان، وكجزاء له عوقب بالشيء نفسه. فابن القتيل استنجد بالدروز لأخذ الثأر لأبيه، وقد فعلوا، حيث شنقوه وعلقوه أمام باب بيته لمدة أسابيع.

من قصر الأزرق إلى جبل الدروز استغرقت رحلتنا يومين، وكنا نصعد كل الوقت نحو جبل حوران، وقضينا الليل مع أهل الجبل. هؤلاء الناس كما أخبرنا أدلاؤنا كانوا من أخطر اللصوص وقطاع الطرق، لكنهم عاملونا معاملة طيبة. وهم بدو لهم علاقة بالدروز ويترددون على المنحدرات الجنوبية من الجبل ولديهم الكثير من الأغنام والضأن، ولكن لديهم القليل من الإبل. النساء هنا سافرات، وقد جلسن أمام النار مع الرجال، واحتسين القهوة، ودخنَّ غلايين خشبية طويلة تسمى (كندرا).

= يطلق عليها قريات الملح، وحاليًّا جميع هذه القرى المهجور والمأهول منها جزء من محافظة القريات إحدى محافظات منطقة الجوف.

ليس من الضروري أن أدخل في تفاصيل حول الدروز فهم ووطنهم معروفون جيدًا لدينا. وقد استقبلونا استقبالًا حسنًا، وأشعرونا بالامتنان، لأن الإنجليز ساعدوهم في الماضي، ومازالوا يحفظون لهم ذلك الجميل.

بدايه الأمر ظنوا أننا أتراك فعاملونا بفتور، لكن عندما اكتشفوا أننا إنجليز لم يدخروا وسعًا في الترحيب بنا وإرضائنا. كان أكبر شيخ للدروز هو مصطفى الأطرش، ويسميه قومه ومعارفه أبو علي. ووقفنا ليلة في قريته[1] فاستضافنا بكرم بالغ. والليلة التي تلتها قضيناها في قرية سليم الأطرش[2]، الذي رحب بنا بالطريقة نفسها. وكان هذا الأخير سيدًا متمردًا ومصدر إزعاج دائم للحكومة التركية. ومساكن الدروز مبنية جيدًا من صخور البازلت السوداء.

وبعد يومين من قرية سليم الأطرش، وصلنا خط السكة الحديد في نقطة تبعد عن دمشق ستين ميلًا. وهنا تركنا جمالنا ليعود بها خدمنا وأدلاؤنا، وأخذنا القطار المحلي في عربة بضاعة تعج بالعرب والأتراك والسوريين. وقد وصلنا دمشق في يوم ٢٥ فبراير ١٩٠٨. وفيما يتعلق بالحيوانات والطيور في المنطقة من الجوف إلى الجبل لم نشاهد الكثير من الغزلان مثلما شاهدنا في المنطقة من كبيسة إلى الجوف، ولكن رأينا آثار الأغنام البرية قريبًا من جبل المسمى والنعام في منطقة الأعيلي. وشاهدنا طيور القطا، والحبارى، والحجل الذي يصطاد للحمه، ولكن عمومًا لم نر الكثير من الطيور مثلما رأينا في النصف الأول من رحلتنا.

بينما كنا في الجوف، أهدانا فيصل بن رشيد زوجين من قرون الغزال العربي البري أحضرناهما معنا، وهما أقصر من قرون الغزال الأفريقي.

أود هنا أن أسجل بأنني كتبت هذه المحاضرة من ملاحظات الكابتن أيلمر بالقدر نفسه الذي اقتبسته من ملاحظاتي، وأسجل له امتناني إذ سمح لي باستخدامها في كتابة هذه المحاضرة، ونشر الخارطة، التي أعدها هو من

---

(١) قرية إمتان.

(٢) قرية الغارية.

ملاحظاتنا في الرحلة. كما أشكر كل الأصدقاء الذين استضافونا وساعدونا على إنجاز رحلتنا هذه»[1].

---

(١) النص المعرب:

Captain S.S. Butler, "Baghdad to Damascus Via El Jouf, Northern Arabia", **The Geographical Journal**, Vol. XXXIII, No.5, May, 1909. pp 517-533.

الفصل العاشر

ألويس موسيل

يعدُّ هذا الرحالة من أهم الرحالة العلماء الذين رحلوا في كافة مناطق شمال الجزيرة العربية. وهو بحق من الرواد الأوروبيين الذين أدوا خدمات علمية جديرة بالاحترام والتقدير لاسيما كتاباته التاريخية وتحقيقاته الرائدة في شؤون شمال جزيرة العرب، وتاريخه القديم، وقد عُدَّ أحد عظماء الدراسات الشرقية[١]، وأحد الذين لا يزال الباحثون في مجالات التاريخ والأنثروبولوجيا يعتمدون على ما قدمه من معلومات بوصفها أهم مصادرهم حول شمال الجزيرة العربية وقبائلها[٢]. فمن هو ألويس موسيل؟

ولد ألويس موسيل(Alois Musil)[٣] سنة ١٨٦٨ لعائلة من الفلاحين في قرية ريختروف (Rychtarov) بالقرب من بلدة فيشكوف (Vyskov) بمقاطعة مورافيا (Moravia)[٤] في جمهورية التشيك، إحدى أجزاء جمهورية تشيكوسلوفاكيا السابقة، التي انقسمت سنة١٩٩٤ إلى جمهورتين، جمهورية

(١) Harold R. P. Dickson, **The Arab of the Desert** (London: George Allen & Unwin, 1949), p. 27.

(٢) Madawi Al-Rasheed, "North Arabia through Musil's Telescope", **Archiv Orientální (ArOr),** Vol. 63, No.4, 1995), p. 446.

(٣) يختلف الكتاب العرب في كتابة اسم هذا العالم، فبعضهم يكتبه الوا موزل أو ألوا موزيل، وبعض آخر يكتبه الويس موصل ووالوا موسل وألواس موسيل، والأصح قد يكون رسمه وفقًا لنطق اسمه باللغة العربية وهو ألويس موسيل، وهو الرسم الذي يستخدمه هو شخصيًا في مراسلاته العربية.

(٤) تنسب إلى نهر موراڤا في وسط أوروبا وهي مقاطعة رئيسة في شرق جمهورية التشيك.

سلوفاكيا وجمهورية التشيك، وكانتا جزءًا من الإمبراطورية النمساوية - المجرية حتى هزيمة هذه الإمبراطورية في الحرب العالمية الأولى، وتفككها سنة ١٩١٩.

تلقى موسيل تعليمه الجامعي في كلية اللاهوت في جامعة أولوموس (Olomouc)[١] في مقاطعة مورافيا، وتخرج فيها قسيسًا سنة ١٨٩١. وعمل بعد تخرجه مدرسًا للدين في مدينة أوسترافا (Ostrava)، وفي الوقت نفسه كان يواصل تعليمه حتى تمكن من الحصول على درجة الدكتوراه في اللاهوت سنة ١٨٩٥.

بدأت علاقاته بالبلاد العربية مبكرًا؛ إذ كانت رغبته دراسة جذور الديانات التوحيدية، اليهودية والمسيحية والإسلامية، واستكشاف المناطق التي ظهرت بها، ودراسة شعوبها. وقد حصل على منحة دراسية من رئيس أساقفة أولوموس، ثيودور كون (Theodor Kohn)، للدراسة في المعهد الإنجيلي الفرنسي بالقدس[٢] لمدة سنتين، حيث انتقل في خريف ١٨٩٥ إلى القدس غير أنه لم يكمل مدته في هذا المعهد فانتقل بعد أربعة عشر شهرًا إلى جامعة القديس يوسف في بيروت لمواصلة دراسته بمنحة جديدة من الأكاديمية التشيكية للعلوم والآداب، وقد استمر بها حتى سنة ١٨٩٨. تنقّل موسيل خلال إقامته في القدس وبيروت للتعرف على البلاد المجاورة، وزيارة المواقع الدينية والتاريخية في فلسطين وسورية وشرق الأردن وسيناء، وقد قادته هذه الرحلات إلى اكتشاف بعض القصور الأموية غير المعروفة الواقعة في شرق الأردن، ومنها قصير عمرة[٣] الذي استقطب اهتمامه.

---

(١) جامعة عريقة تأسست سنة ١٥٧٣ كجامعة دينية في مدينة أولوموس عاصمة مقاطعة مورافيا في حينه، وهي ثاني أقدم جامعة في جمهورية التشيك. تحمل منذ سنة ١٩٤٦ اسمًا جديدًا هو جامعة بالسكي أوف أولوموس (Palacký University of Olomouc).

(٢) معهد بحثي فرنسي اسمه الرسمي المعهد الإنجيلي الأثري الفرنسي (École biblique et archéologique française de Jérusalem) وقد أُسس في القدس سنة ١٨٩٠ بهدف دراسة الكتاب المقدس وتفسيره في سياق بيئته الثقافية والجغرافية وإجراء البحوث الأثرية.

(٣) قصر أثري يقع على بعد ٧٠ كيلًا شرق عمان، وينسب إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك (٨٦-٩٦ هـ).

عاد سنة ١٨٩٨ إلى بلاده فعمل مؤقتًا أستاذًا للدين في مدرسة ثانوية في مدينة أولوموس، لكن المقام لم يَطُلْ به، حيث حصل على منحة لاستكمال دراساته في الشرق من وزارة التعليم النمساوية. بدأ هذه الرحلة بزيارة مكتبات لندن وكامبريدج والمتحف البريطاني، وزيارة برلين وفيينا. وفي صيف سنة ١٩٠٠ وصل إلى دمشق حيث انطلق منها في رحلة إلى شرق الأردن لاستكمال اكتشافاته.

عاد إلى بلاده بعد هذه الرحلة، وعين أستاذًا لدراسات التوراة في كلية اللاهوت في جامعة أولوموس في شهر أكتوبر ١٩٠٠؛ لكن الأكاديمية الإمبراطورية في فيينا كانت تعد لإرسال بعثة علمية إلى شمال الجزيرة العربية تضم في عضويتها كبار العلماء النمساويين، فطلب من موسيل مرافقة البعثة لاستكمال دراسته لقصير عمرة في شهر أبريل سنة ١٩٠١ بدأت هذه البعثة مهمتها إلى شرق الأردن. استكمل موسيل دراسته لقصير عمرة والقصور الأخرى في المنطقة، وقد صحب هذه البعثة الرسام ميليش (A. L. Mielech) ليقوم برسم نقوش وصور هذا الأثر التاريخي.

عاد موسيل بعد هذه الرحلة إلى جامعته؛ لكن سرعان ما استدعته أكاديمية العلوم الإمبراطورية في فيينا لكي يعود إلى الشرق لرسم خريطة جغرافية للمنطقة، فعاد سنة ١٩٠٢ إلى الشرق في رحلة جديدة عاد منها محملًا بمئات النقوش النبطية واليونانية والرسوم والخرائط والصور.

بعد هذه الرحلة عكف موسيل على نشر نتائج رحلاته في شرق الأردن. وقد نشرت له أكاديمية العلوم الإمبراطورية خلال سنتي ١٩٠٢ و١٩٠٣ كتابين حول قصير عمرة وقصور شرق مؤاب وحول نقوش دمشقية[١]. بعد نشر نتائج هذه الرحلات اشتهر اسمه في الأوساط العلمية في مجال رسم الخرائط للمناطق التي زارها، والتي احتوت على آلاف المواقع التي تم تحديدها لأول مرة.

---

(١) Alois Musil, **Kusejr ʻAmra und andere Schlösser östlich von Moab. Topographischer Reisebericht** (Wien: Akademie der Wissenschaften, 1902).

————, **Sieben samaritanische Inschriften aus Damaskus** (Wien: Akademie der Wissenschaften, 1903).

في سنة ١٩٠٤ عين أستاذًا أصيلًا للدراسات التوراتية واللغات الشرقية في جامعته الأم أولوموس؛ لكن طبيعة دراساته واهتماماته الجديدة لم ترض السلطات الكنسية في الجامعة الأمر الذي جعله يتخلى عن الدراسات التوراتية ويركز على اهتماماته الجديدة في دراسة الشرق الأدنى. وفي السنة نفسها انتقل إلى فيينا متفرغًا لإنجاز أعماله العلمية ورسم الخرائط للمناطق التي زارها، وقد نشر نتائج هذه الجهود في كتابين مفصلين حول قصير عمرة[١] في جزأين، وحول رحلاته في بلاد العرب الحجرية (Arabian Petraea) في أربعة أجزاء[٢]، وجميعها كتبت باللغة الألمانية.

وخلال مدة التفرّغ هذه قام موسيل الذي قد اشتهر اسمه وتميزت خرائطه بالدقة وباحتوائها على مواقع تم تحديدها لأول مرة بالمساهمة في تحديد الحدود بين فلسطين ومصر في سيناء بناءً على طلب وزير الخارجية البريطانية إدوارد جراي. فقدم مذكرة سنة ١٩٠٦ حول مسألة تثبيت هذه الحدود، وقد اعتمدت مذكرته من قبل الحكومتين البريطانية والعثمانية لاحقًا كأساس لاتفاقهما[٣].

بعد هذه الإنجازات العلمية المهمة وجد البروفيسور موسيل أن نتائج أبحاثه في سيناء وفلسطين وشرق الأردن لم تُجِبْ عن أسئلة كثيرة متعلقة بأحداث التوراة وقصصها وجغرافيتها، وإنه لا يمكن له الجزم حول كثير من المسائل دون اكتشاف الجزيرة العربية وخصوصًا شمالها. وهو يذكر أن اكتشافاته مابين ١٨٩٦ - ١٩٠٢ قادته إلى الحدود الشمالية لبلاد العرب السعيدة، وإلى الحدود الغربية لبلاد العرب الصحراوية، وأثارت لديه الرغبة في الاستمرار في دراساته. وإن بلاد العرب الصحراوية استهوته أكثر من المناطق الأخرى. لذلك فإنه عقد النية على التغلغل فيها والبقاء بها وقتًا طويلًا

---

(١) Alois Musil, **Kuseir 'Amra**, 2 Bde.(Wien: Akademie der Wissenschaften, 1907).

(٢) ————, **Arabia Petraea**, 4 Bde.(Wien: Akademie der Wissenschaften, 1907/08).

(٣) برايشا - فوتييه. **النمسا والشرق العربي**، ترجمة يونس إبراهيم التميمي (عمان: المطبعة الاقتصادية، ١٩٨١)، ص. ٤٤.

لرسم خريطة جغرافية تكون قاعدة لتحقيقاته التاريخية ولدراسة حياة سكان هذه المناطق. وهكذا حصل موسيل على تمويل لرحلة جديدة من الأكاديمية التشيكية للعلوم والآداب وجهات أخرى، فقام برحلته الأولى إلى شمال الجزيرة العربية التي استمرت من ٤ يونيو ١٩٠٨ إلى ١٤ يوليو ١٩٠٩، وكان برفقته المهندس رودولف توماسبرغ (Rudolf Thomasberger) من المعهد الجغرافي العسكري في فيينا. ولمعرفة موسيل بأهمية الحصول على حماية شيخ القبيلة الرئيسة في المنطقة التي سوف يزورها؛ إذ خبر ذلك خلال رحلاته السابقة في شرق الأردن إذ كان في حماية الشيخ طلال الفايز شيخ قبيلة بني صخر[١]، فقد سعى إلى قبيلة الرولة، وهي قبيلة رئيسة من قبائل شمال الجزيرة العربية، للدخول في حماية شيخ هذه القبيلة وتحقق مراده. بعد أن حصل موسيل على حماية الشيخ النوري الشعلان[٢] شيخ قبيلة الرولة وتآخيه معه عُدّ شيخًا من شيوخها، وحمل اسم موسى الرويلي. ورافق هذه القبيلة في حلها وترحالها ودرس عاداتها وتقاليدها، وتنقل في المناطق الشمالية الصحراوية كافة لإكمال رسم خريطته للمنطقة، فزار منطقة الجوف وصحاريها[٣].

في الوقت الذي كان يقوم فيه موسيل برحلته هذه أسست وزارة التعليم النمساوية كرسيًا علميًا خاصًا به في كلية الأديان في جامعة فيينا فعيّن بروفيسورًا بها.

---

(١) الشيخ طلال بن فندي الفايز (؟- ١٩٠٩)، تولى مشيخة قبيلة بني صخر في شرق الأردن خلفًا لشقيقه سطام سنة ١٨٩٠، وقاد قبيلته حتى وفاته في دمشق.

(٢) الشيخ النوري بن هزاع بن نايف الشعلان (١٨٤٧- ١٩٤٢)، تولى مشيخة قبيلة الرولة التي تتوارثها عائلته مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي بعد صراع عائلي انتهى بقتل شقيقه شيخ القبيلة فهد بن هزاع الشعلان، أدّى أدوارًا مهمة في وقائع شمال الجزيرة العربية وأحداثها القبلية والسياسية خلال الربع الأول من القرن العشرين، ومنها تأسيس إمارة في الجوف لابنه نواف (١٩٠٩ . ١٩٢٠)، وفعاليات الثورة العربية الكبرى ضد الدولة العثمانية (١٩١٦- ١٩١٩)، استقر في سورية التي انتهت دولة تحت الانتداب الفرنسي، ومثل قبيلته في مجالسها النيابية حتى وفاته. وسترد في ثنايا هذا الفصل كثير من المعلومات حوله وحول أدواره.

(٣) Alois Musil, **Arabia Deserta: A topographical Itinerary** (New York: American Geographical Society, 1927), p. xiii.

وقبل أن يفرغ موسيل من دراسة ما جمعه من معلومات خلال رحلته الأولى في شمال الجزيرة العربية، دعته في سنة ١٩١٠ الحكومة التركية إلى إستانبول، وعقدت معه مفاوضات للقيام برحلة إلى شمال الحجاز بهدف مسح أجزاء أساسية من خط سكة حديد الحجاز، ولمعرفة التوجهات السياسية لشيوخ القبائل في المنطقة، ولمعرفة أي من المواطن المحلية في المنطقة يمكن تطويرها. كما كلفه المجلس الصحي في تركية العمل على اكتشاف الطرق التي يسلكها الحجاج وهم يتجنبون محطة الحجر الصحي في تبوك، وتحديد أفضل السبل التي تساعد على مراقبة هذه الطرق، وإذا كان بالإمكان تحويل مركز من هذا الموقع، إلى موقع آخر[١].

بعد هذه الرحلة في شمال الحجاز، قام موسيل سنة ١٩١٢ برحلة استكشافية أخرى إلى منطقة وسط الفرات وجنوب الهلال الخصيب، رافقه فيها الأمير سكستوس (Prince Sixtus of Bourbon-Parma)[٢] والمهندس رودولف توماسبرغ من المعهد الجغرافي العسكري في فيينا.

في سنة ١٩١٤ وبعد بدء الحرب العالمية الأولى قررت ألمانيا حليفة إمبراطورية النمسا والمجر والأتراك إرسال بعثة إلى شمال وشمال وسط الجزيرة العربية للعمل على توحيد القبائل الموجودة بها، والعمل على تكتلها ضد الإنجليز ودعم المجهود الحربي التركي. وقد اختير موسيل رئيسًا للبعثة. وقد تم إرسال هذه البعثة بعد أن تلقى موسيل رسالتين من الشيخين نوري الشعلان والشيخ عودة أبو تايه شيخ قبيلة الحويطات، يفيدانه بهما أن الإنجليز يعرضان عليهما أموالًا طائلة ليقوما بمهاجمة الوحدات التركية، لكنهما لا يرغبان في ذلك لأن الإنجليز يحاربون أيضًا إمبراطورية النمسا

---

(١) Alois Musil, **The Northern Hegaz: A topographical Itinerary** (New York: American Geographical Society), 1926), p.1.

(٢) الأمير سكستوس (١٨٨٦- ١٩٣٤) أحد أمراء عائلة الباربون الحاكمة في عدد من الدول والإمارات الأوروبية، وكان والده آخر أمير لدوقية بارما في إيطاليا. كان شقيقًا للقيصرة زيتا زوجة القيصر تشارلز الأول إمبراطور النمسا (١٩١٦-١٩١٨) وآخر ملوك عائلة الهابسبورغ الحاكمة لإمبراطورية النمسا والمجر.

والمجر، الإمبراطورية التي ينتمي لها صديقهما موسى، وفي الوقت نفسه كانا يستشيرانه عما إذا كان من المناسب الثقة بالأتراك(١). وقد عمل موسيل خلال هذه الرحلة على محاولة توحيد صفوف شيوخ قبائل المنطقة وأمرائها للوقوف في صف الدولة العثمانية وحلفائها.

بعد هذه المهمة كلف بمهمة أخرى سنة ١٩١٧، وهي ما سميت «المهمة الشرقية لوزارة الحربية في الإمبراطورية النمساوية - المجرية». كانت الصفة الرسمية للمهمة هي زيارة الأمير هوبرت سالفاتور (Archduke Hubert Salvator)(٢) للوحدات الإمبراطورية والتشكيلات ومؤسسات الرعاية النمساوية الموجودة في تركية. كانت هذه المهمة أيضًا تقتضي تقديم تقرير عن وضع النمسا في ختام السنة الثالثة للحرب العالمية، وإلى منع انفراد الإمبراطورية الألمانية بشؤون تركية، وإيجاد أساس لتقاسم النفوذ معها. كان دوره هذه المرة دورًا عسكريًّا، حيث مُنح لقب جنرال، عضو هيئة الأركان، والمستشار الإمبراطوري، وكان رئيسًا للبعثة ومسؤولًا عن تنسيق الجهود وإيجاد الوسائل الكفيلة بتحقيق أهداف البعثة.

بعد أن حققت البعثة مهمتها ونظرًا لخدماته المتميزة عين عضوًا في مجلس الشورى الإمبراطوري، حيث قام بدور سياسي كبير داخل القصر الإمبراطوري. وأوكلت إليه مهمة تعليم الطلبة العثمانيين في المؤسسات التعليمية النمساوية، بصفته سكرتيرًا عامًّا للجمعية النمساوية للشرق وعبر البحار. استمر في هذه المهمة حتى انتهت الحرب العالمية الأولى وهزيمة الحلف التركي - الألماني - النمساوي المجري(٣).

بعد انهيار الإمبراطورية النمساوية المجرية سنة ١٩١٩، قرر التقاعد من وظيفته أستاذًا في جامعة فيينا، والانتقال إلى بلده الأصلي في جمهورية

---

(١) Theodore Prochazka, "Alois Musil vs. T. E. Lawrence", **Archiv Orientální** (ArOr), Vol. 63, No.4, 1995, p. 435.

(٢) الأرشيدوق هوبرت سالفاتور (١٨٦٦-١٩٣٩) أحد أمراء عائلة الهابسبورغ الحاكمة لإمبراطورية النمسا - المجر، وكان جنرالًا في الجيش الإمبراطوري النمساوي المجري.

(٣) آرثر برايشا - فوتيبه .**مصدر سابق**، ص. ص. ٤٨-٤٩.

تشيكوسلوفاكيا الجديدة. وفي سنة ١٩٢٠ عين أستاذًا للدراسات الشرقية في كلية الفلسفة بجامعة تشارلز (Charles University)[(١)] بمدينة براغ، عاصمة الدولة الجديدة تشيكوسلوفاكيا. وتفرغ للتدريس والعمل العلمي ونشر الثقافة حول الشرق في بلاده، وتشجيع حكومته على الاهتمام بعلاقاتها الاقتصادية والثقافية به. وكان من أولى ثمار جهوده تأسيس معهد الدراسات الشرقية سنة ١٩٢٧ بمدينة براغ[(٢)]، ونشر كثير من الكتب العلمية والعامة والدراسات والمقالات وأخبار رحلاته باللغات التشيكية والإنجليزية. وقد نشر باللغة الإنجليزية برعاية الجمعية الجغرافية الأمريكية، وبتمويل من الأمريكي تشارلز كرين (Charles Richard Crane)[(٣)] الذي دعاه إلى الولايات المتحدة، ستة مجلدات على مدى سنتين ١٩٢٦ - ١٩٢٨. شملت هذه المجلدات يوميات رحلاته ودراساته التاريخية والإثنوغرافية عن المناطق التي زارها[(٤)]، وقد منحته هذه الجمعية ميداليتها الذهبية لإسهاماته العلمية سنة ١٩٢٧[(٥)].

بعد ذلك، كتب موسيل في الصحافة اليومية، محللًا وناقدًا لأحداث الشرق الأوسط ومبينًا لمواقفه المعادية للصهيونية في فلسطين، التي كان يحذر من خطرها خلال الحرب العالمية الأولى. كما قام بتأليف ١٣ كتابًا باللغة التشيكية ضمن سلسلة «الشرق الجديد» في المدة من عام ١٩٣٤-١٩٤١،

---

(١) إحدى أقدم الجامعات في العالم إذ تأسست سنة ١٣٤٧م.

(٢) Hana Navratilova & Roman Misek, "Alois Musil and the Rise of Czech Oriental Studies: A perspective of an Non-classical Orientalism", **Archiv Orientální** (ArOr), Vol. 70, No.4, 2002, pp. 560-562.

(٣) تشارلز كرين (١٨٥٨-١٩٣٩) رجل أعمال وسياسي أمريكي اشتهر بأعماله الخيرية، وقد عرف عنه اهتمامه بشؤون العرب وبصداقته لملوكهم وأمرائهم ورموزهم ومنهم الملك عبدالعزيز آل سعود؛ إذ زاره سنة ١٩٢٧ في جدة.

(٤) شملت هذه السلسلة الكتب التالية: شمال الحجاز(Northern Hejaz)؛ الصحراء العربية (Arabia Desert)؛ الفرات الأوسط (Middle Euphrates)؛ تدمر(Palmyra)؛ شمال نجد (Northern Najd)؛ أخلاق الرولة وعاداتهم (Rullah: Manners and Custom).

(٥) تحمل هذه الميدالية اسم تشارلز دالي (Charles P. Daly) رئيس الجمعية الجغرافية الأمريكية (١٨٦٤- ١٨٩٩)، وقد بدء بمنحها سنة ١٩٠٢.

وألف أيضًا عددًا من الكتب الخاصة بالشباب تتناول رحلاته لتعريفهم بالشرق. نال موسيل الكثير من التكريم لجهوده، وانتخب عضوًا في المجلس الإسلامي الأعلى في القدس وفي المجمع العلمي العربي في دمشق، وفي غيرهما من الجمعيات العلمية الأوروبية العريقة(١). توفي سنة ١٩٤٤ في بلدة أوتربي (Otryby) جنوب مدينة براغ. نقل رفاته بعد مئة سنة ليدفن في مسقط رأسه بمناسبة الاحتفال بمرور مئة عام على ولادته سنة ١٩٦٨، وهو يعدّ اليوم أحد الرموز الثقافية الكبرى في جمهورية التشيك التي يحتفى بها(٢).

كما ذُكر آنفًا، كانت رحلة ألويس موسيل الأولى في شمال الجزيرة العربية بهدف مسح الصحراء ورسم خريطة لمناطقها تمهيدًا لإعداد خريطة تاريخية لها، وفي الوقت نفسه دراسة قبيلة الرولة وعاداتها. بدأت هذه الرحلة التي رافقه فيها المهندس رودولف توماسبرغ من المعهد الجغرافي العسكري في فيينا(٣) في خريف ١٩٠٨. وقد رافقه الشيخ النوري الشعلان في تنقلاته مع قبيلته، وكان يذهب أحيانًا مع مرافقيه لإكمال أعماله ويعود إلى مخيمات القبيلة كلما أنهى مهمة من مهماته أو كما يسميها الشيخ النوري غزواته. تنقل موسيل في منطقة الحماد مع مجموعته إلى أن لحق بالشيخ النوري في وادي السرحان، بعد أن افترق عنه في منطقة الحماد، في اليوم الرابع من شهر يناير ١٩٠٩. وبعد قضائه عدة أيام في وادي السرحان وتنقله في المنطقة المحيطة وأجزاء من صحراء النفود توجه إلى بلدة الجوف التي وصلها في اليوم الرابع من شهر فبراير ١٩٠٩(٤).

---

(١) Jan Rypka, "Alois Musil: June 30th 1868 - June 30th 1938", **Archiv Orientální** (ArOr), Vol. 10, No.1, 1938, 1-34.

(٢) حوله وحول أدواره نشرت عدة كتب توثيقية: انظر:

Klobas Old?ich, **Alois Musil zvan Musa ar Rueili** (Brno: Akademické Nakladatelstvõ CERM.S.r.o, 2003).

Karl Joachim Bauer, **Alois Musil. Wahrheitssucher in der Wüst** (Wien: Kln-Weimar, 1989).

Erich Feigl, **Musil von Arabien. Vorkİmpfer** der islamischen Welt (Vienna / Munich: Amalthea-Verlag, 1985).

(٣) حمل اسم عربي خلال الرحلة وهو تومان وسوف يرد باسمه هذا في النص.

(٤) ١٣٢٧هـ.

وهنا نترك موسيل يتحدث بنفسه:

«في اليوم الرابع من شهر فبراير ١٩٠٩ بدأنا رحيلنا عند الساعة السادسة وتسع دقائق صباحًا باتجاه شمال - شمال شرق عبر هضاب بُرق الشعّيرة التي كانت بعد مطر الوسم في شهر أكتوبر تزدهر بنبت السمح. وباتجاه جنوب غرب كانت أشعة الشمس تضرب على جبال الطويل، التي كنا قادرين على مشاهدتها بامتدادها الكامل. وعند الساعة السابعة وحيث وجدنا شجيرات ضمران[(١)] وغضا عند قاع طعس رملي في منتصف المسافة بين آبار القين في الغرب وآبار صفان المسدودة في الشرق أقمنا حتى الساعة الثامنة وأربع وخمسين دقيقة. هنا وهناك كانت هذه الأرض الرملية تزدان بزهر نبت العصنصل[(٢)] البنفسجي أو الأبيض. وعند الساعة العاشرة وعشر دقائق دخلنا وادي غيران البنات. كان يبدو كما لو أن أطراف المرتفعات المحيطة به قد قطعت مشكلة جروف حادة ترتفع خمسة وعشرين مترًا. وكان في الوادي عدد غير محدود من الأهرامات والقمم المخروطية الصغيرة - بقايا جبال ذات صخور رملية - التي تعطي مشهدًا لافتًا للنظر بطبقاتها الأفقية ذات الألوان الزرقاء والرمادية. وحولها ينمو نبت الشنان[(٣)] والعجرم[(٤)] وشجيرات الغضا القزمية.

---

(١) اسمه العلمي (Traganum nudatum) وهو نبت معمر، سيقانه خشبية متفرعة غير منتظمة يسمو ما بين عشرين وخمسين سم، سيقانه بيضاء جرداء ملساء، أوراقه جالسة ضامة للساق قليلًا، مضلعة ثلاثية رمحية لحمية ذات رأس مدبب وبرية في آباطها وعلى الأفرع الأكبر تصبح الأوراق قصيرة وتتشكل في مجاميع مع القنابات، الأزهار أحادية جالسة في آباط شعيرية وبرية. يزهر في شهر أبريل. انظر: **النباتات البرية في مراعي شمال المملكة العربية السعودية**، مصدر سابق، ص.٦٧.

(٢) اسمه العلمي (Colchicum ritchil) نبت معمر عشبي يرتفع خمسة سم ذو كورمة أرضية بيضاوية بعرض ثلاثة سم، الأوراق عادة ثلاثية قاعدية تنبسط على سطح الأرض شريطية ضيقة بطول خمسة عشر سم وعرض ١ سم وأحيانًا ٢سم، يتراوح عدد الأزهار بين زهرتين وثمانية أزهار بيضاء أو بنفسجية. لا يرعى. المصدر السابق، ص. ٧١.

(٣) اسمه العلمي (Seidlitzia rosmarinus) نبت معمر، شجيري قزمي كثير التفرع، أجرد يرتفع إلى ٨٠سم، ذو سيقان مفصلية، الأفرع متقابلة ملساء بيضاء، الأوراق متقابلة أسطوانية عصارية طولها ٢سم وعرضها ٣ ملم، أما الأوراق العلوية أصغر حجمًا، الأزهار بمجاميع ٢-٣ أبطية، الثمرة مجنحة بعرض ١سم. يزهر في شهري سبتمبر وأكتوبر. المصدر السابق، ص. ٦٥.

(٤) اسمه العلمي (Anabasis lachnantha) نبت معمر شجيري صاعد متهدل الأفرع يرتفع من ١٥-٣٠ سم =

بعد الساعة الحادية عشرة والنصف سمعنا أصواتًا هادرة كما لو أن آلاف الركبان كانت تجري خلفنا، وبسرعة أدركنا أننا أمام عاصفة رملية شديدة لم أخبرها إلا نادرًا في الصحراء. كانت الرياح تهز وتصفر، حاملة الرمال باتجاه شمال شرق. وكنا نسير عبر موجات من الرمل ترتفع مابين مترين وخمسة أمتار، وتزداد كلما اتجهنا شمال شرق وحسب تفاوت شدة الرياح. وحيثما واجه الريح عائقًا أزاله أو منخفضًا فملأه، وسار في طريقه. كم كنا محظوظين لأن هذه العاصفة لم تواجهنا في داخل صحراء النفود! وإلا لكانت قضت علينا. وكم كنا محظوظين أيضًا لأنها كانت تهب من جنوب غرب إلى شمال شرق، وبالتالي تدفع بنا إلى الأمام. عند الظهر صادفنا قطعانًا من إبل الرولة عائدة من موارد ماء الجوف. وخلال دقائق هدوء العاصفة علمنا من الرعاة أن نواف بن النوري الشعلان(١) قد دخل الجوف قبل يومين وأعلن نفسه باسم أبيه سيدًا على الواحة وجوارها(٢) - كانت أخبارًا سارة لي، لأنني كنت متأكدًا من أنني سأجد كل رعاية وحماية أنشدها. كان الرعاة المساكين وحيواناتهم متجهين نحو الجنوب وبالكاد يتحركون، والحيوانات عند كل هبة قوية تدير لها ظهورها. وبينما كنا نتحدث مع الرعاة، الذين توقفوا لمدة، باعدت الإبل قوائمها الخلفية وبسطت قوائمها الأمامية لتدعم نفسها في وجه الريح.

= أخضر باهت مبيض، سيقانه متفرعة من القاعدة منتشرة، مفصلية قصيرة تشبه الأوراق، الأوراق دقيقة بعرض ملم واحد، الأزهار دقيقة مفردة أبطية تترتب بنوارة على أطراف الأفرع. يزهر في أكتوبر، وهو رعوي ضعيف. المصدر السابق، ص ٥٢.

(١) الشيخ نواف بن النوري بن هزاع الشعلان (؟ - ١٩٢١)، الابن الأكبر للشيخ النوري الشعلان شيخ قبيلة الرولة وأحد فرسانها، أسس إمارة بالجوف باسم والده وحكمها في الفترة ١٩٠٩ إلى ١٩٢٠. توفي في القريتين في سورية سنة ١٩٢١.

(٢) أشار أَلويس موسيل قبل هذا في وصفه لرحلته إلى أن الشيخ نواف كان يناقشه حول رغبته في إقامة إمارة في الجوف مثله مثل ابن رشيد، وذكر أيضًا أنهم خلال وجودهم في وادي السرحان تلقى الشيخ النوري رسائل من الجوف تطلب منه التدخل لانفلات الأوضاع بها، لكنه لم يحسم أمره بانتظار استشارة السلطان عبدالعزيز آل سعود في الأمر. انظر:

Alois Musil, **Arabia Deserta: A topographical Itinerary**, p. 110 & p. 117.

بعد أن تركنا الريح خلفنا، أسرعنا باتجاه شمال غرب بخطوٍ سهل. كانت رواحلنا نفسها جائعة وعطشى، فكانت تتوق للسرعة، لكن عند كل تأخر منها كنا نحثها على السرعة. لقد سببت لنا الريح ألمًا عظيمًا بدنيًّا وعقليًّا. كانت آذاننا وأفواهنا وأنوفنا، وخصوصًا عيوننا مليئة بحبيبات الرمل الناعم، وقد هيّجت هذه الأعضاء الحساسة وسببت معاناة شديدة. وأكثر من هذا كان هذا الرمل الناعم يدخل بين ملابسنا ويحتك بالجلد، وبالتالي يتسبب في إثارة الأعصاب. والجوف ما زالت بعيدة.

وأخيرًا، وعند الساعة الخامسة مساءً رأينا أمامنا منخفضًا عميقًا في السهل الصخري، وفي نطاق هذا المنخفض رؤوس أشجار النخيل الخضراء. لقد كانت دومة الجندل، أو الجوف الواقعة بعيدًا في مكان يبدو أنه أكثر انخفاضًا من مكاننا. لقد انحدرنا من خلال ثغرة في منحدر صخري، وتقدمنا بجانب أسوار عالية من الطين، تحيط ببساتين النخيل. كانت جمالنا ترتعب عند كل جدار ونخلة، وبدأت بحث الخطى حينما مررنا بجثة جمل في طريقنا. في الوقت نفسه ظهر لنا جندي في يده بندقيته، وكان خفيرًا، فسألنا: إلى أين نحن ذاهبون؟ وحينماعلم أننا نريد نواف بن شعلان، رافقنا إلى برج مستطيل وعالٍ، وأخبرنا أن نوافًا يعيش به. وبينما نحن ننيخ رواحلنا أمام البوابة، وجدنا أنفسنا في الحال محاطين بوجوه مألوفة، من عبيد ومحاربي الرولة، حيث رحبوا بنا بحرارة. كان القصر الذي يسكنه نواف مربع الشكل، محاطًا بجدار عالٍ، معززًا في زاويته الجنوبية الشرقية ببرج منخفض ومستطيل الشكل.

جاء نواف لمقابلتي، وقادني إلى غرفة في الدور الأرضي، حيث كان ينتصب عمود وسط الغرفة، وخلفه تشتعل نار كبيرة، وجلسنا بجانبها في وضع لا نستطيع من خلاله رؤية الباب. قال لي نواف إنه جاء إلى الجوف ومعه خمسة وثلاثون جنديًّا، أغلبهم من عبيده الشباب، الذين لم يضعوا أسلحتهم الجاهزة للاستعمال جانبًا منذ وصولهم. في المساء جاء إلى مجلس نواف نحو خمسين رجلًا مسلحًا من أهل الجوف، مع شيوخهم. جلس الشيوخ في الموقع المقابل لنا، أما حرسهم فكانوا في الفناء الخارجي. إلى اليسار بيننا وبين المدخل وقف

خمسة عشر عبدًا بأسلحتهم. لم يكن نواف يثق بهؤلاء الشيوخ، ولكي لايؤخذ على حين غرة جلسنا أنا وهو في موقع، يجعل عمود وسط الغرفة فاصلًا بيننا وبين الباب حمايةً من أية طلقات قد تأتي إلينا من الفناء أو من البرج الصغير جنوب غرب القصر. كان أولئك الشيوخ برئاسة زبن بن قعيد، الذي كان في نحو الأربعين من عمره، وقد ذكرتني ملامحه بقوة بملامح البابليين القدامى. ابن قعيد هو الآن الشيخ الكبير بالجوف، لذا جاء يدعو الأمير النوري ليتسلم الحكم داخل هذه الواحة وجوارها.

إن واحة الجوف، التي تقع على الحدود الجنوبية لشمال الجزيرة العربية، وبسبب ما تفرضه الضرورة، كان عليها دائمًا الحفاظ على علاقات حسنة مع القبائل ذات النفوذ بالمنطقة إذا أراد سكانها ألا يكونوا تحت رحمة غازٍ أو قاطع طريق. فطوال أيام حكم ابن رشيد كانت حامية ابن رشيد قادرة على حكم الجوف، لاسيما عندما يكون الرولة أصدقاء له.

حال حدوث الحرب الأهلية بين أعضاء عائلة آل رشيد طلب كل من فيصل بن حمود الرشيد آخر نائب للحاكم بالجوف وابن سعود من نوري الشعلان السيطرة على الواحة.

بعد أن فقد أهل الواحة أميرهم، ابتدأ سكان دومة الجندل والواحات الأخرى بالحرب فيما بينهم. حال مغادرة فيصل الرشيد، بدأ ابن قعيد شيخ أكبر أحياء الواحة[1]، بإعلان ولائه لابن شعلان، وأخذ على عاتقه التخلص من أعدائه وسلبهم. لجأ هؤلاء الناس إلى اثنين من الأحياء القوية داخل الواحة وهما حيّا مارد وخذما، حيث كانت في خذما حامية مؤلفة من أربعين رجلًا وبقية من جنود ابن رشيد، وكان يقودهم ابن نعام الذي كان يتوق للسيطرة على الجوف لنفسه. بدأ ابن نعام وشيوخ خذما ومارد واللاجئون من الأحياء الأخرى بالاتحاد لمقاومة نواف، الذي انضم إلى ابن قعيد، الذي كان يعلم جيدًا صعوبة السيطرة على المناطق التي يسيطر عليها الأعداء. نصح ابن قعيد نوافًا

---

(١) حي الغرب.

بتدمير أملاك معارضيه الموجودة خارج أحياء مارد وخذما، وذلك بهدم منازلهم وتقطيع نخيلهم وردم آبارهم، وإنه فقط من خلال تجويعهم يمكن إخضاعهم له.

لقد رجوت نوافًا ليتجاهل هذه النصيحة، لأنه بتنفيذها سيضحي بخير الجوف لعدد من السنين. كما نصحته بأن لا يتفاوض مع ابن نعام بل مع شيوخ مارد وخذما الذين سيدركون أن عليهم الخضوع له، عندما يتأكدون من أنهم لايستطيعون الاعتماد على أي دعم من ابن رشيد، وأنهم غير قادرين على مقاومة الرولة. وعدني نواف بأنه سيعمل حسب نصيحتي. وقبل منتصف الليل ذهبت إلى أحد من المجالس في الجانب الغربي للفناء، حيث سأنام، لكن الغرفة كانت مليئة بالناس وبأنواع كثيرة من الحشرات الصغيرة، التي بسببها لم أتمكن من الراحة، ولكم كنت سعيدًا عندما بزغت نجمة الصباح فوق الجدار الشرقي.

في يوم الجمعة وهو اليوم الخامس من شهر فبراير ١٩٠٩ وبعد شروق الشمس، ذهبت خارج البوابة حيث مسحت المنطقة المجاورة من فوق بقايا خرائب. خلال وقت قصير كان نواف محاطًا بعدد من أهل الجوف، ومن جميع المستويات وكانوا يطلبون منه أن أقوم بزيارة مرضاهم ومداواة جرحاهم. لقد أخذت إلى عدة أحياء من الأحياء الصديقة والموالية لنواف. من هذه المناطق كانت هناك منطقتان مدمرتان بشكل كامل. فالمساكن مهجورة، والنخيل محروقة، وجدران البساتين مهدومة. لقد صادفت رجالًا يدفعون أمامهم صغار النخيل المصادرة من بساتين أعدائهم المنهزمين. أما الجرحى فكانوا في حالة مزرية، فجروحهم مليئة متقيحة ومتسخة، أطرافهم متورمة، والجميع يعاني من الحمى. لقد علمت بأنه حتى الآن قد قُتل أكثر من ثلاث مئة مقاتل، وأن إطلاق النار مازال مستمرًّا.

أخبرني بعض السكان عن وجود حجر عليه كتابات غريبة في سوق مارد، وبالطبع كنت تواقًا لرؤيته، ولكن عندما خرجت خارج نطاق البساتين وفي منطقة الفضاء بين مارد والجبل الذي يحيط بالمنخفض تمت تحيتي بطلقتين.

بعد أن رجعت أعلمني نواف بأنه أرسل رسولًا إلى شيخ مارد[١]، وقد رجع السفير بخبر مفاده أن السكان يرغبون بقدومه هو أي نواف أو عبدالله بن طلال الشعلان مع المملوك عامر [مملوك الشيخ نواف]، وإنهم على استعداد لإكرامهم، وإنهم سيصلون معهم إلى اتفاق. لم يكن نوافًا ولا عبدالله مستعدًّا للقيام بذلك، فقد كانا يخشيان الخديعة، لذلك ذهب عامر وحيدًا إلى مارد.

في المساء، قدم عامر تقريرًا إلى نواف يفيد أن السكان على استعداد للاعتراف بنواف سيدًا في حال أعاد لهم وللاجئين عندهم أملاكهم المصادرة فرفض ابن قعيد هذا الأمر.

كانت مطالب المناطق الأخرى لا تختلف عن مطالب حي مارد، لكن ابن قعيد ألحّ على نواف في تلك الليلة للقيام بهجوم على بساتين الأعداء وتدمير أسوارها وقطع نخيلها، وقد بدأ بعض المتهورين من الشباب بذلك. كنا نسمع إطلاق رصاص مستمر، وصيحات حرب ونواح.

بعد ذلك أمرت مرافقي محمدًا بحمل غطائي إلى السطح الغربي، ولكن نوافًا رفض ذلك محذرًا ثانية من أنه يمكن إصابتي بطلقة. كنت متعبًا وأريد الراحة مهما كانت المخاطر. حال أن تمددت بفراشي بدأ الحراس حولي بالتصويب وإطلاق الإنذارات. أخذ جنود نواف مواقعهم في الأبراج وفوق السطوح، فابن نعام بدأ هجومًا باتجاه منزلنا، وقد تم صد الهجوم، لكنه حاول مرتين معاودة الكرة في تلك الليلة. لقد كان الرصاص يزن في أذني بشكل متواصل والمقاتلون يجرون من حولي، وقد أصابت بعض الطلقات الجدار الحجري للبرج الكبير. بالطبع في هذه الحالة لم أتمكن من النوم ولا حتى محاولة عمل أي شيء آخر، لذلك وصلت إلى قرار بالمغادرة في اليوم التالي إلى الأمير النوري. اقترح نواف، الذي كان يريدني بجانبه، عليّ زيارة قارة والطوير وسكاكة، ولعلمي بأن هذه الأماكن غير مستقرة ووضعها كوضع دومة الجندل، أجلت الزيارة إلى وقت آخر.

---

(١) صفوق بن حسن الدرع.

بدأت الاستعدادات للمغادرة، وكنت قد اتخذت هذا القرار لعدم وجود مراعٍ لنياقي في الجوف، أو قريبًا منها، كما أن الوضع لم يكن آمنًا لأدعها ترعى وحدها على مسافة خمسة عشر أو عشرين كيلًا بعيدًا عني. في صباح يوم السبت السادس من شهر فبراير أتى بعض الأهالي يدعونني لزيارة الجرحى، الذين عالجتهم في الليلة السابقة، لكن أمتعتي كانت قد حملت وأنا أريد الذهاب إلى ميقوع، حيث يخيم الأمير النوري على مسافة يومين من هنا، فأوصيتهم بالذهاب إلى نواف الذي تركت معه الأدوية المناسبة والضمادات. وانطلقت إلى مقصدي في ميقوع»(١).

غادر موسيل الجوف متوجهًا إلى مخيم النوري بن شعلان، وبقي يرتحل معه لعدة أيام ثم غادر مع مرافقيه لرسم خرائطهم، فتنقلوا في مناطق الصحراء المحيطة بمنطقة الجوف حتى يوم الخميس الخامس عشر من أبريل ١٩٠٩ حيث وصل إلى سكاكة، وهنا ندعه يكمل وصف تجربته في الجوف.

«في تمام الساعة السابعة صباحًا لاحت أشجار نخيل واحة سكاكة الأمر الذي أعطانا شعورًا بغبطة لا يمكن التعبير عنه، لأننا لم نضل الطريق. وها هو الماء والأكل والأمان أمامنا. لم يدم إحساسنا بالنصر طويلًا إذ سمعنا طلقًا ناريًا تلاه طلقًا آخر، ولاحظت عددًا من الرجال متجهين إلينا قادمين من البلدة. وعندما اقتربوا منا تبين أنهم يحملون بنادق. ماذا يحدث؟ أليس سكان سكاكة أصدقاء الرولة؟ لقد طلب مني الأمير أن أزور سكاكة عند عودتنا، وطلب مني أن أسأل هناك عن مخيمه. كان أمام الرجال خمسة شبان يهرولون باتجاهنا، وحينما اقتربوا منا بما يقارب ثلاثين مترًا، وضعوا بنادقهم على أكتافهم، وحددوا هدفًا ثم جاؤوا نحونا في هدوء. حياهم مرافقي مزعل فلم يردوا تحيته. كان قائدهم رجلًا في الخامسة والعشرين بوجه عطوف وبملمح قسوة، وابتدرنا سائلًا: «من أنتم؟»

أجابه مرافقيّ مزعل وطارش باقتضاب. فنظر إلى مزعل باحتقار، وقال:

---

(١) النص المعرب: Alois Musil, **Arabia Deserta, pp.157-165.**

«أنت صلبي. والصلب أعداؤنا، ونحن لا نعرف هذا البدوي (يعني طارش) ولانصدق كلامكم. وإذا أردتم سلامة رقابكم استسلموا واتبعوني وإلا سوف نطلق الرصاص عليكم».

وفي هذه الأثناء، أحاط بنا الرجال وقادونا إلى داخل البلدة. وأمام منزل الشيخ رجاء بن مويشير[١]، وكان هذا هو اسم القائد الشاب، أجبرونا على الوقوف وإناخة رواحلنا. حاولت التوجه مباشرة إلى مكان الماء، ولكن الرجال انتزعوني من فوق راحلتي، وأمر رئيسهم رجاله بجمع كل أمتعتنا وإدخالها في منزله فورًا. عندما احتججتُ وطلبت منه الاستماع إلى توضيحي ضربني على صدري وأمسك ببندقيتي بينما تمكن اثنان من رجاله من الإمساك بي من الخلف وتقدمت امرأة عجوز - عرفت فيما بعد أنها أمه - فبصقت على وجهي وهي تصرخ. وكنت أنظر بينما هم يأخذون أمتعتي بعيدًا، وينزلون الرحال عن ظهور رواحلنا ويطردونها إلى البوابة الضيقة لممر طويل، وقادوني إلى فناء المنزل، حيث أدخلوني إلى غرفة كبيرة ما لبثت أن امتلأت بالرجال الذين أمطروني بوابل من الأسئلة، لكنني لم أقدم إجابة. وفي هذه الأثناء قفز مزعل داخل الغرفة. «من أنتم؟» سأله أحد الحاضرين.

«من نحن؟» ردد مزعل السؤال وقال «اسمعوا إجابتي يا رجال سكاكة». وبدأ بإنشاد قصيدة تعني أنه طلب الإذن من الأمير النوري ليرافقني ويدلني إلى سكاكة. أجابه الرجال: «أنت كاذب. أنت شاعر، والشعراء كذابون». وبعد ذلك دخل علينا الشيخ ودعاني ورفيقي تومان لنتبعه، حيث قادنا إلى غرفة في الدور الأول من البيت الذي بني من اللبن المجفف. وبدأ باستجوابنا واجتاحني شعور بالمهانة لهذه المعاملة، فحذرته من غضب الأمير النوري لو علم بذلك، وغضب ابنه الأمير نواف حاكم سكاكة نفسها. وأجابني بأن رجاله كانوا سيطلقون عليَّ النار، وعليَّ أن أحمد الله أنني لم أقع في يد جماعة القرشة في المنطقه الشمالية لسكاكة الذين كانوا في حالة حرب مع الرولة، وبالتأكيد كانوا سيقتلونني. ضحكت ساخرًا مما قال، وأظهرت له أنني لا أخاف من القرشة أو

---

(١) رجاء بن ذباح المويشير كبير جماعة المعاقلة في سكاكة.

من رجاله إذ يقف خلفي رجال قادرون على الانتقام لي. لقد أزعجه تماسكي هذا وأدهشه، فسأل بصوت هامس عما إذا كنت أنا الشيخ موسى الذي رافق النوري. فقلت له: «لماذا تسأل يا رجاء، أنت تعرف تمامًا من أنا».

كان يقف أمام داره ثمانية رجال أو عشرة، بعضهم رآني في الجولان، وبعضهم في الغوطة وفي وادي السرحان، وفي الجوف، وفي قارة، وكنت على يقين من أنهم تعرفوا على شخصي وأخبروك عني. إنني عشتُ مع الأمير النوري لمدة ثمانية أشهر، وأنا متأكد من أنك ألزمتهم الصمت.

فرد رجاء بكلمة «أنا»؟

فقلتُ له: «نعم أنت يا رجاء».

فقال رجاء: «حسنًا، أنا لا أصدقهم».

فقلت له: «ولا تصدقني حتى أنا، لأنك لا تريد أن تصدق أحدًا».

فقال: «نعم لا بد أن أقنع نفسي وأتحقق، سأرسل خطابًا إلى النوري ليؤكد لي بختمه أنك الشيخ موسى».

فقلت له: «يمكنني الآن أن أريك خطابًا بتوقيعه وختمه».

فقال: «لا لا، لا بد أن يكتب لي بنفسه».

وأمر كاتبه بكتابة رسالة للأمير النوري الذي كان على مزعل إيصالها له، وذكر رجاء أن النوري يستقي الآن في قارة ويمكن أن يلحق به مزعل اليوم. كان مزعل غير متحمس للقيام بتلك المهمة، لكن رجاء أخذ منه كل الأجور التي دفعتها له، وقال له إنه لن يعيدها إليه حتى يسلم الرسالة للنوري ويعود بالإجابة. في هذه الأثناء كان الرجال الذين ألقوا علينا القبض يتشاورون فيما بينهم حول اقتسام الغنيمة. وكان كل منهم يطمع بالعودة محملًا بقسمته. كان رجاء يسمع وعيناه تلمعان كعيون نمر.

وقال: «اسمع أنت، هل أُسلمك لهم، انتبه وإلا سأفعل، ماذا ستعطيني؟ أعطني مسدسك».

فرددت عليه: «سأعطيك مسدسًا إذا سمحت لي بتحميل ركابي والانطلاق من هنا».

فقال: «لن ترى مني إلا الخير طالما المسدس أصبح لي، وماذا غير ذلك ستعطيني، الملابس، النقود، أريد النقود والذهب».

فقلت له: «خذها كلها، هذه ملابسي وبدأت في خلعها. أما الذهب فعليك أن تبحث عنه بنفسك لتجده».

فتش ملابسي وكان عليّ مرافقته إلى ركن مظلم، حيث وضعت أمتعتنا وفتش كل شيء، لكنه لم يجد ما يبحث عنه.

وقال لي: «كم من الذهب سترسل لي عندما تذهب إلى النوري؟»

فقلت له: «سوف أستشير في الأمر، وإذا عاملتني بكرم ستكون مكافأتي مجزية، وسأدفع لك ما سوف يرضيك».

فسألته: «هل لي الآن أن أُسرح ذلائلي وأواصل سيري». فأجاب بالإيجاب، فطلبت من رجالي تحميل الركائب وعند سماع ذلك خرج الرجال الأربعة الذين اعتقلونا من غرفتهم إلى الفناء، وأخذوا يصيحون ومعهم أقاربهم الذين امتلأت بهم الساحة ومدخل منزل رجاء.

قلت لرجاء: «أنت هنا الشيخ أعطيت كلمتك، وأنت صاحب الكلمة الأولى في سكاكة فبرهن على قدرتك في تنفيذ ما قلت».

وعندها أمسك رجاء بندقيته المارتيني وجرى خارجًا، وهو يتوعد بصرخات وحشية واستمع إلى العديد من الصرخات العدائية والمعارضة، ولمعت السيوف والخناجر ورفعت البنادق على الأكتاف.

فعاد رجاء ليقول لي: «انتظر قليلًا ياموسى، وإلا لسالت دماء».

فقلت له: «الدماء سوف تلطخك يا رجاء».

بعد ذلك جاءني قريب لرجاء وقال لي: أنهم سيقتلونك اهرب. ودفعني إلى الأمام فجرينا يتبعنا تومان، وكنا نقفز من بستان إلى آخر حتى وصلنا إلى منزل مران، الذي فتح لنا باب داره وأقفله خلفنا، وجاء بابنه الشاب مسلحًا

بمارتيني، وقال له: «لا تسمح لأحد بالدخول». مكثنا مع مران عدة ساعات، وأخيرًا جاءنا رجاء يرافقه أخاه واثنان من العبيد، وذكر لنا أنه يمكن أن نرجع إلى بيته الآن. وذكر أن مزعلًا باعنا لجماعة القرشة الذين يسيطرون الآن على الطريق المؤدي إلى الطوير، وأن الأمير النوري غادر ذلك الصباح إلى آبار صفان، لذلك فقد أرسل الخطاب إلى نواف في الجوف.

في بيت رجاء، التف حولنا مرة أخرى عدد من صعاليك الرجال، واقتادني شاب طويل إلى ركن في الغرفة، وطلب مني الذهب. لقد أخبره مزعل بأني أملك منه حقيبة كاملة، فسألني: «هل أعطيته كله لرجاء؟» قلت: «أجل، أخذ نصيبه ونحن لم نزل جوعى»، وبصعوبة خلصتُ نفسي منه، لأجد نفسي تحت أسر ثلاثة آخرين، إلى أن جاء اثنان من عبيد رجاء وقاداني إلى الخارج داخل حديقة ثم هربنا إلى منزل العقيلي، وهو وكيل للأمير النوري، حيث بقينا هناك حتى مغيب الشمس. صرخ بي أحدهم ونحن خارجون، قائلًا: «اللعنة على الغرباء، أيها الناس تعالوا نذبحهم ونمزق أحشاءهم». فالتفت إليه قائلًا: «لماذا تتحدث بهذه الطريقة يا بني، هل آذينا أحدًا؟» ورد عليّ بقوله: «لعنة الله عليك».

في اليوم التالي عرفت من مزعل أنه أرسل تقريرًا لنواف باسمي، ووعد الرسول بأن يمنحه ريالين مجيديين، أي مايعادل دولارين وسبعين سنتًا. فقلت له: «لماذا لم تخطرني مسبقًا، لستُ مسؤولًا عن أي شيء يحدث بلا علمي». كانت رحالي في هذه الأثناء تتضور جوعًا، ففي اليوم الأول اشتريت لها علفًا زنة ١٢ كغم من عشب السبط، بمبلغ ريال ونصف الريال المجيدي. وفي يومي الجمعة والسبت اشتريت بريالين عشبًا جافًّا وكان شيحًا وشيئًا من الأرطى.

في يوم الجمعة جاءنا رجاء بمطالب جديدة، واستنادًا إليه، فإن مزعلًا أبلغ كل السكان أنني أعطيتُ رجاء عشرة أرطال من الذهب.

عند الظهر بدأ نجم السعد يتلألأ، إذ علمت أن حمّارًا أبا عواد كبير عبيد الأمير النوري، وصل إلى سكاكة ووجدته في بيت العقيلي. وعندما سمع بما حدث لي استشاط غضبًا، وأدخلني فورًا في حمايته، وقدم لي خدماته. كان

سكان سكاكة يعرفون مكانته عند الأمير النوري فهيؤوا له المكان الأول، ووقفوا على خدمته كأنه شيخ قبيلة كبيرة، ولذلك لم يدهشوا كثيرًا عندما رأوه ينهض عن البساط، ويترك مكانه ويسرع نحوي لتحيتي، ويحضّر لي مقعدي، ويصب لي القهوه ويخدمني. ومنذ تلك اللحظة، أصبحت أنا السيد، ورغم ذلك سأكون مسرورًا لو غادرت سكاكة ذلك اليوم. ولكن كان عليَّ انتظار حمَّار فهو قد رغب في زواج البنت البيضاء ابنة الحداد، التي قرر أن يأخذها معه إلى مخيمه.

في يومي الجمعة والسبت جاءني الكثير من الناس بعيون ملتهبة يلتمسون الدواء، ومن ضمنهم ذلك الشاب الذي كان يريد أن يمزق أحشائي، فقلت له: «اسمع يابني بالأمس كنت ستمزق أحشائي واليوم جئتني لأنقذ أمك المريضة ماذا أفعل بك الآن؟» أعطيته الدواء وزرت أمه وأخبرته كيف يعتني بها.

كما هو معروف، فإن الجزء الشمالي من سكاكة تسكنه جماعة القرشة، والجنوبي تسكنه جماعة المعاقلة. وجماعة القرشة تتألف من عائلات العلي والضويحي والمطر، ويحتلون مئتي منزل وشيخهم هو عساف بن لحيد. أما المعاقلة فينقسمون إلى عائلات الجحيش والنصير والشلهوب، ويبلغ تعداد منازلهم ثلاث مئة منزل. ويبلغ جميع سكان هذه المستوطنة ثلاثة آلاف نسمة، وهم يزرعون النخيل، والخضراوات وقليلًا من الشعير. ولما كانت النخيل تحتاج إلى الكثير من الماء فقد كان عليهم واجب وعمل شاق لأن الآبار يبلغ عمقها مابين خمسة وعشرين وثلاثين مترًا.

يهاجر سنويًّا أكثر من ثلث السكان إلى سورية مع الرولة ويعملون هناك بالزراعة، وبما يكسبونه من المال يشترون الملابس والقمح والشعير. وفي نهاية الصيف يعودون مع قبيلة الرولة إلى موطنهم في سكاكة، لذلك فإن الحفاظ على علاقات جيدة مع الرولة من أولوياتهم.

عندما انهار نظام ابن رشيد انفجرت حرب أهلية في سكاكة أيضًا. لقد حاول القرشة الاستيلاء على بعض من بساتين المعاقلة فهاجموهم، لكنهم ردوا على أعقابهم، وفي يوم واحد فقدوا سبعة وتسعين رجلًا. ومنذ أكتوبر ١٩٠٨

ظلت هذه الحروب تستعر في سكاكة، وارتفعت أعداد الضحايا إلى أكثر من مئتي رجل، وكنا نسمع أعيرة النار صباحًا ومساءً.

في يوم الجمعة، استطاع شاب من المعاقلة التسلل إلى داخل مساكن القرشة ليهاجم رجلًا كان قد قتل أباه. وأخيرًا ظهر هذا الرجل، فهاجمه الشاب فقتله. وفي يوم السبت جاءني هذا الشاب، ليطلب مني اختبار بندقيته لأن زنادها لا يعمل جيدًا منذ تلك الواقعة قبل يوم واحد.

عندما دخل نواف الجوف أعلن المعاقلة الولاء له، وأعلن القرشة معارضته. قام الرولة بعدة هجمات على القرشة واستولوا على ماشيتهم وقتلوا أكثر من أربعين رجلًا منهم، ولعل هذا ماجعل رجاء يقول لي: بأن علي أن أحمد الله لأنه أوقعني بأيديهم بدلًا من أن أقع في أيدي القرشة لأنهم كانوا سيعاملونني بقسوة. ولم يكن هناك أدنى شك في ذلك لأن القرشة لايخافون أحدًا. إنهم آمنون في منازلهم المحصنة، وهم مسلحون جيدًا، وبساتينهم عالية الأسوار، ويستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد غارات البدو والصمود لسنوات.

كان نوافًا الذي احتل الجوف قبل شهرين، ويحظى بدعم الكثيرين من الرولة، مازال حتى الآن غير قادر على إخضاع سكان أحياء مارد وخذما. وإذا كان المعاقلة أصدقاء الرولة يعاملوننا هكذا، فكيف تكون معاملة أعدائهم لنا؟ الشيء نفسه، أو ربما أسوأ إذا ما ذهبنا إلى تيماء.

إن رجاء وكبار المعاقلة لا يعتمدون على حماية النوري كثيرًا. «فالنوري سرعان ما يرحل مع الرولة إلى مضاربهم، ويتركنا هنا لمصيرنا؛ لذلك علينا الاعتماد على أنفسنا». هذا ما قاله رجاء.

في يوم السبت عاد الرسول من نواف برسالة إلى رجاء وأخرى لي. لقد كتب لي بأنه أنّب رجاء لأنه اعتقلنا ونهبنا، وطلب منه إعادة كل ما أخذ إلينا، وطلب منه حمايتي إلى حيث قصدت. وأكد لي صداقته وطلب مني أن أسامح رجاء لما فعل بي، لأنه لم يكن متعمدًا، ولكن لجهله بي.

في مساء يوم السبت حددنا مسار الرحلة، وتعرفنا على خط العرض، وتحركنا صباح يوم الأحد في الساعة السابعة مغادرين سكاكة. وكان ذلولي

عاجزًا عن النهوض، بعد أن امتطيته، كان علي أن أنزل حتى ينهض ثم أركبه عن طريق العنق، كان يصاحبنا في الرحلة أربعة وثلاثون رجلًا لحمايتنا من هجمات القرشة. وقبل أن نجتاز البساتين، أبدى ذلولي رغبة في البروك، ولم يكن أمامي خيار غير أن أترجل وأمشي بجانبه. وكان كل واحد منا مسلحًا ببندقية بذخيرتها. ونبهنا رجاء ومران إلى وجوب مراقبة طعوس الرمل فربما يكون أحد أفراد القرشة مختبئًا بها، لكنني لم ألحظ أحدًا.

في نحو الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرين وصلنا إلى بلدة الطوير، كما يسميها الرولة، وهي تتكون من خمسين مسكنًا، ويسكنها نحو مئة نسمة، كلهم يحترفون الحدادة، وكان على حراسنا المسلحين الانتظار هناك حتى نصل نحن إلى قارة، وكان معنا ثمانية عشر رجلًا، وست نساء، وهم من أقرباء الزوجة الشابة للزنجي حمَّار، الذي كان يرافقنا. وجلست العروس فوق ظهر جمل. وكان مزعل الذي طردته، يمشي معنا. وفي التاسعة كان على يميننا على صخرة صغيرة قصر ابن قدر إلى الشمال من آبار القويرة. ويقال إن الإنسان لو حفر في أي مكان من منخفض الجوبة لا سيما بين سكاكة وقارة لوجد الأسوار والآثار القديمة وبقايا الآبار المهجورة، ولتأكد له أن هذا الإقليم الخالي كان مأهولًا، وبه زراعة. مكثنا في قارة نحو ثلث الساعة وملأنا قرب المياه، واتجهنا إلى الجنوب الغربي. وفي العاشرة وصلنا إلى تلال الرمل، حيث قابلنا بعض الجماعة الذين أرسلهم ابن مشهور طلبًا للماء، وأخبرونا أن النوري كان يعسكر في أم أرطى، وكان الصعود إلى أعلى المنطقة تحديًا لذلولي المتعب الذي كان يتوقف ويواصل مسيره بصعوبة. ولما لم نكن قد تناولنا وجبة حتى تلك الساعة، توقفنا لمدة بعد الظهر وتناولنا الطعام، وأخذت الإبل ترعى الأعشاب المزدهرة كالعرفج[1]

---

(١) اسمه العلمي (Rhanterium epapposum) وهو نبت شجيري معمر قزمي، سيقانه بيضاء وبرية كثيرة التفرع ويسمو إلى ٧٠سم. أوراقه قليلة ضيقة شريطية جالسة كاملة الحافة أو مسننة قليلًا، والرؤوس الزهرية صفراء أحادية طرفية ذات قلافات داخلية طويلة. انتشاره واسع على الرمال الضحلة، ويزهر في شهري مارس وإبريل. انظر: **النباتات البرية في مراعي شمال المملكة العربية السعودية**، مصدر سبق ذكره، ص ١٠٦.

والعلقا[١] والقليقلان[٢] والقصبا[٣]. . . إلخ، الموجودة في تلك المنطقة. وفي الساعة الثالثة، اقتربنا من معسكر الأمير، وأشار حمَّار إلى زوجته الشابة بأن تنزل، وأنه سوف يرسل لها امرأة تؤانسها.

كان مجلس الأمير يناقش ما حدث لنا، لأن رجلًا من الطوير جاءهم عند الظهر وروى لهم قصتنا في سكاكة. وكان الأمير يخطط للحاق بنا مع جماعته لو لم نصل في ذلك المساء. وعندما دخلت الخيمة وقف الأمير فوقف على أثره جميع الشيوخ تحية لنا، وأمسك الأمير بيدي اليمنى، وشد عليها بحرارة، بينما يدي اليسرى كانت في أيدي الشيوخ الآخرين الواحد تلو الآخر، وفي أيدي بقية أفراد الرولة. والتفت الأمير إلى الرجال الذين وفدوا معي من سكاكة، وقال لهم: «اعلموا يا أهل سكاكة أن موسى من كبار شيوخنا، وإذا مسستم شعرة من رأسه فسأقيدكم بالحديد، تكلم يا شيخ موسى، هل فقدت شيئًا، أنتم أيها العبيد خذوا بنادق رجال سكاكة ولا تعيدوها لهم حتى يعيدوا ما أخذوا من الشيخ موسى». ورويت للأمير بالتفصيل ما حدث في سكاكة، وعن مهمتي، وكان الأمير يقاطعني مهاجمًا سلوك الصلبي مزعل، وكان مزعل يستمع إلى روايتي، ولم يجرؤ على تكذيبها. وأكد طارش ورجال سكاكة روايتي.

---

(١) اسمه العلمي (Scrophularia hypericifolia) وهو شجيرة صغيرة معمرة كثيرة التفرع تسمو إلى ٦٠ سم، وذات قواعد خشبية. السيقان البالغة بيضاء، والأوراق شبه جالسة مستطيلة ملعقية لحمية تامة الحافة، والنوارة طرفيه تحمل ما بين ثلاثة وأربعة أزهار حمراء غامقة، والثمرة علبة مستديرة. واسعة الانتشار على الرمال الضحلة والعميقة، يزهر في الفترة من فبراير إلى إبريل. انظر: المصدر السابق، ص. ٢٢٢

(٢) اسمه العلمي (Savignya parvilora)، وهو نبت حولي عشبي أجرد بالأعلى شعيري بالأسفل قائم إلى صاعد يتفرع من القاعدة ويرتفع إلى ٣٠سم، أوراقه السفلية معنقة بيضاوية مستدقة مسننة إلى ضحلة التفصص، أما الأوراق العلوية فشريطية طويلة. الأزهار وردية إلى بيضاء تترتب على نورة غير محددة، والثمرة خردلة ذات عنق رفيع. انتشاره واسع على التربة الرملية والرملية الطميية، ويزهر في شهر فبراير. المصدر السابق، ص. ١٣١.

(٣) اسمه العلمي (Centropodia fragilis)، وهو نبت معمر قائم عديد الأفرع التي ترتفع ٦٠-١٠٠سم، طول نصل الورقة ٧-٢١سم شعيري، النورة سنبلة طولها ٢١سم، وكثيفة السنيبلات التي تتكون من ٢-٣ أزهار بطول ١سم. انتشاره محدود على الكثبان الرملية. يزهر في شهر إبريل. المصدر السابق، ص. ١٥٥.

في غيابي كان الأمير النوري قد صد هجومًا لشمر، عندما كان معسكرًا في «جو مغيرة»، وقد سمعوا ذات ليلة من يصيح قائلًا: «يا رجال، يا الخيالة»، واتضح أن سبعين رجلًا من شمر هاجموا قبيلة الكواكبة، وقادوا بعض قطعانهم، وتتبعهم الأمير ومعه عبيده، واستوقفهم وأعاد القطعان إلى ذويها واستولى على ثماني وعشرين بندقية، وأربعة وثلاثين بعيرًا. وسقط أربعة من شمر، وجرح اثنان من الرولة، جرح أحدهم وهو سعد شقيق الزنجي عبدالله الذي رافقني ذات يوم إلى الرصافة[1]، وقد كان مجروحًا بطلق ناري في صدره، وقُتل مهران للأمير، وقد أرقه ذلك كثيرًا.

وبعد مغادرتي لخيمة الأمير جاء رسول من الأمير سعود بن رشيد[2] مع رسائل تنشد السلام. وكان عبيد الأمير النوري وجميع الرولة ينادون بالحرب. وكانوا على استعداد للانضمام إلى عبد العزيز آل سعود ضد ابن رشيد، ويرغبون في مساعدة نواف، وكانوا على علم بالخلاف بين الأمير النوري وابنه نواف، وكانوا يتوقعون أن يجدد النوري اتفاقيته مع ابن رشيد، لكنهم انقلبوا على الرسول المسكين، الذي جاء بالهدايا ومبادرة إحلال السلام، فأهانوه، وهددوه بأنه لن ينجو أو يفلت من أيديهم حيًا، وأنبهم النوري على سلوكهم مع الرسول، وعاقب اثنين من عبيده. وبعد يومين أُطلق الرسول، محملًا بالرسائل العديدة. وجاء الآن أحد عبيد زامل بن سبهان[3] وزير ابن رشيد بصحبته ثلاثة رجال وكلهم يرتدون ملابس حريرية، واستقبلهم الأمير بحفاوة، وأقاموا عنده ثمانية أيام، فذبح لهم، وجدد ميثاق السلام مع ابن

(١) رصافة سورية وهي مدينة أثرية في بادية الشام، وتقع على مسافة ثلاثين كيلًا من مدينة الرقة في شمال سورية على نهر الفرات.

(٢) سعود بن عبد العزيز بن متعب الرشيد أمير حائل.

(٣) زامل بن سالم بن علي بن سبهان، تولى الوصاية على الأمير سعود بن عبد العزيز بن رشيد أمير حائل في ربيع سنة ١٩٠٩ بعد وفاة خال الأمير حمود ابن سبهان، وقام بدور أساسي في إدارة شؤون الإمارة وإيجاد نوع من الاستقرار في أوضاعها؛ إذ سعى لعقد اتفاقات سلام مع الأمير(الملك لاحقًا)عبد العزيز آل سعود في الجنوب والشيخ النوري بن شعلان في الشمال، وحاول استعادة النفوذ في مناطق الإمارة المفقودة في شمال غرب الحجاز. قتل في ربيع سنة ١٩١٤ على يد قريبه سعود بن صالح السبهان الذي خلفه بتولي المسؤولية في إمارة حائل.

رشيد فيما يخصه هو فقط وتحت شروط متعددة. وذهب عبد ابن سبهان إلى الجوف للتفاوض مع نواف الذي لم يوافق على الاتفاقية التي أبرمها والده. وبعد ليلتين من ذلك هاجم نواف الموالين لابن رشيد في الجوف، وتم إحراق اثنين من منازلهم وهدمهما، وقطع النخيل في بساتينهم. قال لي الأمير النوري: «إن نواف والمشايخ أحرار دعهم يفعلون ما يحلو لهم».

في ذلك المساء زارني مران (الذي احتميت به في سكاكة)، وجاء يطلب الهدايا له ولرجاء كبير جماعة المعاقلة. ووجهت ناصرًا ليعطيه قفطاني الحرير (زبون) وثوبي. وبعد قليل جاءني مران ليشكرني على الهدية، لكنه لم يكن راضيًا. وعندما حاولت رفع معنوياته بأن قلت له إن القفطان سوف يناسبه جدًّا، ابتسم في مرارة وأبدى بعض التذمر. دهشت من الأمر، وطلبت منه أن يريني القفطان الذي أعطيته له واكتشفت أن ناصرًا خدعه، وبدلًا من قفطاني الحريري أعطاه قفطانًا آخر مما عنده، ومما لا يستعمله هو، ونفذ تعليماتي له بعد تعنيفه. استلم طارش أجره الموعود، وهو خمسة عشر ريالًا مجيديًّا، وخمسة ريالات كهدية كما وعد الأمير. كان طارش سعيدًا وهو يطلب أن يبقى في خدمتي، إلا أن الأمير أجاب نيابة عني: «لقد استلمت مالك، فاترك معسكري، واذهب إلى من يحميك». فرد طارش: إنهم يعسكرون بعيدًا بجانب (الشقيق)، فرد الأمير: «لا أريد أن أراك في المعسكر غدًا».

من الاثنين وحتى الأربعاء (١٩ -٢١ أبريل ١٩٠٩):

في يوم الاثنين لاحظت عددًا من الجمالة ينزلون عند باب الأمير، وكانوا من العقيلات تجار الجمال حيث جاؤوا لينضموا إلى الرولة في طريقهم إلى دمشق. كان هؤلاء التجار قد اشتروا عددًا من الجمال ودفعوا بها في اتجاه الشمال الغربي، وجاؤوا إلى الأمير ليقدموا له الولاء والطاعة، ويضمنوا حمايته لهم. وأرسلت رسالة إلى الأمير، أطلب منه تأخير التجار قليلًا لأني أريد أن أرسل معهم رسائل، وكانت تلك أول فرصة تتاح لي منذ خمسة شهور لأرسل أخبارًا عني إلى دمشق، وأرسل الأمير يستعجلني فيها، وبعد عشر دقائق كان خادمه على باب الخيمة يسأل عما إذا كنت جاهزًا.

قضيت اليوم كله منهمكًا في عمل رسم طوبوغرافي للأقاليم التي سافرت عبرها. وفي المساء جاء الأمير، وكان في لهفة ليخبرني بما حدث في أثناء غيابي عنه، فقال لي: «إن ممدوح بن سطام تزوج»، وسألته «متى يتزوج ابنه سعود»؟ فقال لي: «على الله، فهو يحب أخت زوجتي الحالية، وهي أيضًا تحبه، لكنه لن يستطيع الزواج منها إلا بموافقة عبد الله بن طلال».

- «وما يهم البنت من عبد الله؟»

- «الكثير، صحيح أنه ليس قريبًا منها كقرب سعود، لكنه كان قد حجرها لنفسه بعد أيام من ولادتها، وأشهد الناس أمام أمها «تركية»[1] على ذلك. ومنذ ذلك التاريخ والبنت له، لا يتزوجها أحد إلا بموافقته. ويمكن إجباره على تركها، لكننا لا نرغب في مضايقته وإبعاده».

- « وماذا يقول أخوة البنت؟»

- «يقولون إنهم لن يسمحوا لعبد الله بزواجها وسوف يزوجوها سعودًا».

واصلت يوم الثلاثاء والأربعاء رسم الخرائط، واحدة بعد الأخرى، وكنت أقرأ الخطوط بصوت مرتفع إلى عوض الكويكبي وإلى من أثق فيهم، وأذكر كل الأسماء، ثم أكتبها باللاتينية، بينما يكتبها جواد[2] باللغة العربية. وكانت مصادر معلوماتي تناقش من وقت لآخر مواضع الأماكن والقرى، ولكنهم عمومًا أشادوا بدقة ملاحظاتي.

وبينما كان الأمير يجلس معي، جاء بدوي صائحًا: «افرح يا النوري بالأخبار الزينة، أربع مئة جمل وجمّال، بجانب خمسة وستين جملًا، محملة بالمؤن في طريقها من ابن سعود لمساعدة نواف، واليوم هم يعسكرون في جو مغيرة».

- «هل رأيتهم أنت؟»

- «لا، بل سمعت ذلك من أهل قارة».

- «اخرج بسرعة».

---

(١) تركية بنت جدعان المهيد أرملة الشيخ سطام بن حمد الشعلان شيخ قبيلة الرولة الأسبق.

(٢) جواد العامل من بلدة عانة في العراق، وكان يعمل كاتبًا للأمير النوري.

استلم الأمير يوم الأربعاء خطابًا من نواف يخبره بأن قوة قوامها ثمان مئة جمل وجَمّال أرسلها عبد العزيز آل سعود في طريقها لمساعدته، وأخبرني طراد بن سطام الذي سلم رسالة نواف لوالده، أن نوافًا كان على حافة اليأس، لأن والده لم يرسل له السلاح والمال والمؤن. ورفض أيضًا السماح لأمه بزيارته، ومعها ابنه الصغير سلطان. وتوسل إليّ طراد أن أحاول إقناع الأمير النوري بالتخلي عن عناده ومساعدة ابنه نواف.

من الخميس إلى الثلاثاء (٢٢-٢٧ أبريل ١٩٠٩):

تحركنا في يوم الخميس عند الساعة السابعة والربع صباحًا باتجاه الجنوب الغربي، وتوقفنا مبكرًا في الساعة التاسعة والثامنة والثلاثين دقيقة، وبحث لنا الأمير عن موضع جديد للنزول فيه، وعندما وصل الجمل الذي يحمل أمتعتي نصبت خيمتي، وبدأت في كتابة ملاحظاتي الطبوغرافية، وشغلني ذلك كل اليوم والجمعة، من شروق الشمس إلى مغيبها.

وعند المساء سمعت عدة طلقات وصياحًا، وعندما خرجت من الخيمة رأيت رجال سكاكة وقد اصطفوا صفًّا طويلًا وهم في اتجاه خيمة الأمير، وكان يتقدمهم رجل عجوز، كان يحرك السيف فوق رأسه، ويأتي بحركات مثلما يفعل الراقصون خلفه. وهي التحرك خطوتين إلى الأمام، والتمايل إلى اليمين وإلى الشمال، ويهزون جذوعهم بالطريقة نفسها. وخلفهم نحو أربعين جملًا تحمل أمتعة تجار الأسلحة من عنيزة بالقصيم، وهم يجلبون البنادق والذخيرة التي اشتروها من ميناء الكويت.

ووقف الرجال أمام الخيمة في شكل منتظم، وقام الرجل العجوز، الذي كان يقودهم في الرقص، بإشعال نار في منتصف الحلقة، التي اصطف حولها الرجال، والتي تفصل بينه وبين زملائه، وبدأ العجوز بالرقص ثانية. والتصق رفاقه ببعضهم بعضًا حتى تلاصقت أكتافهم، وأمسكوا بأيدي بعضهم، وبدؤوا يرقصون حتى أخذ منهم التعب كل مأخذ.

في المساء، جاء جواد الكاتب يحمل رسائل من الإمام ابن سعود، ومن

فيصل بن رشيد، شقيق الأمير سعود الرشيد الذي اغتيل، والذي (فيصل) كان قد هرب إلى الرياض. وقد أحضر الرسالتين الرسول الذي أرسله النوري إلى ابن سعود في أول شهر فبراير ١٩٠٩ عندما كان مخيمًا عند آبار ميقوع.

واصلنا سيرنا مرة أخرى يوم السبت، حيث غادرنا في السابعة والربع صباحًا باتجاه غربي شمالي، وكنا في محاذاة الجانب الشمالي من وادي اللجاة الذي تكسوه كثبان الرمل، التي ترتفع إلى ستين أو مئة وعشرين سنتيمترًا، وتتماسك الكثبان بجذور نبات (الأرطى)، وتنمو حولها أعشاب العلقا والعاذر. وفي الثامنة وأربعين دقيقة أشرفنا على تلال رملية عالية وفيها يزدهر العاذر، والغضا، والمصي، والقصبا، والسبط، وأذن الحمار، والعصنصل، والبرّيد، والحمصيص، والسعدان، والمرار، والمتنان، والكراث، وسبط الجرو، والصليان. وفي الأماكن الصخرية ينمو نبات العرفج وهو على شكل شجيرات ذات زهور صفراء، تبدو وكأنها جافة. وفي الشمال من هنا كنا نرى النهاية الحادة لسهل أجربة، الذي ارتحنا فيه بعض الوقت، ثم عند الساعة الثانية عشرة وسبعًا وثلاثين دقيقة أنخنا إبلنا وعسكرنا في مكان جديد.

عند ظهر ذلك اليوم، تحادثت طويلًا مع الأمير، لقد طلب مني عدد من الشيوخ وبينهم فهد بن مشهور - أقوى رجل بعد الأمير النوري - أن أقنع النوري بالوقوف مع ابن سعود، وأن يعلن أنه سيذهب إلى الجوف لمساعدة ابنه نواف بكل قوته. وقد ترددت في السابق بالتدخل بين أب وابنه، لكن عندما سمعت بأن نوافًا على استعداد للابتعاد عن أبيه نهائيًا، خشيت قيام حرب مفتوحة بينهم، ولهذا السبب خاطبت النوري بوضوح، الأمر الذي لم يحدث من قبل، واستغرقت المحادثة ساعتين أو أكثر، وفي النهاية نهض الأمير وغادر بصمت، ماذا سيصنع يا ترى؟

في صباح الأحد، رأيت العديد من الخيالة الهجانة أمام خيمة الأمير، وبعد قليل خرج الأمير ممتطيًا ذلوله، وتوقف بجانبي، وقال: «إلى الجوف»، ورددت عليه: «الحمد لله»، وسار معه أكثر من مئتي هجان ومعه المال، وجملان يحملان البنادق والذخيرة لنواف، وهكذا لم تكن مهمتي بلا فائدة.

وعاد الأمير مساء ذلك اليوم. وفي يوم الاثنين واصلنا رحلتنا. امتطى الأمير ذلوله في الساعة السابعة، ذلك الذلول الذي يحمل رمز قوته، ويعرف باسم (أبو ظهور) وتحرك الركب. «نواف يقريك السلام ياشيخ موسى» قالها لي بينما كان يمر، وخاطبني: «بإرادة الله سيتم ما تحدثت عنه»، ورددت عليه بالقول: «أنا على يقين من أنك الصديق المخلص».

وفي يوم السبت، أرسل الأمير سندًا الصلبي لاستكشاف الماء والوقوف على مكان مناسب نعسكر فيه في منطقة الطويل، ولم يعد إلا في الصباح الباكر من يوم الاثنين، وقال إنه وجد مرعًى طيبًا من الأعشاب التي تزدهر طوال أيام السنة في النفود، خصوصًا في منطقة «خبرا مليح» في «الخرشوفية»، وفي «غويطة جراد»، ولا توجد أعشاب موسمية في أي مكان، ولكن عشب الشتيل[1] ربما ظهر فجأة إذ هطلت أمطار كافية. «هل رأيت آثارًا لقطاع طرق» سأله الأمير. «لا، لكن رأيت أثر أربعين راكبًا».

كانت السماء من جهة الغرب ملبدة بالسحب السوداء يلمع فيها من وقت لآخر البرق، وتحمل الرياح الغربية السحب فوق رؤوسنا وترشقنا زخات المطر. تدثرنا من المطر بعباءاتنا وغطينا رؤوسنا وواصلنا سيرنا. وفي تمام الساعة العاشرة بحث الأمير عن موضع مناسب، وعاد بعد نصف الساعة، واتجه إلى الجنوب والجنوب الشرقي. وفي الحادية عشرة عسكرنا في منخفض رملي يسمى «القعرة». وفي يوم الثلاثاء، بدأنا في جمع الخيام في الساعة السادسة والنصف صباحًا، وبدأت القافلة السير في اتجاه الجنوب الشرقي. وفي التاسعة وصلنا إلى تلال من الرمل بها شجيرات جعداء تسمى الغضا، وقرر الأمير أن نعسكر هناك. وقفز من على ظهر جمله وأشار إلى مكان لأنصب فيه خيمتي. وبعد ساعة انتشرت خيامنا بمختلف أحجامها وألوانها في المكان. وبدت السماء زرقاء لامعة كأنها اغتسلت بذلك اللون، والطرف الأسود الشرقي من سلسلة جبال الطويل وكأنه يستحم باللون الذهبي. وفي هذه الأثناء جاء رسول من نواف يفيد أن ليلتي الأحد والاثنين شهدتا هجومًا عليه، قام به

(١) نبت النصي في بداية نموه.

محاربو ابن رشيد الذي أمكنه صدهم في المحاولة الأولى والقضاء عليهم في الثانية. وقد حاول قائدهم الاحتماء وسط الجمع الهارب، ولكنه أصيب ومعه امرأتان، وجرح أربع نساء أخريات، وتم أسر خمسة من مقاتلي ابن رشيد وقتلوا على الفور. وبعد هذه الأنباء في يومي الاثنين والثلاثاء بدأت جماعات صغيرة تغادرنا ممتطية ظهور الإبل لتناوش جماعات شمر، وبهذا أعلن النوري حربًا مفتوحة على أنصار ابن رشيد.

من الأربعاء إلى الجمعة (٢٨-٢٩ أبريل ١٩٠٩):

شغِلت في كتابة مذكراتي حول أصول القبائل. وعند المغرب سمعت صيحات النصر تتردد في المعسكر وكانت جماعة «الدغمان» عائدة من غزوة ضد القرشة بسكاكة، وعادت تحمل معها مئة وخمسين رأسًا من الأغنام.

كان نواف قد أرسل رشراش بن عذوب ليحضر له بنادق وذخيرة، وعاد في اليوم نفسه يقود أربعين جملًا تحمل أحد عشر ألف طلقة رصاص، وأربعين بندقية، كان الأمير النوري قد اشتراها من تجار القصيم. وكتب النوري لمولى ابن سبهان الذي كان يسيطر على حصن خذما وحصن مارد، وطلب منه الحضور إليه لمناقشة كيفية تسليم هذه المنطقة له، لأنه يرغب في الاستيلاء على الجوف وما حولها من البلدات والقلاع، سلمًا أو حربًا، وإذا لم يحضر فسيعدُّ ذلك إعلانًا للحرب.

لقد تغير النوري تغييرًا كبيرًا، وكان يدعم نوافًا يوميًّا ويناوش جماعات شمر، ويشن غارات عنيفة ضد أعداء نواف في منطقة الجوف. وكان الرولة سعداء بذلك، وأصبحوا يأملون في سحق قوات ابن رشيد التي ذاقوا على يدها الويلات لمدة طويلة.

كان يوم الخميس هو يوم الرحيل مرة أخرى، وتقدمنا في اتجاه الشمال الشرقي من الساعة السادسة وأربعين دقيقة إلى الساعة الثامنة وأربعين دقيقة صباحًا. وفي يوم الجمعة واصلنا في الاتجاه نفسه، وقد تحركنا في السادسة صباحًا، وفي الساعة الثامنة مرّ علينا اثنان من الصلب وأخبرا الأمير بأنهما

شاهدا عشرين من الجمالة أتوا من الشمال الغربي متجهين إلى الجنوب الشرقي. اعتقد الأمير بأنها بعثة لابن رشيد، يقودها أحد رجال حاشيته، ولابد من القبض عليها والاستيلاء على الرسائل التي تحملها. ومن الساعة الثامنة إلى التاسعة كمنا لهم في صمت شديد. وانطلق نحو اثنين وثمانين جملًا بعد أن تزودوا بالماء والمؤن في اتجاه بعثة ابن رشيد، وأخذنا نسير بلا ضجة حتى الساعة الثانية عشرة، وعندها حدد الأمير مكانًا للنزول فيه.

من السبت إلى الأحد (١ - ٩ مايو ١٩٠٩):

في يوم الأحد بالذات، كنت مشغولًا بإعداد مذكراتي، بحيث تشمل عادات وتقاليد الرولة. أما مصدر معلوماتي، حمّار أبو عواد الذي تزوج أخيرًا أخذ منه النعاس ورغب بالنوم في خيمتي. ومثل كل البدو كان متعودًا أن يأوي إلى فراشه في الصيف مابين الساعة السابعة والعاشرة صباحًا. وتلك الإغفاءة تسمى ضحى. وكان المعسكر في هذا الوقت بلا حركة، فأبواب الخيام قد أقفلت وأخلد الرجال إلى النساء داخل الخيام التي تغطى مداخلها، لمنع أي إنسان من النظر داخلها، وراح كل في نومه إلا الصبيان والبنات الصغيرات اللائي كن يتجولن حول المعسكر. تستيقظ النساء عند الظهر، ويواصل الرجال نومهم حتى الثانية أو الثالثة بعد الظهر. وكان حمّار يلح علي لأعطيه دواءً يعيد إليه حيويته المهدرة، وكان متيقنًا من أن بين أدويتي دواء من هذا النوع، وكان عمره ثمانين عامًا، وكانت زوجته ممتلئة حيوية وشبابًا، ولم يكن يصدق أنني لا أستطيع مساعدته، لكنه كان يتهمني بأنني لا أرغب في ذلك. وذهب إلى الأمير وطلب منه التدخل في الأمر. وجاءني معه الأمير قائلًا: «إذا لم تعطني ذلك الدواء فسأعود إلى زوجتي مسود الوجه. لقد وعدتها بالعودة إليها بالدواء منك - أطال الله عمرك - فهل تسوّد وجهي؟ لقد ظل وجهي أبيض حتى الآن، إذا كنت تحبني فلا تسود وجهي في أواخر أيامي».

في يوم الأحد غيرنا موضع نزولنا (رحيل)، وبدأنا في السادسة صباحًا متجهين إلى الشمال الشرقي، وبعد قليل انضم إلينا عذوب وممدوح وطراد وآخرون، من الذين كانوا يلاحقون الحملة وحراسها من شمر، وقال

عذوب: «تجاوزنا الحملة ليلة الجمعة في اتجاه الجنوب الشرقي، عند آبار الشقيق. وقد وجه لنا الشمامرة السؤال: «من أنتم يا ها الجيش». وعندما تبينوا أنهم رولة أطلقوا النار وولوا هاربين، وأسرع الرولة يحيطون بهم ولأنهم يعلمون باستحالة الهروب فقد قفزوا من فوق مطاياهم واختبئوا خلف شجيرات الغضا، وبعضهم سلم أسلحته، وقد قتل منهم أربعة وجرح آخر جرحًا خطيرًا. وآخر يدعى رجان، استطاع الهرب لأنه كان ممتطيًا ذلولاً سريعًا، ولكن عذوب كان يريد ذلك الذلول فنادى على الشمري ليستسلم ويأمن على حياته، ووعده بذلول آخر. وكان عذوب فوق ذلول سريع، وكان يمكن أن يطلق عليه النار ويقتله، أو يسبقه، ولكن الرجل استجاب لنداء التحدي، واستسلم فمنح بديلًا عن ذلوله المتفوق في السرعة ذلولًا مستهلكًا هرمًا، وفقد جماعة شمر إبلهم التي أخذها الرولة والسلاح والمال والمؤن. وخوفًا من الموت عطشًا طلب الشمامرة المهزومون من أعدائهم قتلهم بالرصاص، لكن الرولة رفضوا ذلك باعتبار أن قتل الأعزل عار يسوّد وجوههم. وأخيرًا علمت أنه لم ينج أحد منهم من مهالك النفود، ولم يعد أحد منهم إلى جماعته. وعلق الأمير على ذلك بلا مبالاة، عندما ناقشته فيه قائلًا: «إن رمال النفود تريد قرابين، وها نحن نقدم لها القرابين». ومضت الجمال ترعى من الساعة الثامنة إلى التاسعة تقريبًا، واصطدت طائرًا. ثم واصلنا مسيرنا في سهل مغطًى بالحصباء الخشنة، واختفت منه النباتات بفعل الرعي، ونزلنا في منخفض الجوبة. وفي الساعة الثانية عشرة وصلنا بلدة قارة من جديد، وأقمنا في المكان الذي أقمنا فيه سابقًا، في الجزء الجنوبي للقرية. وعند وصولنا أسرع السكان لحصاد ما بقي من القمح، لأنهم لا يطمئنون كثيرًا لإبل أصدقائهم الرولة. وكان الجو مفعمًا بالغبار والحرارة التي لا تطاق. أما الجمال المحملة بالأمتعة فلم تصل إلا بعد ثلاث ساعات من وصولنا.

في يوم الاثنين دعوت الصلبي سندًا لأناقش معه عادات جماعته وتقاليدهم. وعملتُ معه لمدة ساعتين دون جدوى. لقد ظل يراوغ ويناقض نفسه، وطلب مني طعامًا وتبغًا، وكان يبحث عن شيء في جيوبه كناية عن حاجته للنقود. وناديت صلبيًّا آخر اسمه فراج، وبدأ يجيب بشيء من الذكاء،

ولكن سندًا كان يحوم حول الخيمة، وأخيرًا نادى عليه، وقال له: «إن كل كلمة تقولها يأخذ هو ثمنها ذهبًا، وأنت لا تأخذ شيئًا». ولاذ فراج بالصمت، وتوقف عملي. وعندما اشتكيت من ذلك للأمير، قال لي: «ألا تعلم يا شيخ أن الصلب أسوأ صعاليك الصحراء».

وعند الظهر شرعت في دراسة قصائد وأغاني الرولة، وكنت أواصل العمل من مطلع الشمس إلى مغيبها لعدة أيام. كان الكاتب جواد يزودني باستمرار بمادة جديدة للدراسة، وكان الأمير يعدُّه نابهًا ومدركًا. وكان هذه العمل مثبطًا للعزيمة، خصوصًا والحرارة في الخيمة بلغت أربعين درجة مئوية، والرياح الغربية المنعشة لم تصل إلينا، لأن قارة تقع في منخفض، وراء هضبة تمتد من الشمال إلى الجنوب، وهي بذلك تقفل مجرى الرياح الغربية إلينا. وبالإضافة إلى ذلك كانت في العادة تهب علينا عواصف رملية في الأماسي، تملأنا بالغبار.

كانت خيمة الأمير مليئة بالمحاربين، الذين كانوا يحضرون طلبًا للبنادق والذخيرة. في المتوسط كان الأمير يستقبل في اليوم خمسين محاربًا، ويقدم لهم الطعام، ويظل هو جائعًا كل الوقت، فالمضيف لا يأكل مع ضيوفه. وفي جناح الحريم لا يوجد من يخدمه، وحتى زوجته الشابة كانت تفضل البقاء مع ذويها. وتقوم الجواري بالاهتمام بأطفالهن وأزواجهن، والأمير نفسه ليس من أقاربهن فهو غريب عنهن. وكانت تقيم مع الأمير اثنتان من بناته اللتان هربتا من زوجيهما، لكنهما كانتا «كلبتين» كما يسميهما الأمير، ولا يصلحن لشيء. وكن يجلسن في الخيمة يشربن القهوة، ويدخن غلايينهن الطويلة، ويستمعن لثرثرة زائراتهن الكثيرات. وحتى عندما تجمع الخيام يسترحن في ظل أمتعتهن وينتظرن حتى يُحمِّلَ العبيد الجمال، ومن ثم يتدثرن باللحف المطوية، التي يجلسن عليها ويراقبن الرجال والنساء وهم في غدوٍّ أو رواح، ولا يكترثن كثيرًا بالنظافة، لقد رأيت مرة واحدة منهن وكانت تدعى «صالحة»، وأمها شمرية، رأيتها تغسل منديلها الأبيض، وكانت زوجة الأمير النوري وأختها الصغرى يجلسان معها ويتحدثن إليها وهن يحككن رؤوسهن باستمرار، ولم يخطر

ببالهن غسل مناديلهن كما فعلت صالحة. ولقد ذكرت ذلك للكاتب جواد، فقال لي: «صالحة لم تتربَّ في خيام الأمير، لقد تربت مع أقرباء أمها التي طلقها الأمير، وعند أقرباء أمها لا يوجد عدد كبير من العبيد، كما هو الحال في خيمة الأمير أو في خيمة الشيخة تركية، أو خيمة زوجته الصغيرة عندما تحضر إليه. والنساء معتادات على ألا يبدلن ثيابهن إلا عندما تحضر لهن الجواري الملابس الجديدة. يخيل إليّ أن الأمير نفسه لا يبدل ثيابه إلا إذا أجبره أحد على ذلك. وكثيرًا ما سمعت الكاتب يستثيره حول منظره ويطلب منه ارتداء ثوب جديد. وهو لا يستطيع فعل ذلك في خيمته، لأنها باستمرار تكتظ بالناس، وبالليل عليه أن يخبئ ملابسه تحت رأسه إذا خلعها، لأن الخدم سيستولون عليها فورًا. «إن جيب الأمير واسع وعميق، والأمير لا يمشي عاريًا» هذا ما يقوله عبيده وخدمه. ولما وجدني أحرص على النظافة في كل شيء، أخذ يغتسل ويغير ملابسه في خيمتي من وقت لآخر. كانت خيمته مليئة بالنساء، ولكن لا يقمن بأعمال النظافة له، وطلب مني أكثر من مرة أن آمر خادمي ناصرًا بتنظيف ثيابه، وأصررت على عدم الموافقة على ذلك، لأن هذا العمل وظيفة النساء. فقال الأمير: «والله يا شيخ موسى، والله ما تصدق فإنني لو أعطيت ثوبي الجارية لأعادته إليّ أسوأ مما كان عليه». وقد كلف الأمير كاتبه أن يجد له امرأة تعرف كيف تنظف الثياب من البلدات المجاورة، لتنظف ثياب النوري بن شعلان ملك شمال الجزيرة العربية، كما كان يسمى، ويا له من ملك مسكين.

كانت فرق الرولة المسلحة، تشدد من ضغطها وغاراتها على شمر ابن رمال وشمر ابن رخيص، وكانوا يعودون بالغنائم من غاراتهم. ولكن بناءً على أنباء وردت إلى نواف بواسطة أحد الصلب، وأسرع بتبليغ والده بها تقول إن: زامل بن سبهان وزير سعود بن رشيد الشاب، أرسل تعزيزات من الذخيرة والمؤن إلى حصني مارد وخذما. وأرسل الأمير فورًا فرقة لتحتل المواقع المجاورة لآبار الشقيق، وممر المستندة في سلسلة جبال الطويل. وفي مساء الخميس عاد الهجاة بالغنائم. لقد اختبؤوا لهم خلف التلال الرملية، وفي منخفضات القعرة في النفود عند متعرجات سلسلة جبال الطويل، وكمن بعضهم في أعالي الجبال، وانتظروا حتى تصل القافلة ولم يطل انتظارهم،

وجاءت القافلة، وانتظروا حتى نزلت، ونام الجمالة، وعند الفجر أطبقوا عليهم ولا يعرف أحد ما الذي حلَّ بهم - لم يشر الرولة إلى هذا الأمر، ولكن لم يصل منهم أحد إلى الجوف أو إلى قارة، وكان واضحًا أنهم هلكوا جميعًا ولكن كيف؟ هل بسلاح الرولة أم بالعطش والجوع، لا يعلم أحد شيئًا سوى الله، ثم الرولة.

وفي يوم الأربعاء، جاء صلبي برسالة للأمير عن ثمانية جمال محملة سلاحًا وبضائع وملابس قادمة من المشهد، أي من كربلاء، وهي الآن عند معسكر الصلبة في البويتات. وكانت الجمال وما تحمل بضاعة لتجار من المشهد يسكنون في سكاكة مع القرشة، وهم أعداء الرولة. كان هؤلاء المشاهدة في وضع حرج، لأنهم كتجار كانوا يرغبون في البيع ليس للقرشة وشمر فقط، ولكن للمعاقلة والرولة في الوقت نفسه، وهم يرغبون في السلام، وماداموا يسكنون مع القرشة ويبيعونهم السلاح والذخيرة فقد أغضبوا المعاقلة والرولة. لقد أرسلوا الكثير من الخطابات والهدايا للأمير النوري، يطلبون السلام، وأن يغفر لهم تجارتهم مع أعدائه. وكانوا يقولون: «إذا لم نبع السلاح لجماعة القرشة، كيف سيعاملوننا؟ إنهم حتمًا سيدمرون منازلنا وينهبون ممتلكاتنا وكيف سننجو برقابنا منهم؟ هذا لا يعلمه إلا الله». «أنتم تزودون أعداءنا بالسلاح والذخيرة إذن أنتم سبب تحديهم لنا، أنا لا أريد التدخل بينكم» هكذا أجاب النوري باقتضاب. وعندما علم بنبأ قافلة المشاهدة، تحرك خمسة عشر شابًا على ظهور المهار لمقابلتها. ولكنهم عادوا صفر اليدين، إلا الصلبي الذي كان مع الرولة وفي الوقت نفسه، مع جماعة شمر. فعندما رأى القافلة تسير أخبر التجار لإخفاء الجمال في منخفض صغير، وبما أن الأرض كانت صخرية، فلم يتمكن الرولة من متابعة الأثر. ولما لم يكن معهم ماء كاف للخيل اضطروا للعودة، لكنهم أبقوا وحدات مراقبة عند آبار صوير وجو مغيرة، والمنطقة المجاورة لسكاكة.وخلال هذه الأيام كان القتال مستمرًا في الجوف، وكل جانب يحاول أن يلحق الضرر بالآخر بتدمير أسوار البساتين وتقطيع النخيل.

من الاثنين إلى الأحد (١٠- ١٦ مايو ١٩٠٩):

في صباح يوم الاثنين، استيقظت على صوت الجمال، وهي تحمَّل بالمؤن بواسطة عبيد الأمير أمام خيمته، ومعنى ذلك، أننا سنتحرك مرة أخرى، على الرغم من أن الأمير أخبرني بأننا سنبقى في قارة لمدة أسبوع. وكنت سعيدًا بالاستمرار في عملي العلمي دون توقف أو مضايقة. وقبل شروق الشمس، جاءني الأمير ليسأل هل سأذهب معه أم لا؟ وقال: «سأترك النساء والخيام والمؤن في قارة وسأتجه شرقًا مع الماشية فقط والأمهار. وسأعود بعد خمسة أو ستة أيام، لأن الصلب أخبروني ليلة الأمس أنهم اكتشفوا مرعًى طيبًا في مناطق الودع والمخروق، وأرغب في البقاء هناك حتى نهاية الشهر». ولما أيقنت أن الأمير ذاهب إلى مكان لا يختلف عن المكان الذي كنت قد زرته من قبل فضلت البقاء في قارة والاستمرار في عملي. ونصحني الأمير بنقل خيامي إلى بساتين الشيخ ظاهر بن سليم لتوفر الحماية هناك. فانتقلنا إليها ونصبنا خيامنا، ورغب كاتبه في البقاء معي. أرسل الأمير رسالة للشيخ ظاهر، ليمنع كل من يحاول دخول خيمتي، وليتولانا بحمايته اليومية ليل نهار. وقد أرسل تلك الرسالة مع مولاه عامر. وبعد أن تأكدت من أن أمتعتي وضعت في مكانها، ذهبت لوداع الأمير لأترك جمالي في حمايته. «هذا ليس ضروريًّا يا أخي موسى» أجابني الأمير «إنني أحافظ على ممتلكاتك أكثر من ممتلكاتي، والله إنني أقول صدقًا». وطلبت من راعي إبلي مفضي، أن يبقى معها دائمًا ولا يذهب إلى أي مكان، عدا الأماكن التي خصصها الأمير، والتي تقيم فيها جماعته. لقد غادر الأمير بكل الرجال وترك وراءه النساء والأطفال. ورجعنا أنا وجواد الكاتب إلى مراجعة مذكراتي عن الأدب الشعبي، ولم أغادر الخيمة إلا بعد مغيب الشمس.

لم تمر الليالي هانئة، فعلى بُعد خطوات من خيمتي توجد خيمة لأحد الشمامرة، وكانت ابنته مريضة تئن وتبكي ليل نهار، إلى أن أراحها الموت، فلفت في ثيابها يوم الأحد، ودفنت قبل شروق الشمس. وفي كل ليلة في منتصف الليل، كان أربعة خدم مع ثلاثة جمال يمتحون الماء من بئر على

بُعد أربعين خطوة من خيمتي لري النخيل. وكان عملهم مصحوبًا بالأغاني وصرخات حث للسانية للسير المستقيم والإسراع، ولذلك كان العمال يقومون بالضرب والصراخ بصوت عالٍ. وكان العمال يعطون اهتمامًا خاصًّا للنخيل الذي على وشك الإثمار، ويقومون بالتشذيب، والتلقيح. وكانوا يهزون البذور أو الطلع من ذكور النخيل على إناثها، ويدخلون فرعًا يحمل بذور التلقيح وسط فروع تحمل بذور إناثها، ويربطون الاثنين معًا. إن بذور الذكور لا تظهر بسرعة، وتاج كل نخلة لابد من فحصه في اليوم الثاني أو الثالث، وكل شجرة لابد وأن تسقى كل خمسة أيام. وتخزن المياه في بركة كبيرة بعد استخراجها من البئر، ثم توزع بواسطة جداول صغيرة ممتدة إلى الأشجار، حيث يحيط بالشجرة حوض بقطر مترين.

وفي يوم الثلاثاء، علمنا أنه عند آبار صوير[١] اعتقل الشيخ زبن الكويكبي جماعة من شمر، كانوا يبحثون عن الرولة في وادي السرحان، وإلى ما وراء قرية كاف، وكانوا قد استولوا على جمال محملة بالملح تخص السرحان، وعادوا بالغنيمة عن طريق العامود، وطرف وادي الشويحطية[٢]، ونجحوا في الوصول إلى صوير وكانوا يشعرون بأنهم في مأمن، لأنهم ظنوا أن جماعتهم تعسكر في منطقة «البويتات». ولم يقدر لهم اللحاق بأهلهم، فلقد رآهم رجل كويكبي كان يبحث عن أشجار النصي لفرسه خلال القيلولة، وهم يستريحون وأبلغ قبيلته. لقد فقد الشمامرة كل شيء من الغنيمة وكذلك جمالهم. وعند الرولة، وقع جملان يحملان بضائع للمشاهدة في سكاكة غنيمة، ولقد وعدوا الصلبي بجمل، ولكي يتأكد من ذلك، باع قبيلته للرولة حيث إنه دلهم على الطريق.

في يوم الخميس، جاءت إلى قارة عائلات من جماعة النصير، الذين كانوا يعسكرون مع شمر في منطقة الحزل، وتحركوا عند إعلان الحرب بين الرولة وشمر، وسألني رئيسهم: «أين معسكر الأمير النوري؟» وأخبرني بأن

(١) مورد من موارد البادية شرق سكاكة ويبعد عنها ثلاثين كيلًا تقريبًا.

(٢) واد رئيس شمال سكاكة ويبعد عنها ثلاثين كيلًا.

رجال ابن سعود اقتربوا من حائل مقر ابن رشيد، وبناءً على روايته فإن زامل بن سبهان عسكر مع مقاتليه في حصن تربة، وأرسل له ابن سعود فيصلًا بن حمود الرشيد مع تعليمات بمهاجمة العدو والهروب. وقد تم ذلك وتبعهم ابن سبهان، وفي غيابه هجم ابن سعود ورجاله على معسكره وهاجموه من الخلف وسيطروا على كل الخيام البيضاء لابن رشيد وخيولهم وجمالهم، ونجا ثلاثون راكبًا منهم فروا على ظهور الخيل ووصلوا إلى حائل. وسيطرة ابن سعود كما قال الرجل، وصلت إلى بلدة بقعا أو كما يسمونها «طيبة اسم» وهي ملتقى كل الطرق المؤدية إلى حائل. وفي يوم الأحد، جاءنا صلبي من الجوف يحمل أنباء بأن جماعة الدغمان الرويلية قضوا على هجوم لجماعة التومان المتحالفين مع شمر واعتقل منهم خمسة وثمانون رجلًا، وقال إن نوافًا يبني حصنًا في الجانب الشمالي الغربي من حصن مارد، ومن هناك سيصب النار على أعدائه.

من يوم الاثنين إلى الجمعة (١٧-٢١ مايو ١٩٠٩):

في يوم الاثنين، سمعت صوت جمل يناخ أمام خيمتي، ومددت رأسي فرأيت الأمير الذي خف لمعانقتي بحماس، وكانت جماعته قد توجهت إلى قارة، وتقدم هو بجمله السريع ليراني بأسرع فرصة، وهذا ما قاله هو. وأدركت أنه خف إليّ ليس من أجلي، لكن من أجل تناول وجبة كاملة وراحة، يعرف أنها متوفرة عندي. لقد كان متجولًا خلال الأيام الثمانية الماضية، ولم يمكث ليلة واحدة داخل خيمة، واشتكى لي بأنه لم يجد المرعى الطيب، ولا كميات مناسبة من المياه، الأمر الذي اضطرهم مرتين لمواصلة السير، لأنهم شعروا باحتمال حدوث غارات ضدهم من الأعداء. وعندما سألته عن جمالي قال لي إن أحسن جمالي قد سرقت (اثنان منها)، وأن راعي إبلي مفضي لم يمكث قريبًا منها كما طُلب منه، وأنه ذهب إلى أقاربه خارج المعسكر. وفي غيابه قام اثنان من شمر يعملان مع الرولة بسرقة الجملين. كما سرقا المؤن وقرب الماء والبنادق من شيوخهم وسرقا من الأمير جملًا. وطلب الأمير تعويضًا من سادتهم عن جملي، وقال إنه سيساعدني في طلبي وإلا اسودّ وجهه.

قلت له: «أنت الأمير المسؤول، وهذا واجبك وفقًا لتقاليدكم، فالمضيف

يحمي الضيف وخدمه وممتلكاته، وهذا شيء معروف للجميع. وإذا لم ترغم هؤلاء السادة ليدفعوا التعويض فهذا يعني أنك لا تهتم بأملاك الغير من أصدقائك وجيرانك. إن الأمير النوري بن شعلان لن يدع هذه الحادثة تمر هكذا». «والله لن أدعها تمر. أنا أعرف أنك اشتريت الجملين بمئة وثمانية وخمسين ريالًا مجيديًّا، لكن هذه السنة انخفضت أسعار الجمال عن السنة الماضية وأن وأقوّمهما بمبلغ مئة ريال مجيدي، فإذا وافقت سيدفع لك سادة هؤلاء الخدم اللصوص هذا المبلغ». ووافقت وطلبت من الأمير أن يعجل بهذا الأمر، وفي الليل جاء الكاتب جواد بكلمة من الأمير يقول فيها أن علينا أن نبقى في قارة حتى يوم السبت، ولقد سررت لذلك لأكمل في ذلك التاريخ أعمالًا في الأدب الشعبي.

وكان الأمير يأتي لزيارتي يوميًّا، وكان عندما يراني يتحاشى إزعاجي، وإذا علم بشخص يريد زيارتي يرده عني.

كان كثير من الشيوخ - خصوصًا صغار السن. يرغبون في الحصول على بعض الأشياء مني، لكنهم لم يجرؤوا على طلب ذلك، لأنهم كانوا يعرفون أن الأمير صديقي الحميم. ولم أسمح لكثير من هؤلاء المشايخ أن يدفعوا الكلفة معي، ويقتربوا مني كثيرًا. وكنت معهم ودودًا ومجاملًا ولكن في حدود، وأتحفظ عندما أرى أحدهم حاد عن تلك الحدود. وأتظاهر بأنني لم أفهم شيئًا مما رمى إليه، أو أتظاهر بأنني لم أسمع أو أرد باقتضاب سلبي، وأشغل المتحدث بعد ذلك مباشرة، في محادثة لطيفة، وكأن شيئًا لم يكن. لم أسمح لنفسي بقبول أية دعوة للعشاء من الشيوخ الشباب، ولم أقم بزيارة أحد منهم البتة. وكان نادرًا أن أدخل خيمة الأمير، وعندما أدخل أجلس معه قليلًا، وكانت خيمتي المستديرة دائمًا مفتوحة له. ولكنها موصدة في وجه الآخرين من الشيوخ. وكنت أسمح لهم بالجلوس في خيمتي الكبيرة عندما أدعوهم أنا. كما إنني لا أُحيي الشيوخ من الشباب أولًا، لكن أرد تحيتهم وأستفهم منهم في مودة عن هذا وذاك. وإذا لم يحييني أحدهم، أمر به كأني لم أره ولم أسمعه.

إن رحلاتي العلمية، التي يطلقون عليها غزوات كانت معروفة للجميع. ولم يشك أحد في شجاعتي، ومرة أراد الأمير ممدوح بن سطام، وهو معروف

بالشجاعة أن يختبرني بالسؤال إن كنت أخاف وأنا أتجول في مجاهل الصحراء لوحدي، فأجبته أمام الجميع: «ما الخوف يا ممدوح، وما هي مجاهل الصحراء؟ لقد كنت أتجول فيها على ظهر بعير، بينما أنت كنت تُحمل في حقيبة»، فتغير وجه ممدوح وتراجع عن سؤاله. وفعلًا، كان العبيد يحملون أبناء سادتهم عندما كانوا صغارًا في حقائب مربوطة إلى السروج، لأنهم لا يستطيعون ركوب الإبل. بهذا الأسلوب اكتسبت ثقة عائلة الأمير، ولا يستطيع أحد من صغار الشيوخ أن يُؤلب عليّ، ومن أجل المحافظة على تلك المكانة إلى هذا الحد، طلبت تعويضًا عن جمالي المسروقة. وكانت تلك فرصة لأعرف مدى صداقة الأمير معي.

في يوم الخميس، أنجزت كل أعمالي العلمية. وفي المساء، ذهبت مع الشيخ ظاهر لزيارة خيمته، حيث يتم ختان بعض الصبيان، وأمامها عدد من الفتيات وكن يرقصن. وفي طريق العودة وقفنا لنفحص صخرة المشرفة، حيث كانت توجد قلعة هناك. وفي الصخرة التي نحتت باليد اكتشفت كتابة نبطية، وقررت العودة في صباح اليوم التالي لأتمكن من رؤيتها جيدًا.

وفي يوم الجمعة، شعرت بتعب شديد، لأنني شربت كميات كبيرة من القهوة لأبقى نشطًا، وأصبحت الآن متوعكًا كمن أُصيب بنكسة حيث إنني لم أتمكن من النهوض من سريري، وارتفع نبض الدم في رأسي، حتى شعرت بأن كل شيء أمامي يدور. وخف ناصر لمساعدتي، ونقلني من خيمتي الصغيرة إلى الخيمة الكبيرة حيث جلست لبعض الوقت. عند الظهيرة، هبت عاصفة رملية اقتلعت خيامنا الأمر الذي دفعنا إلى أن نحتمي بجدران البستان. لم تتوقف العاصفة إلا عند الغروب. وكان الوقت قد تأخر للعودة إلى صخرة المشرفة.

في مساء ذلك اليوم، أحضر لي الكاتب جواد ٧١ جنيهًا تركيًا تعويضًا عن جمالي المسروقة، وخبرًا عن القرار برحيلنا يوم الغد إلى المناطق المأهولة. لقد حفظ الأمير كلمته، وهذه الحقيقة مع الفرحة بقرار الرحيل من دواخل الصحراء أسهمت في رفع معنوياتي»[١].

---

(١) النص المعرب: Alois Musil, **Arabia Deserta**, pp. 274-302.

غادر موسيل بلدة قارة برفقة الأمير ورجال قبيلته عبر وادي السرحان حيث توقفوا وهم في طريقهم إلى دمشق في قرى شمال وادي السرحان، وقد ذكر الآتي:

«عند الساعة العاشرة وأربع وأربعين دقيقة من صباح يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر مايو ١٩٠٩ وصلنا إلى مستوطنة غطي الصغيرة. تتكون هذه القرية من مجموعتين (قصرين) من المنازل محاطة ببساتين كبيرة للنخيل. وإلى شمال غربها ظهرت لنا بساتين النخيل الكثيرة لقرية كاف التي تقع عند قاعدة جبل الصعيدي الذي لايزال يحمل قي قمته آثار مبانٍ قديمة.

وتقريبًا عند الساعة الحادية عشرة أحاط بنا وفد سكان كاف ولم يلق الأمير بالًا لهم رغم أنه هو من طلب الاجتماع بهم. لقد أجاب على سلامهم باقتضاب وبصوت خفيض وسار بصمت، وكانوا يخاطبونه بقولهم «يا طويل العمر» متحدثين باسمهم وباسم جيرانهم الذين بقوا في كاف. كانت إجابة الأمير «سترك يارب»، ثم لاذ بالصمت.

عند الساعة الساعة الثانية عشرة ظهرًا وصلنا إلى حقل مسور، اسمه العقيلة، وخيمنا عنده بين نباتات المصع، بالقرب من عدد من الآبار، عمقها مترين وليس بها إلا الماء المالح والمر. لقد استمر الأمير في تجاهله لوفد كاف. نزع الأمير ملابسه واتجه إلى أحد الآبار ليغطس نفسه به وليغتسل، طالبًا مني أن أحذو حذوه. عند المساء وصلت عدة جمال حاملة إتاوة سكان إثرة وكاف لشيوخ الشعلان، ولا يتعدى نصيب الأمير منها حمولة جمل من الطحين وأخرى من الشعير. إتاوة إثرة خاصة بعبد الله الشعلان، الذي كان والده طلال الشعلان قد ألحقها به. وأغلب البساتين في كاف هي ملك لأبناء سطام الشعلان.

وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر مايو ١٩٠٩ بقينا في مخيمنا لأن الأمير كان لديه قضايا عديدة ليحكم فيها، وكان العرب يريدون شراء الملح. ومن كان يملك مالًا كان يستطيع شراء القمح والشعير. لقد عيّن الأمير النوري، عوادًا، ابن مملوكه حمّار، نائبًا له في كاف.

يوجد في مستوطنة كاف أكثر من ستين منزلًا، مقسمة إلى ثلاثة أحياء (قصور)؛ الحي الأول: القصر الشرقي، يخضع للشيخ مطاوي بن خضير؛ الحي الثاني: القصر الغربي، يخضع للشيخ مفضي بن خميس، أما الحي الثالث: القصر الوسطاني، وهو الأصغر بين الأحياء الثلاثة، فيخص نائب الأمير في كاف والتابعين له. يدفع نائب الأمير في كاف للأمير خمس مئة مجيدي (٤٥٠ دولارًا) في السنة كضرائب ولا يحصل على أي راتب. يعمل سكان مستوطنات منطقة كاف في تجارة الملح الذي يستخرجونه من عدة أماكن عن طريق التبخير، لاسيما في مستوطنة إثرة. ويبيعون سنويًّا إلى سورية حمولة خمس مئة أو ست مئة جمل. قيمة حمولة الجمل الواحد من الملح التي تعادل ستة عشر مدًّا (٢٨٨ لترًا) مجيدي واحد (٩٠ سنتًا)، نصفها يذهب إلى نائب الأمير، الذي بالإضافة إلى هذا يحصل على رسوم إضافية مقابل حماية القافلة وأحمالها. فالتاجر الذي يحمل مالًا يدفع ثمانية مجيديات، والذي يحمل بضاعة يدفع ستة مجيديات مقابل حمولة واحدة منها. وإذا ما كانت الحمولة تبغًا أو سمنًا، فيُدفع ثلاثة مجيديات. وإذا ما فقد التاجر عن طريق السلب أي شيء في منطقة كاف التي يتبعها كل منخفض وادي السرحان، فإنه يطالب بالتعويض من نائب الأمير. في حالة كان المهاجم للتاجر أو السالب له من ضنا مسلم (من قبيلة عنزة) أو من الشرارات فإن نائب الأمير يبعث برسول إلى عشيرة الشخص الفاعل ويطالبها باسم الأمير النوري الشعلان إما إعادة المسروقات أو التعويض عنها بضعف قيمتها. أما إذا كان الفاعل من بني صخر أو من الحويطات أو أي قبيلة أخرى فإن نائب الأمير يعمل على القبض على الفاعل وقيده بالحديد ثم إبلاغ عشيرته أنه لن يُطلق من قيده حتى تعاد المسلوبات.

إن أغلب سكان كاف والقرى الأخرى هم من الجوف، وعندهم أقرباء بها؛ ولهذا فإن الأمير أصدر أمرًا لسكان هذه القرى بألا يحموا أحدًا من معارضيه في الجوف، والعقاب على ذلك سيكون بمصادرة الممتلكات، إذا لم تكن حياة الفاعل.لا يوجد إلا القليل من القمح والشعير في كاف لذلك

كان العرب مضطرين لدفع مجيديين للمُدِّ الواحد (١٨ لترًا) من القمح، وثلاثين قرشًا (يعادل دولارًا وخمسة وأربعين سنتًا أمريكيًّا) لمد من الشعير»[١].

واصل موسيل رحلته برفقة الأمير وقبيلته عائدًا إلى دمشق التي وصلها يوم الاثنين الثاني عشر من شهر يوليو ١٩٠٩.

الرحلة الثانية

١٩١٥م / ١٣٣٣هـ

كما ذُكر في التعريف به، قام ألويس موسيل برحلة جديدة إلى شمال الجزيرة العربية أخذته إلى منطقة الجوف مرة أخرى. ففي سنة ١٩١٤ وبعد بدء الحرب العالمية الأولى ودخول تركيا فيها بجانب ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر في أواخر شهر أكتوبر ١٩١٤ مباشرة، قررت ألمانيا إرسال بعثة إلى الجزيرة العربية للعمل على توحيد القبائل الموجودة بها والعمل على تكتلها ضد الإنجليز. وقد اختير موسيل رئيسًا للبعثة. وضع موسيل شروطًا يجب تلبيتها قبل أن يقوم بمهمته، ومن هذه الشروط أن تتم الموافقة على تعيينه من طرف قيصر إمبراطورية النمسا والمجر فرانز جوزيف الأول (Franz Joseph I) شخصيًّا[٢]، وأن يفيد عمله السياسة النمساوية - المجرية، وأن يعطى لقب مستشار الإمبرطور[٣]. وقد تم لموسيل ما أراد، فانطلق برحلته الجديدة والأخيرة في الصحراء العربية. اجتمع موسيل في رحلته مع شيوخ القبائل، ومنحهم الأعطيات المالية للوقوف بجانب الحلف التركي - الألماني - النمساوي المجري ضد الإنجليز وحلفائهم. وأن يتخلوا عن الحروب فيما بينهم. كما أنه أراد أن يصلح ذات البين بين القبائل الموالية لتركية وتلك التي تعارضها.

---

(١) النص المعرب: Alois Musil, **Arabia Deserta**, pp. 325-327.

(٢) فرانز جوزيف الأول (١٨٣٠-١٩١٦) إمبراطور النمسا وملك بوهيميا وملك المجر من سنة ١٨٤٨حتى وفاته.

(٣) آرثر برايشا فوتييه .**مصدر سابق**، ص. ٤٥.

وصل موسيل إلى دمشق في منتصف شهر نوفمبر ١٩١٤ وقد زاره النوري الشعلان وطلب منه التوسط مع الحكومة في دمشق لتسمح له باللحاق بقبيلته في داخل الصحراء، إذ كان هو وعبيده محتجزين في بلدة ضمير، وبعد أن حصلت له على إذن بذلك من السلطات الحكومية أسرع في المغادرة خشية تغيير الحكومة لرأيها، واتفق مع موسيل على أن يقابله بعيدًا في الصحراء.

غادر موسيل دمشق في اليوم الثالث من شهر ديسمبر متجهًا إلى حيث سيقابل النوري لإجراء مفاوضاته معه ومع شيوخ القبائل الآخرين.

وهنا نتركه ليتحدث عن هذه اللقاءات والمفاوضات مع شيوخ القبائل عند وصوله إلى مخيم الشيخ النوري بن شعلان شيخ قبيلة الرولة قرب خبرة الهجم في هضبة الحماد شمال منطقة الجوف:

«عندما واصلنا مسيرنا يوم السبت ٢٦ ديسمبر ١٩١٤ قابلنا جماعات كبيرة وأخرى صغيرة من البدو المُرتَحِلين، وقد أفادونا بأن الأمير النوري بن شعلان سوف يضرب مُخيّمه شرق خبرة الهجم. عند الظهيرة حلقت فوقنا أكثر من مئة من الطيور ذات صدور وردية الريش، وأجنحتها سوداء اللون وأعناقها بيض، ومناقيرها صفراء غامقة، أوضح مرافقي أن اسمها «رهاء». عند الساعة الثالثة مساءً وصلنا إلى خبرة الهجم، حيث عبأنا قِرْبةً بالماء في عشر دقائق.

جرى توسيع هذه الخبرة صناعيًّا، ولكن الجزء الذي تم حفرُه مليء بالطين للدرجة التي لا تمتلئ بالمياه إلا في السنين التي تهطلُ فيها الأمطار بغزارة غير عادية.

من ناحية الشرق كانت تُسمع أصوات طلقات نارية تُطلق على فترات متقاربة، وكانت تدُلُّ على أن أبناء العائلة الحاكمة كانوا يصوبون نحو هدف ما. كانت خيمة الأمير النوري بن شعلان منصوبة في حفرة صغيرة للدرجة التي لم نستطع أن نراها. لم نكد نظهر حتى توقف إطلاق الرصاص، وتدافع جميع الحضور أمام الخيمة، ينظرون إلينا متفحصين في استغراب. فجأة صاح المملوك عليّ: «الشيخ موسى؟!» واندفع لملاقاتنا، وقاد راحلتي إلى الجانب الأيسر من الخيمة. لم أكن قد ترجلتُ بعد عندما وقف الأميرُ أمامي وجَذَبني

إلى ذراعيه واحتضنني وقبّلني على الخدين وكأنني شقيقه. خلفه كان يقف الأمير نوّاف الذي مَدّ كلتا يديه نحوي، ثم تبع ذلك صف طويل من أصدقائي القدامى المُخلصين، والذين احتضنتهم جميعًا وقبلتهم على خدودهم قبل دخولي الخيمة. أجلسني نواف بينه وبين والده، وانهمرت من كل جانب التحايا والاستفسارات عن صحتي. لقد شعرت براحة وحرية كبيرة بين هؤلاء الناس الطيبين للدرجة التي تخيَّلتُ فيها نفسي في موطني وبين أشقائي.

تفحصت المجتمعين باحثًا وسَطَهم عن أصدقائي الحميمين الثلاثة عذوب بن مِجوِل، وممدوح بن سَطام، وسعود بن الأمير النوري. ولما لم أرهم بين الحضُور استفسرت عنهم. «لقد ذهبوا (راحوا)» قال الأمير. «عذوب، كانت قد نُهبت منه عدة قطعان من الجمال بواسطة شَمّر عند مَورد مياه القصايم، فقام باعتراض المغيرين، واسترد الحيوانات، ولكنه أصيب بطلق ناري فَخَرّ صريعًا في الحال. رجع فرسه بسرجٍ خالٍ مُلطخ بالدماء. «وأين قضى ممدوح نحبه؟» - «كان قد تولى غارة ضد شمر. وقد استدار حول النفود من الجانب الغربي والجانب الجنوبي، ووجد شمر وولد سليمان[١] عند آبار بيضاء نثيل[٢]، فاستولى على اثني عشر قطيعًا من الإبل، وبينما كان هاربًا بها إلى ناحية الغرب هاجمه العدو، الذي كان يحتل أغوار المسمى[٣]، فسقط ممدوح قتيلًا في ممر العاه. أما الناجون من الغارة فقد وصلوا إلينا عندما كنا نخيم عند جبل العمود[٤]، - «وأين فَقَدْتَ سعودًا؟» - «لقد وقع نتيجة غدر، قتله الكلاب، الذين ينبح على رأسهم ابن جازي[٥] عند مدخل وادي ناعِم في وادي

---

(١) من قبائل عنزة.

(٢) موارد ماء معروفة غرب صحراء النفود.

(٣) سلسلة جبلية غرب صحراء النفود، وهي غير السلسلة التي تحمل الاسم نفسه شرق وادي السرحان.

(٤) جبل شاهق يرتفع كالعمود ويشبهه استدارة، يقع وسط منطقة الحماد شمال منطقة الجوف، ويعدّ أحد معالمها المميزة.

(٥) يشير إلى حويطات ابن جازي، وهم فرع رئيس من فروع قبيلة الحويطات الثلاثة، ورئاسة هذه الفرع في عائلة ابن جازي. وفي هذه العائلة كانت مشيخة القبيلة كلها حتى سنة ١٨٩٤ إذ قبضت السلطات التركية على الشيخ عرار بن جازي شيخ هذه القبيلة وسجنته حتى سنة ١٨٩٦، وبعد وفاته سنة ١٩٠٠ انقسمت مشيخة هذه القبيلة، واستقلت بعض فروعها. كان الشيخ في زمن رحلة موسيل =

السرحان شمال قرية قراقر الصغيرة. كان هناك مع ستة من الفرسان يرعى قطعانًا من الإبل، عندما أقبل عشرة من الهجانة، وحيا هؤلاء سعود ومن معه قائلين بأنهم تحت إمرة الشيخ عودة أبوتايه[١] وهو صديق لنا. وبما أن أزياء حويطات أبو تايه لا تختلف عن أزياء حويطات ابن جازي فقد صدقهم سعود في الحال ودعاهم إلى الانضمام إليه حول النار. قام الراكبون بإنزال سُروج ركائبهم وحملوها إلى صخرة مجاورة: حيث تظاهروا بإشعال نار. فجأة ودون سابق إنذار تناولوا بنادقهم وأطلقوا النار على سعود ورفاقه، وفي الحال كان سعود وأربعة آخرين يخرون صرعى. الاثنان الآخران أنقذا نفسيهما بالاحتماء وراء أجَمَةٍ (رتم) وأسرعا في طلب نجدة. حاول الحويطات الهرب ولكن فرسان الشعلان فوق صهوات خيلهم سرعان ما لحقوا بهم - عندما رأوا أن لا أمل لهم في النجاة، قفزوا من على ظهور ذلائلهم واختبأوا في الدَّغْل المكشوف الواقع في وسط وادي السرحَان. أحاط المطاردون بالدَّغْل وأشعلوا العديد من النيران، وظلوا يرقبون الرجال طوال الليل. في صباح اليوم التالي تَوسل الحويطات طالبين الرحمة، لكن الفرسان قاموا بشد وثاقهم، وأخذوهم إلى الموضع الذي لطخه دم سعود ونحروهم الواحد تلو الآخر مع وضع رؤوسهم إلى القبلة، وهي الطريقة التي يُذبح بها الضأن. إنهم يستحقون ذلك جزاءً على خيانتهم».

لم يختلج صوت الأمير على الإطلاق في أثناء وصفه لمقتل صديقه عذوب، ونسيبه ممدوح، وابنه وفلذة كبده سعود، وقال: «ماذا يُمكنك أخي أن تفعل مع إرادة الله؟ إن ثلثينا نحن الرجال يفارق هذه الحياة غصب. ولا أحد من الثلث المتبقي من لا يحمل جراحه وأحزانه. هكذا كان يا موسى الأمر من

= هو الشيخ عبطان بن عرار بن جازي.

(١) الشيخ عودة بن حرب أبو تايه (١٨٥٨-١٩٢٤)، تولى مشيخة فرع التوايهة من قبيلة الحويطات سنة ١٩٠٧ خلفًا لأخيه، وتبعه الكثيرون من قبيلته حتى أصبح شيخها الرئيس. أدّى أدوارًا قبلية وسياسية مهمة في تاريخ شمال الجزيرة العربية خلال الربع الأول من القرن العشرين. شارك بفاعلية في أحداث الثورة العربية سنة ١٩١٦- ١٩١٩. وطالت شهرته الآفاق إذ نسجت حوله الكثير من الأساطير.

قبلنا، وهكذا سيكون من بعدنا. يا الله! يا رحيم!» قُرب المساء ذهبت إلى خيمتي، حيث أرسل إليّ الأمير طعام العشاء المكون من البُرغُل مع قطع من لحم الضأن.

الأحد ٢٧ ديسمبر ١٩١٤:

كنا ننوي الرحيل، لكن البدو كانوا غير راغبين مغادرة خيامهم. غطى السماء ضباب كثيف متخللًا الخيام، وأسهم في خفض درجة الحرارة. داخل الخيام كانت النيران مشتعلة وكان البدو يربضونَ حولها. كان الصقيع يخترق عِظامَنا حتى النخاع. يقال إنه لا يوجد جزء في أي مكان داخل الجزيرة العربية بهذه البرودة مثلما، هو عليه في هضبة الحماد بين جبل عنازة وجبل اللاهة.بعد الساعة العاشرة جاء الأمير وطلب مني أن أمتطي ذلولي، حيث إن موعد الرحيل قد أزف. سرت بجانبه، ولحق بنا فورًا ابنه نواف والعديد من حراسه، والشيوخ الآخرين، والعبيد. ابتعدنا بسرعة خارج الحَشْد المتحرك من الناس، حتى أصبحنا نسير في مقدمتهم. كان البدو يجلسون على رواحلهم ورؤوسهم مغطاة بالكامل بحيث لا تظهر إلا عيونهم فقط. كانت أجسامهم مكسوة بنقيض من الثياب – أكبر قدر منها مما يمكن أن يرتدونه تحت فرائهم الصوفية القصيرة الواسعة، ذات الأكمام التي تطول بنصف المتر عن أذرعهم. فوق هذه الفراء الصوفية وأغطية الرأس كانت تلفهم عباءات. وكانوا ينتعلون صنادل، أو أحذية بدائية منخفضة، لكن البعض منهم كانوا ينتعلون أحذية الركوب الحمراء (جَزمة). كانت سيقانهم وركبهم عارية كلية، إذ كانت الرياح ترفع ثيابهم ومعاطفهم سامحةً للبرد ليتغلغل إلى خصورهم. كان أكثرهم ينظر إليّ في شفقةٍ لأنني لا ألبس معطفًا صوفيًّا (فروة)، وكان طراد بن سطام يهم بتجريد نفسه من فروته ليعطيني إياها خشية أن أتجمَّدَ. عندها قهقه الأمير قائلًا: «أيا طراد، ليس موسى بل أنت الذي تعاني من البرد. ألا ترى ما يلبسه في أقدامه؟ إن ساقيك عاريتان؛ أما ساقيه فمغطّتان بأحذية جلدية. ومن المرجح أن صَدْرَه مَحْمي ومغطى بالمثل. ولماذا يشتري موسى معطفًا صوفيًّا في حين أنه سوف يصل قريبًا إلى بلاد سوف يتصبب فيها عرقًا نهارًا وليلًا؟»

لقد أعطاني نواف جوارب رفيعة نصف حريرية، وحذاءً منخفضًا من الجلد الأصلي بنعل مطاطي. كانت نصف يديه داخل قفازات بيضاء شفافة، وعرضها عليّ في الحال عندما لاحظ يداي العاريتين. كانت هذه الجوارب الرفيعة من الهدايا التي يقدمها له مختلف التجار الذين يجوبون مستوطنات واحة الجوف. لقد حكم هناك لمدة خمس سنوات فقط إلا أنه تَشَرّبَ بأخلاق الحضر وطباعهم. كان يتدلى من سرجه سيف ذو مقبض رائع ويزيِّن حَدَّهُ نقوش هولندية ترجع إلى العام ١٦٧٢. كان خادمه الشاب قد قام بزخرفة المقبض بالأحجار الكريمة والذهب والفضة.

لقد كانت مدة شباب نواف، على الرغم من تأرجحها. وقد صقلته تجربته خلال سنتي ١٩٠٨ و١٩٠٩ ليصبح رجلًا صلبًا حازمًا. كان وجهة يعكس آثار المصَاعِب التي عَرَكَها، وكانت قسماته تحمل سماتَ عزيمة لا تُقهر ولا تحجمْ أو تجفل حتى من القسوة ذاتها. كانت في عينيه المرحتين ابتسامة جذلة، لكنها بالنسبة لي كانت أشبه بابتسامة رِضا لحيوان مفترس. كان اثنان من الفرسان يشكلان حرسه الشخصي يركبان بشكل دائم على بعد عشر خطواتٍ خلفه. لقد جاء لزيارة والده، يصحبه عدة مئات من المحاربين الهجانة، وهم يحملون في مقدمة صفوفهم علمًا غريبًا مميزًا (بَيْرَق). إلى حربةٍ طويلة مزينةٍ بريش النعام كانت قطعة من قماش أسود مخاط عليها شكل سيف من قماش أبيض ومُوشًّى في شكل متقاطع بالكلمات: «لا إله إلا الله محمد رسول الله». كان محاربو نواف يخيّمون دائمًا مع بعضهم في خيام بيضاء كبيرة مُجمّعة حول واحدة تحجز له. لقد كانوا «مرتزقة» يخدمون من أجل رواتبهم وإعاشتهم، وحتى أسلحتهم كانت ملكًا لنواف. كان أقل عصيان يعاقب عليه الجاني بشدة، ويتم ربطه إلى عمود خيمة ثقيل، يجره طوال المسير. الأخطاء الجسيمة كان يعاقب عليها بالإعدام.

المال والطعام الذي كان يحتاجه نواف لجنوده كان ينجح في توفيره من بيع الغنائم التي يستولي عليها من القبائل المعادية.

لقد أتى إلى والده النوريّ بغرض التنسيق مع البدو التابعين له والقيام

بغارات مشتركة ضد قبائل شمّر، وقبيلة الفدعان والدروز. كان الشيوخ الشبان والعبيد مسرورين لهذه الغارات المتوقعة، وكانوا يبدون متحمسين للمعارك بالقدر نفسه للغنائم المنظورة. إن البدوي يتوق ليلًا ونهارًا للغنائم؛ ليس لكي يُغْني نفسه بها، أكثر مما يجلبه الاستيلاء عليها من إثارة؛ وكلما كان الخطر كبيرًا كانت المغامرة مُغرِية. وحالما تكون الغنيمةُ بين يديه، فإنها تفقدُ متعتها بالنسبة له: إنه يَهبُ ما استولى عليه، ويخطط حينئذٍ لنهبٍ جديد. لقد كان يبدو لي دائمًا بأن البدو يعدّون القتال نوعًا من الرياضة.

• رأي قبيلة الرولة عن الحرب العالمية الأولى[1]

عند الساعة العاشرة وأربعين دقيقة صباحًا أدفأنا أنفسنا عند نار كبيرة أوقدها العبيد بناء على أمر من الأمير لمدة أربعين دقيقة. سألني مَرْفُود وهو شيخ كهل عما إذا كنت أرغب في المشاركة في غارة ضد الفِدعَان. ورغبة مني في معرفة رأي ابن الصحراء البسيط هذا في فكرة الجهاد التي كثر الحديث عَنها في أوروبا، سألت: «ألا تدري يامرفود بأن الخليفة قد أعلن الجهاد ضد الكفار؛ ومنع المؤمنين من الاقتتال فيما بينهم؟» فأجاب: «ماذا يعرف الخليفة؟ وماذا يهمنا من أمر الخليفة؟ إن الفدعان غير مؤمنين بالنسبة لنا، ولذلك نحاربهم».

«لماذا، إن الفدعان ينتمون إلى عَنَزَة مثل الرولة تمامًا، وبذلك فإنهم من قبيلتكم نفسها، وهم على عقيدتكم».

«أعرف أنهم ينتمون إلينا عن طريق الدم، لكنهم خَدعُونا. لذلك فإنهم أسوأ من جميع الأغراب والمسيحيين، وإننا في جهاد ضدهم. وإن شمّر بن رشيد ودروز الحكومة التركية لفي السوء نفسه. ماذا يهمنا من أمر جهاد الخليفة؟» كان الأمير النوري ونواف قد أعلنا ولاءهما للخليفة في إستانبول ومع ذلك صرح «مرفود» قائلا: «لك أن تطيع من شئت. إننا نَهْتَدى بقانون

---

(١) هنا سيتضح الهدف الرئيس من رحلة موسيل هذه.

الصحراء، أليس الأمر كذلك يا أخوان؟» جاء الصدى مسموعًا من كل جانب في شكل كورال جَهِير: «قُلتَ الحق. نعم قُلتَ الحق».

كان مرفود يُترجم الرأي العام، بينما الأمير ونواف يشتركون في رأي سياسي، لا يَرُوقُ لقلوبهم. الدينُ والوطنية والوحدة، هذه مفاهيم مُبهمة بالنسبة للبدوي العادي، فدِينَهُ مُعارضٌ تمامًا وبكل ما في الكلمة من معنى لكل جيرانه، حتى ولو كانوا يتكلمون العربيةَ مِثلَه تمامًا، والوحدة عِندَه تنتهي عند أقاربه. وحتى ولو شَكلت القبائل تحالفًا فيما بينها من أجل دفاع أكثر فعالية، فإنه لا يحدث مطلقًا أن يربط البدوي نفسه في تحالف مع مُستوطن [حضري]. لا توجد أيُّ وحدة بين القبائل المستقلة في داخل الصحراء والمستوطنين في الأقاليم الزراعية؛ لذلك فإنه من غير الملائم أن تعدّ أواسط الجزيرة العربية كالبلدان الأخرى مثل مصر وسورية أو العراق. إن أواسط الجزيرة العربية عالمٌ غريبٌ وفريدٌ في نوعه، عالمٌ خاص، يَصْعُب فَهمه.

لقد دهشتُ عندما اكتشفت أن الكثيرين من قبيلة الرولة قد أصبحوا ملتزمين بالدين منذ سنة ١٩٠٩. في عام ١٩٠٨ و١٩٠٩ لم أشاهد أحدًا منهم يُصلي على الإطلاق، لكن هذه السنة ١٩١٤ كان الأمر مُختلفًا. أعتقد أن الأمر كان نتيجة لنشاطات نواف، إذ باستيلائه على الجوف ومستوطنات أخرى كان مُضطرًّا لأداء الصلوات مع السكان.

إن جُنوده الذين يأتون من قرى جوار وأواسط الفرات ومن القصيم كانوا ملتزمين بالصلوات ومعتادين على أدائها، وكان يُمكن للكثير منهم أن يتلو جزءًا كاملًا من القرآن، كانوا يُعَلمِون الآخرين ويحُضونَهم على مُراعاة المبادئ والقواعد الدينية. إن الجنود من القصيم، مثل سكان الجوف كانوا مُشبعين بأفكار الدعوة الوَهابية؛ لذلك لم يكن لدى نواف خيار سوى الانضمام إليهم والتمسُّك ظاهريًّا على الأقل بالتّعاليم الوَهابية. إذًا فالخطيب يأمر جنوده بصوت عالٍ لأداء الصلاة المفروضة ويُصلي مَعهم. كانت الصلاة تقام قُرب خيمة النوري في المساء. لا أحد كان يصلي صباحًا صلاة الصبح إذ إن البدو ينامون

إلى ما بعد طلوع الشمس بوقتٍ طويل، ولكنهم يصلون بين الفينة والأخرى عند الظهر. كان العديد من البدو يَحذون حَذْو الشيوخ ويصلون أيضًا. كان البدوي يُقلد جميع حركاتهم ولكنه لا يقرأ، لأنه لا يعرف ذلك. لقد عَلِمتُ بهذا عندما طلبت من العديد من الرجال أن يرددوا الصلوات.

كان أكثر ما أثار دهشتي لدى الرولة هو بغْضُهُم المتزايد للمسيحيين عمومًا، والإنجليز على وجه الخصوص، بسبب حروب الحكومة التركية مع إيطاليا ودول البلقان. وهذا ليس لأن البدو يهتمون لفقدان الحكومة لأقاليم كبيرة في البلقان وفي طرابلس [الغرب] بل على العكس فإنهم كانوا يتمَنون أن يروا الدولة تُهْزَم وتَضعُف. لقد كانوا مُستائين كثيرًا من تصرفات الحكومة في طلب الجمال التي اشتراها العقيلات من البدو، وذلك للأغراض العسكرية. فالعقيلات بالطبع كانوا نافرين من شراء الجمال الآن، إذ إنهم لن يأملوا في الحصول على قيمة لها من الحكومة قدر ما كانوا سيحصلون عليه لو باعوها في مِصْرَ؛ لذلك فإن البدو، وهم غير قادرين على بيع جمالهم أصبحوا يعانون العِوَزُ. إضافة إلى ذلك فإنهم عندما دخلوا المنطقة التي تسيطر عليها الحكومة في شهر يونيو تمت مصادرة خَيلهم وجِمالهم بالقوة وسِيقَتْ إلى السُّلطان في إستانبول. منذ سنة ١٩١٠ كانت الأمور سيئة للبدو. ومن الغريب على أية حال القول بأنهم لم يلوموا الحكومة بقدر ما لاموا المسيحيين والإنجليز. إذ يقولون أن المسيحيين هم الذين قاموا باستفزاز الحكومة ولولا ذلك لكانت الحكومة قد تركت البدو وشأنهم؛ وعندما هاجم المسيحيون الحكومة بالفعل كان ينبغي على الإنجليز صَدّهم. وقالوا إن الإنجليز قد وعدوا بحماية السلطان في إستانبول من المسكوف (الروس)، وعليه فإنهم كانوا ملزمين بحمايته من المسيحيين الآخرين. وبما أنهم نَكصوا بعهدهم، فإنهم كانوا يعدّون الإنجليز خائنين، وفي الوقت ذاته هم السبب في مأساتهم. لأن البدو كانوا يعرفون بأنه كلما قلت المراعي في مناطق السلطان ازدادوا إصرارًا على تلك المراعي التي تخصهم؛ وبأنه، إذا ما هُزِمَ السلطان في الحرب العظمى ١٩١٤ فإنه سوف يَضْطهِدَهم ويَظْلِمهم بصورةٍ أكبر. إضافة إلى ذلك، فإن المراعي الخاصة بالإنجليز ليست حتى كافية لهم، لذلك كان يشاع بأنهم يميلون إلى الاستيلاء

على الأقاليم الخاصة بالمنتفق[1] وعرب ابن صَباح[2]؛ وأن هذا كان دافعهم وراء إرسال الجنود إلى الكويت والبصْرَة. لهذه الأسباب كان البدو في خطر منهم أيضًا. بهذه الطريقة كان الرولة يعبرون عن مواقفهم؛ لكن الأمير ونوافًا لاذا بالصمت المُطْبَق.

● سياسة شمال الجزيرة العربية

الاثنين ٢٨ ديسمبر ١٩١٤:

سجل مقياس درجة الحرارة درجة مئوية واحدة عند السابعة صباحًا. بقينا في المخيم، حيث انهمكت في إعادة كتابة مذكراتي. قُبيل الظهيرة حضر النّوري ونواف إليّ لمناقشة الأوضاع السياسية وآراء البدو. لقد نصحني النورّي بأن لا أصدِّقَ، لا دعاياته ولا ما كتبه إلى الحكومة. «إنك تعرف دَخيلتي، أخي، وتعرف أنني لا أثقُ في الحكومة، وهي لا تثقُ بي، ولولاكَ أنت، لكنت ما أزال جالسًا في الغوطة كسجين محترم للحكومة[3]. كانت عشيرتي بعيدة في الصحراء، ولم أكن لأحصل على الإفراج عني لا من المشير ولا من الحاكم. لقد تظاهروا بأنهم يحتاجونني لحربهم ضد الإنجليز.

---

(١) جنوب العراق.

(٢) الكويت.

(٣) كانت السلطات التركية في دمشق قد قبضت على الأمير النوري في أخر شهر أغسطس ١٩١١ بتهمة اعتداءاته على الآمنين في حوران، وبتهمة ارتكابه فظائع في منطقة الجوف بناءً على شكاوى المهجرين من أهلها في حوران واتهامهم له بقتل عدد من قيادات المنطقة ومنهم صفوق بن حسن الدرع وأخيه وفوق، وعساف السهيان وأخيه قشاع، وقمعان ابن جوهر وابن دربي وغيرهم، واتهامه بقتل أخيه شيخ القبيلة السابق فهد بن هزاع الشعلان بناءً على شكوى ابنه فارس بن فهد الشعلان. وفي هذه الظروف أعلن عزله من مشيخة القبيلة وتعيين فارس بن فهد شيخًا لها. قدم للمحاكمة فحكم عليه بالسجن بعد أن كان القائد العام في سورية سامي الفاروقي باشا يريد إعدامه، وقد توفي قبل تحقيق هذا الهدف. حصل على عفوٍ بعد قضائه ما يقارب سنتين في السجن. وقد قام ألويس موسيل بدور مهم في تخفيف الحكم ضده والعفو عنه. وقد تضمنت عدد من الوثائق العثمانية إجراءات التحقيق معه ومع شهود لصالح هذه الاتهامات. الأرشيف العثماني بإستانبول، نظارة الداخلية: DH.SYSA وثيقة رقم ٦٠٣، تاريخ ٣ شعبان ١٣٢٥هـ/ ٣٠ يوليو ١٩١١م.

قلت لهم: «كيف أكون ذا نفع لكم وحدي؟ أرسلوني إلى الصحراء وسوف آتيكم بآلاف المحاربين وسوف نذبح الإنجليز؛ إلا أنهم ظلوا يؤجلون رحيلي يومًا بعد الآخر. كنت أخشى أن يحبسوني مرة أخرى. أخيرًا أرسلك الله لي. لقد كفلتني وضمنتني بأنني سوف لن أهاجم الحكومة، فقامت الحكومة بالإفراج عني. لقد صدقتك الحكومة، لكنها لم تكن تصدقني. كانوا يخشون أن أحاربهم. والحقيقة هي إني في غاية اللهفة لذلك، لكنني لا أستطيع. لقد حرّضوا ضدي الشيوخ حاكم بن مهيّد[1] وابن رشيد. حاكم يهاجم من الشمال، وابن رشيد من الجنوب. ساعِدْني لعقد سلام معهما. لماذا يجب علينا نحن العرب أن نقتلَ ونذبح بعضنا بعضًا، لصالح حكومة أجنبية؟ إنهم يحرضوننا ضد بعضنا، ونستجيب نحن لذلك، إن العقل ينقصنا. إذا ما عشنا في تحالف سلمي، فإن الحكومة سوف ترتعد فرائصها. إنهم الآن يهزؤون ويسخرون منا. يريدون مني أن أساعدهم، أنا، النوري الذي كانت الحكومة الملعونة نفسها تسعى لشنقه قبل أربع سنوات مضت! أنا النوري الذي أُهنت لمدة عامين في قبضتهم! أنا النوريّ الذي أنقذته أنت من المقصَلة، وأنت لوحدك يا موسى الذي خلصته من السجن! والآن عليّ أن أساعد الحكومة وأتحرك ضد الإنجليز! في ذلك القفص تعلمت كيف أُخفي حتى الأمور التي تأكل من قلبي. إن الحكومة تستطيع أن تُلحِق الضرَرَ بي وبمن معي. إننا في حاجة إلى الملبس، والمأكل لأنفسنا ولخيلنا، وللسلاح والذخيرة. إن السلاح والذخيرة تُجلبُ إلينا بواسطة العقيلات من الكويت والعقير؛ لكنهم لا يستطيعون إمدادنا بالملابس والحبوب من هناك. إنها بعيدة للغاية. إننا نعتمدُ على الحضر في سورية والعراق، وهم لا يزالون تحت سيطرة الحكومة. إنهم لا يبيعوننا أي شيء دون إذن الحكومة، ونحن لا نستطيع أخذ أي شيء منهم بالقوة. إن محاربينا لعاجزون في البساتين ووسط المنازل الحجرية، وهم هدفٌ سهلٌ لبنادق جنود الحكومة. إن السكان الحضر يبغضون الحكومة بالقدر نفسه، ولكنهم مُتحِدون معها ضدنا. ماذا ينبغي علينا أن نفعل سوى أن

---

(١) شيخ قبيلة الفدعان.

ننتظر في صبر ونُعِدَّ العُدة للقتال؟ لقد وعدت الحكومة بكل الذي طلبتهُ مني، وسوف أستمر أعدهم شفاهة وكتابة. سوف أدفع الضرائب حينما يحلُّ وقت دفعها، وأُسْهِمُ في نفقات الحربِ، وأقدم للحكومة الجمال وكذلك الخيول، وأدعمها بالذهب وألعنها. اللعنة على أولئك الذين يلتهمون ذهبي! إن سامي باشا[1] قد التهم عدة أرطال من الذهب، وعندما أنّبتُه ولمْتُه أمر بأن يُحكم عليّ بالإعدام. منذ ذلك الحين لم أعارض، لم يطلب الحاكم ذهبًا مني. إنه يطلب أن أظل مخلصًا وواليًا في أثناء الحرب؛ ويَعدُ بمساعدتي بعد الحرب ضد ابن رشيد. إذا ما كان يتكلم الصدق أم لا لا علمَ لي بذلك». «إنه يكذبُ يا أبتي» قاطعه نواف، «كيف يمكن أن يكون صادقًا في حين أنه يعلم بأن أنور باشا[2] يعدّ ابن رشيد أكثر حليف مخلص له، ويرسل له السلاح والذخيرة والمال؟ في بداية هذه السنة أرسل له عن طريق السكة الحديد إلى الحجر (مدائن صالح) خمسة عشر ألف بندقية ماركة «مَاوزَر» وأربع مئة ألف طلقة، ومدافع ميدان، وكثيرًا من الذهب حتى إن عشرة من الجمال استطاعت بالكاد أن تحمله. قام زامِل بن سبهان بنقل السلاح إلى حائل ووزعه على شمّر وحتى على الصلب. قبل ذلك كان لدى شمّر بالكاد خمس مئة من البنادق الجيدة؛ والآن لديهم الكثير للدرجة التي تباع فيها بنادق «الماوزَر» في حائل بجنيهين تركيين (٩ دولارات) للقطعة. ولأي غرض أرسل أنور باشا هذه البنادق لابن رشيد؟ لكي يهزم ابن سعود، الذي كان قد طرد الجنود الأتراك خارج منطقة الأحساء قبل ثمانية عشر شهرًا. أنور باشا نفسه هو الذي عيّن ابن سعود واليًا

---

(١) سامي الفاروقي باشا (١٨٦٢-١٩١١) قائد عسكري عثماني بارز من مواليد بغداد، تخرج من المدرسة الحربية في إستانبول سنة ١٨٨٤ برتبة يوزباشي، وخدم في دائرة الأركان العامة، ثم مدرسًا في المدرسة الحربية. ثم رقي إلى رتبة بكباشي وعين ملحقًا عسكريًّا في برلين، وتدرج في مناصب عدة منها متصرف وقائد عسكري لمنطقة القصيم، وكلف كثيرًا إخماد الثورات التي تقوم ضد الدولة في مناطق مختلفة. شغل قبل وفاته منصب القيادة العامة في سورية لإخماد ثورة الدروز في جبل حوران سنتي١٩١٠ و١٩١١.

(٢) أنور باشا (١٨٨١ – ١٩٢٢) قائد عسكري عثماني بارز، أحد قادة حركة تركيا الفتاة، كان وزيرًا للحربية في حينه.

على كل نجد، وأكد له بأنه يلقى الحظوة عند السلطان والتأييد منه شخصيًّا؛ وبعد كل هذا أعطى ابن رشيد السلاح الذي يشنُّ به الحربَ ضده. من ذا الذي سوف يثق في أنور باشا إذًا؟ ألا يعلم حاكم دمشق بهذا؟ لقد نقض ابن رشيد، بأمر من الحكومة، السَّلام الذي عَقده مع ابن سعود قبل أربع سنوات مضت؛ وأيضًا الهدنة بينه وبين أبي وبينه وبيني، التي كان قد تم الاتفاق عليها منذ سنة مضت، وكان من المفترض أن تدوم لمدة عامين، اليوم تقصِفُ المدافع التي أرسلت إليه بواسطة أنور بلدان ابن سعود في القصيم، وقواته المسلحة ببنادق أنور تبيد جماعات والدي وجماعاتي. إن والدي يدفع للحكومة أكثر من أربعة آلاف جنيه تركي (١٨٠٠٠ دولار أمريكي) سنويًّا كضرائب، ويشتري من موارده الخاصة السلاح والذخيرة الضرورية لحماية الأرواح والممتلكات الخاصة بقومه، ويُفترض بعد ذلك أن يحمي أيضًا مصالح الحضر والحكومة؛ بينما ابن رشيد تَدْفعُ له الحكومة مئتين وثلاثين جنيهًا تركيًّا شهريًّا (١٠٣٥دولارًا أمريكيًّا) وتزوِّده بالسلاح والذخيرة، وتحرضه على سرقة قطعاننا وقتل رجالنا. أخبرني، أخي مُوسى، هل تفهم حكومتنا هذه؟ وهذه الحكومة تريد منا أن نُساعِدها ضد الإنجليز! لقد أمروا والدي بذلك وكتبوا إليّ في المعنى نفسه. لماذا لا يكتبون بمثل هذا الأمر إلى صديقهم ابن رشيد؟ ووكيله، ذلك الخائن رشيد باشا[1]، الذي يقيم الولائم في دِمشق وإستانبول. إنه يُحدث السلطان عن قوة ابن رشيد، وإن كل ما يقوله لكذِبٌ. أين هو ابن رشيد؟ لقد كانت قوته عظيمة أيام محمد بن رشيد وعبد العزيز بن متعب بن رشيد! واليوم لا يوجد شيء من تلك السطوة إلا الاسم فقط، وإن ذلك لهو مجرد ظلٍّ دون شمس. زامل بن سبهان، وزير الأمير سعود بن عبد العزيز بن متعب الضعيف الواهن، اغتيل هذا الربيع على يد قريبه سعود بن صالح بن

---

(١) رشيد ابن ليلى وكيل ابن رشيد في دمشق ومندوبه إلى إستانبول، التحق بالملك عبدالعزيز بعد سقوط حائل بعدة سنوات فعينه عضوًا في مجلس الشورى السعودي، ثم قنصلًا للملكة في العراق ثم في دمشق حيث توفي عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م. حوله انظر: محمد عبدالرزاق القشعمي، «معتمدو الملك عبدالعزيز ووكلاؤه في الخارج»، **الدارة**، السنة الخامسة والثلاثون، العدد الأول، محرم ١٤٣٠هـ، ص. ٩٣- ١٠٥.

سبهان[1]، الذي كان قد أعدم تسعة عشر ممن بقوا على قياد الحياة من أبناء العائلة الحاكمة. لجأ من بقي من أفراد هذه العائلة إلى ابن سعود، وتحت قيادة فيصل بن رشيد جَهّزوا لمعركة ضد الوزير سعود. في حائل، وفي وسط شمّر يوجد العديد من الرجال المُكْرَهين على طاعة أفراد عائلة ابن سبهان. . . . لقد ناشدوني لأساعدهم؛ ولولا السلاح والذهب الذي يموّله به أنور باشا لكان لا وجود اليوم لأي أثر من اسم ابن رشيد. هل أنور أعمى بحيث لا يَرى خِداع سعود بن سبهان وزير ابن رشيد، وخداع ممثله في إستانبول رشيد؟ لقد تفاوض الأخير مع قنصل «الإفرنج - فرنسا» في دمشق، ووعد بمساعدته، وبالمثل مساعدة سفير «الإفرنج» في إستانبول، شريطة أن ينقلوا جنودهم إلى سورية بالبواخر. لقد اقتسم الذهب مع الوزير سعود. لقد قبض رجالي على رسول يحمل رسائل السفير رشيد إلى حائل؛ وهكذا حصلت على المعلومات. منذ زمن قريب كان في حائل أحد رجال الإنجليز من الكويت[2]، وسيدةٌ إنجليزية أخرى[3]. لماذا كانا هناك؟ لقد جاء هذا الإنجليزي إلى الجوف من حائل. لم

---

(١) سعود بن صالح بن سبهان وقد تولى إدارة شؤون الإمارة حتى نهاية سنة ١٩١٦ إذ هرب إلى العراق بعد فشل محاولته أخذ الإمارة لنفسه، اغتيل سنة ١٩١٩. حول ظروف فترة إدارته، انظر:

Alois Musil, **The Northern Negd: A topographical Itinerary** (.New York: American Geographical Society, 1928), pp. 248-250.

(٢) المقصود هو الضابط الإنجليزي النقيب وليم هنري شكسبير [W. H. I Shakespear](1878- 1915) وقد كان منذ سنة ١٩٠٩ وكيلًا سياسيًّا للحكومة البريطانية في الكويت، وقد قام وهو في طريق عودته إلى بلاده بعد انتهاء مهمته في الكويت سنة ١٩١٤ برحلة قادته من الرياض إلى حائل وإلى الجوف ومنها إلى السويس. عاد بعد بدء الحرب العالمية الأولى؛ طلبت منه حكومته العودة إلى الكويت ليقوم بمهمة خاصة إلى الأمير عبد العزيز آل سعود والحصول على دعمه للجهود الحربية البريطانية في البصرة، قتل في معركة جراب سنة ١٩١٥ بين قوات الأمير عبد العزيز آل سعود وقوات ابن رشيد. حول رحلته، انظر:

Douglas Carruthers, "Captain Shakespeare's Last Journey", **The Geographical Journal**, Vol. 59, No. 5 (Jun., 1922): 321-34.

(٣) المقصودة هي السيدة غيرترود بل [Gertrude Bell](1868-1927) باحثة ورحالة بريطانية شهيرة جالت في بلاد فارس وبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية، بعد بدء الحرب العالمية الأولى رشحت للعمل في «المكتب العربي» بالقاهرة، وهو مكتب استخباري تابع للحكومة البريطانية، وقد قامت بمهمات خاصة قادتها للالتحاق بالإدارة البريطانية في العراق بعد احتلاله. عملت في العراق =

أكن موجودًا بالبلد في ذلك الوقت. كان يرمي إلى كَسْب نائبي المملوك عامر إلى جانب الإنجليز، ومن ثم ركب من الجوف إلى مصر. ما من شك أنه عقد معاهدة ضد الحكومة مع سعود بن سبهان، والحكومة وأنور ليس لديهم مَحسُوب سوى ابن رشيد. ياللعار على مثل تلك الحكومة! إن من يُصدق أنهم سوف يدعموننا بعد الحرب لهو جاهل».قلت للنوري: «وماذا يقترح ابنك نواف أن يعمل؟ هل أنتم اليوم أقوياء بما يكفي للقضاء على ابن رشيد؟» قال نواف: «إنني لكذلك يا أبتي؛ إذا ما تحالفت مع مُقاتليكَ، سوف يكون لدينا خمسة آلاف بندقية على الأقل». فقال النوري: «ماذا يساوي ذلك ضد خمسة عشر ألف أو قل ضد عشرة آلاف أو خمسة آلاف بندقية لابن رشيد، الذي يمتلك كمية من الذخيرة الجيدة، بينما لابد لنا نحن أن نستبقي على ذخيرة رديئة؟ ربما يمكنك التغلب على سعود بن سبهان، ربما تتمكن من الاستيلاء على غنيمة كبيرة منه، لكنك لن تستطيع أبدًا أن تطرده من المستوطنات كلا يابنيّ، يجب علينا أن لا نهاجم ابن رشيد. يجب علينا أن نطيع الحكومة، وأن ننتظر».

«إلى متى؟» سأل نواف.

«إلى أن تنتهي الحرب العظمى بين الحكومة والإنجليز. هذه المرة ترغب الحكومة أن يعُمَّ السلام بيننا. نحن الرولة، نحتاج إلى السلام أيضًا. طوال عامين كنت في السجن؛ وطوال عامين كان الرولة يقتتلون ضد بَعضهم بعْضًا، وضِد الحكومة. إنه فقط منذ خمس سنوات تمكنت أنت من انتزاع الجوف من ابن رشيد، والتي كان آباؤنا الأولون قد فقدوها. يثير ضدي المشاكل قريبي فارس بن فهد الشعلان، وضدك ابن درع، الذي كنت قد نَفيتَه من الجوف[١]. إذا لم تقمْ الحكومة بمساندة ودعم خُصُومنا هؤلاء،

= مستشارة للمندوب السامي البريطاني بيرسي كوكس في العشرينيات وأدّتْ دورًا مهمًّا في ترتيب أوضاعه بعد الحرب العالمية الأولى. قامت برحلتها إلى حائل في أواخر سنة ١٩١٣. حول رحلتها إلى حائل، انظر:

D. G. Hogarth, "Gertrude Bell's Journey to Hayil", **The Geographical Journal**, Vol. 70, No. 1 (Jul., 1927), pp. 1-17.

(١) ابن درع شيخ حي مارد في الجوف. ذكر ألويس موسيل في وصفه لرحلته سنة ١٩١٠ إلى شمال =

فإننا سوف نتمكن من تخليص أنفسنا منهم بسهولة. وإذا ما تمكنا من تقوية أنفسنا في الداخل، فإننا سوف نكون أكثر قوة في الخارج. لماذا نعصي ونرفضُ السلام؟ إن هدف الحكومة مختلفٌ، ولكن كلانا يمكن أن يستخدم الوسائل نفسها. دَعْنا نَشْكو في دمشق وإستانبول بأن الفَدعان وابن رشيد لا يرغبون في السلام. إنك تعلمُ جيدًا بأن أنور قد أرسل مُسبقًا ثلاثة رسائل إلى سعود بن سبهان يطلبُ منه أن يعقد صُلحًا معنا. لقد كتبوا وأبرقوا إلى حاكم [ابن مهيد] من كل من دمشق وحلب طالبين منه أن يضمن صيانة السلام. لم يُطع كل من ابن سبهان وحاكم بن مهيّد الأمر. ألا ترى أن الحكومة سوف تستاء من ذلك؟ إن عصيانهم هذا قد يكون مفيدًا لي ولك». فقال نواف: «أيُّ نفع لنا يكون من حكومة ذات موقفٍ يتغيرُ على الدوام؟ إننا لم نتلق أي شيء منها وسوف لن نتلقى أي شيء. هل سيدافعون عنا ضدّ الفدعان وابن رشيد؟ هل سيرسلون جيشًا ضدهم؟»

المؤلف يقترح وساطته مع ابن رشيد:

«أعتقد أن أباك على حق يا نواف» وأوضحت قائلًا «إنك لا تدري ما ينتظرك، ومن ثم يجب عليك أن لا تضعف نفسك. حاولوا أن تقوّوا من أنفسكم في الداخل، وسوف يخشاكم ابن رشيد وبالمثل الحكومة، حسب علمي فإن قبائل الفدعان والعَبدة سوف يوافقون على عقد السلم معكم إذا ما طلبتم منهم ذلك».

«ماذا! أتقصد بأننا يجب أن نطلب من ابن هديب وابن مهيد السلم؟» صاح كلٌّ من النوري ونواف في آن واحد. «إن من رأيي أن يَطلب كل منكما السلمَ من ابن رشيد». «أيا موسى، أتعتقد أن ابن شعلان سيكتب أبدًا إلى ابن

= الحجاز أن مرافقه مطلق وهو من تيماء ويعيش في تبوك قد قال له: «إنه ذهب في الربيع إلى معان ليتكسب بعض المال وعند عودته قابل الشيخين حامد وأحمد الدرع، اللذين أجبرا على مغادرة واحتهم الجوف، وكانا يتنقلان على أقدامهم من مخيم إلى آخر حتى وصلا مخيم لبني عطية بالقرب من محطة سكة الحديد في المدورة جنوب معان». انظر:

Alois Musil, **The Northern Hegaz: A Topographical Itinerary,** p. 174-175.

. . . [سبهان]؟ «يا أخي النوري، إنك سوف لن تكتب إلى ابن سبهان، ولكن إلى سعود ابن رشيد».

فقال نواف: «لكن الفدعان، ومثلهم ابن رشيد سوف يتبَجَّحُون بأننا نخشاهم، وكما ترى فنحن نستعدُّ لشن غارة».

«أيا نواف، مَنْ الذي نَصَحَك بالاستيلاءِ على الجوف؟ مَنْ الذي حَثَّ والدك لإعطاء مُوافَقته على ذلك؟ مَنْ الذي ساعَدَك بالقول والعمل؟ إنك تعلم مَنْ يكون[1]. وبما أنني الآن أنصحك بمبادرة سلام مع ابن رشيد، وأحُث والدك على المبادرة بذلك أيضًا، وأنا مُستعدٌّ أيضًا للمساعدة بالأفعال لا بالأقوال. لقد خُضتَ حربًا لمدة خمس سنين. لقد عانى سكان إمارتك وبدوك كل هذه السنين، إنني أعْرفهُم جيدًا ومتأكدٌ أنهم سوف يسرّون بالسلام الذي يتوقون إليه كثيرًا بغض النظر عن السُّخرية المزرية. أنت تعلم قوتك على أفضل وجه؛ والآخرون لا يمكنهم أن يزيدوا أو يُنْقصُوا منها. إنك بهذا سوف تُبرهن لأهالي الجوف عن نواياك، وسوف يَتمسكون بكَ». وأنت يا أخي النوري قَدّم السلام، ليس لابن رشيد فحسب، بل لرؤوس شيوخ قبائل الفدعان وعَبَدة السبعة. إن الشيخ الأكبر للأخيرة برجس بن هَديّب[2] صديقٌ لي وأعرفُ أنه يُقدّرُك حق قَدْرِك، وسوف يُحثُّ حاكم بن مهيد الشيخ الأكبر للفدعان ليُسهم في السلام. بَرْهن لقبيلتك وللفدعان أنك أكثرَ حكمةً وحِلمًا وبعد نظر، وأنك صاحب رؤى واضحة للمستقبل أكثر من غيرك. إنهم سوف يقدرونك بذلك أكثر، لماذا تَتردد؟ أنت وحدك في المعركة تدافع عن جماعتك المُنهكين المثخنين بالجراح؛ احْمِهِم الآن أيضًا. تغَلبْ على كبريائك لمدة وسوف تنتصرُ على كل من حاكم بن مهيد وابن رشيد. لماذا لا يكون النورى المُنْتَصِر في السياسة أيضًا؟»

«والله إنك على حق يا موسى، سوف أكتبُ لكل من حاكم بن مهيد وابن رشيد، وسوف تحملُ الرسائل أنت». «سوف تكتب الرَسَائِل بنفسك، وسوفَ ترسلها بِنفسْك، سيذهب أحد عبيدك إلى حاكم بن مهيد، وآخر إلى ابن رشيد».

---

(١) يشير موسيل إلى نفسه.

(٢) الشيخ برجس بن فرحان بن هديب شيخ مشايخ قبيلة السبعة من عنزة.

«لكن بهذه الطريقة سيعلم الجميع أنني أسَاوم للسلام؟».

«لماذا تخفي ذلك؟ إن رسالتك قد تضيع وتُفقَد، أو قد ينْكِرُها حاكم وبالمثل ابن رشيد»؛ لكنَ عَبْدَكَ لن يَضِيعَ أو يُفْقَدَ».

«وماذا لو رفض حاكم أو ابن رشيد عَرْضي؟ إنها سوف تكون إهانة لي».

«حاكم سوف لن يرفض» أجبته، وواصلت قائلًا: «صديقي برجس بن هديب سوف يتولى هذا الأمر؛ أنا شخصيًّا سوف أعمل على ألا يرفض ابن رشيد عرضك. إن عَبْدكَ سوف يذهب معي. وسوف يُسلم رسالتك ورسالة نواف في حُضوري، وسوف أتَصَرّف، ولن يعود حتى يُوضع السلام مَوْضِع التنفيذ، وسوف يُؤكد لك ذلك برسالة خاصة من ابن رشيد مُوقعةٌ مني أيضًا، أكتب الرسالة وأبعث بها».

سوف أفعل ذلك».

«وأنت يا نواف؟».

«سوف أفَعْلُ ما يفعله أبي».

«أتعدُ بذلك؟».

«أعدُ بذلك، إلا أن قَلبي يُدْمي. أيُّ غنيمةٍ كنا سنغنم! من سيُعوضَنا عن ذلك؟».

«الله، سوف يكون قريبًا».

بعد ذلك استفسرت عن فارس ابن الأمير القتيل فهد الشعلان، والذي كان يعسكر مع بشير، شقيق غثوان بن مِرشَد. ومعهم يخيّم أيضًا ابن جندل مع عشيرته السوالمة. بعد القبض على النوري في خريف سنة ١٩١٠ أعلنت الحكومة التركية فارسًا أميرًا على جميع الرولة، لكن لم يتبعه أحدٌ سِوى ابن جندل. وقد حَثَثْتُ كلًا من النوري ونوافًا ليَبْذُلا كل ما في وُسْعِهما لمصالحة فارس؛ ابن عم نواف، وابن شقيق النوريّ، وبذلك يمكن كسب ابن جندل أيضًا إلى جانبه. لقد كان من رأيهما أنهما قد يكسبا الأخير بسهولة قبل مصالحة الآخر إذ إن فارسًا كان نزويًّا وموهومًا.

الثلاثاء ٢٩ ديسمبر ١٩١٤:

بقينا في المعسكر نفسه، ودَوّنْتُ مذكراتٍ بمحادثتي مع النوري ونوّاف. في نحو الظهيرة زارني عودة أبو تايه الشيخ الأكبر لقبيلة الحويطات، التي تعسكر مع الرولة. كان شيوخ الحويطات، الذين يسيطرون على المنطقة المحيطة ببلدة معان على خط سكة حديد الحجاز، يُدافعون عن حُريَّتهم ضد الحكومة، التي كانت تكسبُ بانتظام موقعًا في معان منذ بداية القَرْن. ففي سنة ١٩٠٠، بعد وفاة الشيخ الأكبر للحويطات عرار بن جازي أعلنت الحكومة التركية المصممة على إضعاف الحويطات أنها سوف تعترفُ بحرب أبي تايه فقط أو بالأحرى ابنه عودة أبو تايه شيخًا للحويطات، وسوف تتعامل معه فقط. كان عودة الأكثر جرأة، لكنه أيضًا أكثر الرجال قسوة في الجزيرة العربية ممن عرفتهم، فقد كسب في وقت قصير جميع الحويطات تقريبًا إلى جانبه. واستمر في القيام بغَزَواتٍ للأقاليم المجاورة والبعيدة، وكان يعود دائمًا بالغنائم، الشيء الذي جعله يكسب قلوب الحويطات. لجأ عبطان بن جازي بن عرار مع جماعته إلى مصر، ولاحقًا التحقوا بأبي شامة شيخ عشيرة المواهيب (من قبيلة بلي) التي تخيّم في حرة العويرض شمال غربي الحجر (مدائن صالح). كان عودة يجمع الضرائب ويحولها في الحال للحكومة؛ وكان يتعقب المخرّبين الذين يتلفُون السكة الحديد، ويعمل على حماية المستوطنين من عصابات النهب، وهكذا اكتسب شهرة كأفضل زعيم على طول خط سكة حديد الحجاز. في صيف عام ١٩٠٨، على أية حال، بدأت الحكومة تخشى شعبيته فعقدت صلحًا مع عبطان بن جازي وأفسدت الزعماء الآخرين بالرشاوى واتهمت عودة بمختلف الجرائم، وأصدرت أمرًا بالقبض عليه.

تقهقر عودة وعشيرته إلى داخل الصحراء، وانهمك في حملات انتقام لا هوادة فيها، لا تلينُ ولا تَضْعُف ضد الحكومة والمنضَوين تحت لوائها. في البداية كان عبطان يجدُ الدعم من الجنود الذين يَحْرُسُون خط سكة حديد الحجاز، ولكن في عام ١٩١٢ بناءً على أمر من أنور باشا تحالف مع ابن

رشيد وقام بغارات ضد عشائر الرولة وحويطات أبو تايه التي تخيّم معهم. في يونيو سنة ١٩١٤ قام بمهاجمة سكان الجوف، الذين كانوا يجمعون السمح في منطقة بسيطة ونهب منهم أكثر من ستين جملًا وقتل أحد رجالهم. بعد اندلاع الحرب العالمية وَجهَت الحكومة عبطان ليُبْرِمَ صُلحًا مع كل من نواف وعودة. وتلقى عودة أيضًا تعليمات بمصالحة عَبطان وأن يأتي إلى منطقة سكة حديد الحجاز، حيث إن كل أعماله العدائية قد تم العفو عنها؛ لكنه سَخِرَ من هذه الكياسة والسماحة قائلًا: «هل تظن الحكومة أني غبي؟ إنها تَحُضّنا جميعًا على السلام، وتظن أننا سوف نجلب لها آلاف المحاربين لمساعدتها. إنها لا تثقُ في المسيحيين في سورية، ولا تثقُ في الدروز في حوران، وتحتاج إلى الجمال من أجل الزحف على مصر. إنها تعلم أنه مادام لا يوجد سَلامٌ بيننا فسوف نتهرّب بالاعتذار والإشارة إلى أعدائنا - أنا أعتذر بمشكلتي مع عبطان، والنوري إلى قضيته مع الفدعان، ونواف إلى عدائه مع ابن رشيد، وهم يعتذرون بمشاكلهم معنا، وهكذا سوف نظل جميعًا في منازلنا، لذلك لا تدخر حكومتنا وسعًا لمساعدتنا جميعًا على تحقيق السلام فيما بيننا. إننا نُريدُ السلام ونحتاجه، لكن من أجل أنْفسنا، وليس من أجل الحكومة. هذا ما يمكنك عمله يا موسى: اكتب إلى الحكومة بأنك وجدت بيننا جميعًا الرغبة لمساعدة حكومتنا العادلة، لكن فقط بعد أن تَقومَ هي بمُساعدتنا، وإجْبَار جميع خُصومنا الذين كانت تحُرضهم علينا لسنين عدَّة، ليتصالحوا معنا. إنك تعرفنا، وتعرف الحكومة. وسوف نظل دائمًا كما نحن، لكن كم حكومة، وكم من المسؤولين قد تغيروا منذ سنة ١٩٠٩ عندما التقيت بك لأول مرة!»

«حسنًا، يا عودة هل حقًّا سوف تتحرك لمساعدة الحكومة ضد الإنجليز في مصر؟»

«مادام لا يوجد سلام، لن أتحرك من الصحراء. إذا ما تصالحتُ مع عَبطان وابن رشيد، واستغاث بي جماعتي من الحويطات الموجودين في مصر، عندها سوف أتحرك إلى هناك. إن الحكومة تَعِدُني بالسلاح وبالذهب عند إحدى محطات سكة حديد الحجاز، إنني أحتاج لكليهما. وسوف آخذ

السلاح والذهب لكنني لن أقاتل إلا من يُقاتل جماعتي من الحويطات. إذا ما ثاروا ضد الإنجليز، سوف أحارب الإنجليز، وإذا ما ثاروا ضد الحكومة فسوف أذبح قوات الحكومة. لا يمكنني أن أعزل نفسي عن أفراد قبيلتي».

سألني نواف عما إذا كان صحيحًا أن الإنجليز يحاربون فقط في وسط البحر، حيث لا يمكن لراكب جمل أو حصان أن يتغلب عليهم. إن كل من النوري ونواف يعتقدان أن الإنجليز احتلوا مصر مؤخرًا في أغسطس أو سبتمبر ١٩١٤. حتى ذلك الوقت، كانا يعتقدان بأنها كانت خاضعة للحكومة التركية وللسلطان. عندما أخبرتهما بأن الإنجليز قد حكموا مصر منذ سنة ١٨٨٢، صدقاني، ولكنهما هزَّا رأسيهما بجدّية مستغربان الأمر؛ إذ إنه بما أن الإنجليز كانوا سادة مصر لذلك الأمد الطويل، فلماذا فقط قبل ثلاثة أشهر قاموا بمنع العقيلات من ترحيل الجمال إلى مصر من إقليم يتبع للسلطان وللحكومة؟ سألني الرولة مرارًا عما إذا كان صحيحًا أن الإنجليز قد قاموا بنفي جميع العرب والمسلمين من مصر، ووَطّنُوا البلاد بأجانب ومسيحيين.

لقد استغربت في أمر من ذا الذي استَخْدَمَ هذا الأسلوب في تحريض العرب ضد الأجانب والمسيحيين. أعلن النوري ونواف بأنهما لن يتحركا لمهاجمة مصر لأي سبب أو قضية مهما كانت. إنها بعيدةٌ جدًّا، وإن على المرء أن يقطع بحارًا بها أسماك تلتهم البدو وإبلهم. إنهما لم يكونا ليصدقا أن من الممكن الوصول إلى مصر من وادي السرحان بعشر ليال، وأنه ليس من الضروري أن تخوض بحرًا، وأن البحر (قناة السويس) يُمكن عبورها بواسطة جسر مثلما يتم عبور نهر الفُرات عند الفلوجة أو المسيب. إن عودة الذي زار أقرباءه في مصر عدة مرات قد عَلّمَ بعصاته على الرمال المسار من منهل مياه ميقوع إلى القنطرة مُحددًا الآبار، ومُسمّيًا القبائل التي يتحتم قطع مناطقها؛ لكن النوري تضرع لله بمنع أي طلب يُحتم المسير إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية.

قال النوري: «دَع الحكومة تعدني بما تشاء، لن أتحرك إلى ما وراء البحر الميت، فالموت يَتَهدّدُ كل من يُغامر بالذهاب إلى هناك، وكل شيء هُناك ميت.

لماذا أذهب؟ ليس لديّ جماعة هناك. مواطن عنزة بين حلب وعُمان، هذه هي مواطني. في هذا الإقليم يمكنني أن أسير حتى لمدة مئة يوم من الشمال إلى الجنوب، لكني على مسيرة أيام غرب منهل ميقوع حيث لا قريب لي، لن أذهب. لماذا يتحتم عليّ أن أذهب لأجلب الموتَ لنفسي؟»

ضحك عودة من النوري، ولكن نوافًا اتفق مع رأيه.

قال النوري: أنت يا عودة في ديارك في السهول عند البحر الميت والبحر الأحمر. وأقاربك يقيمون هناك. إنهم سوف يساعدونك، ولكن مَن سوف يساعدنا؟».

«الله» رد عودة.

فقال النوري: «الله؟ إن الله لا يريدنا أن نقوم بغارات في الغرب، ولو كان قد أراد ذلك، لكان قد هيأ لنا أقارب يقيمون هناك، لكنه ترك جميع عنزة في الجزيرة العربية».

«ضد من ترغب أكثر في المسير لِقتالِه؟» سألت النوري مستفسرًا.

«ضد الدُّروز يا موسى»

«لماذا؟ لأنهم أصدقاء الإنجليز، وسوف يساعدونهم إذا ما غزوا سورية أو فلسطين؟»

«ماذا يهمنا إن كان الدروز أصدقاء للإنجليز؟ إن الإنجليز هم غرباء مثل الحكومة. إن الحكومة تحمي الدروز وهم ينهبوننا. إنهم ألدّ أعدائنا. إنني قد أتصالح مع كل البدو، كلا، حتى مع الحضر والمسيحيين، ولكن ليس مع الدروز على الإطلاق، أو مع سكان الإقليم البركاني لحوران من أهالي الجَبل. وإنهم مثل الضباع الماكرة يزحفون من جحورهم، ويتلصصون ليلًا نحو مخيمنا ليسرقوا خيلنا وجمالنا ويطردوا قطعان الأغنام والضأن التي تحت حمايتنا، ويأخذونها إلى مغاور الحِمَم الخاصة بهم، حيث لا يمكننا مطاردتهم سوى على الخيل أو على الجمال. كل ما يسرقونه يقومون ببيعه بثمن بخْس للدروز في سلسلة جبال الشيخ (الحرمون) وإلى الشراكسة والموظفين الأتراك.

عندما نخيّم في يوليو أو أغسطس غرب حوران نُقابل مرارًا خيلنا وجمالنا التي سرقها مِنا جماعات الصقور سكان حوران. نُبرهن بواسطة الثقاة من الشهود بأن الحيوانات ملكٌ لنا، ولكن الحكومة لا تعترف إطلاقًا بحقنا فيها، مُصِرّةٌ بأن علينا أن نقبض على من نهبوها ونحضرهم أمامها. اذهب وابحث عنه في الوهاد البركانية حيث لا يجرؤ حتى المشاة على المغامرة بدخولها! إننا نتميّزُ غيظًا، ويسخرُ الشراكسة والدروز والأتراك منا. فإذا ما تخلت عنا الحكمة وقمنا بمعاقبة الدروز أو الشراكسة بقوة السلاح فإن جيشًا من الحكومة سَيُدفع به ليحيط بمخيّمنا ويُهَدد بفتح النار من مدافع الميدان على نسائنا وأطفالنا ما لم نقوم بتعويض الدروز والشراكسة عن كل خسائرهم. إنك تعرف ذلك يا موسى لأنك تفاوضت مع الحكومة منذ أربع سنوات مضت في قضية مماثلة. إن تلك الحكومة تسمح بأن نقف مكتوفي الأيدى نراقبُ الشراكسة والدروز! سوف نرد عليهم وسوف نستردُّ كل ما تكبدناه من خسائر الأعوام السالفة. لن أكون أنا النوري فقط الذي سيهاجمهم بل كل القبائل من حلب إلى تيماء أيضًا. ألم أقل الحق ياعودة؟ نعم يا النوري لقد قلته. إننا جميعًا سوف نشنُّ الهجوم ضد الدروز وأهالي الجبل، وحتى قبائل الفدعان والعبدة والفواغرة وبني صخر». الويل لهم، الويل للمسيحيين، وللموظفين الرسميين الأتراك الذين قاموا بحمايتهم حتى الآن! إننا سوف نستقر هناك مع قطعاننا، وسوف ندمر ونرعى ونقْضِي على حقولهم وبساتينهم، وسوف نحاصرهم ونغلِقهم في مستوطناتهم حتى يهلكوا جوعًا. إذا لم يجد النَهّابون من الإقليم البركاني أحدًا ليبيعوا الخيول والجمال له فإنهم سوف يَكفُّون عن النهب، يا الله نسألك أن تهيئ لنا هذه المسرة والبهجة! لنكتب إلى الحكومة بأننا نريدُ مراقبة الدروز عن كثب حتى لا يتحالفوا مع أجانب». «لنكتُب» أجاب النوري ونواف بسخرية. أقر عودة بالمثل أهمية السلام وسط القبائل، ووعَدَ بِعرض السِلم على عبطان وبأن يعترف به كشيخ أكبر بشرط موافقة أغلبية الحويطات. أعلن نواف بأنه شخصيًا لا يمكنه أن يكتب لمثل ذلك الراعي للأغنام والضأن، ولكنه طلب من عودة أن يضيف بأن كلًّا من النوري ونواف سوف يقرون السَّلام الذي يُعقد بواسطته، وأنهما لن يقوما بأي عمل

لمُعارَضَته وتقويضه. استدعينا خادمي منصور الذي قام بكتابة الرسائل الخطيّة إلى الشيوخ برجس بن هديب وحاكم بن مهيد، وسعود بن رشيد وعَبطان بن جَازي وفارس بن شعلان، وإلى الحكومة في إستانبول ودمشق. قام النوري ونواف وعودة، الذين لا يستطيعون الكتابة بوضع أختامهم على الرسائل. كانت الرسائل إلى الحكومة ستُسلم بواسطة زيدان بن ظامد إلى حديثة الذي كان عليه أن يُقدمها إلى حبيب الحسيناوي في كاف. ومن ثم تؤخذ بواسطة أحد تجار الملح إلى بصرى، حيث يُسلمها إلى مسئول تركي. لا أدري عما إذا كانت الرسائل قد وصلت إلى مقاصدها؛ ولكن لا يهم كثيرًا إن لم تصل بالفعل، إذ إنها كانت تحوي كلمات تحجبُ مِصداقية كاتبيها. لقد كانت سياسة كما قال النوري.

الأربعاء ٣٠ ديسمبر ١٩١٤:

سجل مقياس الحرارة ٩ درجات مئوية عند السابعه صباحًا. كانت الرياح الشمالية الغربية تهبُّ وقد أمطرت طوال اليوم تقريبًا. قمت بكتابة محادثاتي لليوم السابق. بعد العاشرة بقليل خرج الأمير، وبواسطة العصا، قام برسم خريطة للإقليم البركاني (الحرة) جنوب بركان «الهبر»، ولإحدى مستوطنات إثرة وقرقر المجاورة له، حيث سقط ابنه سعود قتيلًا.

آراء الرولة حول السياسة الدولية:

ذهبت بعد الظهيرة إلى خيمة النوري لأحيي شيوخ العَمّارات الثلاثة الذين حلوا ضيوفًا على الأمير، والذين كانوا قد حضروا لتسوية بعض النزاعات المختلفة. كان أفراد قبيلة العمارات قد خيموا في أغسطس وسبتمبر ما بين الفلوجة وبغداد، وفيما بعد عند كربلاء، وقد علموا مسبقًا باحتلال الإنجليز للبصرة. لقد كانوا أكثر اهتمامًا بالحرب العالمية من الرولة، وكانوا متحمسينَ لمعرفةِ تحالفات الحكومات المختلفة. لقد كان لديهم صعوبة نوعًا ما بالتعابير «فرانسا» و«الفرنج». كل من الرولة والعَمّارات كانوا يعتقدون أن كل أوروبا هي فرنسا وأن جميع سكان القارة كان يطلق عليهم «الفِرنج»؛ والآن بدأوا يعرفون

أن فرنسا هي مجردُ جزء من أوروبا. لماذا إذن كان يُطلق على جميع الأوروبيين اسم «الفرنج» حتى ولو لم يكونوا مُنتَمين جميعًا لقبيلة «الفرنج»؟ هذا ما شرحه الأمير بما يأتي: «إن الفرنجة هي عائلةٌ تحكم وتسيطر على كل أوروبا. مثلما يحكم ابن سعود إقليمًا كبيرًا وقبائل مُختلفة، فالفرنجة يُسيطرُونَ على العديد من القبائل تحت نفوذهم مثل الألمان والنمساويين والطليان والإنجليز، والروس والموسكوب والصرب والروم وآخرين. منذ سنين عديدة خلت تخلصَ الروم (الإغريق) من عبوديتهم، ولهذا السبب كان يُطلق عليهم الروم وليس «الفرنجة». لقد كسب الإنجليز أيضًا قدرًا كبيرًا من الاستقلال، وهم يَسترشدون ويتوَجهون حسب رأيهم وإرادتهم الخاصة، ولكن رغم ذلك يَعدُّهم البَعض من بين الفرنجة، بينما يتمسكُ البَعض بأنهم بلادٌ حرة. الآن ثارت قبائل الألمان والنمسا ضد «الفرنجة» على الرغم من أن «الصِّرْب» «والروس» و«الموسكوب» «والإنجليز» لا يزالون يُؤيدُونَهم. إن العداوة مُضطَرِمةٌ على أشدهَا بين «الإنجليز» «والألمان»، وتُماثِل في ذلك العداوة بين «الدروز» «والرولة» أو بين «الأكراد» «والعمّارات» أو «الفِدعان». إن للإنجليز جُزرًا عديدة في البحر، يَقْطنُها أُناسٌ كثيرون، ويسلونهم ضد الألمان. إن الأخيرين (الألمان) بارعون في صناعة الأسلحة، أجود البنادق، والمسدسات تأتي منهم أو من النمسا. لكن بِماذا تُجدي الأسلحة عندما يكون هناك افتقار في عدد الرجال الذين يستخدِمُونَها؟ إن الألمان والنمساويين أذكياء للغاية، ولكن لديهم جيشًا صغيرًا. لذلك قررت الحكومة والسلطان في إستانبول إرسال الجنود ضد «الفرنجة» وعلى وجه خاص ضد الإنجليز، هذه الحكومات الثلاث - حكومات الألمان والنمسا والأتراك - قاموا بتشكيل حلفٍ ليس ضد «الفرنجة» بقدر ما هو ضد الإنجليز (تحالفوا على الإنجليز)، لأن «الفرنجة» لم يستولوا على أي شيء من ممتلكات السُّلطان، ولكن منذ شهور خلت جَرّدَهُ الإنجليز من مِصرَ، وفي نيَّتِهِم الاستيلاء على البصرة وكل العراق منه أيضًا».

أحد المرافقين علق بأن «الموسكوب» ذوو عدد كبير أيضًا، وهم يرغبون في طرد السلطان من القسطنطينية. فقال النوري: ـ «إن الموسقوب» عديدون جدًّا

ولكن قبيلة «روسيا» تفوقهم عددًا بكثير. العديد من الممالك تتبع لروسيا، وحتى الفرس يخشونهم، ومع ذلك لم يحرروا أقرباءهم في الدم بعد. حتى قبيلة أخي موسى[1] تشكل جزءًا من روسيا مثلما نحن بالنسبة لعَنَزَة، ومع ذلك فإن قَبيلته خاضعة وتَطِيعَ النمسا. إن «الروس» كثيرون للغاية إلا أنهم ليسوا شجعانًا. لقد سمعتُ أنهم كانوا قد دُحِروا في إقليمهم الخاص بواسطة قبيلة صغيرة من اليَابَان (اليابانيون). إن أكثر القبائل سوءًا وقوة شكيمة هم الإنجليز. وهم أغنياء، ومع ذلك فهم يَشتَهُون تَمَلُّك بلدانٍ جديدةً. وسوف ترى أنهم سيخرجون مُنتَصِرين حتى عند البصرة ليس عن طريق السلاح، ولكن عن طريق السياسة. عَقيل الذي جاء من الهند قد ذكر لي بأن لا أحد يُحافظ على الأمن والاستقرار مثل الإنجليز. لكن أيُّ مزيةٍ تِلك لهم عندما يسلبُون الحُرية؟ مَن منكم يرغب في أن يُصْبحَ مَملُوكًا؟ إننا نستطيع مقاومة الحكومة، ولكن هل نستطيع مقاومة الإنجليز، وقد جاءوا يَعْرِضُون الذَّهَبَ مُقابل حُريَتَنا؟»

قال الشيخ العجوز راضي:

«لا تخشَ شيئًا يا النوري، كان أجدَادُنا أحرارًا، والإنجليز سوف لن يخطفُوا مِنّا حُريتَنا الموروُثَة، سواءً بالسلاح أو الذهب!» ووافقه كل الحضور على ذلك.

سألت شيوخ العَمّارات عما إذا كانوا سيَدخُلون في الجهاد ضد الإنجليز.

«إن جهادنا هو لحماية خيامنا وقُطعَاننا. فإذا تجرأ الإنجليز بمحاولة المسَاس بها، فالويل لهم! ومادامُوا يحاربون الحكومة في المدن والقرى، فلترسل الحكومة جنودها وسكانها ضدهم. إن الإنجليز حتى الآن ليسوا أصدقاء لنا وليسوا بأعدائنا. ماذا سيصبحون بالنسبة لنا، الله وحده يعلم».

«لقد قلت الحق أخي» قال النوري «ولكن يجب علينا أن نطيع الحكومة، نسأل الله أن ينعم عليها بالنصر!»

عندما رافقني في العودة إلى خَيمتي قال لي: «أيا موسى، ألا ترى كيف

---

(١) ينتمي موسيل إلى القومية السلافية.

يجبُ عليّ أن أكون متفهمًا للسياسة حتى لا يُشوّه أحدٌ علاقتي مع الحكومة! إن الحكومة تأمُرنا بالتَعْبئة للجهاد ضد الكفار، ضد الإنجليز. أي شيء نهبه منا الكفار أو الإنجليز؟ لكن الحكومة، من أي شيء حرمتنا حتى الآن! إنهم أرادوا شَنْقي. هل تَدري مَنْ أرغبُ كثيرًا في محاربته؟ هل تدري ضد من أحملُ ضغينة وكراهية أكبرُ مما أحمله ضد الإنجليز والكفار مجتمعين؟»(١)

الخميس ٣١ ديسمبر ١٩١٤:

انخفضت درجة الحرارة عند الساعة السابعة صباحًا إلى ٣ درجات مئوية، وغَطت المنطقة بأكملها طبقةٌ من الصَقيع القاسي المُتجمد. أكملتُ كتابة مذكراتي.

الأمير النوري، الذي كنت قد أحضرتُ له وبالمثل لنواف بندقية حربية رائعة (مُجهزةٌ بمنظار «تلسكوب» ومئة طلقة)، كان يَرغبُ كثيرًا في رؤية أنواع الأسلحة الأخرى التي معي، وذهب غير راضٍ نوعًا ما عندما أخبرته أنني لن أخرجها بعد حَزْم متاعي.

عند الظهيرة حضر عودة أبو تايه برفقة النوري ونواف بغرض وَدَاعي. قمنا بمناقشة نتائج اجتماعاتنا المُتبادلة. وعدوا جميعًا بأنهم لن يقوموا بتنفيذ أية غارة كبرى ضد البدو أو ضد الحضر دون عِلمي؛ وتَعهدوا بتقديم الحماية في الصحراء لكل اللاجئين من الأقاليم الخاضعة لسيطرة الحكومة. مادام قد أصبح من المستحيل عليهم شراء الحبوب والملابس التي لا غنى عنها في الحفاظِ على حياتهم، من أي مكان سوى سورية والعراق، فإنهم أصبحوا مُضطَرين للالتِزام بالسلام مع الحكومة، حيث إنهم لن يتمكنوا من البقاء على قيد الحياة دون الحبوب والملابس. إنهم ربما تمكنوا من إمداد أنفسهم بالضروريات لعدة أشهر عن طريق القوة، لكن في النهاية لا مَفَر لهم من الخضوع للحكومة. إذا ما هاجموا الإقليم المزروع؛ فإن المستوطنين سوف يزدادون قُربًا من جنود الأتراك. النوري ونواف لن يَسْمعوا عن غزوة فرعية

(١) يقصد الشيخ النوري هنا الدولة العثمانية التركية.

إلى مِصر، حتى عودة أبو تايه كان موافقًا بشنِّ هجومٍ على مصر فقط بناءً على طلب أقربائه من الحويطات المصريين، وكان مستعدًّا للقتال ضد الحكومة أو الإنجليز بناءً على قرار رجال عشيرته.

لقد كان الجيش الإنجليزي في البصرة بعيدًا عن الرولة التابعين للأمير النوري. سألني نواف عما إذا كان الإنجليز المعسكرين في الكويت والبصرة من عشيرةٍ تختلف عن أولئك الذين احتلوا مصر منذ زمن مضى.يا موسى أليس هناك الكثير من عشائر الإنجليز مثلما هناك من عشائر لقبيلة عنزة. مع بعض منهم نعيشُ في سلام، ومع بعض آخر في حالة حرب. أقاربي ابن صباح وابن سعود يَعيشون في سلام مع الإنجليز في الكويت، بينما أقاربي «آل أَشقر» في حالة حربٍ مَعَهم. إنك تعلم أن ابن صَبّاح سَيّد الكويت وابن سعود أمير الرياض ينتمون إلى عَنَزة مثلما ينتمي والدي وأنا. آل أشْقر «زعيم قبيلة المنتفق ينحدرُ أيضًا من عَنَزة، لكنه يُحاربني ويُحارب الإنجليز. إنني أنتمي بالقربى لابن صَبّاح وابن سعود ولن أعمل أي شيء ضد أصدقائهم الإنجليز، لكن إذا سَعى الإنجليز إلى حِرماني من الجوف أو حاول ذلك ابن سعود في الرياض، فإننا سوف نشنُّ الحرب ضدهما معًا. إذا كانوا يسيطرون الآن على أقاليم تابعة للحكومة التركية فلتدافع الحكومة عن نفسها. إنها لم تساعدني ضد أي من ابن رشيد أو الأشقر، بل على العكس لقد دَعَمتْ كليهما ضدي؛ ألا ترى أنني أتصرف بحكمة في اقتدائي بمثالها؟»

التخطيط لرحلة إلى ابن رشيد:

كان كل من النوري ونواف، وبالمثل عودة يَخْشونَ على حياتي في إقليم ابن رشيد؛ وتوسلوا إليّ بألا أغامر بالذهاب إلى هناك.

«اسمع يا موسى» قال نواف إن الوزير سعودًا خائن، والخائن لا يعرف الله ولا الشرف، إنه يعرف أنك صديقي، وإنك كنت قد ساعدتني في غزو الجوف. إنه سيكون المُحرض للأعمال العدوانية ضِدَّك وبواسطة الرجال أنفسهم الذين قمتُ أنا بطردهم من الجوف. مَنْ الذي سَيَحْميك؟ أسأل الله أن

يحميك، لكنني أخشى بألا أُشاهِدَك مرة أخرى. إنه لن يغتالك علانية»؛ ولكن عبيده سوف يُهاجمونك ليلًا، أو سوف يقومون بوضع السُم لك».

«لا تخش شيئًا يا أخي! إن الله سوف يُساعدني، وسوف أساعدُ نفسي. إن شمر ليسوا كلهم خَونة مثل سُعود. إنني لن أذهب له إلا بعد أن أجدَ بين شَمّر شخصًا قويًّا يكون حَاميًا لي. إنني أعرفُ العَديدَ من شيوخ قبائل سنجارة وعَبدة. إن سنجارة يمقتون سعودًا . . .، وهم أكثر قوة منه». قال عودة «إن شقيقي محمدًا وجد عند جبل العمود شَمّريًّا كاد يموت من الجوع. أخذه إلى خيمته وبدأ يُنقط الزبد في حلقه وأنعشه وأعاده للحياة. وبينما كنتُ أغادر سمعت أن اسمه نازِل، وأنه من جماعة ابن ثنيان. سوف أعود اليوم إلى هناك وأرسله لك. إنه مريضٌ، ولديك الأدوية يا موسى، وقد تستطيع معالجته». أكد كل من نوّاف والنوري أن عائلة ابن ثنيان هي من بين الصدارة في قبيلة شمر. وهكذا؛ فإنني سأحصل في شخص نازل على أفضل حماية، بالطبع شريطة أن يكون عودة قد صَدَقَ وعده. رَجَوتهُ أن يُرسل إليّ الشمّري في الحال فَوَعَدَ بذلك ثم غادر.

الجمعة ١ يناير ١٩١٥:

أحضر النوري إليّ رجلًا كهلًا يدعى يونس بن بنيّه، وكان لسنين عدة جارًا لابن رَمّال، وهو شيخ قوي من شيوخ شمر، وكان يونس يرغب في العودة إليه مع عدد من الجمال. وأراد أن ينضمَّ إلى رفقتي. حاول يونس – معتقدًا بأن ابن رمال يُخيّمُ في مكان ما بجوار جبة – أن يُقنعني بالذهاب إلى ابن رشيد عن طريق «الخل» المؤدي من الجوف إلى مورد الشقيق ثم جبة إلى مدينة حائل. لقد كان نوّاف يُحبذ بالمثل هذا المسار، لكنه لم يَرُقْ لي، حيث إنه كان طريقًا معروفًا. وكنت أفضل أن أذهب عبر الجزء الشرقي أو الغربي للنفُود. كنت قد نويت استفسار يونس عن المنطقة المجاورة لجبة لكنني اكتشفت أنه كان غير كفء كليةً لإعطاء وَصْفًا طبوغرافيًّا.

اشتكى نواف بأن رجاله كانوا غير راضين لأن الغارة لم تَتحققْ. عندما سأل النوري عبيدَة عن مَن منهم يرغب في الذهاب معي إلى ابن رشيد، تطوع

عبد الله، الذي كان قد رافقني في رحلتي من ضمِيّر إلى الرصافة في عام ١٩٠٨، وبما أنني كنت أعرف أنه رجلٌ يُعتمد عليه رغم افتقاره لبعد النَظر والشجاعة، فقد قَبِلْتُ به.

السبت ٢ يناير ١٩١٥:

ارتحلنا متحركين في تمام الساعة العاشرة وعشر دقائق صباحًا في اتجاه شرق - شمال شرق. لحق بي نواف بعد وقت وجيز محييًا من على بُعد بهذه العبارة: «القوة يا موسى».

ورددت عليه قائلًا: «القوة للذي يتمنى لي القوة!».

تحدثت معه حول الوساطة المقترحة لإصلاح ذات البين مع ابن رشيد اتفقنا بأن يتحرك نوّاف مع عشيرته إلى حدود صحراء النفود، حيث ينتظر الكلمة مني. فإذا ما رفض الوزير سعود السبهان المصالحة، فإن عليّ أن أعود إلى سنجارة وأحاول إقنْاعَهم للانضمام إلى نوّاف، حينئذٍ يأتي هو ومحاربوه ومحاربو النوري، لينضموا إلى سنجارة ويهجموا على سعود من الشمال، بينما يَضْغَطُ عليه ابن سعود من الجنوب. كنت على علم تام بما تنضوي عليه الخطة من مَخَاطِر. كُنتُ عالمًا بأن أنور باشا والحكومة التركية تثقُ في سعود وزير ابن رشيد كأكثر صديق لهم ولاءً وإخلاصًا، وأنهم سوف يتهمُونني بإثارة الاضطراب والقلاقل لصالح الإنجليز. كنت أيضًا على حُسنِ اطلاع بحقيقة أن سعودًا يمتلك سلاحًا أكثر كفاءة وفعالية من الذي نملكه، وأننا لن نقدر على طَرْده من حائل والتغلب عليه إذا ما قام بتَحْصينها. لقد ندمت على إسْهَامي نحو حربٍ أهلية وسط شمّر، الذين تفرقوا كثيرًا وانقسموا عن رابطة الدم خلال الأربع عشرة سنة الأخير، لكنني فكرتُ بأننا لو فشلنا في تقليص نفوذ سعود وجماعته، فإنهم سوف يُسببون ضررًا أكثر من الذي يمكن أن نتسبب فيه مطلقًا.

من الساعة العاشرة وخمس دقائق وحتى الساعة الحادية عشرة والثلث صباحًا قمنا بتدفئة أنفسنا أمام نارٍ متقدة. فيما بعد عاد نواف إلى مقاتليه، بينما ركبتُ مع النوري في مقدمة نحو مئتين من الهجانة. ناشدني النوري متوسلًا بأن

لا أذهب إلى ابن رشيد، قائلًا: «اذهب يا موسى إلى ابن سعود، إنه أخي وصديقي، رجلٌ شرف محترم ومُخلص، لكن ابن رشيد ضعيفٌ، ووزيرُه خائنٌ». فقلت له: «إنني سوف أذهب إلى ابن سعود لكن ذلك سوف يكون من إقليم ابن رشيد. أعرف أن سعود بن عبد العزيز ابن رشيد أمير شمّر رجلٌ ضعيف، وبالمثل أعرف أن وزيره سعودًا رجلٌ خائنٌ وسأكون حذرًا؛ سوف لن يأخذني على حين غِرّة. إن الله يريد لي أن أذهب، لذلك سوف أذهب. كم من مرةٍ قمتُ يا أخي بتحذيري بأن لا أذهب هنا وهناك حيث كان الله قد أراد لي الذهاب! لكنني ذهبتُ وعُدتُ سالمًا - وأنا متأكدٌ من أنني سوف أعُود من عند ابن رشيد أيضًا. فإذا ما حدث ولم أعُدْ، على أي حال. فِكر فقط في الأعداد الكثيرة من قبلي من الذين خيموا في هذا الأقليم وذهبوا ولم يعودوا».

عند الساعة الثانية عشرة أشار الأمير إلى الموضع الذي اختاره لخيمتي؛ ثم قفز مترجلًا من فوق ظهر راحلته، وبدأ أفراد القبيلة في إنشاء معسكر جديد. في المساء تأكدنا من الوقت وخط العرض.

الأحد ٣ يناير ١٩١٥:

عند الساعة الثامنة بينما كنت جالسًا أكتب على الأرض في خيمتي دخل عليّ نوّاف مُحضرًا معه رجلًا قصيرًا نحيفًا شاحبًا في نحو الثلاثين من العمر، يرتدي قميصًا باليًا وعباءة قديمة. خرّ على الأرض أمامي مرتعشًا من البرد وتوسل إليّ طالبًا الحماية. لقد كان هو الشمّري نازل بن دوخي بن ثنيان الذي حدثني عودة أبو تايه عنه. قال نوّاف وهو يقدمه: «انظر يا موسى، هذا هو نازل بن ثنيان أكثر فرسان شمّر شُهرة».

تبسمت، أيعقل أن يكون هذا الرجلُ الضَّئيل فارسًا مشهورًا؟ على أية حال، كان هناك بريق غريبٌ في عيني نازل الذي جعلني أغيرُ تقديري له في الحال. في هذا الجسد النحيل تبينتُ روحًا قوية. أضاف نواف قائلًا: «أي أخي، إنني أعرف نازلًا وأشهد له. تحدث معه وثق في كل ما قد يَعدُ به. يجب عليّ أن أودعك. إني أرحل الآن وسوف تُغادر أنت بعد أربعة أيام، عُدْ إليّ. أنت تعلم أن لك أخًا في الجوف».

تعانقنا، وارتحل نواف الذي كان بانتظاره ثلاثون من الفرسان أمام خيمتي لمرافقته في جولته لجمع الضرائب وسط كل القبائل والعشائر الخاضعين له ولوالده. كان يحتاج المال والمؤن من أجل جيشه الحالي، وعندما تكون الغارات نادرة يلجأ لمساعدة قبائله. كان ينوي أن يعود إلى الجوف بعد نحو عشرين يومًا وينتظر نصائحي. في هذه الأثناء أعطاني رسالة إلى نائبه في الجوف، المملوك عامر موجهًا له بأن يستقبلني في احتفال وأن يُطيعني كما يُطيع نواف نفسه. حقًا؛ لقد ذهب إلى أبعد من ذلك بإبلاغه بأنه في أثناء إقامتي في الجوف قد حوَّل كل السلطات منه (عامر) إليّ؛ وأن أعلن للسكان في الجوف بأنني ذاهب للتفاوض على سلام مع ابن رشيد.

بعد مغادرة نواف عملت على أن يستلقي نازل في الخيمة الكبيرة ليستدفئ، وأرسلت خادمي ناصرًا إلى البائع المتجوّل (الكُبيسي) لشراء كل شيء يحتاجه الرجُل.

في تلك الأثناء زارني محمد أبو تايه شقيق عودة الذي أخبرني عن معاناة نازل. يبدو بأن نازل بن ثنيان كان قد عُهد إليه بتسليم رسائل مهمة من عمه فَهَد وآخرين من شيوخ سنجارة، الذين رغبوا في التحالف مع نواف. رافقه رجُلان أحدهم فريجي والآخر شرَارِي من خيمته. ركب نازل والفريجي على الجمال بينما سار الشراري على قدميه. عند البطن الشمالي لوادي الطويل علموا من الرعاة بأن نوافًا قد ذهب إلى جبال المسمى عند منخفض وادي السرحان لذلك توجهوا إلى ذلك الاتجاه. في أثناء الليل اختفى رفيقا نازل مع جمله وبندقيته وكل المؤن؛ على الرغم من أن نازلًا قد ضمن حمايتهما في إقليم شمّر، وأنهما كانا قد وعداه بالحماية في إقليم الرولة الذي تنتمي إليهم عشيرة الفرجة، ويخيم معهم الشرارات. هكذا قد خاناه - أسأل الله أن يخذلهم بالمثل. لمدة ثلاثة أيام وليلتين هَامَ نازل، الذي خذل وهُجر، مُجهدًا نحو الشمال الشرقي. كان يشرب من برِكٍ صغيرة مختلفة، لكنه لم يجد أي شيء ليقتات به إذ إن الحشائش الطرية لم تكن قد نبتت بعد. أخيرًا؛ سقط منهارًا من الإعياء. وجده محمد الذي كان يصطاد بكلب صيد وصقر، فأخذه إلى خيمته وأسْعَفَه. لمدة

خمسة أيام لم يكن نازل يستطيع الوقوف. النوري والذي تحرى في الحادثة اعتقد بأن الفريجي في القضية قد يكون المدعو خليفة بن غطيان فقام بتوجيه أقرباء الرجل لتعويض نازل عن الضرر الذي أصابه، لكنهم اعترضوا بأنه لم يثبت بأن أحدًا ينتمي إليهم قد ارتكب مثل هذا الفعل المشين. لقد وافقوا، على أي حال، بأن يستجوبوا خليفة بأنفسهم، وأن يجبروه بإعادة الممتلكات إلى مالكها الشرعي إذا ما ثبتت إدانته. وعد نواف بالبحث عن الشراري، الذي حمله الفريجي المسؤولية، من بين زعماء العمّارات الثلاثة الذين يقيمون ضيوفًا في خيمة النوري تعرف اثنان منهما على نازل وتعاطفا معه. قدّم له النوري ذلولًا جيدًا وشدادًا.

نحو المساء حضر إليّ نازل وتوسل بأن أسمح له بالبقاء في خيمتي، حيث إنه يخشى انتقام عشيرة الدُّغْمَان، الذين كان قد قتل ستةً منهم في معركة على طريق الحج من الكوفة. أعلن النوري من خيمته بأن نازلًا هو ضيف عليّ، وأن أي يشخص يؤذيه سوف يلقى الويل والثبور. الدُّغمان الذين علموا بوجوده تلصصوا حول خيمتي كذئاب جائعة، لكن لا أحد منهم اعتدى على نازل بقول أو فعل.

الاثنين ٤ يناير ١٩١٥:

تحدثت مع نازل حول الطريق الذي قررنا أن نَسْلُكَه. العديد من الأشخاص الذين كانوا قد حضروا مع نواف أرادوا أن يرافقونا إلى الجوف، ونصح النوري بأن أسْلك طريق «الخل» من الجوف إلى حائل. أشار نازل بأننا على أي حال، لن نجد مَرعًى هناك. وأوضح أنه لم يهطل المطر في المنطقة الواقعة بين الشقيق وجبة لمدة ثلاث سنوات. لذا؛ فإن الإقليم أصبح جَدبًا (مَحَل)، أما جنوب جبة فقد استهلكت مراعيه بقطعان قبيلة عبدة الشمرية. علاوة على ذلك، فإنه لا الأمير ولا وزيره موجودان في حائل بل يُعسكر كلاهما إلى الجنوب من وادي الرُّمّة، في مكان ما قرب وادي ضبيب بينما كان ابن سعود يخيم في الأسياح[1]. وتبعًا لذلك؛ فإنني إذا أردتُ أن ألحق

(١) تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة بريدة وتبعد عنها ثلاثة وستين كيلًا.

بالأمير شخصيًّا، فإنه من المستحسن أن أسير على طول حافة النفود الشرقية إلى قلعة الحيانية، حيث من المحتمل أن نعلم عن مخيم ابن رشيد. اعترض النوري قائلًا بأننا من المؤكد سوف نواجه عصابات النهب على حدود النفود. عند هذا المقطع ابتسم نازل ابتسامة خفيفة وقال: «طال عمرك! إنه يُقال بأنني أفْضَلُ زُعماء العصابات المُغيرة، وبالتالي فإنني أعرف بالتأكيد كيف أحْمي نفسي منهم وأضللهم».

قررت في الحال أن أسافر على طول الحدود الشرقية للنفود، حيث كانت رغبتي العلمية تلح عليّ باكتشاف هذا الجزء من النفود. كان علينا أن نُلبي رغبة النوري بأن نتوقف في الجوف لنتأكد من عامر عما إذا كانت قد هطلت الأمطار في الجزء الشرقي للنفود، ومن بعدها نأخذُ الطريق الذي قدّرَه الله لنا.

رغبة مني في اختبار مدى مقدرة نازل في تحديد اتجاهات النواحي المختلفة، قمت بسؤاله عن أقاليم كنت أعرفها. سألته أن يُعيّن بواسطة حصاتين داخل خيمتي، موقع النجمة القطبية وموقع الجنوب، واختبرت شرحه مستخدمًا البوصلة. كان الأفق مُلبدًا بضبابٍ كثيف؛ وقد احتجبت الشمس كليةً. نظر نازل إلى الجزء الأعلى للخيمة، وأخذ الحصى في يده اليمنى ومَدّ يده أمامه، ورسم خطًّا مستقيمًا على الرمال. ثم وضع الحصاة الكبيرة عند أحد طرفي الخط، والحصاة الأصغر عند الطرف الآخر، وقال مشيرًا إلى الحصاة الأكبر حجمًا: «هذا، يا شيخ هو الجانب القطبي الشمالي (الجدي) وهذا هو الجنوب».

ألقيت بلمحة إلى النقطة التي تشير إليها إبرة البوصلة، ورأيت أنه قد انحرف بخمس درجات فقط. لقد سُرِرْت جدًّا لدِقته التي سوف تسهل من عملي.

ثم قام بأخذ حفنة من الحصى، ونشرها أمامه، ومن خلال استخدامه لها كوسائط، قام بتحديد مواقع أماكن المياه المختلفة، والنقاط الأساسية الأخرى في المنطقة التي أعرفها ومثّل للجبال من الرمال وقطع الأودية بينها. أصبحتُ مقتنعًا وأنا أرْقبه بأنه على دراية بالبلاد، وأنني سوف أنسجمُ معه بعد أن تعارفنا.

الثلاثاء ٥ يناير ١٩١٥:

أخطرني الراعي عواد بأن قدمه تؤلمه، وأنه أصبح غير قادر على العناية بجمالي. شَكَكْتُ على أية حال أن تلك كانت ذريعة حرّكها ارتعابه من الرحلة إلى ابن رشيد. ساقَ جمالنا إلى المرعى «شوردي بن فروان». قام النوري برحلة إلى معسكر قبيلة الكواكبة المجاور حيث نشب نزاع هناك.

عملت طوال اليوم مع نازل، الذي قام برسم طريق الحج من حائل إلى الكوفة موضحًا الآبار والوديان بين الكوفة وأبو غَار والبصرة والمنطقة المحيطة بوادي الخصيب. اجتهدت لأختبر إفادته بعدد من الأسئلة لأكشف عما إذا كانت متناقضة، لكنني كنت غير قادر على الإمساك بخطأ أو زلةٍ منه. أصبحت مقتنعًا، إذن، بأنه لم يكن قائدًا عسكريًّا فحسب، بل قائدًا مرعبًا لعصابات النهب أيضًا. إن شخصًا يكون على دراية كبيرة بالصحراء الشاسعة يمكنه بكل سهولة أن يستولي على الغنيمة ويحتفظ بها.

لكن محادثاتي المطولة مع نازل كانت مُغضبة لأصدقائي الشُّبان وسط الرولة أبناء نواف. تعلم أكبرهم سلطان - الذي كان في نحو الحادية عشرة من العمر، وهو ابن له من زوجته مشخص[١] - الكتابة، في الجوف، وافتخر بأنه أرسل أول رسالة له لوالدته، المتزوجة الآن من فندي بن مِلحم. سألني بشغفٍ عنها، راغبًا في معرفة كيف تبدو ومتى سوف تحضر له. الابن الثاني فواز، وهو من زوجته مشاعِل، لم يكن يعرف الكتابة لكنه ذكر أنه يمكنه البقاء على ظهر مُهرٍ، مُسرع غير مُسْرَج، بينما سيسقط سلطان منه. أصغرهم جميعًا نواش، وهو ابن له من زوجته شيلا، وكان يبلغ تسع سنوات من العمر ويلوذ بالصمت عادة، ولكنه كان يتفحص بتركيز كبير كل شيء يراه في خيمتي. كان العبيد قد أحضروا لي عدة مرات أيضًا أبناء نواف الصغار. فزوجته مشاعل كانت قد أنجبت له ولدين فايز وأنور، وزوجته فهدة أنجبت عافية. كانت مشاعل تعاني من رَمدٍ في عينيها في سنة ١٩٠٩ والآن قد فقدت قوة الإبصار كليةً. من بين الشيوخ الذين

(١) مشخص بنت فهد بن هزاع الشعلان.

زاروني كان كلٌّ من خالد وطراد أبناء المرحوم الأمير سطام الشعلان. كما زارني مساعدي السابق مزاحم ابن القتيل محمد شقيق النوري، وكذلك الخفاجي ابن النوري، كل هؤلاء قاموا بزيارتي عدة مرات. إلى جانب هؤلاء حضر «عوض الكويكبي» أحد معارفي القدامى من مخيم بعيد ليسلم عليّ. لم تكن أي من هذه الزيارات تدوم طويلًا إذ إنني كنت أكره ضياع وقتي.

الأربعاء ٦ يناير ١٩١٥:

دخل الأمير في الوقت ذاته الذي كنا نتناول فيه طعام الفطور. أظهر دهشته لكمية الحليب الكبيرة التي عندنا، مشيرًا إلى أنه لم يتناول أي حليب لأكثر من أسبوع، وإن من بين جميع نياقه كانت هناك اثنتان فقط اللتان تدران حليبًا، وإن هاتين الآن قد كفَّتا عن إعطاء أي حليب.

«كلا، يا أخي، إن نياقك لم تكف عن إدرار الحليب»

«كيف عرفت ذلك؟»

«هذا الحليب هو حليبها»

«الحليب من نياقي؟ ولكن عجبًا من الذي حلبه لك؟»

«إنه الراعي فهيد. لقد وعدته بربع مجيدي يوميًّا إذا أحضر لي الحليب للفطور، وهو ما فعله»

«آه من ذلك النذل!» صاح الأمير «يحمله لك من أجل ربع مجيدي»، ويذكر لي بعد ذلك بأنه لم يحلب أيًّا منها». «لا تغضب أخي. غدًا أرتحل، ونياقك سوف تعطي الحليب لك فقط»

«أتمنى أن يمنحك حليب نياقي الصحة يا موسى!»

إن مدة توالد الجمال هي من ١١ ديسمبر إلى ٢١ يناير، وخلال هذه المدة يجف حليبها. إن النياق التي ولدت صغارًا تحتاج إلى حليبها من أجلهم، وتنتج القليل منه إلى أن يصبح لديها الكمية الوافرة من الحليب الطازج بشكل دائم طوال العام.

قمنا بعمل التحضيرات للمغادرة ووزعنا الأحمال. إن الجمل القوي يستطيع أن يحمل قنطارًا (٣٠٠ كيلو غرام تقريبًا)، لكن جملًا محملًا بهذا الشكل لا يستطيع أن يقطع أكثر من ثلاثة أكيال في الساعة. كان مقررًا لجمالنا أن تقطع في المتوسط أربعة كيلو مترات ونصف الكيلو متر في الساعة، لذلك كان من غير الممكن أن نحمِّلها أكثر من خمسة وستين إلى خمسة وسبعين رطلًا (نحو ١٥٠ كيلو غرامًا). الكثير منها كان هزيلًا جدًّا وضامرًا، لكن نازلًا بشرني بتوقعه بأنها سوف تسمن عاجلًا في إقليم شمّر، حيث ستجد المرعى الوفير. قمنا بشراء جمل إضافي بقيمة أربعة عشر جنيهًا تركيًّا (٦٣ دولارًا)؛ لأننا لم نكن نرغب في تحميل الجمال الأخرى بالكثير من المتاع. لم نكن ننوي أخذ راعٍ معنا، حيث وعد نازل بتدبير شمّري لهذا الغرض»[1].

غادر موسيل مخيم النوري ابن شعلان يوم ٧ يناير ١٩١٥ لإكمال مهمته، وعبر هضبة الحماد حتى وصل إلى الجوف يوم ١٢ يناير ١٩١٥ وقدم وصفًا موجزًا لإقامته القصيرة بها. ونترك الآن القارئ مع موسيل لاستكمال وصفه:

«في الساعة التاسعة والنصف من يوم الثلاثاء الثاني عشر من شهر يناير ١٩١٥، وصلنا إلى أطراف منخفض الجوبة، ورأينا إلى يميننا، ومن خلفنا سهلًا ممتدًّا بلا حدود، تنتشر فيه الحجارة الكبيرة والصغيرة، المنقرضة بفعل التآكل، بينما أمامنا آلاف المسطحات الرملية، مرتفعة ومنخفضة، وهي تلمع بألوان وردية بسبب الضوء، والبقع السوداء فيها تأتي بلون البنفسج. وانبعثت أشعة الشمس من كل زاوية حتى اشتعلت كل المنطقة بالحرارة. كان بإمكاني أن أحملق فيها كثيرًا، ولكن الجمال أسرعت، وكان الطريق منحدرًا وينتهي بممرات ضيقة، وفقد الكثير من الجمال ما عليها من أحمال، وبعضها وصل والأحمال منزلقة عن ظهورها، حيث أسرعنا لمساعدتها وتهدئتها.

وفي الساعة العاشرة وخمس وعشرين دقيقة وصلنا إلى روض قاع يسمى «أجربة»، وبدأنا فورًا بإنزال الأحمال عن الجمال وربطها حتى تكون بمأمن،

(١) النص المعرب: Alois Musil, **Arabia Deserta**, pp.426-452.

ولم يكن هناك من عشب في هذه المنطقة، عدا شجيرات القرضي الجافة، التي تنمو هنا بوفرة، وكان هذا النبات في مرحلة إخراج أوراق صغيرة، ولم ينمو بعد نبات القيصوم والشيح.

كانت جميع التلال المسطحة الموحشة المحيطة بهذا المنخفض تتكون من طبقات أفقية على درجات من الصلابة غير متساوية، الصلبة منها ما زالت تقاوم الريح والمطر والجليد، ولهذا السبب، زالت منها الطبقات الناعمة. ودائمًا الطبقات العليا منها أكثر صلابة من التي تحتها، ولكنها تتلاشى بينما تبقى الطبقات العليا متماسكة، ولذلك يصعب مسح مثل هذه التلال. وعلى السهل توجد آلاف الحجارة من كل الأحجام، والأجزاء المنكسرة من الطبقات الصلبة التي بدأت تنهار بعد أن انهارت الدعائم التي تستند إليها.

وعند الساعة الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة، بدأنا بالمسير في السهل بين التلال المسطحة (قور) والحجارة الساقطة من الجبال. وفي الظهر كنا نمر عبر «خبرة المزارع»، وهي مجمع لمياه الأمطار. ومنها ترتفع جبال صخرية عديدة في شكل الطاولات. وفيها العديد من الشقوق التي تختزن مياه الأمطار وتسمى (زلطة) وجمعها زلط. وعند الساعة الواحدة دخلنا بوابة باب القاو، وهي بعرض خمسة عشر مترًا، وبعمق مئتي متر.

وفي الساعة الواحدة والدقيقة الثامنة والعشرين رأينا الجوف، أو دومة الجندل وهو الاسم الذي كان يطلق على هذه المستوطنة. وعلى مسافة خلف تلك الأرض الجرداء الداكنة الرمادية اللون، في الجانب الجنوبي من ذلك الحوض، على البعد ظهرت بساتين النخيل بلونها الأخضر المسود، ترحب بنا على عكس ما تفعل تلك الأرض اليباب التي كنا نعبرها في معاناة. وبين النخيل ظهرت الجدران الصفراء العالية، والأبراج التي بدأت تلمع في وهج الشمس. وأطل فوق النخل والجدران حصن مارد وحوله أربعة أبراج، وفي اليمين منه حصن الفرحة الرباعي الزوايا، وإلى شماله حصن الفريحة الأصغر منه.

في الساعة الواحدة والدقيقة الثانية والأربعين نزلنا من الممر الضيق إلى السهل المنبسط المسمى الصفاة. ويقع «غدير مرزوق» في الجزء الغربي منه، وهو

منخفض، تبقى فيه مياه الأمطار لمدة طويلة. وسطح هذا السهل خفيف ورمادي اللون، وصخري به تآكل بفعل الرياح والرمال، وإلى الغرب ظهرت قبة جبال العبد، وفي جنوبها الغربي ظهر التل المسطح المسمى الصبة، إلى جنوبها، وفي الجنوب الشرقي منا، على حافة الهضبة، حيث آثار حسيا، وشرقها ينتصب البرج القديم، وبعيدًا إلى الجنوب الغربي يقع حوض الجوف، الذي تحده مرتفعات الجديلية، وإلى الشرق وإلى أعلى نخيل البحيرات، ولاحظنا الارتفاع في جبل رجم نورة الأسود، وتحت مجموعة من الهضاب الصخرية (ظلة البحيرات) وفي محاذاتها مرتفع أبا القيس. وفي الساعة الثانية عشرة، كنا نركب عبر ممر «غدير مرزوق» القديم وعلى بعد مئتين من الأمتار إلى الاتجاه الشرقي لاحظنا قمتين أشبه ما تكونان بالكلس إحداهما «صبة الوادي»، حيث يستخرج الشيد الذي تدهن به المنازل باللون الأبيض. وفي الساعة الثانية والدقيقة الأربعين التقينا بالسكان المُتعبين في أحياء الحصيني والحسن. لقد كانت هذه الأحياء في بداية ١٩٠٩ من الأحياء المحصنة بمبانٍ قوية، وبهما بساتين واسعة تحيط بها أشجار نخيل طويلة وتنتشر فيها حقول العنب، ولكنها الآن سنة ١٩١٥ لا يوجد بها إلا الحطام، فقد هدمت الأسوار وقطع النخيل بسبب الحروب التي جرت في الفترة من يناير ١٩٠٩ إلى يوليو ١٩١٠.

أسرعت في البحث عن عامر، عامل الأمير نواف. وأخيرًا؛ وجدته في ركن قصي لغرفة واسعة بلا نوافذ، يستند إلى جدارها الغربي، ويحتسي قهوته بعيدًا عن مرمى رصاصة قد تأتيه من الباب. وبعد تحيته وقف وحياني وعاد لجلسته في انتظار أسئلتي له. سلمته الرسالة التي كانت معي من نواف وطلبت منه أن يريني كل النقوش التي كانت في الجوف التي كتبت بلغة لا يعرفها أحد. وقال لي: «في أثناء تعميق البئر في حصن مارد وجدنا عددًا من الرخام على شكل بلاطات وكانت تحمل خطوطًا غريبة، ولكن لا يعلم أحد ما حدث لها». وأيضًا أخبرني بأنه في شارع قريب من حصن مارد كان هناك جدار عليه كتابات غريبة، وأخبرته بأنني ذاهب لرؤية ذلك الجدار، وعليه في الوقت نفسه أن يبحث عن البلاطات المفقودة. وعلى ورق ضغط وباستعمال الفرشاة والماء أخذت صورة للنقش النبطي الموجود على الجدار، وجعلت الورقة التي

عليها الرسم تنشف على الحجر لأن الشارع العتيق كان ساكن الهواء، ورجعت إلى القصر حيث كان عامر على مصطبة بدرجات عالية، يقرأ لنحو مئتي مواطن تعليمات صدرت من نواف. وعندما رآني سكان الجوف الذين كانوا مع عامر، تقدموا لتحيتي وتمنوا لي النجاح في مهمتي من أجل السلام، فكلهم كانوا يريدون السلام قائلين: «يا شيخ خلصنا من هذا السجن. إننا ومنذ خمس سنوات لم نخرج خارج هذا الحصن، لأن أعداءنا يغيرون علينا ليل نهار. لقد ماتت ماشيتنا، وتوقفت تجارتنا، ونحن نعيش على التمر فقط وبعض الحبوب، التي نزرعها في بساتيننا».

لقد أحضروا لي شريحتين من النقوش النبطية وكنت قد وعدت من يحضر لي شريحة كاملة من هذه النقوش أن أعطيه جنيهًا عثمانيًّا (٤,٥ دولار أمريكي)، وعلى الرغم من ذلك تسلمت اثنتين فقط، وهناك احتمال أن تكون تلك اللوحات قد هربت إلى سورية، أو احتفظوا بها داخل حصن مارد الذي كان يخضع لإصلاحات. وفي الوقت نفسه كان عامر والأعيان في الجوف قد استعدوا لاستقبالي رسميًّا باسم الحاكم نواف، فارتدى أفخر ثيابه. وفي المساء ذهبت معه إلى برج الفرحة، وبدأت أسأله عن أفضل الطرق التي ينبغي أن أسلكها، وقال لي: يجب أن تسلك أطراف النفود الشرقية لأنها تعرضت لأمطار كافية قبل أحد عشر يومًا، وهذا يعني توافر الماء في هذه المنطقة. وقد علمت من نازل مرافقي، أن اثنين من شمر معتقلان في الجوف. طلبت من عامر إطلاق سراحهما، وقد فعل ذلك بسرعة لدى عودتنا. وقد أطلق سراحهما وطلب منهما شكري على إعطائهما حريتهما. ولما كانا يرتديان ثوبين ممزقين اشتريت لهما ثوبين جديدين، ومناديل، وعباءتين وطلبت منهما أن ينقلا تحياتي لشيوخهما. كان أحدهما من جماعة النبهان، والآخر من جماعة الزميل. كان يونس بن بنية يريد أن يعرف خط سيري، ولكنني لم أعطه إجابة محددة، لأن هجمات اللصوص تفسدها قلة معرفتهم بخطط التحرك. وفي المساء حددنا الاتجاه ونمت في خيمتي داخل فناء القصر.

وفي يوم الأربعاء الثالث عشر من شهر يناير ١٩١٥ استيقظت مبكرًا،

وكان فناء القصر يعج بالمرضى طلبًا للعلاج. وبعد أن فرغت منهم، ذهبت مع عامر إلى حصن مارد الرئيسي. وهو مستدير الشكل، يضيق كلما ارتفع حيث يقودك سلم حلزوني إلى مقر سكن نواف، وهو يقع في النصف العلوي من الحصن، والدخول إلى الحصن يتم عبر سرداب ضيق ينتهي بباب عليه قضبان حديدية. وهناك أيضًا سرداب آخر يقود إلى صالة، وبعد ذلك تدخل مقر الحاكم نواف، وفيه مخزن أسلحة كافية، وذخيرة، ومؤن تكفيه للصمود في الحصن مهما طال الحصار. ومفاتيح الحصن لا يعرف مكانها إلا عامر ووالدة نواف فقط، وكانت هي الوصية على هذا المقر، لأنه لا يثق في زوجته الجوفية. حيتني أم نواف بحرارة وقادتني إلى داخل البيت. واستعرضت أمامي معزتين معها داخل الحصن، ووضحت لي كيف تمد الحصن بمياه الشرب من ينبوع تم تصميمه ببراعة تحت الحصن. ومن غرفة نواف، التي كانت باردة ومليئة بالأشياء، صعدنا عبر السلم الحلزوني إلى أعلى الحصن الذي كان مسورًا بجدار عليه فتحات تمكن المقاتلين من إطلاق النار على المهاجمين. إن هذه القلعة عانت من الهجمات الأخيرة، فالأبراج الأربعة الصغيرة، التي بناها نواف، كانت مبنية من الطوب الطيني المجفف، أما جدران الحصن الرئيسية فكانت أقوى، لأنها من الحجارة الصلبة. وفي فناء القصر أراني حراس عامر غزالًا صغيرًا أحضرته جماعة من الشرارات من النفود. وفيما بعد صعدنا إلى برجي الفريحة والفرحة لعمل رسم كروكي للجوف من فوقهما.

تقع الجوف في قاع منخفض يمتد من الغرب إلى الشمال الشرقي. وهذا المنخفض طوله نحو مئة كيلو متر، وعرضه نحو عشرة كيلو مترات. وعمقه بين أربعين إلى خمسين مترًا. وكل المياه تتسرب تحت المرتفعات الجبلية المحيطة به، وتبقى هناك طوال العام على سطح من الصخر والحصى الخشنة والرمال، وتتسرب من أماكن متعددة في شكل ينابيع، وتملأ الآبار التي يتراوح عمقها بين أربعة إلى عشرين مترًا. أما الآبار العميقة فماؤها مالح بعض الشيء وفاتر ليس باردًا ولا حارًّا. إن كمية المياه هي السبب في أن الجوف مأهولة بالسكان. وأكبر منطقة من ناحية تجمع السكان تسمى «دومة الجندل»، بينما اسم الجوف أو الجوبة يشير إلى جميع المنخفض وبقية البلدات.

تضم دومة الجندل نحو أربع مئة مسكنٍ، وهي مقسمة إلى عشرة أحياء مسورة، وهي: في الغرب: سوق الغرب، وسوق سحارة، وسوق الوادي، وسوق شيبة، وسوق مارد. شمال هذه الأسواق يوجد سوق السراح، وسوق الرحيبيين، وسوق علاج. وإلى جنوب مارد، سوق خذما، وأخيرًا سوق النقيب، وفي الجوار من هذه البلدة هناك بساتين صغيرة مثل: النويقيط، الوسيعة، جاوة، والقنية، وعيون الكبرا، وعين الشيخ، وعين رشيد، وغيرها.

بناءً على كلام سكان الجوف، فإن النقش على الصخر في سوق الغرب يُقرأ كالتالي:

الف بالجوف راشي

والف عين جارية

ومن حس سبقات العبية وهي ثنية

أي أن هذا النقش، يتحدث عن وجود ألف بئر يسحب منها الماء، وألف عين ماء جارية، ومن الذي سمع عن سباق تفوز فيه مهرة عمرها خمس سنوات فقط.

عدا سوق مارد، فإن كل حي به نخيل، وفي وسط النخيل تقوم المنازل. بساتين النخيل مسورة بجدران عالية. ومن خلال بوابة يدخل المرء ممرًّا ضيقًا بين جدران البساتين، ويؤدي هذا الممر الضيق إلى ميدان في شكل تقاطع، حيث تفتح فيه أربع بوابات على أربعة منازل. وفي كل نقطة التقاء لأربعة بساتين توجد بئر، ومن هذه البئر يُسحب الماء بواسطة الأبقار والجمال لري البساتين.

تتعدد أنواع تمر الجوف، فالمسيّحية تنضج مبكرًا وهي في حجمها أصغر من ثمر الجوز، ولونها أصفر، وتميل إلى الحموضة بعض الشيء. أما أفضل أنواع التمر فهو تمر الحلوة ولونه أسود، وأطول من الإصبع في الغالب، لكنه أكثر سمكًا. كذلك تمر حلوة الحسين ذو اللون الأصفر، وذو الحجم الكبير واللذيذ. وتمر حمراء رشود، الذي يمكن حفظه لمدة طويلة، ونكهته تكون الأفضل عندما يكون المحصول الجديد من تمر المسيّحية على وشك النضج.

التمر يكال بالصاع (تسعة ليترات) ويحضر التمر بطرق مختلفة، ويمكن إنضاجه بأن يطبخ حتى تتبخر عصارته ثم يخفق ويترك ليجف، ثم يستعمل كزاد للمسافر. ويمكن سحن بعض الغلال (كالسمح) وخلطها مع التمر الأسود، حيث يمتص السمح العصارة، وتبقى الخلطة لأكثر من سنة صالحة للاستعمال، وهذه الخلطة تسمى بكيل.

في البساتين يوجد التين، والبرتقال، والليمون، والمشمش، والعنب، وأنواع متعددة من الخضراوات، ويزرع بجانب جدران البساتين شجر الأثل، وهو يشبه شجر الطرفا، ويصنع من هذا الشجر خشب السقوف، وخارج البساتين، وبعض الأحيان داخلها يزرع القمح والشعير، ولكن الحرب الأهلية (١٩٠٩– ١٩١٠) تسببت في تدمير الكثير من المساكن والبساتين.

يبدو مؤكدًا أن الأنباط قد أسسوا مستوطنة كبيرة في دومة الجندل. وبناءً على ذلك، فإن هناك مقبرة لم أتمكن من الاستدلال عليها. لكن هناك زعم بأنه تم الكشف عن كهوف في منطقة الصوينعية بالقرب من مارد، ولكن لم يوجد شيء داخلها فطُمرت في الحال»[١].

غادر موسيل الجوف متوجهًا إلى حائل[٢] وبعدها قفل عائدًا إلى إستانبول. استمرت هذه الرحلة منذ بدايتها حتى نهايتها ما يقارب ستة شهور.

---

(١) النص المعرب: Alois Musil, **Arabia Deserta**, pp.470-474.

(٢) ضمَّن موسيل تفاصيل رحلته إلى ابن رشيد في كتابه «شمال نجد»:

Alois Musil, **The Northern Nagd: A topographical Itinerary** (New York: AMS Press, 1928).

الفصل الحادي عشر

سانت جون فيلبي

يُعد هذا الرحالة أشهر وأهم رحالة في القرن العشرين ممن جعلوا جزيرة العرب مجال علمهم وعملهم. وممن اجتمعت في شخصياتهم أبعاد الرجل العالم، والباحث، والسياسي، والدبلوماسي، والصحافي، والمؤرخ، والجغرافي، والآثاري، والتاجر، والتي يحتاج كلٌّ منها إلى بحث مستفيض لاستيعابه وتحديد أهميته وتبيُّن خلفياته. كما إنه كان ولا يزال أكثر الرحالة الذين أثاروا الكثير من الجدل والنقاش حول شخصياتهم وأهدافهم وطموحاتهم الشخصية والعامة، في موطنه الأصلي بريطانيا، وفي الدول التي عمل بها أو في الدولة التي أحبها وخدمها طيلة جزء كبير من حياته، وهي المملكة العربية السعودية. فمن هو فيلبي؟

ولد هاري سانت جون فيلبي (Harry St. John Bridger Philby) سنة ١٨٨٥ في مدينة بادولا (Badulla) في جزيرة سيلان (سيرلانكا)، حيث كان يقيم والده ويعمل في تجارة القهوة. في سنه السادسة انتقل مع والدته التي تخلت عن والده إلى لندن، حيث بدأت عملية تعليمه في مدارس النخبة الإنجليزية. أظهر فيلبي نبوغًا مبكرًا، وتميَّز في تعليمه فحصل على منح دراسية مختلفة حتى أكمل دراسته الجامعية في جامعة كيمبردج سنة ١٩٠٧ مختصًّا باللغات الشرقية، وقد تعلم اللغات الفرنسية والألمانية والعربية والأوردو والفارسية.

التحق بالعمل الحكومي بعد تخرجه من الجامعة، فتم تعيينه بالهند التي

عمل بها لمدة سبعة أعوام. ثم نقل سنة ١٩١٥ للعمل بالإدارة البريطانية في العراق، مساعدًا للمندوب السامي البريطاني.

بدأت علاقة فيلبي بالجزيرة العربية تتوطد منذ عام ١٩١٨ عندما أتى على رأس بعثة بريطانية للقاء عبدالعزيز آل سعود(١). اختلف فيلبي مع سياسة حكومته في العراق، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وبدأ باتخاذ مواقف سياسية تتعارض مع سياسة حكومته في المنطقة، والتعبير عن مواقفه تلك علانية، وخاصة فيما يتعلق بإقامة حكم ملكي في العراق. كما أنه أبدى احترامًا وتقديرًا كبيرًا لعبدالعزيز آل سعود، ورأى أنه هو الزعيم الذي ينبغي التعامل معه، لأنه الأصلح لقيادة العرب والنموذج المثالي الذي كان يحلم به. كتعبير عن عدم الرضا على أفكاره وأطروحاته السياسية، تم نقله سنة ١٩٢١ إلى عمان كمندوب سياسي لبريطانيا في شرق الأردن الذي بقي فيه حتى عام ١٩٢٤. بعد ذلك ترك فيلبي العمل الحكومي سنة ١٩٢٥ والتحق بالملك عبدالعزيز، ليرتبط مصيره منذئذٍ وحتى وفاته بالمملكة العربية السعودية.

أعلن فيلبي إسلامه سنة ١٩٣٠ ولقبه الملك عبدالعزيز باسم عبدالله، وعُرف به لاحقًا. عمل فيلبي خلال حياة الملك عبدالعزيز مستشارًا غير رسمي له لرفضه أن يكون مستشارًا رسميًا ليحتفظ باستقلاله حسب قوله، كما مارس التجارة، والاستشارات التجارية، وأدّى دورًا في تقديم شركات التنقيب عن النفط في المملكة(٢).

غادر فيلبي المملكة سنة ١٩٥٥ مجبرًا بعد خلاف مع الملك سعود على ما كان يكتبه فيلبي عن المملكة في الغرب. تراجع الملك سعود عن قراره، فعاد

---

(١) نشر فيلبي تقريرًا حول هذه البعثة. انظر:

سانت جون فيلبي، **بعثة إلى نجد (١٩١٧-١٩١٨)**، ترجمة، وتعليق عبدالله الصالح العثيمين (الرياض: خاص، ١٩٩٧).

(٢) حول دوره في هذا الجانب، انظر:

St. John Philby, **Arabian Oil Ventures** (Washington: Middle East Institute, 1964).

سانت جون فيلبي، **مغامرات النفط العربي**، تعريب عوض البادي(الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٩).

فيلبي إلى الرياض سنة ١٩٥٦ متفرغًا للكتابة. توفي في بيروت سنة ١٩٦٠، وكان في سنته الخامسة والسبعين.

خلال وجوده في المملكة، قام فيلبي بعدة رحلات إلى مختلف مناطقها، باحثًا ودارسًا ومكتشفًا لها. ولعل أشهر رحلاته تلك التي قطع فيها منطقة الربع الخالي وكتب عنها كتاب باسم «الربع الخالي»[١]، أسهم في شهرته العالمية كمكتشف جغرافي ورحالة عالمي. وقد كتب عددًا كبيرًا من الكتب الأخرى التي تناولت تاريخ الجزيرة العربية في التاريخ القديم والمعاصر، وعن رحلاته وتجاربه. بالإضافة إلى ذلك، كان يكتب باستمرار عن شؤون الجزيرة العربية في الصحف والدوريات الغربية[٢] قام فيلبي برحلته إلى منطقة الجوف سنة ١٩٢٢ خلال وجوده في شرق الأردن، وكان هدف الرحلة دراسة وضع المنطقة السياسي في تلك الحقبة بسبب اهتمام الأمير عبدالله بن الحسين أمير شرق الأردن الجديد بها. قدم فيلبي تفاصيل رحلته في محاضرة بعنوان: **الجوف وشمال الصحراء العربية**، وقد ألقيت بالنيابة عنه في الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية في لندن[٣].

وهنا نترك للمحاضر سرد قصة رحلته:

«إنه لمن دواعي الغبطة أن أُلبِّي للمرة الثالثة طلب الجمعية الجغرافية الملكية[٤] بتقديم ورقة عن تجاربي في الجزيرة العربية. وأسفي الوحيد هو

---

(١) St. John Philby, **The Empty Quarter: Being a Description of the Great South Desert of Arabia known as Rub 'al Khali** (London: Constable & Company Ltd), 1933).

(٢) حول سيرة حياة فيلبي العامة والخاصة بكافة تفاصيلها، انظر:

Elizabeth Monroe, **Philby of Arabia** (London: Faber and Faber,1973).

اليزابيث مُونرو، **فيلبي الجزيرة العربية**، ترجمة أحمد عمر شاهين(الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م).

خيري حماد، **عبدالله فيلبي: قطعة من تاريخ العرب الحديث**(بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، ١٩٦١).

(٣) ألقيت هذه المحاضرة بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٢٣.

(٤) سبق أن ألقى فيلبي محاضرتين في هذه الجمعية العريقة حول رحلته في جنوب نجد، ورحلته من الخليج إلى البحر الأحمر، انظر: =

أنني بسبب ضرورة وجودي بالقرب من عملي في الجزء الشمالي الغربي من الجزيرة العربية الكبرى، لم أتمكن من الحضور أمامكم شخصيًّا لتقديم هذه الورقة.لقد التزم الميجور هولت (A. L. Holt)[1] الذي كنت برفقته في رحلتي التي سأصفها لكم، بكل محبة، أن ينوب عني بقراءة ورقتي هذه، بالإضافة إلى ورقته التي كما فهمت ستكون عن الجوانب التقنية لرحلتنا، من وجهة نظر مهندس سكة حديد. ولا أعتقد أن أحدًا يبزُّه في الحديث عن الإمكانات الهندسية للصحراء.

زارني الميجور هولت، في مقر إقامتي في عمان في الأيام الأولى من سنة ١٩٢٢، بعد أن أمضى عدة سنوات في دراسة إمكانية إقامة سكة حديد الصحراء، أي الخط الممتد من الشرق إلى الغرب من شط الفرات عند هيت[٢] والرمادي[٣] إلى الخط الحديدي الحجازي بالقرب من عمان.

لقد كنت في هذا الوقت أستعد لزيارة واحة الجوف الشهيرة، كجزء من واجباتي السياسية، وحينما طرحت فكرة مرافقته (الميجور هولت) لي قفز فرحًا، لأن ذلك سيمكنه من دراسة إمكانات إقامة خط سكة حديد عبر وادي السرحان. هذا؛ وسيكون من غير المبرر لنا وجود الفرصة لكتابة هذه الورقة لو

H. St. J. B. Philby, "Southern Najd", **The Geographical Journal**, Vol. LV, No. 3 (October 1920): 161-191. =

——————, "Across Arabia from the Persian Gulf to the Red Sea", **The Geographical Journal**, Vol. LIV, No. 6, December,1920: 446-462.

(١) الميجور أ. ل. هولت (١٨٩٨-١٩٧١)، مهندس وضابط عسكري إنجليزي يعمل في فيلق الهندسة الملكية في الجيش البريطاني. كانت مهمته في هذه الرحلة دراسة الطبيعة الجغرافية للمنطقة ومعرفة مدى ملاءمتها لإنشاء خط حديدي يربط العراق بفلسطين عبر الجوف. قدم هولت محاضرة حول الموضوع وكانت بعنوان «مستقبل صحراء شمال الجزيرة العربية». ونظرًا لغلبة الجانب الفني على هذه المحاضرة التي لا تضيف شيئًا جديدًا عن طبيعة المنطقة التي ذكرها فيلبي، ولأهمية اختتام هذا الكتاب برحلة فيلبي، لم ندرج نص هذه المحاضرة هنا. حولها انظر:

A. L. Holt, "The Future of the North Arabian Desert", **The Geographical Journal,** Vol. LXII, No. 4, Oct.,1923: 259- 271.

(٢) تقع مدينة هيت على الضفة الغربية من نهر الفرات إلى الشمال من مدينة الرمادي وتبعد عنها مسافة سبعين كيلًا.

(٣) مدينة رئيسة غرب العراق، تبعد عن بغداد نحو مئة وعشرة أكيال.

لم توصّلنا «دراساتنا» بعد سلسلة من محاولات أعاقت تقدمنا إلى ما وراء الجوف عبْر البراري إلى حدود الهلال الخصيب عند كربلاء.

كانت محاولتنا الأولى للوصول إلى الجوف فاشلة. لقد أتى الميجور هولت ومرافقوه إلى عمان بواسطة السيارات من العراق عبر الصحراء من الرمادي مرورًا بالأزرق، ثم عمان متبعًا في رحلته علامات المسار الجوي الذي تستخدمه طائرات بريد القاهرة – بغداد. وكان مع الميجور هولت عدد من سيارات فورد المناسبة. قررنا استخدام هذه السيارات للوصول إلى كاف بالقرب من رأس وادي السرحان، على أمل أن نجمع عددًا من الجمال والمرافقين لبقية الرحلة إلى الجوف.

غادرنا عمان في اليوم العاشر من شهر مارس ١٩٢٢ ومعنا ثلاث سيارات، متوجهين أولًا إلى مخيم مثقال باشا شيخ قبيلة بني صخر[١]، في منطقة محطة زيزيا إحدى محطات خط حديد الحجاز على حدود الصحراء. ووصلنا في اليوم التالي إلى المخيم، الذي يبعد عن عمان خمسة وعشرين ميلًا وعن هدفنا الأول قرية كاف ثمانين ميلًا، وكانت هناك سيارة أخرى عند مثقال باشا.

انطلقنا ثانية في صباح اليوم الثاني عشر من شهر مارس وكنا مجموعتين. تتكون المجموعة الأولى من السيارات الأربع، وقد وصلت إلى كاف في الساعة الرابعة مساء من اليوم التالي. بينما المجموعة الثانية التي تتكون من خدم مثقال وتمتطي الإبل، وصلوا إلى كاف بوقت لا يقل عن اثنتي عشرة ساعة قبل وصولنا، لأنهم كانوا مسافرين خلال الليل والنهار، بينما كان على مجموعتنا أن تخيم خلال الليل، ولأننا كنا دون الميكانيكي البريطاني. لقد أردت أن تكون المجموعة البريطانية أقل ما يمكن. وفي الحقيقة كنا نحن الاثنين فقط. ولتتوالى الأحداث، كان لنا التجربة نفسها عند عودتنا فقد

(١) الشيخ مثقال بن سطام بن فندي الفايز شيخ مشايخ قبيلة بني صخر، تولى مشيخة هذه القبيلة سنة ١٩٢١، لعب أدوار بارزة في الحياة القبلية والسياسية في شرق الأردن وتأسيس الدولة الأردنية. توفي في أواخر ستينيات القرن العشرين.

وصلت الإبل بعد نصف الساعة من وصولنا إلى المخيم الذي انطلقنا منه بالسيارة بعد مسير ست ساعات. إنني أذكر هذا الأمر، لأبرر تفضيلي الشخصي لاستخدام الإبل على السيارة في الصحراء إذ لا طرق لها. بالطبع مع التنظيم المناسب والأخذ في الحسبان علو التكلفة، تستطيع المواصلات الميكانيكية هزيمة كل شيء آخر، إلا أن عظمة الجمل تكمن في حقيقة أنه لا يحتاج إلى تنظيم من أي نوع، والخطط يمكن تركها لتعتمد على الظروف، فالمرء لا يعوقه شيء على الإطلاق.إن المنطقة الصحراوية بين خط الحجاز الحديدي ومنخفض وادي السرحان تحتاج لبعض التعليق .

في الأزمان السالفة - خصوصًا عندما كانت هذه المنطقة تحت الحكم الروماني، ومرة أخرى في أيام حكم السلالة الأموية في دمشق - كانت هذه المنطقة مزدهرة أكثر مما هي عليه الآن. كان هطول الأمطار أكثر في زمن الرومان، وكان خط الأرض المخضرة يمتد إلى الشرق أكثر مما هو موجود الآن. وتشهد قصور الصيد التي بناها خلفاء دمشق في المنطقة على وفرة حيوانات الصيد فيها. بينما الآن، فبالمصادفة يمكن مقابلة غزال أو عدد من طيور الحبارى، وبعد المسير مسافة يوم في هذه المنطقة.

إن دخول الأسلحة الحديثة، كان لعنة وكارثة حقيقية على الجزيرة العربية واستقلال حيواناتها وتفردها. لا يوجد قانون هنا لحماية حيوانات وطيور الصحراء، وحتى لو وجد مثل هذا القانون فإن أحدًا لن يلتزم به. ولكن ما هو أكثر سوءًا أن القانون الاجتماعي العربي للغزو والسلب لم يُظهر أية علامات حتى الآن للتكيف مع التغير المفاجئ الذي جاء إلى الصحراء بدخول السلاح الحديث. وإذا كانت الضرورة لهذا التكيف لم تُستوعب، فإن المجتمع العربي سيقضي على نفسه في وقت قصير. ربما هنا ينبغي توضيح هذه المقولة التعميمية، إن كل داء سينتج دواء، فإذا كان شمال الجزيرة الآن غير آمن - بأوسع معاني الكلمة - غير آمن لعابر السبيل البريء - التاجر والراعي - إلا أن هناك بعض المؤشرات السارة للتغير في الجنوب. إن ابن سعود قد أوجد دولة على أساس القواعد الدينية الأمر الذي جعله يملك قوة كافية ليحرم

الغزوات القبلية داخل حدوده. هذه الحدود وبالتدريج تمتد الآن باتجاه الشمال، وقد تم بالفعل الوصول إلى المناطق المتاخمة للعراق وشرق الأردن. إن حياة الآمنين في خطر فقط، في المناطق التي تقع وراء هذه الحدود، لكن ضمن نطاقها فإن من يعيش بها، ويعترف بحكم ابن سعود، ومن يسافر بإذنه وتحت حمايته فإنه آمن.

إن هدفي الرئيس من القيام بهذه الرحلة، كان معرفة الحالة السياسية في الجوف على الطبيعة. كانت حالة وضعها غامض إلى أبعد الحدود، لذلك فمن المناسب إعطاء خلفية عامة لذلك الوضع قبل الاستمرار بوصف تجربتنا.

تذبذبت أقدار الجوف وتقلبت بشكل عنيف منذ ستينيات القرن الماضي(التاسع عشر الميلادي)، عندما احتل فيصل بن شعلان - وهو الأول من عائلته - الجوف بعد أن استولى عليها من عائلة ابن رشيد[1]. استمر الاحتلال الشعلاني نحو عشرين سنة، حتى جاء محمد بن عبدالله الرشيد الذي استرجع الجوف وأعادها إلى إمبراطوريته، التي كانت قبل وفاته سنة ١٨٩٧ تشمل فعليًّا كل وسط الجزيرة العربية. ولكن خليفته عبدالعزيز بن متعب كان غير قادر على الحفاظ على وحدة حدوده، مقابل القوة النامية لسميه عبدالعزيز آل سعود السلطان الحالي لوسط الجزيرة العربية (سلطان نجد وملحقاتها). لقد كانت خسارة ابن رشيد في الجنوب متبوعة بخسارته للجوف سنة ١٩٠٩ لنواف بن النوري الشعلان، سليل فرع من فروع عائلة الشعلان. أما نوري الذي أصبح حاكمًا أعلى لقبيلة الرولة بعد قتله أخيه فهد، فيبدو أنه ترك الجوف وسكاكة ليحكمها ابنه نواف[2].

لقد حكم نواف كما يبدو مواطنيه، الذين يمتازون بصعوبة المراس، بحكمة واعتدال حتى سنة ١٩٢٠ عندما استطاعت حائل إعادة تأكيد سيادتها

---

(١) هذا القول غير دقيق، ولم يحدث ذلك أبدًا، والمتتبع لما ورد في هذا الكتاب من أقوال الرحالة الآخرين حول أوضاع المنطقة في هذه المرحلة سيجد الأمر غير ذلك، والشيخ فيصل الشعلان نفسه كان قد قتل في سنة ١٨٦٤.

(٢) انظر تفاصيل ذلك في نص الويس موسيل في الفصل السابق من هذا العمل.

على الواحات الشمالية. لقد تمكن سعود [بن عبدالعزيز بن متعب الرشيد] حاكم حائل من مهاجمة سكاكة من خلال مؤامرة غادرة قام بها عضو العائلة الرئيسة في البلدة حمد بن مويشير[(١)] إذ قتل عامل نواف[(٢)] في البلدة غدرًا، وأرسل خاتمه إلى الأمير سعود الرشيد الذي تقدم لاحتلال المنطقة بعد قتال متقطع[(٣)] خلال تلك المدة، كان ابن سعود يقوم بحملات متقطعة على حائل منذ سنة ١٩١٨، كما أن سعودًا نفسه قد قُتل في بداية سنة ١٩٢١[(٤)] من خلال غدر أحد أقربائه[(٥)] وخلفه عبدالله بن متعب[(٦)]. شهد صيف ١٩٢١ تكثيف للهجمات على حائل، وأصبحت وظيفة أمير حائل غير مريحة بشكل كبير، الأمر الذي قاد عبدالله بن متعب إلى التخلي عن وظيفته إلى ابن عمه محمد بن طلال[(٧)]، وقد منحه ابن سعود حق اللجوء إلى الرياض. أُجبر محمد بن طلال بعد ذلك على تسليم حائل، وأخذ أسيرًا إلى الرياض في شهر أغسطس ١٩٢١. هكذا أضاف ابن سعود إمارة شمر إلى سلطانه، وبالطبع، ليس كل إمارة شمر. خلال الشهر نفسه، اتجه سلطان بن نواف الشعلان يساعده ابن عمه مجحم بن الشعلان (توفي نواف في سورية في صيف السنة نفسها) إلى احتلال الجوف دون أية مقاومة جدية. لقد عوقب حمد بن مويشير على غدره السابق من خلال حرمانه من أراضيه وأملاكه الأخرى. وهكذا مع بداية ١٩٢٢

(١) حمد بن ذباح المويشير، وتشير المصادر إلى إن أخاه رجاء بن ذباح المويشير هو من قاد هذه الحركة بمشاركة آخرين من جماعته.

(٢) مملوك الأمير نواف واسمه عامر المشورب، وقد حدث مقتله في شهر ديسمبر ١٩١٨.

(٣) تحقق له ذلك بعد ثلاثة شهور من الحرب، وخضعت منطقة الجوف من جديد إلى سلطة إمارة حائل.

(٤) حدث ذلك في شهر مارس ١٩٢٠.

(٥) عبدالله بن طلال بن نايف بن طلال بن عبدالله الرشيد، ولم يتمكن هذا من الحكم إذا قتل مباشرة على أيدي عبيد الأمير القتيل.

(٦) عبدالله بن متعب بن عبدالعزيز بن متعب بن عبدالله الرشيد، تولى حكم إمارة حائل بعد مقتل أميرها سعود بن عبدالعزيز بن متعب بن عبدالله الرشيد في، لجأ قبل نهاية عامه الأول في الحكم إلى سلطان نجد وملحقاتها(الملك لاحقًا) عبدالعزيز آل سعود، استقر في الرياض وتوفي بها سنة ١٩٤٦.

(٧) محمد بن طلال بن نايف بن طلال بن عبدالله الرشيد، تولى حكم إمارة حائل في بداية سنة ١٩٢١ حتى شهر نوفمبر من العام نفسه، إذ سلم حائل إلى الملك عبدالعزيز آل سعود. نقل إلى الرياض، وتوفي بها سنة ١٩٥٤.

وبعد عدة تقليات، بدا وكأن الجوف قد استقرت إلى ولائها السابق لعائلة الشعلان بينما منافسوهم السابقون، عائلة الرشيد انتهى وجودهم.

من منظور عائلة الشعلان، كان هذا هو الوضع، ولكن ابن سعود له موقفه الخاص بشأن هذا الأمر فهو يعتقد بأنه الوريث الطبيعي لجميع المناطق التي كانت تخضع لابن رشيد. كان من عوامل القوة لرأي ابن سعود هو أنه أولًا يستطيع تحقيق ذلك إذا ما تم تحديه، وثانيًا، وهو أمر حقيقي، أن أغلبية الناس بالجوف معه، ربما ليس معه بقدر ما هو موقف ضد الشعلان غير المؤهلين لحكم الجوف أو أي مكان آخر. وأستطيع أنا والميجور هولت تقديم شهاداتنا دعمًا للمواطنين، سيئي الحظ، من سكان هذه المناطق.

كانت الشائعات تأخذ ألوانًا مختلفة، وبالطبع كانت الألوان تعتمد على طبيعة كل مصدر ومنطلقه. وقد أفادت هذه الشائعات أن ابن سعود بشكل أو بآخر قد حكم الجوف ومناطقه المجاورة، وأن مواقف النوري بن شعلان مازالت مترددة، فهو قد أعطى ولاءه لابن سعود(١)، لكنه في الوقت نفسه، تحدى من حاول دخول الجوف عنوة. وسط هذه الشائعات، كان الأمر يتطلب أن نعرف حقيقة الوضع، لكن ذلك لن يكون دون التحقق شخصيًّا منه. وكان من الأهمية كذلك معرفة الحقيقة، لأن شرق الأردن وحاكمه الأمير عبدالله(٢) كان مهتمًّا اهتمامًا كبيرًا بشؤون جاره، وانعكاساتها الممكنة عليه.

---

(١) لم تكن هذه شائعات، فقد أثبتت الوثائق التاريخية لتلك الحقبة أن الشيخ النوري بن شعلان قد أعلن الولاء للملك عبدالعزيز حينما كانت قواته محاصرة لحائل سنة ١٩٢١ وقدم بيانًا مكتوبًا في ذلك هو وشيوخ آخرون من قبيلته مؤرخ بتاريخ ٨ شعبان ١٣٤٠هـ/ ١٢إبريل ١٩٢٢م، وبناءً على ذلك اعتبر سلطان بن نواف بن النوري الشعلان أميرًا على الجوف وتحت سلطة الملك عبدالعزيز. انظر: عوض البادي، «الملك عبدالعزيز، ومنطقة الجوف ووادي السرحان: وثيقة تاريخية»، **مجلة الدرعية**، العددان الثالث والرابع، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ٢٢٥-٢٣٣.

(٢) الشريف عبدالله بن الحسين بن علي (١٨٨٢-١٩٥١)، أمير شرق الأردن(١٩٢٣- ١٩٤٦)، وملك المملكة الأردنية الهاشمية(١٩٤٦-١٩٥١)، وهو الابن الثاني للملك حسين ابن علي شريف مكة وأميرها (١٩٠٨-١٩١٦) وملك الحجاز(١٩١٦-١٩٢٤)، ولد في مكة ونشأ في استانبول، انتخب نائبًا عن مكة في مجلس المبعوثان (النواب) العثماني سنة ١٩٠٩. التحق سنة ١٩١٤ بالحركة القومية العربية الساعية إلى استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية فاشترك مع أبيه في مفاوضاته =

لقد وصلنا إلى قرية كاف، وهي الأكثر أهمية بين مجموعة من القرى تقع في هذا الموقع من وادي السرحان، تُعرف بصيغة جمعية قريات الملح. هذا الاسم مشتق من الصناعة الوحيدة في هذه المنطقة، وهي استخراج الملح. في هذه القرى مجموعة من حفر الملح الموجودة في قاع الوادي تحت منحدر من البازلت والصخور الجيرية التي تفصله عن الأرض الواسعة ذات التلال المغطاة بالحمم البركانية (حرة)، والممتدة من جبل الدروز في الشمال إلى نقطة تبتعد خمسة أكيال جنوب كاف. هذه الحفر الملحية أو الممالح يستغلها البدو مقابل دفع ما قيمته مجيديان عن حمل الجمل الواحد لأصحاب هذه الحفر، ومجيديان كعائد يُدفع إلى النوري الشعلان صاحب السلطة في هذه القرى. الملح هذا الذي يكلف أربعة مجيديات لحمولة الجمل يباع في أغلب الأحيان في قرى حوران - على مسافة ثلاثة أو أربعة أيام - بنحو عشرين مجيدي عن كل حمل. يستخلص الملح من خلال عملية تبخير بسيطة، حيث يُحفر سطح الأرض بعمق قدم واحد على شكل دوائر، بعد ذلك يتبخر الماء ببطء، مخلفًا ملحًا أبيض بنوعية معقولة. ثم يرفع الملح ليجمع على شكل أكوام صغيرة هرمية الشكل، جاهزة للتحميل. وقد رأيت عدة مرات خلال شهري

= السرية مع الحكومة البريطانية لمساعدته في الثورة على الدولة العثمانية لتحقيق هذا الهدف وإقامة مملكة عربية واحدة. عند إعلان هذه الثورة سنة ١٩١٦ عيّن وزير للخارجية في حكومة الحجاز الأولى، وقاد بعض النشاطات العسكرية للقوات العربية في الحجاز. بعد تقسيم المناطق العربية المحررة في بلاد الشام بين بريطانية وفرنسة بناءً على اتفاق مسبق بين هذين البلدين على خلاف للوعود المقطوعة للشريف حسين، واحتلال فرنسة لسورية سنة ١٩٢٠ وإسقاط المملكة السورية التي كانت قد أُعلن عن إقامتها وتم فيها أيضًا اختيار شقيقه الأمير فيصل بن الحسين ملكًا عليها، رحل الأمير عبدالله من الحجاز بعد استقالته من وزارة الخارجية إلى بلدة معان التابعة لمملكة الحجاز لتنظيم المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي والتي وصلها في شهر نوفمبر ١٩٢٠. أراد البريطانيون الوفاء ببعض وعودهم بطريقة مختلفة فقرروا إقامة دول عربية في مناطق احتلالهم، ومنها منطقة شرقي الأردن وإقامة حكومية عربية فيه، وجرى الاتفاق مع الأمير عبدالله على ذلك في شهر مارس ١٩٢١، واعترفت بريطانية في شهر مايو سنة ١٩٢٣ بإمارة مستقلة في شرقي الأردن ضمن الانتداب على فلسطين. حول تأسيس هذه الإمارة انظر:

سليمان موسى، **إمارة شرقي الأردن: نشأتها وتطورها في ربع قرن ١٩٢١-١٩٤٦** (عمان: منشورات لجنة تاريخ الأردن، ١٩٩٠).

أغسطس وسبتمبر، عندما كنا في عمان وقمنا بعدة طلعات جوية لنراقب النشاطات الوهابية، كانت هذه الأكوام الملحية تظهر كالخيام البيضاء ذات العمود الواحد، ومع بعضها تظهر كالمخيم، وفي الحقيقة تقف ببروز حتى إن بساتين النخيل وقرية كاف نفسها، يصعب ملاحظتها. في الجوانب الأخرى، يمكن عدّ كاف أهم هذه القرى، نموذجًا لها جميعًا، حيث إنها تحمل كل السمات الخاصة بنموذج قرية نجدية. وباتجاه الشمال، يمكن عدّ بلدة معان والمناطق الواقعة جنوبها على خط سكة حديد الحجاز مناطق حجازية. أما شرقي الأردن فله سماته الخاصة الأمر الذي يجعله مختلفًا عن الجزيرة العربية. فمنطقة شرقي الأردن سهل مرتفع وممتد مع أراضٍ واسعة تزرع بها الحبوب وفيها إمكانات كبيرة للتطوير في هذا المجال. بالإضافة إلى ذلك، فإن طرقه تربطه بالقدس وسكته الحديدية تربطه بحيفا ودمشق وتجعله ضمن العالم الحديث. وشرقي الأردن ليس به نخيل، وحياة القرية به تشبه الحياة في قرى فلسطين وسورية. أما في كاف والقرى التابعة لها فقد دخلنا في أعماق الحياة العربية المدنية؛ فالزائر، وكحق له، يُستقبل حسب قاعدة الضيافة لمدة ثلاثة أيام.

قاعدة الحياة الكريمة هنا، هي البطالة الصرفة التي لا يقطع رتابتها إلا أداء الصلوات الخمس، وزيارة الجيران لشرب القهوة، وحضور جلسات الصباح والمساء في مجلس الحاكم المحلي خارج سور المبنى الذي يشبه قلعة، ويسكن هو في داخله. كثير من سكان كاف والقرى حولها كانوا في السابق من سكان وسط الجزيرة العربية. الحاكم المحلي في هذا الوقت (وقت زيارتنا) خرج من بريدة قبل أربعين عامًا ليأتي هنا. كذلك القاضي المحلي كان من بريدة نفسها، حيث غادرها قبل خمسة عشر عامًا ساعيًا للراحة بالابتعاد عن سيطرة الوهابية كما أخبرني. ويوجد كثير من الناس هنا ممن جاؤوا من عنيزة وبلدان القصيم الأخرى. ولكن أحدث الواصلين، وهذا ربما تجدر الإشارة إليه، هو وجود عشرة أو اثني عشر شخصًا من المتحمسين الوهابيين الذين استقروا هنا بهدف نشر الإيمان الحقيقي. ولا يستطيع أحد هنا أن

يقول لهم لا. إنهم لم ينجحوا حتى الآن إلا في وقف عادة التدخين. لكنني لا أشك في أن سكان مستوطنات القريات، وفي الوقت المناسب، ومن ذاتهم سيدخلون في العقيدة الصافية، وتكون لهم طريقة حياة. وهذه العقيدة وبفخر هي ما يناسب صفاتهم ويتناسب مع متطلباتهم.

كان استقبالنا من قبل سلطات كاف استقبالاً وديًّا رغم أنه استقبال حذر. لقد كان اعتقادنا بأنه من الأفضل أن لا نُعلم أحدًا بقدومنا مسبقًا، والسيارة التي أرسلناها لتسبقنا لإعلان وصولنا عندما اقتربنا من كاف، كانت على مرأى منا. بكل تأكيد كانت تلك السيارة أول سيارة تدخل هذه الواحة - كانت الإشارة الأولى للحاكم عن زيارتنا. إن الحاكم الذي يحتفظ بوظيفته بإرادة نوري الشعلان لا شك أنه أرسل من يُخبر سيده بوصولنا، فهو لا يجرؤ على موافقتنا في الشؤون التي طلبنا أن يساعدنا بها. لم يسمح لنا الحاكم بزيارة الحصن الطبيعي الموجود على قمة مغطاة بالحمم البركانية - والمسمى قصر الصعيدي ـ، المشرف على الواحة. في هذا الحصن حامية صغيرة من الحرس تقارب خمسة وعشرين رجلًا مع أسلحتهم. إنه بشكل لافت للنظر، تدبير احتياطي صغير للدفاع عن هذه المحلة. إن كل طريق يؤدي إلى كاف موجه بواسطة هذه الربوة، وجميع الواصلين يُجبرون على التوقف بعد طلقة أو طلقتين من الحامية، ويتحركون وهم تحت رحمتهم حتى يُعرف الغرض من قدومهم. كما إنه لم يُسمح لنا بدخول قصر الحاكم الذي بُني قبل سنة واحدة عند قاع الهضبة المشار إليها آنفًا، ويعرف هذا القصر بقصر نوري. عدا هذه الأمور فإننا كنا إلى حد معقول أحرارًا لزيارة التلال المجاورة، حيث المنظر الجميل للمنطقة البازلتية والحمم البركانية إلى الشرق منها وقد صورناها، وسمح لنا بزيارة آبار الماء الوفيرة ذات الطبيعة الكبريتية التي توفر الماء للسكان وللنخيل. هذه الآبار قريبة من السطح، وري بساتين النخيل هنا أمر سهل.

كان من الأشياء التي أردنا مساعدة الحاكم فيها هي تزويدنا برحال ومرافقين لنواصل رحلتنا إلى الجوف. وهنا ربما ليس من الضروري رواية

التفاصيل التي تدعو للغضب لمفاوضاتنا مع السلطات المحلية إذ انتهت بضيافتنا ثلاثة أيام أكلًا ومقرًّا بلا مقابل، والفشل الكامل ورجوعنا إلى عمان. وللحقيقة فقد كان مرافقونا - مثقال باشا، الذي ذكرته سابقًا، وحديثة الخريشة[1] وهو شيخ مهم من شيوخ بني صخر، وغالب باشا الجنرال المتفاخر[2]، الذي خدم مع الأتراك في المدينة المنورة خلال الحرب [العالمية الأولى] الذي يعمل الآن عند الأمير عبدالله بن الحسين - لم يكن لديهم رغبة بزيارة الجوف التي عُرف أنها مركز نشاطات ابن سعود العسكرية، وأجهدوا أنفسهم إلى أقصى الحدود لإقناع الحاكم، بعدم إعطائنا أية تسهيلات. وفي الوقت نفسه، كانوا يأتون إلينا بقصص عن جهودهم البطولية، لكسب الحاكم بجانبنا. ولاختصار القصة؛ فقد فشلت جهودنا وقفلنا عائدين إلى عمان في الثامن عشر من شهر مارس ١٩٢٢، بعد مسيرة ثلاثة أيام.

الحدث الوحيد الذي يستحق الملاحظة هنا، هو لقاؤنا مع رجل معمر من بني صخر، يدعي أن عمره مئة وعشرون عامًا، وكان يذكر عندما كان شابًّا العمليات التي قام بها إبراهيم باشا في هذه المناطق خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي [التاسع عشر الميلادي]. ويقال بالمناسبة إن قرية كاف نفسها دُمرت في هذه العمليات.

أثارت تجربتنا خلال هذه الزيارة شهيتنا إلى ما هو أكثر، وكنا مصرين على السفر ثانية على ظهور الجمال لنكون أحرارًا إذا دعت الضرورة لخداع سلطات كاف.

بدأ الطالع يعاملنا بشكل أفضل من السابق، وبرضًا تام. فعند نهاية اليوم

---

(١) حديثة بن علي الخريشة(١٨٧٠-١٩٥٢) احد أبرز شيوخ عشائر الكعابنة الصخرية، عرف بمقاومته للسلطات التركية والفرنسية عند احتلالها سورية، ولعب ادوار مهمة في الحياة السياسية الأردنية.

(٢) غالب باشا الشعلان، أحد الضباط العرب في الجيش العثماني، عمل قائدًا لقوة الهجانة العثمانية في المدينة المنورة، التحق بخدمة الأمير عبدالله بن الحسين عند بدء تأسيس إمارة شرقي الأردن، شارك في الحكومتين الأولى والثانية في إمارة شرق الأردن(١٩٢١-١٩٢٢) بصفة مستشار القيادة العامة أي مسؤول الدفاع.

الأول من شهر أبريل ١٩٢٢ استلمنا رسائل من ممثلي نوري الشعلان في الجوف، سلطان بن نواف وابن عمه فرحان بن مشهور، يعبرون من خلالها عن أسفهم لعدم معرفتهم عن زيارتنا السابقة لكاف مسبقًا، ليتمكنوا من عمل الترتيبات اللازمة لإكمال رحلتنا، وتعبر هذه الرسائل عن أملهم بزيارتنا لهم في أقرب وقت.

لقد كنا في غير حاجة لدعوة ثانية، فكل شيء كان جاهزًا، الجمال والمرافقون، وفي اليوم الثاني من شهر مايو ١٩٢٢ اجتمعنا في خيمة مثقال باشا في المنشية قريبًا من خط سكة الحديد. وفي اليوم التالي وصلنا مخيم حديثة الخريشة قريبًا من الآثار الرومانية في الموقر على مسافة نحو واحد وعشرين ميلًا من عمان. هنا تم لقاؤنا برسل من كاف، جاؤوا ليرحبوا بنا، ولمساعدتنا بكل الوسائل.

انطلقنا صباح اليوم الرابع من شهر مايو بكل قوة باتجاه المعلم البارز قصر الخرانة[١]، وهو نموذج لقصور الصيد الأموية. في مساء ذلك اليوم وجدنا أنفسنا نخيم في شعيب الشومري الذي هو عبارة عن قناة تصريف قليلة العمق تتجه شرقًا من مجمع أمطار الموقر باتجاه وادي السرحان. في اليوم التالي وصلنا إلى آبار العمري عند الحد الشرقي لمنخفض وادي السرحان، حيث قضينا الليلة مع فرع من فروع قبيلة الرولة. في اليوم السادس من شهر مايو رأينا كاف مرة أخرى، وتم استقبالنا استقبالًا حارًّا من قبل ما لا يقل عن ستة أشخاص من أعضاء عائلة نوري الشعلان. أهمُّ هؤلاء، كان مجحم الشعلان[٢] وفرحان بن مشهور الشعلان[٣] وفراج بن شعلان.

---

(١) هو قصر الحرانة وهو قصر أموي أثري يقع في الصحراء الأردنية، ويقع على مسافة خمسة وستين كيلًا شرق عمان، وسمي بقصر الحرانة كونه يقع في وادي الحرانة، يطلق عليه البعض قصر الخرانة.

(٢) مجحم بن محمد بن هزاع الشعلان ابن شقيق الشيخ النوري الشعلان.

(٣) فرحان بن فهد بن برجس المشهور الشعلان، وهو أحد شيوخ قبيلة الرولة وفرسانها ومن المقربين للشيخ النوري الشعلان، التحق بعد سنة ١٩٢٥ مع بعض رجال قبيلته بحركة الأخوان، واشتهر أمره كأكثرهم تطرفًا وقسوة في غزواته في منطقة الجوف وشرقي الأردن ونجد والكويت وحدود =

لقد تناولنا الأكل كأمر طبيعي مع مضيفينا في فناء قصر النوري مع أننا كنا في شهر رمضان الأمر الذي جعلنا نقتات على قليل من الطعام خلال النهار رغم أن الضيف المسافر في نجد لا يُسمح له أن يشعر بأن مضيفيه صائمون بسبب ما يلقاه من معاملة (بمعنى أنهم يقومون بواجبهم كاملًا حتى ولو كانوا صائمين).

إن هذا الأمر ليس هو الأمر الوحيد الذي خيبنا في مضيفينا. فمن هذه اللحظة وصاعدًا، وعلى الرغم من أنه يمكننا الآن النظر إلى الوراء مع قناعة بالإنجاز الناجح لرحلتنا وتحقيقنا لأهدافنا الرئيسة، وبأكثر من توقعاتنا المعقولة، فإن قصة تعاملنا مع أفراد عائلة الشعلان كانت قصة مشاحنات وخيبات أمل، وشجار ورشوة، وتعنيف ومداهنات وخداع.

دون أي خجل أو رياء يمكننا الاعتراف بفرحتنا عندما علمنا أنه خلال شهر من مغادرتنا الجوف أسقطت هذه العائلة على يد ابن سعود. لقد كانوا ممقوتين من شعبهم الذي عاملوه بقسوة وغطرسة. ومن خلال تجربتنا الشخصية نستطيع إثبات عدم كفاءتهم حتى لتصنيفهم ضمن العرب. وهم كأمراء للأراضي الحدودية للجزيرة العربية، تاجروا لمدد طويلة مع سورية، وشربوا كثيرًا من نهر الذهب الذي سكبناه خلال الحرب للاحتفاظ بالفضائل البدوية التي هم وارثوها بالدم(١).

كانت أخبار منطقة الجوف التي حصلنا عليها من مضيفينا بعيدة عن التأكيد أو الاطمئنان منها. حمد ابن مويشير، الذي سبق ذكره، تم العفو عنه وأعيدت إليه ممتلكاته. ويعكس هذا الفعل الموقف الضعيف لابن شعلان وسيؤدي بالتالي إلى خرابهم. إن حمدًا الذي احتفظ بشعور الاستياء والغضب بدلًا من الشعور بالتقدير لمعاملته اللينة لم يضع أي وقت في إثارة الغضب مرة أخرى. فقد تهرب من تنفيذ أمر للنوري بنزع سلاح الناس في سكاكة والجوف،

= العراق، وبقي متمردًا حتى نهاية عهد حركة الأخوان سنة ١٩٢٩. لجأ إلى العراق، وتوفي سنة ١٩٣٥.

(١) عُرف عن فيلبي حدة طبعه وسرعة غضبه، وفي الوقت نفسه كان دائمًا ينتظر أن يكون الآخرين في طوعه، لذلك لا ينبغي أن تؤخذ أحكامه على أنها أحكام صائبة.

وتم اتهامه بأنه أخفى مخزونًا كبيرًا من الأسلحة والذخيرة تحت أرض منزله. لقد طُلب منه تسليم أسلحته وأن يخضع للعقاب، لكنه رفع مستوى التمرد باسم ابن سعود والدعوة الوهابية، وتحصن هو والعدد الكبير[1] من جماعته خلف جدران بساتينه وقلعته في غرب واحة سكاكة. هذا الأمر، حصل بالفعل قبل عشرة أيام من وصولنا إلى كاف. أما سلطان بن نواف الذي احتل القرى الشرقية من الواحة، فسوف يحاصر المتمردين حتى يتم إخضاعهم. أما الجوف نفسها فقد كانت موالية له ويحكمها مملوك لسلطان، اسمه دوجان، والأهالي فيها يترقبون نتيجة الأحداث. سارع كل من مجحم الشعلان وفرحان الشعلان لملاقاتنا، وكان باعتقادهم أنهم سيحصلون على مساعدتنا في سبيل قضية ابن شعلان. لقد كان مجحم وأتباعه يفكرون بما مضى، يفكرون بأيام الحرب العالمية الأولى أكثر من المستقبل والمصير الذي ينتظرهم. كما أنهم كانوا يتخيلون أننا قادمون لنبذر صحراءهم بالذهب، ولنضع مصادر الإمبراطورية البريطانية تحت تصرفهم. لقد وافقوا على أخذنا إلى الجوف بشرط أن نرسل طائرات وسيارات مسلحة لدعم البعثة. وأكدنا لهم أننا لا نستطيع بأي من الأحوال أن نبدأ عملًا عسكريًّا حتى نتحقق ونختبر الحالة في الجوف على الطبيعة، ونقنع أنفسنا بصلاحية الطرق التي سنعبرها للمواصلات الميكانيكية، وأننا تواقون لاختبار إمكانات إنشاء خط حديدي في منطقتهم، وأن المهندس الخبير ضمن فريقنا. كان مجحم الشعلان أرفع أعضاء العائلة الموجودين معنا رغم أن فرحان كان في الواقع هو الشخص المسمى من قبل النوري لهذه المهمة. مع أي منهما، لو كان وحيدًا، كان يمكن أن نكون قادرين على عمل صفقة من خلال الرشوة أو على الأقل استخدام واحد ضد الآخر بثمن هو عبارة عن وعد مكتوب بأنه شخصيًّا سينال نصيبًا من المعونة الكبيرة التي يتخيلون أن حكومة صاحبة الجلالة ستمنحها إياهم جماعيًّا وبشكل دائم. لكن المناقشات وصلت إلى مأزق وحول الأمر إلى النوري ليأمر بما يراه. وكان مخيمًا على مسافة مسير يومين، باتجاه الشمال في تخوم سورية.

---

(١) قدرهم فيلبي في تقريره إلى رؤسائه بأربعين رجلًا.

لقد صبرنا برباطة جأش خلال الأيام الأربعة التي غابها مجحم لينقل رسالتنا إلى النوري بنفسه. عاد مجحم إلينا حاملًا موافقة النوري على ذهابنا إلى الجوف، مع رسالة تفويض لمجحم بالاستمرار في مفاوضتنا بدلًا من فرحان. لقد سعدت بالسخرية من فرحان لفشله في الحصول على دعمنا وخسارته لوظيفته، لكن للاعتقاد بأنه يمكن أن يكون مفيدًا لنا أكثر من مجحم، وعدته بأن أجعل الوضع يكون لمصلحته إذا كان يريد مرافقتنا للجوف، ويخدمنا بأمانة، وهذا ما تم ترتيبه وكل واحد منا كان بمزاج حسن.

وفي مساء اليوم الثالث عشر من شهر مايو غادرنا كاف لنقضي يومًا في مخيم مجحم في قرية منوة، التي تقع على مسافة ستة أميال، وبالقرب من القرية الثانية من حيث الحجم، ضمن مستوطنات القريات، أي إثرة. هنا وفي سهل كبير رأينا مئات من بيوت الشعر السوداء للرولة، وكذلك بيوت الشعر البنية اللون الخاصة بالشرارات وهم قبيلة كبيرة ومعروفة لكن مكانتها أقل في مقياس المجتمع البدوي.

هنا أيضًا شاهدنا آلافًا من إبل الرولة عند عين ماء منوة، حيث قضينا اليوم الرابع عشر من شهر مايو بكامله في رحلة قصيرة إلى فوهة بركانية في جبل مقال باتجاه الشمال، التي من قمتها استطعنا مشاهدة منظر رائع لمنطقة الحمم البركانية من حولنا.

تناولنا الغداء في قرية إثرة في طريق عودتنا من رحلتنا، وهناك رأينا بقايا مبنى من حجر البازلت عليه نقوش وأرقام بارزة، لكنها غير واضحة بشكل جيد. كما رأينا بعض المستوطنات الصغيرة في الجوار، هي مستوطنات الوشواش وقرقر. إن سمات جميع هذه القرى، هي بساتين النخيل، البيوت الطينية المتداعية، وفرة الملح والماء الكبريتي. ماء إثرة بشكل خاص وافر ويجري من ينابيع.

لقد تحددت بداية انطلاقتنا إلى الجوف في اليوم الخامس عشر من شهر مايو، وكان علينا المرور بتجربة جديدة تعبر لنا عن حقيقة مضيفينا.

في الليلة السابقة أي ليلة اليوم الرابع عشر من مايو بينما كنا نستعد للنوم

للانطلاقة المبكرة في الغد، ظهر مججم مع كاتبه وأخرج نسخة «لاتفاقية»، شرحها لنا وطلب توقيعها إذا أردنا المغادرة. وبما أن النقاش سيقود فقط للتأخير، وبما أنني أعرف بشكل مؤكد أن «اتفاقية منوة»[1] التي لا أرى أن الكشف عن بنودها أمر ضروري، سوف لن تُرضي الحكومة الملكية البريطانية. لم أكن مع ذلك في المزاج أو الموقف الذي يراعي تفاصيل الإجراء الدبلوماسي فوقعت على هذه الاتفاقية. وكان من حسن الحظ توقيعها كما سيتبين لاحقًا. رفضت الحكومة البريطانية الاعتراف بها بل وأنكرتها كما ينبغي، لكن ذلك تم بعد أن انتهى بيت الشعلان كقوة مستقلة. أما نحن فقد حققنا بسببها زيارة الجوف دون أن ندفع رشاوى، بل حفظتنا من ألم وجودنا في وسط معركة منوة، التي وقعت خلال ستة وثلاثين ساعة من توقيع الاتفاقية. في هذه المعركة أحسن مججم وعائلته معاملة الضيوف الجدد بالتصرف الشجاع في أرض المعركة ضد الأخوان[2] الذين وقعوا عليهم دون سابق إنذار صباح السادس عشر من شهر مايو. لقد هزموا الأخوان الوهابيين هزيمة موجعة وألقوا القبض على قائدهم ومن كان معه.

في صباح اليوم الخامس عشر من مايو استبدل فرحان، الذي كان مفترضًا أن يرافقنا بفراج الذي كانت لديه تعليمات مبطنة لأخذنا إلى الجوف وإرجاعنا إلى مججم دون تأخير. انطلقنا إلى الجوف متبعين طريقًا يقع باتجاه الجنوب عبر منطقة وعرة في أرض القريات. قادنا هذا الطريق إلى عبور شعيب

---

(١) تضمنت هذه الاتفاقية الموقعة بتاريخ ١٧ رمضان ١٣٤٠هـ/ ١٤ مايو ١٩٢٢ أربعة مواد، أهمها المادة الأولى، التي يشير فيلبي في تقريره حول الاتفاقية أنه وضعها بنفسه، وتنص على اتفاق الطرفين على إلحاق منطقة الجوف بشرقي الأردن.

(٢) الأخوان أو الأخوان الوهابيين كما اصطلح على تسميتهم في الغرب أو حركة الأخوان، هي حركة بدوية شبه عسكرية متشددة عقديًا بدئ بتأسيسها سنة ١٩١٢ مع مشروع الملك عبدالعزيز لتوطين القبائل الرحل في هجر وتشجيعهم على الاستقرار والتحضر والتفقه في الدين. لعبت هذه الحركة أدوارًا مهمة في عملية توحيد المملكة العربية السعودية وبسط نفوذ الدولة إلا إن تشدد رؤيتها وصعوبة تكيفها مع مفهوم الدولة الحديثة ومتطلباتها وطموحات قادتها أدى بها إلى المواجهة مع سلطة الدولة، فقضي عليها عسكريًا سنة ١٩٢٩. حول هذه الحركة، انظر:

John S. Habib, **Ibn Saud's Warriors of Islam** (Leiden: E. J. Brill, 1978).

«عقيق الملح»، ومنه إلى منخفض وادي السرحان مرة أخرى، فاتجهنا جنوبًا وجنوب غرب إلى آبار وبيوت ومزارع غطي المتهدمة، حيث يوجد مخيم كبير لقبيلة لشرارات. تعالت بعض أصوات مرافقينا بطلب قضاء الليلة هنا، بينما كنا نحن نصر على الاستمرار في مسيرتنا حتى الوصول إلى ماء البيضاء على مسافة تتراوح بين عشرة واثنا عشر ميلًا بخط مستقيم.

لحسن الحظ، لم ينتصر أي من الرأيين إذ كان قادتنا متلهفين وبعصبية للمسير بسبب تقارير غامضة عن بعض النشاطات الوهابية في المنطقة، وفي الأخير اتفقوا على الاتجاه شرقًا إلى آبار قراقر، وهي موضع مهجور في نطاق المنطقة التلالية إلى الشرق من وادي السرحان، حيث قضينا الليلة هناك. في تلك الليلة، خيمت قوة كبيرة من الوهابيين عند ماء البيضاء. في اليوم التالي وعند شروق الشمس أبادوا الشرارات في مخيم غطي، ثم اتجهوا إلى منوة، حيث تمت هزيمتهم في معركة منوة بواسطة مجحم ورجاله.

وهكذا من خلال سلسلة مصادفات حسن الطالع تجنبنا عددًا من الكوارث. استمرت مسيرتنا إلى الجوف ونحن لحسن الحظ جاهلون بالمصائب التي حصلت وراءنا، ولم نتمكن من معرفة الأخبار إلا بعد وصولنا بسلام إلى الجوف.

لقد جاء الأخوان الوهابيون من أعماق وسط الجزيرة على مسافة سبع مئة أو ثمان مئة ميل ملتفين على الجناح أو الجانب الغربي للنفود الكبير. بينما يستحيل القول: ما الرقم الحقيقي لهذه القوة؟ - ربما خمس مئة أو ست مئة رجل في مجملهم - ما يقارب مائتين منهم هلكوا في منوة - ومصير المتبقين غير معروف، إنه لمثير حقًا عدم رؤيتنا أي دليل على تراجعهم في طريقنا، الأمر الذي يعني أنهم كانوا يسيرون أسرع منا. وأيضًا ليس من المستبعد أن تكون أغلبيتهم قد ضلت الطريق فهلكوا من العطش. إن هذا الحدث كان الإنذار الأول لنا باقتراب التهديد الوهابي إلى حدود شرق الأردن.

كان هدفنا عندما غادرنا منوة، المسير إلى أبعد مكان ممكن في منخفض وادي السرحان بقصد اكتشاف خط مناسب لسكة الحديد أو تطوير طريق في

حالة الحاجة. ولكن خوف مرافقينا، أخرجنا من الوادي إلى منطقة كثيرة التلال في الشرق. وعند قراقر ورغم أننا بالفعل سرنا ما يقارب اثني عشر ميلًا إلا أننا لم نكن قد ابتعدنا عن منوة لأكثر من أحد عشر إلى اثنا عشر ميلًا في خط مستقيم. في صباح اليوم التالي ألححْنا على الرجوع إلى الوادي، لكن لاشيء كان يمكنه أن يقنع مرافقينا بالموافقة على ذلك. لذلك فقد وجب أن نقنع أنفسنا بالنتيجة السلبية، وهي أن المنطقة التي سرنا بها وهي تقارب ثلاثين ميلًا خلال النهار مجردة من أية إمكانية لسكة حديد أو طريق بري. فالروابي والتلال البازلتية تتتابع وراء بعضها الآخر بانتظام غريب. قضينا تلك الليلة بالقرب من قمة بركانية تدعى «بريك» ومن قمتها تمتعنا بمشهد رائع للمنطقة. ليس ببعيد عن هذه النقطة وباتجاه الجنوب تنتهي منطقة الحمم البركانية. وخلال مسيرنا في اليوم التالي كان المستنقع الملحي لنقرة حضوضى الواسع والباهر إلى يميننا في الوادي. ووصلنا بعد مسير نحو خمسة عشر ميلًا لنستقي عند آبار كثيرة ومتفرقة حول حوض واسع من الحجر الجيري هي آبار «معاصر»، التي يوجد بها الماء عند مستوى سطح الأرض في شقوق الصخر. أما المستنقع الملحي الواقع في مستوى أخفض من الحوض فيمتد عدة أميال شمالًا وجنوبًا، وهو نوع من المستنقعات تبرز في وسط طبقة بازلتية تجعلها كالجزيرة التي لا يمكن الوصول إليها. الأمر الذي جعل الخيال العربي يعتقد أنها تحتوي على كنز ثمين. والمحاولات للوصول إليه كانت سببًا لعدة حالات موت في ذلك المستنقع النادر.

كان هدفنا الثاني هو الوصول إلى ماء النبك أبو قصر والمسمى بهذا الاسم لوجود بقايا حصن مبني بالطين، ويمكن رؤيته حتى الآن عند حد حوض دائري في نطاقه عدد من الآبار ذات عمق ثمانية عشر قدمًا. المسافة بين معاصر والنبك أبو قصر كانت تقارب خمسة وثلاثين ميلًا عبرناها فوق سهل من الحجر الجيري، سطحه على درجة جيدة من الصلابة، وفيه رأينا مسارات النعام تلك المخلوقات التي لسوء الحظ لم نرها (عدا بعض منها شاهدناه بالجوف وهي أسيرة) في البرية خلال كامل أيام رحلتنا.يقع نبك أبو قصر على طرف وادي السرحان ويحتوي على عدد كبير من أماكن الماء في هذا

القسم منه. تقدمنا باتجاه الضفة الشرقية من هذا المنخفض عبر الكثبان الرملية التي كما يظهر تمتد على طول الطريق عبر الوادي. بعد أن تم عبورنا هذه الكثبان وصلنا في ليلة الثامن عشر من شهر مايو إلى «وادي معارك»، وهو رافد من روافد وادي السرحان يأتي من المنطقة المرتفعة الواقعة إلى الشرق.

في اليوم التالي سرنا باتجاه الشرق بعيدًا عن منخفض وادي السرحان صاعدين في نطاق من الأرض المرتفعة، حيث واجهتنا مغامرة بسيطة. فبينما كنا عند تلة واقعة في طريقنا لاحظ قادتنا ثلاثة من راكبي الجمال فطاردوهم. فر هؤلاء الثلاثة في الحال بسرعة وهربوا بأمان. إن كل إنسان يشاهد في الصحراء يُعدُّ عدوًّا. والفريق الضعيف يتوجب عليه العمل بأقصى قدرته للهروب إذا أراد الحياة.

وصلنا قوسًا مرتفعًا من الأرض في آخر المساء، ونظرنا عبر السهل الواسع تحتنا إلى الرمال الحمراء الذهبية لشمال النفود الكبير، عاكسة لأشعة غروب الشمس خلفنا. لمئة ميل أو أكثر تمتد هذه الكتل الرملية باتجاه الجنوب إلى الحافة الشمالية إلى منطقة شمر التي تنتهي حدودها الجنوبية عند بلدة قصيباء[١] في القصيم، وقد زرتها سنة ١٩١٨. أما في السهل أمامنا، حيث تبرز للسطح حجارة رملية من تحت الأحجار الكلسية للمنطقة التي خلفناها وراءنا، فيقع المنخفض الواسع للجوبة ومستوطناتها المزدهرة، الجوف وسكاكة والقرى التابعة لهما. لكن وبما أننا كنا متأخرين الآن كان علينا أن نتخلى عن مخططنا بدخول الجوف وتأجيله حتى الغد، لذلك أقمنا مخيمنا عند حافة السهل.

يقال إن منخفض الجوبة كان بحرًا قديمًا، أو خليجًا محاطًا بالصخور الكلسية، وما هو كما يظهر لي إلا جزء من أرض غمرتها من الشمال مياه البحر في العصر الطباشيري (Cretaceous Period)[٢]. فالصخور الرملية لهذه البقعة مثلها مثل البتراء والمناطق المجاورة لتلال تبوك توجد تحت الصخور الكلسية. أما سبب وقوع هذا المنخفض في مستوى أكثر انخفاضًا من مستوى الصخور

---

(١) تقع شمال مدينة بريدة عاصمة منطقة القصيم بسبعين كيلًا تقريبًا.

(٢) من ١٣٥ إلى ٢٣ مليون سنة.

الكلسية الطباشيرية، كما يبدو، فلأن الصخور الرملية تهرأت مع الزمن بسرعة لتعرضها لعوامل الجو أكثر من طبقة الصوان (حجر الصوان) في منطقة الصخور الكلسية. أما وادي السرحان فرغم أنه يظهر على الخارطة مرتبطًا بمنخفض الجوبة إلا أنه وبوضوح لا يوجد ارتباط جيولوجي معه. فالمستحثات (بقايا حيوانات أو نباتات من عصور سابقة متحجرة) التي أحضرتها إلى الوطن من هذه المنطقة تشير إلى أن الضفة الغربية للوادي من العصر الباليوسيني (Paleocene Period)[١] أما الوسط والحافة الشرقية فهي من العصر الفجري(Period Eocene)[٢]. إن منطقة غرب الصحراء وشمال خط عرض البتراء - الجوف - تعود إلى العصر الطباشيري؛ بينما شرق البقعة البركانية فإنه من المحتمل أن تكون ذات أصل أحدث بالمقارنة، لأنها تقع على صخور تشبه الصخور الفجرية للوادي. جنوب النفود الشمالي والكبير ومنطقة شمر بجبالها الجرانيتية أو الصوانية تصل إلى الطبقات الجورسية لنجد. الصخور الرملية لمنطقة الجوف - تبوك البتراء من المحتمل على هذا الأساس أن تكون طباشيرية مبكرة أو بكل الأحوال متوسطة بين الصخور الكلسية العائدة إلى العصر الطباشيري والعصر الجورسي (Jurassic Period)[٣]. لكنني آسف، لأن كل جهودي للحصول على بقايا لحيوانات أو نباتات متحجرة في منطقة الصخور الرملية كانت دون جدوى. استيقظنا صباح يوم العشرين من شهر مايو مبكرًا للمسير إلى الجوف التي تبعد عنا عشرين ميلًا.

كان تمرد ابن مويشير قد بدأ قبل ثلاثة أسابيع، وأي شيء كان يمكن حصوله في المدة الفاصلة، لذلك أخذنا الاحتياط بإرسال رسل خلال الليل لاستكشاف الأرض. لقد قابلونا قبل عدة أميال من وصولنا إلى الواحة ومعهم الأخبار بأن كل شيء مازال جيدًا رغم أن المتمردين اليائسين من الاحتفاظ

---

(١) من ٦٥ إلى ٥٥ مليون سنة.

(٢) من ٥٦ إلى ٣٤ مليون سنة.

(٣) من ١٨١ إلى ١٣٥ مليون سنة.

بسكاكة لوقت غير محدود، أرسلوا وفدًا إلى ابن سعود لطلب مساعدته. أما الجوف فمازالت موالية منتظرة نتيجة تمرد سكاكة.

خلال وقت قصير، كنا على حافة المنخفض، متحدرين إليه عبر طريق وعر. الجوف نفسها لا ترى من هنا، لكن وخلال لحظات أتينا إلى سور البلدة القديم المبني بالحجر، وكان في السابق يحيط بالواحة كلها، لكنه الآن قائم على شكل قطع جدارية منفصلة عن بعضها. وفي الحال؛ كنا نشق طريقنا عبر الأزقة المتعرِّجة ووسط حقول النخيل مع وجود مجموعات من المساكن المتهدمة وحقول النخيل المهجورة التي أشار إليها فراج بفخر بأن ذلك كان نتيجة للعمليات التي قادت لاحتلال الشعلان للجوف سنة ١٩٠٨-١٩٠٩. خطوات عديدة أوصلتنا إلى وسط الواحة، حيث كنا سريعًا نترجل عن رواحلنا أمام أسوار الحصن القديم الرائع، قصر مارد. وفي الحي الواقع أسفل هذا القصر أعطانا المملوك دوجان عامل المكان غرفًا لنسكنها. كان دوجان واحدًا من الشخصيات الأكثر جاذبية ممن قابلتهم في البلاد العربية، فقد كان شديد التدين ومياًلا للمبادئ الوهابية، وأمينًا في خدمته لعائلة الشعلان. وكان متساهلًا مع العاملين معه وبشكل فائق للعادة، وصريحًا في نقده للسياسة غير الحكيمة والمؤدية بسرعة للنهاية السياسية للشعلان. وقد أثار اهتمامي بجانبين، الأول أنه واحد من العرب القلائل الذين أعرفهم وكان من الصعب إقناعه بقبول هدية نقدية مقابل ضيافته. لكنه في الليلة التي سبقت مغادرتنا لسكاكة أتى إليّ سائلًا عن قوة بودرة الزرنيخ التي رآها معي، حيث كنت أستخدمها في عملية حفظ الطيور من التحلل بعد صيدها، لأخذها للدراسة في الغرب. كان سؤاله عن الكمية الكافية لقتل رجل؟ لقد أجبته عن سؤاله بأحسن ما أستطيع، لكن كان عليّ أن أرفض طلبه بشكل قاطع، متسائلًا عمن هم الذين كان سيستخدمه معهم لو كنت أكثر تساهلًا.

لقد استمرت إقامتنا في الجوف ثلاثة أيام وخلالها كان لدينا فرص كافية لرؤية كل شيء يمكن رؤيته، ولكن هذه المحلة قيل عنها الكثير في السابق، فقد تحدث عنها الرحالة الذين سبقوني. - بلغريف - ليدي آن وزوجها ويلفرد بلنت

- غوارماني - أيلمر، وبتلر، وشكسبير، وغيرهم لذلك لا يحتاج الأمر لوصف تفصيلي من قبلي، ولكن بعض الصور للواحة وما تحتويه ستكفي. ولكنني أحتاج فقط لذكر قلعة قصر مارد العظيمة التي تعود إلى القرون الوسطى، المبنية على هضبة عالية مع أبراجها المبنية حديثًا بالطين في مكان الأبراج الحجرية السابقة، وكذلك عيون الماء الغزيرة، التي توفر الجداول الجارية لري الواحة، وكذلك آثار الحي الأوسط للسوق، وسوق الحطاب الذي يظهر أنه يعود إلى عهد مارد نفسها. المنازل مبنية بقطع من الحجارة دون ملاط. وأنواع الرخام الأحمر وافر في المنطقة، ومنه يصنعون الهاون (النجر). لا يوجد بلدة بالمعنى الدقيق، ولكن السكان الذين يبلغون خمسة آلاف نسمة موزعون على عدد من الأحياء تفوق اثني عشر حيًّا. القلعة القديمة، التي تقع في النهاية الشرقية للواحة بنيت وسكنت من قبل حكام الرشيد، كانت خرابًا. الوضع العام لكل المكان في حالة وهن واختلال.

عند وصولنا إلى الجوف، استلمنا دعوة من سلطان بن نواف الشعلان لزيارته في سكاكة، الأمر الذي جعلنا نعتقد بأن كل الصعوبات والمشاكل انتهت، لكن كان علينا الحساب لفراج. فخلال الرحلة لم يتردد في عدم تنفيذ ما وعدنا به قبل الرحلة، بل وشجع التابعين له لفعل الشيء نفسه، وبالطبع دون نجاح. لقد بدأ فراج يلعب أوراقه بقوة الآن. لقد كنا تواقين إلى زيارة سكاكة، وبما أننا نعرف أنه لن يُسمح لنا بالعودة عن طريق منخفض وادي السرحان لمخاطره الحقيقية، أو المتخيلة، بدأنا نفكر بخيار العودة عن طريق العراق. وعبر هذا الطريق، غير المباشر، يظهر أننا سنصيد عصفورين بحجر واحد؛ فأولًا الطريق آمن، وثانيًا سيتمكن الميجور هولت من اغتنام الفرصة لإنهاء استطلاعه لإمكانية إقامة خط سكة حديد. قدم فراج لنا بعض الآمال بمساعدتنا في هذا المشروع (السفر عن طريق العراق) مقابل مكافأة. ولأختصر القصة سألني فراج عما سأدفعه بصراحة، وأجبته بصراحة أيضًا مئة جنيه عند الوصول إلى النجف أو كربلاء، لكنه أصر على أكثر، فرفضت. كان دوجان قد أصر على أنه ينبغي السماح لنا بزيارة سلطان في سكاكة.

في صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر مايو، بدأنا رحلتنا إلى سكاكة برفقة فراج ومرافقوه، لكن كمتابعين أكثر من كونهم مرافقين. وكانوا يطلقون التهديدات بالانتقام، وقد همس بقوله: «اذهب إلى بغداد وحدك وعلى مسؤوليتك، لكن من يذهب دون إذن سماح له فسأحرض عليه جميع الرولة، إنني مكلف من مجحم بأن أدعك ترى الجوف، وأن أعود بك مباشرة، لذلك عندك يوم واحد في سكاكة، وسترجعون جميعًا معي». دفعنا أسلوبه الحاقد إلى الحيلة والخداع. لقد عنفته على هذه المعاملة للضيوف، وأعلمته أننا متحررون من التزامنا معه، وسنضع أنفسنا بين يدي سلطان في أول لحظة نصل بها إلى سكاكة، وعندها لن نحتاج إلى خدماته.

كانت مسيرتنا إلى سكاكة بمحاذاة امتداد سلسلة من الجبال ذات الحجر الرملي، مع كتل من الرمال عن يميننا حتى وصلنا إلى واحة قارة، بعد أن عبرنا بقعة من الصخور الرملية الكثيفة التي تغير لونها لتصبح سوداء. قارة واحة مستطيلة تقع في منبسط من التربة الطينية، سرنا عليه بعيدًا عن الواحة التي كنا غير متأكدين من حالتها. عندما كنا على وشك الابتعاد عنها، أصابنا الرعب فلقد أطلقت بندقية طلقة نحونا. وبما أنه لا يوجد أي غطاء من أي نوع اندفعنا إلى الأمام. لم تُعَد الطلقة، وبقينا نحن كما ينبغي، حتى وصلنا إلى كثبان الرمال المتكتلة الواقعة بين قارة وسكاكة. طريقنا العادي كان سيكون على امتداد السهل إلى الواحة الصغيرة المسماة الطوير، ومنها إلى الطرف الغربي لسكاكة. وبما أن المناطق التي يسيطر عليها المتمردون تقع في هذا الجزء من الواحة، لذا فضلنا أن نتوجه مباشرة إلى الطرف الشرقي عبر هذه التلال الرملية.

خلف هذه البقعة الرملية دخلنا إلى سهل منبسط كبير، فبدت الواحة وبكامل طولها أمامنا. وبينما نحن نتقدم أحسسنا بوجود مجموعة من الفرسان يعدون بسرعة نحونا. أعطيت الأمر بتجهيز البنادق، وتقدمنا حتى وصلنا إلى الفرسان الذين أطلقوا طلقة ترحيب بعد أن تأكدوا منا، ورددنا التحية بمثلها. دخلنا الطرف الشرقي لسكاكة خلال نصف الساعة، واتجهنا بجمالنا إلى أمام

باب منزل عادي اتخذه سلطان وأتباعه المقربون مقرًّا لإدارة حصار المتمردين، أما القلعة في آخر الواحة، فكان بها حامية من العبيد.

حال دخولنا مجلس القهوة تعارفنا مع سلطان، وكان مجرد طفل ربما يبلغ من العمر أربع عشرة سنة، لكنه كان وبوضوح قد أتقن دوره كحاكم وقائد للقوات. أعطانا سلطان وابن عمه بندر انطباعًا أفضل من ذلك الذي أخذناه عن الآخرين من أعضاء أسرته ممن قابلنا حتى الآن، لكن إدارة الحصار كانت مهزلة يرثى لها. كان عدد المحاصرين سبعة وخمسين رجلًا كما أُخبرنا، بينما السكان يصلون إلى ثمانية آلاف نسمة، لكن سلطانًا لا يستطيع الاعتماد بشكل كامل إلا على الحامية الصغيرة من العبيد، الذين في الحصن، وبعض المرتزقة، بينما باقي السكان كانوا مصدرًا لقلق دائم، لأنهم سيغيرون ولاءهم الاسمي عند أول إشارة تفيد بوصول مساعدة من ابن سعود للمتمردين. وبانتظار وصول أخبار مؤكدة من نجد؛ فإنهم محافظون على نوع من الولاء والحماس الاسمي لسلطان، وذلك مقابل البنادق والذخيرة، التي ربما وفي أية لحظة ترتد عليه، الأمر الذي يؤكد أن سلطانًا كان يلعب بالنار. نحن الآن في رمضان، وكان هناك نوع من التفاهم غير المعلن بين المتحاربين بحصر القتال في مدة الليل، عندما لا يميزون بين صديق وعدو، ولا يستطيعون رؤية بعضهم بعضًا. يقع أحيانًا بعض الضحايا، فخلال إقامتنا ربما قُتل اثنان أو ثلاثة من بين المحاصرين. في كل مناسبة من هذه المناسبات يقوم الجيش الموالي لسلطان، الذي يتراوح عدده بين مئتين وثلاث مئة رجل، بالاستعراض أمام مقر سلطان لإبهاجه برقصة حرب مع ألحان عسكرية لعدد من الطبول، وعلى شكل حلقات يلوح الراقصون ببنادقهم المعبأة بالرصاص ومسدساتهم وسيوفهم، ويطلقون النار دون تفكير بالاتجاه أو بالتكلفة، وكانت ترفع رايات سكاكة ورايات الوهابيين دون تحيز. كانت تجرى هذه الاستعراضات عدة مرات، نهارًا وليلًا، خلال أيام زيارتنا، وكان من المفترض أن نحضر هذه الاحتفالات ونتمتع بذلك الضجيج. هذه الاستعراضات كان يمكن أن تكون مسلية لو كانت الذخيرة المستخدمة دون رصاص حي، لكن إطلاق الرصاص، بشكل عشوائي وغالبًا على مسافة قليلة

من أقدام المتفرجين، جعل هذه المشاهد خطيرة. ومن الأعاجيب بالنسبة لي عدم وقوع أية حادثة.

لقد رأينا ما فيه الكفاية من سكاكة بعد يوم أو يومين، ولكن فراجًا كان عقبة للتقدم شرقًا نحو الهلال الخصيب، الذي كنا مصرين عليه مهما كلفنا ذلك. كان سلطان راغبًا بتسوية الأمر، ولكن فراجًا أخبره بأن النوري بوضوح حرم هذه المغامرة، ولم يكن سلطان قويًّا للدرجة التي يأخذ بها زمام الأمور بيديه.

في الليلة الثالثة لإقامتنا، وصلنا إلى تسوية تقضي بأن يؤخذ الأمر إلى النوري لحسمه وإصدار أوامره. كان النوري وقتئذٍ مخيمًا على مسافة رحلة ستة أيام. استعد فراج أن ينقل الرسالة بنفسه، وأن يعود في ثمانية أيام، وكان علينا الانتظار حتى عودته. وحسب التفاهم، فإننا أحرار بعد هذه المدة لننطلق دون ضجة إذا لم يعد فراج برد النوري خلال هذه الأيام.

كان علينا أن نكون قانعين بهذه الترتيبات وسعداء بالتخلص من فراج، وقد عملنا أقصى ما يمكن لاستغلال الوقت. استطعنا رؤية الواحة ومحيطها القريب، وكنا آملين، معظم الوقت، أن لا تصل قوات ابن سعود لتقوية المتمردين قبل مغادرتنا. وقد كنا مقتنعين بأن فراجًا لا يستطيع أن يصل برد النوري في الوقت المحدد. وقد تأكد هذا الاقتناع لاحقًا؛ ومن المحتمل عدم وجود الرغبة عنده بالعودة.

بلدة سكاكة كبلدة الجوف ليست بلدة واحدة، بل تتكون من منطقة كبيرة لحقول النخيل موزعة هنا وهناك، وعلى قرى أو أحياء جميلة. وكل قرية أو حي مسكون بواحدة من العائلات أو من وحدات عائلية مختلفة تشكل مجموع السكان البالغ عددهم ثمانية آلاف نسمة. لقد حلت سكاكة محل الجوف كعاصمة سياسية وتجارية لمنطقة الجوبة. ويظهر أنها على اتصال تجاري متواصل مع منطقة الهلال الخصيب التي تستورد منها معظم حاجياتها من السلع، كالرز والقهوة والشاي والسكر، وهي السلع الأساسية للاستيراد. تقع الواحة وبشكل رائع في نطاق ما يشبه الدائرة لمرتفعات من

الصخور الرملية الضخمة. على إحدى هذه المرتفعات، وبالقرب من الواحة، وبانفصالٍ عن السلسلة الأساسية، تقف قلعة زعبل القديمة. وهي تذكر المرء بقلاع العصور الوسطى الجاثمة على الهضاب بموازاة نهر الراين. لم نكن قادرين على زيارة هذه القلعة أو الاقتراب منها، لأن سكان تلك المنطقة مشكوك في ولائهم. في واحدة من المناسبات بينما كنا نجول حول تلة تشرف عليها القلعة تم إنذارنا بأن لا نحاول الاقتراب منها.

استمرت إقامتنا الإجبارية في سكاكة من اليوم الثالث والعشرين من شهر مايو وحتى اليوم الثاني من شهر يونيو ١٩٢٢. تبين لنا أن ميزانية الموالين غير قادرة على إعالتنا بأسلوب يناسب شرف الضيوف. ليومين أو ثلاثة أيام عوملنا معاملة عادية، لكن بعد ذلك كانت تأتي وجبات متتابعة لم تكن إلا صحونًا من الرز. في المرة الثالثة أو الرابعة رفضت أنا الأكل الأمر الذي سبب بعض الاضطراب. وفي تلك الليلة قدمت لنا عنز في مقرنا، أُكل جزء منها في ساعة متأخرة من الليل. نحن الآن في منتصف الصيف، واقتتنا على لحم هذه العنز لمدة خمسة أيام، لكن الحظ قاد لنا في اليوم الخامس دوجان الذي كان في زيارة إلى سكاكة، فشاركنا أكل اللحم دون أن يشتبه بالأمر. اشتكى دوجان من عدم وجود مرق اللحم، فهمس له بأن المرق لم يقدم لأنه ذو رائحة. فقلت بصوت عالٍ: «ستجد اللحمة نتنة أيضًا فقد ذبحنا هذا الماعز قبل خمسة أيام». كان دوجان بصدق غير مرتاح للأمر وعبر عن رأيه في الموضوع إلى سلطان. كنا على وشك أن نغادر سكاكة في اليوم التالي، وكان لا يهمنا أي شيء آخر.

عائق واحد كان علينا تجاوزه وهو موضوع مرافقينا، فحديثة [الخريشة] ومثقال [الفايز] مع أتباعهم تركونا منذ كنا في كاف. أما بقية أفراد مجموعتنا فقد كانوا مشحونين إلى الأخير بقصص خطر الطريق إلى العراق، وأظهروا بعض المؤشرات التي تعبر عن عدم رغبتهم في الذهاب أبعد من سكاكة. غالب باشا، جنرالنا الشجاع كان يعيش الخوف من إمكانية وصول الوهابيين، وكان يقضي وقته بالدعاء وقراءة القرآن والأحاديث النبوية. في هذه الحالة، كان من الطبيعي أن يقود هو نفسه فكرة رفض الذهاب إلى

العراق. ودعيت إلى اجتماع لكل المرافقين لعزل الماعز عن الضأن. فالماعز لا يجب بالطبع أن تشارك في أي عملية توزيع للغلة. من الواحد والعشرين شخصًا الذين كانوا يشكلون مجمل بقية مجموعتنا، أثبت تسعة منهم بمن فيهم القادة أنهم من الماعز. وقررنا الاستمرار بالباقين، وهم اثنا عشر شخصًا وانضم إليهم أربعة تم استئجارهم في سكاكة. وبعد ذلك انضم إلينا خمسة من الصيادين الصلب الذين جندناهم في الليلة الأولى من مسيرنا عندما خيمنا عند آبار صوير في أقصى شرق منخفض الجوبة.

إننا الآن في خط سيرنا على مسافة ثلاث مئة وثمانية من الأميال تقريبًا من عمان، وثلاث مئة واثنين من الأميال من كاف، وتقديرًا ثلاث مئة ميل من هنا إلى كربلاء حسب الطريق الذي اتبعناه عندما غادرنا مضيفينا بلا أسف في مساء الثاني من شهر يونيو.

كان مسيرنا لثلاثة عشر ميلًا من سكاكة إلى آبار صوير فوق كتل رملية، وفي الليل خيمنا عند مخيم كبير للصلب. نحن الآن على طرف منخفض الجوبة لكن المنحدر الصخري لسلسلة جبال صوير المحيط به لا طريق فيه مناسب لإبلنا. تأخرت انطلاقتنا في اليوم الثاني بسبب تأخر مرافقينا من الصلب الذين ذهبوا ليبحثوا عن جمالهم، ولذا اتبعنا المنحدر الصخري باتجاه الشمال لمسافة ثمانية أميال عبر ممر أسهل خارج المنخفض إلى أرض حجرية وراءه. قطعنا في بقية ذلك المساء وكامل اليوم الثاني وصباح اليوم الثالث ما يقارب خمسة وخمسين ميلًا، ووصلنا إلى غدير طريفاوي، حيث يتوافر فيه بعض الماء من مطر سابق. كان هذا الغدير يعج بمخلوقات متلوية تشبه الربيان مع ذلك كنا عطشى إلى الحد الذي جعلنا لا نهتم بالأمر. بعد مسير اثني عشر ميلًا وصلنا في منتصف النهار إلى آبار «أبو الدفوف» في مجرى منخفض وادي عرعر الواسع، القليل العمق، وكان المسير في هذه المرحلة الأفضل من الستين ميلًا التي سرناها حتى الآن من بداية هذا الوادي في مرتفعات شرق منخفض الجوبة.

كانت رحلتنا هذه بلا أحداث، فنحن لم نر إنسانًا، فقط بعض الغزلان. وكان ماء غدير أبي الدفوف وافرًا وجيدًا مقارنة بماء غدير الطريفاوي. من عند

هذه النقطة يمتد وادي عرعر باتجاه الشمال، وقد قطعنا جزءه الجنوبي حيث خيمنا تلك الليلة في شعيب رويثا بعد مسير أربعة عشر ميلًا. وفي الصباح وعلى مسافة ستة أميال عدنا إلى دخول وادي عرعر.

يعد وادي عرعر أبرز مجرى محدد بشكل جيد، متعرج من طرفيه في قاع رملي وفيه حياة نباتية غنية. لقد أملنا أن نجد ماء في حفر ماء القطايا على مسافة تسعة أميال من هذه النقطة، لكن بوصولنا هناك وجدنا أن السيول الأخيرة قد ملأت هذه الحفر بالرمل فأسرعنا السير للوصول إلى ماء جديدة في عرعر عند الظهر.

بينما كنا في طريقنا شاهدنا علامات حديثة لمسارات إبل مرت من هنا مؤخرًا، ولأن الماء المتوافر معنا كان قليلًا لذا كان يتوجب علينا الوصول إلى هذه الآبار، وقد سرنا بحذرٍ خشية من أن يكون قد سيطر عليها أحد.

لقد سبقنا الرجال المكلفون بالاستطلاع من مجموعتنا بينما كنا نسير فوق برية وادي عرعر الموحشة وبين ضفتيه القاحلتين التي لا يشاهد ما وراءها. بعد مسافة ما يقرب من أربعة أميال من هنا اكتشف استطلاعنا المكان، وأسرعنا لننضم إليهم خلف الهضبة المنخفضة التي كانوا على قمتها يراقبون تحركات الذين سبقونا عند الماء. جميع التحركات كان يمكن مشاهدتها من خلال المناظير.

كانت المجموعة التي سبقتنا عبارة عن ثلاثة جمال ورجلين، وكانوا يمتحون الماء، ولم يكن بإمكاننا تحديد إن كان أولئك الرجال جزءًا من مجموعة مختبئة في قاع الوادي. قدم كل منا رأيًا حول ما الذي يجب أن نفعله تجاه «العدو» غير مدركين لوجودنا القريب منهم، وقد لاحظناهم وهم يستريحون عند الماء.

قررنا إرسال فرقة لمفاجأتهم من الخلف، وطردهم خارج الوادي، أما الباقون منا فيبقون في مكمن. أربعة من أحسن الجمال اختيرت وأربعة متطوعين انطلقوا عبر المرتفعات. بينما كنا ننتظر حابسين أنفاسنا لنراهم ظهروا خلف الطريدة، وفي الحقيقة أساء جماعتنا تقديرهم للمسافة، فظهروا من الأمام

منحدرين من المرتفع. «العدو»، رجلان فقط، كانا وفي لمح البصر واقفين ممتطين جمليهما ومولين الأدبار ووراءهم رجالنا الأربعة إلا أن جمالنا كانت في حالة عطش وثلاثة منها بركت بشكل مفاجئ عندما وصلت الآبار. لا شيء كان يجعلها تتزحزح. لذا؛ فإن واحدًا من رجالنا تُرِك ليواصل المطاردة نحو الجانب الأيسر من المنخفض حتى ابتعدا عن النظر.

أسرعنا إلى الآبار ووجدنا خلفها غنيمة المُطاردين: جملين يظهر أنهما منهوبان من منطقة الرولة، وقربة ماء، وصحنًا معدنيًّا، وكيس بقل، وكيس رز، وكيس ملح. كيس الملح هذا بعد تشخيصه عرفنا أنه من ممالح الحزل، حيث وكما هو معروف كان يوجد مخيم للوهابيين. من هنا لم يكن هناك شك بأن الرجلين كانا منهم. وكان هروبهما جيدًا، وكان من المثير معرفة ما إذا كانا قد نجحا في الوصول إلى مخيمهما، الذي لا يقل بعده عن مئة ميل دون ماء لأننا حصلنا على قربتهم، ولا توجد آبار بين هذا المكان وآبار الحزل.

حسب مسارنا، فنحن الآن قد سرنا عبر منخفض وادي عرعر ما يزيد على مئتي ميل. ومن هنا سنذهب شمالًا وشمال شرقٍ فوق قفرٍ مرتفع وموحش، الحرارة فيه تزداد كلما تقدمنا نحو تخوم العراق. مسير أربعة عشر ميلًا ذلك المساء وصباح اليوم السابع من يونيو قادتنا لنستقي عند آبار «جديدة الحمير» في «شعيب الحمير» وهو منخفض يتجه شمال - شرق أو شرق - شمال - شرق موازيًا لمنخفض عرعر. هنا رأينا ذئبًا ضخمًا ينسلُّ خلسة من جانبنا. تقدمنا بقوة فوق صحراء واسعة دون أية سمات خاصة، حيث خيمنا بعد مسير ثلاثين ميلًا. خلال رحلتنا من كاف إلى الجوف وبعدها إلى سكاكة ثم إلى كربلاء، كنا نتحرك ونحن في قلق متواصل خوفًا من مقابلة أعداء. وهذا جعلنا طيلة الرحلة لا نجرؤ على إشعال النار في المخيم، لا في الليل ولا في النهار. وخلال الساعات الحارة وقت الظهر وعند القيلولة لم نكن نبني الخيام وكان علينا الاكتفاء باستخدام فرشة صغيرة نمدها فوق رؤوسنا، وبنادقنا تشكل أعمدة لها. بعيدًا عن الحوادث البسيطة، التي ذكرتها لم نقابل بشرًا طوال مسيرنا، واستمر ذلك حتى وصلنا تخوم أرض كربلاء، حيث بدأنا نرى حياة بشرية مرة أخرى.

مسيرة سبعة عشر ميلًا صباح اليوم الثامن من يونيو أوصلتنا إلى خط «شعيب عبيدة»، الذي يبدأ عند مجمّع للمياه على مسافة مئة ميل في المنطقة وراءنا. يسيل هذا الوادي من هنا مارًّا بالقلعة العربية الباقية منذ العصور الوسطى، أي قلعة أُخيضر على حدود الهلال الخصيب، ويسيل إلى بحيرة أبو دبس الكبيرة. في قاع هذا الشعيب، قريبًا من نقطة دخولنا. وصلنا عند آبار نخيب، حيث قضيت - ورغم الحر الشديد - نصف ساعة سارةً في اصطياد طيور الطيهوج الصحراوية التي تدور حول الماء بغض النظر عن أية أخطار ومهما كانت متعبة كما لاحظنا. أما قطعان الغزلان الكبيرة، التي رأيناها خلال الظهيرة، فيبدو أنها مصابة بالحالة نفسها إذ اصطاد الصيادون معنا عددًا منها وأحضروها لنا، بينما وقف واحد منها جامدًا على مسافة ثلاث مئة ياردة، رغم أن واحدًا من العرب أطلق عشر رصاصات باتجاهه. وفي نهاية هذا العرض من عدم نجاح التصويب على الهدف، تراجع الصياد بهدوء مع تنهيدة تعبر عن الغضب.

لقد اتبعنا خط «شعيب عبيدة» المنفرج، متقدمين عبر مرتفعات تدعى «عبارات» وعندها خيمنا، وكانت تبعد ثلاثة عشر ميلًا عن آبار النخيب. في اليوم الثاني، عبرنا منطقة ذات الطبيعة والرتابة نفسها لمسافة أربعين ميلًا، ولكنها تزخر بالغزلان والطيور. مشينا هذه المسافة لنخيم في أرض مرتفعة، ولكن مسيرة ستة وعشرين ميلًا أوصلتنا في منتصف نهار اليوم العاشر من يونيو إلى بقايا قصر أُخيضر، وهو واحد من أروع نماذج قصور الصيد العربية الموجودة، ويقع على ضفة «شعيب عبيدة» حيث توجد المياه بكثرة.

خيمنا في تلك الليلة على مسافة تسعة أميال من هذا المكان، باتجاه أبو دبس، وفي الصباح التالي كنا سعداء بمنظر المنارات وقباب مسجد الحسين الشهيد ابن مؤسس طائفة شيعة الإسلام في كربلاء.

أرسل الحاكم العربي لكربلاء، الذي أرسلنا له مسبقًا نعلمه بوصولنا، مرافقًا ليرحب بنا، وقد عاملونا بكرم بالغ.

هكذا أُنجزت رحلتنا، وتقدمنا إلى الرمادي يوم السابع عشر من شهر

يونيو، حيث غادرت مع الميجور هولت عائدين إلى عمان عن طريق الجو وتركنا مرافقينا يعودون مباشرة عبر الصحراء على ظهور الإبل.

في الأيام الأولى من شهر يوليو عام ١٩٢٢، وكما ذكرت سابقًا أخذ ابن سعود الجوف، أما أصدقاؤنا الشعلان فغادروها، وآمل إلى الأبد[١]. لقد شرفنا مججم، وفرحان، وفراج، ودوجان بإقامة طويلة في عمان بعد ذلك بوقت قصير، حيث عاملناهم بكرم يتجاوز ما عاملونا به رغم أنهم لم يكونوا غير لاجئين بلا مأوى. أما النوري وسلطان فذهبا إلى سورية، حيث من المحتمل أن يتخذها الرولة مكان استيطانهم الدائم.

كانت هذه التطورات سببًا لكثير من الاحتجاج في شرق الأردن الذي كان يعتقد أن ذلك تهديد مباشر له. لذلك لمدة ما يقارب أسبوعين احتشدت قواته في مرتفعات الموقر في حال ترقب للعاصفة القادمة من الشرق. لم تأت هذه العاصفة في حينه، فعادت الأحوال إلى طبيعتها المعتادة مع بداية شهر أغسطس ١٩٢٢.

وعند فجر الخامس عشر من أغسطس جاءت العاصفة كالصاعقة على نحو غير متوقع، حيث تعرضت قرية الطنيب الصغيرة، التي تقع غرب خط سكة الحديد، وتبعد اثني عشر ميلًا عن عمان، وعلى حين غرة، للهجوم عليها من قبل الأخوان والقضاء ذبحًا على جميع سكانها رجالًا ونساءً وأطفالًا. كان عدد القتلى بين خمسة وثلاثين وأربعين في مجملهم. بالمصادفة كانت تمر طائرة فوق المنطقة الأمر الذي أخاف الغزاة الوهابيين الذين قد بدأ قتالهم من بني صخر فتراجعوا بسرعة وعلى غير انتظام. كان خط تراجع هؤلاء المهاجمين مغطًّى بجثث الرجال والخيول والجمال ولعدة أميال باتجاه قصر الخرانة. ومن المؤكد أن أغلبية هؤلاء الذين قطعوا مسافة قد تتجاوز ألف ميل من جوار بلدة شقراء في نجد قد ضلوا طريقهم في الصحراء وقضى عليهم العطش والتعب.

---

(١) غادروها بناءً على طلب الملك عبدالعزيز الذي رأى أنه لم يتم الالتزام بما اتفق عليه. انظر: عوض البادي، «منطقة الجوف والملك عبدالعزيز»، **مصدر سبق ذكره**، ص. ٧٧.

في الوقت الراهن توجد مراقبة شديدة للمنطقة لكي لا يعاد مثل هذا الهجوم، وقد كان لديّ فرصة لمرافقة عدد من طلعات الاستطلاع الجوي في وادي السرحان وحتى كاف وما وراءها. ولكن في شهر سبتمبر ١٩٢٢ تمكّنت قوات عبدالله وبمساندة السيارات المصفحة من احتلال كاف[١]. ماذا يخبئ المستقبل لنا في حدود شرق الأردن؟ يبقى أمر للتدبر ولكن ابن سعود من المستبعد أن يُرخي قبضته على الجوف أو يتخلى عن مطالبته بوادي السرحان أو قريات الملح[٢][٣].

(١) أرسلت الحكومة الأردنية في منتصف شهر سبتمبر قوة مؤلفة من ٢٥٠ جنديًا وضابطًا لاحتلال كاف التي كانت ما تزال تحت سيطرة الشيخ النوري الشعلان، وقد تم لها ذلك دون مقاومة، ولكي لا يتم التصعيد العسكري في المنطقة طلبت الحكومة البريطانية من السلطان عبدالعزيز آل سعود أن يتم تحديد عائدية هذه المنطقة عن طريق المفاوضات، وقد تم الاتفاق على ذلك، فبدأت عملية مفاوضات مطولة انتهت باتفاقية حدا الموقعة بتاريخ ٢ نوفمبر ١٩٢٥ بين الحكومة البريطانية والملك عبدالعزيز حول تعيين الحدود بين نجد وشرقي الأردن، فأصبح وادي السرحان ضمن حدود المملكة العربية السعودية.

(٢) وهذا ما حصل بالضبط.

(٣) النص المعرب:

H. St. J. Philby, "Jauf and the North Arabian Desert", **The Geographical Journal**, Vol. LXII, No.4, Oct., 1923: 241-259.

المصادر والمراجع

● أولًا: العربية والمعربة:

- أورنبري، كاي. **عاشق الصحراء: سيرة الرحالة الفنلندي جورج أوغست والن.** ترجمة مارية الهلالي، تقديم عوض البادي؛ الرياض: دار الفيصل، ٢٠٠٨.
- أورنبري كاي، «الرحالة الفنلنديون إلى الشرق العربي». ترجمة يسري يوسف. **الدارة.** السنة الخامسة والثلاثون، العدد الأول. (محرم ١٤٣٠هـ)، ١٤٧-٢٠٤.
- أويتنج، يوليوس. **رحلة داخل الجزيرة العربية.** تحرير كرستين وأوفة بفلمن، ترجمة وتعليق سعيد فايز السعيد. الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- البادي، عوض. **الرحالة الأوروبيون في شمال وسط الجزيرة العربية: منطقة حائل.** الجزء الأول. بيروت: دار برزان، ٢٠٠٤.
- .... **الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف ووادي السرحان.** بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٢.
- .... «أهمية كتابات الرحالة الأوروبيين لتاريخ منطقة الجوف». **الجوبة.** العدد ١٤، (محرم ١٤٢٧هـ / يناير ٢٠٠٦م)، ١٨-٢٩.
- .... «صفحات من الاستشراق الفنلندي». **مجلة الفيصل.** العدد ٢٦٦. (نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٨)، ٩٩-١٠٦.
- ....، «الملك عبدالعزيز، ومنطقة الجوف ووادي السرحان:

وثيقة تاريخية». **مجلة الدرعية**. العددان الثالث والرابع، (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م)، ٢٢٥-٢٣٣.

- بدول، روبن، **الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية**. ترجمة عبدالله أدم نصيف. الرياض: المؤلف، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- بدوي، عبدالرحمن. **موسوعة المستشرقين**. ط ٣. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣.
- برايشا – فوتييه، آرثر. **النمسا والشرق العربي**. ترجمة يونس إبراهيم التميمي. عمان: المطبعة الاقتصادية، ١٩٨١.
- بلنت، الليدي آن. **رحلة الى بلاد نجد**. ترجمة محمد انعم غالب. الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٩٧٨.
- .... **قبائل بدو الفرات عام ١٨٧٨م**. ترجمة أسعد الفارس ونضال خضر معيوف. دمشق: دار الملاح للطباعة والنشر، ١٩٩١م.
- .... **رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية**. ترجمة وتعليق أحمد إيبش. دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٥.
- البلوي، مطلق. **العثمانيون في شمال الجزيرة العربية ١٣٢٦-١٣٤١هـ/ ١٩٠٨-١٩٢٣م**. بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٧.
- بوركهارت، جون لويس. **رحلات في شبه جزيرة العرب**. ترجمة عبدالعزيز بن صالح الهلابي وعبدالرحمن عبدالله الشيخ. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- بيركهارت، جون لويس، **رحلات في سورية والبلاد المقدسة**. ترجمة شاهر حسن عبيد. دمشق: دار الطليعة الجديدة، ٢٠٠٧.
- بيك، فردريك ج.، **تاريخ شرقي الأردن وقبائلها**. تعريب بهاء الدين طوقان. عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ/ ١٩٨٩م.
- بيرين، جاكلين. **اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من المغامرة**. نقله الى العربية قدري قلعجي وتقديم حمد الجاسر. بيروت، الرياض: منشورات الفاخرية، ودار الكاتب العربي، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

- الجاسر، حمد. **في شمال غرب الجزيرة: نصوص، مشاهدات، انطباعات.** الطبعة الثانية. الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .
- .... **رحالة غربيون في بلادنا.** الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤١٧هـ.
- .... **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية - شمال المملكة.** الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٧هـ. ٣ أجزاء.
- حماد، خيري. **عبدالله فيلبي: قطعة من تاريخ العرب الحديث.** بيروت: منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، ١٩٦١.
- الحسن، حمدان عجيريف. **النباتات البرية في مراعي شمال المملكة العربية السعودية.** الرياض: وزارة الزراعة، ١٤٢٧هـ.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله. **معجم البلدان.** تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠.
- بن خلدون، عبدالرحمن. **تاريخ ابن خلدون.** مج ٢. بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، ١٩٧٩.
- ابن خميس، عبدالله بن محمد. **معجم جبال الجزيرة.** الرياض: المؤلف، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م. ٥ أجزاء.
- الزركلي، خير الدين. **الأعلام.** ط١٧. بيروت: دار العلم للملايين، ٢٠٠٧.
- زكريا، أحمد وصفي، **عشائر الشام.** ط٢. دمشق: دار الفكر، ١٩٨٣.
- الزعارير، محمد. **إمارة آل رشيد في حائل.** بيروت: دار بيسان، ١٩٩٧.
- السديري، عبد الرحمن بن أحمد. **الجوف: وادي النفاخ.** الجوف: مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، د.ت.
- الشراري، سليمان الأفنس. **السمح** . طبرجل: المؤلف، ١٩٨٧.
- .... **الدحة: رقصة الحرب والسلم.** طبرجل: المؤلف، ١٤١٨هـ.
- الصويان، سعد العبدالله، «أدب البدو في كتابات الرحالة والمستشرقين»(١). **جريدة الحياة.** العدد ١٢٢٧٢. (١ اكتوبر ١٩٩٦م).

- عبيد، جبار يحيى. **التاريخ السياسي لإمارة حائل**. بيروت: الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٣.

- العثيمين، عبدالله الصالح. **نشأة إمارة آل الرشيد**. الرياض: جامعة الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

- العطية، معاشي ذوقان. **حدائق الجوف**. الجوف: المؤلف، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

- بن غنام، حسين، **تاريخ نجد**. تحقيق ناصر الدين الأسد، ط٤. القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٤.

- فالين، جورج اوغست. **صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر**. ترجمة سليم شبلي ومراجعة يوسف ابرهيم يزبك. بيروت: منشورات أوراق لبنانية، ١٩٧١م.

- الفيروزابادي، محمد ابن يعقوب ابن محمد الشيرازي. **القاموس المحيط**. ط٤. بيروت: دار الرسالة، ١٩٩٤.

- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبدالله. **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- المسعر، عارف مفضي. **الجوف**. سلسلة هذه بلادنا (١٨). الرياض: الرئاسة العامة لرعاية الشباب، ١٤٠٨هـ.

- موسى، سليمان. **إمارة شرقي الأردن: نشأتها وتطورها في ربع قرن ١٩٢١-١٩٤٦**. عمان: منشورات لجنة تاريخ الأردن، ١٩٩٠.

- مؤلف مجهول. **كيف كان ظهور شيخ الاسلام محمد بن عبدالوهاب**. دراسة وتحقيق عبدالله الصالح العثيمين. ط٢. الرياض: المؤلف، ١٩٩٤.

- المعيقل، خليل بن إبراهيم. **دراسة لآثار منطقة الجوف**. الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٤هـ.

- مونرو، اليزابيث. **فيلبي الجزيرة العربية**. ترجمة أحمد عمر شاهين. الرياض: مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

- نولده، إدوارد. **الأوضاع السياسية في وسط الجزيرة العربية عند نهاية القرن التاسع عشر**. تقديم وتعريب عوض البادي. ط ٢. الرياض: دار بلاد العرب للنشر، ٢٠٠٢.
- هانسن، توركيل. **من كوبنهاجن الى صنعاء**. ترجمة محمد أحمد الرعدي. بيروت: دار العودة، ١٩٨٣م.
- وزارة المعارف، وكالة الآثار والمتاحف. **آثار منطقة الجوف**. الرياض: وكالة الآثار والمتاحف، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- ونستون، إيتش. في. إف.، **ليدي آن بلنت، السيرة الذاتية**. بيروت ولندن: دار برزان للنشر، ٢٠٠٣.

● ثانيًا: اللغات الاجنبية:

- Allan, Mea. **Palgrave of Arabia**. London: Macmillan 1972.
- Archer, Rosemary and James Fleming. ed. **Lady Anne Blunt: Journals and Correspondence 1878-1917**. Cheltenham: Alexander Heriot & Co. Ltd, 1986.
- Bauer, Karl Joachim. **Alois Musil. Wahrheitssucher in der Wüst.** Wien: K 1989.
- Blunt, Lady Anne. **A Pilgrimage To Negd**. London: Century publishing, 1985.
- Brent, Peter. **Far Arabia: Explorer of the Myth**. London, Melbourne, New York: Quarter Books, 1977.
- Burckhardt, John Lewis. **Travels in Syria and the Holy Land.** London: John Murray, 1822.
- .... **Notes on the Bedouins and Wahabys**, 2Vols. London: Henry Colburn and Richard Bentley, 1831.
- Butler. S. S. "Baghdad to Damascus via El Jauf, Northern Arabia", **The Geographical Journal**, Vol. XXXIII. No. 5. May, 1909. pp 516-533.
- Carruthers, Douglas. "Captain Shakespeare's Last Journey", **The Geographical Journal**, Vol. 59, No. 5 (Jun., 1922): 321-34.
- Euting, Julius. **Tagbuch Einer Reise in Inner-Arabien**. Leiden: E.J. Brill, 1896.

- Feigl Erich. **Musil von Arabien. Vorkämpfer der islamischen Welt. Vienna / Munich: Amalthea-Verlag, 1985.**
- Forder, A. **With the Arabs in Tent and Town: An Account of Missionary Work, Life and Experiences in Moab and Edom.** London: Marshall brothers, 1902.
- Forder, Archibald. **Ventures Among The Arabs in Desert, Tent And Town: Thirteen Years of Pioneer Missionary Life With The Ishmaelites of Moab, Edon and Arabia**. Boston: W.N. Hartshorn, 1905
- Forder, A. **In Brigands' Hands and Turkish Prisons, 1914-1918.** London: Marshall brothers, 1920.
- Forder, A. **Daily life in Palestine: Sites, Scenes and Doings in the Holy Land** (London: Marshall brothers, 1912).
- Forder, A. **In and About Palestine with Notebook and Camera.** London: R. T.S., 1919.
- Forder, A. **Petra: Perea: Phoenicia.** London: Marshall brothers, 1923.
- Freeth, Zahra & H. V. F. Winstone, **Explorers of Arabia from the Renaissance to the End of the Victorian Era. London: Allen and Unwin, 1978.**
- Guarmani, Carlo. **A Journey from Jerusalem to Anaiza in Qasim.** Trans. by Capel Cure, With Introduction by Douglas Carruthers. London: The Argonaut Press,1938.
- .... **El Kamsa, il Cavallo Arabo Purosangue.** 1864.
- ....**The pure-bred Arabian Horse.** Translated from the Italian by Philip Ward. Jeddah: Immel Publishing, 1984.
- ....**Al Kamsa: The Purebred Arabian Horse; a Study of Sixteen Years in Syria, Palestine, Egypt and the Arabian Deserts & Journey From Jerusalem to Northern Najd**. Introduced and Annotated by Andrew K. Steen. Seville, Spain: A Tale of breed, 2004.
- Dickson, Harold R. P.. **The Arab of the Desert**. London: George Allen & Unwin, 1949.
- Doughty, Charles M.. **Travels in Arabia Deserta**. Vol.2. Cambridge: The University Press, 1888.
- Habib, John. **Ibn Saud's Warriors of Islam.** Leiden: E. J. Brill, 1978. - Hogarth, David George. **The Penetration of Arabia: Record of the Development of Western Knowledge concerning the Arabian Peninsula**. New york: frederick A. Stokes Co, 1904.

- Hogarth D. G. "Gertrude Bell's Journey to Hayil". **The Geographical Journal**. Vol. 70, No. 1 (Jul., 1927), pp. 1-17.
- Holt. A. L. "Future of The North Arabian desert". **The Geographical Journal**, Vol: LXII, No. 4, (Oct., 1923), pp. 259-271.
- Holma, Harri. "Georg August Wallin 1811-1852". **Studia Orientalia.** Vol. 17, No. 1, 1952, pp. 3-16.
- Huber, Charles. **Journal d'un Voyage en Arabie (1883-1884).** paris,1891.
- Huber, Charles. "voyage dans L'Arabie Centrale: Hamad, Sammar, Qacim, Hedjaz,1878-1882", **Bulletin de la Societe de Geographie.** Vol. 5. 1884.
- Longford, Elizabeth. **A Pilgrimage of Passion: The life of Wilfred Scawen Blunt**. London: Weidenfeld And Nicolson, 1979.
- Mead, William Richard. "G. A. Wallin and the Royal Geographical Society". **Studia Orientalia**. Vol. 23, No. 3. 1958, pp. 3-10.
- Musil, Alois. **The Northern Hegaz: A Topographical Itinerary**. New York: AMS Press, 1926.
- .... **The Northern Nagd: A Topographical Itinerary**. New York: AMS Press, 1928.
- .... **Arabia Deserta: A Topographical Itinerary**. New York: AMS Press, 1927.
- .... **Manners and Customs of the Rwala Bedouins**. New York: AMS Press, 1928.
- Navratilova, Hana & Roman Misek. "Alois Musil and the Rise of Czech Oriental Studies: A perspective of an Non-classical Orientalism". **Archiv Orientální (ArOr).** Vol. 70, No.4, 2002, pp. 558-564.
- Niebuhr, Carsten. **Travels through Arabia and Other Countries in the East,** 2vols. Trans. by Robert Heron. Edinburgh, 1792.
- Nolde, Baron Eduard. **Reise Nach Innerarabien, Kurdistan und Aremenien 1892.** Braunschweig: Druck und Verlag Von Friedrich Vieweg und Sohn,1895.
- Oldřich, Klobas. **Alois Musil zvaný Músa ar Rueili**. Brno: Akademické Nakladatelství CERM.S.r.o, 2003.
- Oppenheim, Max Freiherr Von. **Die Beduinen**. Band I. Leipzig: Otto Harrssowitz, 1939.

- Öhrnberg Kai. **G. A. Wallin: A Avikon Vaeltaja.** Helsinki: Otava, 2007.
- .... "Suomalaiset Arabiankavijat" **in matka-arkku**. edited by Markku Loytonen. Helsinki: Suomalaisen Kirjalli suuden Seura,1989.
- Palgrave, William Gifford. **Personal Narrative of a Year Journey Through Central and Eastern Arabia 1862-63,** 2 vols. London & Cambridge: Macmillan and CO.,1865.
- Palgrave, William Gifford. **Personal Narrative of a Year Journey Through Central and Eastern Arabia (1862-63).** London: Darf Publishing Limited, 1985.
- Pearson, Helen Louise Pearson, "Relations Between Julius Euting and Charles Huber In Arabia", MA Dissertation, University of Manchester, UK, 1993. (Unpublished).
- Philpy, H. St. J. "Jauf and the North Arabian Desert". **The Geographical Journal**. Vol. LXII, No. 4, (Oct., 1923), 241-259.
- Prochazka, Theodore. "Alois Musil vs. T. E. Lawrence". **Archiv Orientální (ArOr).** Vol. 63, No. 4, 1995, pp. 435-439.
- Al-Rashid, Madawi. **Politics in an Arabian Oasis.** London: I. B. Tauris, 1991.
- Al-Rashid, Madawi. "North Arabia through Musil's Telescope". **Archiv Orientální (ArOr).** Vol. 63, No.4, 1995, pp. 446- 454.
- Rypka, Jan. "Alois Musil: June 30th 1868 - June 30th 1938". **Archiv Orientální (ArOr),** Vol.10, No.1, 1938, 1-34.
- Seetzen,U. "Beitrage zur Geographie Arabiens". in **Von Zach's Monatliche Correspondenz**. Vol. XVIII, Nov., 1808, pp. 383-389.
- Seetzen, U. **A Brief Account of the Countries Adjoining the Lake of Tiberias, the Jordan, and the Dead Sea.** London: Palestine Association of London, 1810.
- Shaz, Rashid, **In Pursuit of Arabia**. New Delhi: Milli Publications, 2003.
- Wallin, Georg August. **Travels in Arabia (1845 and 1848)**. Cambridge: The Oleander Press, 1978.
- .... "Notes taken during a Journey through Part of Northern Arabia". **Journal of the Royal Geographical Society**. Vol. 20, 1851, pp. 293-344.
- .... "Narrative of a Journey from Cairo to Medina and Mecca, by Suez, Araba, Tawila, al-Jauf, Jubbe, Hail, and Nejd, in 1845". **Journal of the Royal Geographical Society**, Vol. 24, 1854, pp.115-207.

- .... "Narrative of a Journey from Cairo to Jerusalem, via Mount, Sinai". **Journal of the Royal Geographical Society**. Vol. 25, 1855, pp. 260-290
- Ward, Philip. **Ha'il: Oasis city of Saudi Arabia**. Cambridge: The Oleander Press, 1983.
- Winstone, H. V. F. **The Illicit Adventure**. London: Jonathan Cape, 1982.
- ....**Lady Anne Blunt, A Biography**. London: Barzan Publishing, 2003.



الفهارس العامة

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ث

ج

ح

خ

د

غ

م

ن

هـ

و

ي

فهرس القبائل والجماعات

س

ش

ص

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

م

ن

فهرس الأماكن

ت

ث

ج

ح

ذ

ر

ز

س

ش

ص

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي



هذا الكتاب

تمثل كتابات الرحالة الأوربيين مصدراً مهماً من مصادر تاريخ البلاد العربية والتي لا غنى عنها لأي باحث أو دارس في شؤون المناطق التي زاروها بهدف الاطلاع على أوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وهذا الكتاب الموسوعي يضم بين دفتيه كل ما كتبه هؤلاء الرحالة عن شمال الجزيرة العربية لا سيما منطقة الجوف في شمال المملكة العربية السعودية والتي كانت البوابة الرئيسة لعبور هؤلاء الرحالة إلى مناطق الجزيرة العربية الأخرى.

يقدم هذا الكتاب تعريفاً بهؤلاء الرحالة والمعلومات التي كتبوها عن هذه المنطقة الإستراتيجية في الفترة ما بين ١٨٤٥-١٩٢٢م.

وهذا الكتاب لا شك سيكون مصدراً أساسياً عن كل جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية لهذه المنطقة.

نادي الجوف الأدبي الثقافي